

محمد قاسم الهاشمي



الصائغ الساطعة النور
تفسير أهل البيت عليهم السلام

مكتبة الحقوق محفوظة ومكتبة

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

الطبعة الثالثة

١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م

منشورات

مكتبة التراث الإسلامي

الجمهورية اليمنية - صنعاء

ت: ٥١٣٦٥٠

المصباح الساطع للذنور

تفسير أهل البيت عليهم السلام

الامام زيد بن علي (ع) الامام القاسم بن ابراهيم (ع) الامام محمد بن القاسم (ع)
(٥٧٢ - ١٢٢ هـ) (١٩٦ - ٢٤٦ هـ) (٢٨٤ هـ)

الامام الهادي الى الحق يحيى بن الحسين (ع) الامام ابو الفتح الديلمي (ع) الامام الحسين بن القاسم الهباني (ع)
(٢٩٨ - ٢٤٥ هـ) (٤٥٠ هـ) (٣٧٦ - ٤٠٤ هـ)

الجائية — ص

جمع وتأليف

العلامة عبدالله بن أحمد بن ابراهيم الشرقي (١٠٦٢ هـ)

الجزء الثالث

تحقيق

محمد قاسم الهاشمي عبد السلام عباس الوجيه

أشرف عليه

السيد العلامة صلاح بن محمد الهاشمي

مكتبة التراث الإسلامي

الجمهورية اليمنية — صعدة — مفرق الطلح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



سورة الجاثية

تسع وثلاثون آية في الكوفي ، وست في عدد الباقي (مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله : ﴿حَم تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ﴾ قد مر تفسيره في السورة الأولى ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لَا يُقَلَّبُ ، القادر على ما يشاء من تزيل الكتاب وغيره ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل شيئا مع اقتداره إلا بحكمة وصواب وتزيل الكتاب من جهة حكمته ، ورحمته لعباده

وإن جعلت حم تعديدا للحروف ^(١) كان ﴿تَزِيلُ الْكِتَابِ﴾ مبتدأ وما بعده الخبر ويجوز أن تكون ﴿حم﴾ قسما ، وتزِيلُ الْكِتَابِ مبينا له ، وجواب القسم ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ﴾ والتقدير : وحم الذي هو تزِيلُ الْكِتَابِ إن الأمر كذا وكذا .

وقوله : ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يجوز جعلهما صفة للكتاب ^(٢) ويجوز جعلهما صفة لله تعالى ثم قال سبحانه : ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : عبر ودلائل على قدرة خالقها ، والمراد للمؤمنين ولغيرهم ، وإنما خصهم لأنهم أهل الاعتبار .

(١) لم يذكر الوجه الأول ، حتى يستقيم حرف العطف في قوله: (وإن جعلت حم تعديدا) الخ ، والوجه الأول كما ذكره الزمخشري هو : إن جعلت حم اسما مبتدأ مخبرا عنه بـ ﴿تَزِيلُ الْكِتَابِ﴾ لم يكن بد من حذف مضاف ، تقديره : تزِيلُ حم تزِيلُ الْكِتَابِ ، ومن الله صلة للتزِيلِ . الكشاف ٢٨٤/٤ . ويصح أيضا أن يكون حم خيرا مبتدأ محذوف تقديره : هذه حم، وتزِيلُ الْكِتَابِ مبتدأ وخبره محذوف تقديره : واقع من الله (٢) فإذا كانا صفة للكتاب كان المعنى (هو : كتاب عزيز ممتنع ، ولا يصل إليه بتحريف وتبديل ومعارضة ، وهو حكيم يشتمل على الحكمة . (التهذيب للحاكم خ) .

وفي التجريد : يجوز أن لا يقدر خلق مضافا ، ويجوز أن يقدر ، ويدل عليه ﴿ وفي خلقكم ﴾ حيث أظهر لفظ خلق ، فعلى الأول تكون الآيات في ما خلق في السموات والأرض ، كالنيرات ، والأنهار والأشجار ، والملائكة والثقيلين ، وعلى الثاني تكون الآيات خلق السموات والأرض^(١).

(١) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله تعا
لى : وما يئث من ذابة ﴿ معناه : يفرق .

وقوله تعالى ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ معناه : بين أيديهم . وقوله تعالى ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ معناه : يخافون . وقوله تعالى ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر ﴾ معناه : على طريقة
وسنة .

وقوله تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ﴾ معناه : اكتسبوها ، وقوله تعالى ﴿ سواء عذابهم ومأقهم ﴾ معناه : يبعث المؤمن على إيمانه ، والكافر على كفره . وقوله تعالى ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال : كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زمانا في الجاهلية ، فيجد حجرا أحسن منه فيعبد الآخر ، ويترك الأول
وقوله تعالى ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ معناه : قد جثت على الركب .

وقوله تعالى ﴿ إنا كنا نستنسخ ﴾ معناه : نكتب . وقوله تعالى ﴿ اليوم ننساكم ﴾ معناه : نترككم .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياشي عليه السلام ما لفظه : بسم الله الرحمن الرحيم
تأويل قول سيدنا عز وجل : ﴿ وما يئث من ذابة ﴾ فاليث : هو النشر والتكثير ، قال الحسين بن علي صلوات
الله عليه :

عظيم هولاء والناس فيه حيارى ، مثل مبثوث الفراش

﴿ وتصريف الرياح ﴾ أي : تقلبيها وترديدها .

ومعنى ﴿ ثم يصير مستكبرا ﴾ والإصرار : هو الإقامة على المعصية ، ومعنى ﴿ عذاب من رجز أليم ﴾ أي : من غضب وجميع ، قال الشاعر :

جعلنا القتل جزاء عليهم فأصبحت ديارهم للطعن منهم بلاقعا

ومعنى ﴿ سخر لكم البحر لتحري الفلك فيه بأمره ﴾ أي : سهل لكم ويسر ، قال الشاعر :

وسخر لكم من جن الملائكة تسعة قياما لديه يعملون بلا أجر

والفلك : هي السفن ، ومعنى ﴿ على شريعة من الأمر ﴾ أي : على ملة ومذهب من أمر الله .

ثم قال تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أي: أجسامكم، وما فيها من عجائب الحكيم والصور والألوان، والتقل من حال الطفولية، إلى الاكتهال والشيخوخة

قال في التحريد: وفي خلقكم من تراب، ثم من نطفة إلى أن يصير إنسانا، وغير ذلك من تفاصيل خلق الإنسان وحواسه ﴿وَمَا يَتُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾ على وجه الأرض من أصناف الحيوانات المختلفة في الصور والهيئات^(١)، والبث: هو النثر والتكثير، قال زين العابدين علي بن الحسين عليها السلام:

عظيم هـوله والناس فيه حيارى مثل مبثوث الفراش

وقوله تعالى: ﴿آيَاتٍ﴾ أي: دلائل ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بخالقهم لا يشكون فيه، أي: يعلمون علما لا يخالطه شك، فيعلمون أنه تعالى موجود قادر عالم حي واحد وسائر صفاته.

ومعنى ﴿الذين اجترحوا السيئات﴾ أي: اكتسبوا ﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم﴾ من قرأ (سواء) بالنصب فالتأويل: أن الله لا يجعل محياهم ومماتهم محيا أوليائه، أو حياتهم لا تنفعهم، وموتهم لا ينفعهم، فحياتهم مورت لا يكسبون فيها طاعة، ولا يخرجون من معصية، ومعنى ﴿اتخذ إلهه هواه﴾ يعني: من هوى عبادة الأصنام.

ومعنى ﴿فأضلله الله على علم﴾ أي: يعلم أنه يستحق أن يسيحه بالضلالة. ومعنى ﴿لا ريب فيه﴾ أي: لا شك ﴿يخسر المبطلون﴾ قد مضى تفسير الخسران في غير السورة، وقد تجاوزنا كثيرا من التفسير لما قدمنا في أوله مما هو شبيه بما تركنا، وفيه كفاية عن التردد والتكرير.

ومعنى ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ أي: مجتمعة، والجثا: هي الجماع، والعرب تسمي السراب إذا اجتمع وارتفع: جثوة، وكومة، قال سيد العابدين صلوات الله عليه:

فما إن نر إلا جثا قد ثوروا بها مسنمة تسفي عليها الأعاصر

ومعنى قوله: عز وجل: ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ أي: تدعى إلى حسابها، ومعنى قوله: ﴿إننا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ النسخ: هو الكتاب لما كانوا يفعلون، ومعنى ﴿مستقين﴾ أي: بموقفين، وأيقن واستيقن أمرهما واحد في اللغة. ومعنى ﴿هزوا﴾ أي: لعبوا ولهووا، ومعنى ﴿ولا هم يستحقون﴾ أي: لا يستغاثون ولا يستعطفون، قال الشاعر: ويبقى الرد ما بقي العتاب. ومعنى ﴿وله الكبرياء﴾ أي: العظمة والقوة.

(١) وهو معطوف على المضاف الذي هو خلق، وليس على المضاف إليه الذي هو الضمير، وذلك لأن المضاف إليه ضمير متصل بمرور يقبح العطف عليه، استقبحوا أن يقال: مررت بك وزيد، وهذا أبوك وعمرو، وكذلك إن أكدوه كرهوا أن يقولوا: مررت بك أنت وزيد. انظر الكشاف ٢٨٤/٤. ولهذا طعنوا في قراءة حمزة ﴿تسألون به والأرحام﴾ بالجر.

ثم قال تعالى : ﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ وفي قراءة عبد الله (وفي اختلاف الليل والنهار) وهذا الاختلاف يقع على وجوه أحدها : تبدل النهار بالليل ، وبالضد منه وثانيها : أنه تارة يزداد طول النهار ، وتارة بالعكس ، وبمقدار ما يزداد في النهار الصيفي يزداد في الليل الشتوي ، وثالثها : اختلاف مطالع الشمس في أيام السنة ^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ أي : المطر ؛ لأنه سبب الرزق ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالجدب ، وهو يدل على صحة القول بالفاعل المختار من وجوه أحدها : إنشاء السحاب ، وإنزال المطر منه ، وثانيها : تولد النبات من تلك الحبة الواقعة في الأرض ، وثالثها : تولد الأنواع المختلفة ، وهي ساق الشجرة وأغصانها ، وأوراقها ، ثم تلك الثمرة منها : ما يكون القشر محيطاً باللب كالجوز واللوز ، ومنها : ما يكون اللب محيطاً بالقشر كالشمس والخبوخ ، ومنها : ما يكون خالياً عن القشر كالتين ، فتولد أقسام النبات على كثرة أصنافها ، وتباين أقسامها — يدل على صحة القول بالفاعل المختار ، الحكيم الرحيم ، وبطلان قول من يقول بالعلل والطبع ، ونحو ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿وَتَضَرِّفُ الرِّيَّاحُ﴾ أي : تقلبها وتعاقبها جنوباً وشمالاً ، وقبولا ودبوراً ، منها الحارة والباردة ، ومنها : الرياح النافعة والرياح الضارة ^(٢) .

ولما ذكر الله تعالى هذه الأنواع الكثيرة من الدلائل قال سبحانه : ﴿إِنَّمَا آيَاتُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي : يكون لهم عقول ؛ لأن النظر في هذه الحوادث من النصفين يخلص معه اليقين ، ويحكم به العقل والعلم ؛ لأنه لا بد له من صانع حكيم ، وإنما عجز الأولى بالمؤمنين ، والثانية بيوقنون ؛ لأن الثانية تكون أجلى [إما بانضمامها إلى ما قبلها ، وإما لأن معرفة الإنسان بأحوال نفسه أجلى ، وعجز الثالثة بيعقلون ؛ لأنها

(١) ذكر الحاكم في التهذيب بدلا عن الوجه الثالث فقال : وقيل : اختلاف أحدهما نور ، والآخر ظلمة .

(٢) ومثله في التهذيب فقال : (جعلها مرة شمالاً ، ومرة صبا ، ومرة جنوباً ، ومرة دبورا عن الحسن ، وقيل : يجعلها مرة عذاباً ، ومرة رحمة عن قتادة ، وقيل : رخاؤها وعصوفها ، وحرارتها وبرودها) .

أجلى^(١) مما تقدم لانضمامها إليه ، والله أعلم

قال الرازي : إنه تعالى ذكر في هذا الموضع ثلاث مقاطع أولها : ﴿يُؤْمِنُونَ﴾
وثانيها : ﴿يُوقِنُونَ﴾ وثالثها : ﴿يَعْقِلُونَ﴾ وأظن أن سبب هذا الترتيب أنه قيل :
إن كنتم مؤمنين ، فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين بل أنتم من
طلاب الجزم واليقين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين ، ولا من
الموقنين فلا أقل أن تكون من زمرة العاقلين فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل^(٢) . اهـ

وقوله تعالى : ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى الآيات المتقدمة ، ومعنى
﴿نَتْلُوهَا﴾ نقرأها ﴿عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي : تلاوة ملتبسة بالحق ، والغرض الصحيح
، وهو هداية العباد ، وإنذارهم ، وقيل : المراد من قوله : ﴿بالحق﴾ هو أن صحتها
معلومة بالدلائل العقلية ، وإذا كان كذلك كان قوله : ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك
بالحق﴾ من أعظم الدلائل على الترغيب في علم الأصول ، وتقرير المباحث العقلية .

ثم قال تعالى : ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي : بعد آيات الله ،

(١) ما بين القوسين نقص في النسخة أ ، وهو موجود في النسخة ب .

(٢) انظر تفسير الرازي الكبير ٢٧/٢٥٩ ، ٢٦٠ .

قال الحاكم الجشمي في تفسير التهذيب ، في أحكام هذه الآيات :

(يدل قوله : ﴿تزييل الكتاب﴾ على حدث القرآن ، لأن ما كان قديما ، يستحيل عليه الإنزال ، ويدل جميع ما
ذكر على صانع حكيم ، ووجه الدلالة من وجهين : أحدهما — أن ما يختلف من الأحوال ويتحدد ، ولا يقدر
عليها الواحد منا ، فلا بد لها من صانع حكيم .

والثاني : أن هذه الأشياء محدثة ، لأنها لا تخلو من المحدثات ، ولا تتقدمها ، وإذا كانت محدثة ، فلا بد لها من
محدث قادر عالم ، حي ، سميع ، بصير ، قديم ، ليس بجسم ولا عرض ، ولا يشبهه شيء ، ولا يجوز عليه .
يختص الجسم كالجوارح والأعضاء ، ولا يدرك بشيء من الخواص ، وأنه واحد ليس معه قديم ، وأنه حكيم لا
يفعل إلا الحسن ، ولا يفعل القبيح ، فيعلم أن القبيح فعل غيره ، وإذا كلف فلا بد له أن يجازي ، وإذا علم أن
الشريعة لطف فلا بد له أن يبين بأفعاله كما ذكر ، ويدل على جميع صفاته ، إما بنفسه ، أو بواسطة ،
وتفصيل ذلك يطول ، وهو مذكور في كتب المشائخ . وتدل على أن المعارف مكتسبة ، إذ لو كانت ضرورية
لكان نصب الدليل عبثا .

كقولهم : أعجبني زيد وكرمه ، أي : كرم زيد ، والمعنى : أحسن الحديث حديث الله وآياته ، فإن لم يؤمنوا به فلا حديث إلا ما هو دونه ، يعني : أن من لم ينتفع بهذه الآيات فلا شيء بعده يجوز أن ينتفع به ، وأبطل بهذا قول من يزعم أن التقليد كاف ، وبين أنه يجب على المكلف التأمل في دلائل دين الله .

ثم اعلم أنه تعالى لما بين الآيات للكفار ، وبين أنهم بأي حديث بعدها يؤمنون إذا لم يؤمنوا بها مع ظهورها — أتبعه بوعيد عظيم لهم فقال سبحانه : ﴿ وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ الويل : الهلاك ، والأفَّاك : الكذاب ، والأثيم : المبالغ في اقتراف الآثام .

واعلم أن هذا الأثيم له مقامان الأول : أن يبقى مصرا على الإنكار والاستكبار فقال تعالى : ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ من إصرار الحمار على العانة ^(١) وهو أن ينحى عليها صاراً أذنيه ، أي : يقيم على كفره ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ عن الإيمان بها معجبا بما عنده ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ بشارة توبيخ واستهزاء .

قيل : نزلت في النضر بن الحارث ^(٢) كان يشتري من أحاديث العجم يشغل الناس بها عن استماع القرآن ، والآية عامة في من كان مضارا للدين .

(١) قال في حاشية : العانة : هي جماعة الأتْن الوحشية ، وفي لسان العرب (ترتيب يوسف خياط) ٩٣٤/٢ ، والعانة : القطيع من حمر الوحش ، والعانة : الأتان ، والجمع منه عون ، وقيل : وعانات ، وانظر الكشف ٤٣٧/٣ .

(٢) انظر الكشف ٤٣٧/٣ . والنظر بن الحارث بن علقمة ، بن كلدة ، بن عبد مناف ، من بني عبد الدار ، من قريش ، صاحب لواء المشركين ببدر ، كان من وجوه قريش وشياطينها ، له إطلاع على كتب الفرس وغيرهم ، وقرأ تاريخهم في الحيرة ، قيل : هو أول من غنى على العود بأخان الفرس ، ولما ظهر الإسلام استمر على الجاهلية ، وأذى رسول الله ﷺ كثيرا ، وكان إذا جلس النبي مجلسا للتذكير بالله ، والتجذير من مثل ما أصاب الأمم الخالية من نعمة الله جلس النضر بعده ، فحدث قريشا بأخبار ملوك فارس ، ورستم وإسفنديار ، ويقول : أنا أحسن منه حديثا ، إنما يأتيكم محمد بأساطير الأولين ، شهد بدرا مع المشركين فأفسره المسلمون ، وقتلوه بالأبيل قرب المدينة ، بعد انصرافهم من الوقعة ، وهو أبو قتيلة صاحبة الأبيات المشهورة التي منها :

ما كان ضرك لو مننت ورعا من الفتي وهو المغيض الخنق

والثاني : أن ينتقل من مقام الإصرار إلى مقام الاستهزاء ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا ﴾ أي : بعضها منها ﴿ اتَّخَذَهَا ﴾ كلها ولم يقتصر على ما بلغه في كونها ﴿ هُزُؤًا ﴾ أي : مهزواً بها ، والمعنى : إذا وجد ما يتطرق إليه الاحتمال طعن به على جميع الآيات كما فعل (ابن الزبير) ^(١) في ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله ﴾ ^(٢) ومغالطته رسول الله ، وقوله : خصمتك .

وقيل : اتخذ ما سمع منها هزواً ، أي : سخر منه ، كما فعل أبو جهل لما نزل ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ ^(٤) فدعا بتمر وزبد ، وقال : تزقموا فما يعدكم محمد إلا هذا ، ويجوز أن يؤنث الراجع إلى شيء بتأوله بمؤنث ؛ لأنه في معنى آية ، فيكون المعنى : أن يتخذ الذي يسمع هزواً من غير نظر إلى سائر الآيات .

ثم قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ مذل مديد لهم ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى ﴿ كل أفاك أثيم ﴾ لشموله جميع الأفاكين .

ثم وصف كيفية ذلك العذاب المهين فقال عز وجل : ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي : من قدامهم جهنم ، ووراء اسم للجهة التي توارى بها الشخص من خلف أو قدام ، ثم بين أن ما ملكوه في الدنيا لا ينفعهم فقال : ﴿ وَلَا يُغْنِي ﴾ أي : لا ينفع ويدفع ﴿ عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا ﴾ من الأموال وغيرها ﴿ شَيْئًا ﴾ من الإغناء ، أي : النفع . ثم بين أيضاً أن أصنامهم لا تنفعهم فقال تعالى : ﴿ وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

وهي قصيدة رثته بها قبل إسلامها . الأعلام ٣٣/٨ .

(١) عبد الله بن الزبير بن قيس السهمي ، القرشي ، أبو سعد ، شاعر قريش في الجاهلية ، كان شديداً على المسلمين ، إلى أن فتحت مكة ، فهرب إلى نجران ، ثم عاد فأسلم ، واعتذر ومدح النبي ﷺ فأمر له بخلة . توفي سنة ١٥ هـ - الأعلام ٨٧/٤ .

(٢) الأنبياء : ٩٨ .

(٣) أما مغالطته فهي أنه قال في هذه الآية : إن من جملة ما تعبد الملائكة والأنبياء والصالحين ، فهو لاء في جهنم كما تقول هذه الآية .

(٤) الدخان : ٤٣ ، ٤٤ .

أُولَئِكَ ﴿ مِنْ الْأَوْتَانِ ، وَهِيَ أَصْنَامُهُمُ الَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهَا تَشْفَعُ لَهُمْ ، فَلَا تَنْصُرُ وَلَا تَشْفَعُ ﴾
 ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لَا يَدْفَعُهُ مَا اتَّخَذُوهُ أَوْلِيَاءَ وَشَفَعَاءَ ، بَلْ إِنَّمَا عَظُمَ
 بِسَبَبِهِمْ فَجَاءَهُمُ الْخَوْفُ مِنْ حَيْثُ أَمَنُوا .

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّهُ قَالَ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ فَمَا الْفَائِدَةُ فِي قَوْلِهِ
 بَعْدَهُ : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ؟ قِيلَ لَهُ : كَوْنُ الْعَذَابِ مُهِينًا يَدُلُّ عَلَى حُصُولِ
 الْإِهَانَةِ مَعَ الْعَذَابِ ، وَكَوْنُهُ عَظِيمًا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ بَالِغًا إِلَى أَقْصَى الْغَايَاتِ فِي كَوْنِهِ
 ضَرًّا .

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى أَشَارَ إِلَى الْقُرْآنِ أَوْ إِلَى مَا ذَكَرَ أَوَّلًا فِي هَذِهِ السُّورَةِ فَقَالَ : ﴿ هَذَا
 هُدًى ﴾ أَيُ : الْكَامِلُ فِي الْهُدَايَةِ لِمَنْ قَبِلَهَا : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَنَهُمْ
 عَذَابٌ مِنْ رَجْزٍ أَلِيمٍ ﴾ الرَّجْزُ : أَشَدُّ الْعَذَابِ ، وَأَلِيمٌ : مُبَالِغَةٌ أُخْرَى فِي وَصْفِ الْعَذَابِ
 بِشِدَّةِ الْأَلَمِ

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ ﴾ أَيُ : ذَلَّلَهُ ، وَالتَّسْخِيرُ : التَّذْلِيلُ
 ﴿ لَتَجْزِيَ الْفُلُكُ ﴾ أَيُ : السَّفِينُ ﴿ فَبِهِ بِأَمْرِهِ ﴾ أَيُ : بِتَسْهِيلِهِ ﴿ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ
 فَضْلِهِ ﴾ بِالتَّجَارَةِ ، أَوْ بِالْفُوصِ عَلَى اللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ ، وَاللَّحْمِ الطَّرِيِّ وَغَيْرِهَا
 ﴿ وَلَعَلَّكُمْ ﴾ أَيُ : وَلِإِرَادَةِ أَنْكُمْ ﴿ تَشْكُرُونَ ﴾ هَذِهِ النِّعَمُ .

اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ الْاسْتِدْلَالَ بِكَيْفِيَةِ جَرَيَانِ الْفُلِكِ عَلَى وَجْهِ الْبَحْرِ ، وَذَلِكَ لَا
 يَحْصُلُ إِلَّا بِتَسْخِيرِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : أَحَدُهَا الرِّيحُ الَّتِي تَجْرِي عَلَى وَفْقِ الْمَرَادِ ، وَثَانِيهَا :
 خَلْقُ وَجْهِ الْمَاءِ عَلَى الْمَلَاةِ الَّتِي تَجْرِي عَلَيْهَا الْفُلُكُ ، وَثَالِثُهَا : خَلْقُ الْخَشَبَةِ عَلَى
 وَجْهِ تَبْقَى طَافِيَةً عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، وَلَا تَغْوِصُ فِيهِ ، وَهَذِهِ الْأَحْوَالُ الثَّلَاثَةُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا
 أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ ، فَلَا بُدَّ مِنْ مُوَجِّدٍ قَادِرٍ عَلَيْهَا ، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى .

(١) قَوْلُهُ : الْكَامِلُ فِي الْهُدَايَةِ لِمَنْ قَبِلَهَا . مُسْتَفَادٌ مِنَ الْأَخْبَارِ عَنْهُ بِأَنَّهُ هُدًى ؛ لِأَنَّهُ مِنْ شَأْنِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ
 الْهُدَايَةِ فَإِذَا أُخْبِرَ عَنِ الْكِتَابِ بِأَنَّهُ هُدًى وَجِبَ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى أَنَّهُ كَامِلُ الْهُدَايَةِ حَتَّى يَفِيدَ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُسْتَفَادَ
 الْمَعْنَى مِنَ التَّكْوِينِ الَّذِي جَاءَ لِلتَّعْظِيمِ بِحَسَبِ الْمَقَامِ . وَانْظُرْ حَاشِيَةَ الْعُلُوِّيِّ مَحْظُوطٌ .

ثم قال سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ من شمس وقمر ونجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، ومطر وثلج وبرد وغير ذلك ﴿ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ من دابة ونبات وأهوار ، وغير ذلك من منافع الأرض التي لا تحصى ، والمراد أنه خلق ذلك لاتنفعنا إما في أمر الدين ، وإما في أمر الدنيا ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ أي : حاصلًا من عنده ، أي : هو مكنونها بقدرته وحكمته .

قال في التجريد : وقوله ﴿ مِنْهُ ﴾ في موضع الحال ، كأنه قيل : كائنا منه ، أو خير مبتدأ محذوف ، أي : كل ذلك منه ، أو خير عن ﴿ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ . و﴿ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ مفعول ﴿ سَخَّرَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ المذكور ﴿ لآيَاتٍ ﴾ أي : دلائل على قدرة الصانع الحكيم ونعمته على عباده ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : ينظرون بعقولهم في دلائله الواضحة على توحيدِهِ ، وعلى عظم قدرته ، وبدائع حكمِهِ وجلالِ نِعَمِهِ

ثم اعلم أنه تعالى لما علّم عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة — أتبع ذلك بتعليم الأخلاق الفاضلة ، والأفعال الحميدة بقوله سبحانه : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ المقول محذوف^(١) دل عليه الجواب ، أي : قل لهم ﴿ يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ قال الهادي عليه السلام : معنى ﴿ يغفروا ﴾ فهو يعرضوا عن عبادتهم ومقاتلتهم وشركهم^(٢) ومعنى ﴿ للذين لا يرجون أيام الله ﴾ فهم الذين لا يصدقون بوعده الله ووعيده ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ هو إخبار منه تعالى أنه سيجزيهم بأعمالهم ، أي : ذرهم حتى يقع الجزاء عليهم ، وعلى صدق ما أنكروا من وعد رهم^(٣) . اهـ

كأنه قال : لا تكافوهم أنتم لنكافهم نحن ، وقيل : معنى ﴿ لا يرجون أيام الله ﴾

(١) والمعنى : قل لهم اغفروا ، دل عليه الجواب ﴿ يغفروا للذين ﴾ ..

(٢) مجموع تفسير القرآن (ويتركهم) ، بدلا عن (شركهم) .

(٣) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ .

أي : لا يتوقعون وقائع الله بأعدائه ، ومنه : أيام العرب لوقائعها ، وقيل : لا يأملون الأوقات التي وعد الله المؤمنين فيها بالثواب ، قال ابن عباس : لا يرجون ثواب الله ولا يخافون عقابه ، ولا يخشون مثل عقاب الأمم الخالية^(١) .

قيل : نزلت قبل آية القتال ، ثم نسخ حكمها ، قالوا : ونزلت الآية في عمر وقد شتمه رجل من غفار فهم أن يبطش به^(٢) والأقرب أن يقال : إنه محمول على ترك المنازعة في المحقرات على التجاوز عما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية ، والأفعال الموحشة ، فلا تنافي آية القتال .

ثم قال تعالى : ﴿ ليجزي قوما ﴾ أي : مخصوصين بالفضل لصبرهم على ما يجرعهم أعداؤهم من العصب . بما كانوا يكسبون ﴿ من الثواب بكظم الغيظ ، وقوله : ﴿ ليجزي ﴾ تعليل للأمر بالمغفرة ، أي : إنما أمروا أن يغفروا لما أراد الله من توفيتهم أجر مغفرتهم .

(١) وفي التهذيب للحاكم الجشمي (قيل : لا يرجون نعمة وثوابه ، في الآخرة عن أبي علي ، وقيل : لا يخافون عقابه ، ونقمته بالعصاة ، وقيل : لا يرجون في الدنيا نصرته ، ولا في الآخرة جنته عن أبي مسلم) (٢) أخرج النحاس في الناسخ والمنسوخ ص ٢٥٦ عن ابن عباس ، وفي سنده جوير الأزدي ، وهو ضعيف جدا ، والقول بأنها منسوخة مروى عن ابن عباس من غير هذا الطريق ، ومجاهد وقتادة والضحاك وأبي صلح ، ذكره ابن جرير ١٤٤/٢٥ ، ١٤٥ (الواحد ٩٨٩/٢) .

وفي التهذيب للحاكم (قال ابن عباس ومقاتل ، نزل قوله ﴿ قل للذين آمنوا ﴾ في عمر بن الخطاب ، وذلك أن رجلا من بني عفان شتمه ، فهم عمر أن يبطش به ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وأمر بالعفو عنه . وعن ابن عباس ﴿ لما نزل قوله : من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ﴾ قال يهودي بالمدينة يقال له : فنحاص : احتاج رب محمد . فسمع عمر ذلك ، فأخذ سيفه ، وخرج في طلبه ، فنزل جبريل عليه السلام بقوله ﴿ قل للذين آمنوا ﴾ فبعث النبي ﷺ فدعا عمر ، وأمره بالعفو .

قال القرطبي والسدي : نزلت في ناس من أصحاب النبي ﷺ من أهل مكة ، كانوا في أذى كبير من المشركين ، قبل أن يؤمر بالقتال ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية ، ثم نسختها آية القتال

فإن قيل : ما الفائدة في التنكير في قوله : ﴿ ليجزي قوما ﴾ مع أن المراد بهم هم المؤمنون المذكورون في قوله : ﴿ قل للذين آمنوا ﴾ ؟ قيل : التنكير يدل على تعظيم شأنهم كأنه قال : ليجزي قوما — وأي قوم — من شأنهم الصفع عن السيئات والتجاوز عن المؤذيات ، وتحمل الوحشة ، وتجرع المكروه .

ثم ذكر الحكم العام فقال تعالى : ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ﴾ أي : لا يعود نفع العمل إلا إليه فقط ، وهو مثل ضربه الله للذين يغفرون ﴿ ومن أساء فعليها ﴾ فلا يضر غيرها ، وهو مثل ضربه الله للكفار الذين كانوا يقدمون في إيذاء الرسول والمؤمنين على ما لا يحل فيبين تعالى أن العمل الصالح يعود بالنفع العظيم على فاعله ، وأنه تعالى أمر بهذا ، ونهى عن ذلك لحظ العبد فقط .

ثم قال سبحانه : ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ أي : لا ترجعون إلا إلى جزائه في الآخرة ، فيجزي كل عامل بحسب عمله ^(١) .

ثم إنه تعالى أخبر أنه أنعم بنعم كثيرة على بني إسرائيل . واعلم أن النعم على قسمين : نعم الدين ، ونعم الدنيا ، ونعم الدين أفضل من نعم الدنيا ، فلهذا بدأ الله

(١) قال الحاكم في التهذيب في ما يستفاد من هذه الآيات من أحكام :

(تدل الآيات على أنه سخر البحر ، وما في السموات والأرض لمنافع خلقه ، وذلك هو الغرض فيه بخلاف قول المجرة ، ومتى قيل : كيف التسخير ، وكيف الانتفاع ، ومن المقصود ؟ قلنا : تسخيره خلقه على وجه أراد ذلك ، ويتعلق به منافع عباده ، والانتفاع قد يقع للدين لا للدنيا ، والمقصود المكلفون ، وماعداهم تبع لهم خلق لأجلهم .

ويدل قوله : ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أنه أراد من الجميع الشكر خلاف قولهم ، ويدل قوله : ﴿ يتفكرون ﴾ على وجوب التفكير في الأدلة ، ويدل قوله : ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا ﴾ أنه تعالى أمر بالرفق معهم ، ثم اختلفوا ، قيل : إنه منسوخ عن ابن عباس والضحاك ، وقادة وابن زيد ، ومنهم من قال : ليس بمنسوخ ، لأن مع وجوب القتال نسخ أن يؤمر بالرفق وحسن المقال ، ويجوز أن ينهى عن القتال في حال ، ويكل المجازاة إلى الله تعالى ، ولأنه لما بين الآيتين فلا معنى لدعوى النسخ ، ويدل قوله : ﴿ جزاء عما كانوا يكسبون ﴾ أن العقاب جزاء مستحق على الأعمال ، ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ من عمل صالحا ﴾ الآية ، وكل ذلك ترغيب في الطاعة ، وتحذير من المعصية .

بنعم الدين فقال سبحانه : ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب ﴾ هو التوراة ﴿ والحكم ﴾ الحكمة ، أي : الفقه والسنة ، أو فصل الخصومات بين الناس ؛ لأن الملك ﴿ والنبو ﴾ كان فيهم إذ كان الأنبياء فيهم أكثر من سائر الناس .

وأما نعم الدنيا فهي المراد من قوله تعالى : ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أي : ما أحل الله لهم وأطاب من الأرزاق ، وذلك أن الله وسع عليهم في الدنيا فأورثهم أموال آل فرعون وديارهم ، ثم أنزل عليهم المن والسلوى .

ولما بين تعالى أنه أعطاهم من نعم الدين ونعم الدنيا نصيبا وافرا قال : ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ حيث لم يؤت غيرهم مثلهم . ابن عباس : لم يكن أحد في زمانهم أكرم على الله منهم .

والمراد : لم يؤت غيرهم مثلهم من الآيات والنعم ، ولم يرد تفضيلهم بكثرة الثواب ، فإن أمة محمد أفضل ، أي : أكثر ثوابا ^(١) ذكر معناه في التجريد .

ثم قال تعالى : ﴿ وآتيناهم بينات من الأمر ﴾ وفيه وجوه الأول : أنه آتاهم بينات من الأمر أي : أدلة على أمور الدين ، الثاني : قاله ابن عباس . يعني : بين لهم من أمر النبي ﷺ ، وأنه يهاجر من قحمة إلى يثرب ، ويكون أنصاره أهل يثرب ، الثالث : المراد ﴿ وآتيناهم بينات ﴾ معجزات باهرة على صحة نبؤهم ، والمراد معجزات موسى .

ثم قال : ﴿ فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ الذي يوجب زوال الخلاف ﴿ بهيا بينهم ﴾ أي : لأجل الحسد والعداوة ، أو لبغي وحسد لرسول الله ﷺ والمقصود من ذكر هذا الكلام التعجيب من هذه الحالة ؛ لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف ، وهاهنا جاز مجيء العلم سببا لحصول الاختلاف ، وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم ، وإنما المقصود منه طلب الرئاسة

(١) قال الخشمي في التهذيب : (قيل : عالمي زمانهم عن الحسن ، وقيل : على جميع العالمين بكثرة النبيين فيهم ، وفضل أمة محمد بكثرة العلماء فيهم ، والعالمين بالحق منهم) .

والتقدم ، ثم هاهنا احتمالات يحتمل أن يريد أنهم علموا ثم عاندوا ، ويحتمل أن يريد بالعلم الأدلة التي توصل إلى العلم ، فالمعنى : أنه تعالى وضع الدلائل والبيانات التي لو تأملوا فيها لعرفوا الحق ، لكنهم على وجه الحسد والعناد اختلفوا وأظهروا التراجع .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ رِبِّكَ يَقْضِي ﴾ أي : يحكم ﴿ بِهِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وقضاؤه إثابة المحقين ومعاقبة المبطلين في أمر الدين ، والمراد : أنه لا ينبغي أن يغتر المبطل بنعم الدنيا ، فإنها وإن ساوت نعم الحق أو زادت عليها ، فإنه سيرى في الآخرة ما يسوؤه ، وذلك كالزجر لهم .

ولما بين تعالى أنهم أعرضوا عن الحق لأجل البغي والحسد — أمر رسوله بأن يعدل عن تلك الطريقة ، وأن يستمسك بالحق ، وأن لا يكون له غرض سوى إظهار الحق ، وتقرير الصدق فقال سبحانه : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ ﴾ أي : على طريقة ومنهاج ﴿ مِنْ الْأَمْرِ ﴾ من أمر الدين ، أي : على ملة ومذهب من أمر الله ﴿ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وهم قريش ، فدينهم مبني على هوى وبدعة ، لا على دليل وبرهان ، كشريعتك ، ولذلك قالوا : اتبع دين آبائك .

قال الكلبي : إن رؤساء قريش قالوا للنبي ﷺ وهو بمكة : ارجع إلى ملة آبلئك فهم كانوا أفضل منك وأسن ، فأنزل الله تعالى هذه الآية^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنْهُمْ لَنْ يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ لا ينفعونك ولا يدفعون عنك من عذاب الله شيئا إن اتبعتهم ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فلا توالهم إنما يواليهم من هو مثلهم ، والموالات : المودة والمناصرة ﴿ وَاللَّهُ وَلِي الْمُتَّقِينَ ﴾ وهم موالوه ، وما أبين الفرق^(٢) بين الولاءين .

ولما بين الله تعالى هذه البيانات الشافية النافعة قال سبحانه : ﴿ هَذَا ﴾ أي :

(١) ذكره الرازي في تفسيره ٢٧/٢٦٥ .

(٢) في الرازي (وما أبين الفرق بين الولاءين) وفي المصاييح : وما أبين الفضل بين الولاءين ، وحيث أن لا فضل في ولاء الظالمين بعضهم لبعض ، فقد أثبتنا ما في الرازي ٢٧/٢٦٦ .

القرآن ﴿بصائر للناس﴾ جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب ، والبصيرة : نور القلب ﴿وهدي﴾ من الضلالة ﴿ورحمة﴾ من العذاب لمن آمن به وأيقن ، وهو معنى قوله : ﴿لقوم يوقنون﴾ .

ولما بين الله تعالى الفرق بين الظالمين والمتقين من الوجه الذي تقدم ، بينهما ممن وجه آخر فقال : ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات﴾ أم : منقطعة بمعنى بل والهمزة ، أي : بل أحسبوا ﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم﴾ هذه جملة بدل من ﴿كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي : بيان له ، أي : حسبوا أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم ، كما يقول : ظننت زيادا أبوه منطلق ، والمعنى : إنكار أن يستوي المسيئون والحسنون محيا ، وأن يستروا مماتا ؛ لافتراق أحوالهم ، [محيا] حيث عاش هؤلاء على الطاعة ، وأولئك على المعاصي . ومماتا — حيث مات هؤلاء على البشري بالرحمة والرضوان ، وأولئك على اليأس منهما ، وقيل : معناه إنكار أن يستروا في الممات كما استروا في الحياة وفي الرزق والصحة

قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام : من قرأ (سواء) بالنصب فالتأويل أن [الله] لا يجعل محياهم ومماتهم مثل محيا أولياء الله ومماتهم ، ومن قرأ (سواء) بالرفع فالتأويل أن^(١) محيا أعداء الله مثل موتهم في قلة الانتفاع ، أو حياهم لا تنفعهم ، وموتهم لا ينفعهم فحياهم موت لا يكسبون فيها طاعة ، ولا يخرجون من معصية . اهـ

قال الرازي : ﴿أم﴾ كلمة وضعت للاستفهام عن شيء حال كونه معطوفا على شيء آخر ، سواء كان ذلك المعطوف مذكورا أو مضمرا ، والتقدير هاهنا : أيعلم المشركون هذا ، أم يحسبون أنا نتولاهم كما تتولى المتقين ، والاحتراح : الاكتسب ومنه : الجوارح ، وفلان جارحة أهله ، أي : كاسبهم ، قال تعالى : ﴿ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾^(٢) .

(١) ما بين القوسين ساقط في أ ، وهو موجود في ب .

(٢) الأنعام : ٦٠

قال الكلبي : نزلت هذه الآية في علي عليه السلام وحمزة ، وعبيدة بن الحارث ، وفي ثلاثة من المشركين عتبة ، وشيبة ، والوليد بن عتبة ، قالوا للمؤمنين : والله ما أنتم على شيء ، ولو كان ما تقولون حقا لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة كما أن الله أفضل حالا منكم في الدنيا . فأنكر الله عليهم هذا الكلام ، وبين أنه لا يكون حال المؤمن المطيع مساويا لحال الكافر والعاصي في درجات ومنازل السعادات .

واعلم أن لفظ حسب تستدعي مفعولين ، فأحدهما : الضمير المذكور في قوله : ﴿ أن نجعلهم ﴾ والثاني الكاف في قوله : ﴿ كالذين آمنوا ﴾ والمعنى : أحسب هؤلاء المحترحون أن نجعلهم أمثال الذين آمنوا ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون ﴾ ^(١) ونحو ذلك ^(٢) .

وفي التجريد : وقرئ (سواء محياهم ومماتهم) بنصب ﴿ سواء ﴾ ^(٣) ورفع ﴿ محياهم ومماتهم ﴾ على أن سواء مفعول لحسب ، ورفع محياهم ومماتهم به ، وقرئ بنصب سواء مع نصب محياهم ومماتهم ، على أن محياهم ومماتهم ظرفين ، أو يكونان بدلا من ضمير ﴿ نجعلهم ﴾ بدل اشتمال .

وروي أن ثميما الداري كان يصلي ليلة عند المقام فبلغ هذه الآية فجعل يبكي ويردها إلى الصباح ^(٤) .

(١) السجدة : ١٨

(٢) انظر الرازي ٢٧/٢٦٦ ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

(٣) قال الجشمي في التهذيب : (قرأ حمزة والكسائي ، وحفص عن عاصم ﴿ سواء محياهم ومماتهم ﴾ بالنصب الباقون بالرفع ، أما النصب فعلى تقدير نجعلهم سواء ، ومن رفع فعلى الابتداء والخبر .

القراءة الظاهرة ﴿ مماتهم ﴾ بالرفع ، وعن الأعمش بنصب التاء على الظرف ، أي : في محياهم ومماتهم

(٤) تميم الداري : هو تميم بن أوس بن خازجة الداري ، أبو رقية المتوفى سنة ٤٠ هـ ، والداري : نسبة إلى الدار بن هاني ، من لحم ، أسلم سنة ٩ هـ فأقطعه النبي ﷺ قرية (حبرون) الخليل الفلسطينية ، وكان يسكن المدينة ، ثم انتقل إلى الشام ، بعد مقتل عثمان ، فنزل بيت المقدس ، وهو أول من سرج السراج بالمسجد ، وكان زاهد أهل عصره ، وعابد أهل فلسطين ، وللمقرئ في كتاب سماه (جنود الساري في معرفة خير تميم الداري) مات بفلسطين . انظر معجم رجال الاعتبار وسلوة العارفين ، وبقية المصادر هناك .

وعن الفضيل أنه بلغها فجعل يرددّها وهو يبكي ، ويقول : يا فضيل ليت شعري من أي الفريقين أنت^(١) .

ثم ذمهم عز وجل فقال : ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي : بس الحكم حكمهم^(٢) هذا واعلم أنه تعالى لما أخبر بأن المؤمن لا يساوي الكافر في درجات السعادات أتبعه بالدلالة الظاهرة على صحة هذه الفتوى فقال : ﴿وخلق الله السماوات والأرض بالحق﴾ أي : بالغرض الصحيح ، وهو الدلالة على الصانع وقدرته ، قال الرازي : ولو لم يوجد البعث لما كان ذلك بالحق ، بل كان بالباطل ؛ لأنه تعالى لما خلق الظالم وسلطه على المظلوم الضعيف ثم لا ينتقم للمظلوم من الظالم كان ظالماً ، ولو كان ظالماً لبطل أنه ما خلق السموات والأرض إلا بالحق .

(١) الفضيل : هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي البزيعي ، أبو علي الخراساني ، الزاهد ، العابد ، المشهور ، شيخ الحرم المكي من العباد ، وكان ثقة في الحديث ، أخذ عنه خلق فيهم الإمام الشافعي ، ولد في سمرقند ، ونشأ بأبيورد ، ودخل الكوفة ، وهو كبير ، ثم سكن مكة ، وتوفي بها . ذكره السيد صارم الدين في الشيعة المحدثين . روى عن منصور ، والأعمش ، وسليمان التميمي ، وصفوان بن سليم ، وحسين ، وليث ، وقادة ، وجعفر الصادق . وعنه : القطان ، وابن مهري ، والسفيانان ، وابن المبارك ، وطائفة . خرج له السيد أبو طالب ، والموفق بالله ، والمرشد بالله ، وأبو الغنائم ، والجماعة . انظر معجم رجال الاعتبار وسلوة العارفين ، وبقية المصادر هناك .

(٢) ما يستفاد من هذه الآيات قال الجشمي في التهذيب :

تدل الآيات على بطلان قول المجرة من وجوه منها : أنه لا اختلاف بعد مجيء العلم احتجاجاً عليهم أن عند العلم لا ينبغي أن يختلفوا ، فلو كان الخلاف الذي هو خلقه فيهم لم يكن للزم والاحتجاج معنى ، ولا لكونه بعد العلم أو قبله فرق ، ومنها قوله : ﴿لنّاس﴾ أن اختلافهم للبغي ، وعندهم يخلق الاختلاف فيهم . ومنها قوله : ﴿يقضي بينهم﴾ ولو كان جميع أفعالهم خلقاً له لكان يحكم لنفسه على نفسه . ومنها قوله : ﴿فاتبعها ولا تتبع أهواء﴾ ولو كان خلقاً له لم يكن للأمر والنهي معنى ، لأن الأمر موقوف على خلقه ، ويدل قوله : ﴿وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض﴾ على أن لا ناصر للظالمين ، فتدل أنه لا شفيع لهم ، ويدل قوله : ﴿هذا بصائر﴾ أن القرآن حجة يجب تدبره ، ويدل قوله : ﴿أم حسب﴾ أنه لا يستوي المطيع والعاصي ، ومن قال : هما سواء فحكمه بس الحكم ، فدل على قولنا في الوعيد والمنزلة بين المنزلتين . .

المعنى : أن المقصود من خلق هذه العالم إظهار العدل والرحمة ، وذلك لا يتم إلا إذا حصل البعث والقيامة ، وحصل التفاوت في الدرجات والدركات بين المحققين وبين المبطلين .

وقوله تعالى : ﴿ ولتجزى كل نفس بما كسبت ﴾ عطف على ﴿ بالحق ﴾ لأن فيه معنى التعليل ، أي : وليجعلها مساكن لعباده يتعبدون فيها ، فيجزى كل نفس بما عملت في السموات أو في الأرض من طاعة أو معصية ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ بنقص شيء من أجورهم .

قال الرازي : في قوله : ﴿ ولتجزى ﴾ وجهان الأول : أنه معطوف على قوله : ﴿ بالحق ﴾ فيكون التقدير : وخلق [الله] السموات والأرض لأجل إظهار الحق ، ولتجزى كل نفس .

الثاني : أن يكون العطف على محذوف ، والتقدير : وخلق السموات والأرض ليدل بهما على قدرته ، ولتجزى كل نفس .

ثم عاد تعالى إلى شرح أحوال الكفار ، وقبائح طرائقهم فقال : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ كأنه قيل : قد علمت أنه لا يستوي من ضل فأساء ، ومن اهتدى فأحسن ، فأخبرني عن اتخذ إلهه هواه فهو مطواع لهوى نفسه ، فكأنه يعبد كما يعبد الإله قال الهادي عليه السلام : عمن عبد ما يهواه من الأشياء فجعل الآلهة هواه . اهـ

يعني : تركوا متابعة الهدى ، وأقبلوا على متابعة الهوى ، قيل : كان أحدهم يستحسن حجرا فيعبده ، فإذا رأى ما هو أحسن منه رفضه إليه ، فكأنه اتخذ هواه إلهه .

ثم قال سبحانه : ﴿ وأضلله الله على علم ﴾ أي : يعلم أنه يستحق أن يسميه بالضلالة ، أو حكم بضلاله حين هداه الله فترك هداه واتبع هواه .

قال الهادي عليه السلام : معنى ﴿ على علم ﴾ فهو على علم منا بأفعاله واختياره وعبادته ما يهوى من الأشياء دون ربه ، فلما أن علم منه ذلك أضله ، ومعنى

﴿أضله﴾ فهو خذله ، وسماه بالضلال ، وأخبر عنه به ، ومعنى ﴿وختم على سمعه﴾ فلا يسمع الحق ﴿وقلبه﴾ فلا يقبله ﴿وجعل على بصره غشاوة﴾ غطاه لا يبصر الحق ، فهو بالخذلان ، وترك التسديد لله لما سد له المؤمنين ؛ لا أنه فعل به شيئاً من ذلك ، ولا حال بينه وبين الاهتداء ، تقدس الله تعالى عن ذلك وتعالى^(١) . اهـ

وإنما هو مثل ضربه الله مجاز عن سلبه للطف والهداية ﴿فمن يهديه من بعد الله﴾ يقول : من يوفقه للصواب إن يخذله الله ، أو يرشده إن تركه ﴿أفلا تذكرون﴾ في ذلك فتعلموا في ذلك أنه لا هادي لمن خذله الله ، ولا مرشد لمن لم يرشده الله ، ذكره الهادي عليه السلام .

أو المعنى : أفلا تفكرون فتعرفوا أن عبادة أهوائكم وطاعتها من أعظم الضلال^(٢) .

(١) في مجموع تفسير الأئمة ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ فهو بالخذلان له ، وترك التسديد له لما يسد له المؤمنين ، لا أنه فعل به شيئاً من ذلك ، ولا حال بينه وبين الاهتداء ، تقدس الله تعالى عن ذلك ﴿فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾ يقول : من يوفقه للصواب إن يخذله الله ، أو يرشده إلى ترك الله أفلا تذكرون في ذلك فيعلمون في ذلك أنه لا هادي لمن خذله الله ، ولا مرشد لمن لم يرشده الله .

مجموع تفسير الأئمة ص ٤٥٤ .

(٢) قال الجشمي في تهذيبه : قوله تعالى : ﴿وخلق الله السماوات والأرض بالحق﴾ إلى قوله : ﴿اتنوا بآبائكم﴾ إن كنتم صادقين ﴿القراءة﴾

قرأ حمزة والكسائي ﴿غشوة﴾ بفتح الغين ، وسكون الشين بغير ألف على معنى رقعة ، وقرأ الباقون بالألف وكسر الغين ، وفتح الشين ، والمعنى واحد ، وهو الغطاء ، يقال : غشيت الشيء غطيته ، ومنه الغاشية للسرير

اللغة

الهوى : هوى النفس مقصور ، والهواء : الجو ممدود ، وهو النفس : هو الميل على من تحبه ، وهو مذموم على الإطلاق ، ويقال فيما يضاف إلى ما لا يذم ، فيقال : هواي مع صاحب الحق ، أي : ميلي ، وهوت الناقة تهوى هويًا إذا حرت شديدًا ، والهواء : الجو ، أصله من الجو ، والدهر : الزمان .

وروى في حديث ابن مسعود (وما يهلكنا إلا دهر يم) وهذا محمول على التفسير ، وفي الحديث (لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر) فمعناه : أن العرب كانت تقول عند النوازل : أصابنا الدهر ، فقيل لهم : لا تسبوا فاعل ذلك ، فإن الله فاعله ، ويقال : دهر دهر ، ودهرهم أمر : نزل بهم ، وأما قول سطيح : (الدهر أطوار دهاير) فالدهاير : جمع دهور ، وهو الدهر ، أراد أن الدهر ذو حالين يؤس ونعيم . الإعراب .

الإعراب

آياتنا بينات : آياتنا قام مقام الفاعل ، وبينات مقام المفعول ، فوقع ذلك اسم ما لم يسم فاعله ، لإسناد الفعل إليه ﴿حجتهم﴾ نصب لأنه خير كان . ﴿إلا أن قالوا﴾ الاسم تقديره ما كان حجتهم إلا قولهم .

الترول

سعيد بن جبير ، كانت العرب تعبد عزي وهو حجر أبيض حيناً ، وكانوا يعبدون الحجاره والذهب والفضة ، فإذا وجدوا شيئاً أحسن من الأول رموه أو كسروه ، أو ألغوه في بئر ، وعبدوا الثانية ، فأنزل الله تعالى ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ الآية .

وعن مقاتل : نزلت الآية في الحرث بن قيس السهمي أحد المستهزئين ، كان يعبد ما تهواه نفسه

المعنى

ولما بين تعالى أنه لا يستوي الحق والمبطل أكد ذلك فقال سبحانه ﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق﴾ قيل : الحق هو الخراء ، وقيل : لغرض صحيح حق : لو لم يكن جزء ما كان ذلك حقاً ، فاعلموا أنه للجزء ﴿ولتجزى كل نفس﴾ يكافى كل أحد ﴿بما كسبت﴾ عملت ﴿وهم لا يظلمون﴾ ينحسر ثواب مستحق ، أو زيادة عقاب ، غير مستحق ﴿أفرأيت﴾ يا محمد ﴿من اتخذ إلهه هواه﴾ قيل : اتخذ دينه ما يهواه ، فلا يهوى شيئاً إلا ركبته ، لأنه لا يؤمن بالله ولا يخافه ، ولا يبي أمر دينه على حجة فاتع هواه في أموره ، لا بحجة تقوى عن ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، وقيل : من اتخذ معبوده هواه ، فيعبد ما يهوى دون ما دللت الدلالة على أن العبادة تحقق له ، وهواه معناه ما يهواه ، وروي عن الحسن اتخذ إلهه هواه ، وعن الشعبي : إنما سمي الهوى ، لأنه يهوى بصاحبه في النار . ﴿وأضل الله على علم﴾ قيل : وحده الله ضالاً على علم أنه يضل قبل ظهور الضلال منه ، ونظيره قول عمرو بن معدى كرب : قاتلناهم فما جبناهم ، وسألناهم فما أبخلناهم ، وقاولناهم فما أفحمناهم ، أي : ما وجدناهم كذلك ، وقيل : حكم بالضلالة على علم منه ، أي : هو عالم بأنه ضال ، وقيل : أضله عن ثوابه وجنته ، وهو عالم بأنه لا يستحق ذلك عن أبي علي ﴿وختم على سمعه وقلبه﴾ قيل : وسم عليها سمة الأعداء علامة للملائكة لتلعنه ، وقيل : خذله وخلاه وما اختاره ، حتى استحكم عادة السوء في قلبه ، فلم يسمع الحق ولا يفهمه ، إعراضاً واستقلالاً ، كمن لا يسمع ولا يفهم حقيقة ، وإذا ألف الفسق والدرع لم ينجع فيه الحق ، فكأنه مختم على قلبه وعينه ﴿وجعل على بصره غشاوة﴾ أي : غطاء يعني يصير كأنه كذلك من حيث لا يبصر الحق تشبيهاً ، عن أبي علي ﴿فمن يهديه﴾ إن لم يهتد بهدي الله ، فمن يهديه سواه ، وقيل : إذا لم يهتد الله إلى الجنة فمن يهديه عن أبي علي ﴿أفلا تذكرون﴾ يعني أفلا تفكرون في هذا حتى تفهموه ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا﴾ أي : لا دار سوى هذه الدار ﴿نموت ونحيا﴾ أي : نموت فيها ونحيا نحن من غير صانع ، واختلفوا فقيل : هو على التقديم والتأخير ، أي : نحيا ونموت من غير إعادة ، وقيل : نموت ونحيا أولادنا ، وقيل : نموت بعضنا ، ونحيا بعضنا ، كقوله : ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ أي : بعضكم بعضاً ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾ أي : ما يقتلنا إلا مرور الزمان ،

واعلم أنه تعالى حكى عنهم بعد ذلك شبههم في إنكار القيامة ، وفي إنكار الإله القادر ، أما شبهتهم في إنكار القيامة فهي قوله سبحانه : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ ولا حياة بعدها في الآخرة ، كما يزعم محمد وأصحابه .

﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ قال في البرهان : يقول القائل : كيف قال : ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ وهم يكذبون بالبعث ؟ فإنما أرادوا : نموت ويأتي بعدنا أبنائنا ، فجعل فعل أبنائهم كفعلهم ، وهو في العربية كثير . اهـ

أو يموت بعض منا ونحيا بعض ، أو نكون نطفًا في الأصلاب ونحيا بعد ذلك ، أو يصيبنا الأمان الموت والحياة ، يريدون الحياة في الدنيا والموت بعدها ، وليس وراء ذلك حياة . وأما شبهتهم في إنكار الإله الفاعل المختار فهي قوله حكاية عنهم : ﴿ وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ أي : مرور الأيام والليالي ، وكانوا يزعمون تأثير الدهر ، وينكرون ملك الموت ، وينكرون قبضه الأرواح بأمر الله ، كانوا يضيفون كل حادثة إلى الدهر والزمان ، وترى أشعارهم ناطقة بشكواه ، ولذلك قال ﷺ : (لا تسبوا

وطول العمر ، إنكارا منهم للصانع) وما لهم بذلك من علم ؟ أي : ما تقولونه ليس ذلك عن حجة وعلم بل ظنا وتقليدا ؟ إن هم إلا يظنون وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴿ حُجَّتْنَا ﴾ بينات ﴿ وَاضْهَات ﴾ ما كان حجتهم ﴿ عَلَى رُسُلِنَا ﴾ إلا أن قالوا اتنوا بآياتنا أن كنتم صادقين ﴿ يَعْنِي آبَاءَنَا الَّذِينَ مَا تَرَوْا أَحْيَاءَ حَتَّى نَصْدُقَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ

الأحكام :

يدل قوله : ﴿ وَلْتَجَرَى ﴾ على أن الثواب والعقاب جزاء على الأعمال ، وتدل أن أفعالهم حادثة من جهتهم ، ليصح الجزاء ، ويدل قوله : ﴿ لَا يَظْلَمُونَ ﴾ أنه لا يعذب أحدا بغير ذنب ، وكل ذلك يبطل قول المجبرة ، ويدل قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ أن الواجب اتباع الدليل ، دون الهوى والتقليد ، ويدل قوله : ﴿ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أن المعارف مكتسبة ، وكذلك قوله : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ وتدل على أن الظن مذموم في أصول الدين ، ويدل قوله : ﴿ فَأَتَانَا بَيِّنَاتُنَا ﴾ على جهل القوم من وجوه منها : أنهم لم يعلموا أن الجزاء في الآخرة ، وأنه لا بعث في الدنيا .

الدهر فإن الله هو الدهر ﴿١﴾ أي : هو الذي يضيفون إليه الحوادث لا الدهر
ثم قال سبحانه : ﴿ وما لهم بذلك ﴾ الذي يقولوه ﴿ من علم إن هم إلى ﴾
يظنون ﴿ ظنا فاسدا غير صحيح ، والمعنى : أن قبل النظر ومعرفة الدليل الاحتمالات
بأسرها قائمة ، فالذي قالوه محتمل ، وضده أيضا محتمل ، وذلك فهو أن يكون
القول بالبعث والقيامة حقا ، وإن يكون القول بوجود الإله الحكيم حقا ، فإنهم لم
يذكروا شبهة ضعيفة ولا قوية في أن هذا الاحتمال الثاني باطل ، ولكنه خطر ببالهم
ذلك الاحتمال الأول فجزموا به ، وأصرروا عليه من غير حجة ولا بينة ، فثبت أنه
ليس لهم علم ولا جزم ولا يقين في صحة القول الذي اختاروه ، وأنهم اختاروه
بسبب الظن والحسبان ، وميل القلب إليه من غير موجب ، وهذه الآية من أقوى
الدلائل على أن القول بغير حجة وبينة قول باطل ، وأن متابعة الظن والحسبان منكر
عند الله تعالى .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذا تلى ﴾ أي : إذا قرئت ﴿ عليهم آياتنا ﴾ الناطقة بالبعث
والجزاء ﴿ بينات ﴾ ظاهرات الصحة ﴿ ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآياتنا ﴾
أي : ادعوا الله أن يبعثهم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في أننا نبعث بعد الموت ،
والاستثناء منقطع ، وسمي قولهم حجة تهكما ؛ لأنهم أدلوا به كما يدلي صاحب
الحجة ، وساقوه مساقها ، كقوله : تحية بينهم ضرب وجيع ^(٢)

(١) — أخرجه بمعناه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، فتح الباري ٤٧٥/٨ ، ومسلم كتاب الأدب برقم
٢٢٤٦ ، وأخرجه النسائي في تفسيره ٢٨٣/٢ ، وابن جرير ١٥٢/٢٥ عن أبي هريرة . (حاشية تفسير
الواحدى ٩٩١/٢) .

والحديث أيضا مع التفسير في الكشف ٤٣٩/٣ ، قال في تخريج الكشف : متفق عليه من حديث أبي هريرة ،
واللفظ لمسلم .

(٢) قال في الكشف : فإن قلت : لم سمي قولهم حجة ، وليس بحجة ، قلت : لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج
بحجته ، وساقوه مساقها ، فسميت حجة على سبيل التهكم ، أو لأنه في حسابهم وتقديرهم حجة ، أو لأنه
في أسلوب قولهم : تحية بينهم ضرب وجيع . الكشف ٤٣٩/٣ .

وفي المقاليد: قرئ (حجتهم) بالنصب على تقديم خبر كان . اهـ
والرفع شاذ ، والمعنى : ليس حجة إلا قولهم هذا ، وليس هو بحجة ، والمراد نفسي
أن يكون لهم حجة البتة .

ثم قال تعالى : ﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب ﴾ أي : لا شك ﴿ فيه ﴾ لنصف منقاد للحق ، لما كذبوا الرسل بالبعث ، وحسبوا أنهم قد بكتوهم بطلب آبائهم — ألزموا ما هم مقرون به من أن الله الذي يحييهم ثم يميتهم ، وضم إلى هذا الإلزام ما هو واجب عليهم الإقرار به إن أنصفوا ، وهو جمعهم إلى يوم القيامة ، ومن قدر على ذلك قدر على الإتيان بأبائهم .

قال الرازي : فإن قيل : هذا الكلام مذكور لأجل جواب من يقول : ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ فهذا القائل كان منكرا لوجود الإله ، ولوجود يوم القيامة ، فكيف يجوز إبطال كلامه بقوله : ﴿ قل الله يحييكم ﴾ ؟ وهل هذا إلا إثبات الشيء بنفسه وهو باطل ؟ .

قلنا : إنه تعالى ذكر الاستدلال بحدوث الحيوان والإنسان على وجود الفاعل الحكيم في القرآن مزارا وأطوارا ، فقوله هاهنا : ﴿ قل الله يحييكم ﴾ إشارة إلى تلك

وهو من قصيدة لعمر بن معد يكرب صاحب ربحانة أخت دريد بن الصمة ، التمس منه زواجها فأجابته ومطله ، وقيل : ربحانه اسم موضع بعينه ، وهي من أبيات مطلعها :

أمن ربحانة الداعي السميع	يورقي وأصحابي هجوع
وسوق كتيبة دلفت لأخرى	كأن زهاء رأس صليح
وخيل قد دلفت بها بحيل	تحمة بينهم ضرب وجيع

انظر شواهد الكشف .

الدلائل التي بينها وأوضحها مرارا ، فليس المقصود من ذكر هذا الكلام إثبات الإله بقول الإله ، بل المقصود منه التنبيه على ما هو الدليل الحق القاطع في نفس الأمر^(١) .

ثم قال تعالى في الكفار : ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ دلالة حدوث الإنسان والحيوان والنبات على وجود الإله القادر الحكيم ؛ لغفلتهم وإعراضهم عن النظر المؤدي إلى العلم ، ولا يعلمون أيضا أنه تعالى لما كان قادرا على الإيجاد ابتداء وجب أن يكون قادرا على الإعادة ثانيا .

ثم اعلم أنه تعالى لما احتج بكونه قادرا على الإحياء في المرة الأولى على كونه قادرا على الإحياء في المرة الثانية — عمم الدليل ، فقال : ﴿ وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لا شريك له في خلقها ، ولا فيمن فيها ، والمراد أن الله القدرة على جميع الممكنات سواء كانت من السموات أو من الأرض ، فإذا ثبت كونه تعالى قادرا على كل الممكنات ، وثبت أن حصول الحياة في هذه الذات ممكن ؛ إذ لو لم يكن ممكنا لما حصل في المرة الأولى فيلزم من هاتين المقدمتين كونه تعالى قادرا على الإحياء في المرة الثانية^(٢) .

ولما بين تعالى إمكان القول بالحشر والنشر بهذين الطريقين — ذكر تفاصيل أحوال يوم القيامة ، فأولها : قوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئذٍ يَخْسِرُ الْمَبْطُلُونَ ﴾ عامل النصب في ﴿ يَوْمَ تَقُومُ ﴾ يَخْسِرُ ، و ﴿ يَوْمِئذٍ ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَ تَقُومُ ﴾ والمبطلون : كهؤلاء الجاحدين للبعث .

وفي قوله : ﴿ وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ معنى الاحتجاج بثبوت البعث ، أي : فكما أنه متوحد بخلق السموات والأرض ومن فيهن ، فكذلك حكم الإعادة

(١) تفسير الرازي ٢٧/٢٧٠ ، وزاد الرازي : ولما ثبت أن الإحياء من الله تعالى ، وثبت أن الإعادة مثل الإحياء الأول ، وثبت أن القادر على الشيء قادر على مثله ، ثبت أنه تعالى قادر على الإعادة ، وثبت أن الإعادة ممكنة في نفسها ، وثبت أن القادر الحكيم أخير عن وقت وقوعها ، فوجب القطع بكونها حقه .

(٢) تفسير الرازي ٢٧/٢٧١ ، ٢٧٢ .

والبعث ، بل هي أهون في القياس ؛ لأن إعادة الشيء أهون من إنشائه ، ولأن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس .

ثم قال : ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ قال في البرهان : أي كل أهل دين [ومعنى] ﴿ جاثية ﴾ مجتمعة [من الجثوة وهي الجماعة] وجمعها : جثي ، وهو قول ابن عباس [لحساب] مترتبة لما يعمل بها [.

ثم قال : ﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ أي : إلى حسابها ، وهو من قوله تعالى : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه ... وأما من أوتي كتابه بشماله ﴾ (١) .

وقال الهادي عليه السلام : معنى ﴿ جاثية ﴾ هو : باركة على ركبها منتظرة لما يكون من حكم الله فيها ، ومعنى ﴿ تدعى إلى كتابها ﴾ هو توقف عليه وتدعا إلى جزاءه إن خيرا فخييرا أو شرا فشر (٢) . اهـ

قيل : الجاثين من المظللين ، وقيل : بل هو عام .

[بيان حال المؤمنين يوم القيامة]

وروى الثعلبي والواحدي : أن في القيامة ساعة هي عشر سنين ، يختر الناس فيها جثاة على ركبهم من الخوف حتى إن إبراهيم الخليل ينادي لا أسألك إلا نفسي اليوم قلت : وهذا غير صحيح لقوله عز وجل في أوليائه : ﴿ لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ (٣) وقوله جل وعلا : ﴿ تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ (٤) وهذا بشارة من الله لأوليائه في الحياة الدنيا ،

(١) إلى هنا انتهى ما في البرهان ، وما بين أقواس الزيادة موجود في المصاييح ، وغير موجود في البرهان . انظروا البرهان مخطوط ٣٤٤ .

(٢) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٥٤ ، وفيه : ومعنى { كتابها } فهو ما علم من فعلها ، تجازى عليه ، وتداني به .

(٣) الزخرف : ٦٨ .

(٤) فصلت : ٣٠٠ .

وستبشرهم الملائكة عليه السلام عند الموت ، ويوم القيامة بما أعد الله لهم من الكرامة ، هذا قول المرتضى عليه السلام ، أو معناه .

وذلك لأن الله عز وجل أخبر عنهم أنهم لا يحزنهم الفزع الأكبر ؛ لأن الآخرة هي دار الجزاء لا دار التكليف ، وإيصال الغم والحزن إنما يجوز في دار التكليف ؛ ولأنه قد صح عن رسول الله ﷺ (أن الملائكة تبشر في القبر من كان من أهل الثواب بالجنة) وكذلك القول في حال المعينة ، فكيف يجوز أن يردوا القيامة وهم شاكون في أمرهم ، وإنما تؤثر هذه الأحوال في أهل النار ؛ لأنهم يعلمون كونهم من أهل النار والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي : جزاء أعمالكم التي في الصحف ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ أضافه إليه تعالى ؛ لأنه مالكة ، والذي أمر بالكتابة فيه ﴿يَنْطِقُ﴾ يشهد ﴿عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ من غير زيادة ولا نقصان ، قيل : هو كتاب الأعمال الذي تكتبه الحفظة ، قاله ابن السائب ، وقيل : هو اللوح المحفوظ عن مقاتل ، وقيل : هو القرآن ونحوه من الكتب المنزلة على الأمم ، والمعنى : أنهم يقرؤنه فيدلهم ويذكروهم ، فكأنه ينطق عليهم ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ﴾ أي : نأمر الملائكة بكتب ﴿مَا كنتم تعملون﴾ .

قال في البرهان : والاستنساخ : ملكان يرفعان عمل الرجل صغيره وكبيره ، فيثبت الله ما كان من عمله له ثواب أو عقاب ، وي طرح منه اللغو الذي لا ثواب فيه ولا عقاب ، كقوله : هلم ، اذهب ، وتعال ، فذلك الاستنساخ^(١) . اهـ

وقال الواحدي : أكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ يستنسخ الملائكة كل عام ما يكون من أعمال بني آدم ، فيجدون ذلك موافقا لما يعملونه ، قالوا : فالاستنساخ لا يكون إلا من أصل .

(١) البرهان مخطوط ٣٤٤ .

قلت : والآية تهدم قول الجحيرة ؛ لأنه سبحانه ذكر بعد وصفهم الإيمان كونهم عاملين الصالحات ، فوجب أن يكون عمل الصالحات مغائرا للإيمان ، زائدا عليه .
ثم قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾
جنته ونعمته ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ أي : الظفر البين ^(١) .

(١) قال الحاكم الحشمي في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَحْيِيكُمْ ﴾ إلى هنا :

القراءة

قرأ يعقوب {جاثية كل أمة} بالنصب ، لقوله: {وترى} وهو مروى عن الأعرج ، والقراءة السبعة على الرفع على الابتداء.

اللفظة

الخسران ذهاب رأس المال ، والجثي : مصدر جثا يجثو جثوا وجثيا ، وقوم جثي ، وهو جاث .
والاستنساخ : الاستكتاب ، وقال الزجاج : لا يكون إلا من اصل كتاب إلى كتاب ، والنسخ : إزالة الشيء وإقامة غيره مقامه ، وفي الحديث (لم تكن نبوة للأنبياء نسخت) يعني : حولت من حال إلى حال ، أي : أمر الأمة .

المعنى

ثم رد الله تعالى عليهم قولهم ، واحتج لصحة البعث ، فقال سبحانه : ﴿ قُلِ ﴾ يا محمد لهم ﴿ اللَّهُ يَحْيِيكُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ﴾ فيها ، يعني : من أحياكم ابتداء وأماتكم هو الذي يميتكم ثانيا ، فليس الثاني أعجب من الأول ﴿ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ لفصل القضايا ، وإيفاء الجزاء ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي : لا شك ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قيل : لا يعلمون الله حق معرفته ، حتى يعلموا صحة البعث ، وقيل : لا يعلمون الحق من الباطل ، وقيل : لا يعملون أن حسن التكليف بالإعادة والجزاء ﴿ وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ أي : القيامة ﴿ يَوْمَئِذٍ يُخَسِرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ وهو القائل بالباطل ، والمعتقد له ، والعامل به ، وإنما كان خاسرا ، لأنه يدخل النار فيهلك نفسه ، قيل : المبطل خاسر في الأحوال كلها ، ولكن نظمه الخسران يوم القيامة ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جاثية ﴾ أي : جماعة ، قيل : الملل المختلفة عن ابن عباس ، وقيل : أرباب الملل الباطلة والعصاة ، عن الحسن ، وأبي علي ، وهو الوجه ، وقيل : بل كل الأمم ، المؤمن والكافر يجثو على ركبتيه للخصومة ، فالؤمن يفعل ذلك ليخاصم الظلمة ، فيظهر الحق من المبطل فيزداد سرورا ، والظالم يزداد غما ﴿ جاثية ﴾ بركة على ركبها عن مجاهد ، والضحاك ، وابن زيد ﴿ كُلَّ أُمَّةٍ ﴾ من أمم الأنبياء ﴿ تَدْعِي إِلَى كِتَابِهَا ﴾ قيل : الكتب التي فيها أعمالهم ، كتبها الحفظة ليجازي عليها عن الحسن ، وقيل : كتابها المنزل على رسولها ، ليسألوا عما عملوا به ﴿ الْيَوْمَ تَجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من الخير والشر ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ قيل : ديوان الحفظة المعقود عليهم ، وفيه شهادة الملائكة ، وأضاف النطق إلى الكتاب توسعا من حيث يفهم منه كما يفهم بالحي من النطق ، وعن علي (أن الله ملائكة ينزلون في كل

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ^(١) جواب ﴿أما﴾ محذوف ، أي : وأما الذين كفروا : فيقال لهم : ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فحذف فيقال لهم ، ومثله ﴿فأما﴾

يوم يكتبون أعمال بني آدم) عن ابن عباس ، وقيل : ثبتت عن الضحاك ، وقيل : تكتب عن السدي ، وقيل : تحفظ عن الحسن ، يعني : ثبتت منه ، ثم تعارض ما كتبه ما في اللوح المحفوظ ، فما كان مناط أمر بمحوها ، وما كان طاعة أو معصية أثبتها ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم في رحمته﴾ أي : نعمته ، وهي الجنة ﴿ذلك الفوز﴾ الظفر ﴿المبين﴾ الظاهر.

الأحكام

يدل قوله ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن الحق في كل زمان هم الأقل ، والأكثر مقلدة ومبظلة ، وتدل على أن المعارف مكتسبة ، ويدل قوله ﴿اليوم تجزون﴾ على أن الثواب والعقاب جزاء على الأعمال ، وأن تلك الأعمال فعل العبد ليس بخلق لله تعالى ، ويدل قوله ﴿هذا كتابنا﴾ أن أعمالهم مكتوبة محفوظة ، وأنهم يشهدون عليهم ، وفيه لطف للمكلف لأن علمه بذلك يدعوه إلى التحرز عن المعاصي .
(١) قال الحاكم في تفسيره من هذه الآية إلى آخر السورة :

القراءة

قرأ حمزة ﴿والساعة﴾ بالنصب عطفا على قوله : ﴿إن وعد الله﴾ وروي نحوه عن يعقوب وأبي رجاء العطاردي .

وقرأ الباقون ﴿والساعة﴾ بالرفع على الابتداء ، وخبره فيما بعده ، يؤيده قوله : ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة﴾ بالرفع لا غير .

وقرأ حمزة والكسائي ﴿يخرجون﴾ بفتح الياء — أضاف الخروج إليهم ، الباقون بضمها على ما لم يسم فاعله

قراءة العامة ﴿رب السموات ورب الأرض رب العالمين﴾ بالكسر على أنه نعت لله ، وعن ابن محيصن بالرفع على تقدير هو رب السموات .

اللغة

الاستكبار : استدعاء التعظيم ، ونظيره التكبر ، وهو الإعراض عن الحق أبية وتعظما ، والجسم : القطع ، والإحرام : الانقطاع إلى الفساد ، وأيقن واستيقن وعلم بمعنى ، وهو أن تسكن النفس إلى أن معتقده على ما اعتقده عليه ، والبدو : الظهور ، بدا يبدوا بدوا ، والحقيق : ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله ، حاق به الأمر يقيق إذا لزمه ووجب عليه . والاستعتاب : الإقالة ، استعته إذا استقال فأقاله ، وعتب عليه إذا وجد عليه ، فإذا فاضه فأعتب عليه عاتبه ، فإذا رجع إلى مسرتك فقد أعتب ، والاسم العتي .

الإعراب

يقال: ما جواب أما في قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قيل: في قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتٍ﴾ إلا أن الألف تقديمها، لأن لها صلة الكلام، والمراد به التقدير، وقيل: جوابه محذوف، والفاء في قوله ﴿أَلَمْ﴾ دليل عليها، تقديره فقال لهم ﴿أَلَمْ﴾ عن الزجاج، فأما قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ﴾ فجوابه محذوف، وتقديره يقال لهم: أكفرتم المعنى لما تقدم الوعد عقبه بالوعيد، فقال سبحانه ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ﴾ أي: يقال لهم توبينها وتنجينها إذا عاينوا العذاب ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتٍ﴾ حجتى في التوحيد والعدل، وقيل: القرآن وسائر الأحكام ﴿تَتْلَى﴾ عليكم ﴿أَي: تَقْرَأُ﴾ فاستكبرتم ﴿أَي: ترفعتم عن استماعها، وأنتم عن قبولها، وأعرضتم عن النظر فيها﴾ وكنتم قوماً مجرمين ﴿مُصْرِينَ عَلَى الْآثَامِ﴾ وإذا قيل إن وعد الله ﴿بِالْجَزَاءِ﴾ حق ﴿وَصَدَقَ﴾ والسَّعَةِ لا ريب فيها ﴿أَي: لاشك في كونها﴾ قلتم ﴿أَيها الكافرون﴾ ما ندرى ما الساعة ﴿أَي: لا ندرى حديث القيامة أنه حق﴾ إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴿يعني لا نعم يقينا أنها كائنة﴾ وبدا لهم سيئات ما عملوا ﴿قِيلَ: ظهر أفعالهم القبيحة فكانوا يظنونها حسنة﴾ وقيل: ظهر جزاء أفعالهم السيئة، وكانوا يعدونها طاعة ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ قيل: حل بهم، وقيل: وجب ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب، وقيل: وبال استهزائهم ﴿وقيل اليوم ننساكم﴾ قيل: تترككم في العذاب عن ابن عباس، والنسيان لا يجوز عليه تعالى، لأنه عالم لذاته، ولكن تركناهم في العذاب كما تركتم الإيمان بيومكم هذا، وقيل: كما لم تحفظوا ما أنذرتهم من لقاء هذا اليوم، كذلك لا يحفظون اليوم، ويطرحون، والنسيان: ضد الحفظ، والحفظ: مراعاة الشيء عن أبي مسلم، وقيل: تترككم في العذاب بمنزلة المنسي عن أبي علي ﴿وَمَا وَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: منزلتكم ومقامكم فيها ﴿وَمَالَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ينجيكم من العذاب ﴿ذَلِكَ﴾ يعني: هذا العذاب الذي أنزل بكم، لأنكم ﴿اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: استهزاء ولعباً ﴿وَعَرَّيْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: ملاذها وزينتها، وأضاف الغرور إليها توسعاً، لأنها سبب الغرور ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من العذاب ﴿وَلَا هُمْ يَسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا تقبل منهم العتبي، وهو إعطاء الرضاء، لأنهم في حال إلقاء، وقيل: لا يستوصون بل يطلب منهم الخروج مما وجب عليهم العتب لأجله، وهو التوبة، أي: لا يطلبون التوبة عن أبي مسلم، وقيل: لا يرجعون إلى مكالمتهم ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ أي: الشكر في نعمه، الجزاء، والإنصاف، والانتصاف، وتمييز المحسن من المسيء ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكَرِيمَاءُ﴾ أي: العظمة والعلو والرفعة، وقيل: أراد عظيم على أهل السموات والأرض ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: القادر على ما يشاء لا يمتنع عليه شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ قيل: العالم، وقيل: المحكم لأفعاله فلا يعاب في شيء منه، ولا يفعل إلا الحسن الجميل.

الأحكام

يدل قوله ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أن المانع من جهتهم، وهو التكبر، والأنفة، خلاف قول الجبرة: إن الله منعهم، ويدل قوله ﴿إِنْ نَظُنُّ﴾ أن المعارف ليست ضرورية، ويدل قوله: ﴿وَمَالَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أن الكفار لا

الذين اسودت وجوههم أكفرتم ﴿١﴾ والمعنى : ألم تأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم ، فحذف المعطوف عليه ﴿فَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها ، والانقياد للحق ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ مصرين على جرائم الكفر والمعاصي .
﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وهو البعث والجزاء ﴿وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي : لاشك في وقوعها .

قرئ (الساعة) رفعا ونصبا ، قال الزجاج : من نصب فعلى الوعد ، ومن رفع فعلى معنى ، وقيل : الساعة لا ريب فيها ، قال الأخفش : الرفع [أجود] في المعنى ، وأكثر في كلام العرب إذا جاء بعد ظرف " لأنه كلام مستقل بنفسه بعد مجيء الكلام الأول بتمامه

﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظْنَ إِلَّا ظَنًّا﴾ قيل : معناه إن نحن إلا نظن ذلك ظنا ، فقدم الفعل قبل ﴿إِلَّا﴾ وأخر المصدر لعدم اللبس .

وقيل : معناه إن نظن ذلك إلا ظنا ضعيفا ، والمعنى : أن قيام الساعة متوهم عندهم غير معلوم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ لصدق قولكم فيها ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي : أظهر لهم قبائح أعمالهم ، أو عقوبات أفعالهم السيئة " ، فيجوز أن يقدر مضاف ، أي : جزاء سيئات ما عملوا ، ويجوز أن يراد ظهور السيئات مكتوبة ، وصحائف أعمالهم .

﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي : رجع وأحاط ونزل بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي : جزاء الاستهزاء بالقرآن ، والمرسل به .

شفاعة لهم ، وأجمع المسلمون على ذلك ، ويدل قوله ﴿غررتكم﴾ أن الواجب على العاقل أن لا يغتر بالدنيـة ، وأن يتفكر في العاقبة ، ويدل قوله : ﴿فلله الحمد﴾ أنه لا يفعل القبيح إذ لو كان كل قبيح منه لما استحق الحمد .
(١) آل عمران : ١٠٦ .

(٢) أي : بعد خير . كما جاء في تفسير الرازي ٢٧/٢٧٤ .

(٣) هذا من باب وضع السبب الذي هو السيئات موضع المسبب الذي هو العقوبات .

﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ ﴾ بترككم في العذاب ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ ﴾ أي : كما تركتم عِدَّةَ ﴿ لِقَاءِ يَوْمِكُمْ ﴾ أي : كما تركتم العمل للقاء يومكم ﴿ هَذَا ﴾ أو نجعلكم بمنزلة المنسي غير المبالي به ، كما لم تبالوا بلقاء يومكم ولم تخطروه ببال ، كالشيء الذي يطرح نسيا منسيا ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ مصيركم الذي تأوون إليه ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ يدفع العذاب عنكم ، أو يخففه ، فجمع الله عليهم من وجوه العذاب الشديد ثلاثة أشياء فأولها : قطع رحمة الله تعالى عنهم بالكلية ، وثانيها : أنه يصير مأواهم النار ، وثالثها : أنه لا يحصل لهم أحد من الأعوان والأنصار .

ثم بين تعالى أنه يقال لهم : إنكم إنما صرتم مستحقين لهذه الوجوه الثلاثة من العذاب الشديد لأجل أنكم أتيتم بثلاثة أنواع من الأعمال القبيحة ، فأولها : الإصرار على إنكار الدين الحق ، وثانيها : الاستهزاء به والسخرية منه ، وهذان الوجهان داخلان تحت قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾ أي : مهزؤا هلا وكذبتموها ، وثالثها : الاستغراق في حب الدنيا ، والإعراض بالكلية عن الآخرة ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ برهرتها فبطرتم وغفلتم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ قراءة حمزة والكسائي (يُخْرِجُونَ) بفتح الياء ، والباقون بضمها ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي : يراجعون الكلام بعد دخولهم النار ، ولا يجابون إلى مطلبهم ، وهو إزالة العتب ، أي : قبول الاعتذار بالتوبة ، وقيل : لا يطلب منهم أن يُعتبوا ، أي يُرضوا رهم ، والاستعتاب : طلب إزالة العقاب ، وعقاب الله غضبه ، وعقابه فلا يطلب منهم إزالته ذلك اليوم لزوال التكليف

ولما تم الكلام ختم السورة بتحميد الله تعالى فقال : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فاحمدوه ، فإن مثل هذه الربوبية العامة توجب أن يحمد على كل مربوب . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ ﴾ أي : العظمة والسلطان ﴿ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ القوي الغالب ، القاهر لكل شيء ، القادر عليه

سورة الدخان

تسع وخمسون آية في الكوفي ، وسبع في البصري ، وست في الحجازي والشامي

(مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله عز وجل: ﴿حَمِّ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إن جعلت ﴿حم﴾ تعديدا للحروف كلان واو ﴿الكتاب﴾ واو القسم ، وإن جعلت ﴿حم﴾ اسما للسورة مقسما بها كلنت الواو العاطفة ﴿والكتاب المبين﴾ هو القرآن المبين ، أو المبين لما فيه من العلوم ، وفي قوله: ﴿حم والكتاب المبين﴾ وجوه من الاحتمال .

أولها : أن يكون التقدير : هذه حم والكتاب المبين ، كقولك : هذا زيد والله .

وثانيها : أن يكون الكلام قد تم عند قوله: ﴿حم﴾ ثم يقال: ﴿والكتاب المبين إننا أنزلناه﴾ فيكون ذلك في التقدير قَسَمِينَ على شئ واحد^(١) وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ جواب القسم^(٢) .

(١) ويكون التقدير على هذا : وحم والكتاب المبين ، بتقدير حرف قسم قبل حم .

(٢) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله تعالى : {فيها يفرق كل أمر حكيم} معناه : يقضي ويدبر في الليلة المباركة ، وهي ليلة القدر ، يقضي فيها أمر السنة من الأرزاق وغير ذلك إلى مثلها من السنة الأخرى .

وقوله تعالى : ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ معناه : فانتظر يوم تأتي السماء بدخان مبين .

وقوله تعالى : ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾ معناه : يوم بدر .

وقوله تعالى : ﴿أن ترجمون﴾ معناه : تقتلون .

وقوله تعالى : ﴿واترك البحر رهوا﴾ معناه : ساكن ، ويقال : طريق بالبطية .

وأما قوله : ﴿ في ليلة مباركة ﴾ فقال في التجريد : فيها قولان : أحدهما وعليه الأكثرون : أنها ليلة القدر ، والثاني عن عكرمة : أنها ليلة النصف من شعبان ، والصحيح الأول .

[كيفية نزول القرآن وترتيبه]

قال إمامنا المنصور بالله رحمة الله عليه في جواب من سألته ، حيث قال : سألت أروشدنا الله وإياك فقلت : ذكروا أن القرآن نزل جميعه في ليلة القدر جملة واحدة فكيف كان تفصيلا من بعد ، وترتيبه ؟ أبوحى من الله ، أم باصطلاح الأمة ؟ قال عليه السلام : الجواب والله الموفق أن القرآن نزل جميعه دفعة واحدة إلى السماء الدنيا في شهر رمضان في ليلة القدر بدليل قوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ " وقوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ ثم نزل نجوما ودفعات في أوقات شتى في شهر رمضان وغيره ، وكان بعضه متوقفا على أسباب فنزل ما كان على سبب عند حدوث سببه ، وهذا مما لا خلاف فيه بين الأمة ، وأئمة النقل مجتمعون على نقل ذلك من رسول الله ﷺ ، وعن الصحابة الذين كانوا يعلمون نزول القرآن عند نزول الحوادث وغيرها .

وقوله تعالى : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ يقال : إنه ليس من مؤمن إلا وله باب يصعد فيه عمله وكلامه ، وباب يخرج منه رزقه ، فإذا مات وفقد بكتا عليه أربعين صباحا ، ولم يكن لآل فرعون أعمال صالحة تبكي ذلك عليهم

وقوله تعالى : ﴿ وما نحن بمنتشرين ﴾ معناه : بمبعوثين يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ لا يغني مولى عن مولى شيئا ﴾ فالمولى : ابن العم .

وقوله تعالى : ﴿ إن شجرت الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ فشجرة الزقوم : شجرة في النار ، والمهل : صديد أهل النار ، والأثيم : أبو جهل بن هشام .

وقوله تعالى : ﴿ خذوه فاعتلوه ﴾ معناه : سرقوه ﴿ إلى سواء الجحيم ﴾ أي : وسطه .

وأما ترتيب السور والآيات فذلك توقيف عن رسول الله ﷺ يؤيد ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا نزلت السورة أو الآية قال : اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا ، قال عثمان : وتوفي رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أين نضع براءة ، وكانت قصتها شبيهة بقصة الأنفال ، فلذلك قرنت بها ، وكانتا تدعيان القرينتين . وقال بعضهم : سورة الأنفال والتوبة سورة واحدة كلتاها نزلت في القتال بعدان السابعة من الطول ، وأول الطول البقرة ، وهاتان السورتان أعني الأنفال وبراءة آخرها وبعدها ، قال بعضهم : هما سورتان وضعت كل واحدة موضعها ، يريد أن ذلك بوضع النبي ﷺ ، وكل هذا الخلاف في براءة يعكس عن النبي ﷺ فاعلم ذلك .

قال عليه السلام : والراجح أنها سورة وحدها ، وما كان للنبي ﷺ أن يتركها من غير بيان ، لقوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ ^(١) وقوله ﷺ : (ما من شيء يقربكم إلى الجنة إلا دللتكم عليه ، ولا شيء يقربكم إلى النار إلا حذرتكم عنه) ولو اصطلحت الأمة على ذلك ، فعندنا أنه لا يكون إلا عن مستند إلى النبي ﷺ ولا يصح إجماعهم من غير مستند ؛ لأنه يؤدي إلى الخطأ كما ذكره القاسم بن إبراهيم عليه السلام ، كإجماعهم على عهد رسول الله ﷺ على أخذ الفداء من الأسرى من غير مستند لهم من الوحي ، فخطأهم الله سبحانه وتعالى ، فقال تعالى : ﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ ^(٢) وهذا مذهبي في الأصول فاعلم ذلك . اهـ ^(٣)

(١) المائدة : ٣ .

(٢) الأنفال : ٦٨ .

(٣) يوفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياشي عليه السلام ما لفظه :

تأويل قول مولانا العظيم الجليل عز وجل ﴿ في ليلة مباركة ﴾ أي : فيها خير ورزق ، والبركة : هي الرزق والسرور ، قال : الشاعر :

أهوى لها غائض كفا مباركة فانغاز عنه طباق الماء فانقشعا

ومعنى ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ معنى ﴿ يفرق ﴾ هو يقطع ويفصل ، حتى يتبين ويتفصل للناظرين ، ومعنى ﴿ يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ قيل : إن السماء إذا انشقت يوم القيامة ورجعت إلى أصلها ، الندي هو الدخان ، فعادت كالغمام الذي هو مثل الدخان ، قال : الله عز وجل : ﴿ يوم تشقق السماء بالغمام ﴾ أي : تشقق بسحاب من الدخان ، والله أعلم . وإنما سمي الغمام غماما ؛ لأنه يغم ويستر ، ويغطي الأشياء حتى لا تبصر . ﴿ وقالوا معلم مجنون ﴾ أي : علمه بعض السحرة — وكذب أعداء الله فيما زعموا — بل عموا عن نور الحق ، وتوهوا .

﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون ﴾ أي : نحن نكشف العذاب عنكم إلى حين ﴿ إنكم عائدون ﴾ أي : راجعون إلينا في يوم البعث والدين . وقيل : إن النبي ﷺ دعا على مصر [أي مكة] لما كثرت تكذبيهم له وعداؤهم إياه ، فقال : اللهم اشد وطأتك على مصر بسنين كسنتين يوسف ، فجاءوا حتى أكلوا العظام ، وثارت الأرض والأهوية والسماء عليهم بدخان عظيم ، حتى قالوا : هذا عذاب عظيم نزل بنا من السماء ، فقال : ﴿ إنا منتقمون ﴾ ومعنى ﴿ إنا منتقمون ﴾ أي : مجازون ومعذبون ، قال : الشاعر :

القسوس زوراء بها شقوق
تمثلها تنتقم الحقوق

أي : تقتضى وتجزى . وقال : آخر :

يقوم على الرغم في قومه
فيغفر أو يسامح أو ينتقم

أي : يجازي ويعذب .

﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ﴾ أي : عذبتنا ، ومعنى ﴿ وجاءهم رسول كريم ﴾ أي : رفيع عظيم متحنن ، متعطف ، رحيم ، ودود ، حسن الأخلاق ، حلیم ، يعني موسى عليه السلام ، ومعنى ﴿ لا تعلوا على الله ﴾ أي : لا تكبروا على الله ﴿ إني آتيكم سلطان مبين ﴾ أي : بحجة بينة . قوله : ﴿ واترك البحر رهوا ﴾ أي : خاليا من الماء هواء ، قال : الشاعر :

وعانقته والخيـل رهوا كأنها
جداول زرع أرسلت فاستطرت

ومعنى ﴿ رهوا ﴾ أي : خالية عن الركبان حين يسقط أصحابها عن سروجها ، ومعنى ﴿ ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾ أي : مسرورين معجيين ، ومعنى ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ أي : ما بكى عليهم أهل السماء ولا أهل الأرض .

ومعنى ﴿ كان عاليا من المسرفين ﴾ أي : طاغيا مجاوزا لقدره ، متكبرا عن حده ، متعديا لحل نفسه ، مسرفا في كل أمره . ومعنى ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ يعني الرسل ، أي : بعلم على الناس أجمعين لما رأينا في قلوبهم من محبة اليقين ، ومعنى ﴿ وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ﴾ أي : فضل وعطاء مبين ، قال : الشاعر :

فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

أي : أعطاهما وتفضل عليهما .

﴿ وما نحن بمُشترين ﴾ أي : بمُبعوثين ، والنشور : هو الحياة بعد الموت والبعث ، قال : الشاعر :

فليت الجليسين الكريمين أنشورا غداة التقينا والنحور دوامي

ويا ليت عبد الله يجلس ساعة فينظر بالعينين بعد حمام

أي : ليتهم بعثوا فينظروا كيف قتلناهم من قتلهم ، وقال : مولانا عز وجل : ﴿ انظر إلى العظام كيف ننشرها ﴾ أي : كيف نجيبها ، ومعنى ﴿ لا يغني مولى عن مولى ﴾ أي : لا يدفع ولي عن وليه ، ولا ينحسب حبيب عن حبيبه ، ومعنى ﴿ كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ المهل : هو صفو القطران ﴿ يغلي ﴾ أي : [يغور] ويتحرك ويحترق وينضج ، كما يغلي الحميم ، وهو الماء الحار .

ومعنى ﴿ خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ﴾ أي : إلى وسط النار ، قال : الشاعر :

رماهم بسهم فاستوى في سوائها وكان قتولا للهودي الطسوارق

ومعنى ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ هذا تذكيت وتقريع وتوبيخ ، قال : الشاعر :

قال : البقية يا قيسا فقلت له ذق يا حذيف فأنت السيد الصمد

أي : بزعمك على وجه التذكيت والتوبيخ ، ولم ترد مدحه ، ومعنى ﴿ ما كنتم به تمثرون ﴾ أي : فيه تشكون ومعنى ﴿ في مقام أمين ﴾ أي : في محل إقامة وثبات ودوام .

قال : الحاكم الجشعي في تفسيره هذه السورة — إلى قوله تعالى : ﴿ ورب آبائكم الأولين ﴾ :

القراءة

قرأ حمزة وعاصم والكسائي ﴿ رب السموات ﴾ بكسر الباء من رب ردا على قوله : ﴿ رحمة من ربك ﴾ تقديره رحمة من ربك ، رب السموات ، وقرأ الباقون بالرفع ردا على قوله : ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ وقيل : على الابتداء .

اللغة

البركة : ثناء الخير ، ونقيضه الشؤم ثناء الشر ، والإنذار الإعلام بمواضع الخوف لتتقئ ، ومواضع الأمن ليحتقئ أنذر فهو منذر ، والله تعالى أنذر عباده بأثم الإنذار ، والفرق : الفصل بين الشيئين ، ومنه الفرقان ، ومنه طلوع الفرقان ، أي : الصبح ، يفرق بين الليل والنهار . واليقين : سكون النفس إلى الشيء ، ومثله العلم ، ونقيضه الشك والجهل .

الإعراب

﴿ حم ﴾ محله كسر للقسام ﴿ أمرا ﴾ قيل : نصب على المصدر ، وقيل : على المدح عن أبي مسلم ، وقيل : نصب على معنى يفرق كل أمر فرقا ، وأمرا ، فوضع أمرا موضع فرقا فهو نصب على المصدر عن الفراء ، وقيل : نصب على الحال ﴿ رحمة ﴾ نصب على تقدير رحم رحمة ، وهو مصدر وضع موضع الحال .

المعنى

﴿حم﴾ قد بينا ما قيل فيه وأنه اسم السورة ، أو إشارة إلى أنه معجز حيث ألف القرآن من الحروف التي يتكلمون بها ، وعجزوا عن مثلها ، أو إشارة إلى حدث القرآن ، أو مفاتيح أسماء الله تعالى . ﴿والكتاب المبين﴾ قيل : أقسم بالكتاب ، وهو القرآن ، وسورة حم ، وقيل : برب الكتاب ، ومنزله عن أبي علي ، ثم وصف الكتاب فقال : ﴿المبين﴾ الذي يبين الأحكام ، والمبين هو الله تعالى إلا أنه لما بين في الكتاب أضافه إليه توسعا ، وقيل : بين مصالح المخلوق ، وما يحتاج إليه في الدين ﴿إنا أنزلناه﴾ يعني القرآن ﴿في ليلة مباركة﴾ قيل : ليلة القدر عن ابن عباس وقتادة وابن زيد ، وأبي علي ، وأبي مسلم ، وقيل : ليلة النصف من شعبان ، عن عكرمة ، والأول الوجه . واختلفوا ف قيل : أنزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أنزل نجوما على النبي ﷺ وقيل : ابتداء بإنزاله في ليلة القدر ﴿مباركة﴾ لأن فيها يقسم الله نعمه بين عبادة من السنة إلى السنة ، وقيل : يعفوا ويقسم الرزق عن ابن عباس ﴿إنا كنا منذرين﴾ مخوفين لهم أن نقضي لهم بالعقل ، وقيل : مخوفين بما بينا في الكتاب من تعذيب العضاة عن أبي علي ، وقيل : أنزلنا الكتاب إنذارا به عن أبي مسلم ﴿فيها﴾ أي : في هذه الليلة ﴿يفرق﴾ يقضى ويفصل ﴿كل أمر حكيم﴾ قيل : مريم في ليلة القدر من شهر رمضان كل أجل وعمل ورزق ، وما يكون في تلك السنة عن الحسن وقتادة ومجاهد ، وقيل : يفعل ذلك ليلة النصف من شعبان عن عكرمة ﴿أمرنا من عندنا﴾ يعني : الفصل يكون بأمرنا ، وقيل : بفعلنا ، والأمر يكون بمعنى الفعل ، وقيل : أمرا أردنا بإرسال الرسل عن أبي مسلم ﴿إنا كنا مرسلين﴾ قيل : مرسلين بذلك إلى رسول الله ﷺ عن أبي علي ، وقيل : مرسلين الأنبياء إلى المخلوق على حسب المصلحة ، وقيل : مرسلين الملائكة إلى الأنبياء ، وقيل : لمرسلين محمدا عليه السلام إلى الخلق ﴿رحمة﴾ قيل : أنزلناه رحمة ، وقيل : أرسلناه رحمة ، وقيل : فعلنا ذلك في هذه الليلة رحمة ، وقيل : الرحمة النعمة العظيمة .

ومنى قيل : إذا قال : مباركة ورحمة فكان يجب أن يكون كلها الخير فلم قال : ﴿منذرين﴾ ؟ قلنا : لأن فيه كما تقسم الأرزاق والنعم ، تقسم الآجال والموت ، فحذر بذلك لئلا يأتيه بغتة ، ليتأهب له ، وذلك أيضا رحمة منه ﴿إنه هو السميع العليم﴾ لما يقوله الحق والمبطل عند إرسال الرسل ﴿العليم﴾ بالخلق يرسل من يصلح ﴿رب السموات والأرض وما بينهما﴾ يعني خالقهما ومالكهما ﴿إن كنتم موقنين﴾ قيل : أيقنوا أن الله ربكم ، وإن محمدا رسوله ، والقرآن تنزيله ، وقيل : معناه إن كنتم تطلبون اليقين وتريدونه ، وإنما أراد إيجاب العلم والمعرفة ، كقوله : فلان منجد ومتهم ، يريد نجدا وقامة ، عن أبي مسلم ﴿لا إله إلا هو يحيي ويميت﴾ أي : هو المختص بالقدرة على الموت والحياة ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ أي : خالق الجميع .

الأحكام

يدل قوله ﴿إنا أنزلناه﴾ على حدوث القرآن ، ويدل قوله ﴿في ليلة﴾ أنه اختص إنزاله بتلك الليلة ، ويدل قوله ﴿فيها يفرق﴾ على اختصاص تلك الليلة بتدبير الله أمر عباده ، وقسمة الآجال ، وما يكون في

والليلة المباركة : كثيرة الخير والمنافع لما يقضى فيها من مصالح العباد في دينهم ودنياهم ، وكفى بتزول القرآن فيها بركة . قال الرازي : قالوا هذا يدل على حدوث القرآن لوجوه الأول : أن قوله : ﴿ حم ﴾ تقديره : هذه حم ، يعني هذا شيء مؤلف من هذه الحروف ، والمتألف من الحروف المتعاقبة محدث ، الثاني : أنه ثبت أن الحلف بهذه الأشياء لا يصح ، بل بإله هذه الأشياء فيكون التقدير : ورب حم ، ورب الكتاب المبين ، وكل ما كان مربوباً فهو محدث ، الثالث : [أنه] وصفه بكونه كتاباً والكتاب مشتق من الجمع ، ومعناه : مجموع ، والمجموع محل تصرف الغير ، وما كان كذلك فهو محدث ، وقد ذكرنا مراراً أن جميع هذه الدلائل تدل على أن الشيء المركب من الحروف المتعاقبة والأصوات المتوالية محدث والعلم بذلك ضروري بديهي لا ينازع فيه إلا من كان عدم العقل^(١) .

ثم قال بعدها : وإنما الذي ثبت قدمه شيء آخر سوى ما تركب عن هذه الحروف والأصوات

قلت : وهذا تحكم محض ، وإثبات لمن لا يعقل ، وميل عن الحق بعد بيانه ووضوح برهانه . والله أعلم .

ومعنى ﴿ إنا كنا منذرين ﴾^(٢) أي : محذرين عبادنا من العقوبة بإنزال الكتاب ، وكان مقتضى بركتها أن لا يقضى فيها شيء من المكروه من أجل وغيره ؟ .

تلك السنة من الحوادث ، وإنما فعل ذلك مصلحة للملائكة ، وفي الخبر عنه مصلحة لنا ، ويدل قوله : ﴿ موقنين ﴾ أن فيهم من لا يوقن ، وذلك يبطل قول أصحاب المعارف .

(١) بقية كلام الرازي : لا ينازع فيه إلا من كان عدم العقل ، وكان غير عارف بمعنى القدم والمحدث ، وإذا كان كذلك فكيف ينازع في صحة هذه الدلائل ، إنما الذي ثبت قدمه .. الخ الرازي ٢٣٧/٢٧ .

(٢) قال : السيد العلوي في حاشيته : قال : صاحب الكشف : جواب القسم ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ دون قوله : ﴿ إنا أنزلناه ﴾ لأنك لا تقسم بالشئ على نفسه ، لأن القسم تأكيد حين يجبر بآخر ، وقوله : ﴿ إنا أنزلناه ﴾ اعتراض بين القسم وجوابه ، وقال : أبو البقاء : الجواب ﴿ إنا أنزلناه ﴾ ﴿ وإنا كنا ﴾ مستأنف وقيل : هو جواب آخر من غير عاطف ، والجواب عن قول صاحب الكشف : أنا لا نسلم أنه إقسام بالشئ

والجواب : أن الإنذار نعمة لما فيه من التحذير لئلا يأتي الموت بغتة فيتأهب له ، وهذا من بركتها .

﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ أي : محكم من أرزاق العباد ، وآجالهم ، وجميع أمورهم منها إلى الليلة الأخرى القابلة ، وعن بعضهم : يعطى كل عامل بركات أعماله فيلقى على السنة الخلق مدحه وعلى قلوبهم هيئته .

قال في التجريد : قال ابن عباس : يكتب من أم الكتاب في كل ليلة قدر ما هو كائن في السنة من الخير والشر والأرزاق ، والآجال حتى الحاج ، وإنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ، ونسخة الحروب إلى جبريل ، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا ، ونسخة المصائب إلى ملك الموت . اهـ

وفي الكشف : فإن قلت ﴿ إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ ما موقع هاتين الجملتين ؟ قلت : هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان^(١) فسر بهما جواب القسم الذي هو قوله : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ كأنه قال : إنا أنزلناه ؛ لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب ، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصا . اهـ ومعنى ﴿ أمرا من عندنا ﴾ أي : أنزلناه حال كونه أمرا من عندنا بما يجب أن يفعل ،

على نفسه ، لأن المقسم به الكتاب المين ، والمقسم عليه إنزاله في ليلة مباركة ، بل هو من باب تناسب القسم والمقسم عليه كما في قوله : " وثنايا كأنها إعرىض " كما ذكره في أول سورة الزخرف ؛ ولأننا لو سلمنا أن ﴿ إنا أنزلناه ﴾ نفس المقسم به منعنا من وقوعه اعتراضا ؛ إذ لا يعترض بين الشيء وغيره بنفس ذلك الشيء .

(١) قوله : ملفوفتان : قال : السيد العلوي في حاشيته على الكشف : وهو نوع غريب من اللف والنشر ، لصف أولا في قوله : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ معنيين ، إنزال القرآن ، واختصاصه بليلة مباركة ، ثم علل المعنى الأول بقوله : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ ولما كان المعنى الثاني ملتبسا بالمعنى الأول غير مستقل بنفسه كما عليه النشر المتعارف ؛ لأنه لا يتم إلا بأن يقال : إنما خصص إنزاله في هذه الليلة لأنه من الأمور الحكيمة ، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم ، فاسب إنزاله فيها ، قال : جملتان مستأنفتان ملفوفتان ، فاعجب بنشر فيه لف

أو بمعنى : أنزلناه آمرين .

وفي التحرير : ﴿أمرنا من عندنا﴾ أراد أمرا عظيما من عندنا [أي : كما اقتضاه علمنا وتدبيرنا ، ونصبه على الاختصاص بتقدير أعني أمرا ، أي : شأننا ^(١) ، أو معناه : يفرق كل أمر حكيم فرقا من عندنا] ^(٢) فوضع الأمر موضع الفرق ^(٣) ؛ لأنه أمر .

وقوله : ﴿إنا كنا مرسلين﴾ يجوز أن يكون بدلا من ﴿إنا كنا منذرين﴾ و ﴿رحمة من ربك﴾ مفعولا له على : إنا أنزلنا القرآن ؛ لأن من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا لأجل الرحمة عليهم ، وأن يكون تعليلا لـ ﴿يفرق﴾ أو لقوله : ﴿أمرنا من عندنا﴾ و ﴿رحمة﴾ مفعولا به قاله في الكشف ^(٤) .

قال الرازي في بيان نظم هذه الآيات : اعلم أن المقصود منها بيان تعظيم القرآن من ثلاثة أوجه أحدها : بيان تعظيم القرآن بحسب ذاته ، الثاني : بيان تعظيمه بحسب شرف الوقت الذي نزل فيه ، والثالث : بيان تعظيمه بسبب منزله . أما بيان تعظيمه بحسب ذاته فمن ثلاثة أوجه أحدها : أنه تعالى أقسم به ، وذلك يدل على شرفه .

وثانيها : أقسم به على كونه نازلا في ليلة مباركة ، وقد ذكرنا أن القسم بالشئ على حالة من أحوال نفسه يدل على كونه في غاية الشرف .

وثالثها : أنه تعالى وصفه بكونه مبينا ، وذلك يدل على شرفه في ذاته .

وأما النوع الثاني : وهو بيان شرفه لأجل شرف الوقت الذي أنزل فيه فهو قوله :

(١) قوله : منصوب على الاختصاص ، فإنه جعل كل أمر جزلا فخما ، فأن وصفه بالحكيم ، ثم زاده جزالة وكسبه فخامة بأن قال : أعني بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا ، كائنا من لدنا ، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا

(٢) — ما بين القوسين ساقط من أ ، وهو موجود في ب .

(٣) فهو منصوب بـ ﴿يفرق﴾ على المصدرية .

(٤) انظر الكشف ٢٧١/٤ ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ ثم نقول : إن قوله : ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ يقتضي أمرين أحدهما : أنه تعالى أنزله ، والثاني : كون تلك الليلة مباركة ، فذكر تعالى عقيب هذه الكلمة ما يجري مجرى البيان لكل واحد منهما .
أما بيان أنه تعالى لم أنزله ؟ فهو قوله : ﴿إنا كنا منذرين﴾ يعني الحكمة في إنزال هذه السورة أن إنذار الخلق لا يتم إلا به .

وأما [بيان] أن هذه الليلة مباركة فهو أمران أحدهما : أنه يفرق فيها كل أمر حكيم والنوع الثاني : أن ذلك الأمر الحكيم مخصوصاً بشرف أنه إنما يظهر من عنده ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿أمرنا من عندنا﴾ .

وأما النوع الثالث : فهو بيان شرف القرآن لشرف منزله ، وذلك هو قوله : ﴿إنا كنا مرسلين﴾ فبين أن ذلك الإنذار والإرسال إنما حصل من الله .

ثم بين أن ذلك الإرسال إنما كان لأجل تكميل الرحمة ، وهو قوله : ﴿رحمة من ربك﴾ وكان الواجب أن يقال : رحمة منا ، إلا أنه وضع الظاهر موضع الضمير إيداناً بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين .

ثم بين أن تلك الرحمة وقعت على وفق حاجات المحتاجين ؛ لأنه تعالى يسمع تضرعاتهم ، ويعلم أنواع حاجاتهم ، فلهذا قال سبحانه : ﴿إنه هو السميع﴾ لكل مسموع ﴿العليم﴾ بكل معلوم .

ثم قال تعالى : ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ [أي : إن كان إقراركم عن علم وإيقان لأهم كانوا يقرون بأنه رب السموات والأرض وما بينهما]^(١) ، المقصود من هذه الآية أن المنزل إذا كان موصوفاً بهذه الجلالة والكبرياء كان المنزل الذي هو القرآن في غاية الشرف والرفعة^(٢) .

(١) ما بين هذين القوسين ليس من كلام الرازي . وإنما هو من كلام المصنف .

(٢) إلى هنا انتهى ما نقله المصنف عن الرازي انظر الرازي ٢٧/٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١ .

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا شريك له في الإلهية ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي : لا يحيي الأموات إلا هو ، ولا يميت الأحياء غيره ﴿رَبِّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ .
ثم إنه تعالى رد أن يكونوا موقنين بقوله : ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ فليسوا موقنين بأن الله رب السموات والأرض بل إقرارهم بربوبيته مخلوط بهزوء ولعب لإشراكهم به ، وتكذيبهم برسله ، واللعب : ما لا يفيد ، وهو العبث ﴿فَارْتَقِبْ﴾ أي : انتظر يا محمد ، يقال ذلك في المكروه ، والمعنى : انتظر يا محمد عذابهم ^(١) .

(١) يريد هنا أن مفعول الارتقاب محذوف لدلالة ما بعده عليه ، وهو قوله : ﴿هذا عذاب أليم﴾ ، ويجوز أن يكون ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ مفعول ارتقب .

قال : الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾

القراءة

قرأ أبو جعفر ﴿نبطش﴾ بضم الطاء ، والباقون بكسرها ، وهما لغتان ، وهو أخذ بشدة بطن يطش بطناً فهو باطش ، ويطش بيطش مثل عرش يعرش ويعرش .

اللغة

الارتقاب: الانتظار ، ومنه الرقيب بين اثنين ، لأن كل واحد منهما ينتظر موت صاحبه ، والارتقاب الحفظ أيضاً من ذلك ، ومنه : الرقيب الحافظ ، وسواء قولك : ترقب ويرتقب ، والغشى : اللباس ، ومنه الغشيان ، وغاشية السرج . والألم : عرض يدرك لا يحصل من فعلنا إلا متولداً من ومن فعل الله تعالى يحصل مبتدأ ومتولداً ، فأما الذي يحصل عند تناول الأشياء المرة والكريهة فليس بمعنى عندنا ، وإنما هو إدراك ما ينفر عنه طبعه ، ألم يؤله إبلا ما ، وألم يألم ألما .

الإعراب

كاشفوا : معناه كاشفون فحذف النون .

المعنى

لما تقدم ذكر القرآن ، وأحوال المؤمنين عقبه بذكر أحوال الكفار ، فقال : سبحانه ﴿بَلْ هُمْ﴾ يعني الكفار ﴿فِي شَكٍّ﴾ من القرآن والنبوة ﴿يَلْعَبُونَ﴾ قيل : يشتغلون ويترددون في أحوال الدنيا ، وقيل : يستهزئون بك وبالقرآن إذا قرئ عليهم ، ويلمعون عن أبي علي ، والمراد أنهم أهملوا أنفسهم ، ولم ينظروا وسلوكوا طريق الشك في أمر الآخرة ، وأقبلوا على اللعب ﴿فَارْتَقِبْ﴾ انتظر هؤلاء ومجازاتهم ﴿يوم تأتي السماء بدخان

مبين ﴿ يغشاهم يقولون : يا رب هذا عذاب أليم فاكشفه عنا ﴾ ﴿ إنا مؤمنون ﴾ وقيل : الارتقاب بمعنى الحفظ ، والمراد استشهاد النبي ﷺ في عذاب أنزل به فاستكشفوه بإظهار الإيمان يقول : فاحفظ ، أي : اشهد أيها النبي عليهم واحفظ قولهم ، فإنا سنكشف عنهم العذاب مدة ، ثم يعودون إلى كفرهم عن أي مسلم ، وذكر الوجه الأول أيضا ، وقيل : الدخان الظلمة التي كانت تغطي أبصار المشركين بشدة الجوع حين دعا عليهم النبي ﷺ وقال : اللهم ﴿ سنين كسنتين يوسف ﴾ عن ابن مسعود والضحاك .

وقيل : كانوا يرون شبه دخان ينزل من السماء ، وقيل : كان ذلك قبل بدر ، وقيل : الدخان من أشراط الساعة تدخل في مسامع الكفار والمنافقين ، وهو لم يأت بعد وسيأتي عن ابن عباس ، وابن عمر ، والحسن ، وزيد بن علي ، وأبي علي ، وقيل : يصيب المؤمن كهية الزكام ، وعن النبي أول الآيات الدخان ، ونزول عيسى ، وقيل : يوم يأتي الدخان امتلا بين المشرق والمغرب بمكث أربعين يوما وليلة ، أما المؤمن فيصيبه كهية الزكام ، وأما الكافر بمنزلة السكران يخرج من منخريه ، وأذنيه ودبره ، وقيل : إن هذا الدخان يكون يوم القيامة عن أي مسلم ، والوجه أن يكون يوم القيامة ، أو يكون من علامات الساعة ، لأنه تعالى أخطر أن دخانا يأتيهم ، وهو عذاب ، وفي سنين القحط ، ما كان هناك دخان في الحقيقة ، ولا غشيه دخان ليبوسة الهواء يترادى لهم الغبار دخانا لشدة الجوع ، ويدل عليه قوله : ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾

وقيل : إن أبا سفيان تضرع إلى النبي ﷺ حتى دعا فكشف الله تعالى ذلك ﴿ أني لهم الذكرى ﴾ قيل : — كيف — لهم الذكرى والاتعاظ عن ابن عباس ، وقيل : لا تنفعهم التوبة في الآخرة ، بعد زوال التكليف عن الحسن ، هذا إن حمل الدخان على أنه يكون بعد زوال التكليف ، وإن حمل على الدنيا ، فمعناه : لا يتذكرون ولا يتعظون ﴿ ثم تولوا عنه ﴾ أي : أعرضوا عن محمد ﴿ وقالوا ﴾ هو ﴿ معلم ﴾ يعلمه بشر وليس بمنزل ﴿ مجنون ﴾ أي : تعترضه الجن بما يزول به عقله ، واعتقدوا في الجن ما يعتقده العوام عن أبي علي ، فقال : سبحانه ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون ﴾ قيل : في العذاب عن قتادة ، وقيل : في الضلال . ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى ﴾ أي : نأخذ الأخذ الأعظم ، قيل : هو في يوم بدر عن ابن مسعود ومجاهد وابن عباس وأبي العالية ، وأبي بن كعب والضحاك ، وابن زيد ، وقيل : هو يوم القيامة عن ابن عباس والحسن ، وأبي علي ، وأبي مسلم ، وهو الوجه ، لأن البطش الشديد يكون فيه ﴿ إنا منتقمون ﴾ أي : نعذبهم جزاء أعمالهم .

الأحكام

يدل قوله : ﴿ بل هم في شك ﴾ على بطلان قول أصحاب المعارف ، ويدل قوله : ﴿ فارتقب ﴾ على وعد المؤمنين ، ووعد الكفار ، وتدل الآية أن من أشراط الساعة الدخان ، ويدل قوله : ﴿ أني لهم الذكرى ﴾ أن الإيمان عند زوال التكليف لا ينفع ، ويدل قوله : ﴿ إنا منتقمون ﴾ أنه يعذبهم بأعمالهم ، ويدل قوله : ﴿ إنا كاشفوا ﴾ أنه لو كشف عنهم العذاب في الدنيا لعادوا إلى الضلال ، فيعودون إلى العذاب .

﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عظيم الألم ، ومعنى ﴿مبين﴾ أي : ظاهر حاله لا يشك أحد في أنه دخان ، فحذف مفعول الارتقاب لدلالة ما ذكر بعده عليه ، وهو قوله : ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

واختلف في وقت ذلك على قولين أحدهما : عن علي عليه السلام : أنه دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة ، يدخل في أسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيد ، ويعتري المؤمن كهيفة الزكام ، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس له خصاص ، أي : موضع يسير يخرج منه الدخان من خصاص الباب ، وهو الخلل والثقب الذي يكون فيه .

وفي الحديث (أول الآيات الدخان ونزول عيسى بن مريم ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر) قال حذيفة : يا رسول الله وما الدخان ؟ فتلى الآية ، وقال : بملاً ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة ، أما المؤمن فيصيبه كالزكام ، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره .

وعن ابن عباس أنه قال ذات يوم : ما تمت الليلة حتى أصبحت ، فقليل له في ذلك فقال : طلع ذو الذنب ، فخشيت أن يطرق الدخان ، وهذا المعنى مروي أيضاً عن ابن عمر وأبي هريرة والحسن .

القول الثاني عن ابن مسعود أن المراد في الآية قد مضى لما دعا النبي ﷺ على قريش وأصاهم الجوع حتى أكلوا الحيف ، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان ، وكان الرجل يحدث الرجل فيسمع كلامه ولا يراه من الدخان ، فمشى

إليه أبو سفيان ونفر معه فناشدوه الله والرحم ، ووعدوه إن كشف عنهم أن يؤمنوا ، فلما كشف عنهم رجعوا إلى شركهم^(١) وإلى نحو هذا ذهب مجاهد وأبو العالية ، والضحاك ، ومقاتل ، كذا في التجريد وغيره .

وقال الهادي إلى الحق عليه السلام ما لفظه : اليوم الذي تأتي به السماء بدخان مبين هو يوم القيامة ، وإتيانها بالدخان فهو عروجها ومصيرها إليه ، وذلك ألما عند تجديد الله لها في ذلك اليوم تعود إلى ما منه خلقت ، وهو الدخان فتصير بعد هذا التجسيم والعظم إلى حالة الدخان ، ومعنى قول من يقول : ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ فهو قول الكافرين إذا رأوا السماء قد صارت إلى ذلك الحال ، وأيقنوا بالجزاء قالوا حيثئذ : هذا يوم عذاب أليم ، فطرح الله اليوم وأقام العذاب مقامه فصار مرفوعا ، والعرب تفعل ذلك تقيم الشيء مقام ما كان من شبهه ، كقوله : ﴿ وأسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ﴾^(٢) أراد أهل القرية ، وأهل العير فطرح الأهل وأقام العير والقرية مقامهم . اهـ

قلت : ومثل هذا بعينه ذكر الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام في تفسيره .
وقوله عز وجل : ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب ﴾ هذا من جملة قولهم^(٣) : ﴿ إنا مؤمنون ﴾ موعدة بالإيمان إن كشف عنهم العذاب .

(١) متفق عليه ، وقد رواه النسائي والحاكم ، والطبراني من حديث ابن عباس ، قال : جاء أبو سفيان .. انظر تخريج الكشاف ٢٧٢/٤ .

(٢) يوسف : ٨٢ .

(٣) فهر على هذا منصوب على أنه مقول القول .

ثم قال تعالى : ﴿أَنى لهم الذكرى﴾ أي : كيف يتذكرون ويتعظون ويعتدون بالإيمان المشروط ﴿وقد جاءهم رسول مبين﴾ وهو محمد ﷺ بما ظهر على يديه من الآيات البينات ، والدلائل النيرات من الكتاب المعجز وغيره من المعجزات فلم يذكروا ﴿ثم تولوا عنه﴾ أي اعرضوا ﴿وقالوا﴾ هو ﴿معلم﴾ يعلمه عداس غلام أعجمي لبعض ثقيف ، ولم يكف ذلك حتى قالوا : ﴿مجنون﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون﴾ إلى شرككم عقيب العذاب بلا مهلة ، لا تثبتون على هذا التضرع إلا قدر كشف العذاب .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام وغيره : المراد أنكم عائدون إلى العذاب في الآخرة وعلى القول بأن الدخان من أشراط الساعة ، فالمعنى : أن المنافقين والكفار يستغيثون هناك فيكشف عنهم بعد أربعين يوما ، ثم يعودون إلى كفرهم سريعا ، وقلل وقت الكشف لقرب يوم القيامة ، وتقديره وقتا قليلا إلى أن تقوم الساعة .

ثم قال عز وجل : ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى﴾ البطش : الأخذ بشدة ، أو أكثر ما يكون بوقع الضرب المتتابع ، ثم صار بحيث يستعمل في إيصال الآلام ﴿إنا منتقمون﴾ أي : منتصرون منهم ، والانتقام الأخذ بسبب حرم .

واختلف في المراد بهذا اليوم فقليل : المراد به يوم القيامة عن الحسن ، وقيل : يوم بدر ، قالوا : لما كشف عنهم الجوع عادوا إلى التكذيب ، فانتقم الله منهم يوم بدر ، والقول الأول أصح لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف بهذا الوصف العظيم ؛ ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة لقوله تعالى : ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾ ولأن هذه البطشة لما وصفت بكونها كبرى على الإطلاق وجب أن تكون أعظم أنواع البطش ، وذلك لا يكون إلا في القيامة ، والله أعلم .

ثم لما أخبر تعالى أن كفار مكة مصرون على كفرهم أخبر سبحانه أن كثييرا من المتقدمين أيضا كانوا كذلك ، فبين حصول هذه الصفة في أكثر قوم فرعون ، فقال سبحانه : ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ﴾ أي : عذبناهم على معصيتهم بالغرق^(١)

(١) قال : الحاكم الحسني في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ إنهم جند مغرقون ﴾ :

القراءة

﴿ إني آتيكم ﴾ فتح نافع وابن كثير وأبو عمرو ، وأبو جعفر الباء ، ولم يفتحها الآخرون ، وأثبت الباء في قول : ﴿ ترجمون ﴾ و ﴿ اعتزلون ﴾ ورش عن نافع ، ويعقوب ، وحذف الباقون الباء تخفيفا ، مع دلالة الكسرة عليه . ﴿ وإن لم تؤمنوا لي ﴾ فتح ورش عن نافع الباء ، ولم يفتحها غيره .

اللغة

الفتنة الامتحان والاختبار ، ولا يجوز عليه تعالى الامتحان ، لأنه عالم بجميع الأشياء لم يزل ، وإنما يعامل معاملة المختبر ، فيجازي ليظهر ما يعلم ، والكريم : الحقيق بأن يكرم ، وكل شيء يكرم عليك فهو كريمك والرحم : الرمي بالحجارة ، والرمي بالشتم ، يقال : رحمه إذا رماه ، ومنه رحم الزن . والاعتزال : الانقطاع عن الشرك ، وترك ملاسته ، ومنه ﴿ فلما اعتزلهم ﴾ ومنه سميت المعتزلة ، والسري : سير الليل ، سريت أنا ، وأسريت غيري ، وأسريت به ، قال : الله تعالى ﴿ سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا ﴾ قال : الشاعر :

إني سريت وكنت غير سرور وتفتوت الأحلام غير بعيد
والرهو : الساكن ، وقيل : المفتوح المنكشف عن أبي مسلم ، يقال : عشي راه ساكن ، وأره على نفسك أي : ارفق بها

الإعراب

(عباد الله) نصب عباد بأدوا ، نظيره ﴿ أرسل معني بني إسرائيل ﴾ وقيل : على النداء ، أي : يا عباد الله أدوا ما أمركم الله به عن الفراء ﴿ وإني عدت بربي ﴾ تدغم الذال في التاء لقرب المخرج ، فتضمر تاء .

المعنى

لما تقدم تكذيب قومه عقبه بقصة موسى ، وتكذيب فرعون ، تسلية له وبشارة ، بالفرج ، ووعيدا لهم فقلل : سبحانه ﴿ ولقد فتنا ﴾ أي : شددنا التكليف عليهم ، وتفسيره عاملناهم معاملة المختبر ، وقيل : عذبناهم عن أبي مسلم ، ومنى قيل : فأني تشديد يفيد في بعثة موسى عليه السلام ؟ قلنا : أمرهم بطاعته ، وتعظيمه مع عظم حاظهم ، وضعف حاله في الدنيا ، وقيل : بمفارقة دينهم ، وقيل : لكونهم أتباعا بعد كونهم متبعين ، فيلحقهم مشقة عظيمة ، وقيل : لترك ملكهم ، ويحمل على الجميع ﴿ قبلهم ﴾ أي : قبل قوم النبوة ﷺ ﴿ قوم فرعون ﴾ وهم القبطية ﴿ وجاءهم رسول ﴾ يعني موسى ﴿ كريم ﴾ قيل : شريف وسبط في قومه ممن بني

إسرائيل ، وقيل : كريم عند الله بما استحق بطاعته من الإكرام والإجلال ﴿ أن أدوا إلي ﴾ أي : قال : لهم موسى : أدوا إلي ، ادفعوا إلي ﴿ عباد الله ﴾ ما أمركم به أي : اسلموا عن الفراء ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ أنصحكم ، وقيل : أمين على وحي الله أؤديه إليكم ﴿ وأن لا تغلوا على الله ﴾ قيل : لا تغلوا على الله بافتراء الكذب عليه عن ابن عباس ، وقيل : لا تبغوا عليه بكفر نعمه عن قتادة ، وقيل : لا تتكبروا على الله بترك طاعته ، واتباع أمره عن الحسن ، وقيل : لا تغلوا على أولياء الله ، بالبغي عليهم فذكر نفسه ، وأراد أوليائه تفخيما ، كقوله : ﴿ إن الذين يؤذون الله ﴾ وقيل : لا تغلوا على أمره فتردوه ولا تقبلوه ، وقيل : لا تتكبروا علي ، ولا تسمعوا كلام ربي ورسالته ﴿ إني آتيكم سلطان مبین ﴾ قيل : ظاهر ، وهو العصا واليد ، وقيل : بين صحة نبوتي ، وصدق مقالتي ، وتوعدوه بالقتل ، والرمي بالحجارة ، فقال : ﴿ إني عدت ربي ﴾ أي : اعتصمت بربي وربكم ﴿ أن ترجمون ﴾ قيل : بالحجارة عن قتادة ، وقيل : أراد بالشتيم بالقول ، فقالوا : ساحر كذاب عن ابن عباس ، وقيل تقتلون ﴿ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ يعني حثتكم برسالة من ربكم ، فإن لم تصدقوني فاعتزلون بصرف أذاكم عني ، ولا تقتلوني ولا تشتموني فاعتزلون خلوا سبيلي غير مقتول ولا مسبوب ﴿ فدعا ربه ﴾ يعني موسى لما أيس منهم دعا ربه ، وقال : ﴿ إن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ فانتقم منهم ، وكان أمر بالدعاء ، ومعنى مجرمون مصرون على كفرهم ، وقيل : مجرمون إلى فتادروني بالمكره ، فأحيب وأوحى الله تعالى إليه ﴿ أن اسر بعبادي ﴾ أي : بالمؤمنين إلى الموضع المأمور به من ناحية النهر على خفية من قوم فرعون عن أبي علي ، وقيل : أراد بعبادي بني إسرائيل ، ومن آمن معهم موسى عليه السلام ﴿ ليلا إنكم متبعون ﴾ يتبعكم فرعون وقومه ﴿ واترك البحر رهوا ﴾ إذا قطعت أنست وأصحابك ، قيل : ساكنا ، كما كان ، وكان ضرب بالعصا فانفلق لبني إسرائيل ، فأمره أن يترك كما هو ليغرق فرعون وقومه عن ابن عباس ، ومجاهد ، وأبي علي ، وقيل : منفثا منكشفا حتى يطمع فرعون في إتباعه ، عن أبي مسلم ، وقيل : طريقا يابساً عن قتادة ، وقيل : رهوا واسعا ما بين الطاقات ، وقيل : رمثا وهو السهل الذي ليس برمل ، ولا يحزن عن الضحاك ، وقيل : قوله : ﴿ رهوا ﴾ يحتمل أن يكون من نعت البحر ، ثم معناه ما ذكرنا مما قيل فيه ، ويحتمل أن يكون من نعت موسى ، أي : على هيئتك .

ومتي قيل : ما الفائدة في قوله : ﴿ واترك البحر رهوا ﴾ والله تعالى يسكنه ويحركه وموسى عليه السلام لا يقدر على شيء من ذلك ؟ قلنا : هو إشارة منه إلى أمنه ، كما يقال : لمن خاف دخول دار : ادخل الدار آمنا ، واترك الباب مفتوحا كما هو ، أي : لا تخف ، وقيل : لأن موسى عليه السلام كان إذا أظهر معجزة بضرب العصا فإذا أراد عودته إلى حالته الأولى ضربه ضربة ثانية ، فأمر الله تعالى أن لا يضرب البحر ، ويترك كما هو وقيل : أن قومه سألوه أن لا يترك البحر مفتوحا ، لئلا يدخله فرعون ، فأمره تعالى أن يترك كما هو ﴿ إنهم جند مغرقون ﴾ هو إخبار عن العاقبة ، وقيل : مغرقون في سابق قضائي ، ففي البحر كما كان ودخل فرعون وقومه فغرقوا جميعا .

وقال في التحريد : فتننا أي : اختبرنا ، ويجوز أن يراد أمهلناهم ، ووسعنا عليهم حتى افتننوا ، أي : وقعوا في الفتنة التي هي الشرك ، فيكون مجازاً .

﴿ و جاءهم رسول كريم ﴾ قال الحسين بن القاسم عليه السلام : ﴿ كريم ﴾ أي : رفيع عظيم متحنن متعطف برحيم ، ودود حسن الأخلاق حلیم ، يعني موسى عليه السلام . اهـ والمراد : كريم على الله ، وعلى المؤمنين ، وكريم لأن الله لم يبعث نبيا إلا من كرام قومه .

ثم قال : ﴿ أن أدوا إلي عباد الله ﴾ هو من كلام موسى عليه السلام لفرعون وقومه ، وأن هي المفسرة^(١) ، أي يقول : أطلقوا بني إسرائيل من العذاب والتسخر ، فإنهم أحرار عباد الله لا لكم ، و ﴿ عباد الله ﴾ مفعول ﴿ أدوا ﴾ وقيل : هو منادى ،

والمعنى : أدوا إلي ما أمركم به من طاعة الله يا عباد الله ، وقيل : إنها المخففة من الثقلية ، ومعناه : وجاءهم بأن الشأن والحديث أدوا إلي^(٢) ، و ﴿ عباد الله ﴾ مفعول به ، وهم بنو إسرائيل ، يقول : أدوهم إلي وأرسلوهم معي ، وهو كقوله : ﴿ فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ﴾^(٣) .

يدل قوله : ﴿ إني آتيكم بسلطان ﴾ أن الطاعة إنما تجب عند بيان المعجز ، ويدل قوله : ﴿ إني عذت ﴾ أن الواجب على العبد عند الخوف أن يعتصم بالله تعالى ، ويدل قوله : ﴿ فدعا ﴾ أن موسى عليه السلام دعا بإذن الله وأحجب^(١) لأن مجيء الرسول من بعث إليهم متضمن لمعنى القول ؛ لأنه لا يجيبهم إلا مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله .

(٢) قال : السيد العلوي رحمه الله في حاشيته على الكشف : قوله : أو المخففة من الثقلية . قال : بعضهم : لا يجوز أن تكون مخففة من الثقلية ، لعدم حرف التعويض ، ويجوز أن تكون التي معها الفعل في تأويل المصدر ، وأقول : إن أن المخففة لا توصل بالطلب إجماعا كما لا توصل المثقلة به ، فامتناع كونها مخففة لهذا ، لا لعدم حرف التعويض ؛ لأن حرف التعويض إنما يؤتى به لئلا تلتبس بالمصدرية ، ولو جاز دخول أن المصدرية على فعل الطلب فلا التباس ، لأن أن المصدرية لا تولى بالطلب على الأصح ، وإن جوز وصلها به سيبويه ، وأبو علي ، ذكر جميع ذلك نجم الأئمة الرضي في شرحه على الكافية ، والعهدة عليه .

ثم علل ذلك فقال: ﴿إني لكم رسول أمين﴾ غير متهم ، قد ائتمنه الله على وحيه ﴿وأن لا تعلموا على الله﴾ تنكبوا عن طاعته ، والإيمان برسله ، أو على تقدير مضاف ، أي : لا تعلموا على رسول الله بالاستهزاء به ﴿إني آتيكم بسلطان مبين﴾ بحجة بينة ، وهي العصا ، موضحة لصدقي ، فلما قال لهم هذا توعدوه بالقتل فقلل: ﴿وإني عذت بربي وربكم أن ترجموني﴾ أي : اعتصمت بربي أن تقتلوني بالرجم قال في التجريد : وفي معناه قولان :

أحدهما : أنه سألمهم أن لا يقتلوه ، وإن لم يؤمنوا به اعتزلوا أذاه عن ابن عباس ، وأن يتركوه كفافا لا عليه ولا له ، فليس الرجم جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلاحكم .
والثاني : أنه أراد أنه غير مبال بمكرهم وما يحاولونه من رجمه وقتله ؛ لأنه قد التجأ إلى الله وتوكل عليه .

ومعنى ﴿وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلوني﴾ لا موالاة بيني وبين من لم يؤمن فتنحوا عني واقطعوا أسباب الوصلة عني .

قال بعض العلماء ^(١) : إن المعتزلة يتصلفون ويقولون : إن لفظ الاعتزال أينما جاء في القرآن كان المراد منه الاعتزال عن الباطل لا عن الحق ، فاتفق حضوري في بعض المحافل ، وذكر بعضهم هذا الكلام ، فأوردت عليه هذه الآية وقلت : المراد من الاعتزال في هذه الآية الاعتزال عن دين موسى عليه السلام وطريقته ، وذلك لاشك أنه اعتزال عن الحق فانقطع الرجل .

(١) بعض العلماء : هو الرازي ، وذكره في تفسيره ٢٧/٢٤٥، ٢٤٦.

ثم قال تعالى : ﴿ فمدعاه ربّه أن هؤلء قوم مجرمون ﴾ من فتح ﴿ أن ﴾ فتقديره بأن هؤلء ، قيل : دعاه ربّه بذلك ، كان دعاؤه : اللهم عجل لهم ما يستحقونه بإجرامهم ، وقيل : دعاؤه قوله : ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ لكن الله ذكر سبب الهلاك فقط^(١) . ومن كسر ﴿ إن ﴾ فتقدير القول أي : فدعاه ربّه فقال : ﴿ إن هؤلء ﴾ . ﴿ فأسر بعبادي ليلا ﴾ أي فاستجبنا له ، وقلنا له : أسر^(٢) .

قريء بقطع همزة ﴿ أسر ﴾ على أنه رباعي ، وبوصلها على أنه ثلاثي ، ابن كثير ونافع فاسر موصولة بالألف ، والباقون مقطوعة الألف ، يقال : أسرى وسرى لغتان ﴿ إنكم متبعون ﴾ أي : فقد دبر الله أن تتقدموا ويتبعكم فرعون وجنوده ، فينجي المتقدمين ، ويغرق التابعين .

﴿ واترك البحر رهوا ﴾ أي : خاليا من الماء هواء ، قال الشاعر :

فعانقته والخيـل رهوا كأنها جداول زرع أرسلت فاستطرت

فقال : والخيـل رهوا ، أي : خالية من الركبان حين تسقط أصحابها عن سروجها

قاله الحسين بن القاسم عليه السلام .

وفي التحرير : ﴿ رهوا ﴾ أي : ساكنا ، وقيل : متسعا منفتحاً ، وذلك أن الله تعالى فرق لموسى البحر وجعله طرقات متسعة يابسة ، فلما عبره بنو إسرائيل أراد موسى أن يضربه بعصاه فينطبق لثلاث يلحقهم فرعون ، فأمر بتركه على حاله لما دبر الله من دخول فرعون والقبط وإطباقه عليهم .

﴿ إنهم جند مغرقون ﴾ أي : قوم فرعون .

(١) وهو كونهم مجرمين .

(٢) قال : في الكشف : وفيه وجهان إضمار القول بعد الفاء فقال : أسر بعبادي ، وأن يكون جواب شرط

محذوف ، كأنه قال : قال : إن كان الأمر كما تقول فاسر . الكشف ٢٧٥/٤ .

ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ﴾ ^(١) بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار جارية ، وكم للتكثير ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ما كان لهم من المزارع والمجالس والمنازل الحسنة ،

(١) قال : الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ :

القراءة

قرأ أبو جعفر ﴿فَكَهَيِّنَ﴾ بغير ألف ، يعني أشربين بطرين ، الآخرون بالألف ﴿فَكَهَيِّنَ﴾ ناعمين متنعمين ، يقال: فكه يفكه فكها ، فهو فاكه.

اللفظة

الجنة : البستان ، وجمعه جنات ، وأصله من الستر ، ولا يسمى جنة حتى يكون فيه من الأشجار ما يسستره ومنه الجن والجنون والجنين والجن ، ونحوها ، والنعمة : بفتح النون التمتع ، والتلذذ ، والنعمة : بكسر النون هي المنفعة التي يستحق بها الشكر ، والمسرف : المجاوز للحد ، والسرف : ضد القصد ، والاصطفاء والاحتباء نظائر ، والبلاء : النعمة ، والبلاء : الشدة ، وهو من الأضداد.

المعنى

ثم بين تعالى حال قوم موسى وقوم فرعون بعد هلاك فرعون ، فقال : سبحانه ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ إشارة إلى التكثير ، يعني لما أهلكنا آل فرعون تركوا بساتين كثيرا ، وأموا لا حمة ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ قيل : مجلس شريف ، وقيل : مقام الملوك والأمراء ، وقيل : المنازل الحسنة عن قتادة ، وقيل : المناير ، وبجالس الملوك عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والمقام موضع الإقامة ، وإنما يستعمل في الغالب في مقام الجمال والهيبة ، وقيل : المقام المرخرف بالزينة المأهولة بكثرة الحشم والخدم ﴿وَنِعْمَةٍ﴾ أي : غبطة وسرور ، وعيش كما كانوا فيها ﴿فَكَهَيِّنَ﴾ قيل : لاعبين ناعمين ، وقيل : ضاحكين ، مستبشرين ﴿كَذَلِكَ﴾ قيل : ذلك كان الأمر فيهم ، وقيل : كذلك فعلنا بهم ، ونفعل بأمثالهم ، وقيل : كذلك كان المال والجاه فيهم ، وقيل : كذلك نفعل بمن هلكه ، وننتقم منه عن أبي علي ، وقيل : كذلك يكون حال الكفرة والظلمة يجمعون من غير حله ، وينفقون في معصية الله ، ثم يتركونها لمن لا يحدهم ﴿وَأُورِثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي : أعطيناها بني إسرائيل عن قتادة ، فلما قاموا مقامهم سماه إرثا ، قال : الحسن : رجع بنوا إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون ، وحازوا أموالهم ﴿فَمَا يَكْتُمُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ فيه عشرة أقوال : أولها قيل : أهل السماء والأرض لأنهم لما عصوا الله ، وغضب عليهم — صاروا في موضع جزاء لا في موضع ترحم ، فيبكي عليهم .

قال الحسن وأبو علي : ما يبكي عليهم الملائكة والمؤمنون ، بل كانوا يهلكهم فرحين مسرورين .

وثانيها : لو كانت السماء والأرض ممن يبكي على أحد لم تلك على هؤلاء ، لأنهم ليسوا ممن يحزن عليهم بل يفرح بهلاكهم.

وثالثها : أنه لم يبك عليهم ما يبكي على المؤمن ، إذا مات من مصلاه ، ومصعد عمله عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير يعني لم يك موضع طاعة يظهر حاله عند موته ، والمراد بظهور الخال لأن الجهاد لا يبكي.

ورابعها : كان أمرهم أهون من أن يبكي عليهم باك ، يعني لم يكن هلاكهم حزنا على أحد عن أبي مسلم ، فهو مثل في تحقير المصيبة ، وتوسع في الكلام.

وخامسها : أنه كان يدعي الإلهية ، فلما هلك لم يترك سماء ولا أرضا كما يقال : مات فلان ولم يترك ولدا يبكي عليه ، يعني لم يترك ولدا أصلا.

وسادسها : لم يحطر عليهم سبحانه ، ولأنبت ضم نبات ، ولا جرت العيون في بسايتهم ، بل صارت كلشها لغيرهم ، وهم همود تحت التراب ، فالبكاء عبارة عن المطر والنبات.

وسابعها : ما بكت عليهم ، يعني ما لحقهم رحمة ، والعرب تدعو للميت ، تقول : سقته الغواذي ، وسقاه المزن ، ويريدون به الرحمة.

وثامنها : قال : عطاء : بكاء السماء والأرض حمرة أطرافها ، قال : السدي : لما قتل الحسين بن علي عليهما السلام ، بكت عليه السماء ، وبكاؤها حمرة ، وعن ابن سيرين أن الحمرة التي مع الشفق لم تكن حتى قتل الحسين عليه السلام.

وتاسعها : أي : لم ينتصر لهم ، ولا طلب بثأرهم ، كما يفعل قوم من العرب في البكاء على القتيل ، فيكونه بعد قتل قاتله ، أو من يساويه ، ولا يكون قبل طلب الثأر ، عن أبي مسلم.

وأوضح الوجه ما قاله الحسن وأبو علي ، لأنه حمل البكاء على حقيقته .

﴿ ولقد نجينا ﴾ ﴿ خلقنا ﴾ ﴿ بني إسرائيل ﴾ من العذاب المهين ﴿ وهو ما ينالهم من فرعون ﴾ من الأعمال الشاقة ، والإهانة من فرعون ﴿ إنه كان عاليا ﴾ قيل : متكبرا ، وقيل : مستعليا على العباد ، يريد أن يجعلوه إطا عن أبي

علي ﴿ من المسرفين ﴾ يعني مجاوزا للحد ، ولا إسراف أعظم من ادعاء الربوبية ، وقتل النفس بغير حق ، وظلم المؤمن بالمال والنفس ﴿ ولقد اخترناهم ﴾ أي : اجتبتناهم ﴿ على علم ﴾ أي : وأنا عالم بحالهم وإنهم

أهل للاصطفاء ﴿ على العالمين ﴾ قيل : عالمي زمانهم عن الحسن ، وقناة ومجاهد ، بدليل قوله : ﴿ كنتم خير أمة ﴾ وقيل : اخترناهم على جميع العالمين بكثرة الرسل ، وقيل : أراد به الرسل ، وهو عام والمراد به الخصوص يعني اخترناهم الأنبياء ، ولذلك قال : ﴿ وآتيناهم من الآيات ﴾ وذلك لا يليق إلا بالأنبياء ﴿ وآتيناهم ﴾

﴿ أعطيناهم ﴾ من الآيات ﴿ من الحجج ﴾ ما فيه بلاء مبين ﴿ أي : نعمة ظاهرة ، قيل : البلاء النعمة عن الحسن وجماعة ، وقال : قناة : هو ما فعل بهم من المن والسلوى والغمام ، وقلق البحر ونحوه ، وقيل : البلاء العذاب عن الفراء ، وقيل : الابتلاء الشدة والرخاء عن ابن زيد ، وقيل : الآيات المعجزات ، وفيه نعمة على الأنبياء وعلى قومهم .

وقيل المنابر ^(١) ﴿ونعمة﴾ بالفتح من التنعم ، وبالكسر من الإنعام ﴿ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾ ملتذين مسرورين معجبين ، دلت هذه الآية على أنه تعالى أغرقهم ، ثم قال بعد غرقهم هذا الكلام ، وأخبر تعالى أنهم تركوا هذه الأشياء الخمسة ، وهي الجنان ، والعيون ، والزروع ، والمقام الكريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين .

قال علماء اللغة : نعمة العيش بفتح النون حسنه ونضارته ، ونعمة الله : إحسانه وعطاؤه .

وقوله : ﴿ كذلك ﴾ معناه : تقرير الكلام وتأكيده ، أي : الأمر كذلك ما وصفنا من إخراجهم من ممالكهم ^(٢) ، أو مثل ذلك الإخراج أخرجنهم منها ﴿ وأورثناها قوما آخرين ﴾ على خلاف صفتهم ودينهم ليسوا منهم في شيء من قرابة ولا دين ، ولا ولاء ، وهم بنو إسرائيل ، وكانوا قبل ذلك متسخرين مستعبدين في أيديهم ، فأهلكهم الله على أيديهم ، وأورثهم ملكهم وديارهم .

ثم قال تعالى : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ أي : ما بكى عليهم أهل السماء ولا أهل الأرض .

قال في التجرید : وفي معناه ثلاثة أقوال أحدها : أنه على حقيقته ، روى أنس عن النبي ﷺ (ما من مسلم إلا وله في السماء بابان ، باب يصعد فيه عمله ، وباب ينزل منه رزقه ، فإذا مات [فقداه و] بكيا عليه ، وتلى هذه الآية ﴿ فما بكت ﴾ ^(٣) .

تدل الآية على التحذير من مثل حالهم إذا جمعوا الأموال ، وتركوها وصاروا إلى العذاب ، وتدل على أنهم لما استمروا على الضلال فأهلكوا لم يحزن بهلاكهم ، ولم يترحم ، وفيه تحذير من المعصية ، ويدل قوله : ﴿ اخترناهم ﴾ على أنهم خصهم بالإرسال والمعجزات ، ويدل قوله : ﴿ إنه كان عاليا من المسرفين ﴾ أن العلو والسرف كان فعله ليس بخلق الله تعالى حتى نجى الله عباده منهم ، ولو كان خلقه لما كان ينجيهم من فعل نفسه

(١) وزاد في الرازي : وقيل : المنابر التي كانوا يمدحون فرعون عليها .

(٢) فمحله على هذا رفع ، وعلى الوجه الثاني محله النصب .

(٣) والحديث ذكره أيضا الرازي في تفسيره ، ٢٤٦/٢٧ .

وقال علي عليه السلام : (إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض ، ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم في الأرض مصلى ولا في السماء مصعد ، فقال الله تعالى ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾) وإلى نحو هذا ذهب ابن عباس ، والضحاك ومقاتل ، وقال ابن عباس : الحمرة التي في السماء بكاؤها ، وقال مجاهد : (ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحا) .

والثاني : أن المراد أهل السماء وأهل الأرض قاله الحسن .

قلت : وهذا هو تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام وغيره ، ومن ذلك قول المرتضى عليه السلام حيث قال : فما بكى عليهم أهل السماء ولا الصالحون من أهل الأرض ولا افتقدوهم ، ولا أسفوا ساعة عليهم ، إذ كانوا غير مطيعين ، والله سبحانه غير خائفين ، فقامت السماء والأرض مقام من فيهما ، ونسب ما يكون من أهلها إليهما ، وهذا في لغة العرب كثير موجود ، وفي ذلك دليل على أن الملائكة وسكان الأرض من الصالحين إذا كانوا في الأرض قوما مطيعين لله خائفين له مصلحين في أرضه متبعين لأمره يأمرهم بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ثم تلفوا أو نزلت بهم مصائب الدنيا من ظالم أو غيره — جزع عليهم أهل السماء وأهل الأرض وحزنوا لفقدهم ، فأخبر الله أن الكافر الفاسق غير مفقود ، ولا محزون عليه ، بل يسر أهل السموات والأرض بذهابه ، ويستريحون من حياته المؤذية ، ومعاشرته المشقية . اهـ

والثالث : أنه تمثيل وتخيل للمبالغة في لسان العرب ، حيث يقولون في تعظيم مهلك العظيم : بكت عليه السماء والأرض والريح ، وأظلمت له الشمس على طريق التمثيل مبالغة في وجوب الجزع عليه .

وفي الحديث (ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض) وقال جرير :

الشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمر

وفيه ما يشبه السخرية بهم . وعلى الثالث يحمل ما روي من الحديث ، ونفي ذلك في قوله: ﴿فما بكت عليهم السماء﴾ على أنه كان تهكما واستهزاء بحالهم المنافية لحال من يعظم فقدته ، فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض .

وقوله: ﴿وما كانوا منظرين﴾ أي : لما جاء وقت هلاكهم لم يمهلوا إلى وقت آخر ولا إلى الآخرة بل عجل في الدنيا من العذاب .

ثم اعلم أنه تعالى لما بين كيفية هلاك فرعون وقومه بين كيفية إحسانه إلى موسى وقومه فقال سبحانه: ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين﴾ المذل ، وهو قتل الأبناء واستخدام النساء ، وتسخيرهم للأعمال ، وقوله: ﴿من فرعون﴾ بدل من العذاب المهين^(١) .

ومعنى ﴿إنه كان عاليا﴾ أي : جبارا كبيرا رفيع الطبقة ، فائقا في إسرافه ، وهو معنى قوله: ﴿من المسرفين﴾ أي : الزائدين في المعصية .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : معناه متكبرا طاغيا متجاوزا لقدره مترفعا عن حده متعديا لمحل نفسه ، مسرفا في كل أمره ، ومن إسرافه أنه على حقارته ادعى الإلهية

ولما بين تعالى كيفية دفع الضرر على بني إسرائيل بين كيف أوصل إليهم الخير فقال : ﴿ولقد اخترناهم﴾ أي : الرسل ﴿على علم﴾ أي : بعلم ﴿على العالمين﴾ أي : على الناس أجمعين ، لما رأينا في قلوبهم من محبة اليقين . اهـ

وقيل : ﴿اخترناهم﴾ أي : بني إسرائيل ﴿على علم﴾ منا بأنهم أحقأ بأن يختاروا ، أو على علم بأنهم يزيغون ، وتفطر منهم الفطرات في بعض الأحوال ﴿على العالمين﴾ عالمي زمانهم ، وقيل : على الناس جميعا لكثرة الأنبياء فيهم .

﴿وآتيناهم من الآيات﴾ من نحو فلق البحر ، وتضليل الغمام لهم في التيه ، وإنزال

(١) كأنه في نفسه كان عذابا مهينا ؛ لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم . ويجوز أن يكون حالا ، والمعنى حينئذ : من العذاب المهين واقعا من فرعون .

المن والسلوى عليهم فيه ، وغير ذلك من الآيات التي لم يظهر لغيرهم مثلها .
 أما قوله تعالى : { ما فيه بلاء مبين } فقال الحسين بن القاسم عليه السلام : بلاء مبين :
 نعمة بينة ، وفضل وعطاء مبين ، قال الشاعر :
 فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

أي : أعطاهما ، وتفضل عليهما . اهـ

لأن الله يبلو بالنعمة كما يبلو بالمصيبة ، أو اختبار ظاهر ليُنظر كيف يعملون ،
 وهما هنا آخر الكلام في قصة موسى عليه السلام .

ثم رجع إلى ذكر كفار مكة ، وذلك لأن الكلام فيهم حيث قال : ﴿ بل هم في
 شك ﴾ من البعث والقيامة ، ثم بين كيفية إصرارهم على كفرهم ، ثم بين أن قوم
 فرعون كانوا في الإصرار على الكفر على هذه القصة ، ثم بين كيف أهلكهم ،
 وكيف أنعم على بني إسرائيل ، ثم رجع إلى الحديث الأول وهو كون كفار مكة
 ومن نخا نخوهم منكرين للبعث ، فقال سبحانه : ﴿ إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا
 موتتنا الأولى ﴾ ^(١) دون الثانية التي ذكرتم أن الموت موتة تعقبها حياة ، أي في
 قوله : ﴿ وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ﴾ ^(٢)

(١) قال : الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ ما خلقناها إلا بالحق ولكن
 أكثرهم لا يعلمون ﴾ :

اللعنة

النشر : ضد الطي ، والنشور بعث بعد الموت ، ومنه يقال : نشر الله الميت ، وأنشر ، ومنه نشرت الأرض
 أصابها الريح فأنبتت ، وهي ناشرة ، والنبات هو النشرة .
 والتبع : ملك من ملوك اليمن ، والجمع تابعة ، وقيل : سمي تبعاً ، لأنه يتبع من قبله من الملوك ، وقيل : لأنه
 إذا مات واحد منهم تبعه الآخر ، فكان لا بد منه ، يقال : أتبعه بالتخفيف ، وأتبعه بالتشديد ، هذا خذوه ،
 ويقال : ما زلت أتبعه حتى أتبعته ، حتى لحقته .

الإعراب

لأعبين : نصب على الحال ، أي : لم يخلقهما في حال اللعب .

المعنى

ثم عاد الكلام إلى ذكر النبي فقال : سبحانه ﴿ إن هؤلاء ﴾ يعني قوم النبي ﷺ وهم مشركوا العرب ومكة ﴿ ليقولن إن هي إلا موتنا الأولى ﴾ يعني نموت أولاً ثم لا بعث ، ولا نشور ، ولا دار سوى الدنيا ﴿ وما نحن بمُتغيرين ﴾ أي : بمُتغيرين ﴿ فأتوا بآبائنا ﴾ أحياء ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أنا نبعث أحياء بعد الموت ، يعني : إن صح النشور في الآخرة صح النشور في الدنيا ، فاحيوا آباءنا ، وهذا جهل من وجود أحدها : أن النشور للمجازاة ، وهي في الآخرة دون الدنيا ، ولا تجتمع المجازاة والتكليف ، ومنها : أن الإحياء في دار الدنيا إنما يكون للمصلحة ، فرمما يكون مفسدة ، فذلك غير موقوف على اقتراحهم ، ومنها : أنه يجوز ذلك في الدنيا ، إلا أنه لا يفعله . ومنها : بأي معنى جمعوا بين الأولى والأخرى وهذا من أضعف الشبه ، فلمسا تركوا الحجة ، وعدلوا إلى الشبهة ، جهلا عدل الكلام إلى الوعيد والوعظ ، فقال : سبحانه ﴿ أهم ﴾ يعني مشركي مكة ﴿ خير ﴾ أعز وأمنع ، وأكثر مالا وعددا ﴿ أم قوم تبع ﴾ قيل : هو تبع الحمير من ساق الجيوش وهدم سمرقند ، وبنها عن قتادة ، وقيل : ذم الله قومه ولم يذمه عن كعب ، وقيل : لا تنسوا تبعنا ، فإنه رجل صالح عن عائشة ، وقيل : هو الذي كسا البيت عن سعيد بن جبير ، وعن النبي ﷺ (لا تسبوا تبعنا فإنه قد كان أسلم) وإنما ذكر تبعنا ، لأنهم عرفوا أخباره لانتشاره ، وقرب زمانه ، ومكانه منهم ، وكان أتى مكة والمدينة ، والطائف ، وأجرى أنهارا ، وأبر آبارا ، وفتح بلادا ﴿ والذين من قبلهم ﴾ من الأمم الماضية ﴿ أهلكناهم لما كفروا وكانوا مجرمين ﴾ مذنبين كافرين ، فليحذروا أن ينالهم مثل ما نال أولئك ، وقيل : لولا أن أكثر أهل مكة آمنوا لكان يحل بهم ما حل بقوم تبع ، وثم بين الدلالة على صحة البعث ، ووجوبه فقال : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ عابثين ، يعني لو لم يكن الجزاء مع التخلية في الدنيا لكان جميع ذلك عبثا ، وإنما خرج من كونه لعبا ، لأنه خلقهم للتكليف ، ويعتثهم للجزاء ، وقيل : ما خلقناهما إلا بالحق ، قيل : إلا بداعي الحكمة ، وقيل : إلا على الحق الذي يستحق به الحمد دون الباطل الذي يستحق به الذم ، وقيل : للحق الذي صار إليك في دار الجزاء أي : الحسن ، وقيل : إلا لغرض صحيح ، وهو أن يطيعوه ، فيستحقوا الثواب ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ الحق لتركهم النظر ، قيل : لا يعلمون الغرض الذي له خلقنا الأنبياء .

الأحكام

تدل الآيات على جهل القوم في إنكار البعث ، ولو تفكروا لعلموا أن من يقدر على ابتداء الإحياء يقدر على إعادة ، وتدل إنما خلق بالحكمة وأن الباطل ليس من خلقه ، ولا يكون كذلك إلا وفيه غرض صحيح ، وتدل على نفي العبث ، وتدل أنه ليس من خلق الله ، ويدل قوله : ﴿ لا يعلمون ﴾ أن المعارف مكتسبة .

قال في التجريد : إن قلت : التزاع في الحياة بعد الموت فلم لم يقل : إن هي إلا حياتنا الأولى ؟ قلت : كأنه قيل لهم : تموتون ميتة تعقبها حياة ، كما تقدم منكم ميتة تعقبها حياة ، قال تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ أََمْواتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ فقالوا : ﴿ إن هي إلا موتتنا الأولى ﴾ يريدون ما الموتة التي تعقبها حياة إلا الموتة الأولى ﴿ وما نحن بمنشرين ﴾ أي : بمبعوثين ، يقال : أنشر الله الموتى ونشرهم إذا بعثهم ، والنشور : هو الحياة والبعث قال الشاعر :

فيا ليت الكريمين أنشرا^(١) غداة التقينا والنحور دوامي
ويا ليت عبد الله يجلس ساعة فينظر بالعينين بعد حمام

أي : ليتهم بعثوا فينظروا كيف قتلنا بهم من قتلهم .

ثم قال تعالى حاكيا : ﴿ فَأَتُوا بِآبائِنَا ﴾ أي : ادعوا الله أن يحيي آباءنا ليكون ذلك دليلا على ما تعدونه من البعث ، يخاطبون النبي ﷺ وحده ، أي : أتت بآبائنا يا محمد ، وهو مثل قوله : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ وهو كثير في كلام العرب ، أن يجمع فعل الواحد ، وقيل : كانوا يطلبون أن ينشر لهم قصي بن كلاب ليشاوروه ، فإنه كان رئيسهم ، وكان يشاور في النوازل ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي : فيما تعدوننا من النشور .

ولما حكى الله عنهم ذلك قال سبحانه : ﴿أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم﴾ كقوم نوح وعاد وغيرهم ﴿أهلكناهم﴾ وكذلك هلك هؤلاء ﴿إنهم كانوا مجرمين﴾ لأجل إجرامهم بالكفر والمعاصي ، والمراد بالخيرية القوة والمنعة ؛ لأنه لا خير في الفريقين ، ونظيره ﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾^(١) والمعنى : أن كفار مكة لم يذكروا في نفي الحشر والنشر شبهة ثم يحتاج إلى الجواب عنها ، ولكنهم أصروا على الجهل والتقليد في ذلك الإنكار ، فلهذا السبب اقتصر الله تعالى على الوعيد ، فقال : إن سائر الكفار كانوا أقوى من هؤلاء ، ثم إن الله تعالى أهلكهم ، فكذلك يهلك هؤلاء فقوله : ﴿أهم خير أم قوم تبع﴾ [استفهام على سبيل الإنكار ، وتبع اسم ملك

من ملوك اليمن ، لأنه يتبع صاحبه ، أو لأهم يتبعون وموضع]^(٢) تبع في الجاهلية موضع الخليفة في الإسلام قاله ابن الجوزي ، والمراد بتبع هاهنا : هو ملك معين من ملوك حمير ، كان مؤمنا وقومه كافرين ، ولذلك ذم الله قومه ولم يذمه .

قال الثعلبي : واسمه أسعد أبو كرب آمن بالنبي قبل أن يبعث بسبعمئة سنة .

وعن النبي ﷺ (لا تسبوا تبعا فإنه [كان] قد أسلم)^(٣) وعنه ﷺ : (ما أدري أكان تبع نبيا أو غير نبي)^(٤) وعن ابن عباس : كان نبيا ، حكى هذا في التجريد .

(١) القمر : ٤٣ .

(٢) ما بين الأقواس ساقط من أ ، وموجود في ب .

(٣) أخرجه أحمد والطبراني ، والطبري ، وابن أبي حاتم من حديث سهل بن سعد ، وفيه ابن طهية ، عن عمرو بن جابر ، وروى حبيب عن مالك عن أبي حازم ، عن سهل مثله ، قال : الدارقطني : تفرد به حبيب وهو متروك ، وله شاهد من حديث ابن عباس ، أخرجه الطبراني في معجمه ، وابن مردويه ، قال : محمد بن زكرياء : عن أبي حذيفة عن سفيان .

(٤) أخرجه الثعلبي من طريق عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن أبي ذئب ، عن المقري ، عن أبي هريرة هذا ، والمعروف بهذا الإسناد (ما أدري العيني هو أم لا ، وما أدري أعزير نبي أم لا) أخرجه أبو داود ، وكذا الحلّك ، لكن قال : ذو القرنين بدل عزيز ، قال : الدارقطني تفرد به عبد الرزاق وغيره أرسله . انظر تخريج الكشاف ٢٨٠/٤ .

ثم إنه تعالى ذكر الدليل القاطع على صحة القول بالبعث والقيامة ، فقال سبحانه : ﴿ ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ أي : عابثين لغير شيء ، بل لمنافع العباد ، والنظر ، والاعتبار ، وإقامة الحق من توحيد الله ، وإلزام طاعته ، ولأنهما مساكن عباده ، ومعادن منافعهم ، وذلك معنى قوله : ﴿ ما خلقناهما إلا بالحق ﴾ يريد الجزاء ، وهو الثواب على الطاعة ، والعقاب على المعصية ، ولم لم يحصل البعث لكان هذا الخلق لعبا وعبثا ، وإنما قال : ﴿ بينهما ﴾ بالثنائية لأنه أراد ما بين الجنسين ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ الغرض تخلقهما لإعراضهم عن النظر فيهما . ولما كان المقصود من قوله : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ إثبات القول بالبعث والقيامة لا جرم ذكر عقبه قوله تعالى : ﴿ إن يوم الفصل ﴾^(١) وهو يوم القيامة ؛ لأنه يفصل فيه بين الأشقياء والسعداء ﴿ ميقاتهم ﴾ أي : وقت حسابهم ﴿ أجمعين ﴾ يريد الأولين والآخرين .

(١) قال : الحاكم الجشمي في التهذيب في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ :

القرأة

قرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ، ويعقوب ﴿ يغلي ﴾ بالياء ، والباقون بالتاء ، الأول على تذكير المجهل ، والثاني على تأنيث الشجرة ، وقرأ أبو جعفر وعاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿ فاعتلوه ﴾ بكسر التاء والباقون بضمها ، وهما لغتان . قرأ الكسائي وحمزة ﴿ أنك ﴾ بفتح الهمزة على معنى لأنك ، الباقون بكسرها على الابتداء .

اللغة

الفصل بين الشئيين : الفرق بينهما ، ومنه الفصل الحاكم ، لأنه يفصل الأمور ، والفصيل : ولد الناقة ، لأنه انفصل عن أمه ، والمفاصل : مفاصل العظام ، ومنه ﴿ تفصيل كل شيء ﴾ أي : بيان ، والفرق بينه وبين غيره ، ويوم الفصل : يوم القيامة يفصل بين الحق والمبطل ، والوقت : الزمان ، والموقوت : الشيء المحدود ، والميقات : مصير الوقت ، وسميت القيامة ميقاتا ، لأنه وقت للجزاء ، والمولى : صاحب الصديق ، والمسولى : ابن العم ، والمولى : المعتق المنعم عليه ، والمولى : الولي ، والمولى : الأول من ذلك ، والمهل : شيء يذاب بالنار حتى يذوب ، والحميم : الحار ، والعتل : الذهاب بشدة وعنف ، ومنه العتل الجافي الغليظ ، عتله يعتله عتلا ، وقيل : هي أن تأخذ لباب الرجل فتجره ، وقيل : العتل السريع إلى الشيء .

الإعراب

احتلفوا في محل (إلا من رحم الله) فقد رفع بدلا من الاسم المضممر في (ينصرون) وإن شئت جعلته ابتداء ، وأضمرت خبره ، تقديره: إلا من رحم الله فيغني ، وقيل : محله نصب على الاستثناء والانقطاع ... الكلام . ﴿ لا يغني مولى عن مولى ﴾ الأول والثاني كسر ، وأصله موليا ، لأن الياء لما وقبلها حرف مفتوح قلبتها ألفا ساكنة .

التزول

قيل : نزل قوله : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ في أبي جهل ، وكان يقول : " ما بين جليها أعز وأكرم مني " عن قتادة ، فيقال : له يوم القيامة توبخا : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ كما زعمت ، ولما سمع هذه الآية أتى بتمر وزبد قال : نحن نتزقم هذا ، أي : ملاقوا هذا فلا يضرنا ، وروي أنه قال : ، إذا كان محمد يوعدنا بالزقوم فتزقموا ، فإنا لا نعرف ذلك إلا هذا ، وروي أن النبي ﷺ أخذ بيد أبي جهل وهزه ، وقال : ﴿ أولى لك ثم أولى لك فأولى ﴾ فقال : تهددي يا محمد ، والله يا محمد ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلوا بي شيئا ، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه ، فنزلت فيه ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ .

المعنى

ثم عقب الوعيد بذكر القيامة ، فقال : تعالى : ﴿ إن يوم الفصل ﴾ يعني : يوم القيامة ، وفيه يفصل الله بين الخلق أمورهم ﴿ ميقاتهم أجمعين ﴾ يعني : وقتهم الذي أمهلهم إليه ، ثم وصف ذلك اليوم ، فقال : تعالى : ﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى ﴾ من العذاب الذي نزل به ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي : لا ينصره أحد عن ذلك ، أي : لا يدفع صديق عن صديق ، ولا ابن عم عن ابن عمه ، ولا ولي عن وليه شيئا ﴿ إلا من رحم الله ﴾ الاستثناء من النفي إثبات ، يعني من رحمة الله من المؤمنين ، أي : أنعم عليهم ، وأنه يغني ويشفع ، والرحمة : النعمة على المحتاج ، وقيل : لا يشفع أحد لأحد إلا من رحم الله ، فأذن له في الشفاعة ، ﴿ إنه هو العزيز ﴾ الغالب القادر الذي لا يمتنع عليه شيء ، وهو مع ذلك رحيم ، يرحم عباده ، وينيل بعضهم نفع بعض في الشفاعة ، ولما كان للقضاء بين الحق والمبطل ، بين ما لكل واحد منهما ، فذكر ما أعده لأهل جهنم ، فقال : سبحانه ﴿ إن شجرة الزقوم ﴾ وهي شجرة طلعها يأخذ بجلوقهم ، ويحرق أجوافهم ، وقد تقدم ذلك ﴿ طعام الأثيم ﴾ أي : طعام الفاجر العاصي ، ثم وصف الشجرة فقال : ﴿ كالمهل ﴾ قيل : ما أذيب بالنار ، كالفضة عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وقيل : المهل دردي الزيت عن ابن عباس بخلاف ﴿ يغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ الماء الحار المنتهي في الحرارة ﴿ خذوه ﴾ أي : ويقال : خذوا الأثيم ﴿ فاعتلوه ﴾ قيل : بشدة وعنف وجروه إلى الحميم ، وقيل : ادفعوه بسوقه إلى النار ﴿ إلى سواء الحميم ﴾ أي : وسط النار عن قتادة ﴿ ثم صبا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ الماء الحار ، ثم يقال : له ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ قيل : هو تهجين ، أي : أنت الذي ادعيت العز والكرم ، وما كنت كذلك ، وقيل :

ثم وصف ذلك اليوم فقال سبحانه : ﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ﴾ من الغناء وهو النفع ، أي : لا ينفع مولى ، أي مولى كان من قريب أو صديق أو مالك ؛ لأن المولى يطلق على ابن العم ، وعلى المود ، وعلى الناصر ، وكل ذلك صحيح هنا .

﴿ ولا هم ينصرون ﴾ بدفع العذاب عنهم ﴿ إلا من رحم الله ﴾ من المتقين ، فهو منصور وفي التجريد : ﴿ إلا من رحم الله ﴾ وهم المؤمنون ، يشفع بعضهم في بعض ﴿ إنه هو العزيز ﴾ القوي الغالب في انتقامه بمن عصاه ، ولا ينصر من عاداه ﴿ الرحيم ﴾ عظيم الرحمة لمن أطاعه .

واعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة على أن القول بالقيامة حق ، ثم أردفه بوصف ذلك اليوم ذكر عقبيه وعيد الكفار ، ثم بعده وعد الأبرار ، أما وعيد الكفار فهو قوله تعالى : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ عظيم الإثم ، والأثيم : كثير الآثام ، والزقوم : من التزقم ، وهو أخذ الشيء بكره ، وأهل النار يكرهون على تناولها ، ذكر معناه الواحدي .

نزلت في أبي جهل ، روي أنه لما نزل ﴿ أذلك خير أم شجرة الزقوم ﴾ وقال [ابن] الزبيري : إن أهل اليمن يسمون أكل الزبد والتمر التزقم ، فدعا أبو جهل بتمر

أنت العزيز في قومك الكريم عليهم فالיום أنت في هذا الهوان ، لا ينصرك منهم أحد ، وقيل : هو على النقيض كأنه قيل : أنت الدليل المرهن ، إلا أنه قيل ذلك على وجه التبعيد منه استخفافا به ، وقيل : أنت الذي كنت تطلب العز في قومك ، والكرم معصية الله تعالى ﴿ إن هذا ما كنتم به تمثرون ﴾ أي : تشكون ولا تؤمنون به ، فقد رأيتموه عيانا

الأحكام

يدل قوله : ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أن أهل النار لا ناصر لهم ، ولو كان يشفع النبي لكان ذلك أعظم نصرة ، فيبطل قول المرجية في الشفاعة لأهل الكبائر ، ويدل قوله : ﴿ تمثرون ﴾ أن الشك في الدين مذموم ، والشك مستحق للعقاب ، فتدل على بطلان قول من يقول : إن المعارف ضرورية ، وتدل على أن الشك فعلهم لذلك وبخهم وعاقبهم .

وزيد ، وقال : ترقموا ، فهذا الذي يخوفكم به محمد ، فترلت ، والأثيم : الفاجر .
ثم قال : ﴿ كالمهل ﴾ بضم الميم وفتحها ، وهو دردي الزيت ، أي : عصارته
كعصارة السليط ، يوضح هذا التفسير قوله : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ ^(١) مع
قوله : ﴿ فكانت وردة كالدهان ﴾ ^(٢) حمراء ، والدهان : جمع دهن ، أي : كدهن
الزيت ، وهذا مطابق لدردي الزيت ، وقيل : هو ذائب الفضة والنحاس ، وتم
الكلام هاهنا .

ثم أخبر عن غليانه في بطون الكفار فقال سبحانه : ﴿ يغلي في البطون ﴾ من قرأ
(يغلي) بالياء جعلها للطعام ، أو للمهل ، ومن أنثها ذهب إلى تأنيث الشجرة ، ومثله
﴿ أمنة نعاسا يغشى ﴾ ^(٣) و ﴿ يغشى ﴾ التذكير : النعاس ، والتأنيث : الأمنة
﴿ كفلي الحميم ﴾ الماء الذي انتهى غليانه .

ثم قال : ﴿ خذوه ﴾ يا زبانية ، أي : خذوا الأثيم ﴿ فاعقلوه ﴾ قرئ بضم التاء
وكسرهما ، وهما لغتان بمعنى واحد ، أي : قودوه بعنف ، والعقل : أن يؤخذ
بتليب ^(٤) الرجل فيجر لحبس أو قتل ، وقوله : ﴿ إلى سواء الجحيم ﴾ وسطها
﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ المصبوب هو الحميم لا عذابه ، إلا أنه
إذا صب عليه الحميم فقد صب عذابه عليه وشدته ، فهو أبلغ في المعنى ^(٥) .

(١) المعارج : ٨ .

(٢) الرحمن : ٣٧ .

(٣) آل عمران : ١٥٤ .

(٤) تليب الرجل : قال الجوهري : لبث الرجل تليباً إذا جمعت ثيابه عند صدره في الخصومة وجررتة .

وفي الرازي : أن يؤخذ بمنكب الرجل . وهذا هو قول الليث ، ومنه : أخذ فلان بزمام الناقة يعتلها ، وذلك إذا قبض على
أصل الزمام عند الرأس وقادها قوداً عنيفاً ، وقال ابن السكيت : عتله إلى السجن أعتله إذا دفعته دفعا عنيفا ، هنا قول جميع
أهل اللغة في العتل ، وذكروا في اللغتين ضم التاء وكسرهما ، وهما صحيحان مثل يعكفون ، ويعكفون ، ويعرشون ويعرشون .
(٥) لأنه من باب الاستعارة ، فهو كقوله تعالى : ﴿ أفرغ علينا صبرا ﴾ فذكر العذاب معلقا به الصب مستعارا
له ، ليكون أهول وأهيأ .

قال مقاتل : نزلت في أبي جهل ، يضربه الملك بقمعة من حديد على أم رأسه فتنقب عن دماغه ، فيجري دماغه على جسده ، ثم يصب الملك في النقب ماء حميما قد انتهى حزه ، فيقع في بطنه ، ثم يقول له : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ هذا تبكيت وتقرع وتوبيخ على طريق التهكم والاستهزاء بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه ، قال الشاعر :

قال البقية يا قيسا فقلت له اصبر حذيف فأنت السيد الصمد

أي : بزعمك علي وجه التبكيت والتوبيخ ، ولم يرد مدحه .

روي أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ : ما بين جليلها^(١) أعز مني ولا أكرم ، وما تستطيع أنت وربك أن تفعل بي شيئا .

روي في البرهان عن الحسن بن علي عليه السلام أنه كان على المنبر يقول : ذق أنك أنت ، بفتح الألف ، والمعنى في فتح الألف : ذق هذا القول الذي قلته في الدنيا ، ومن كسر حكي عن قوله

ثم قال : ﴿ إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ أي : تشكون في الدنيا ، أو تمارون وتلاحون ، والمراد منه ما ذكر في أول السورة حيث قال : ﴿ بل هم في شك ﴾ .

ثم اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد في هذه الآيات ذكر بعدها الوعد فقال سبحانه : ﴿ إن المتقين في مقام أمين ﴾^(٢) فعقب التهيب والترغيب ، والإنذار بالتبشير ،

(١) أي : جبلي مكة ، وهما الأخشبان ، أبو قيس ، وأبو ثور .

(٢) قال : الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه الآية وما يعدها إلى آخر السورة : القراءة :

قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر ﴿ في مقام ﴾ بضم الميم ، الباقون بفتحها ، قيل : هما بمعنى واحد ، وهو اسم لموضع الإقامة ، وقيل : الضم هو المصدر ، أي : في إقامة ، وبالفتح موضع الإقامة ، يقال : أقام بالمكان إقامة ومقاما ومقامة . اللغة : الاتقاء : أصله الاجتناب عن الشيء ، والتقي : الخائف يجنب موضع المخافة ، اتقى اتقاء ، ومنه التقوى وهو في الشرع اسم مدح ، كاسم المؤمن ، والتقي : هو اسم لمن اجتنب ما نهي عنه ، وهو على ضربين اجتناب عن ترك الواجبات ، واجتناب عن فعل القبائح ، يقال : رجل تقي ، ورجل متق . والاستبرق :

الديباج قيل له : الإستبرق لشدة بريقه ، وقيل : اسم معرب ، ولا يقال : إنه فارسي ، لأنه ليس في القرآن غير العربي ، ولأنه ليس في لغة الفرس إستبرق ، والخور : جمع حوراء ، وهو شدة البياض ، ومنه الخواري لشدة بياضه ، وحوثرته يبيضته ، والعيناء : واسعة العين الحسنة ، والوقاية : حفظ الشيء ، وقاد الله وقاية ، والأرتقاب : الانتظار

الإعراب

﴿ فضلاً ﴾ نصب على المصدر ، أي : فضل الله فضلاً ، وقيل : بترع حرف الصفة ، أي : ذلك الفضل منه وقيل : نصب على الحال

المعنى

ثم عقب الوعيد بذكر ما أعد للمتقين ، فقال : سبحانه ﴿ إن المتقين ﴾ الذين يتقون معاصي الله ﴿ في مقام ﴾ في موضع إقامة ﴿ أمين ﴾ قيل : أمنوا العذاب ، وقيل : أمنوا زوال النعمة ، وقيل : أمنوا كلما يخاف ويخشى خلاف حال الدنيا ﴿ في جنات ﴾ أي : يساتن فيها أشجار ﴿ وعيون ﴾ أنهار حارية ، فيها ﴿ يلبسون ﴾ سندس وإستبرق ﴿ قيل : نوعان من الحرير ، وقيل : السندس الحرير ، والإستبرق الغليظ عن الحسن وقلادة ، وقيل : إنما خاطب العرب بذكره الثياب ، لأنها أعظم عندهم ، واشتهت أنفُسهم ﴾ متقابلين ﴿ أي يقابل بعضهم بعضاً ، ويقبل بعضهم على بعض ، وهم متقابلون بالحجة ، لا متدابرين بالبغضة ، وقيل : متقابلين حال الزيادة ، وأن تفاوتوا في الدرجات ، ﴿ كذلك ﴾ قيل : كذلك فعلنا هم ، وقيل : كما أكرمناهم بالجنان ، أكرمناهم بأن زوجناهم ، وقيل : كذلك على تلك الحالة ، وقيل : كذلك الأمر في فريقين ، وقيل : ذلك نفعل بكل واحد منهم ﴿ وزوجناهم بخور عين ﴾ وهي النساء النقيات البياض ، وقيل : الحور البيضاء ، والعين : واسعة العين ، وقيل : العيناء : الشديدة السواد سواد العين ، الشديدة بياضها عن الحسن ، وقيل : حار فيهن الطرق لبياضهن ، وصفاء لوهن عن قتادة ﴿ يدعون فيها ﴾ في الجنة ﴿ بكل فاكهة ﴾ يشتهون ﴿ آمين ﴾ من نفاذها وعدمها ومضرقتها ، وقيل : آمين من الموت والأوصاب ، ﴿ لا يدوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ قيل : إلا بمعنى سوى ، وقيل : بمعنى لكن ، كأنه قيل : لكن الموتة قد ذاقوها ، وقيل : بعد الموتة الأولى ، وإنما استثنى ، لأنه أخير بذلك في الدنيا ، فيصح الاستثناء فيها عن القاضي ، ومتى قيل : لم كان هذا نعمة عليهم مع مشاركة غيرهم من الحيوانات ؟ قلنا : لأن فيه بشارة بدوام النعم ، فالحياة هنية في الجنة ، وأهل النار معانين ، فيزيدهم بذلك غماً ﴿ ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ أي : خلصهم عنها ﴿ فضلاً من ربك ﴾ أي : ذلك فضل من الله .

ومتى قيل : إذا كان مستحقاً فكيف يكون فضلاً ؟ قلنا : سبب للاستحقاق هو التكليف والتمكين ، وهو فضل منه ، وقيل : لأنه خلق وأنعم فاستحق أن يعبد ويشكر ، فإذا جازى على الفعل كان فضلاً ، وقيل : لأنه أعطى المستحق ، وزاد أعطى على القليل كثيراً ، وقيل : إن هذه الأفعال لا منفعة فيها للقدم سبحانه ، فإذا أثاب عليها ثواباً موبداً كان فضلاً ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ الظفر العظيم الشأن ﴿ وإنما يسرونه ﴾ أي :

والمقام بالضم : موضع الإقامة ، والمراد مكانهم الواسع في الجنة ، أي في محل إقامة وثبات ودوام ، وقرئ بفتح الميم ، وهو موضع القيام في الأصل^(١) ، ثم استعمل عموماً لكل مكان ، والأمين : من قولك : أمن الرجل أمانة فهو أمين ، وهو ضد الخائن ، فوصف به المكان استعارة^(٢) ؛ لأن المكان المخيف كأنه يخون صاحبه بما يلقي فيه من المخاوف ، وقيل : أمين بمعنى مأمون فيه الغير والحوادث والانتقطاع .

﴿ في جنات ﴾ بساتين ﴿ و عيون ﴾ أثمار جارية ﴿ يلبسون من سندس ﴾ هو ملوك من الحرير والديباج ﴿ وإستبرق ﴾ ما غلظ منه ﴿ متقابلين ﴾ لا ينظر بعضهم إلى أقفاء بعض .

وقوله : ﴿ كذلك ﴾ تحقيق للكلام وتأكيده ، أي : الأمر كما وصفنا فتكون الكاف مرفوعة . أو منصوبة والتقدير : آتيانهم مثل ذلك ، ثم قال : ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ قال كثير من المفسرين : المراد وقرناهم بحور ، وليس من عقد التزويج

سهلناه ، يعني : القرآن كناية عن غير مذكور ، وقيل : كناية عن الكتاب ، وقد تقدم ذكره في أول السورة ، ومعنى يسرناه أي : جعلناه بالعربية ليسهل عليك ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي : ليتذكروا ما فيه من الأمر والهي ، والوعد والوعيد ﴿ فارتقب أثم مرتقبون ﴾ أي : ارتقب المجازاة فإنهم مرتقبون يعني في حكم المرتقب ، من حيث يأتيه في عاقبة أمره ، فالحسن يرتقب عاقبة الإحسان ، والمسيء عاقبة الإساءة ، وقيل : أنتظرهم عذاب الله فإنهم ينتظرون بك الدوائر ، وقيل : انتظر النصر ، والقهر ، فإنهم ينتظرون بزعمهم قهرك .

الأحكام

تدل الآية أن غير المتقي لا يكون في الجنة ، ويدل قوله : ﴿ ووقاهم ﴾ أن أصحاب الجنة قط لا يدخلون النار خلاف قول المرجئة ، ويدل قوله : ﴿ فإنما يسرناه ﴾ أنه يقدر على قراءة القرآن ، وتدل على أنه تعالى قسار على أن يجعله بلسان آخر ، دل أنه مقدوره ، وجعله خلاف من يقول إنه قدم ، ولأنه عربي والقدم لا يكون عربياً ، ويدل قوله : ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أنه أراد من الجميع أن يتذكروا خلاف قول المجرة ، ويدل قوله : ﴿ فارتقب ﴾ على وعده ، ووعيد لهم ، وتدل أن التذكير فعلهم .

(١) أي : أنه من الخاص الذي وقع مستعملاً في معنى العموم ، وأصله موضع القيام ، ثم عم واستعمل في جميع الأمكنة ، حتى قيل لموضع القعود ، مقام ، وإن لم يقم فيه أصلاً ، ويقال : كنا في مقام فلان ، أي مجلسه

(٢) أي : استعارة مكنية . كما علل المصنف بقوله : لأن المكان المخيف كأنما يخون صاحبه بما يلقي فيه من المكارة .

قال أبو عبيدة : جعلنا ذكور أهل الجنة أزواجاً لهم كما يزوج البعل بالبعل ، أي : جعلناهم اثنين اثنين ، ونحوه .

قال الأخفش : وإنما حملهم على ذلك دخول الباء ، قال يونس : العرب لا تقول : تزوج بفلانة ، بمعنى عقد النكاح ، إنما يقولون تزوجها ، وقواه الفارسي ، واحتج له بأن التزويل جاء به ، نحو ﴿زوجناكها﴾ ولو كان المراد تزوجت بها لقال : زوجناكها ، وقال ابن قتيبة ، يقال : زوجته امرأة ، وزوجه بامرأة ، بمعنى عقد النكاح ، وأما الحور : فهو جمع حوراء من الحور ، وهو البياض الخالص ، قال مجاهد : الحور : النساء النقيات البياض ، ومثله عن الفراء ، قال أبو عبيدة : الشديدة بياض بياض العين ، الشديدة سواد سوادها ، والعين : جمع عيناء ، وهي واسعة العينين .

قال في البرهان : وفي قراءة عبد الله (بعيس عين) والعيساء : البيضاء من الإبل ، والعين : عظام الأعين .

ثم ذكر سبحانه من نعمات أهل الجنة المأكول ، فقال : ﴿يدعون فيها﴾ أي : الجنان المذكورة ﴿بكل فاكهة﴾ وهي المستلذات ﴿آمين﴾ من كل مخوف وكدر ، من التخمر والأمراض . ولما وصف الله تعالى أنواع ما هم فيه من الخيرات أو الزوجات أخبر سبحانه أن جناتهم دائمة فقال : ﴿لما يذوقون فيها الموت﴾ ذوق الموت مجاز استعير للإحساس به ﴿إلا الموتة الأولى﴾ التي ذاقوها في الدنيا .

وفي الاستثناء قولان : أحدهما وهو الظاهر : أنه منقطع كأنه قيل : إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها ، وهو من باب التعليق بالمحال .

قال في البرهان : وهذا مثل قوله : ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ إلا ما قد سلف ^(١) وإلا في هذا الموضع بمنزلة سوى ، كأنه قال : لاتفعلوا سوى ما فعل آباؤكم ، وكذلك قوله : ﴿لا يذوقون فيها الموت﴾ ^(٢) سوى الموتة الأولى ،

وكذلك {خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك} ^(١) لهم من الزيادة لهم على مقادير الدنيا من الخلود . اهـ

وثانيهما : أنه متصل باعتبار مجازي ، ذكره ابن قتيبة ، وهو أن المؤمنين حين يموتون يصيرون الى الروح والريحان ، وأسباب من الجنة ، ويرون منازلهم منها ، فإذا ماتوا في الدنيا فكأنهم ماتوا في الجنة لاتصالهم بأسبابها ، قاله في التجريد .

فإن قيل : أليس أهل النار أيضا لا يموتون ، فلم بشر أهل الجنة بهذا مع أن أهل النار شاركهم فيه ؟ قيل له : إن البشارة ما وقعت بدوام الحياة ، بل بدوام الحياة مع سابقة حصول تلك الخيرات والسعادات ، فظهر الفرق .

ثم قال تعالى : {ووقاهم عذاب الجحيم فضلا من ربك} عطاء منه وثوابا ، أي : كلما أعطى المتقين من نعيم الجنة ، والنجاة من النار فهو تفضيل الله ؛ لأنه تعالى تفضل بالتكليف وغرضه منهم أن يصيرهم إلى هذه المنزلة إن أطاعوه .

ثم قال تعالى : {ذلك هو الفوز العظيم} أي : ذلك هو العطاء الباهر .

ولما بين الله تعالى الدلائل وشرح الوعد والوعيد قال : {فإنما يسرناه بلسانك} أي : سهلناه ، أي : الكتاب المبين المذكور أول السورة ، حيث أنزلناه عربيا بلسانك ، أي : بلغتك {لعلهم يتذكرون} أي : لإرادة أن يفهمه قومك ويتذكروا ، والمعنى : أنه تعالى وصف القرآن في أول هذه السورة بكونه كتابا مبينا ، أي : كثير البيان والفائدة ، فذكر في خاتمها ما يؤكد ذلك ، فقال : إن ذلك الكتاب المبين الكثير الفائدة إنما يسرناه بلسانك ، أي : إنما أنزلناه عربيا بلغتك ؛ لعلهم يتذكرون .

ثم قال سبحانه : {فارتقب} أي : انتظر ما يحل بهم من العذاب ، ومن نصرتك عليهم {إنهم مرتقبون} ما يحل بك من الدوائر والله أعلم .

سورة الزخرف

تسع وثمانون آية ، وثمان وثمانون في الشامي (مكية) إلا قوله : ﴿ واسأل من أرسلنا

من قبلك ﴾ عن مقاتل
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ حم ﴾ قيل : تعديد للحروف ، وقيل : اسم للسورة ، وقيل : اسم من أسماء الله عن ابن عباس ، قالوا : والاحتمال فيه على وجهين ، الأول : أن يكون التقدير : هذه حم والكتاب المبين ، فيكون القسم واقعا على أن هذه السورة هي سورة حم " ، ويكون قوله : ﴿ إِنَّا جَمَعْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ ابتداء لكلام آخر .

والثاني : أن يكون التقدير : هذه حم ، ثم قال : ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ فيكون المقسم عليه هو قوله : ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ .

وقال الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام : حم حرف لم يتعبد الله أحدا بعلمه ، ليس فيه فرض من الله على عباده .

﴿ والكتاب المبين ﴾ فهو كتاب محمد صلى الله عليه وآله ، ومعنى ﴿ المبين ﴾ بَيِّنَ الحق ، وبين الباطل . اهـ

والمعنى : أقسم بالكتاب المبين ، أي : البين ، الذي أنزل عليهم ؛ لأنه بلغتهم ، أو الواضح للمتدبرين ، أو الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلال .

(١) أي : أنه جواب القسم مقدما على القسم ، ويكون قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ ابتداء لكلام آخر .

واعلم أن وصفه بكونه مبينا مجاز ؛ لأن المبين هو الله تعالى : وسمي القرآن بذلك توسعا من حيث أنه حصل البيان عنده .

وقوله ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا﴾ جواب القسم ﴿لعلكم تعقلون﴾ لإرادة أن تعقلوا ، أو لئلا تقولوا : هلا فصلت آياته ﴿وإنه﴾ أي القرآن ﴿في أم الكتاب﴾ أم الكتاب : محكمه ، ومعنى ﴿لدينا﴾ أي : عندنا ، وقوله ﴿لعلني حكيم﴾ أي : لرفع القدر في الكتب لإعجازه ^(١) ، محكم الأمر ، أو ذو حكمة ^(٢) .

(١) وقيل : معنى قوله ﴿لعلني﴾ كونه عاليا عن وجوه الفساد والبطلان ، وقيل : المراد كونه عاليا على جميع الكتب بسبب كونه معجزا باقيا على وجه الدهر .

(٢) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليه السلام ما لفظه :

حدثنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالذ ، عن الإمام الشهيد زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله عز وجل : ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا﴾ وأم كل شيء : أصله ، والكتاب : القرآن ، وأمه : هي نسخته التي هي عند الله ، ولدينا : معناه عندنا .

وقوله تعالى ﴿أفغضب عنكم الذكر صفحا﴾ معناه : نترككم فلا نحاسبون .

وقوله تعالى ﴿وما كنا له مقرنين﴾ معناه : مطيقون .

وقوله تعالى ﴿وجعلوا له من عباده جزءا﴾ معناه : نصيب ، ويقال : عدل .

وقوله تعالى ﴿واصطفاكم بالبين﴾ معناه : امتن عليكم بهم .

وقوله تعالى ﴿ظل وجهه مسودا وهو كظيم﴾ معناه : مكروب .

وقوله تعالى ﴿أو من ينشوا في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسنين عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام : هن النساء ، فرق بين زيهن وزى الرجال ، ونقصهن في الميراث والشهادة ، وأمرهن بالعدة ، وسماهن الخولاف .

وقوله تعالى ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ معناه : على ملة واستقامة .

وقوله تعالى ﴿إني براء مما تعبdlون﴾ معناه : بريء ، وهما لغتان .

وقوله تعالى ﴿إلا الذي فطرني﴾ معناه : خلقتني .

وقوله تعالى : ﴿وجعلها كلمة باقية﴾ قال الإمام الشهيد أبو الحسين عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام : هي قول : لا إله إلا الله .

وقوله تعالى : ﴿ولولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ قال : القريتين — مكة والطائف ، والرحلان : عمرو بن مسعود الثقفي من الطائف ، ومن مكة عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، ويقال : الوليد بن المغيرة المخزومي .

وقوله تعالى : ﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيؤقهم سققا من فضة ومعارج عليها يظهرون﴾ والمعارج : هي الدرج ، ويظهرون : معناه يعلون ويصعدون .

وقوله تعالى : ﴿وزخرفا﴾ معناه : ذهب .

وقوله تعالى : ﴿نقيض له شيطانا﴾ معناه : نهي له ﴿فهو له قرين﴾ معناه : صاحب .

وقوله تعالى : ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ معناه : شرف ، وهو أن يقول الرجل : أنا من العرب ، فيقال : من أي العرب ؟ فيقول : من قريش ، فيكون يملك منها الشرف في الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين﴾ معناه : بل أنا خير ، والمهين : الضعيف .

وقوله تعالى : ﴿أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ معناه : رفقاء .

وقوله تعالى : ﴿فجعلناهم سلفا﴾ معناه : من مضى وسلف . وقال : جعلناهم سلفا ، معناه : أهواء مختلفة

وقوله تعالى : ﴿إذا قومك منه يصدون﴾ وتقرأ يصدون ، فمن قرأ بضم الصاد ، فإنه الإعراض والصدود ، ومن قرأ بكسر الصاد أراد أنهم يصيحون .

وقوله تعالى : ﴿وإنه لعلم للساعة﴾ معناه : خروج عيسى بن مريم عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿فلا تئمن بها﴾ معناه : لا تشكن فيها .

وقوله تعالى : ﴿ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ معناه : كل الذي تختلفون فيه .

وقوله تعالى : ﴿ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون﴾ معناه : تكرمون ، وقال : تسرون بالسماع في الجنة

وقوله تعالى : ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب﴾ فالصحاف : القصاص ، واحدها صحيفة ، والأكواب : الأباريق التي لا آذان لها ، واحدها كوب . وقوله تعالى : ﴿أم ابرموا أمرا﴾ معناه : أحكموا .

وقوله تعالى : ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم﴾ معناه : يظنون أنه تخفى علينا أسرارهم فيما بينهم .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ معناه : الآتين ، والرادين له .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ معناه : شهد ألا إله إلا الله ، وهو يعلم أنه ربه .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياشي عليه السلام ما لفظه :

﴿وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾ أم الكتاب : محكمه ، ومعنى ﴿لدينا﴾ عندنا ﴿لعلي حكيم﴾ أي : لرفيع القدر محكم الأمر . ومعنى ﴿أفتضرب عنكم الذكر صفحا﴾ أفتضرب المواعظ والتذكير وشفا إلى غيركم على وجه التقرير ، والعرب تقول : صفح عنه ، أي : أعرض عنه ولم يقابله بالعداوة ولم يقصده ، ومعنى قوله : ﴿أشد منهم بطشا﴾ أي : حركة وفعلا ، قال الشاعر :

ومعنى ﴿ومثل الأولين﴾ أي : قد خلا ما وصفنا لهم ومضى في أول كلامنا الذي أوحينا إليك .

ومعنى ﴿من السماء ماء بقدر﴾ أي : مقدار الكفاية ، ومعنى ﴿ويقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ أي : وما كنا له مطيقين ، ولا مماثلين في القوة ، والعرب تقول : إنك لا تقرون بفلان ، أي : لا يماثله ، ولا يكون له قرنا ، وهو مأخوذ من قرن الشيء إلى الشيء لا ينبغي أن يقرن ويجمع إلى غير شكله ، قال الشاعر :

واين اللبون إذا مالز في قنرون لم يستطع ضوالة الجزل القناعيس

يريد : أنه إذا قرن إليهن لم يقدر ؛ لأنه ليس من شكلهن ، وإنما أراد الله عز وجل من العباد أن يشكروه على تسخيرهم ، وتسهيله للملك والأنعام حتى يركبوها ، وليسوا في القوة مثلها ، ولا هم في الشدة أقرانها ولا شكلها ، ومعنى ﴿وهو كظيم﴾ أي : لازم لسانه مغموم ، قال الله عز وجل : ﴿والكاظمين الغيظ﴾ أي : اللازمين ، قال الشاعر :

ويقول مالك لا تقول مقالي ولسان ذا طلق وذا مكظوم

﴿أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾ يريد : كيف يكون مثل الملائكة ، وهذا توقيف واختصار ، والذي ينشأ في الحلية يعني الإناث اللواتي ينشأن ويتهيأن ويكرن في الزينة ، وهن في الخصام غير مبيات لعينهن وضعفهن ، فكيف تكون الملائكة الذين اصطفاهم الله واختارهم ؟! هذا ممن غيركم أيها الجاهلون وكذبكم ، وفاحش جهلكم وضلالكم ، ومعنى قوله : ﴿أشهدوا خلقهم﴾ يقول : هل شهدتم وحضرتهم عند خلقنا لهم أيها الكاذبون .

ومعنى ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ يريد : على دين وملة ، قال الشاعر :

حلقت فلم أترك لنفسي رية وهل يأتئ ذو أمة وهو طائع

وقال آخر :

فأدخل نحو أمتكم بزور وأترك أمتي حاشا مليكي

والأمة على وجوه آخر سنذكرها إنشاء الله تعالى ، ومعنى قولهم : إهم مهتدون ، أي : تابعون ﴿فانتقمنا منهم﴾ أي : انتقمنا منهم ، وجازيناهم على فعلهم قال الشاعر : (عثلها تنتقم الحقوق) ، أي : يقتضى وينتصر .

ومعنى ﴿إني براء مما تعبدون﴾ أي : متبرئ مقاطع لما تعبدون ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ يعني : البراءة من عبادة الأصنام ، باقية في ذريته ونسله إلى يوم القيامة ، أي : لا يزال في نسله وذريته وعقبه من يوحد الرحمن ، ويهجر الأوثان و ﴿لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ روي أنهم قللوا : لو أنه أنزل على الوليد بن المغيرة بمكة ، أو ابن مسعود الثقفي بالطائف ، وقيل : قائله الوليد بنفسه لعنه الله ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ تبركت لهم أنهم مماليك لا حيلة لهم .

ومعنى ﴿ليتخذ بعضهم بعضا سخريا﴾ والتسخير : هو التسهيل ، والمعونة بالتيسير بذلك ، ولولا ذلك لما انتفع بعضهم ببعض . ومعنى ﴿ومعارج عليها يظهرون﴾ المعارج : هي الدرج والمطالع ، ومعنى ﴿يظهرون﴾ أي : يطلعون ويعلون .

قال سيدنا ومولانا عز وجل : ﴿تخرج الملائكة والروح إليه﴾ أي : تطلع وتعلو إلى السماء وتظهر ﴿وزخرفا﴾ أي : زينة ، قال الشاعر : رسومه والمذهب الزخرفا .

﴿وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا﴾ أي : وكل ذلك لمتاع الحياة الدنيا ، و(لما) هاهنا صلة للكلام ، قال الله عز وجل : ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ والمعنى جند هنالك ، قال الشاعر :

قالت ألا ليتما هدا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد

والمعنى : قالت ألا ليت هذا الحمام لنا ، فأدخل ما تزين للكلام ، وصلة للنظام .

﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن﴾ العشي : ظلمة البصر ، قال الشاعر :

نظرة بعين لم تخنها غشاوة ولا رمد والطرف غير كليـل

أي : لم تخنها ظلمة ولا ضعف .

ومعنى ﴿نقيض له شيطانا﴾ أي : خلى بينه وبين شيطان من الشياطين ، قال الشاعر :

وألقينا مزاحمكم هوانا وقيضنا له عمرا قريـنا

وقال آخر : (وقيض الله لي عداقة) أي : ترك لي رحله ﴿فإما نذهبن بك﴾ أي : فإن نذهبن بك ، و(ما) صلة وزينة وحلية للكلام ، قال الهادي إلى الحق صلى الله عليه :

إما يؤخر في المنية فينبه إن النية قد تقول وتصنع

يريد عليه السلام : إن يؤخر في المنية ، فأدخل ما تزيينا للكلام ، ومعنى ﴿ فاستمسك بالذي أوحينا إليك ﴾ أي : التزم به .

ومعنى ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ أي قيل : إنه شرف لك ولقومك يذكرون به ، ويحمدون من أجله ، ويحتمل أن يكون لتذكير وموعظة لك ولقومك ، أي : عشيرتك وأقاربك .

ومعنى ﴿ إلى فرعون وملأه ﴾ أي : قومه ، وملأى ﴿ بما عهد عندك ﴾ أي : بما أوصى إليك ، قال مولانا عز وجل : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان ﴾ يريد : ألم أوص إليكم ، والعهد على وجوه آخر سندكرها ، ومعنى ﴿ الذي هو مهين ﴾ أي : ليس له همة في الملك ، وكان يُحسب زهده في الدنيا عجزا ووهنا ، جهلا من عدو الله وظلما ﴿ فلولا ألقى عليه أساور من ذهب ﴾ وحلية من التبر تكون في الأيدي للنساء والملوك ، والله أعلم .

ومعنى ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ أي : مجتمعين ، ومعنى ﴿ فلما أسفونا ﴾ أي : أغضبونا ، ومعنى غضب الله : فهو سخطه ، ومعنى أسخطونا : أي : أغضبونا ، وأسف الله غضبه وعقابه ، وأسف المخلوق عرض حادث في قلوب المحذنين .

﴿ فجعلناهم سلفا ﴾ أي : سالفين ، ومعنى سالفين أي : ماضين ، قال مولانا عز وجل ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ أي : عما مضى وتقدم وخلا ، قال الإمام عليه السلام : (أخذوا بمنهاجي على نهج السلف) .

أي : من مضى من آبائه صلوات الله عليهم أجمعين ، ومعنى قوله ﴿ ومثلا للآخرين ﴾ أي : مثالا من الأمثال ، وخيرا ومعتبرا وتذكرا لمن تذكر .

ومعنى ﴿ ولما ضرب بن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون ﴾ وقالوا ألهتنا خير أم هو ما ضربه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ﴿ أي : لما ضربه النبي مثلا لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، وقال النبي ﷺ : لولا أن يقول الناس فيك يا علي ما قيل في عيسى بن مريم لتكلمت فيك بكلام لا تمر بمثلا من الناس إلا أخذوا من تراب قدميك ، فغضب المشركون من ذلك حسدا لأمر المؤمنين ، فرد الله عليهم وأكذبهم في قولهم ، وقال : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبي إسرائيل ﴾ فكيف لا يضرب به المثل لرجل من إخوانه الوصيين ، وخلفاء الله بعد النبيين .

ومعنى قوله ﴿ مثلا لبي إسرائيل ﴾ أي : مثلا لبي آدم يهتدي به بنو إسرائيل ، ولكنه اختصر ؛ لأن الله خلق آدم صلوات الله عليه من غير ذكر ، وكذلك عيسى عليه السلام ، وفي ذلك ما يقول مولانا عز وجل : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ﴾ .

ومعنى قوله: ﴿أهتأنا خير أم هو﴾ هذا الكلام فيما روي راجع إلى عيسى عليه السلام، وروي في ذلك أنهم خاصموا رسول الله صلى الله عليه وآله وقالوا: أتهتأنا يا محمد عن عبادة الأصنام، وقد عبدت النصارى عيسى، وأنت تزعم أنا وأهتأنا في النار، فتقول: إن عيسى ومن عبده في النار، فرد الله عليهم ﴿ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون﴾ يريد عز وجل: أنهم لا يستفهمون عن التمييز بين عيسى وأهتأناهم إلا جدلا وخصاما بغير يقين ولا حق، وإنما وعدهم الله بالنار هم ومن عبدوهم وأطاعوا من الشياطين، ولم يرد عيسى ولا غيره من النبيين.

ويحتمل التفسير — والله أعلم — أن يكونوا أرادوا علي بن أبي طالب عليه السلام، وقالوا فيما بينهم: أهتأنا خير أم علي بن أبي طالب؟ بل أهتأنا خير من علي ومن طاعته، وهذا أحسن المعنيين عندي — والله أعلم وأحكم.

ثم قال عز وجل بعد ذكره لعيسى عليه السلام: ﴿وإنه لعلم للساعة فلا يمترون بها﴾ يريد فيما روي أن ظهور مولانا عيسى عليه السلام علم ودليل على الساعة إذا ظهر مع المهدي عليه السلام في آخر الزمان. والله أعلم وأحكم، ويمكن في قدرة الله ما هو أكثر، من ظهور النبي ﷺ ويحتمل الكلام وجها آخر: وهو أن عيسى عليه السلام علم يدل على الساعة أنها حق يقين، وأنها على الحقيقة حق مبين.

ومعنى ﴿فلا يصدنكم الشيطان﴾ أي: لا يصرفكم، ولا يعدلنكم عن الحق، وهذا على وجه التحذير.

ومعنى ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ أي: الجماعات واحدهم حزب، قال الشاعر:

نعود بدنيار ولا نشترى القنا — إذا أحزبتنا من عدانا النذائر

أي: جمعنا النذر من خوف العدو. ومعنى ﴿من بين أيديهم﴾ أي: في ذات بينهم، ومعنى ﴿أنتم وأزواجكم تحبرون﴾ أي: تسرون، قال الشاعر:

ومحبرور برؤيتنا يرجحي — لقاي فلا أراه ولا يبراني

أي: مسرور. ومعنى ﴿الجنة التي أورثتموها﴾ أي: سكنتموها وتركتم فيها وملكتموها، وقيل: أورثوها: أصابوا منازل الكافرين فيها مع منازلهم، والجميع جائز.

ومعنى ﴿لا يفتقر عنهم﴾ أي: لا ينقص عليهم ولا يسهل ﴿وهم فيه مبلسون﴾ يريد: أنهم ياتسون، أي: لا يرجون، قال سيد العابدين عليه السلام:

أحاطت به آفاته وهو مه — وأبلس لما أعجزته المعاذير

ومعنى ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك﴾ قال إنكم ماكثون ﴿هو: سيدنا الملك الذي وكله الله بعذاب أهل النار، وقمع رؤوس الظلمة الأشرار، ومعنى قولهم: ﴿ليقض علينا ربك﴾ يريدون: يا مالك ادع لنا

ثم قال تعالى ^(١): ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ هذا استفهام على سبيل الإنكار ، يعني : أنا لا نترك هذا الإعذار بسبب كونكم مسرفين

ربك يقض علينا بالموت حتى تتخلص من العذاب ، فقال مولانا مالك — صلوات الله على روحه وأرواح أخوته المقربين — : ﴿إنكم ما كنون﴾ أي : مقيمون .

ومعنى ﴿لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون﴾ والإبرام : هو الإحكام ، والعرب تقول : أبرمنا الرأي وأحكمناه وأتقناه ، والمعنى في ذلك واحد .

ومعنى قوله : ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ أي : فأنا أول الأنفين الغاضبين ، قال الشاعر :
وأعبد أن تمحى كليلاً بدارم

يريد : أغضب وأنف . ومعنى ﴿رب العرش﴾ أي : سيد الملك والخلق ، والعرش : على وجه قد ذكرناها في كتاب الصفات . ومعنى ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾ أي : خلهم ودعهم يلعبون ، ويهذروا ويمتروا على وجه الوعيد لهم والتهديد .

ومعنى ﴿تبارك﴾ أي : تعال وعظم ، قال الشاعر : تبارك رب علا فافتدر
أي : علا . ومعنى الشفاعة : هي الطلبة والسؤال .

﴿وقيله يا رب﴾ أي : قوله : ﴿يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ هذا قول النبي صلى الله عليه وآله . قال الله عز وجل : ﴿فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾ وعيد وتهديد بالجزاء .

(١) قال المحاكم الحشمي في تفسيره لأوائل هذه السورة إلى قوله تعالى : ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون﴾ :

سورة الزخرف سبع وثمانون آية ، قال القاضي ، وهي مكية فيما روي عن الحسن وغيره ، وروي أبي بن كعب عن النبي أنه قال : من قرأ سورة حم الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة : يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ادخلوا الجنة بغير حساب .

ولما ختم سورة ﴿حم عسق﴾ بذكر القرآن والوحي افتتح هذه السورة بذلك أيضاً .
بسم الله الرحمن الرحيم حم والكتاب المبين ...

القراءة

قرأ أبو جعفر ونافع وحزمة والكسائي ﴿إن كنتم﴾ بكسر الألف على الاستقبال ، تقديره إن كنتم قوماً مسرفين لا تصرف عنكم الذكر صفحاً ، وقيل : إن معنى إذ كقولهم ﴿وذروا ما بقي من الربا أن كنتم مؤمنين﴾

وقرأ الباقون بفتح الألف على التعليل ، أو لأن كنتم مسرفين ، وقرأ عاصم وحزمة والكسائي ﴿مهذا﴾ بغير ألف ، وفتح الميم . الباقون بالألف ، وكسر الميم ، وهما لغتان يقال للأرض : مهد ومهاد أي : بساط ، يقلل : مهدت لنفسي ، ومهدت بالتشديد والتخفيف ، جعلت مكانا وطينا سهلا .

اللغة

البيان : هو الدلالة يظهر بها المعنى للنفس ، وأصله من القطع ، يقال : بان — فارَق ، وأبان فصل بين الشيء وغيره ، وبان لك الشيء ، وأبان ، واستبان ، وبين ، وتبين ، بمعنى . واختلفوا في البيان ، قيل : هو الدلالة التي بها بين الحق عن أبي علي ، وأبي هاشم ، وقيل : هو العلم الحادث عن أبي عبد الله ، والأول الوجه ، وقيل : هو ما يفرح الشيء عن حد الإشكال إلى حد التحلي .

والصفح : الإعراض ، صفحت عنه أعرضت ، والأصل فيه أن من أعرض عن صاحبه ، ولأه صفحة عنقه ، وصرف عنه وجهه ، يقال : صفح عني بوجهه ، وبالصفوح — من أسماء الله تعالى — : العفو عن الذنب ، كأنه أعرض عن مجازاته تفضلا ، والصفوح — من بعث النساء — : التي تترك إحدى جانبي وجهها صدا وإعراضا ، والإسراف مجاوزة الحد في العصيان ، والسرف : ضد القصد ، والبطش : الأخذ بشدة .

الإعراب

والكتاب : أي : ورب الكتاب ، فكسر لأجل الإضافة ، وقيل : للقسم ، والواو فيه واو القسم .
كم : كلمة تكثير ، وصفحا : مصدر أقيم مقام الفاعل ، ونصب على الحال تقديره : أفنضرب عنكم بذكر آبائكم صافحين . (جعلناه) الكناية ترجع إلى الكتاب ، وعمله نصب يجعلنا ، وكذلك ﴿قرآنا عربيا﴾ عن الأخص ، وقيل : بل هو كلام مبتدأ والجواب مضمرة .

المعنى ﴿حم﴾ قيل : قسم أقسم الله بالقرآن ، وقيل : اسم للسورة عن الحسن وأبي علي ، وقيل : إشارة إلى أنه مؤلف من هذه الحروف ، فيكون محدثا عن أبي بكر الزبيري ، وقيل : الحاء من حكيم ، والميم من ملك ﴿والكتاب﴾ يعني القرآن ، سمي به ، لأنه يكتب ﴿المبين﴾ قيل : مبين الحق من الباطل ، أي : فاصل بينهما مظهر ، وقيل : ما بان خيره وبركته ، أي : ظهر ، وقيل : أبان طريق الهدى والضلالة ، وأبان كلما يحتاج إليه من أمور الدين ﴿إنا جعلناه﴾ أي : أحدثنا ، وأنزلناه قرآنا عربيا ، أي : بلغة العرب ، وقيل : سمينا ووصفناه بأنه عربي ، والأول الوجه ، لأنه حقيقة ، وهذا توسع ومجاز ، ولأنه لو لم يسمه عربيا ، لما خرج من كونه عربيا ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي : لتعلموا ذلك ، وقيل : يتلوه النبي ﷺ رجاء استماع وقبول منكم عن أبي مسلم ﴿وإنه﴾ يعني القرآن ﴿في أم الكتاب﴾ في اللوح المحفوظ ، وإنما سمي أما لأن سائر الكتب تنسخ منه ، وقيل : لأنه أصل الكتاب وجملة عن قتادة ، وقيل : أم الكتاب : الآيات المحكمة ، والمراد نفس الكتاب ، إنه محكم منزل بالحكمة عن أبي مسلم ، وقيل : الكتاب الإيجاب ، يعني حين أوجب إنزال الكتب

على الأنبياء أوجب أن يكون هذا الكتاب عليا عن أبي مسلم ﴿لدينا﴾ عندنا ، يحتمل أن يريد اللوح المحفوظ ، ويحتمل القرآن للتشريف ، والتخصيص ﴿لعلي﴾ يعني القرآن علا ، قيل : يعلو كل كتاب بما خصه من كونه معجزا ، أو آخر الكتب ووجوب إدامة العمل به ، وما فيه من أنواع الفوائد ، وقيل : علي ، أي : عظيم الشأن رفيع الدرجة ، تعظمه الملائكة والمؤمنون ﴿حكيم﴾ دلالة على كل حق وصواب ، فهو بمنزلة الحكيم ، الذي لا ينطق إلا بالحق والصفان توسع ، لأن حقيقة العلي القاهر الغالب ، وحقيقة الحكيم العلوي ، وكلاهما من صفة الحي ﴿أفضرِبْ عنكم الذكر صفحا﴾ اختلفوا في معناه ، قيل : معناه العرض عنكم ، ولا يدعوكم إسرافكم ، وترككم القبول ، فلفظه للاستفهام ، والمراد به الخير ، أي : لم يكن إسرافكم موجبا أن تضرب عن تذكيركم صفحا ، ولا تنزل القرآن وترككم من أجل كفركم بل لرحمته يتابع الحجج ، فيتابع البيان ، ولا يخليهم عن الإنذار حجة عليهم عن قتادة وابن زيد ، وأبي مسلم ، وقيل : هو وعيد ، يعني إسرافكم لا يمنع من مواخذتكم إذا عرضتم عن الذكر الذي هو القرآن ، تقديره : أنعرض عنكم ، وترككم فلا نعاقبكم ، فالألف استفهام ، والمراد الإنكار عن مجاهد ، والسدي ، قال ابن عباس : معناه أفحسبتم أن نصفح عنكم ، ولم تفعلوا ما أمرتم ، وقيل : أترككم ما نأمركم ولا ننهاكم عن الكلي ، وقيل : أنطوي عنكم الذكر طيا ، فلا تدعون ، ولا توعظون ، عن الكسائي ، وهذا من فصيح الكلام ولم يفصلوا ، قال شيخنا أبو علي رحمه الله : هذا الكلام يحتمل معنيين الأول : الرحمة ، يعني لا تترككم وسوء اختياركم ، ولا تقابل الإعراض إعراضا ، بل نذكركم ونعظكم ، وتدعوكم ، ولا ننظر إلى إسرافكم ، لكن رحمة منا فعلنا ذلك .

والثاني : المبالغة في التغليظ ، يعني : أتظنون وإن كنتم سادة ورؤساء أنكم تتركون وما تفعلون ، كلا بل يلزمكم العمل ، وتدعوكم إلى الدين ، ونواخذكم متى أخلتكم بالواجب ، وأقدمتم على القبيح ﴿إن كنتم قوما مسرفين﴾ قيل : مجاوزين الحد في المعصية ، وقيل : مشركين ، والأول الوجه لعموم اللفظ ، ثم أكد الوعيد فقال سبحانه ﴿وكم أرسلنا من نبي في الأولين﴾ يعني الأمم الماضية ، ﴿وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به﴾ برسوهم ﴿يستهزئون﴾ استهزاء قومك بك ، وقيل : لما استهزأوا أخذوا بعذاب الاستتصال ، كذلك أنتم تؤخذون إن فعلتم مثل ذلك ، وقيل : مع استهزائهم لم يضرب عنهم صفحا ، بل كررنا الوعظ ، وأعدنا الرسل ﴿فأهلكنا أشد منهم بطشاً﴾ قيل : أشد قوة من قومك عن الحسن ، يعني أهلكنا من أولئك الأمم بأنواع العذاب من كان أشد من هؤلاء قوة ، ومنعة ﴿ومضى مثل الأولين﴾ قيل : صفتهم ، وقيل : خيرهم ، وقيل : أنفسهم ، وما نأهم من العذاب صار مثلاً لمن بعدهم ، وتقدير الكلام ، وهو مثل هؤلاء السابقين إن لم يؤمنوا ، لكان حالهم كحال من تقدم ﴿ولئن سألتهم﴾ يا محمد ﴿من خلق السموات والأرض﴾ أي : ابتدأها ، وأنشأها ، والكناية إلى من ترجع ، اختلفوا فيه ، قيل : لمن سألت الأنبياء الماضين أو لقيتهم ، أو سألت من يدين بدينهم ، أو بمسك بطريقهم ، أو سألت عن كتبهم ، وقيل : لو سألت كفار قريش عن ابن عباس ، لأنهم كانوا يقرؤون بالله ، وأنه خالق السموات والأرض ، وعبدوا مع ذلك الأوثان متوسطا بينهم وبينه

أي : أنحي القرآن عنكم جانبا ، أي : في جانب ، من قولهم : نظر إليه بصفح وجهه ، أي : بجانبه ، أي نعرض بالقرآن عنكم ، والفاء للعطف على محذوف ، أي : أهملكم فنضرب عنكم الذكر ، على معنى إنكار أن يكون الأمر على خلاف ما ذكر من إنزاله الكتاب ، وجعله قرآنا ليعقلوه ، و﴿صفحا﴾ مصدر من صفح عنه إذا أعرض ، وهو تعليل بمعنى أفنعزل القرآن الذي ألزمتكم به الحجة لأجل الإعراض عنكم ، أو بمعنى الجانب ، كما مر قريبا^(١) .

قال في التحرير : وهذا من المجاز ، وأصله أنهم يضربون غرائب الإبل إذا أرادت الورود مع إبلهم على الحوض ، قال الحجاج : لأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، وقال الواحدي وابن الجوزي ، يقال : ضربت عنه وأضربت عنه ، أي : أمسكت عنه وتركته^(٢) .

﴿ليقولن خلقهن العزيز﴾ القادر على كل مقدور ﴿العليم﴾ بكل معلوم ، يعني إذا أقروا هذا لزمهم ألا يبعدوا سواه ﴿الذي جعل لكم الأرض مهادا﴾ أي : فراشا ، يستقرون عليها ﴿وجعل لكم فيها﴾ في الأرض ﴿سلا﴾ أي : طرقا ، إلى مقاصدكم ﴿لعلكم تهتدون﴾ قيل : لتهتدوا في أسفاركم إلى مقاصدكم ، وقيل : لتهتدوا إلى الحق في الدين بالاعتبار الذي جعل لكم .

الأحكام يدل قوله ﴿جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾ على أشياء منها : أن القرآن محدث ليصح وصفه بالجعل ، ومنها : أن كلامه دليل على مراده ، ولا يحتاج فيه إلى الإمام ، ومنها : أن المعارف مكتسبة ، ومنها : أنه شاء أن يتذكر فيه ، ومنها : أن مراد به أن يفعل ما فيه خلاف قول المجرة أن مراده من بعضهم أن لا يفعل ويكفر ، ويدل قوله ﴿وإنه في أم الكتاب﴾ أن القرآن مؤلف في اللوح ، وأنه أنزله حالا بعد حسال ، على حسب المصلحة ، ويدل قوله ﴿وكم أرسلنا﴾ أن أكثر الأمم سلكوا مع أنبيائهم طريقة الاستهزاء ، والتكذيب ، وفيه تسلية للنبي عليه السلام ، ووعيد للكفار ، ويدل قوله ﴿ولئن سألتهم﴾ أن القوم كانوا مقرين بالخالق ، فعد نعمه وما يدل على توحيده ، حثا على عبادته ، ويدل قوله ﴿لعلكم تهتدون﴾ أنه أراد من الجميع الاهتداء ، وتدل أن الاهتداء فعلهم ، فيصح قولنا في المخلوق والإرادة

(١) فينتصب على الظرفية .

(٢) وكذلك قال الفراء والزجاج مثل قول الواحدي وابن الجوزي . قال في الكشف : وقال طرفة :

قال الهادي عليه السلام في تفسيره لهذه الآية : هذا على معنى الاحتجاج عليهم ، والتقرير لهم لما هم عليه من إسرافهم ، يقول : أنذا كنتم قوما مسرفين أيجوز لنا أن نضرب عنكم الذكر ، أي : نتركه ونصرفه عنكم ، ولا نقيم به الحجة عليكم ، هذا ما لا يكون من فعلنا ؛ لأن مع إسرافكم نزول النقم عليكم ، والنقم منا فلا تقول إلا على من ثبتت عليه حجتنا ، فكيف نضرب عنكم الذكر صفحا بإسرافكم ، وقلّة قبولكم ، ونحن فلا نزل النعمة بكم إلا من بعد ثبات الحجة عليكم . اهـ

ومعنى ﴿ مسرفين ﴾ زائد في الكفر والمعاصي ، قرئ بفتح أن ، أي لأن كنتم ، وبكسرهما عن الشرط الذي يقع عن المدل^(١) بصحة الأمر المتحقق لثبوتّه ، كقول الأجير : إن كنت عملت لك فوفني حقي ، وهو عالم لكنه يخجل في كلامه أن تفريطك في حقه فعل الشاك في الاستحقاق ، مع وضوحه وفائدته — استجهال^(٢) المخاطب به .

ثم قال تعالى : ﴿ وكم أرسلنا من نبى في الأولين ﴾ أي : في الأمم الماضية ، وكم للتكثير ﴿ وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون ﴾ هذه حكاية حال ماضية ، أي كانوا على ذلك ، وهي تسلية له ﷺ عن استهزاء قومه به ، والمعنى : أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء ، فلا ينبغي أن تتأذى من قومك بسبب إقدامهم على التكذيب والاستهزاء ؛ لأن المصيبة إذا عمت خفت .

ثم قال تعالى : ﴿ فأهلكنا أشد منهم ﴾ أي : من قومك ، فالضمير للمسرفين في قوله : ﴿ إن كنتم قوما مسرفين ﴾ وهم قريش وأضرأهم ، ومعنى قوله : ﴿ بطشا ﴾ أي :

ضربك بالسيف قونس الفرس

أضرب عنك الهموم طارقتها

(١) المدل : أي الواقع .

(٢) استجهال : متعلق بقوله : يخجل

حركة وقوة ، قال الشاعر : ونبطش حين نبطش قادرينا

أو أكثر عددا وجلدا .

ثم قال تعالى : ﴿ و مضى مثل الأولين ﴾ أي : قد خلا وصفنا ، ومضى في أول كلامنا الذي أوحينا إليك ، يريد ذكر قصصهم العجيبة في الإهلاك في غير موضع من القرآن التي حققها أن تسير مسير المثل ، أو مضى شبه ما يتزل بهؤلاء ، وهو ما نزل بالأولين ، أو مضى شبه حال الأولين لهؤلاء في التكذيب ، فستقع المشاهدة بينهم في الإهلاك والله أعلم

ثم بين تعالى أنهم مقرون بأن خالق السموات والأرض وما بينهما هو الله ، فقال سبحانه : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ الغالب ﴿ العليم ﴾ بكل معلوم ، وهو من كلام الله إجراء للصفات الجليلة عن الله تعالى ، لا من كلام قريش وسائر الكفرة ، والمعنى : لينسبن خلقها إلى من هذه أوصافه العزة والعلم وما بعدهما ، والمقصود أن مع كونهم مقرين بهذا المعنى يعبدون معه غيره ، وينكرون قدرته على البعث ، وقد تم الإخبار عنهم .

ثم إنه تعالى ابتداء دالا على نفسه بذكر مصنوعاته فقال : ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهذا ﴾ أي : فراشا ﴿ وجعل لكم فيها سبلا ﴾ طرقا ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ لإرادة أن تهتدوا فتبلغوا مقاصدكم ﴿ والذي نزل من السماء ماء بقدر ﴾ ^(١) أي : بمقدار الكفاية ، أو بمقدار تسلم معه البلاد والعباد من الفرق ، ولم يكن كطوفان نوح .

(١) ويمكن أن يكون اللفظ : إجراء للصفات الجليلة على الله تعالى .

(٢) قال الحاكم الحشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ إن الإنسان لكفور مبين ﴾ القراءة : قرأ أبو جعفر ﴿ بلدة ميتة ﴾ بالتشديد كل القرآن . قرأ نافع وحزمة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت ﴾ ﴿ من بلد ميت ﴾ مشددة في آل عمران ، والأنعام والأعراف ،

ويونس والروم ، وفاطر ، وزاد نافع ﴿أومن كان ميتا﴾ و﴿لحم أخيه ميتا﴾ و﴿الميتة أحييناها﴾ فشدها كلها.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ، في رواية أبي بكر ﴿جزءا﴾ بضم الزاي ، مهموزا كل القرآن ، الباقون ساكنة الزاي ، مهموزا كل القرآن ، وكلها لغات صحيحة.

اللغة النشر : ضد الطي ، ومنه نشر الله الموتى ، أي : أحياهم بعد إماتتهم ، كأنه كان مطويا بالموت من النماء والتصرف ، وأقبل واستوى استقر ، واستوى استولى ، وقدر ، والمقرن للشيء المطبق له ، أقرن يقرن إقرانا إذا أطاق ، وقوي عليه ، ومنه فلان قرن فلان ، إذا كان له من القوة مثل ما له ، وقد قيل : في قوله ﴿الشمس تطلع من قرني الشيطان﴾ أي : تطلع من قوة الشيطان حتى يتحرك ويتسلط ، فهي عن الصلاة في ذلك الوقت لما يلحقه من الوسوسة والأذى.

الإعراب ظهوره : أضاف الظهور إلى الواحد ، لأنه في معنى الجمع لا الجنس ، والرهط ، ونحوها من أسماء الجنس ، وقيل : أراد الإبل ، إذ لا يقال للسفينة ظهر ، وقيل : الآية كناية عن بعض الأنعام ، لأن كلها لا تركب ، وقيل : تقديره لتستووا على ظهور ما ذكرنا ، وقيل : كناية عن المركوب ، أي : استووا على المركوب ، وقيل : لأنه ذكر الظهور بلفظ الجمع ، فاكتمى به عن جمع الآخر ، ويقال : لم قال : ظهوره ، فذكر ، والأنعام جمع ؟ قلنا : على بعض ما ذكرناه لا سؤال ، وإن حمل على الأنعام فإنه يذكر ويؤنث ، وقيل : ردها إلى ما في قوله ﴿ما تركبون﴾ ﴿تذكروا﴾ نصب لأن المعنى لتستووا ثم لتذكروا ، وعلامة النصب ذهاب النون ، ﴿وتقولوا﴾ معناه ولتقولوا سبحانه.

المعنى ثم بين أدلة أخرى مؤكدة لما تقدم فقال سبحانه ﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر﴾ قيل : من جهة السماء ، وإنما هو من السحاب ، وقيل : كل ما علا فهو سماء ، وأصله من السمو ، قالوا : أنزل من السحاب فهو من السماء ، وقيل : من السماء نفسه ينزله إلى الغيم ثم إلى الأرض ولا مانع من هذا ، وهو الظاهر ، فلا معنى لقطع الكلام عن حقيقته ﴿ماء﴾ يعني المطر ﴿بقدر﴾ يعني مقدار ما يحتاج إليه حتى لو نقص لأخل ، ولو زاد لأفسد ، فتجري الأنهار على هذا التدبير ، ليعلم أنه من مدبر حكيم ﴿فأنشأنا به﴾ أي : أحيينا بالماء وإخراج النبات ﴿بلدة ميتة﴾ يابسة ، لم يكن عليها النبات ، ثم بين وجه الدلالة على الإعادة فقال ﴿كذلك تخرجون﴾ يعني كما إلا حيا البلدة الميتة بإخراج النبات يحييكم ، ويخرجكم من قبوركم ، لأن كل واحد منهما متعذر إلا على قادر للذات لا يمتنع عليه شيء ، لأن الإعادة إنما تجوز على أفعاله الباقية دون أفعال غيره ، كما أنه يقدر على إخراج النبات ، وهي جواهر وأعراض لا يقدر عليها غيره ﴿والذي خلق الأزواج كلها﴾ يعني أزواج الحيوان ذكرا وأنثى ، وقيل : الأصناف من الحيوانات . وقيل : الأزواج الشتاء والصيف والحار والبرد والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسماء والأرض والجنة والنار ، عن الحسن ، وقيل : أراد الأشياء المتشاكلة ، وجعل لكم من الفلك ﴿أي : السفن والأنعام﴾ الإبل ﴿ما

تركبون ﴿ فجعل الفلك مركبا في البحر ، والأنعام مركبا في البر ، ثم بين الغرض فيه ، فقال سبحانه ﴿ لتستووا على ظهوره ﴾ أي : لتركبوها ، والاستواء إشارة إلى أنه خلق ذلك ، وذلك ليستوي الراكب على ظهره ، ويتنفع بهما في البر والبحر ، ثم تذكروا نعمة ربكم عليكم ﴾ في خلقه وغير ذلك ﴿ إذا استويتم ﴾ استقررتم ﴿ وتقولوا ﴾ شاكرين لنعمه ﴿ سبحان ﴾ مزه عن شبه المخلوقين ، وفعله عن كل قبيح ﴿ الذي سخر لنا هذا ﴾ أي : ذل لنا حتى ركبناه مع عظمه وقوته ، ﴿ وما كنا له ﴾ لولا فضله بتذليله ﴿ مقرنين ﴾ أي : مطيقين مقاومين في القوة رابططين له قاهرين ، فالقيل مع قوته مذل للصبي ، وكذلك البعير ، والبقر ﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ هذا من تمام التنزيه أي : من عدله وفضله ، إعادة الخلق للجزاء ، فنحن إليه نصير في المعاد فسخر لنا هذا لمصلحتنا ، ومنافعنا ، ثم يعرضه في الآخرة ، ما يوفي على ما يلحقه من التعب في الدنيا ، وأمرنا بالشكر ، ليستحق الثواب لولا ذلك لما جاز التكليف ، والتسخير لأن جميع ذلك تبع للتكليف ، والتكليف إنما حسن ، لأنه تعريض لمنزلة لا يصح استحقاقها ، إلا بالعمل ، وهو الثواب لمقارنة التعظيم له ، ومتى قيل : ليس فيه ذكر للأنعام ؟ قلنا : قوله ﴿ لنا ﴾ إشارة إلى الراكب والمركوب فلا بدلا من إعادة الكل ، ثم ذكر كفرهم مع الدلالة الظاهرة ، فقال سبحانه ﴿ وجعلوا له من عباده جزءا ﴾ قيل : نصيبا ، بعضا ، وقيل عدلا عن قتادة ومقاتل ، وقيل : زعموا أن الملائكة بنات الله ، فيكونون بعضه ، كما أن الابن بعض الأب ، عن الحسن ، وقيل : جزءا من عباده والكل عبيده ، وقيل : الجزء اسم للبنات ، يقال : لفلان جزء من العباد أي : بنات ، وأجزاء المرأة ولدت بنات قال الشاعر :

إن أجزاء حرة يوما فلا عجب قد تحزىء الحرة المذكار أحيانا

يعني إن ولدت أنثى ، وليس هذا بالظاهر ، فلا يحمل عليه ، كلامه تعالى ﴿ إن الإنسان لَكفور ﴾ أي : جحود لنعمه اعتاد ذلك ﴿ ميين ﴾ أي : ظاهر الكفران .

الأحكام تدل الآيات أنه تعالى ينبت النبات عند إنزال المطر ، وذلك مما أجرى الله به العادة ، وإلا فهو قلدر على إنباته ، من غير مطر ، وتدلل على أنه كما قدر على الإنبات يقدر على إخراج الأموات ، أحياء ، فشبه به هذا ، وقد بينا أن كل واحد منهما مقدور له خاصة ، وقيل : وجه الشبه كما يخرج النبات من الأرض يخرج الأموات من القبور ، وقيل : كما يخرج الولد بسبب النطفة والنبات لسبب المطر ، كذلك يعيد الخلق ، وتدلل على وجوب شكر المنعم بما هيا لنا من المراكب في البر والبحر وتسخيرها ، مع عظم قوتها ، ولولا تسخيرها لمسا أطقناه ، فيعلم عند ذلك أن مسخرا سخره ، يجب عليه شكره ، وتدلل على تعليم كيفية الشكر ، وروي عن النبي أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون وكبر ثلاثا وهلل ثلاثا ﴾ وقال قتادة في هذه الآية ، كيف تقولون إذا ركبتم في الفلك تقولون : بسم الله مجراها ومرساها ، فإذا ركبتم الإبل قلتم : سبحان الذي سخر لنا هذا الآية ، وإذا نزلتم من الفلك والأنعام ، قلتم : اللهم أنزلنا منزلا مباركا ، ويدل قوله ﴿ لكفور ﴾ أن الكفر فعله .

وقوله: ﴿من السماء﴾ ظاهر الآية أن الماء يتزل من السماء ، فهل الأمر كذلك ؟ أو يقال : إنه يتزل من السحاب ، وسمي نازلا من السماء لأن كل ما سماك فهو سماء؟ قلت : وهذا الآخر قول الهادي وغيره من أئمتنا عليهم السلام ، وقد مر كلامه في سورة نوح.

ومعنى ﴿فأنشرونا﴾ أي : أحيينا { به بلدة ميتا } بالجدب { كذلك تخرجون } أي : مثل إحياء البلدة بالنبات نخيكم بعد موتكم ، وخرجكم من القبور ، يعني أن هذا الدليل كما يدل على قدرة الله وحكمته ، فكذلك يدل على قدرته على البعث والقيامة ، ووجه التشبيه أنه يجعلهم أحياء بعد الإمامة ، كهذه الأرض التي انتشرت بعد ما كانت ميتة .

وقال بعضهم : بل وجه التشبيه أنه يعيدهم ويخرجهم من الأرض بماء كالمني ، كما تنبت الأرض بماء المطر ، وهذا الوجه ضعيف ؛ لأنه ليس في ظاهر اللفظ إلا بيان الإعادة فقط ، دون هذه الزيادة .

ثم قال تعالى : ﴿والذي خلق الأزواج كلها﴾ أي : الأصناف كلها مما خلق الله تعالى ثم قال ﴿وجعل لكم من الفلك﴾ السفن ﴿والأنعام﴾ الإبل ؛ لأنها سفن البر ﴿ما تركبون لتستروا على ظهوره﴾ أي : ظهور ما تركبون من الفلك والأنعام ، ولذلك ذكر الضمير في ظهوره لرجوعه إلى ما قال .

في البرهان : يقول القائل : كيف أضاف الظهور إلى واحد ؟ قال فيه : يقال : ذلك للواحد في معنى جميع ، مثل جند وجيش ، فتقول : كثرت فينا الجند ، ورفع الجند أعينه ، ولا تقول : عينه ، وكذلك كل ما أضفت من الأسماء الموضوعية ، فأخرجها على الجمع ، فإذا أضفت إليه اسما في معنى فعل جاز جمعه وتوحيده ، مثل قولك : رفع العسكر صوته ، وأصواته ، وجاز هذا لأن الفعل لا صورة له في الاثنين إلا كصورة الواحد . اهـ

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ المراد بذكر النعمة شكرها

وذكرها بالقلب بالاعتراف بها ، والاستعظام لموليتها ، ثم الحمد لله بألستهم عليها .
قال في التجريد : وعن الحسين بن علي عليه السلام أنه رأى رجلا ركب دابة فقلل : ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا ﴾ فقال : بهذا أمرتم ، فقال الرجل : فبم أمرنا ؟ قال : أن تذكروا نعمة ربكم " ، كأنه قد أغفل التحميد فنبهه عليه ، وهذا من حسن مراعاتهم لآداب الله .

ويروى عن النبي ﷺ أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال : بسم الله ، فلإذا استوى على الدابة قال : الحمد لله على كل حال ، سبحان الذي سخر لنا هذا — إلى قوله — لمنقلبون ، وكبر ثلاثا ، وهلل ثلاثا " .

وقال : إذا ركب السفينة قال : ﴿ بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ﴾ " .

(١) أخرجه الطبري والطبراني في الدعاء من طريق مجلس ، عن الحسين بن علي عليه السلام . وقد رواه الزمخشري ، والرازي عن الحسن بن علي ، قال الرازي : وروى القاضي في تفسيره عن أبي مخلد عن الحسن بن علي عليهما السلام (رأى رجلا ركب دابة ، فقال : سبحان الذي سخر لنا هذا ، فقال له : ما بهذا أمرت ، أمرت أن تقول : الحمد لله الذي هدانا للإسلام ، الحمد لله الذي من علينا بمحمد ﷺ ، والحمد لله الذي جعلنا من خير أمة أخرجت للناس ، ثم تقول : سبحان الذي سخر لنا هذا) الرازي ١٩٩/٢٧ .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي ، وابن حبان ، والحاكم من حديث علي عليه السلام ، وأسنده الثعلبي باللفظ المذكور هنا ، ولمسلم من طريق الأزرعي عن ابن عمر عن ابن عمر (أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر كبر ثلاثا ، ثم قال : سبحان الذي سخر لنا هذا ..) الآية . تخريج الكشاف ٢٣٩/٤ .

وقال الواحدي : ﴿ ثم تذكروا نعمة ربكم ﴾ بتسخير ذلك المركب في البر والبحر ، قال مقاتل : هو أن يقول : الحمد لله الذي رزقني هذا ، وحملني عليه ، ويقول :

سبحان الذي سخر لنا هذا .

وعن ابن عمر أن النبي ﷺ كان إذا استوى على بعير خارجا في سفره كبير ثلاثا ، وقال : سبحان الذي سخر لنا هذا [وما كنا له مقرنين وإننا إلى ربنا لمنقلبون] ، ثم قال : اللهم إنا نسألك في سفرنا هذه البر والتقوى ، والعمل بما ترضى ، اللهم هون علينا سفرنا هذا ، واطو عنا بعده ، اللهم : أنت صاحب في السفر والخليفة في الأهل ، اللهم : إني أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر في الأهل والمال . وإذا رجع قال : آيئون تائبون لربنا حامدون (رواه مسلم . اهـ

ثم قال سبحانه : ﴿ وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا ﴾ أي : ذلله ﴿ وما كنا له مقرنين ﴾ .

واعلم أنه تعالى عين ذكرنا معينا لركوب السفينة ، وهو قوله : ﴿ بسم الله مجراها ومرساها ﴾ وذكرنا آخر لركوب الأنعام وهو قوله : ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا ﴾ وذكر عند دخول المنازل ذكرنا آخر ، وهو قوله : ﴿ رب أنزلني منزلا مبوكا وأنت خير المنزلين ﴾ (٢) .

وتحقيق القول فيه : أن الدابة التي يركبها الإنسان لا بد وأن تكون أكثر قوة من الإنسان بكثير ، وليس لها عقل يهديها إلى طاعة الإنسان ، ولكنه سبحانه خلق تلك

(١) في الطبراني من حديث الضحاك عن ابن عباس رفعه (أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك أن يقولوا : بسم الله ، وما قدروا الله حق قدره — الآية بسم الله مجراها ومرساها) ورواه في الدعاء من حديث الحسن بن علي عليهما السلام . تخريج الكشاف ٢٣٩/٤ .

(٢) المؤمنون : ٢٩ .

البهيمة على وجوه مخصوصة في خلقها الظاهر ، وفي خلقها الباطن ، يحصل منها هذا الانتفاع ، أما خلقها الظاهر فلأنها تمشي على أربع قوائم ، فكان ظاهرها كالموضع الذي يحسن استقرار الإنسان عليه ، وأما خلقها الباطن ؛ فلأنها مع قوتها الشديدة قد خلقها الله سبحانه بحيث تصير منقادة للإنسان ، مسخرة له ، فإذا تأمل الإنسان في هذه العجائب ، وغاص بعقله في بحار هذه الأسرار عظم تعجبه من تلك القدرة القاهرة ، والحكمة الغير المتناهية ، فلا بد وأن يقول : ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ أي : وما كنا مطيقين ، ولا مائلين في القوة ، يقال : أقـرن الشيء إذا أطاقه ، والعرب تقول : لا تـقرن بفلان ، أي : لا تماثله ، ولا تكون له قرنا ، وهو مأخوذ من قرن الشيء إلى الشيء ، أي : لا ينبغي أن يقرن ويجمع إلى غير شكله ، قال الشاعر :

وابن اللبون إذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البزل

يريد : أنه إذا قرن بهن لم يقدر ؛ لأنه ليس من شكلهن ، وإنما أراد الله من العباد أن يشكروه على تسخيره وتسهيله للفلك والأنعام حتى يركبوها ، وليسوا في القوة مثلها ، ولا هم في الشدة من أقرانها ولا شكلها ، ذكره الحسين بن القاسم عليه السلام^(١) وقوله : ﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ يريد إلى جزائه راجعون ، وصائرون في الآخرة إليه . وجه اتصال هذا بما قبله أن الركوب أمر خطير فربما يكون سبب الهلاك في البر والبحر ، فكان حق الراكب المباشر لهذا الخطر ألا ينسى يومه ، وأنه هالك لا محالة ، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه ، حتى يكون مستعدا للقاء الله بإصلاح نفسه ، وحذرا من أن يكون ركوبه سبب موته ، واعتصاما من مخاوف الركوب .

ثم اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن

(١) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياشي عليه السلام أول هذه السورة .

الله ﴿ بين أهم مع إقرارهم بذلك جعلوا له من عباده جزءاً فقال سبحانه ﴾ ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ﴾ والمقصود منه التنبيه على قلالة عقولهم وسخافة محصلهم .

وفي هذه الآية يقول الهادي عليه السلام : هذا إخبار من الله سبحانه بكفر من جعل الله من عباده شريكاً في العبادة ، فيعبد من دونه شيئاً من خلقه ، كمن عبد الملائكة من دون الله ، وكذلك كل من أطاع كافراً فيما يأمره به من معاصي الله ، وترك أمر الله فقد عبد من أطاعه ؛ لأن أكبر العبادة هي الطاعة ، ومن أطاع عبداً من عباد الله في معصية الله فقد جعل الله جزءاً من عمله ، بل قد أخلص التوبة لغير ربه ، إذ أخلص الطاعة لمن هو مستسلم في يده من أعداء ربه وخالقه . اهـ

ومعنى الجعل هذا : الحكم والتسمية ، وجزأ : أي بعضاً منه ، ولداً : وهو قولهم : الملائكة بنات الله ، وقيل : إن الجزء هو النصيب ، والمعنى جعلوا له نصيباً من عباده ، وهو الإناث ، أو نصيباً من الولد وهو الإناث ، وهذا متصل بقوله ﴿ ولئن سألتهم ﴾ إلى آخره كما مر ، أي : يعترفون به ، وقد جعلوا له جزءاً لأن الولد بعض من والده وجزء له ، ومعنى ﴿ لكفور ﴾ أي : جحود للنعمة ، ومعنى ﴿ مبين ﴾ ظاهر جحوده ؛ لأن نسبة الولد إليه كفر ، والكفر أصل الجحود لكل نعمة . ثم قال تعالى : ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات ﴾ ^(١) أم : هي المنقطعة ، بمعنى بل وهمزة الإنكار .

(١) قال الحاكم الحسني في التهذيب في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ﴾ :

القراءة

قرأ حمزة والكسائي ، وحفص عن عاصم ﴿ ينشؤ ﴾ بضم الباء ، وفتح النون ، وتشديد الشين ، على ما لم يسم فاعله ، أي : يري ، وقرأ الباقون بفتح الباء ، وسكون النون ، وتخفيف الشين ، أي : ينبت ويكثر ،

وقرأ أبو جعفر ، ونافع وابن كثير ، وابن عامر ويعقوب ﴿عند الرحمن﴾ بالنون ، وهو اختيار أبي حاتم ، قال : لأن هذا مدح لهم ، والخلق كلهم عباد ، ولأنه يوافق قوله ﴿أن الذين عند ربك﴾ .

وقرأ أبو عمرو وعاصم ، وحزمة والكسائي ، ﴿عباد الرحمن﴾ بالباء والألف جمع عبد ، وقيل : جمع عابد كقائم وقيام ، وصائم وصيام ، ونائم ونيام ، عن أبي مسلم ، وجوز وجه الأول أيضا ، وهي قراءة ابن عباس ، واختيار أبي عبيد ، لأنه تعالى رد عليهم قولهم : بنات الله ، وأخير أنهم عبيده ، قال سعيد بن جبير : قلت لأبن عباس : إن في مصحف عند الرحمن ، قال : اعلمها ، واكتبها عباد الرحمن ، ويؤيد هذه القراءة قوله ﴿بل عباد مكرمون﴾ قرأ أبو جعفر ونافع ﴿أشهدوا﴾ بهمزة ممدودة ، والشين ساكنة ، وروي عن نافع غير ممدود على ما لم يسم فاعله ، أي : احضروا خلقهم حين خلقوا من أشهدت .

وقرأ الباقون ﴿أشهدوا﴾ بفتح الألف والشين من شهدت ، يعني أحضروا ، وأضاف الفعل إليهم .
اللغة : الكظم : إمساك على غيظ ، يقال : كظم ومكظوم ، أي : مملوء غيظا ، وكربا ، وأصل النشؤ للإحداث ، الواحد ناشيء ، ومنه نشأ الله الخلق ، أي : ابتدأهم ، ومنه أنشأ الشاعر ، وينشأ في الحلية يرى ويرشح ، وأصله من نشأ إذا ارتفع .

والخصام يكون جمعا ، ويكون مصدرا ، وأصله من الخصومة ، ويقال : للواحد وللأثنين وللجماعة ، والذكر والأنثى خصم ، ونظيره عدل . والخصم مبالغة فيه ، كالخطيب ، ونحوه ، والخصم : الكذب ، حرص واخترص ، وتخرص ، إذا افترى الكذب ، ومنه الخراصون ، الكذابون ، وكل من قال بالظن فهو خارص ، والاستمسك بالشيء ، التمسك به ، يقال : تمسك بالشيء ، وأمسك ، واتمسك واستمسك ، قال زهير :
﴿بأي خيل حوار كنت أمتسك﴾

الإعراب

قوله ﴿أو من ينشؤ﴾ قيل : في محل من ثلاثة أوجه ، أولها رفع على الابتداء ، كأنه قيل : من ينشأ فأولئك ولده على ما قالوا ، الثاني : النصب على الإضمار تقديره أو من ينشؤ يجعلونه ربا ، الثالث : الكسر على قوله ﴿مما يخلق﴾ وقوله ﴿مما ضرب﴾ .

المعنى

ثم زاد في توبيخهم ، بسوء اعتقادهم ، فقال سبحانه ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين﴾ أي : كيف خصكم بالبنين ، واتخذ لنفسه البنات ، وليس بحكيم من اختار لنفسه الأدون ، ولغيره الأعلى ، فلو جلت عليه الولد لما اختار البنات على ما تزعمونه ، فقد غلطوا من وجهين : أحدهما : جواز اتخاذ الولد في الأصل ، الثاني : اتخاذ البنات مع أنهم يكرهون ذلك لأنفسهم ﴿وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا﴾ يعني البنات التي أضافوها ، إليه ﴿ظل وجهه مسودا﴾ في ذلك مبالغة في الكراهة ، وهذا توسع ، والمراد به يسؤه ما

يسمع حتى تتغير بشرته ولونه ، بخلاف ما يسر ، فيتهلل وجهه ﴿ وهو كظيم ﴾ مملوء كربا وغیظا ، ثم بین قصور حال النساء فقال سبحانه ﴿ أو من ينشأ في الخلية ﴾ في زينة النساء ﴿ وهو في الخصام ﴾ في المنازعات والخصومات في أمور الدين والدنيا ﴿ غير مبين ﴾ أي : لا بین ولا يظهر الحجة لضعفهن ، وذكر أنه في مصحف ابن مسعود ، ﴿ وفي الكلام غير مبين ﴾ ويحمل على أنه فسر به .

واختلفوا في المراد به ، فقيل : أراد به النساء عن قتادة ، وأبي مسلم ، وأبي علي ، وقيل : أراد الأوثان كانوا يعبدونها ، وهي لا تتكلم ، وقيل : تماثيلهم المضروبة من ذهب وفضة عن ابن زيد ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ﴾ أي : الملائكة بنات الله ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ أي : أحضروا خلق الملائكة حتى شهدوا أنهم بنات ، وقيل : شهدوا صورهم ، وخلقهم فعلموا أنهم إناث عن أبي مسلم ﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ فيمنعنا زعموا ﴿ ويسألون ﴾ عنها يوم القيامة ، وهو سؤال توبيخ ، وقيل : تعجيز عن إيراد حجة على ما فعله هؤلاء ، وكما بين تعالى خطأهم في التوحيد ، بين خطأهم في العدل ، فقال سبحانه ﴿ وقالوا ﴾ يعني الكفار ﴿ لو شاء الله ما عبدناهم ﴾ أي : لو شاء أن لا نعبدهم ما عبدناهم بمشيئته ، واختلفوا فقيل : عبدناهم يعني الملائكة عن قتادة ومقاتل ، والكلبي ، وأبي مسلم ، وقيل : الأوثان عن مجاهد ﴿ ما لهم بذلك من علم ﴾ أي : لم تقولوا ذلك عن حجة وعلم ، أشار أن ذلك باطل لما لم يقدر على دليل وعلم ، ثم كذبهم في ذلك ، فقيل : إن هم إلا يخترعون ، أي : يكذبون ، ثم أكد ذلك فقال سبحانه ﴿ أم آتيناهم كتابا من قبله ﴾ أي : من قبل القرآن ﴿ فهم به مستمسكون ﴾ وهذا استفهام والمراد الإنكار ، أي : ما أنزلنا كتابا ، وآتينا أعطيناهم كتابا يتمسكون به ، ويرجعون فيما يدينون به إليه ، وقيل : هذا يتصل بقوله ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ يعني قولهم : الملائكة إناثا ، غلط منهم ، لأنهم لم يشهدوا خلقهم ، ولا نص في كتاب ولا دليل في العقل ، وقيل : بل يتصل بقوله ﴿ لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ يعني إضافة الكفر إلى مشيئة الله لا حجة عليه عقلا ولا نص عليه في كتاب ، وإنما هو كذب اخترعوه .

الأحكام تدل الآيات على أنهم أخطأوا في الدين من وجوه :

منها : إضافة الولد إلى الله ، وذلك لا يجوز لأنه من صفة الأجسام ، ومنها : أنهم أضافوا البنات إليه ، وإنما اختار لنفسه الأدون ، وهذا يناقض الحكمة ، ومنها : أنهم أضافوا إلى ربهم ما لو أضيف إليهم لكرهوه ، فتدل على أنه لا يجوز إضافة القبائح إلى خلقه وإرادته ، ومنها أن الخصام في الدين ، وبيانه مدح ، فإذا لم تكن هذه صفة البنات كيف أضافوها إليه ، ومنها : أنهم جعلوا الملائكة إناثا ، ومنها : أنهم زعموا جميع ذلك بلا حجة ومباعدة ، أو خير أود ليل ، ومنها : أنهم أضافوا الكفر إلى

مشيئته ، ومنها : أنهم قالوا ذلك بغير علم وحجة ، وكل قول هذا سبيله فهو باطل ، ومنها : إقدامهم على الكذب في الدين ، فكان شيخنا أبو حامد رحمه الله يقول : إنما أنكر الله تعالى عليهم ، وكفرهم لأنهم أنكروا

قال الهادي عليه السلام : هذا تقرع من الله تبارك وتعالى للمشركين في قولهم ، وإثبات الحجة عليهم ، إذ زعموا أن الملائكة بنات الله ، وأن الملائكة إناث ، فأُنزل الله [تبارك وتعالى] ﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ .

﴿وَأَصْفَاكُمْ﴾^(١) أي : أكرمكم ﴿بِالْبَنِينَ﴾ فأعطاكم الصفوة ، وهي الخيار من الشيء ، يقال : أصفيت فلانا بكذا ، أي : أثرته إيثارا حصل له على سبيل الصفاء ، من غير أن يكون له فيه مشاركة ، فهذا كله إنكار عليهم ، وتجهيل لهم ، وتعجب من اختيارهم له جزأ ، ثم شر الجزأين وهو الإناث اللاتي هم أنقر الخلق منهن ، ولذلك وأدوهن ، وهو معنى قوله : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ أي بشر بالجنس الذي جعله له مثلا ، أي شبهها ؛ لأن الولد مماثل للوالد ، ومشابه له ، وهم الملائكة برعمهم أنهم بناته ، فإذا قيل لأحدهم : ولدت لك بنت ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ مفتما من الغيظ ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي : مكظوم ، أي مملوء غيظا ، وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فحجر البيت الذي فيه المرأة فقالت :

ما لأبي حمزة لا يأتينا | يظل في البيت الذي يلينا

غضبان ألا نلد البنينا | ليس لنا من أمرنا ما شئنا

وإنما نأخذ ما أعطينا

التوحيد ، والعدل ففارقوا التوحيد بإضافة الولد إليه ، وفارقوا العدل بإضافتهم الكفر إلى مشيئته ، وقيل : إن قوله ﴿أَوْ مِنْ يَنْشَأُ فِي الْحُلِيِّ﴾ يدل على جواز التحلي للنساء بالذهب وغيره عن أبي العالية وقتادة .

(١) في مجموع تفسير الأئمة ص ٤٥١ ، بعد قوله ﴿وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يريد سبحانه أن قولهم فيما زعموا من أن الملائكة إناث ، وأنهم لله بنات ، فقال : كيف يصفيكم أنتم بالبني ، ويتخذ هو البنات لنفسه ، فلو كان كما تقولون إذا لم يتخذ إلا البنين ، إذ البنون أفضل من البنات ، فكيف تنسبون إلى الله ما تكرهون ، وتجعلون له ما منه تنتفون من البنات اللواتي إذا بشر بها أحدكم ظل وجهه مسودا ، وهو كظيم مستحي خجلا منهم واغتاما لولادتهن .

وقوله : ﴿ ظل ﴾ أي : صار ، وكما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة [بمعناها] يريد سبحانه إن كان قولهم فيما زعموا من أن الملائكة إناث ، وأنهم لله بنات ، فقال : كيف يصفىكم بالبنين ، ويتخذ هو البنات لنفسه ، فلو كان كما يقولون إذا لم يتخذ إلا البنين ، إذ البنون أفضل من البنات ، فكيف تنسبون إلى الله ما تكرهون ، وتجعلون له ما منه تنتفون ، من البنات اللواتي إذا بشر بها أحدكم ظل وجهه مسوداً وهو كظيم : مستحي خجلاً منهم واغتماماً بولادتهن .

ثم قال سبحانه منكرًا عليهم ، ومبينًا نقصان البنات ﴿ أو من ينشأ في الحلية ﴾ (والذي ينشأ في الحلية فهن البنات اللاتي تربين في الحلي ، وتزين به ، يعني ، أو يجعل للرحمن من الولد من الصفة صفته ، وهو أنه ليتربى في الزينة والنعمة ، وكذلك فهن اللواتي قال الله : ﴿ وهو في الخصام غير مبين ﴾ ^(١) إذا احتاج إلى مخاصمة الرجل لا يأتي بدليل بين يحج به خصمه ، معناه : هو في الخصام غير قائم بحجته لضعفهن ، وقلة معرفتهن بما لهن وعليهن ، يقال : قيل ما أرادت امرأة أن تكلم بحجة لها إلا تكلمت بحجة عليها .

المعنى : أو من كان هكذا في الصفة كالبنين الذكور ، وأهل البيان في الخصام ، وأهل الخير والتمام لا يكون ذلك كذلك أبداً ، فأضمر الذكور لعلم المخاطب به ، ذكر معنى هذا الهادي عليه السلام ^(٢) .

والمعنى : أن الذي بلغ حاله في النقص إلى هذا الحد كيف يجوز للعاقل إثباته لله تعالى عنه علواً كبيراً .

(١) ما بين القوسين مثله للهادي . أنظر مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٥١

(٢) وزاد في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام : (فقال : ﴿ أو من ينشأ في الحلية ﴾ والسذي ينشأ في الحلية فهن البنات اللواتي يزين به في الحلي ، وتزين به ، وكذلك فهن اللواتي قال الله : ﴿ وهو في الخصام غير مبين ﴾ يقول في الخصام غير قائم بحجته لضعفهن وقلة معرفتهن بما لهن وعليهن .

ثم قال سبحانه : ﴿ وجعلوا ﴾ أي : سمو ﴿ الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ﴾ معنى ﴿ عند الرحمن ﴾ ^(١) أي : مكرمون ، وهذا مثل لكرامتهم واختصاصهم به ، وعلو منزلتهم لديه ، وأصله أن الذين يكونون عند الملك أقرب من يتصل به .

ثم قال : ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ فأخبروا عن مشاهدة ، وهذا تحكم بهم ؛ لأنهم لم يتطرقوا إليها بعقل ولا نقل ، فلم يبق إلا أن يخبروا عن مشاهدة .

قرأ نافع وحده (ءأشهدوا) بهمزة ومدة وضمة بعدها خفيفة لينة ^(٢) ، والباقون (أشهدوا) بفتح الألف .

والعنى : أشهدوا خلقهم فرأوهم إناثا ، أي : أحضروا وأحضروا على القرأتين .
ثم إنه تعالى تهددهم فقال : ﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ على الملائكة بأنهم إناث ، وأنهم بنات الله ﴿ ويسألون ﴾ عن ذلك سؤال توبيخ .

قال مقاتل والكلبي : لما قال الله ﴿ أؤشهدوا خلقهم ﴾ سألم النبي ﷺ فقال : ما يدريكم أنهم بنات الله ؟ فقالوا : سمعنا من آبائنا ، ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا ، فقال الله تعالى : ﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ في الدنيا ﴿ ويسألون ﴾ عنها في الآخرة .

وهذا يدل على أن القول بغير دليل منكر ، وأن التقليد يوجب الذم العظيم ، والعقاب الشديد .

ثم إنه تعالى حكى عنهم نوعا آخر من كفرهم وشبهاتهم ، فقال سبحانه : ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ هو بنو مليح كانوا يعبدون الملائكة ، زعموا أن عبادتهم إياهم بمشيئة الله ، كما يزعم إخوانهم المجبرة ، ولقد جمعوا خمس

(١) هذا على قراءة من قرأ ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن إناثا ﴾ وهي قراءة نافع ، وابن كثير ، وابن عامر ، وهو اختيار أبي حاتم .

(٢) وعن نافع أيضا غير معدود على ما لم يسم فاعله .

كفرات : جعلهم لله ولدا ، وجعلهم له أخس النوعين من الولد وهن الإناث ، وجعلهم الملائكة الذين هم أفضل عباد الله إناثا فاستحقوا بهم ، وعبادتهم الملائكة ، وزعمهم أن المعاصي يريد بها الله كما هو مذهب إخوانهم المجبرة ، وقد رد الله عليهم فقال : ﴿ ما لهم بذلك من علم ﴾ كون عبادتهم بمشيئة الله ﴿ إن هم إلا يخرصون ﴾ أي : يكذبون ، وهذا رد على المجبرة في قولهم : المعاصي يريد بها الله — تعالى الله عما يفترون — علوا كبيرا .

ثم قال : ﴿ أم آتيناهم كتابا ﴾ بينا فيه أن الكفر ، وعبادة غير الله بمشيتنا ، وقوله : ﴿ من قبله ﴾ أي : من قبل القرآن ، أو من قبل محمد ﴿ فهم به مستمسكون ﴾ أي : فهم بالكتاب الذي زعموا فيه نسبة الولد إلى الله تعالى وعبادة الملائكة ، وأنه تعالى يريد ذلك ، فهم بذلك الكتاب محتجون ، بما فيه من الوحي بلا حجة لهم .

والمعنى : أنهم هم وجدوا ذلك الباطل في كتاب منزل ، قبل القرآن حتى جاز لهم أن يعولوا عليه ، وأن يتمسكوا به ، والمقصود منه ذكره في معرض الإنكار .
ولما ثبت أنه لم يدل عليه دليل عقلي ، ولا دليل نقلي ، وجب أن يكون القول به باطلا . ثم قال تعالى : ﴿ بل قالوا ﴾ لا مستمسك لهم إلا قولهم : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ ^(١) أي : على دين وطريقة وملة ، قال الشاعر :

(١) قال الحاكم الحشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ القراءة : قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم ﴿ قال أولو حجتكم ﴾ بالألف على الخير ، وقرأ الباقون ﴿ قل ﴾ على الأمر ، وقرأ أبو جعفر ﴿ ولو حجتاكم ﴾ بالنون والألف ، وقرأ الباقون ﴿ حجتكم ﴾ بالتاء بغير ألف ، فالأول حكاية عن الجماعة ، والثاني واحد يعني الرسول قال لهم .

القراءة : قراءة العامة ﴿ أمة ﴾ مضمومة الألف وهي الملة والدين ، وعن مجاهد وعمر بن عبد العزيز إمة بكسر الألف قيل : هي الطريقة التي تقصد من قولهم : أمت ، وقيل : هما لغتان .
اللغة الأمة : الجماعة على طريقة واحدة ، كأنهم أموا جهة واحدة ، وأصله القصد ، والمترف الذي أشر طلب الترفه على طلب الحجة ، والنظر ، وأصل الإرفاء المنعيم والدعة .

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة
وقال آخر :

أدخل نحو أمتكم بزور
وأترك أمتي حاشا مليكي
والأمة على وجوه أخر^(١) .

﴿ وإنا على آثارهم ﴾ أي : سبيلهم الذي سلكوا ﴿ مهتدون ﴾ مقتدون بفعلهم ، والمقصود أنه تعالى لما بين أنه لا دليل لهم على صحة ذلك القول البتة ، بين أنه ليس لهم حامل يحملهم عليه إلا التقليد المحض .

المعنى ثم بين تعالى أن مبنى أمرهم على التقليد ، فقال سبحانه ﴿ بل قالوا ﴾ يعني المشركين ، وهو جواب الاستفهام ، وردا لمقالتهم ، يعني لم يشهدوا خلقهم ، ولا رجعوا إلى كتاب بل قالوا : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ قيل : ملة عن ابن عباس ومجاهد ، وقتادة وأبي مسلم ، والسدي ، وقيل : الأمة الجماعة ، أي : كانوا مجتمعين موافقين على هذا الذي نحن عليه عن أبي علي ﴿ وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ فلا نخالفهم ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك ﴾ يا محمد ﴿ في قرية من نذير ﴾ أي : نبي ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ أي : رؤساؤها ومنعموها ، وإنما خصهم بالذكر وإن كانت العامة موافقة لهم ، لأن الخطاب يتوجه إليهم ، ولأن العامة تبع لهم ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ على طريقة ، وقيل : وجدناهم مجتمعين على هذا ﴿ وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ نقتدي بهم فلا نخالفهم ﴿ قل ﴾ يا محمد أتتبعون آباءكم وإن ﴿ جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ﴾ يعني أصوب وأولى لما عليه من الدليل فلا ﴿ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون فاتقمنا منهم ﴾ قيل : عذبتناهم بكفرهم كالمنتقم ، وقيل : انتقمنا للمؤمنين منهم ، ومن إيثائهم ﴿ فانظر كيف كان عقابة المكذابين ﴾ .

الأحكام : تدل الآيات على ذم التقليد وبطلانه ، وأن الواجب إتباع الدليل ، لأن التقليد لا يميز الحق من الباطل ، وتدل على أن الواجب التفكير ليعلم الهدى فينتبه ، وتدل على صحة الحجاج في الدين ، وتدل على أنه يعذب العصاة ، وأنه كالانتقام منهم ، وتدل على أن التكذيب فعلهم .

(١) قال في الكشف : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ على دين ، وقرئ (على أمة) بالكسر وكلتاها من الأم وهو القصد ، فالأمة : الطريقة التي تؤم ، أي تقصد ، كالرحلة للمرحول إليه ، والأمة : الحالة التي يكون عليها الأم ، وهو القاصد ، وقيل : على نعمة ، وحالة حسنة . الكشف ٢٤٥/٤ .

ثم أخبر أن تمسك الجهال بطريقة التقليد أمر كان حاصلًا من قدم الدهر فقال : ﴿ وكذلك ﴾ أي : ومثل قولهم هذا الذي واجهوك به قال الذين من قبلهم لرسولهم ﴿ ثم فسره بقوله : ﴿ ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير ﴾ ينذر أهلها ﴾ ! لما قال مترفوها ﴾ أي : مترفوا القرى من قبلهم ، كما قال هؤلاء ﴾ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ أي : على دين وعبادة ، ومترفوها : الذين أترفهم النعمة ، أي : أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات ، ويعافون مشاق الدين ﴾ وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ أي : تابعون .

قال الرازي : لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآيات لكفت في إبطال القول بالتقليد ، وذلك لأنه تعالى بين أن هؤلاء الكفار لم يتمسكوا في إثبات ما ذهبوا إليه لا بطريق عقلي ، ولا بدليل نقلي ، ثم بين أنهم إنما ذهبوا إليه بمجرد تقليد الآباء والأسلاف ، وإنما ذكر تعالى هذه المعاني في معرض الذم والتهجين ، وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل ، ومما يدل عليه أيضا من حيث العقل ، أن التقليد أمر مشترك فيه بين المبطل وبين الحق ، وذلك [لأنه] كما حصل لهذه الطائفة قوم من المقلدة ، فكذلك حصل لأضدادهم أقوام من المقلدة ، فلو كان التقليد طريقا إلى الحق لوجب كون الشيء ونقيضه حقا ، ومعلوم أن ذلك باطل^(١) .

ثم قال تعالى لرسوله : ﴿ قال أولو جئتكم بأهدى ﴾ أي : أرشد ﴾ وما وجدتم عليه آباءكم ﴾ أي : قل أتتبعون ما وجدتم عليه آباءكم ، وإن جئتكم بأهدى منه ، فردوا على النبي محمد ﷺ حيث ﴿ قالوا إنا بما أرسلتم به ﴾ أيها الرسل ﴾ كافرين ﴾ وإن كان أهدى مما كنا عليه ، فعند هذا لم يبق لهم عذر ولا علة ، فلهذا قال تعالى : ﴿ فانتقمنا منهم فانظر ﴾ أيها الإنسان ﴾ كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ للرسل ،

والمراد منه تهديد الكفار والله أعلم .

وقال في التجريد : ثم رجع إلى الأمم الخالية ، قال : ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ هذا تفسير الواحدي وابن الجوزي .

وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم (قال أو لو جئتكم) قال أبو علي : فاعل ﴿ قال ﴾ النذير ، وعلى هذه القراءة الكلام ظاهر النظم ، وعلى قراءة (قل) وأن المراد محمد صلى الله عليه وآله يختلف فينظر . اهـ

لأن الفاء في ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ للتعقيب ، والانتقام من الأمم المكذبة ، كان قبل محمد ﷺ ، وجوابه أن يجعل فانتقمنا متصلاً بقول الأمم مقدماً في التقدير على ﴿ قل أولو جئتكم ﴾ فيصير النظم ﴿ وإنا على آثارهم مقتدون ... فانتقمنا منهم ﴾ والله أعلم .

ومعنى : ﴿ انتقمنا ﴾ أي : انتصرنا للدين والرسول بإهلاكهم .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم ﴾ أي : واذكر وقت قال إبراهيم ﴿ لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ﴾^(١) من الأوثان ، وبراء : مصدر يستوي فيه الواحد والاثنين

(١) قال الحاكم الحشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ القراءة : قراءة العامة ﴿ براء ﴾ بالالف وفتح الباء على الواحد ، وعن ابن مسعود ﴿ بري ﴾ بالياء ، قيل : هما بمعنى ، وقيل : براء مصدر أقيم مقام الاسم ، وبري اسم .

قراءة العامة ﴿ معيشتهم ﴾ بغير ألف ، وعن ابن عباس ﴿ معائشهم ﴾ على الجمع .

قراءة العامة : ﴿ سخرها ﴾ بالضم ، وعن ابن محيصن بالكسر ، قيل : ما كان بالضم فهو بالكسر ، وما كان من جهة الكسر فهو بالضم ، وهو الصحيح من القراءة ، لأن عليه عامة القراء ، ولأن معنى الكلام عليه

اللمعة

براء : مصدر لا يثنى ولا يجمع ، ولا يؤنث ، تقول : برئت براءة وبراءة ، وتقول : أنا منك براء ، ونحن منك براء ، والتسخير التذليل .

الإعراب

يقال: ما العامل في قوله ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ ؟ قلنا: فيه قولان : أحدهما محذوف واذكر إذ قال . والثاني : مذكور بتقدير فانظر كيف كان عاقبة أولئك إذ قال إبراهيم .
ويقال: ما الاستثناء في قوله ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ؟ قلنا: قيل: تقديره إني براء مما تعبدون من شيء إلا الذي فطرني ، وقيل: من كل معبود إلا الذي فطرني .

النظم

يقال: كيف تتصل قصة إبراهيم بما قبلها ؟ قلنا: لما ذم التقليد ، وأوجب إتباع الدليل عقبه بذكرهم إبراهيم حيث خالف آباءه ، واتبع الحجة ، وأنكر ذلك أبوه ، وأهل بلده ، وقيل: لما أمر بمناظرهم بقوله ﴿قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ﴾ وهو ما دل عليه الدليل ، فإن أبوا إلا التقليد ، فتقليد إبراهيم أولى ، لأنهم من أولاده ، يعظمونه ، ويدعون أنهم على طريقتهم .
ويقال: كيف يتصل قوله ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ بما قبله ؟ قلنا: لما عولوا على تقليد الآباء ، ولم يتفكروا في الحجة ، اغتروا بطول الإمهال ، وإمتاع الله إياهم بنعيم الدنيا ، فأعرضوا عن الحق ، وقيل: لما ذكر إعراضهم بين أنهم أتوا من جهتهم ، وأنه أزاح العلة ، وأمهل ومنع ، وأمر ونهى كي يتفكروا ويؤمنوا .

المعنى

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿وَقَوْمِهِ إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ يعني الأوثان لا أعبدوها ، والنجوم ، فإن قومه كانوا يعبدون النجوم ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خلقتني ابتداء ، وهو الله تعالى عن قتادة ، قال : كانوا يقولون : الله ربنا مع عبادهم الأوثان ﴿فَإِنَّهُمْ سَيِّهْدِينَ﴾ إلى الحق بما نصب لي من الأدلة ، وفيه بيان ثقته بالله ، ودعا أموره ويطلب الهداية من ربه ، وقيل: سيهدين إلى حنته وثوابه ، وقيل: سينجيني من عذابه ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ يعني إبراهيم جعل هذه الكلمة باقية في ذريته لم يزل منهم من يقولها . واختلفوا فقيلاً: الله تعالى جعلها باقية ، يعني بأمره ولطفه ، وقيل: إبراهيم جعلها باقية بأن يوصي بها ، وأكد الأمر بالتكرير ، واختلفوا في الكلمة قيل: كلمة التوحيد لا إله إلا الله عن مجاهد وقاتدة والسدي ، وقد جرى ذكره في قوله ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ، وقيل: براءته من الشرك عن أبي علي ، والكلمة قوله ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ وقيل: وصيته التي أوصى بنبيه على ما ذكره في سورة البقرة عن محمد بن كعب القرظي ، وقيل: هو قوله ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عن أبي زيد وأبي مسلم ، وقيل: هو تسميته إياهم بالمسلمين .

واختلفوا في عقبه ، قيل: من خلفه عن ابن عباس ، وقيل: ذريته ، وولده عن مجاهد ، وقال الحسن : عقبه وولده إلى يوم القيامة ، وقيل: في آل محمد عن السدي ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى دين إبراهيم عن الفراء

والجماعة ، والمذكر والمؤنث ، يقال : نحن البراء منكم ، وقرئ (برئ) ككريم ، وهما بمعنى ﴿إلا الذي فطرني فإنه سيهدين﴾ إلى مصالحني ومنافعي الدينية والدنيوية .

والحسن ، ومعنى لعل قيل : ارجعوا ، قيل : وصاهم أن يرجعوا .

﴿بل تمتع هؤلاء وآباءهم﴾ أي : أنعمت عليهم بالنعم ، ولم أعاجلهم بالعقوبة فتمتعوا ﴿حتى جاءهم الحق﴾ قيل : القرآن عن السدي ، وقيل : الإسلام عن الضحاك ، وقيل : التوحيد ، وقيل : الآيات الدالة على صدقه ﴿ورسول مبين﴾ بين الحق ، وهو محمد ﴿ولما جاءهم الحق﴾ القرآن ﴿قالوا هذا سحر﴾ أي : تمويه ﴿وإنا به كافرون وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ اتفقوا أن القريتين مكة والطائف ، واختلفوا في الرجلين ، قيل : الوليد بن المغيرة من مكة ، وحبيب بن عمرو في الطائف عن ابن عباس ، وقيل : عتبة بن ربيعة من مكة ، وأبو عبد الله الثقفي من الطائف عن مجاهد ، وقيل : الوليد بن المغيرة من مكة ، وأبو مسعود الثقفي من الطائف عن قتادة وأبي علي ، وقيل : وليد بن مغيرة من مكة وكنانة بن عد بن عمرو من الطائف عن السدي ﴿عظيم﴾ أي : عظيم الشأن في الدنيا بالمال والجاه ، فغلطوا من وجوه : أحدها : جعلوا العظيم بالمال والجاه ، والثاني : جعلوا إليهم الاختيار في المبعوث ، والثالث لم يعرفوا الغرض بالبعثة ، وأنه للاستصلاح ، فبغت من يصلح له ﴿أهم يقسمون﴾ استفهام والمراد الإنكار ، أي : ليس لهم قسمة الرحمة حتى يجعلوا النبوة لمن شاؤا ﴿رحمة ربك﴾ أي : رزقه ونعمته بين عباده دينا ودنيا ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾ يعني لم نرض قسمتهم أسباب الدنيا ، لأنهم لا يصلحون لها ، ومن لا يصلح لقسمة دنياه كيف يصلح لقسمة النبوة ، فنحن قسمنا ذلك بينهم بحسب ما علمناه من مصالحهم ، فبعضهم غني وبعضهم فقير ، وبعضهم ما لك وبعضهم مملوك ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ في المال والقوة والحرية ﴿ليتخذ بعضهم بعضا سخريا﴾ قيل : يتخذ بعضهم بعضا

وقيل : هو تسخير الفقير للغني بماله ، وأرباب الحاجات لأصحاب الصناعات بصناعتهم يستعملهم بأموالهم

ويستخدمونهم فيكون سببا لمعاش هذا بماله ، ونفع هذا بأعماله ، وكل واحد يحتاج إلى صاحبه من وجه عن السدي وابن زيد ، وقيل : ليملك بعضهم بعضا ، ويتخذهم عبيدا عن قتادة والضحاك ﴿ورحمة ربك﴾ قيل : ثواب الآخرة ، وقيل : الجنة خير مما يجمعون من أموال الدنيا ، لأنها باقية ، وهذا فان ، وقيل : رحمة الله بالنبي لما أعطاه من النبوة خير من أموالهم التي جمعوها عن أبي مسلم .

الأحكام تدل الآية أن أبا إبراهيم كان كافرا ، وهو آزر ، ولا مانع منه ، فلا يصلح العدول عنه إلى أنه كان عمه ، وقد نطق القرآن بذكر الأب في مواضع ، ولا يحمل على الجواز إلا بدليل ، وتدل على أنه تعالى قسم الأرزاق بحسب المصلحة ، وأنه قسم النبوة على ما هو الأصلح لعباده ، وتدل على أنه دبر العالم على أن يحتلج بعضهم إلى بعض ، ليستدلوا بذلك على أن لها صناعا ، لا يجوز عليه الحاجة ، وتدل أن طلب الآخرة خير من جمع الدنيا .

قال الهادي عليه السلام : هذا قول من إبراهيم صلى الله عليه وآله لقومه تبرأ فيه من كل ما يعبدون من دون الله ، وأثبت التولي منه لرب العالمين ، الذي فطره ، ومعنى قوله : ﴿ سيهدين ﴾ فهو : سيوفقتي ويهديني إليه ويبينه لي . اهـ

والاستثناء منقطع ، أي : لكن الذي خلقتني ، أو متصل مستثنى من ﴿ مما تعبدون ﴾ لأنهم كانوا يعبدون الله مع الأصنام .

ثم قال سبحانه : ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ معنى ﴿ جعلها ﴾ أي : أن إبراهيم عليه السلام شهرها فيها ، فأوصاهم بها إبراهيم بنيه ^(١) ، كقوله : ﴿ وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ﴾

قال الهادي عليه السلام : والتي جعلها باقية في عقبه فهي كلمة الإخلاص ، ودين الحنيفية الباقية في عقبه إلى يوم الدين . اهـ

﴿ لعلمهم يرجعون ﴾ معناه : لعل من أشرك منهم يرجع إلى التوحيد ، بدعاء من وحد منهم ، وقيل : لعلمهم يرجعون إلى التوحيد من حيث أنه دين إبراهيم ، وقيل : الجاعل هو الله ، أي : وجعل الله كلمة التوحيد باقية في عقب إبراهيم .

ثم قال تعالى : ﴿ بل تمتع هؤلاء وآباؤهم ﴾ وهم قريش وآباؤهم ، تمتعهم بللد في العمر ، والنعمة فعصوا ، واغتروا ، وشغلوا عن كلمة التوحيد ، فمثاله أن يشكرو الرجل إساءة من أحسن إليه ، ثم يقبل على نفسه فيقول : أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك إليه ، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسئ لا تقبيح فعل نفسه ، والمعنى : أجزلت لهم النعمة ، ولم أعاجلهم بالعقوبة والنقمة ﴿ حتى جاءهم الحق ﴾ وهو القرآن ﴿ ورسول مبين ﴾ للرسالة بالآيات الواضحة والحق المبين ، وهو محمد ﷺ وكان من حقهم أن يقابلوا النعمة بالشكر والطاعة ، لكنهم عصوا وخالفوا

(١) قوله : إبراهيم بنيه : هو تفسير للضمير الفاعل والمفعول في أوصاهم . والتقدير فأوصى إبراهيم بنيه .

﴿و لما جاءهم﴾ أي : وحين جاءهم ﴿الحق قالوا هذا سحر وإنا به كلفرون﴾ أي : بادروا إلى الكفر ، ولم يوجد منهم ما رجاه إبراهيم .

ثم حكى سبحانه عنهم من أنواع الكفر فقال تعالى : ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ أي : على رجل من إحدى القريتين ، كقوله : ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ قالوا : وإنما يخرجان من أحدهما ، وقيل : التقدير من رجلي القريتين ، والقريتان : مكة والطائف ، واختلف في رجليهما فقيل : هو الوليد بن المغيرة المخزومي ، وحبيب بن عمر بن عمير الثقفي ، وقيل : الوليد ، وعروة بن مسعود الثقفي ، وقيل : هما عتبة بن ربيعة ، وكنانة بن عبد يا ليل الثقفي .

وقوله : ﴿عظيم﴾ يعني في دنياه ، أرادوا ذا مال وجاه ، وفاتهم أن العظيم من عظم عند الله . وزعموا أن محمدا ﷺ ليس بعظيم .

قال المفسرون : والذي بمكة هو الوليد بن المغيرة ، والذي بالطائف : هو عروة بن مسعود الثقفي .

ثم أبطل الله هذه الشبهة فقال سبحانه : ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ ويدبرون أمر النبوة ، والتخير لها ، ويتولون القسمة لرحمة الله من كل خير من رزق ، وعافية ، وغير ذلك التي لا يتولاها إلا هو بباهر قدرته ، وبالغ حكمته ، والهمزة للإنكار الدال على التجهيل والتعجيب من إعراضهم وتحكمهم .

ثم ضرب لهذا مثالا فقال سبحانه : ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم﴾ أي : أرزاقهم ﴿في الحياة الدنيا﴾ أي : نحن لا هم القاسمون للرحمة ، بل هم عاجزون عن تدبير ما يصلحهم في المعيشة في الدنيا الفانية ، فكيف تدبير الدين الموصل إلى الملك الدائم ، حتى يتخيروا للنبوة من شأوا ، ولو كانوا القاسمين لنفوسهم لما فضل بعضهم على بعض في المعيشة والرزق ؛ لأن المفضل يريد لنفسه ، فإذا كنا نحن الرازيين القاسمين فكذلك النبوة نعطيها من نشاء ، ولا نشاء إلا من فيه مصلحة ، فكيف يتخيرون

لها من أرادوا .

ثم قال عز وجل : ﴿ ورفعنا بعضهم ﴾ في الرزق بالغنى والفقر ، وفي القوة والضعف ، ونحو ذلك من المنازل ﴿ فوق بعض درجات ﴾ فمنهم أغنياء ومحاويج ، وأقوياء وضعفاء ، وموالي وخدم ﴿ لا يتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ ليسخر الغني الضعيف ، والقوي الفقير ، أي : يستخدمهما حتى يتعايشوا ويصلوا بذلك إلى منافعهم ، فلو ولاهم تدبير دنياهم لعجزوا ، فهم عن تدبير دينهم أعجز .

ثم قال تعالى : ﴿ ورحمة ربك ﴾ يا محمد ، وهي النبوة والقرآن ، أو دين الله والفوز بالآخرة ﴿ خير مما يجمعون ﴾ من حطام الدنيا .

ثم أعلم أنه تعالى أجاب عن الشبهة التي ذكروها بناء على تفضيل الغني على الفقير بوجه ثالث ، وهو أنه تعالى بين أن منافع الدنيا وطيباتها حقيرة خسيصة عند الله ، وبين حقارتها بقوله سبحانه : ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ﴾ ^(١) الأمة : الجماعة ، أي

(١) قال الحاكم الحشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ والآخرة عند ربك للمتقين ﴾

القراءة : قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ﴿ سقفا ﴾ بفتح السين ، وسكون القاف على واحد ، وأراد الجنس ، ولقوله ﴿ فخر عليهم السقف ﴾ ، الباقون ﴿ سقفا ﴾ بضم السين والقاف على الجمع ، واختلفوا فيه ، ف قيل : هو جمع سقف كرهن ، و رهن ، قال أبو عبيد : ولا ثالث لهما ، وقيل : السقف جمع سقوف كرهن و رهن ، وزبر وزبور فهو جمع الجمع ، وقرأ عاصم وحمة ﴿ لما متاع ﴾ بتشديد لما ، على معنى وما كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا فتكون آل الابتداء وما صلة .

القراءة الظاهرة ﴿ ومعارج ﴾ وعن أبي رجاء العطاردي ﴿ معاريج ﴾ وهما لغتان نحو مفاتيح ومفاتيح .

اللغة

المعارج : الدرج واحدها معرج ، وأصله الصعود ، عرج يعرج عروجا إذا صعد على وزن نصصر ينصر ، وعرج يعرج صار عرج ، على وزن حمد يحمد ، ويقال : ظهر عليه علا وصعد ، قال الشاعر

بلغنا السماء مجدنا وفعالنا
وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرنا

وظهر على الشيء غلبه ، كأنه علاه ، ومنه فأصبحوا ظاهرين ، أي : غالبين ، والسر جمع سرير ، وجمع أسرة أيضا ، وما كان على بناء فاعيل فجمعه على أفعله ، أو فعل كسرير وسرر ، وأسرة ، ونظيره حصير وحصير ، وقلب وقلب ، وسوار ، وأسورة ، وبناء وأبنية ، وغطاء وأغطية ، وقد يجمع على البنلعين ، وقد يجمع على أحدهما .

والزخرف كلما حسن الشيء ، ومنه قيل : للذهب والفضة زخرف ، ويقال : زخرفته زخرفة أي : حسنته ومنه قيل : للنقوش والتصاوير زخرف على ما جاء في الحديث أنه لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فحشي ، وقيل : نقوش وتصاوير يزين بها الكعبة ، وكانت بالذهب .

الإعراب

في نصب زخرف قولان قيل : لجعلنا ، أي : لجعلنا لبيوهم سقفا وجعلنا لهم زخرفا ، وقيل : من فضة وزخرف ، فلما نزع الحافضة أنتصب ، واللام في قوله ﴿ لمن يكفر ﴾ قيل : صلة ، وفي الآية تقدم وتأخير تقديره لجعلنا لبيوت من يكفر ، وقيل : اللام بمعنى علي ، أي : على بيوت من يكفر ، وقيل : هي لام الإضافة ، وما في قوله ﴿ لما متاع ﴾ صلة كقوله ﴿ فيما رحمة من الله ﴾ .

المعنى

ثم نبه بأنه ليس للدين عند الله من الخطر ما عظموه ، حتى جعلوا أهلها بمحل النبوة ، فقال سبحانه ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ أي : جماعة واحدة ، قيل : كلهم على الكفر عن ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، وقيل : على طلب الدنيا ، واختيار ما على الحق عن ابن زيد ، وإنما لم يفعل ذلك لكونه مفسدة ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوهم سقفا من فضة ومعارج ﴾ قيل : درجا وسلاليم عن ابن عباس وقتادة وهي المراقي ﴿ عليها يظهرون ﴾ يقدون ﴿ وليبوءهم أبوابا ﴾ من فضة ﴿ وسرا ﴾ من فضة

﴿ عليها يتكئون وزخرفا ﴾ قيل : هو الذهب عن ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك ، وقيل : الفرش ومتاع البيت عن ابن زيد ، وقيل : الزخرف النقوش عن الحسن ﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ أي : لو جعل جميع ذلك لكان متاع الحياة الدنيا يتمتع بها قليلا ، ثم يزول ، ويفنى ، ولا يدوم نعيمها ، ثم بين ما أعدّه لأولياته ، فقال تعالى ﴿ والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ أي : الثواب والجنة التي هي دائمة باقية لمن اتقى معاصي الله .

الأحكام تدل الآيات أن الدنيا لا تنال بالاستحقاق ، وإنما هي قسمة على حسب الصلاح ، وتدل على قولنا في اللطف ، لأنه بين أنه قصد بما قسم الاستصلاح ، وتدل أنه لا يفعل المفسدة ، وما يدعو إلى الكفر ، فإذا لم يفعل ما يؤدي إلى الكفر ، دل على أنه لا يفعل الكفر ، ولا يريده ، وتدل على أن ثواب الآخرة معد

ولولا كراهة أن يجتمع الناس على الكفر ويتفقوا عليه ، ويرغبوا فيه ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم ﴾ هو بدل اشتمال من قوله : ﴿ لمن يكفر ﴾ ﴿ سقفا من فضة ومعارج ﴾ جمع معرج ، وهو السلم من فضة ﴿ عليها يظهرون ﴾ أي : يعلنون السطوح على المعارج ، أي : المصاعد إلى العالي ، يقال : ظهرت على البيت إذا علوت على سطحه .

قال في التجريد : بين الله تعالى حقارة الدنيا ، وهوانها عليه لما قالوا : لا تكون النبوة إلا لعظيم في الدنيا بالمال والجاه عند الناس فقال : ولولا كراهة أن يصير الناس أمة واحدة ، أي يتفقون على ملة واحدة ، وهي ملة الكفر لوسعنا على الكفرة حتى يكون لبيوتهم سقفا من فضة ﴿ ولبيوتهم أبوابا وسررا ﴾ جميع سرير ، كلها من فضة ﴿ عليها يتكئون ﴾ من الإتكاء ، الذي هو عادة المترفين ، المنعمين ﴿ وزخرفا ﴾ أي : زينة من كل شيء ، والزخرف أيضا الذهب ، أي : لولا كراهة الإطباق على الكفر والرغبة فيه لجعلنا حقارة الدنيا للكفار سقفا ومصاعد وأبوابا وسررا كلها من فضة ، وجعلنا لهم زخرفا .

قال المرتضى عليه السلام : يقول لبسطينا لهم في الرزق ، وأملينا لهم في العمر ، حتى تكون سقفهم فضة ، ومعارجهم فهي درج الدور ، فأراد بذلك سبحانه الإملاء لهم على كفرهم ، وإقامة الحجة عليهم في شركهم كما قال عز وجل ﴿ إنما نغلي لهم

للمتقين دون الفاسقين ، فيبطل قول المرجية ، ومتى قيل : إذا قلتم إنه لا يفعل ما عنده يكفر لأنه مفسدة ، أو ليس قد أعطي القدرة والآلة ، التي عندها يكفرون ؟ قلنا : ذاك تمكين به يتمكن من الإيمان

أيضا ، وليس بمفسدة ، ومتى قيل : فهلا فعل اللطف ليؤمنوا ؟ قلنا : لأنه لا لطف لهم . ومتى قيل : أليس هو تعالى قادر على كل شيء ، فكيف لا يلطف ؟ قلنا : بلى ولكن هذا الكافر لا لطف له ، ولو كان له لطف في المعلوم لفعل ، ومتى قيل : أليس أصحاب اللطف يزعمون ذلك ؟ قلنا : بينا بطلان قولهم : إنه لو كان لطفنا لهم ، ولم يفعله لصح منه ، وكان نقضا للغرض ، وكان بمنزلة منع التمكين والآلات .

ليزدادوا إثماً^(١) إذ هو لا يضره كفرهم ، ولا يدخل عليه نقص في ردهم ، فلما كان ذلك كذلك لم يكن الضرر والهلكة إلا عليهم في أنفسهم لردهم لحجج ربهم ، فذكر سبحانه لولا أن يتأسى الناس بعضهم ببعض حتى يدعوهم ما يرون من الإملاء والملك لمن خالف الحق فضاده ، لجعل هؤلاء المعاندين ما ذكر ليكون عند انقضاء مدتهم أشد في الحسرة عليهم ، وأثبت للحجة فيهم في رقايمهم ، فهذا معنى الآية ؛ لأن الله عز وجل إذا أنعم على العبد وأعطاه فلم يشكر وازداد كفرًا وعتيًا ، كان أعظم لذنبه ، وأشد لعذابه عند خالقه . اهـ

وفيه تنبيه للمؤمنين على ترك الافتتان بما يقع في أيدي الكفار من الأموال الجليلة ، فلولاً المفسدة لزادهم ، إذ الدنيا لا خطر لها ، وقد أوضح ذلك تعالى بقوله : ﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ أي : منفعتها اليسيرة الفانية ، وما زائدة أو موصولة ، واللام الفارقة بين المخففة والنافية ، وقد دلت الآية على أن التوسعة على الكفار مفسدة لثلاث يطبق الناس على الكفر ، لحبهم الدنيا ، ولا يلزم أن التوسعة للمسلمين مصلحة ليطبق الناس على الإسلام ؛ لأن التوسعة مفسدة أيضا تؤدي إلى الدخول في الإسلام لأجل الدنيا ، وذلك دين المنافقين ، فالواجب على المسلم العاقل أن يحترز من طلب فوق الكفاية ؛ لأنه تعالى قد صرح بأنه في معلومه يؤدي إلى الطغيان ، أعني طلب فوق الكفاية ، وقوله الذي لا مزية فيه ، ولقوله ﷺ : (أنت فيما يكفيك وتطلب ما يطغيك) و(الطغيان حلال عاجل وحتم قاتل) فأى جهل أعظم من جهل من سعى في تحصيل أمر قد قام له الدليل بأن فيه هلاكه ، وفي تركه فكاكه

ثم أخبر سبحانه عن من جعل الجنة له فقال : ﴿ والآخرة ﴾ أي : الجنة التي لا يوصف نعيمها ، ولا يظعن مقيمها ﴿ عند ربك للمتقين ﴾ خاصة بهم فقط .

ثم وصف عز وجل المعرضين عن القرآن بالعشى والعمى فقال: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ^(١) ملازم لا يفارقه .

(١) قال الحاكم الحشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعَمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ﴾ القراءة: قراءة العامة ﴿يعش﴾ بضم الشين، يعني يعرض، وعن ابن عباس، يفتح الشين، يعني يعم، يقال: عشى يعشى إذا عمى، ورجل أعشى، وأمرأة عشواء. وقرأ عاصم في بعض الروايات ﴿ينقيض﴾ بالياء، رجع الكناية إلى اسم الرحمن. الباقر بالتون. قرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير، وابن عأمر، وأبو بكر عن عاصم حتى إذا جاءنا بالألف بعد الهمزة على الاثنین يعني الكافر، وقرينه، وقرأ الباقر ﴿جاءنا﴾ على واحد، يعني الكافر، واختاره أبو عبيد، لأن الكلام في ذكره.

اللفظة

العشو: أصله النظر ببصر ضعيف، كذا قاله الخليل، يقال: عشى يعشو عشوا إذا ضعف بصره، وأظلمت عينه، ونظر نظراً ضعيفاً، كان عليها غشاوة، فإذا ذهب بصره، قيل: عشى يعشى عشى مثل عمى يعمى عمى، قال الخطبة: متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد قال أبو عبيد: عشى إلى النار، قصد، وعشى عنها أعرض، ونظيره ما ل عنه، وما ل إليه، وأنكر القتيبي عشوت عن الشيء أعرضت، قال: وإنما الصواب تعاشرت، والصحيح الأول لإجماع أهل اللغة والتفسير، والنقيض: المثل، وهما قيطان، أي: كل واحد منهما عرض عن الآخر، ومنه المقايضة في البيع، وقيض الله الشيء أتاحه، وسببه، يقال: هذا قيطان لهذا، وقياض أي: مساو، وقوله تعالى ﴿نقيض له شيطاناً﴾ منه، كأنه جعل الشيطان له عوضاً مما تركه من ذكر الله.

المعنى

لما تقدم ما أعد للمتقين وعدا لهم عقبه بذكر الوعيد والعقاب، فقال سبحانه ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ يعرض عن قتادة والسدي، وقيل: يعم عن ابن زيد وأبي علي، قال أبو علي: هذا توسع، شبههم بالأعمى لما لم يصبروا الحق، وقيل: العشو السير في الظلم، فلما كان الذهاب عن ذكر الله يتردد في الضلالة خرج الكلام في ذهابه على السائر في الظلمة، عن ذكر الله تعالى عن أبي مسلم، واختلفوا في الذكر قيل: الإيمان، والأدلة، وقيل: القرآن ﴿نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾ قيل: من أعرض عن ذكر الله تعالى يخلى بينه وبين الشيطان، فيصير قرينه عوضاً عن ذكر الله عن الحسن، وأبي مسلم، وإنما جاز التخلية لما علم أنه يفلح، وإن لم يكن الشيطان له قرين، وقيل: يقرنه في الآخرة ليذهب به إلى النار عن قتادة، كما أن المؤمن يصير قرينه ملك يذهب به إلى الجنة، وقيل: يقرنه في النار حتى يكون قرينه عن أبي علي، وقيل: هو قرين له

في الدنيا ، يوسوس له ، ويزين له سوء عمله ، ويقرن به في الآخرة ، ويعت بهمما إلى النار ، وقيل : أراد شياطين الإنس نحو علماء السوء ، ورؤساء الضلالة ﴿ يصدلون عن سبيل الله ﴾ ويمتنعون عن اتباع الحق ﴿ وإهم ليصدونهم ﴾ أي : يصرفون هؤلاء الكفار ﴿ عن السبيل ﴾ أي : طريق الحق ﴿ ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ يعني يحسب الكافر أنه مهتد لحسن ظنه واعتقاده ، بمن يدعو إلى الضلال ﴿ حتى إذا جاءنا ﴾ يعني جاء عرصة القيامة التي لا حكم إلا الله فيها ﴿ قال ﴾ يعني : الكافر الذي هو تابع للشيطان المتبع ﴿ يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين ﴾ قيل : بعد المشرق والمغرب ، فقلب أحدهما على الآخر ، كما يقال : للشمس والقمر قمران ، ولأبي بكر وعمر عمران ، والحسن والحسين حسنان ، قال الشاعر :

أخذنا بأفلاك السماء عليكم
لنا قمرها والنجوم الطوالع

وقال آخر :

وبصرة للأزد منا والعراق لنا
والموصلان ومنا مصر والحرم

يعني الموصل والجزيرة ، وقيل : مشرق الشتاء ، ومشرق الصيف ، والأول الوجه ، والمعنى : ليت بيني وبينك من البعد ما بين المشرق والمغرب ، وهي كلمة حالة — دالة — على الندم والحسرة ، وقيل : جاءنا في سلسلة واحدة ، عن ابن عباس ﴿ فبئس القرين ﴾ قيل : في الدنيا ، حيث أضللتني ، وقيل : في النار ، وقيل : فيهما ﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم ﴾ عصيتم ربكم ﴿ أنكم في العذاب مشتركون ﴾ قيل : إن اشتراككم في العذاب لا يوجب التسلي ، ولا ينفع كما كان في الدنيا ، لأنه يرى بنفسه ما يرى من شدة العذاب ، ولكل واحد نصيب وافر ، وهذا محكي عن شيخنا أبي الهذيل ، وهو قول أبي علي ، وقيل : لن ينفعكم كون قرنلتكم معكم في العذاب ، إذ ينقص لكونهم في النار من عذابكم شيء عن أبي مسلم ، وقيل : لا ينفعكم الاعتداد ، لأنكم وقرناءكم مشتركون في العذاب اليوم كما كنتم مشتركين في الكفر في الدنيا ﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ﴾ يعني من لا يبصر الحق بمنزلة الأعمى ، والأصم ، فكما يتعذر إدراك الأعمى ، واستماع الأصم ، كذلك يتعذر عليك هذا هؤلاء ، لأنهم لا يتفكرون ولا ينظرون ، ولا يسمعون ، ويتعاضون ويتصلصمون عن الحق فيبعد عن الاهتداء ﴿ ومن كان في ضلال مبين ﴾ بين ظاهر أنه لا يهتدي ولا يقبل .

الأحكام

الآية تدل على أن العصاة يقرن بهم الشيطان ، وقد بينا ما قيل فيه ، وروي عن النبي عليه السلام ﴿ اللهم إني أعوذ بك من مقاربة الشيطان ﴾ ويدل قوله ﴿ ويحسبون ﴾ أن المعارف مكتسبة ، وتدل على أن أهل النار يجدون خفة بكثرة أهلها وعذابهم ، وإن كان كل واحد مشغولا بحاله ، بخلاف حال الدنيا ، أن الاشتراك في البلاء لا يوجب التسلي ، وفيه تحذير عن المعصية ، وتدل على أن حال من لا يبصر الحق ولا يسمعه ، بمنزلة الأعمى ، والأصم ، وذلك توبيخ لهم ، ويدل قوله ﴿ ومن كان في ضلال ﴾ أن الضلال فعلهم ، ومتى قيل :

قال في التجريد : قرئ (نعش) بضم الشين وفتحها ، وفتحها شاذ ، فإذا فتحت فهو من عشى يعشى ، إذا حصلت الآفة في بصره ، التي هي العشى ، وهو ضعف البصر ، فإذا ضمت فمن عشا يعشو إذا نظر نظر من هو أعشى ، ولم يكن به آفة ، ونظير ذلك عرج يعرج لمن به آفة العرج ، وعرج يعرج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج ، ومعنى قراءة الفتح : ومن يعم عن ذكر الرحمن ، وهو القرآن ، كقوله : ﴿صم بكم عمي﴾ ومعنى قراءة الضم : ومن يتعام عن ذكره ، أي : يعرف أنه الحق ، وهو يتجاهل ويتعامى ، كقوله : ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾^(١).

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : العشى : ظلمة البصر ، قال الشاعر :

نظرت بعين لم تخنها عشاوة ولا رمد فالطرف غير كليـل
أي : لم تخنها ظلة ولا ضعف .

وقال الهادي عليه السلام : من ﴿يعش﴾ أي : يصد ويترك ويعرض ﴿عن ذكر الرحمن﴾ ويعم عنه ﴿نقيض له شيطانا﴾ أي : نخلي عليه شيطانا ، لا أن الله تعالى أمر الشيطان بذلك ، ولكنه خلاه وإياه ، ولم يمنعه ، فلما أن كان ذلك منه كذلك جاز أن يقول : ﴿قيضنا﴾ أي : تركنا وخلينا بينه وبينه ، ولم يكن منا حاجز له عنه ، ولا مانع له منه . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿وإنهم ليصدونهم﴾ أي : وإن الشياطين ليصدون العاشين ﴿عن السبيل﴾ عن طريق الهدى والحق ﴿ويحسبون﴾ أي : الكفار ﴿أنهم مهتدون﴾ فيما زينه لهم الشيطان ، وذكر الكناية عن الإنسان والشيطان بلفظ الجمع ، لأن قوله

قوله ﴿وإنهم ليصدونهم عن السبيل﴾ يدل على أن القرين في الدنيا ؟ قلنا : هكذا قال بعضهم ، غير أن شيخنا أبا علي يختار أن يكون في الآخرة ، وإليه ذهب القاضي ، والكلام يحتمل أن يكون بعضه خيرا عما ينالهم في الآخرة ، وبعضه عن أحوال الدنيا

: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا﴾ يفيد الجمع ، وإن كان اللفظ عن الواحد ، ثم عاد إلى لفظ الواحد فقال : ﴿حتى إذا جاءنا﴾ قرئ بضمير الواحد للعاشي فقط ، وقرئ بضمير الاثنين له وللشيطان ، أي : لا يزال ، أو لا يزال في الضلالة إلى وقت الحجيء ، إلى جزائنا في الآخرة ﴿قال﴾ العاشي لشيطانه ، لما رأى من الشقاء بسببه : ﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾ أي : المشرق والمغرب ، فغلب المشرق على المغرب ؛ لأن في المشرق وجود الشمس فهو أقوى من موضع ذهابها ، ومعناه تباعدهما ، والأصل بعد المشرق من المغرب ، والمغرب من المشرق ، وقيل : أراد بالمشرقين ما بين مشرق الشتاء ، ومشرق الصيف ، والصواب الأول ؛ لأن العرب تجمع الأول على تسمية أشهرهما ، كما قيل : العمران والقمران ، ومن عادة العرب تسمية الشئيين المتقابلين باسم أحدهما ، قال الفرزدق :

لنا قمرها والنجوم الطوالع

يريد الشمس والقمر ، ويقولون للكوفة والبصرة : البصرتان ، وللغداة والعصر : العصران ، وللماء والتمر : الأسودان .

ثم قال تعالى حاكيا قول العاشي ﴿فبئس القرين﴾ أي : أنت يا شيطان .

قال الرازي : والمقصود من هذا الكلام بيان تحقير الدنيا ، وبيان ما في المال والجاه من المضار العظيمة ، وذلك لأن كثرة المال والجاه تجعل الإنسان كالأعشى عن مطالعة ذكر الله ، ومن صار كذلك صار جليسا للشيطان ، ومن صار كذلك ضل عن سبيل الهدى والحق ، وبقي جليس الشيطان في الدنيا ، وفي القيامة ، ومجالسة الشيطان حالة توجب الضرر الشديد في القيامة ، بحيث يقول الكافر : ﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ فثبت بما ذكرنا أن كثرة المال والجاه توجب كمال النقصان والحرمان في الدين والدنيا .

(١) ثم قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ ﴾ هذا كلام من الله ، أي : يقال لهم

يوم القيامة توبيخا : لن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب أنتم والشياطين كما ينفع الواقعين في الأمر الصعب اشتراكهم فيه للتعاون في تحمل أعبائه ؛ لأن كلا في عذاب لا تبلغه طاقته ، ولا تنفعه مشاركة مثله ، وذلك معنى قوله : ﴿ أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ فاعل ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ ﴾ قال المبرد : منعوا من روح التأسي الذي من شأنه تسهيل المصيبة ، والسبب فيه أن الناس يقولون : إن المصيبة إذا عمت هانت ، قالت الخنساء في هذا المعنى :
ولولا كثرة الباكين حـولي على إخوانهم لقتلت نفسي
ولا يكون مثل أخي ولكن أعزي النفس عنهم بالتأسي

فبين تعالى أن حصول الشركة في ذلك العذاب لا يفيد التخفيف ، كما كان يفيد في الدنيا ، ويجوز أن يكون فاعل ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ ﴾ ضمير التمني ، و ﴿ أَنْكُمْ ﴾ تعليل مجرور بلام مقدرة ، أي : ولن ينفعكم قولكم : ﴿ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ لأنكم في العذاب مشتركون أنتم وقرناؤكم ، ويقويه قراءة ابن عامر بكسر ﴿ إِنْكُمْ ﴾ أي : لن ينفعكم ثمينكم ؛ لأن حقكم أن تتركوا أنتم وشركاؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه وهو الكفر .

واعلم أنه تعالى لما وصفهم بالعشى وصفهم بالصمم والعمى فقال تعالى : ﴿ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ كان ﷻ يجد ويكد روحه في دعاء قومه ، ولا يزيدهم إلا تصميما على الكفر ، فأنكر عليه سبحانه بقوله : ﴿ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ ﴾ إنكار تعجيب من أن يكون قادرا على هدايتهم ، وأراد

(١) إلى هنا انتهى ما نقله عن الرازي ، انظر تفسير الرازي ٢٧/٢١٣ .

تعالى أنه لا يقدر على ذلك إلا هو وحده على طريق الإلجاء ، وشبههم في عدوهم عن الإصغاء إلى استماع الحق بالصم ، وفي عدم نظرهم إليه بالعمي ، ووصفهم بأنهم في ضلال عن الحق مبين ، لا أبين منه .

ولما بين تعالى أن دعوته لا تؤثر في قلوبهم قال : ﴿ فإما نذهين بك ﴾ أي : نقبضك قبل أن ننصرك عليهم ﴿ فإنا منهم منتقمون ﴾ ^(١) في الآخرة ﴿ أو نرينك الذي وعدناهم ﴾ في حياتك من العذاب النازل بهم ، وهو يوم بدر قاله ابن عباس ﴿ فإنا عليهم مقتدرون ﴾ أي : هم تحت قدرتنا لا يفوتونا ، وقوله : ﴿ فإما ﴾ زائدة .

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره هذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ أجعلنا من دون الرحمان آلهة يعبدون ﴾ اللغة : الذهاب : ضد المجيء ، وهو زم ، ومتعد ، بالياء ، والهمزة ، يقال : ذهب به ، وأذهبته ، والانتقام : المعاقبة على شيء تقدم منه ، وكرهه ، وأصله من النقمة ، وهو العقاب ، ونقمت الأمر أنكرته ، والاعتذار : القدرة على الشيء ، غير أن في الاعتذار مبالغة ، اقتدر اعتذارا فهو مقتدر ، والقدرة كلها مختلفة متماثل فيها ، و متضاد ، ومقدوراتها محصورة في الجنس ، وفي كل وقت في محل واحد من جنس واحد ، والله تعالى قادر لذاته ، تنحصر مقدوراته بوجه ، ورجل ذو قدرة ، ومقدرة ، أي : قادر .

الإعراب

النون في قوله ﴿ نذهين ﴾ نون التأكيد ﴿ أو نرينك ﴾ عطف على قوله ﴿ فإما نذهين ﴾ وهو حيزم ، إلا أن الحيزم لا يظهر فيه لأجل النون الثقيلة حركت ما قبلها لسكونها ، ولئلا يلتقي ساكنان ﴿ آلهة ﴾ جمع اله .

الترسل

عن ابن عباس كان النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل لينصروه ، فإذا قالوا لمن الملك بعدك ؟ أمسك لأنه لم يوح إليه حتى نزلت هذه الآية ﴿ وإنه لذكر لك ﴾ فكان بعد ذلك إذا قيل له : لمن الملك بعدك ؟ قال لقريش ، وبييونه ، وقبلته الأنصار على ذلك .

المعنى

ثم زاد في توبيخهم الوعيد ، فقال سبحانه ﴿ فإما نذهين بك بأن نغيتك فإنا منهم منتقمون ﴾ أي : نعاقبهم على فعلهم ﴿ أو نرينك الذي وعدناهم ﴾ أو نتوفيتك حتى ترى ما يفعل بهم من العذاب الذي وعدناهم ، قيل : أراد المشركين والاستعلاء عليهم ، وقيل : هو القتل ، والأسر يوم بدر ، فإنهم مع كثرتهم ، ووفور عددهم

، والنبي عليه السلام في قلة قتلهم وأسرهم ، وظهر مصداق الموعود . وقيل: أراد به أهل الإسلام ، وقد كان بعد نبي الله نعمة شديدة أكرم الله بدينه بأن يزيد في أمته ، ولم ير في أمته إلا ما قر به عينه عن الحسن ، وقتادة فإنما على هلا كههم ، وتبقيتهم مقتدرون ، قادرون ﴿ فاستمسك ﴾ أي : تمسك ﴿ بالذي أوحى إليك ﴾ من القرآن والشرائع علما وعملا ﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾ طريق واضح ﴿ وإنه ﴾ يعني القرآن ﴿ لذكر لك ولقومك ﴾ قيل : شرف بك عن ابن عباس والسدي ، وقيل : في التمسك به والعمل بمقتضاه شرف لك ، ولمن عمل مثل عملك ، وقيل : ذكر لك تذكر به أمر دينك ، وقيل : أمر ووعظ ذكركم به عن أبي مسلم ، ولقومك : قيل : لجميع أمتك عن الحسن ، حيث عرضهم به للشرف ، وذكرهم بالمواضع ، وقيل : لقومك ، من قریش حيث كُتبت منهم ، وأنزل بلغتهم ، وقيل : للمؤمنين حيث تمسكوا بيه ، فشرفوا في الدارين ﴿ وسوف تسألون ﴾ عما تفعلون من قبوله ، والعمل به ، ومن الإعراض عنه والرد ، وقيل : وسوف تسألون من هذه النعمة ، وقيل : عما لزمكم من القيام بحقه والعمل به ، وقيل : تسألون عن أعمالكم وتجازون عن أبي علي ﴿ وأسأل ﴾ اختلفوا في المخاطب به ، قيل : النبي ﷺ وكان في ابتداء النبوة ، وقيل : النسي ﷺ ولكن المراد إقامة الحجة على غيره ، وقيل : المخاطب به المشركون المنكرون للتوحيد ، واختلفوا في المستول ، قيل : هم مؤمنوا أهل الكتابين عن ابن عباس ، والحسن ومجاهد ، وقتادة والضحاك والسدي ومقاتل ، قالوا : وهي قراءة ابن مسعود ﴿ وأسأل الذي أرسلنا رسلا من قبلك ﴾ وتقديره سل أمم من أرسلنا من قبلك ، وقيل : المستول هم أهل الكتاب أمم الأنبياء ، وإن كانوا كفارا ، لأن تواتر خبرهم تقوم به الحجة عن أبي علي ، وأراد أن يخبروا المشركين بأن الأنبياء دعوا إلى التوحيد ، فكيف ينكرون ذلك ، وقيل : المستول الأنبياء أنفسهم ، وجمعوا له ليلة أسري به إلى بيت المقدس عن سعيد بن جبير ، وابن زيد ، وقيل : أراد سل عن أرسلنا ، وعن كتبهم ، وآثارهم ، كقوله ﴿ إن العهد كان مسؤلا ﴾ أي : مسؤلا عنه عن أبي مسلم ، أي : ارجع إلى إخبار الأنبياء وكتبهم ، وآثارهم ، هل كان فيه عبادة الأصنام ، وقيل : المستول جبريل أي : سل من أرسلناه ، وأقيم مقام إلى . . . الحجة — وقيل : المراد بالسؤال المطالبة بالحجة ، يقال : سألت فلانا حقي أي : طالبته به ، أي : طالبهم بالحجة عن تصحيح قولهم ، وقيل : ليس المراد السؤال ، وإنما أراد تقرير التوحيد في النفوس ، بذكر اجتماع الرسل على التوحيد ﴿ من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ أي : أمرنا بعبادة غيره ، هو استفهام ، والمراد الإنكار ، لأن لم يبعث نبيا ، إلا ودعا إلى التوحيد ونهى عن غيره

الأحكام

يدل قوله ﴿ فإما نذهبن بك ﴾ أن المعلوم قد يكون مطلقا ، وقد يتعلق بشرط ، فأعلم تعالى أنه لو فعل بهم في حياتهم كيف يكون ، والعلم أنه يفعل كيف كان يكون ، لأنه بين أنه منتقم منهم في حياته ، فإن لم ينتقم

واعلم أن هذا الكلام يفيد كمال التسلية للرسول ﷺ لأنه تعالى بين أنه لا تؤثر فيهم دعوته ، واليأس إحدى الراحةين .

ثم بين أنه لا بد وأن ينتقم لأجله منهم ، إما حال حياته ، أو بعد وفاته ، وذلك أيضا يوجب التسلية فبعد هذا أمره أن يتمسك بما أمره الله تعالى فقال : ﴿ فاستمسك بالذي أوحى إليك ﴾ أي : سواء عجلنا لك الظفر ، أو أخرناه ، أي كن عاملا به ﴿ إنك على صراط مستقيم ﴾ أي : ثابت وهو دين الإسلام ، الذي لا يحيل عنه إلا ضال .

ولما بين تأثير التمسك بهذا الدين في منافع الدين بين أيضا تأثيره في منافع الدنيا فقال : ﴿ وإنه لذكر لك ﴾ ضمير ﴿ إنه ﴾ لما أوحى ، أي : فاستمسك بالذي أوحى ، وإن الذي أوحى إليك لذكر لك ولقومك .

قال الهادي عليه السلام : الذكر الذي له ﷺ ولقومه فهو كتابه ووحيه ، الذي نزل على رسوله . اهـ

أي : شرف لك ولهم ، ويحتمل أن يكون أراد لتذكير وموعظة ﴿ ولقومك ﴾ أي : عشيرتك وأقاربك ، قيل : قومه : قريش ، وقيل : العرب قاطبة ، وقيل : أمته الذين آمنوا به .

قال الرازي : واعلم أن هذه الآية تدل على أن الإنسان لا بد وأن يكون عظيم الرغبة في الثناء الحسن ، والذكر الجميل ، ولو لم يكن الذكر الجميل أمرا مرغوبا فيه لما من الله [به] على محمد ﷺ حيث قال : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ ولما طلبه إبراهيم عليه السلام حيث قال : ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ ولأن الذكر

فبعد وفاته ، ويدل قوله ﴿ وإنه لذكر لك ﴾ أن القرآن يعرف به الأحكام ، وتدلل على حدث الكلام لأن السؤال كلام ، ويدل قوله ﴿ واسأل ﴾ على جواز الرجوع إلى قول الغير للاحتجاج على الخصم .

الجميل قائم مقام الحياة الشريفة ، بل الذكر أفضل من الحياة ، لأن أثر الحياة لا يحصل إلا في مسكن ذلك الحي ، وأما أثر الذكر فإنه يحصل في كل [مكان وكل] زمان^(١) ثم قال تعالى : ﴿ وسوف تسألون ﴾ يوم القيامة عن القيام بحقه ، وشكر النعمة عليه قال في التجريد : في السؤال قولان ، أحدهما : عن القرآن وما عملتم به ، والثاني : عموم كل عمل وترك .

قال الهادي عليه السلام : يعني بالسؤال عن من أعرض عن الحق ، وعن الذكر وقبوله يسأل بأي حجة كذب وصدق ، وبأي معنى أعرض عن الحق . (اهـ) فيسأل سؤال توبيخ .

واعلم أن السبب الأقوى في إنكار الكفار لرسالة محمد ﷺ ولبغضهم له أنه كان ينكر عبادة الأصنام ، فبين تعالى أن إنكار عبادة الأصنام ليس من خواص دين محمد ﷺ ، بل الأنبياء والرسل كانوا مطبقين على إنكاره فقال سبحانه : ﴿ واسأل ﴾ يا محمد ﴿ من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ أي : أوثاناً يستحقون العبادة . ثم قال في البرهان : يعني واسأل كتب الرسل^(٢) التي جاؤا بها ، فإذا سأل الكتب فكأنه سأل الأنبياء . اهـ

لأن سؤال النبي ﷺ عن الأنبياء الذين كانوا قبله ممتنع ، فسأله إياهم مجاز عن النظر في أديانهم وكتبهم ، هل جاءت عبادة الأوثان في ملة نبي من الأنبياء ؟ وإذا كان هذا كالأمر المتفق عليه بين كل الأنبياء والرسل ، وجب أن لا يجعلوه سبباً لبغض محمد ﷺ .

(١) انظر تفسير الرازي ٢٧/٢١٥ ، وما بين أقواس الزيادة من الرازي .

(٢) — ما بين القوسين ساقط من أ ، وثابت في ب .

وقيل : جمع له ﷺ الأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس ، وقيل له : سلمهم ، فلم يشك ولم يسأل^(١) .

قلت : والأول هو تفسير أئمتنا عليهم السلام ، وفي ذلك يقول الهادي إلى الحق عليه السلام : معناه : فهو أسأل كتبهم وافتش أخبارهم ، وأسأل عما فرضنا عليهم مما أتوا به داعين ، فانظر هل تجد في هذه الكتب التي أتوا بها منا شيئاً ، مما عليه من أشرك بنا ، واتخذ آلهة من دوننا ، وعبد شيئاً من دون عبادتنا ، فلن تجد ذلك أبداً في شيء من كتبنا ، ولا مما جاءت به رسلنا ، وإنما ذلك خطأ من فاعله ، واجترأ ممن يعبد شيئاً من دون خالقه ، وقد نهاهم سبحانه عن عبادة غيره ، وأمرهم بالعبادة له . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾^(٢) هي المعجزات ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ هم أشراف قومه ﴿ فقال إني رسول رب العالمين ﴾ إليكم وجوابه

(١) قال عطاء عن ابن عباس : (لما أسري به ﷺ إلى المسجد الأقصى بعث الله له آدم وجميع المرسلين من ولده فأذن جبريل ثم أقام ، فقال : يا محمد تقدم فقبلهم ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة ، قال له جبريل عليه السلام : وأسأل يا محمد ﴿ من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ الآية فقال ﷺ : (لا أسأل لأنني لست شاكاً فيه) . تفسير الرازي ٢٧/٢١٦ .

(٢) قال الحاكم الحشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ فجعلناهم سلفاً ﴾

القراءة

قرأ الحسن ويعقوب وأبو حاتم ، وحفص عن عاصم ﴿ أسورة ﴾ بغير ألف ، وسكون السين ، على جمع السوار ، وعن ابن مسعود ﴿ أساور ﴾ ، وعن أبي بن كعب ﴿ أساور ﴾ وقراءة القراء ﴿ أساورة ﴾ بلألف وفتح السين ، وبالحاء ، وهي جمع الأسورة ، وأسورة جمع سوار ، فهو جمع الجمع ، قال أبو عمرو : واحد الأساورة والأسوار أسوار ، وهي لفظة في السوار . قرأ حمزة والكسائي ، والأعمش ، ويحيى ﴿ سلفاً ﴾ بضم السين واللام ، قال القراء : هو جمع سليف ، قال أبو حاتم : سلف وسلف ، نحو خشب وخشب ، وعن القاسم بن مغني : تقول العرب : مضى سليف من الناس ، وعن ابن مسعود ﴿ سلفاً ﴾ بضم السين وفتح اللام ، وهي جمع سلفة ، نحو طرفة وطرف ، وغرفة وغرف ، وقرأ أهل الحجاز والشام والبصرة وعاصم بفتح

السين واللام جمع سالف ، مثل حارس وحرس ، وراصد ورصد ، وفتح الياء من ﴿تحتي﴾ نافع وابن كثير ، وأبو عمرو ولم يفتح ابن عامر وعاصم ، وحمزة والكسائي .

اللفظة

النكت ، يفتح النون والنقض واحد ، وهو مصدر نكت نكتا ، والنكت والنقض بكسر النون الاسم ، وهو ما نكت من نسائج الصوف ، والجمع أنكاث ، ومنه من بعد قوة أنكاثا . استخف قومه : حملهم على الخفة ، والأجل ، يقال : استخفه من رأيه إذا حمله على الجهل ، وأزاله عما كان عليه من الصواب ، واستخفه ، وأخفه : أزال حلمه ، وحمله على الخفة . والأسف : الغضب ، والأسف الحزن ، يقال : أسف يأسف أسفا ، أي : تغضبه فغضب ، وأحزنه فحزن ، والسلف نقيض الخلف ، وهو المتقدم على غيره ، قبل مجيء وقته ، ومنه السلف في البيع .

الإعراب

أم بمعنى بل ، وليس يعطف عند الأكثر ، وعن الفراء ... الوقف على قوله ﴿أم﴾ على تقدير أتصرون أم تبصرون ، وتقام الكلام عنده — ثم — أبدا فقال ﴿أنا خير﴾ على الإخبار ، وقيل : أم بمعنى الاستفهام ، وفيه محذوف ، أي : أنا خير أم موسى ، وقيل : أم عطف على المعنى تقديره ، لي ملك مصر ، وهذه الأنهار ، فهذا تعرفون فضلي ، وأنا خير من هذا عن أبي مسلم . ﴿فلو ألقى﴾ ه . ﴿مقترنين﴾ أي : في حال الاقتران

النظم

يقال : كيف تتصل قصة موسى بما قبلها ؟ قلنا : قيل : لما تقدم السؤال عن أحوال الرسل ، وما جازا به اتصل به حديث موسى وعيسى ، لأن أهل الكتابين ، إليهما ينسبون ، وكتايبهما أظهر وأشهر ، وقيل : لما تقدم ذكر تكذيب قومه له ، ذكر حديث موسى تسليية له ، أي : حالك مع قومك كحال موسى مع قومه ، وآل الأمر إلى ظهوره ، كذلك أمرك ، وقيل : تقديره ليست بأمر مكذوب ، وقد كذب موسى والأنبياء قبله .

المعنى

ثم ذكر حديث موسى عليه السلام فقال سبحانه ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ أي : بالحجج والمعجزات ﴿إلى فرعون وملائه﴾ أي : الجماعة من قومه ، وقيل : ليس بعقوبة ﴿فقال إني رسول رب العالمين فلمبا جاءهم بآياتنا﴾ أي : أظهر معجزاته ، وهو اليد والعصى ﴿إذا هم منها يضحكون﴾ استهزاء واستخفافا ، وهذا فعلوه بعد غيبة موسى تلبسا على العوام ، وإلا ففي حال ما رأوا لحقهم من الخوف والدهش ما لم يمكنهم معه الاستهزاء ﴿وما نريهم من آية﴾ معجزة ﴿إلا هي أكبر من أختها﴾ قريتها وصاحبها ، قيل : الحس عند الإدراك لها لما يقول من أمره ، فإن الأولى ماضية ، والثانية حاضرة ، وقيل : أهول في صدورهم ، وأعجب في أبصارهم من التي مضى قبلها ﴿وأخذناهم بالعذاب﴾ وقيل : بالسنين ، والظوفان والجراد والقمل

والضفادع ، والدم ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي : يرجعون إلى الحق عن الباطل ﴿وقالوا﴾ يعني قوم فرعون حين رأوا العذاب شملهم ، وأيقنوا أن فرعون يقدر على كشفها رجعوا إلى موسى متضرعين ﴿وقالوا يا أيها الساحر﴾ قيل : كان الساحر عندهم العالم ، ولم يكن صفة دم عن أبي علي ، وقيل : قالوا له ذلك لجهلهم بصفته ، وقيل : قالوه استهزاء كقوله ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ عن الحسن ، وقيل : بل جرى على ألسنتهم ، على عادتهم فيه عن الزجاج ، وقيل : أرادوا تعظيمه لأن السحر كان عندهم علما عظيما ، فكأنهم قالوا : أيها الكامل في علمه ، الحاذق في عمله مدحا له ، وتوقيرا ، لأنه وقت حاجتهم ، وقيل : معناه يا أيها الذي غلبنا سحره ، كقول العرب خاصمته فخصمته ، أي : غلبته ، وحاججته فحججته ، وقيل : بل قاله خطأ منهم ، قلنا : فنبههم موسى رجاء أن يؤمنوا ، وقيل : كانوا ينسبون إلى السحر ، في كل معجزة ، أتى بها فصار ذلك اسما يعرف له ، والأصح أنهم أرادوا به تعظيمه ، لأنهم جاؤه متضرعين ، فكأن لا يليق بتلك الحال الاستهزاء ، والخطيئة والمخالفة ﴿أدع لنا﴾ أي : لأجلنا ﴿ربك بما عهد عندك﴾ أي : أخبرك إذا أمنا كشف العذاب عنا عن مجاهد ، فسله يكشف عنا العذاب ﴿إننا لمهتدون﴾ نؤمن بما تدعو إليه ، ونفتدي بهداك ﴿فما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكتون﴾ عهددهم مصرين على الكفر ، وفيه حذف ، وهو أن موسى سأل الله تعالى ذلك ، فكشف ، فلما كشف نكتوا ، فنأدى فرعون في قومه لما رأى أمر موسى ، وأنه يظهر ، ويعلو خاف على مملكته ، فقصد الخداع ، فخطب الناس بعدما اجتمعوا ، وأظهر التفاضل ، بينه وبين موسى ، فيما يتعلق بأسباب الدنيا ، جهلا منه ومنهم ، فقال ﴿أليس لي ملك مصر﴾ وأراد البسطة في المال والملك ، ولم يفكروا أنه كان لغيره فانتقل إليه ، وأنه سينتقل إلى غيره ، وأنه لا يدل على فضل ﴿وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ قيل : أنهار النيل ، ومعظمها نهر الملك ، ونهر رباط ، ونهر طولون ﴿تجري من تحتي﴾ قيل : في جناتي وبساتيني ، وقيل : حولي عن ابن عباس ، وقيل : في قبضي وملكتي ، وقيل : بأمري ، وقيل : كان النيل يجري تحت قصره ، بين يديه ، وسريره ، ولم يعلم الجاهل أن تلك النعم خلقها الله تعالى ، ومكن منها فهو المستحق للعبادة دونه ﴿أفلا تبصرون﴾ قيل : أنتم بصراء تعلمون حالي وحالته ﴿أم أنا خير﴾ يعني أنا خير من موسى ، وهو مهين ، قيل : معناه بل أنا خير ، وقيل : أنا خير أم هو ، وهو مهين ، قيل : ضعيف حقير عن قتادة ، والسدي ، ليس له قوم و مال ، و ملك ، وقيل : مهين فقير يمتهن نفسه في جميع ما يحتاج إليه ، ليس له من يكفيه أمره ﴿ويكاد يبين﴾ يفصح بكفه ، وحججه ، قيل : للثغة في لسانه عن الزجاج ، وقيل : كان في لسانه ثقل ، فنسبه لما كان عليه أولا ، عن الحسن ، وقيل : كان في لسانه لثغة فرفعها الله تعالى ، وبقي ثقل في لسانه ، عن أبي علي ، وقيل : بل كذب عليه تليسا على العوام ، وقيل : قال ذلك استقل بكفه ، وقيل : سماه مهينا ، وغير مبین استخفافا حقيقة — وإلا — فهو كان من أكابر بني إسرائيل ، ويدعي النبوة ، ويظهر المعجزة ، وقد أفصح وبين ، وعجب ... أن موسى عليه السلام دعاهم إلى عبادة الله تعالى ، وأظهر الحق ، وهو أورد حديث موسى ، وذكر ما ينفرهم عن اتباعه لفقره ، وأعجب منه

... الفضل بأسباب الدنيا ، وموسى ... الفضل بأسباب الدين ، ولو عقلوا لقالوا: هذا الذي تذكر وتعد يوجب كونك محقا ، ولكن ليس عليهم فضلو ﴿فلو ألقى عليه أساورة﴾ يعني : هلا إن كان صادقا ألقى عليه أساورة ﴿من ذهب﴾ تكون دلالة لسيادته ، فلذلك قال هذا عن مجاهد ، والسوار الزينة التي تلبس في اليد ، ﴿أو جاء معه الملائكة﴾ قيل : إنما ذكر أمر الملائكة لما كان يسمع من موسى من ذكرهم تكذيبا له عن أبي مسلم ﴿مقترنين﴾ قيل : متتابعين عن قتادة ، وقيل : يعاون بعضهم بعضا عن السدي ، وقيل : مجتمعين يمشون معه عن مجاهد ، يعني يشهدون له بالرسالة ، ويؤدون معه ، وهذا من اقتراح الجهال ، فإن الملك إن كان لا يرى فلا فائدة فيه ، وإن كان يرى فلا بد من معجز يعلم أنه ملك ، فيكفي المعجز في معرفة الرسول عن الملك ﴿فاستخف قومه﴾ يعني القبط وأتباعه ، وقيل : حملهم على الخفة والجهل ، وقيل : وحدهم جهالا ، خفيفي العقول ، ولولا ذلك ما أطاعوه ، وقيل : استخفهم أي : خفوا في طاعته ﴿فأطاعوه﴾ وقيل : قبلوا منه محاريقه ، ولم يقبلوا من موسى حقايقه ، وهكذا حال العوام الجهال ، في كل زمان ، ﴿إنهم كانوا قوما فاسقين﴾ خارجين عن طاعة الله تعالى إلى الكفر ﴿فلما أسفونا﴾ قيل : أغضبونا عن ابن عباس ومجاهد وقاتدة ، والسدي ، وابن زيد ، والله تعالى يغضب على العصاة ، ويرضى عن المطيعين ، وقيل : أسفوا رسلنا ، وأضافهم إلى نفسه ، تعظيما لشأنهم ، والأسف الحزن ، والتأسف يجوز على الله تعالى ، وقيل : الأسف غضب بعد طول الحلم والإمهال ، ففيه زيادة صفة على الغضب ، ولذلك قال تعالى في قصة موسى ﴿غضبنا أسفا﴾ وقيل : خالفونا عن الحسن بن الفضل ، وليس بالظاهر في اللغة ، إلا أن يحمل على أنهم خالفوا أمرنا ، وفعلوا ما يوجب الأسف ، وفي هذا تعسف ﴿انتقمنا منهم﴾ أي : عاقبناهم بسوء فعلهم جزاء ، وقيل : انتقمنا لأولياننا منهم ﴿فأغرقتناهم أجمعين﴾ لم ينج منهم أحد ﴿فجعلناهم سلفا﴾ قيل : سلفا لكفار هذه الأمة إلى النار ، ولمن هؤلاء مثل حالهم يتقدمون إليها ، وقيل : سلفا يعتبر بهم ﴿ومثلا﴾ وعبرة وموعظة عن قتادة ، والسدي ﴿للاخرين﴾ قيل : لمن جاء بعدهم ، وقيل : لأمة محمد ﷺ يتعظون به .

الأحكام

يدل قوله ﴿لعلهم يرجعون﴾ أنه أراد من الجميع الرجوع إلى الحق ، فيبطل قول المخسرة في الإرادة والمخلوق ، لأنه لو خلق فيهم الكفر وأرادهم لم يكن لبعثة الأنبياء وإظهار المعجزات فائدة ، بل كان عبثا ، فتعالى الله عن ذلك ، ويدل قوله ﴿إننا لمهتدون﴾ أنهم يقدرُونَ على الاهتداء ، ويدل قوله ﴿ينكثون﴾ أن النكث فعلهم ، ويدل قوله ﴿أليس لي ملك مصر﴾ أن القوم كانوا جهالا اعتقلوا الفضل برتبة الدنيا ، ولم يعلموا أنها قسمة وليست باستحقاق ، وعن أي : الدرداء ﴿لو كانت الدنيا ترن عند الله جناح بعوضة لما سقى منها فرعون شربة﴾ ويدل قوله ﴿سلفا ومثلا﴾ على وجوب التفكير في أحوالهم ، والاتعاظ بهم ، لئلا يسلك طريقهم ، فينال ما نالهم .

محذوف^(١) دل عليه قوله: ﴿فلما جاءهم بآياتنا﴾ المصدقة له ﴿إذا هم منها يضحكون﴾ فاجؤا وقت ضحكهم منها^(٢)، استهزؤا بها، وسموها سحرا، ومعنى مفاجئهم مبادرتهم إلى الضحك حين جاءهم.

قال الرازي: واعلم أن المقصود من إعادة قصة موسى عليه السلام وفرعون في هذا المقام تقرير للكلام الذي تقدم، وذلك لأن كفار قريش طعنوا في نبوة محمد ﷺ بسبب كونه فقيرا علم المال والجاه، فبين الله تعالى أن موسى عليه السلام — بعد أن أورد المعجزات القاهرة الباهرة التي لا يشك في صحتها عاقل — أورد فرعون عليه هذه الشبهة الذي ذكرها كفار قريش، فقال: إني غني، كثير المال والجاه، ألا ترون أنه حصل لي ملك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحتي، وأما موسى فإنه فقير مهين، وليس له بيان ولسان، والرجل الفقير كيف يكون رسولا من عند [الله إلى] الملك الكبير الغني، فثبت أن هذه الشبهة التي ذكرها كفار مكة، وهي قولهم: ﴿لولا أنزل هذه القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ قد أوردتها بعينها فرعون على موسى، ثم [إننا] انتقمنا منهم فأغرقناهم، والمقصود من إيراد هذه القصة تقرير أمرين، أحدهما: أن الكفار والجهال أبدا يحتجون على الأنبياء بهذه الشبهة الركيكة، فلا تبال بها، ولا تلتفت إليها، والثاني: أن فرعون على غاية كمال حاله في الدنيا صار مقهورا باطلا، فيكون الأمر في حق أعدائك هكذا، فثبت أنه ليس المقصود من إعادة هذه القصة عين هذه القصة، بل المقصود تقرير الجواب عن الشبهة المذكورة، وعلى هذا فلا يكون هذا تكريرا للقصة البتة، وهذا من نفائس

(١) المحذوف: هو مطالبهم إياه بإحضار البينة على دعواه وإبراز الآية. وقد دل عليه بقوله تعالى: ﴿فلما جاءهم بآياتنا﴾.

(٢) هذا تبين معنى المفاجأة، كأنه قيل: كيف جاز أن يجاب عن لما إذا التي تفيد المفاجأة؟ قلنا: لأن فعل المفاجأة معها مقدر، كأنه قيل: فلما جاءهم بآياتنا فاجؤا وقت ضحكهم.

الإيجاز^(١) . والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها ﴾ أراد من الآيات التسع ، التي هي : الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وسائرهن ، وستأتي إن شاء الله تعالى ، والمعنى : أن صفة كل واحدة منها يقال فيها : هي أكبر من أختها ، وليس المراد أن كل واحدة أكبر من كل واحدة ؛ لأنه تناقض يؤدي إلى أن كل واحدة فاضلة مفضولة في حالة واحدة ، وإنما الغرض أنهن موصوفات بالكبر ولا يكدن يتفاوتن فيه كالعادة في الأشياء المتقاربة ، فتارة يفضل هذا ، وتارة يفضل ذاك ، وهذا كقوله :

من تلق منهم تقل لاقت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري^(٢)
والمراد ﴿ بأختها ﴾ التي تقدمتها ، فكأنه قال : وما نريهم من آية إلا هي أكبر من التي تقدمتها لانضمامها إليها .

ثم قال تعالى : ﴿ وأخذناهم بالعذاب ﴾ بالقحط الذي أصابهم ، والجراد والطوفان وغيرها ﴿ لعلمهم يرجعون ﴾ أي : إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان .
ثم قال تعالى : ﴿ وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ عنوا به موسى صلى الله عليه وآله ، إنما سموه ساحرا ، مع قولهم : ﴿ إنا لمهتدون ﴾ لأنهم وعدوا بالاهتداء في المستقبل ، وهم في حال النداء غير مهتدين ، وقيل : الساحر عندهم : العالم الماهر لاستعظامهم علمه .

(١) في الرازي (وهذا من نفاث الأبحاث) وما بين أقواس الزيادة من الرازي ، وقد أصلحنا اللفظ منه . انظر تفسير الرازي ٢٧/٢١٧ .

(٢) وهذا أيضا مثل قول الخنساء في وصف نبيها : هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها .

﴿ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾ أي : بعهدك عندك من أن دعوتك مستجابة ، أو بما عهد عندك من النبوة ، وبما أوصى إليك ، كما قال عز وجل : ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان﴾ ^(١) يريد ألم أوص إليكم ، والعهد على وجوه آخر سنذكرها إن شاء الله تعالى .

ثم قالوا : ﴿إننا لمهتدون﴾ هداك الذي تدعونا إليه ، ووجه الجمع بين هذا وبين تسميتهم له ساحرا ، والساحر لا يهدي هو أنهم وعدوه الاهتداء وعدا منويا لإخلافه وهو وعد مشروط فيه أن يكشف عنهم العذاب الذي في الأعراف ، فلا منافاة بين تسميتهم له ساحرا ، وبين قولهم : ﴿إننا لمهتدون﴾ .

ثم بين تعالى أنه لما كشف عنهم العذاب نكثوا ذلك العهد فقال سبحانه : ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾ أي : فاجزأ النكث ، وخلفوا الوعد أول وقت كشف العذاب .

ولما حكى الله تعالى معاملة قوم فرعون مع موسى ، حكى أيضا معاملة فرعون معه فقال : ﴿ونادى فرعون في قومه﴾ أي : أمر من ينادي في بجامع قومه تعجيبا للناس ، وتشهيرا لعظمته ، أو جمع رؤساء قومه ونادى فيهم بنفسه ﴿قال يا قوم﴾ أي : رفع صوته قائلا يا قوم ﴿أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار﴾ يعني : أنهار النيل ^(٢) ، ومعظمها أربعة ، نهر الملك ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تنيس ﴿تجري من تحتي﴾ قيل : كانت تجري من تحت قصره ، وقيل : تحت سريره لارتفاعه ، وقيل : تحت يده ، أو تحت جناحه وبساتينه ﴿أفلا تبصرون﴾ كأنه قال : أتجهلون هذه العظمة في ملكي أفلا تبصرونها كأنكم لا أبصار لكم ، ولقد استعظم ملك مصر

(١) يس : ٦٠ .

(٢) أي : الأنهار المتفرعة من نهر النيل .

حتى ادعى لأجله الربوبية ، وهذا من جهله ، لأن حاصل الأمر أنه احتج بكثرة أمواله ، وقوة جاهه على فضيلة نفسه .

ثم قال : ﴿ أم أنا خير ﴾ أي : بل أنا خير ﴿ من هذا الذي هو مهين ﴾ .

وقال في التجريد : أم [هذه] متصلة لأن المعنى : أفلا تبصرون ، أم تبصرون ، إلا أنه وضع قوله : ﴿ أنا خير ﴾ موضع تبصرون ، لأنهم إذا قالوا له : أنت خير ، فهم عنده بصراء ، وهذا من إنزال السبب منزلة المسبب ، وقال أبو عبيدة ، وكثير من المفسرين : أم بمعنى بل من غير همزة ^(١) ، وقال الفراء وغيره من أهل المعاني : الوقف على قوله : ﴿ أم ﴾ وعنده تمام الكلام ، وفي الآية إضمار تقديره : أفلا تبصرون أم تبصرون ، ثم ابتداء فقال : ﴿ أنا خير ﴾ حكاه الثعلبي ^(٢) . ومعنى ﴿ مهين ﴾ حقير ضعيف يعني موسى عليه السلام .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى ﴿ مهين ﴾ أي : ليس له همة في الملك ، وكان يحسب تزهده في الدنيا عجزا ، ووهنا ، جهلا من عدو الله وظلما .

ثم قال : ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ في كلامه من الرتبة ، أي : العقدة التي كانت في لسانه ، والبعد عن فصاحة الأنبياء عليهم السلام ، وكانوا كلهم بلغاء .

فإن قيل : أليس موسى عليه السلام سأل الله أن يزيل الرتبة عن لسانه بقوله : ﴿ واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾ فأعطاه الله تعالى بقوله : ﴿ قد أوتيت سؤالك يا موسى ﴾ ؟ فكيف عابه فرعون بتلك الرتبة ؟ والجواب من وجهين : الأول : أن فرعون أراد بقوله : ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ حجته التي تدل على صدقه فيما يدعي ، ولم

(١) وعلى هذا فقد تم الكلام عند قوله : ﴿ أفلا تبصرون ﴾ ثم ابتداء فقال : ﴿ أم أنا خير ﴾ بمعنى : بل أنا خير .

(٢) وهذا كما تقول لغيرك : أأأكل أم .. أي : أأأكل أم لا تأكل ، تقتصر على ذكر كلمة أم إشارا للاختصار ، فكذا هنا .

يرد أنه لا قدرة له على الكلام ، والثاني : أنه عابه بما كان عليه أولا ، وذلك أن موسى كان عند فرعون زمانا طويلا في لسانه حبسة ، فنسبه فرعون إلى ما عهد إليه من الرتبة ؛ لأنه لم يعلم أن الله تعالى أزال ذلك العيب عنه .

ثم قال : ﴿ فليولا ألقي عليه أسورة من ذهب ﴾ أي : مسكا من الذهب ، وحلية من التبر ، تكون في الأيدي للنساء والملوك ، والله أعلم .

وأراد فرعون أنه لو كان نبيا لكان مسورا ؛ لأن ذلك دلائل الملك ، وكانوا إذا أرادوا تشريف الرجل سوروه وطوقوه بطوق من ذهب ، يقول : لو كان صادقا لجعل الله ذلك دليلا على ملكه ، أو أراد بإلقاء الأسورة عليه مقاليد الملك ، لا التسوير حقيقة .

ثم قال : ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ متابعين ، يشهدون له بالنبوة ، وقيل : أعضادا له وأنصارا ، وقال الزجاج : مقترنين ، أي : يمشون معه [فيدلون على صحة نبوته]^(١) .

﴿ فاستخف قومه ﴾ استغزهم وحملهم على الخفة ، وترك التدبر ، أي : استخف أحلامهم ، وحملهم على خفة الحلم بكيد وغروره ﴿ فأتاعوه ﴾ في تكذيب موسى ﴿ إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ أي : مجاوزين الغاية في الكفر .

﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾ أي : انتصرنا للدين وأهله ﴿ فأغرقناهم أجمعين ﴾ ومعنى ﴿ آسفونا ﴾ أغضبونا بكفرهم ، من أسف إذا اشتد غضبه ، وأسف الله : غضبه وعقابه^(٢) ، وأسف المخلوق : عرض حادث في قلوب المحدثين .

(١) ما بين القوسين تمام قول الزجاج . تفسير الرازي ٢٧/٢١٩ .

(٢) اعلم أن ذكر الأسف في حق الله محال ، فبين هنا معنى الأسف والغضب في حق الله ، والفرق بينه ، وبين أسف المخلوق .

ثم قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَافًا﴾ جمع سالف ، كخادم وخادم ، وقرأ حمزة والكسائي (سلفا) بضمين جمع سليف .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى ﴿سلفا﴾ أي : سالفين ، ومعنى سالفين أي ماضين ، قال عز وجل : ﴿عفا الله عما سلف﴾ ^(١) أي : عما مضى وتقدم وخلا .
المعنى : جعلناهم مثل من قد مضى من المهلكين ، أو جعلناهم قدوة للآخرين من الكفار يقتدون بهم في استحقاق مثل عذابهم ﴿ومثلاً﴾ من الأمثال ﴿للمتأخرين﴾ أي : حديثاً عجيباً عظيم الشأن ، سائراً مسيراً المثل في الناس ، يقال : مثلكم مثل قوم فرعون .

واعلم أنه تعالى ذكر أنواعاً كثيرة من كفرياتهم في هذه السورة وأجاب عنها بالوجوه الكثيرة ، فأولها : قوله : ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾ .
وثانيها : قوله : ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن إناثاً﴾ .
وثالثها : قوله : ﴿لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ .
ورابعها : قوله : ﴿لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ .
 وخامسها : قوله : ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾ .

[سبب النزول]

قال المفسرون : سبب الآية أنه ﷺ لما قرأ على قريش ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ ^(٢) قال عبد الله بن الزبير : يا محمد أخاصة لنا ولأهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال ﷺ : للكل ، فقال : خصمتك ورب الكعبة ، ألسنت تزعم أن عيسى بن مريم نبياً ، وتثني عليه وعلى أمه ، وقد علمت أن النصارى يعبدونها

(١) المائدة : ٩٥ .

(٢) الأنبياء : ٩٨ .

وعزير والملائكة يعبدون ، فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وأهلتنا معهم ، ففرحوا وضحكوا ، فسكت ﷺ فأُنزل الله : ﴿ إن الذين سبقتم لنا بالحسن ﴾ ^(١) الآية [ونزلت هذه الآية أيضا] .

قالوا : والمعنى لما ضرب ابن الزبير عيسى مثلاً ، وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى ﴿ إذا قومك ﴾ يا محمد ﴿ منه ﴾ من هذا المثل ﴿ يصدون ﴾ عن الحق ، بضم الصاد ، من أجل هذا المثل ، أي : يعرضون عنه ، وقرئ (يصدون) بكسر الصاد ، أي : يضحكون ، ﴿ وقالوا آهتنا خير أم هو ﴾ أي : عيسى ، أرادوا ليست بخير من عيسى ، فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آهتنا هينا ؛ لأنه أخف عندك .

[سبب النزول عند أهل البيت عليهم السلام]

قلت : وأحسن من هذه الرواية وأصح ، في سبب نزول هذه الآية ، ما رواه أئمتنا عليهم السلام ، من ذلك ما رواه الهادي إلى الحق عليهم السلام عن النبي ﷺ أنه قال لعلي عليه السلام ذات يوم : (يا علي لولا أن تقول فيك طوائف من أمي ما قالت النصارى في المسيح عليه السلام لقلت فيك مقالا ، لا تمر بمألاً إلا أخذوا من أثرك التراب ، ييغون بك البركة ، غير أنك يكفيك أن تكون مني بمثلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) فقال المنافقون لما أن سمعوا ذلك : ما رضي محمد أن يضرب لابن عمه مثلاً إلا عيسى بن مريم ، قالوا : والله لآهتنا التي كنا نعبدها خير منه ، يعنون علياً ، فأُنزل الله ما أنزل فيهم ، وهم الحارث بن حنظلة ، وأصحابه من المنافقين .

ثم أخبر الله سبحانه بأنهم إنما ذكروا هذا جدلاً وطلباً للتعنت ، لا إعظاماً لعيسى بن مريم صلى الله عليه ، ثم أخبر أن عيسى بن مريم عبد من عباد الله أنعم الله عليه ، فكيف لا يضرب الله به المثل لإخوانه المؤمنين . اهـ ومثل هذا ذكر الحسين بن القاسم عليه السلام .

ثم قال : ومعنى ﴿ وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ أي : قالوا فيما بينهم : آلهتنا خير أم علي بن أبي طالب .

ومن ذلك ما رواه في البلغة ، من طريق أهل البيت عليهم السلام ، وأصحاب الحديث أن النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام عند انصرافه من فتح خيبر : (لولا إني أخاف أن تقول طوائف من أمي فيك كما قالت النصارى في المسيح لقلت اليوم فيك مقالا فلا تمر بملا إلا أخذوا من تراب قدميك ، وفضل وضوئك يستشفون به ، ولكن حسبك أن تكون مني بمثلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)

وروي بلفظ (لولا أن تقول فيك طوائف من أمي) فقال المنافقون في ذلك ، فأنزل الله الآية .

ثم قال تعالى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ أي : ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الجدل والغلبة ، لا لطلب التمييز بين الحق والباطل ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصُمُونَ ﴾ مبالغون في شدة الخصومة ، عادتهم اللجاج .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ ﴾ أي : عيسى عليه السلام ﴿ كَسَاءِ الْعَبِيدِ ﴾ نعمنا عليه ﴿ بَخْلَقَهُ آيَةً مِنْ غَيْرِ أَبِي ، وَبِالنَّبُوءَةِ ﴾ وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴿ آيَةً عَجِيبَةً خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَبِي ، فَهُوَ كَالْمَثَلِ السَّائِرِ .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴾ قال في التحرير : في معناه قولان ، أحدهما : إنا قادرون على العجائب كما خلقناه من غير أب ، فنحن قادرون على أن نولد منكم يا رجال بني آدم ملائكة يخلقونكم في الأرض كما

يخلقكم أولادكم ، وثانيهما : لجعلنا بدلا منكم يا بني آدم ملائكة ، وأهلكناكم ، أو بدلا من كفار قريش ، و (من) هنا مثلها في قوله : ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ (١) .

وقوله : ﴿وإنه لعلم للساعة﴾ أي : وإن عيسى لشرط من أشراتها ، تعلم به ، سمي الشرط علما لحصول العلم عنده ، أي : يعلم به قرب مجيئها .
[نزول عيسى وصلاته بعد الإمام المهدي عليه السلام]

قال المهادي عليه السلام : يقول هبوطه إلى الأرض وظهوره دليل على قرب الساعة .
قال الحسين بن القاسم عليه السلام : المعنى فيما روي أن ظهور عيسى عليه السلام علم ودليل على الساعة ، إذا ظهر مع المهدي في آخر الزمان والله أعلم .
قال في البرهان : وفي قراءة أبي ﴿لذكر للساعة﴾ وذكر وعلم متقاربان في المعنى اهـ .
وقيل : إن الضمير في ﴿إنه﴾ للقرآن ، أي : يعلم به قيام الساعة ؛ لأن فيه الإعلام بقرها ، وفي الحديث (إن عيسى يتزل على ثنية في الأرض المقدسة يقال لها : أفيق ، وعليه ممصرتان — أي : ثوبان حمراوان — وشعر رأسه ذهين ، وبيده حربته يقتل بها الدجال ، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح ، والإمام يؤمهم فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد ﷺ ، يقتل الخنازير ويكسر الصليب ، ويخرب البيع والكنائس ، ويقتل النصاري ، إلا من آمن به) (٢)

(١) التوبة : ٣٨ .

(٢) ذكر هذا الحديث الرازي في تفسيره ٢٧/٢٢٢ . وقال في تخريج الكشاف : أخرجه الثعلبي بغير سند ، وهو موجود في أحاديث متفرقة ، فقله : (ثنية أفيق) عند الحاكم من حديث عثمان بن أبي العاص ، وقوله : (وعليه ممصرتان) عند أحمد والحاكم من حديث أبي هريرة ، وقوله : (والناس في صلاة الصبح) عند ابن ماجه من حديث أبي أسامة . وقوله : (فيقتل الخنزير ويكسر الصليب) في الصحيح من حديث أبي هريرة . الكشاف ٢٦١/٤ .

وقيل : إحياء عيسى الموتى دليل على البعث والساعة ، قاله ابن إسحاق .

قال في البلغة : إنما يترل عيسى عليه السلام بعد زوال التكليف .

وروى إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد بن رسول الله رحمة الله عليه عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة فيترل عيسى عليه السلام فيقول أميرهم : تعال صل بنا ، فيقول : لا إن بعضكم على بعض أمراء بكرم الله) أخرجه مسلم في صحيحه . اهـ

وقد روي أنه يصلي وراء المهدي أولاً ، ثم يتقدم إعلاما بأنه لم يترل مستقلاً بل تابعا ، مؤيدا حاكما بشرية محمد ﷺ . ثم قال عز وجل : ﴿ فلما تمترن بها ﴾ من المرية ، وهي الشك ، أي : لا تشكون فيها ﴿ واتبعوني ﴾ أي : اتبعوا هداي في رسلي ﴿ هذا ﴾ الذي دعوتكم إليه ﴿ صراط مستقيم ﴾ ثابت غير معوج

﴿ ولا يصدنكم الشيطان ﴾ على وجه التحذير ، أي : لا يصرفكم عن الحق والصراط المستقيم ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ قد أبان لكم عداوته بإخراجه أباكم آدم من الجنة ، وقيل : هو أمر لرسول الله ﷺ أن يقوله ، ويجوز أن يكون حكاية كلام عيسى لقومه بدليل ﴿ ولما جاء عيسى بالبينات ﴾ أي : لما جاء قومه بالمعجزات ، أو بآيات الإنجيل والشرائع البينات الواضحات ﴿ قال قد جنتكم بالحكمة ﴾ أي : الإنجيل والشرائع ﴿ ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ﴾ كانوا يختلفون في الديانات ، وما يتعلق بالتكليف ، وفيما سوى ذلك مما لم يتعبدوا بمعرفته ، والسؤال عنه ، فبعث لبيان الأول ، وهو ما احتاجوا إلى بيانه دون الثاني ؛ لأنه لا يعنيه .

وقال بعض المفسرين : إن البعض هنا بمعنى الكل ، وضعف لأن البعض لم يرد بمعنى الكل ، وعن مجاهد : ﴿ بعض الذي تختلفون فيه ﴾ من تبديل التوراة ، وقال مقاتل : ﴿ بعض الذي تختلفون فيه ﴾ من أمر دينكم عموما في أمر دينهم ، وقال ابن جرير

كان بينهم اختلاف في أمر دينهم ودنياهم ، فين لهم أمر دينهم فقط ، وقال ابن عباس : ما يختلفون فيه من أمري وأمر دينكم ، وقال قتادة : يعني اختلاف الفرق الذين تحزبوا في أمر عيسى .

ولما بين الأصول والفروع ^(١) قال : ﴿ فاتقوا الله ﴾ بطاعته واحذروا الكفر به والإعراض عن دينه ﴿ وأطيعوني ﴾ فيما أبلغه إليكم من التكليف ، فطاعني من طاعة الله ﴿ إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه ﴾ لا تشركوا به شيئاً ﴿ هذا ﴾ الذي دعوتكم إليه ﴿ صراط مستقيم ﴾ ثابت فالزموه .

﴿ فاختلف الأحزاب ﴾ أي : الفرق المتحيزة بعد عيسى ، وهم الملائكية ، واليعقوبية والنسطورية ، وقيل : اليهود والنصارى ، زعمت اليهود أن عيسى لغير رشده ، وزعمت النصارى أنه ابن الله .

وقوله : ﴿ من بينهم ﴾ أي : في ذات بينهم ، والضمير لقومه الذين بعث إليهم عيسى ، أي : اختلفوا من بين الباقيين الذين لم يختلفوا ﴿ فويل للذين ظلموا ﴾ أي : لهم ﴿ من عذاب يوم أليم ﴾ الويل : الهلاك ، وهو وعيد لهم .

وقوله : ﴿ هل يظنون إلا الساعة أن تأتيهم ﴾ بدل من الساعة ، أي : بيان للمراد من الانتظار ، ومعنى ﴿ بغتة ﴾ أي : مفاجأة بلا استعداد ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ غافلون بأمور دنياهم ، فإن قالوا : قوله : ﴿ بغتة ﴾ يفيد عين ما يفيدده قوله : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ فما الفائدة فيه ؟ قيل في الجواب : يجوز أن تأتيهم بغتة ، وهم يعرفونه ، بسبب أنهم يشاهدونه .

(١) — لم يسبق ذكر للأصول والفروع ، وقد ذكر الرازي هذا اللفظ بعد أن ذكر بأن الحكمة المراد بها أصول الدين ، وبعض الذي يختلفون فيه معناه فروع الدين ، الرازي ٢٢٣/٢٧ .

ثم اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الساعة ﴾ ذكر عقيقه بعض ما يتعلق بأحوال القيامة ، فأولها قوله سبحانه : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ ^(١) الإخلاء : الأحياء في الدنيا ، جمع خليل من الخلّة ، وهي المحبة ، والصدقة ﴿ يومئذ ﴾ يوم تأتيهم الساعة ﴿ بعضهم لبعض عدو ﴾ متعادون ، تنقلب كل حلة عداوة وبغضاء في ذلك اليوم ؛ لأنها جرّتهم إلى المعصية ﴿ إلا ﴾ أي : إلا حلة المتحابين في الله وفي تقواه فخلّتهم باقية ؛ لأنها جرّتهم إلى الثواب والطاعة .

نزلت في أبي بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، وكان يكثر مجالسة رسول الله ﷺ ويحامله ، وصنع ضيافة ودعا إليها ، ودعا النبي ﷺ فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل ، وكان أبي بن خلف صديقا له فعاتبه على الشهادتين ، فقال عتبة : أبى أن يأكل من طعامي ، وهو في بيتي فاستحييت منه فشهدت ، والشهادة ليست في نفسي ، فقال له أبي : وجهي من وجهك حرام إن لم تلق محمدا فتطأ عنقه ، وتبزق في وجهه ، وتلطم عينه ، فوجد عقبة النبي ﷺ ساجدا في دار الندوة ، ففعل ما أمر به أبي ، فقال رسول الله ﷺ : لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، فكان ممن أسر يوم بدر ، فأمر النبي ﷺ عليا عليه السلام بقتله ، فقتله .

(١) قال الحاكم الجشمي في أحكام هذه الآية : تدل الآيات أن المودة في معصية الله تنقلب يوم القيامة عداوة ، حتى يتبرأ بعضهم من بعض ، ويلعن بعضهم بعضا ، وتدل أن مودة المتقين ، باقية في الجنة ، ففيه حث على التواد في الطاعة ، وزجر عن التواد في المعصية ، ويدل قوله ﴿ لا خوف ﴾ أن المؤمن لا يلحقه يوم القيامة خوف ، وخلافا لما قاله بعضهم ، ويدل قوله ﴿ أنتم وأزواجكم ﴾ على تمام السرور لما يجمع بينه وبين زوجته ، والصحيح أنه الحور العين ، لأنه عم ، ويدل قوله ﴿ ما تشتهي الأنفس ﴾ على أن نعيمهم يزيد على حسب شهواتهم ، ويدل قوله ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ أن ذلك جزاء على أفعالهم ، وأنها حادثة من جهتهم ، فيبطل قول المجبرة في المخلوق

قال في التجريد : الثاني منها : قوله تعالى : ﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ أي : يقال ذلك للمتحابين في الله تعالى ، والخوف : الغم لأمر متوقع ، والحزن : الغم لأمر قد وقع .

قال الرازي : وفيه أنواع كثيرة مما يوجب الفرح أولها : أن الحق سبحانه خاطبهم من غير واسطة .

وثانيها : أنه تعالى وصفهم بالعبودية ، وهذا شرف عظيم ، بدليل أنه لما أراد أن يشرف محمدا ﷺ ليلة المعراج قال سبحانه : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا ﴾ .

وثالثها : قوله : ﴿ لا خوف عليكم اليوم ﴾ فأزال عنهم الخوف في يوم القيامة بالكلية ، وهذا من أعظم النعم .

ورابعها : قوله : ﴿ ولا أنتم تحزنون ﴾ فنفي عنهم الحزن بالكلية .

ثم قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾ صفة لعبادي ، أي : جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا ، وقيل : ﴿ الذين آمنوا ﴾ مبتدأ ، وخبره مضمر ، والتقدير : يقال لهم ادخلوا الجنة ، ويحتمل أن يكون المعنى : أعني الذين آمنوا .

وروي أنه إذا بعث الناس فرع كل أحد ، فينادي ﴿ يا عبادي ﴾ الآية فيرجوها كل أحد ، ثم يتبعها ﴿ الذين آمنوا ﴾ فيياس كل أحد غير المسلمين ، أي : المؤمنين .

الثالث من أحوال القيامة : أنه تعالى إذا أمن المؤمنين من الخوف والحزن ، وجب أن يمر حساهم على أسهل الوجوه وعلى أحسنها ، ثم يقال كما قال سبحانه : ﴿ ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم ﴾ قيل : نسأؤهم ، وقيل : قرناؤهم ﴿ تحبسون ﴾ تسرون سرورا يظهر حباره ، أي : أثره على وجوههم ، وفائدة الجمع بينهم وبين أزواجهم كمال السرور ، وهذا من جملة ما يقال لهم .

ثم قال : ﴿ يَطَافُ عَلَيْهِمُ الظَّائِفُ ﴾ : خدام لهم ﴿ بِصُحُفٍ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ جمع صحفة ، وهي القصعة الواسعة العريضة من أطعمة الجنة ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ جمع كوب ، وهو إناء مستدير الرأس لا عروة له ، قال ابن الجوزي : وإنما كانت بغير عروة لشرب الشارب من أين شاء ؛ لأن العروة ترد الشارب عن بعض الجهات ، وروى الثعلبي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أن أدنى أهل الجنة منزلة لمن له ثلاث مائة خادم ، ويغدى عليه ويراح بثلاث مائة صحفة — لا أعلمه قال : إلا من ذهب — في كل صحفة لون ليس في الأخرى ، وإنه ليلذ كما يلذ أوله ، ومن الأشربة ثلاث مائة إناء ، في كل إناء ما ليس في الآخر ، وإنه ليلذ آخره كما يلذ أوله ، وأن له في الحور اثنتين وسبعين زوجة سوى أزواجه في الدنيا) فقلوه : ﴿ يَطَافُ عَلَيْهِمُ بِصُحُفٍ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ إشارة إلى المطعوم ، وقوله : ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ إشارة إلى المشروب ثم إنه تعالى ترك التفصيل ، وذكر بيانا كلياً ، فقال سبحانه : ﴿ وَفِيهَا ﴾ أي : في الجنة ﴿ مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ أي : تستلذ النظر إليه ، وهذا حصر لأنواع النعم ؛ لأنها إما مشتبهيات في النفوس ، أو مستلذات في العيون ، وتم ذلك بقوله : ﴿ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ لأنها لو انقطعت لم تطب .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : أسكنتموها ، وورثتم فيها وملكتموها ، شبهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة .

ولما ذكر الطعام والشراب فيما تقدم ذكرها هنا حال الفاكهة فقال سبحانه : ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أي : لا تأكلون إلا بعضاً^(١) ، وأعقابها باقية في الشجر زينة لها أبداً .

وعنه ﷺ : (لا تنزع ثمرة إلا نبت مكانها مثلاًها)^(٢) .

(١) يعني أن من في قوله : ﴿ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ تفيد التبعض .

واعلم أنه تعالى بعث محمدا ﷺ إلى العرب أولا ، ثم إلى العالمين ثانيا ، والعرب كانوا في ضيق شديد ، بسبب المأكل والمشروب والفاكهة ، ولهذا السبب تفضل الله تعالى بهذه المعاني مرة بعد أخرى تكميلا لرغائبهم ، وتقوية لدواعيهم .

ثم اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعد أردفه بالوعيد على الترتيب المستمر في القرآن فقلل تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّخَالِفٍ ﴾^(١) المحرم : يعم الكافر والفاسق ﴿ لَأَن يُفْتَرُ ﴾ لا يخفف ﴿ عَنْهُمْ ﴾ من قولهم : فترت عنه الحمى إذا نقص حرها ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْسَوْنَ ﴾ أي : ساكون سكوت يأس ، والمبلس : الساكت عن يأسٍ مِنْ فَرَحٍ^(٢) قال الحسين بن القاسم عليه السلام : يريد أنهم يائسون لا يرجون ، قال سيد العابدين علي بن الحسين عليه السلام وأبلس لما أعجزته المعاذر ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بتعذيبهم بجهنم ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ لأنفسهم لارتكاب أسباب العذاب .

(١) أخرجه البزار عن ثوبان . الكشف ٢٦٣/٤ .

(٢) قال الحاكم الحشمي في أحكام هذه الآية وما بعدها إلى قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾

الأحكام

يدل قوله ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أن كل مجرم في عذاب جهنم ، والفاسق مجرم ، وتدل أن الفاسق يكونون في النار ، ومتى قيل : أراد به الكفار لذلك قال { ولكن أكثرهم للحق كارهون } وقال ﴿ أَمْ أَمْرًا ﴾ ؟ قلنا : اللفظ عام ، والفاسق يكره الحق عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والفاسق يكره المؤمنين أيضا ، فلا ما نع من حمل الآية على عمومها ، وتدل ﴿ لَا يُفْتَرُ ﴾ على اتصال العذاب ، ويدل قوله ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ الآية على أشياء منها : أن العقاب مستحق على أفعالهم ، ومنها : أن الكفر والظلم فعلهم ليس بخلق الله ولا إرادته ، ومنها أنهم قادرون على تركه إذ لو عاقبهم على ما لا يقدرون على تركه لكان ظلما ، ومنها : أنه قادر على الظلم لأنه ممدح بأنه لا يظلم ، ومالا يقدر عليه لا يصح التمدح بتركه ، وكل ذلك يبطل مذهب المجرة في المخلوق والاستطاعة والإرادة ، ويدل قوله ﴿ وَرُسُلُنَا ﴾ أن علينا حفاظة يكتبون الأعمال ، فحذر بذلك من ارتكاب المعاصي ، وكذلك بقوله ﴿ أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سُرَهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ لأنه من الوعيد العظيم .

(٣) وقال في الكشف : المبلس : الساكت سكوت يأس من فرج .

﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك﴾ أي : ليمتنا فنستريح ، من قضى عليه إذا أماته ، ومالك : هو رئيس خزنة النار ، نادوا ، [فإن قلت كيف قال : ﴿ونادوا يا مالك﴾] (١) وقد وصفهم بالإبلاس ؛ [قلت] : لأن عذابهم في أزمنة طويلة ، فيسكتون أوقاتا لغلبة اليأس ، ويستغيثون أوقاتا لشدة ما بهم ، والمعنى : سل ربك أن يقضي علينا الموت ، فيسكت مالك عن جوابهم مدة طويلة ، واختلف فيها ، فعن ابن عباس : ألف سنة (٢) . وعن كعب : مائة سنة ، وعن ابن عمر ومقاتل : أربعين سنة ، وفي وجه سكوته منهم قولان ، أحدهما : حتى يؤمر بإجابتهم ، والثاني : استخفافا بهم ، وزيادة في غمهم ، ثم يرد عليهم كما حكى الله عز وجل : ﴿قال إنكم ماكثون﴾ أي : مقيمون في العذاب ، خالدون فيه ، وفيه استهزاء به .

ثم بين تعالى أن مالكا لما أجابهم بقوله : ﴿إنكم ماكثون﴾ ذكر بعده ما هو كالعلة لذلك الجواب ، فقال سبحانه ﴿لقد جئناكم بالحق﴾ أي : التوحيد ، وشرائع الإسلام ، على ألسنة الرسل ، قيل : هذا من كلام الله تعالى لقريش في الدنيا ، وقيل : من كلام مالك لأهل النار .

(١) ما بين أقواس الزيادة غير موجودة في المصاييح ، وهي موجودة في الرازي والكشاف ، وقد أثبتناها ليتضح المعنى من كلام المصنف .

(٢) أخرجه الحاكم من رواية سفيان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ونادوا يا مالك﴾ قال : مكث عنهم ألف سنة ، ثم يقول : ﴿إنكم ماكثون﴾ وروى الترمذي من رواية قطبة بن عبد العزيز ، عن الأعمش ، عن سمرة بن عطية ، عن شهر بن حوشب ، عن أم الدرداء ، عن أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله ﷺ : (يلقى على أهل النار الجوع ، فيعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون ، فيقاتلون بطعام من ضريع ، لا يسمن ولا يغني من جوع) — الحديث ، وفيه قال الأعمش بنين أن ينزل عليهم ، وإجابة مالك ألف عام ، وقال الترمذي : قطبة ثقة ، وبعض أهل الحديث كان يرفع هذا ، وهذا أخرجه الطبراني والبيهقي ، في الشعب ، ورواه الطبري من رواية شريك عن الأعمش موقوف ، ولم يفصل الكلام الأخير ، ثم رواه من طريق قطبة مرفوعا ، ولم يفصل أيضا . الكشاف ٢٦٥/٤ .

ثم قال : ﴿و لكن أكثركم للحق كارهون﴾ أي : ينفرون عنه ؛ لأن معه التعب ، ومع الباطل الدعة ، وعبر عن الكل بالأكثر .

ولما ذكر الله تعالى كيفية عذابهم في الآخرة ، ذكر كيفية مكربهم وفساد باطنهم في الدنيا فقال سبحانه : ﴿أم أبرموا﴾ مشركوا مكة ﴿أمرا﴾ من كيدهم لرسول الله ﷺ ، والإبرام : الإحكام ﴿فإننا مبرمون﴾ كيدنا ، كما أبرموا كيدهم ، وفي الأمر الذي أبرموه قولان ، أحدهما : أنه أمر في إهلاك رسول الله ﷺ ليقتلوه ، أو يخرجوه ، أو يثبتوه ، حين اجتمعوا في دار الندوة ، وهذا قول الأكثرين .

والثاني : أنه أمر في رد ما جاء به نحو قولهم في القرآن : شعر ، أو سحر ، أو أساطير الأولين ، عن قتادة .

ثم قال تعالى : ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم﴾ والسر : ما كان خفية ، أو أسروه في أنفسهم ، والنجوى : ما دار بينهم من الكلام ، وتناجوا به بينهم من كيده ﷺ ﴿بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾ يريد بلى نسمع ونطلع عليها ، وحفظتنا وهم الملائكة يكتبون سرهم ونجواهم ، وهو وعيد لهم .

وعن يحيى بن معاذ الرازي : (من ستر من الناس ما أبدى لمن لا يخفى عليه شيء في السموات ولا في الأرض ، فقد جعله أهون الناظرين إليه ، وذلك من علامات النفاق)^(١) .

ثم قال سبحانه : ﴿قل إن كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين﴾^(٢) قال الهلدي إلى الحق عليه السلام : العابدون : هم الآنفون ، يقول الله سبحانه لمحمد ﷺ : قل لمن

(١) في الكشف والرازي : (من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيء ...) إلخ ما ورد هنا .

(٢) قال الحاكم الجشمي في أحكام هذه الآية :

الأحكام تدل الآية على تنزيه الله تعالى عن الولد وإبطال قول النصارى ومشركي العرب ، وتدل على أنه اله في السماء والأرض ، فتدل على نفي المكان ، وتدل على أن أحدا لا يعلم وقت القيامة إلا هو .

زعم أن لنا ولدا ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ كما تزعمون ، فأنا أول الآنفين ،
المبغضين عن عبادة من له ولد ، ومثل هذا في تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام ،
واستشهد بقول الشاعر :

وأعبد أن يهجا كليب بدارم

يريد أغضب وآنف ، وذكر مثل هذا في البلغة ، قال ابن قتيبة عبدت من كذا ،
أعبد عبدا ، فأنا عبد وعابد ، أي : أنف ، وهذا قول ابن السائب ، وأبي عبيدة ^(١) .

وفي الكشف : وأنا أول العابدين لذلك الولد ، والمعظمين له ، كما يعظم الرجل
ولد الملك لتعظيم أبيه ، وأسبقكم إلى عبادته ، وهذا [كلام] وارد على سبيل الفرض
والتمثيل ، لغرض [وهو] المبالغة في نفي الولد ... ^(٢) وقد تكلف الناس تفسيراً آخر ،
وأخرجوه من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد ، وذلك أنه علق
العبادة بكنية الولد ، وهي محال في نفسها ، فكان المعنى بها محالا .

وقال في التجريد ﴿إِنْ﴾ شرطية عند الأكثرين ، فالمعنى : فأنا أول الجاحدين لأن
يكون له ولد ، أي : إِنْ كَانَ عِنْدَكُمْ أَنْ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْجَاهِدِينَ لِلْوَلَدِ ،
وهذا مروى عن ابن عباس .

وروي أن أعرابيين اختصما إليه ، فقال أحدهما : كانت لي في يد هذا أرض
فعبديها ، فقال ابن عباس : الله أكبر ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ الجاحدين أن لله ولدا .
وقيل : المعنى إِنْ كَانَ فِي زَعْمِكُمْ أَنَّ اللَّهَ وَلَدًا فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، بلا ولد
ولا شريك .

وقيل : (إِنْ) نافية ، أي : بما كان للرحمن ولد ، فأنا أول من عبد الله على يقين أنه

(١) - في تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام (وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ معناه : الآنفين ، والرادين له) وفي نسخة (الأبين) ص ٢٨٧ .

(٢) - لقد اختصر المصنف رحمه الله كلام الزخشي . فقد ذكر كلاما كثيرا بين فيه ويوضح دلالة هذا الوجه فراجع . الكشف ٢٦٦/٤ .

لا ولد له ، قاله الحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿ سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ نزه ذاته الموصوفة بربوبية ما ذكر من اتخاذ الولد ليدل أن الولد من صفات الأجسام ، ولو كان تعالى جسما لم يقدر على خلق هذه الخلق ، وتدبير أمره .

ولما ذكر هذا البرهان القاطع قال تعالى : ﴿ فذرهم يخوضوا ﴾ في باطلهم ، الخوض : الدخول في الباطل ، وهذا أمر خذلان لا تخلية ، وإعلام أن قولهم جهل وخوض في باطل ، وأهم مطبوع على قلوبهم ﴿ ويلعبوا ﴾ واللعب : ما لا يفيد ، أي : العبث ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ فيه الجزاء ، وهو يوم القيامة ، والمقصود منه التهديد ، يعني : قد ذكرت الحجة القاطعة على فساد ما ذكروا ، وهم لا يلتفتون إليها ؛ لأجل كونهم مستغرقين في طلب المال والجاه والرئاسة ، فاتركهم في ذلك الباطل واللعب حتى يصلوا إلى ذلك اليوم الذي وعدوا فيه بما وعدوا .

ثم قال تعالى : ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ التقدير : وهو الذي في السماء إله ، وهو في الأرض إله ، أي : المعبود فيهما ، لا إله يعبد فيهما غيره ، كقوله : ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض ﴾ ^(١) قال أبو علي الفارسي : المعنى على الإخبار بالإلهية ، لا على الكون في السماء .

قال الرازي : هذه الآية من أدل الدلائل على أنه تعالى غير مستقر في السماء ؛ لأنه تعالى بين هذه الآية أن نسبته إلى السماء بالإلهية ، كنسبته إلى الأرض ، فلما كان إلهها للأرض مع أنه غير مستقر فيها ، فكذلك يجب أن يكون إلهها في السماء مع أنه لا يكون مستقرا فيها ^(٢) .

(١) الأنعام : ٣ .

(٢) — تفسير الرازي ٢٧/٢٣٢ .

ثم قال تعالى : ﴿ وهو الحكيم ﴾ الذي لا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب ﴿ العليم ﴾ بكل شئ ، وبإشراك المشركين .

قال الرازي : وكونه حكيماً عليماً ينافي حصول الولد له .

ثم قال تعالى : ﴿ وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما ﴾ معنى ﴿ تبارك ﴾ هو تعالى عن الولد والشريك ، ولما كان المقصود منه شرح كمال قدرته ، شرح تعالى كمال علمه فقال : ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ لا يعلمها غيره ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي : إلى جزائه ، والمقصود التنبيه على أن من كان غنياً كاملاً في الذات والعلم والقدرة امتنع أن يكون له ولد .

ولما أظن الله تعالى في نفي الولد أردفه ببيان نفي الشركاء ، فقال : ﴿ ولا يملك الذين يدعون ﴾ أي : يعبدون ﴿ من دونه ﴾ أي : من دون الله ﴿ الشفاعة ﴾ وهم الأصنام والملائكة ، وعزير ، وعيسى ، المعنى : أن آلهتهم لا يملكون الشفاعة لهم ، كما زعموا أنهم شفاعاؤهم يوم القيامة ، ثم استثنى فقال : ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾ أي : لكن من شهد بتوحيد الله تعالى ، فإنه يشفع ، وهم الملائكة وعزير والمسيح ، فأمل الأصنام فلا تشفع ؛ لأنها لا توحده الله تعالى .

ثم قال سبحانه ﴿ وهم يعلمون ﴾ صحة ما شهدوا به ، علم إيقان وإخلاص ، كالملائكة والأنبياء ، فهم الذين يملكون الشفاعة ، وهذا القيد يدل على أن الشهادة باللسان فقط لا تفيد البتة ، وقال ﴿ هم ﴾ حملاً على معنى من الجمع .

ثم قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ هو حجة عليهم ، ولم

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه الآية وما بعدها إلى آخر السورة :

الأحكام : تدل الآيات على بطلان قول الكفار في إثبات الشفاعة للأوثان ، وتدل أن الشفاعة إنما تكون لمن شهد بالحق ، ويدل قوله ﴿ فاصفح ﴾ على تأديب منه لرسوله في الكف عن مجازاتهم على تكذيبهم ، فلن الله تعالى يجازيهم به .

يخرجوا منها بل عبدوا غيره ﴿فَأَنى يُوَفِّكُون﴾ أي : فكيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره من مخلوقاته .

قال الرازي : ظن قوم أن هذه الآية وأمثالها في القرآن تدل على أن القوم مضطرون إلى الاعتراف بوجود الإله للعالم ، [قال الجبائي] وهذا لا يصح ؛ لأن قوم فرعون قالوا : الإله لهم غيره ، وقوم إبراهيم [قالوا] : ﴿وإننا لفي شك مما تدعونا إليه﴾^(١) فيقال لهم : لا نسلم أن قوم فرعون كانوا منكبين لوجود الإله ، والدليل على قولنا قوله تعالى ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً﴾^(٢) وقال موسى لفرعون ﴿[لقد علمت] ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات﴾^(٣) والقراءة بفتح التاء تدل على أن فرعون كان عارفاً بالله ، وأما قوم إبراهيم حيث قالوا : ﴿إننا لفي شك مما تدعونا إليه﴾ فمصرفون إلى إثبات القيامة ، وإثبات التكليف ، وإثبات النبوة .

واعلم أنه تعالى ذكر هذا الكلام في أول هذه السورة وفي آخرها ، والمقصود التنبيه على أنهم [لما] اعتقدوا أن خالق العالم ، وخالق الحيوانات هو الله تعالى ، فكيف أقدموا مع هذه الاعتقاد على عبادة أجسام خسيسة ، وأصنام خبيثة لا تضر ولا تنفع وهي جمادات محضة^(٤) .

ثم قال تعالى : ﴿وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ قال الهادي عليه السلام : هذا خبر من الله سبحانه عن قول نبيه لمن لا يؤمن به ، فأمره الله أن يصفح عنهم ، ومعنى يصفح عنهم أي : يتركهم ويرفضهم . اهـ

ومعنى ﴿وقيله﴾ أي : قول رسول الله ﷺ ، كأنه قال : أقسم بقليله ، وهو

(١) هود : ٦٢ .

(٢) النمل : ١٤ .

(٣) الإسراء : ١٠٢ .

(٤) إلى هنا انتهى كلام الرازي ، وما بين أقواس الزيادة منه ٢٧/٢٣٣ .

قسم قرئ بالحركات الثلاث ، والجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه ، والرفع كقوله : لعمر ك لأفعلن كذا ، وجواب القسم قوله : ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ﴾ كأنه قيل : أقسم بقليله يا رب ، أو قيله : يا رب قسمي ﴿إِنْ هَؤُلَاءِ﴾ إلى آخره ، وإقسام الله بقوله ﷺ رفع منه ولدعائه ، وتعظيم لالتجائه إليه .

وفي التجريد : في نصبه وجوه ، أحدها : أنه مصدر ، أي وقال قيله ، وشكا شكوه إلى ربه ، والثاني : أنه عطف على ﴿سرهم ونحواهم﴾ أي : أم يحسبون أنا لا نسمع قيله ، ذكر القولين الفراء والأخفش ، والثالث : أنه منصوب على محل الساعة ؛ لأن محلها نصب يعلم ، وهو اختيار الزجاج .

وفي الجر وجهان : العطف على لفظ ﴿الساعة﴾ أي : وعلم قيله ، والثاني : أنه قسم أقسم الله تعالى بقول محمد ﷺ كما أقسم بعمره .

وفي الرفع وجهان ، أحدهما : أنه مبتدأ خبره محذوف على أنه قسم تقديره : وقيله قسمي ، والثاني : أنه مبتدأ غير مقسم به ، وخبره يا رب ، أي : وقيله هو هذا اللفظ ﴿يا رب﴾ . اهـ

والمعنى : أن النبي ﷺ لما ضجر منهم ، وعلم إصرارهم أخبر عنهم أنهم قوم لا يؤمنون ، وهو قريب مما حكى الله عن نوح عليه السلام أنه قال : ﴿رب إني أعصوني واتبعوا من لم يزد ماله ولده إلا خسارا﴾^(١) ثم إنه تعالى قال له : ﴿فأصغ عنهم وقل سلام﴾ قال الهادي عليه السلام : أي قل أمرا حسنا جميلا ، تثبت به عليهم الحجة ، وتسلم به من أذيتهم ﴿فسوف يعلمون﴾ يقول : قل لهم فسوف يعلمون صدق ما جئت به ، وحقيقة ما أعدرت وأنذرت منه . اهـ

والله أعلم

سورة الشورى

مكية ، وهي ثلاث وخمسون آية في الكوفي ، وخمسون في الباقيين

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿ حم عسق ﴾ قال الهادي إلى الحق عليه السلام : ﴿ حم عسق ﴾ حروف تولى الله علمها ، لم يبينها لأحد من خلقه ، إذ ليس فيها أمر ولا نهي ولا فرض تعبد به عباده ، فيحتاجون إلى علمه ومعرفته .

(١) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿ حم عسق ﴾ قال الإمام زيد صلوات الله عليه : ﴿ حم ﴾ قضي هذا الأمر ﴿ عسق ﴾ العين : العذاب ، والسين : سنون ، والقاف : قذف .

وقوله تعالى : ﴿ يتفطرون ﴾ معناه : يتشققن .

وقوله تعالى : ﴿ لتذر أم القرى ﴾ معناه مكة . وقوله تعالى : ﴿ يذروكم فيه ﴾ معناه : يخلقكم فيه .

وقوله تعالى : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ معناه مفاتيحها .

وقوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ﴾ معناه : أظهر لكم من الدين ما وصى به نوحا من تحريم نكاح البنات والأخوات

وقوله تعالى : ﴿ كبر على المشركين ﴾ معناه : عظم عليهم . وقوله تعالى : ﴿ يجتي إليه من يشاء ﴾ معناه يكرم

و ﴿ ينيب ﴾ معناه : يتوب . وقوله تعالى : ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ معناه : لا خصومة بيننا وبينكم

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين يمارون في الساعة ﴾ معناه : يشكون فيها . وقوله تعالى : ﴿ شرعوا لهم من الدين ﴾

معناه : ابتدعوا لهم . وقوله تعالى : ﴿ ومن يقترف حسنة ﴾ معناه : يكتسب ، وكذلك : يجترح .

وقوله تعالى : ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ﴾ فالجوازي : السفن ، واحدها جارية ، والأعلام :

الجبّال ، واحدها : علم . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنَ الرِّيحَ فَيَظْلِلْنَ ﴾ معناه : يمكن . وقوله تعالى : ﴿ يُوَبِّقُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ معناه : يهلكن . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ معناه : أجابوا . وقوله تعالى : ﴿ مِنْ طَرَفٍ خَفِي ﴾ معناه : أمّا ينظر ببعض عينه ، وقال : يسارقون النظر إلى جهنم . وقوله تعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً ﴾ أي : لا ذكور معهن ﴿ وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴾ أي : لا أناث معهم . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ يَزُوجَهُمْ ذَكَرَانَاً ﴾ غلام وجارية ﴿ وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ معناه : لا يولد له . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يَرْسَلُ رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ فالوحي : ما يراه النبي عليه السلام في المنام ، كما رأى إبراهيم عليه السلام حين أمر بذبح ابنه إسحاق ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ كما كلم موسى عليه السلام ، فقبل له استمع لما يوحى ﴿ أَوْ يَرْسَلُ رَسُولًا ﴾ كما أرسل جبريل وغيره إلى النبي عليه السلام ، وغيره من الأنبياء عليهم السلام ، والوحي : الإشارة كما حكى تعالى عن زكرياء عليه السلام ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بِكُرَّةٍ وَعَشِيًا ﴾ والوحي : القذف في القلب ، والإلهام : كقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَى رِبِّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ معناه : تدعو إلى ذلك ﴿ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ معناه : دعوناهم إليه .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياشي عليه السلام ما لفظه : بسم الله الرحمن الرحيم ا

معنى ﴿ حم عسق ﴾ أقسم ، وقيل : قرأ علي وابن عباس عليهما السلام (حم عسق) وقالوا : السين ، كل فرقة ، والقاف — كل جماعة ، تكون ﴿ كذلك يوحى إليك ﴾ حم سق ﴿ وإلى الذين من قبلك ﴾ يقال : يعنى أوحيت إلى نبي قبل محمد عليه وعليهما السلام ﴿ يتفطرون ﴾ أي : يتصدعن من أصوات الملائكة ، وجهرهم وقومهم ، ومعنى ﴿ أم القرى ﴾ زمن حولها ﴿ أي : مكة ، وما حولها من جميع الدنيا . ومعنى ﴿ مقاليد السموات والأرض ﴾ أي : مفاتيح ، قال تبع :

إِذَا أَقْمَنَا بِهِ مِنَ الدَّهْرِ حِينًا وَجَعَلْنَا لِبَابِهِ إِقْلِيدًا

أي : مفتاحا ، وقال آخر :

فَتَنَازَعُوا حَتَّى إِذَا اجْتَمَعُوا أَلْقُوا إِلَيْهِ مَقَالِدَ الْأُمُورِ

﴿ يجتئى إليه من يشاء أي : يقرب ويتولى ، ويرفع إليه من يشاء . ومعنى ﴿ عمارون في الساعة ﴾ أي : تحاصمون وتحاجون . ومعنى ﴿ حرث الآخرة ﴾ أي : عملها ، وكذلك ﴿ حرث الدنيا ﴾ ومعنى ﴿ كلمة الفصل ﴾ أي : كلمة الوعيد بالآخرة ، ومعنى ﴿ يقضي بينهم ﴾ أي : ليحكم بينهم ﴿ ومعنى ﴿ ومن يقترب ﴾ أي : يكتسب مالا ، ومعنى ﴿ ويستجيب الذين آمنوا ﴾ أي : يستجيب للذين آمنوا ، وسواء قلل يستجيبهم ، أو يستجيب لهم ، المعنى واحد ، قال الشاعر :

وداع دعا يا من يجيب إلى النداء فلم يستجبه عند ذاك مجيب

ومعنى ﴿ لبغوا في الأرض ﴾ أي لظلموا ، قال الشاعر :

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ إخبار من الله أنه الذي يوحى إليه وإلى جميع الأنبياء الذين

فلولا بغيه ما زلت أبكي عليه ما بدا ليل بهم
أي : لولا ظلمه ، ومعنى ﴿ولكن يزل بقدر ما يشاء﴾ أي : يقدر الكفاية ، ومعنى ﴿من بعد ما قنطروا وينشر رحمته﴾ يريد من بعد ما يتسوا ، قال الشاعر :
ولا تقنطن من عظيم الذنوب فرب العباد رؤوف رؤوف
وقال آخر :

قد وجدوا الخجاج غير قانط

﴿وينشر رحمته﴾ أي : ييسطها ، ومعنى ﴿الجواري في البحر كالأعلام﴾ أي : كالجبال ، قال الخنساء في أخيها
وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
أي : كأنه جبل في رأسه [نار] لرفعته ، وشهرته بالنار .

ومعنى ﴿رواكد على ظهره﴾ أي : سواكن نوابت على ظهر البحر ، ومعنى ﴿أو يربقهن﴾ أي : يفرقهن ،
يعني السفن ، ومعنى ﴿ما لهم من محيص﴾ أي : مهرب ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ أي : تحابر وتحاور
وتوازر وتشاور ، ولا يتكبر منهم أحد على صاحبه ، ولا يزدريه إن شاوره في أمره ، ومعنى ﴿ما عليهم من
سبيل﴾ أي : من عقوبة ، ولا طريق لثمة ، ومعنى ﴿من طرف خفي﴾ أي : من نظر ضعيف ذليل ، ومعنى
﴿وما لكم من نكير﴾ أي : منكر ينكر عذابكم ، وينصركم ، ومعنى ﴿يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء
الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا﴾ يعني : أو يجمعهم أنثامًا ، والتزويج هاهنا ، هو جمع الأنثام ، قال الشاعر
زوجت خيلكم بخيل مجاشع يوم السديف فما استقامت عامر

ومعنى ﴿ويجعل من يشاء عقيما﴾ أي : عاقرا لا يلد ولدا ، ولا يكون منه ولد أبدا ، ومعنى ﴿إلا وحيًا أو
من وراء حجاب﴾ الحجاب هاهنا : هو المنام الصادق الذي يكون في الوحي من الله ، وقد رأينا ذلك والحمد
لله ، ولولا شكر المنعم لما ذكرناه ، لعلمنا بسوء ظنون الفاسقين ، وقبيح ضمائر أعداء الله المنافقين ، ولكن لا
ترك الحسن من فعلنا ، وما أوجب الله من الشكر علينا لعلمنا بقبح القبيح من فعل غيرنا ، ولا نطيع أعداء الله
في الكفر سيدنا ، ومعنى ﴿روحا من أمرنا﴾ أي : قرآنا ، فسماه روحا ، لأنه يجي من الجهالة بحياة علمه ،
ويوقظ من الوسن بعجائب حكمه ﴿وإلى الله المصير﴾ أي : نرجع ونؤول .

وقال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) :

الحكام

يدل قوله ﴿كاد﴾ على عظيم معاصيه ، وفيه حث على طاعته ، ويدل قوله ﴿والملائكة﴾ على أنهم
مكلفون ، وعلى وجوب تربيته عن كل ما لا يليق به ، {ويستغفرون} يدل على عظم محل الملائكة ، حتى
استغفروا ، وكون ذلك محل الشفاعة

كانوا قبله ﴿﴾ اهـ قال في الكشف : ولم يقل : أوحى إليك ، ولكن [قال : ﴿يوحى إليك﴾] على لفظ المضارع ليدل على أن إحياء مثله عادته^(١) .
ومعنى ﴿كذلك﴾ أي : مثل ذلك الوحي ، أو مثل ذلك الكتاب ﴿يوحى إليك﴾ يعني : إنما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى إليك مثله في غيرها من السور .
ثم قال : ﴿وإلى الذين من قبلك﴾ أي : وأوحاه من قبلك إلى رسله ، بمعنى : أن الله كرر هذه المعاني^(٢) في القرآن ، وفي جميع الكتب السماوية ، لما فيها من التنبيه ، واللطف لعباده الأولين والآخرين .

ولما ذكر أن هذا الكتاب حصل بالوحي بين الموحى من هو ؟ فقال : ﴿الله العزيز﴾ ثم قال في الصفة الثانية ﴿الحكيم﴾^(٣) قال المرتضى عليه السلام : فالعزيز : الذي لا يضام ، ولا يغلب ، وأمره النافذ ، وحكمه الماضي ، عز سبحانه ، فلا يغلبه شيء من الأشياء ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾^(٤) .
﴿الحكيم﴾ فهو المحكم لأفعاله ، فليس شيء من خلقه إلا وهو يدل على حكمته وتدبيره ، لا يدخل ما خلق نقصان عما أراده . اهـ

الصفة الثالثة : قوله : ﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي : المختص بملك ما فيهما .

قال الرازي : وهذا يدل على كونه موصوفاً بقدرة كاملة نافذة في جميع أجزاء السموات والأرض على عظمتها وسعتهما بالإيجاد والإعدام ، والتكوين والإبطال .

(١) الكشف ٢٠٨/٤ ، وما بين قوسي الزيادة ليست من الكشف ، ولكنها موجودة أيضاً في الرازي نقلاً عن صاحب الكشف .

(٢) المعاني : المراد بها المماثلة في الدعوة إلى التوحيد والعدل ، والنبوة ، والمعاد ، وتبليغ أحوال الدنيا ، والترغيب في التوجه إلى الآخرة .

(٣) في نسخة أخرى للمصباح (بين الموحى من هو ؟ فقال : إنه الله ، ثم قال في الصفة الأولى والثانية : ﴿العزيز الحكيم﴾ .

(٤) يس : ٨٢ .

وعلى أن كل ما في السموات وما في الأرض فهو ملكه ومالكه ، ووجب أن يكون مترها عن كونه حاصلا في السموات وفي الأرض ، وإلا لزم كونه ملكا لنفسه ، وإذا ثبت أنه ليس في شئ من السموات امتنع كونه أيضا في العرش ، لأن كل ما سماك فهو سماء ، فإذا كان العرش موجودا فوق السموات كان في الحقيقة سماء ، فوجب أن يكون كل ما كان حاصلا في العرش ملكا لله [وأن يكون] ^(١) مالكا له ، فوجب أن يكون مترها عن كونه حاصلا في العرش .

الصفة الرابعة والخامسة : قوله : ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ الذي لا يشبهه شئ من خلقه ، عظيم الجلال والكبرياء ، فسبحان من لا يعلم قدره غيره ، ولا يبلغ صفته الواصفون .

ثم قال تعالى : ﴿ تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ﴾ قال الهادي عليه السلام : معنى ذلك إجلالا وإعظاما وإكبارا لما فعل المكذبون بآيات الله ووحيه ، ووعداه ، ووعيداه ، وما نزل من جميع أخباره ، فيقول سبحانه : لو كان في السموات تمييز وفهم لما قالوا ، وبه كذبوا لتفطرن إجلالا لله ، وإعظاما وإكبارا لما جاء به المشركون من تكذيب قول الله ، والصد عن آيات الله .

ثم أخبر بطاعة الملائكة وإعظامها أيضا لما يأتون به فقال : ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ يقول : لما أن فعل المشركون ما فعلوا سبحانه الملائكة وهللته ، وعظمته ، إجلالا له عن قولهم ، وتقديسا له عن شركهم .

ثم أخبر بفعل الملائكة في المؤمنين المصدقين بما كذب به الكافرون ، المسلمين لما جحداه المشركون ، المصدقين بوعد الله ووعيداه ، الموقنين بحشره وثوابه وعقابه .
﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ يريد : لمن فيها من المؤمنين المصدقين المتقين .

(١) ما بين القوسين موجود في المصاييح ، وغير موجود في الرازي ، وكذلك اللفظ في المصاييح : وإذا ثبت أنه ليس في شئ من السموات امتنع أيضا كونه في العرش ، وفي الرازي على ما أثبتناه . الرازي ١٤٣/٢٧ ؟

(كذا لفظ الهادي عليه السلام) .

قال في البلغة : يتشقق استعظاما لكفر أهل الأرض ، مع عظم نعمته عليهم ، ووضوح آياته وحججه اللائقة بهم ، وحذف ذكر ذلك لدلالة الكلام عليه ، وهو على جهة التوسع ، كما قال : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ﴾ (١) . اهـ

وقوله : ﴿ من فوقهن ﴾ أي : من جهتهن الفوقانية ، لأن أعظم الآيات فوق السموات .

ومعنى ﴿ يسبحون بحمد ربهم ﴾ هو يزهون الله عن السوء ، ويقولون : سبحان الله ، والحمد لله ﴿ ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ من المؤمنين ؛ لأن المغفرة قيدت في مثل ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ ومن المقرر حمل المطلق على المقيد ، كما عرف ، لا أعداء الله فقد قال : ﴿ أولئك عليهم لعنة الله والملائكة ﴾ (٢) .

ولما حكى الله تعالى عن الملائكة التسبيح والتحميد ، والاستغفار لمن في الأرض ، ولم يحك عنهم أنهم يطلبون الرحمة لمن في الأرض فقال : ﴿ ألا إن الله هو الغفور ﴾ للتائبين ﴿ الرحيم ﴾ بقبول توبتهم ، يعني أنه يعطي المغفرة التي طلبوها ، ويضم إليها الرحمة الكاملة التامة .

ثم قال تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ أي : شركاء في الإلهية ﴿ الله حفيظ عليهم ﴾ معناه : رقيب على أعمالهم ، وهو محاسبهم عليها ومعاقبهم ﴿ وما أنت ﴾ يا محمد ﴿ عليهم بوكيل ﴾ أي : بموكل عليهم ، تقهرهم على الإيمان ، إنما عليك الإنذار (٣) .

(١) الحشر : ٢١ .

(٢) التعليل رد لما يمكن أن يتوهم أن الاستغفار حاصل لكل من في الأرض من المؤمنين وغيرهم . فبين أن الاستغفار لا يحصل إلا للمؤمنين دون من عداهم .

(٣) قال الحاكم الجشمي في تفسيره التهذيب :

وقال الهادي إلى الحق عليه السلام : ^(١) ومعنى ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي : ما أنت على إخلاص ضمائرهم بوكيل ، إذ أنت غير عالم بذلك ، ولا تحيط به ، وإنما أنت وكيل على ظاهريهم ، معامل لهم عليه ، فأما الضمير فالله الحافظ له عليهم ، والعالم به منهم ، وإنما كلفناك ما تقدر على القيام به ، ولم نكلفك ما لا تستطيع ممل لا تقدر عليه من علم ضمائرهم ، ولو فعلنا ذلك كذلك لكلفناك إذا شرا ، ولا افترضنا عليك عسرا ، ألا تسمع كيف بين في أول الآية ، وفي وسطها ما قلنا : من أنه سبحانه الحافظ لسرائرهم ، المعامل لهم عليها دون نيته ، وذلك قوله : ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم﴾ يقول : ﴿الذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ في السرائر ، وأعطوك يا محمد غير ذلك في الظاهر ، [الله] ^(٢) يحفظ ذلك عليهم ، ويعلمه منهم ؛ إذ لا تعلمه أنت من فعلهم حتى تجازيهم عليه في يوم حشرهم ، وتبدي فضائح ما كان في ضمائرهم . اهـ

الحكام

يدل قوله قرآنا عربيا على أن جميع القرآن بلغة العرب خلاف ما قاله بعض الحشوية ، وتدل على حدوثه ، لأنه ما كان عربيا لا يكون قديما ، ويدل قوله ﴿لتندر﴾ أن الفرض بالقرآن الإنذار ، وتدل على وجوب التدبر فيه ، وتدل على أنه يمكن معرفة المراد بظاهريه ، أو بقرينة ليصح أن يقع به الإنذار ، ويدل قوله ﴿فريق﴾ على أن المكلفين على فريقين لا ثالث لهما ، ويدل قوله ﴿والظالمون﴾ لا يكون لهم ناصر ، وتدل على أنه لا شفاعاة لهم ، وأنهم لا يدخلون الجنة خلافا لما يقوله بعضهم ، ويدل قوله ﴿وما اختلفتم﴾ أن الاختلاف في البيانات يصح فيوجب كون المعارف مكتسبة ، وتدل على أن عند الاختلاف يطلب التمييز بين الحق والباطل من جهته تعالى ، وذلك يطل التقليد ، ويوجب الاعتماد على الأدلة الصادرة من جهته عقلا وسمعا ، وتدل على أن حال الاختلاف مفارق لحال الاجتماع ، فتدل على أن الإجماع حجة ، وتدل أن الاختلاف فعلهم ، فيصح قولنا في المخلوق .

(١) قال في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ، وسألت عن قول الله سبحانه : ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ فقلت : أو ليس قد كان ^{عليه السلام} وكيفا عليهم ؟ وأمورا بهم ؟ ومجاهدا لمن عند منهم ؟ فقال : معنى : ﴿وما أنت ..﴾ الخ ما ذكره هنا .

(٢) في نسخة من المصاييح : (إنه يحفظ ذلك عليهم) .

ثم قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك ﴾ إشارة إلى معنى الآية قبلها ، من أن الله هو الرقيب عليهم ؛ لأن هذا المعنى قد تكرر في القرآن ، أي : ومثل ما ذكرنا قد أوحيناه إليك في غير هذا الموضع .

ويجوز أن تكون الإشارة إلى مصدر أوحينا ، أي : ومثل ذلك الإيحاء البين الفهم أوحينا إليك ﴿ قرآنا عربيا ﴾ بلسانك العربي ، لتفهم ما يقال لك .
وفي البلغة : وأوحينا إليك يا محمد قرآنا بلغة العرب ، كما أوحينا إلى من كان قبلك من الأنبياء عليه السلام ، فشبه الوحي بالوحي .

ومعنى قوله : ﴿ لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ أي : لتنذر أهل أم القرى ^(١) ، ومن حولها من أهل البدو والحضر ، وأهل المدر والوبر .

قال الهادي عليه السلام ﴿ أم القرى ﴾ : هي مكة ﴿ ومن حولها ﴾ من القرى [فهي أعمال مكة ، وما قاربها من الحجاز كله .

ومعنى ﴿ لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ ^(٢) وإنما ينذر أهلها ، وأهل القرى [التي] حولها ، فلما أن كان الأهل من سبب القرى طرح الأهل ، وأثبت القرى ، وإنما يريد الأهل ، كما في ﴿ واسأل القرية [التي] كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ﴾ ^(٣) يريد : أهل القرية وأهل العير .

ومعنى قوله : ﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾ فهو أيضا على هذا المعنى ، أراد : وتنذر العذاب الذي يكون في يوم الجمع ، فطرح العذاب ، وأقام يوم الجمعة مقامه كما فعل في أم القرى و ﴿ يوم الجمع ﴾ فهو يوم القيامة الذي يجتمع فيه الخلق إلى موضع الحشر ﴿ لا ريب فيه ﴾ يقول : لا شك فيه ، وأنه سيكون ﴿ فريق ﴾ من الخلائق المجموعين فيه ﴿ في الجنة وفريق ﴾ منهم ﴿ في السعير ﴾ يخبر أن ذلك اليوم يوم

(١) أم القرى : هي مكة ، وسميت بهذا الاسم إجلالا لها ؛ لأن فيها البيت ومقام إبراهيم عليه السلام .

(٢) ما بين القوسين ساقط في المصاييح ، وثابت في مجموع تفسير الأئمة .

(٣) يوسف : ٨٢ .

يصير فريق من الناس في الجنة ، وفريق في السعير] .

[والإنذار : فهو إلى أم القرى ومن حولها ، وإلى جميع أهل الأرض ، غير أنه خص أم القرى بالذكر لعظيم ذكرها وأهلها ، وأما كانت المبدأ في الإعذار والإنذار ، ثم بلغ إعذاره ﷺ جميع شرق الأرض وغربها ، وشامها ويمنها] ^(١) .

ثم قال سبحانه : ﴿ ولو شاء الله ﴾ أي : مشيئة قهر على الإيمان ﴿ لجعلهم أمة واحدة ﴾ أي : جماعة مؤمنين ، بدليل قوله : ﴿ أفأنت تكره الناس ﴾ ^(٢) وإدخال همزة الإنكار في ﴿ أفأنت ﴾ على المكروه دون فعله دليل على أن الله وحده هو القادر على ذلك الإكراه دون غيره ﴿ ولكن ﴾ أي : لكنه شاء مشيئة حكمة ، فبنى أمر تكليفهم على الاختيار ، فهو ﴿ يدخل من يشاء في رحمته ﴾ أراد بـ ﴿ من يشاء ﴾ المؤمنين ، بدليل وصفهم في مقابلة الظالمين ، في قوله : ﴿ والظالمون ما لهم من ولي ﴾

يتولاهم بما ينفعهم ﴿ ولا نصير ﴾ يدفع عنهم العذاب .

﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء ﴾ هي المنقطعة ، بمعنى بل وهمزة الإنكار ، إنكار لاتخاذهم من دونه أولياء ، أي : شركاء يتولونهم ﴿ فالله هو الولي ﴾ الفاء : جواب شرط مقدر ، تقديره بعد الإنكار ، إن أرادوا أولياء بحق ، فالله هو الولي ، الذي يجب أن يتولى وحده .

(١) من قوله : ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ﴾ إلى هنا منقول من مجموع تفسير الأئمة ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، واللفظ في المصاييح بتقديم وتأخير واختلاف . ولفظ المصاييح هو : ﴿ واسأل القرية ﴾ والإنذار : فهو إلى أم القرى ، ومن حولها ، وإلى جميع أهل الأرض ، غير أنه خص أم القرى بالذكر لعظيم ذكرها وأهلها ، أما كانت المبدأ في الإعذار والإنذار ، ثم بلغ إعذاره ﷺ جميع شرق الأرض وغربها ، وشامها ويمنها ﴿ وتندر يوم الجمع ﴾ أي : تندر العذاب الذي يكون في يوم الجمع ، فطرح العذاب ، وأقام يوم الجمع مقامه ، كما فعل في أم القرى ، ويوم الجمع : فهو يوم القيامة ، الذي يجتمع فيه الخلق إلى موضع الحشر ﴿ لا ريب فيه ﴾ يقول : لا شك أنه سيكون ﴿ فريق ﴾ من الناس ﴿ في الجنة وفريق في السعير ﴾ . اهـ

(٢) يونس : ٩٩ .

وقال ابن عباس : وليك يا محمد ، وولي من اتبعك .

﴿ وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾ كأنه قيل : إن أرادوا أولياء بحق ، فالله هو الولي ، لا ولي سواه ؛ لأنه يحيي الموتى ، وهو على كل شيء قدير ، فهو الحقيق بأن يتخذ وليا ، دون ما لا يقدر على شيء .

ثم قال سبحانه : ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ هذه حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين .

قال الإمام محمد بن القاسم عليها السلام : نعم ، الله الحاكم فيه عليكم ، والفاصل فيه بينكم ، لست أحكم فيه إلا بالله ، عن أمر الله ، فما أمرني به من الحكم بينكم فيملا اختلفتم فيه حكمت ، وما لم يأمرني بأن أحكم فيه بينكم لم أحكم وأمسكت ، وما لم أجر الحكم فيه بينكم إلى يوم القيامة كان مؤخرا ، حتى يحكم فيه سبحانه يوم البعث ، وفصل الحكومة ^(١) .

قال في البلغة : معناه ما يختلفون فيه من أمور الدنيا والدين فيجب عليهم أن يرجعوا فيه إلى حكم الله دون غيره ؛ لأن حكم الله الحق في الدنيا والآخرة . اهـ [والمقصود من التحاكم قطع الاختلاف ، والرجوع إلى نصوص الله تعالى . أو : ما اختلفتم فيه من شيء ، واشتبه عليكم من تأويل آية فارجعوا في بيانه إلى المحكم من كتاب الله ، وسنة رسوله ^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ ذلكم الله ربي ﴾ أي : الحاكم بينكم هو ربي ﴿ عليه توكلت ﴾ في دفع كيد الأعداء ، وفي طلب كل شيء ﴿ وإليه أنيب ﴾ أي : أرجع في كل المهمات .

(١) في نسخة من المصاييح (هذا تفسير محمد بن القاسم عليه السلام) مؤخرا هنا ، وفي نسخة أخرى مقدما كما هو ثابت هنا .

(٢) زيادة في بعض النسخ هنا : (لأن المقصود من التحاكم قطع الاختلاف ، والرجوع إلى نصوص الله عز وجل) وبعض النسخ ، ومنها نسخة المصنف ، هذه الجملة مقدمة كما أثبتناه .

وقوله: ﴿عليه توكلت﴾ يفيد الحصر ، يعني : لا أتوكل إلا عليه ، وهو إشارة إلى تزييف طريقة من اتخذ غير الله وليا .

ثم قال تعالى : ﴿فاطر السماوات والأرض﴾ قرئ : بالرفع ، والجر ، فالرفع على أنه خير ﴿ذلكم﴾ أو خير مبتدأ محذوف ، والمعنى : مبتدع خلقها على غير مثال ومبتدؤها ^(١) ﴿جعل لكم من أنفسكم﴾ من جنسكم من الناس ﴿أزواجا﴾ منكوحات ، وهي الإناث ﴿ومن الأنعام أزواجا﴾ وخلق للأنعام أيضا من أنفسها أزواجا ليقع التناسل ، وهي الغنم والبقر والإبل ، وخصها بالذكر مع الناس ، لعظم حاجتهم إليها ، والمنة فيها أبلغ .

﴿يذروكم فيه﴾ أي : في هذا التدبير ^(٢) ، وقيل : ﴿فيه﴾ بمعنى : به ^(٣) .

(١) والجر على تقدير أن يكون الكلام هكذا ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله... فاطر السماوات والأرض﴾ وقوله : ﴿ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب﴾ اعتراض وقع بين الصفة والموصوف .

(٢) معنى جعل التدبير طرفا للذرة : أنه جعل هذا التدبير كالمنيع والمعدن للبت والتكثير .

(٣) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب)

الأحكام تدل الآيات الأولى أنه فاطر السماوات والأرض ، فيبطل قول المفوضة ، وتدل على أنه لا مثل له ، فيبطل قول المشبهة والجسمة ، ومن يثبت له جهة ومكانا ، ويدل قوله ﴿له مقاليد السماوات﴾ أنه المنعم بالأرزاق وجميع النعم ، وأنه قادر على جميع الأشياء ، ويدل قوله ﴿شرع﴾ على أن الأنبياء كلهم بعثوا للدعاء إلى الدين ، لأن قوله ﴿أقيموا الدين﴾ كالتفسير له ، وهذا يلحق إلا بالتوحيد والعدل دون الشرائع التي تختلف ، واستدل بعضهم بالآية على أنه ^{صلى الله عليه وآله وسلم} كان متعبدا بشرائع من تقدم ، وهو بعيد ، لأنه إذا حمل الآية على ما قدمنا فلا حجة لهم فيه ، وأيضا فموتل فقد الشرائع يدل على ما قالوا ، لأن كل واحد إنما يجيء بوحى محدد ، فهو شرع مبتدأ فلا يكون بعضهم تبعا لبعض . ويدل قوله ﴿الله يجتبي﴾ أن الرسالة ليست بمستحقة وجزاء ، وإنما يعث من يصلح ، ويدل قوله ﴿ويهدي إليه من ينيب﴾ أنه يثيب المؤمنين دون غيرهم ، وقد استدل بعضهم بقوله ﴿من بعد ما جاءهم العلم﴾ أن المعارف ضرورة ، وقد بينا ما قيل فيه فلا تعلق للقوم بها ، ويدل قوله ﴿لني شك﴾ أن المعارف مكتسبة ، ويدل قوله ﴿فلذلك فادع﴾ أن الغرض بالبعثة الدعاء ، وتدل على عظيم حال الدعاء إلى الدين ، وتدل على أن الدعاء فعله ، ويدل قوله ﴿وتتبع أهواءهم﴾ على تحريم التقليد لأنه إتباع الهوى ، ويدل قوله ﴿وقل آمنت﴾ على وجوب الإيمان بسائر الكتب المتولة ، وتدل على وجوب إظهار الإيمان لذلك قال : ﴿وقل آمنت﴾ ويدل قوله ﴿لأعدل بينكم﴾

وقال [الإمام] الهادي عليه السلام : معنى ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ فهو : خلق لكم من أنفسكم رجالا ونساء يتزاوجون ويتناسلون ، وكذلك قوله : ﴿ ومن الأنعام ﴾ أي : خلق أيضا من الأنعام إناثا وذكورا تناسل . ومعنى قوله : ﴿ يذروكم ﴾ فهو : يترككم ، ويخرجكم ، ويخلقكم ، ويصوركم ، ويكثركم بالذرية والنسل الذي يكون منكم . اهـ . ثم قال تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ قال في البلغة : الكاف في ﴿ كمثله ﴾ صلة زائدة للتأكيد .

وفي التجريد — معناه : ليس مثل مثله شيء ؛ لأنه أبلغ في نفي المماثلة ، ومنه قولهم : مثلك لا ييخل ، نفوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عن ذاته قصدا للمبالغة ، فسلخوا طريقة الكناية ؛ لأنهم إذا نفوه عن هو على أخص أوصافه فقد نفوه عنه ، فلم يكن فرق بين : ليس كالله شيء ، وبين : ليس كمثله شيء ، إلا بما تعطيه الكناية من فائدتها ، فكأنهما عبارتان عن معنى واحد ، وهو نفي المماثلة عن ذاته ، ومنه قول المتنبي :

مثلك يثني الحزن عن صوبه ويسترد الدمع من غربه

ولم أقل مثلك أعني به سواك يا فردا بلا مشبه

وفيه هنا نظر ؛ لأنه لا مثل لله تعالى .

قال في الضياء : هو أبو الطيب المتنبي ، أحمد بن الحسين الكندي ، والغرب : واحد الغروب ، وهي مجاري الماء ، وقيل : الغرب : الدمع حتى يخرج من العين .

أنه كما أوتي النبوة ، أوتي الحكم وفصل الخصومات ، وكان كثير من الأنبياء بخلافه ، وقيل : قوله : حجة بيننا أن الحجة متى ظهرت وعاند المبطل ، فالواجب المحاكمة إلى الله تعالى ، وقد قال بعضهم : نسختها آية السيف ، وليس بشيء ، وقد بينا معناه .

(١) يريد المصنف هنا أن أسماء الله سمعية ، فلا يصح إطلاق اسم على الله ، مما لم يرد السماع به ، فإطلاق المثل هنا على الله لا يجوز . وإن كان المراد به هو الله .

ثم قال : ﴿ وهو السميع ﴾ لكل مسموع ﴿ البصير ﴾ أي : الخبير بكل شيء ، كأنه يبصره لا يخفى عليه ، ومعنى كونه تعالى سامعا للمسموعات ، ومبصرا للمرئيات أي : عالم بهما .
ثم قال عز وجل : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ المقاليد : المفاتيح ، قال الشاعر :

وأقمنا به من الدهر شيئا وجعلنا لبابه إقليدا
وهي عبارة عن ملكه للسموات والأرض ، وقدرته فيها على ما يشاء ، كما يفعل المتولي لمفاتيح الخزائن ، وقيل : مقاليد السموات الأمطار ، ومقاليد الأرض النبات .
ثم قال سبحانه : ﴿ ييسط الرزق لمن يشاء ﴾ البسط [له] ﴿ ويقدر ﴾ أي : يضيق الرزق على من يشاء .
ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنه بكل شيء عليم ﴾ فيغني العبد ، ويفقره على قدر ما يعلم له من المصلحة .

واعلم أن المراد من الآية الأولى أنه تعالى فاطر السموات والأرض ، والأصنام ليست كذلك ، وأيضا هو خالق أنفسنا وأزواجنا ، وخالق أولادنا منا ومن أزواجنا والأصنام ليست كذلك ، وأيضا فله مقاليد السموات والأرض ، والأصنام ليست كذلك ، والمقصود من الكل بيان القادر المنعم الكريم الرحيم ، فكيف يجوز جعل الأصنام التي هي جمادات مساوية له في العبودية ^(١) .

ثم اعلم أنه تعالى لما عظم وحيه إلى محمد ﷺ بقوله : ﴿ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ ذكر بعده تفصيل ذلك ، فقال عز وجل : ﴿ شرع لكم من الدين ﴾ خطاب لأمة النبي ﷺ ، أي : جعله لكم شرعا وطريقا ﴿ ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ﴾ أي : ما وصيت به يا محمد

﴿وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾ .
ومعنى ﴿شرع﴾ فرض ، وقيل : بين ﴿من الدين﴾ فالمعنى : شرع لكم دين هؤلاء المذكور ، ثم فسر المشروع الذي اشترك فيه هؤلاء فقال : ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ وفي ما شرع ثلاثة أقوال — أحدها : أنه تحليل الحلال ، وتحريم الحرام ، قاله قتادة .

والثاني : تحريم الأخوات والأمهات ، قاله الحاكم^(١) .
والثالث : التوحيد ، وترك الشرك ، والمراد : أن هؤلاء الأنبياء وغيرهم متفقون ، مشتركون في شريعة ، وهي إقامة الدين ، والمراد بإقامته : التوحيد والعدل ، وطاعة الله ، والإيمان برسله وكتبه ، وبالبعث والجنة والنار ، ونحو ذلك مما لا يجوز فيه النسخ .

وأما الشرائع التي تختلف فيها المصالح ، فإنها مختلفة ، قال سبحانه : ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾^(٢) حكى هذا في التجريد .

واعلم أن قوله : ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ مشعر بأن حصول الموافقة أمر مطلوب في الشرع والعقل .

قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام : دلت هذه الآية على أن الله وصى كل نبي ، وألزم أمة كل نبي أن يقيموا الدين ، ولا يتفرقوا فيه ، فمن خالف ما عمله من هذه الآية كان باغيا ، ومخالفا لما أراد الله من الإتفاق . اهـ .

ثم قال تعالى : ﴿كبر على المشركين﴾ أي : عظم عليهم وشق ﴿ما تدعوهم إليه﴾ من إقامة دين الله وتوحيده^(٣) .

(١) الحاكم : المراد به الحاكم الجشمي رحمه الله .

(٢) المائدة : ٤٨ .

(٣) هو الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي ، المتوفى سنة ١٠٢٩ ، وقد تقدمت ترجمته الجزء في الجزء الأول ، والعبارة في مقدمة كتابه الاعتصام .

ثم قال الله تعالى : ﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ﴾ أي : يجتلب باللفظ ويجمع ، من جى الخراج جمعه ، والضمير في ﴿ إليه ﴾ للدين . ومعنى ﴿ من يشاء ﴾ فهو الذي ينفع فيه لطفه وتوفيقه ﴿ ويهدي إليه ﴾ أي : إلى دينه ﴿ من ينيب ﴾ من يرجع إلى طاعته ويتوب .

واعلم أنه تعالى لما بين أنه أمر كل الأنبياء والأمم ، بالأخذ بالدين المتفق عليه ، بين تفرقهم بعد أن وصاهم بترك الفرقة ، فقال : ﴿ وما تفرقوا ﴾ أي : أهل الكتاب بعد أنبيائهم ﴿ إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أن الفرقة ضلال متوعد عليها ، على السنة الرسل ، وقيل : العلم بأن القرآن حق .

وفي البلغة (أي : العلم بصحة نبوته ودينه ﴿ بغيا بينهم ﴾ أي : حسدا عن الحق ، وتكبرا عن إتباعه ، وهو تعليل للتفرق ، يعني أنهم ما تفرقوا إلا بعد أن أعلموا^(١) أن الفرقة ضلالة ، ولكنهم فعلوا ذلك للبغي ، وطلباً للرئاسة ، فحملتهم الحمية على أن ذهب كل طائفة إلى مذهب ، ودعا الناس إليه ، وقبح ما سواه ؛ طلباً للذكر والرئاسة ، فصار ذلك سبباً لوقوع الاختلاف .

ثم أخبر تعالى أنهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل ، إلا أنه تعالى أحرع عنهم ذلك العذاب إلى وقت معلوم مسمى ، فقال عز وجل : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى ﴾ وهي عدة التأخير إلى يوم القيامة ، بقوله : ﴿ بل الساعة موعدهم ﴾^(٢) . ﴿ لقضي بينهم ﴾ أي : حكم بينهم في الدنيا حين اختلفوا — لعظم ما اختلفوا فيه — بعذاب من كفر ، ونعيم من آمن .

و الأجل المسمى : قد يكون في الدنيا ، وقد يكون في يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب من بعدهم ﴾ أي : من بعد الأنبياء ، وهم من كان

(١) في نسخة المصباح (نسخة المؤلف) إلا بعد أن علموا .

(٢) القمر : ٤٦ .

عنده ﷺ من أهل الكتاب ﴿لفي شك منه﴾ أي : من كتابهم ﴿مريب﴾ من أرابه : أوقعه في الريبة ، وهي التهمة ، ومعنى شكهم فيه : أنهم لا يؤمنون به حق الإيمان ، وقيل : في شك من محمد ﷺ .

وقال في البلغة : أي : وإن العرب الذين أوتوا الكتاب بعد اليهود والنصارى لفي شك مما أتاهم به محمد ﷺ من القرآن والشرعة — ليسوا كهؤلاء العلماء من اليهود والنصارى ، الذين أنكروا عبادة وبغيا وحسدا . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿فلذلك﴾ أي : فلأجل ذلك التفرق ، وما حدث بسببه من تشعب الكفر ﴿فادع﴾ إلى الاتفاق ، على الملة الحنيفية القديمة ﴿واستقم﴾ عليها أي : أثبت على الدعوة إليها ﴿كما أمرت﴾ في ما أنزل عليك ﴿ولاتبع أهواءهم﴾ المختلفة الباطلة ؛ لأنهم دعوه إلى دينهم ﴿وقل آمنـت﴾ صدقت ﴿بما أنزل الله من كتاب﴾ أي : بأي كتاب صح أن الله أنزله ، يعني : الإيمان بجميع الكتب المنزل ، لأن المتفرقين آمنوا ببعض ، وكفروا ببعض .

ثم قال تعالى : ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾ في الحكم إذا تحاكمتم إلي . وقيل : في تبليغ الرسالة ، ويجوز أن يراد بالعدل بينهم أنه يؤمن بكتبهم كلها ؛ لأنها منزلة من الله .

ثم قال : ﴿الله ربنا وربكم﴾ لا رب لنا ولكم غيره ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ أي : جزاؤنا ﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ أي : لا خصومة بيننا وبينكم ؛ لأن الحق قد ظهر ، وصرتم محجوجين فلا فائدة في المحاجة .

قال ابن الجوزي : في كون هذه الآية منسوخة قولان — أحدهما : أنها اقتضت الاختصار على الإنذار ، وذلك قبل الأمر بالقتال ، ثم نزلت آية السيف فنسختها ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنها محكمة ، ومعناها ما تقدم من أن المحاجة والمجادلة بعد ظهور الحجج .

(واعلم أنه ليس المراد من قوله: ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ تحريم محاجتهم ، ويدل عليه وجوه — الأول : أن هذا الكلام مذكور في معرض الحاجة ، فلو كان المقصود من هذه الآية تحريم المحاجة لزم كونها محرمة لنفسها ، وهو متناقض .
والثاني : أنه لولا الأدلة لما توجه التكليف .

والثالث : أن الدليل يفيد العلم ، وذلك لا يمكن تحريمه ، بل المراد أن القوم عرفوا بالحجة صدق محمد ﷺ ، وإنما تركوا تصديقه بغيا وعنادا ، فبين تعالى أنه قد حصل الاستغناء عن محاجتهم ؛ لأنهم عرفوا [بالحجة صدقه] فلا حاجة معهم إلى المحاجة البتة ، ومما يقوي قولنا : إنه لا يجوز تحريم المحاجة قوله تعالى : ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ (١) وقوله : ﴿ ادع إلى سبيل ربك ﴾ وقوله : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ (٢) وقوله : ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾ (٣) وقوله : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ (٤) .

ولما قرر تعالى هذه الدلائل — خوف المنكرين بعذاب القيامة ، فقال عز وجل : ﴿ الله يجمع بيننا ﴾ في يوم القيامة ، فيفصل بيننا ﴿ وإليه المصير ﴾ المرجع ، فينتقم لنا منكم ، وهذا متاركة للمقاولة بعد ظهور الحق (٥) .

(١) النحل : ١٢٥ .

(٢) العنكبوت : ٤٦ .

(٣) هود : ٣٢ .

(٤) الأنعام : ٨٣ .

(٥) قال الحاكم الجشمي في تفسيره لهذه الآيات الأحكام

الآية تدل على أنه تعالى أنزل الكتاب فتدل على حدوثه ، وتدل أن الغرض بإنزاله القيام بالحق ، ليعملوا به خلاف قول المحبرة القدريّة ، ويدل قوله ﴿ الميزان ﴾ أنه أراد العدل في الدين والدنيا ، فأنزل الكتاب للذين سلكوا طريقة الحق ، وأنزل الميزان آلة العدل في الدنيا ، ويدل قوله ﴿ يستعمل ﴾ أن المعارف مكتسبة ، لذلك خص المؤمنين بأنهم يعلمون أمّا الحق ، ووصف غيرهم بالشك ، ويدل قوله ﴿ من كان يريد ﴾ على أنه يلطف للمؤمنين ، وتدل أن هذه التي جرت في الدنيا من الحرث وغيره اللطاف في التكليف ، ليتدبر العبد فيه

ثم قال تعالى : ﴿والذين يحتاجون في الله﴾ قال [الإمام] الهادي عليه السلام أي : يدافعون عن تصديق الله ، ويكذبون ما جاء عن الله [ومعنى ﴿في الله﴾ أي : في دينه ليردوا الناس عنه إلى دين الجاهلية] ^(١) ﴿من بعد ما استجيب له حجته﴾ داحضة ﴿أي : من [بعد] ^(٢) ما قد تبينت حجته ، وظهرت دلائله وقبلها المؤمنون ، واستجابوا لرهم ، وآمنوا به ، فأخبر أن حجة من أنكر ما قد وضّح وبان — داحضة زائلة﴾ عند ربهم وعليهم غضب ﴿[عظيم من الله﴾ ولهم عذاب شديد﴾ شديد الألم ^(٣) والمعنى : أنه لم يبق لهم حجة يصرف بها عنهم العذاب ، ولا يجب تثبيتها لهم ، ولا يلزمنا بها تأخير العذاب عنهم . قد بينا وأوضحنا ، واحتججنا حتى شهدت عقولهم أن ذلك هو الحق ، ثم كابرُوا ، فليس مكابرتهم بعد المعرفة حجة عند

الله يجب بها تأخير العذاب ، كما يجب من قبل ثبات الحق عندهم وظهوره لهم ^(٤) . اهـ .
ثم أخبر تعالى أنه لما أنزل الكتاب المشتمل على أنواع الدلائل والبيّنات ، فقال : ﴿الله الذي أنزل الكتاب﴾ أي : جنس الكتاب ، أو القرآن ﴿بالحق﴾ أي : ملتبسا ومقترنا به ، بعيدا من الباطل ﴿والميزان﴾ أي : العدل والتسوية ، أي : أنزله في كتبه ، قاله ابن عباس ، والجمهور .
وقيل : هو الذي يوزن به ، وأنه حقيقة ، وأن آدم نزل من الجنة بجميع آلات الصناعات ، ومن حملتها الميزان ، وقيل : المراد بالإنزال ألهم إلى عمله .

لعمل الآخرة ، ويعلم أنه إذا لم تحصل منافع الدنيا مع قتلها وانقطاعها ، إلا بعد العمل ، والجهد فلأن يعمل للجنة مع عظم نعيمها ، ودوامها بالجهد أولى .

- (١) ما بين القوسين ليس في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام .
- (٢) ما بين القوسين ثابت في تفسير الأئمة ، وفي نسخة من المصاييح ، ولا توجد في النسخة التي اعتمدناها .
- (٣) ما بين قوسي الزيادة غير موجود في المجموع ، وثابت في المصاييح . وكذلك لا يوجد في النسخة الثانية للمصاييح .
- (٤) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٤٩ .

ثم قال تعالى : ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ فيقع الحساب ، وتوزن أعمالكم ، فلخوف المبادرة بذلك أمركم بالعدل والتسوية ، والعمل بالشرائع .
 قيل : سألته المشركون : متى تقوم الساعة تكذيبا بها ؟ فترلت ، وذكر (قريبا) كمال ذكره في قوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ (١) والمعنى : وأنتم لا تعلمون القيامة ، متى تفاجئكم ، ومتى كان الأمر كذلك وجب على العاقل أن يجد ويجتهد في النظر والاستدلال ، ويترك طريقة أهل الجهل والتقليد .

ولما كان الرسول ﷺ يهددهم بتزول القيامة ، وأكثر في ذلك ، وأنهم ما رأوا منه أثرا ، قالوا على سبيل السخرية : متى تقوم القيامة ؟ وليتها قامت حتى يظهر لنا أن الحق ما نحن عليه ، أو الذي عليه محمد وأصحابه ، فلدفع هذه الشبهة قال تعالى : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ أي : خائفون من أهوالها ﴿ ويعلمون أنها الحق ﴾ الثابت الذي لا شك في وقوعه .

ثم قال تعالى : ﴿ ألا إن الذين يمارون في الساعة ﴾ أي : يخاضعون ويحاجون ، وقيل : من المرية ، وهي الشك ، أي : تدخلهم المرية والشك فيها ، كأنه بمعنى شاكون .

ومعنى ﴿ لفي ضلال بعيد ﴾ أي : ذهاب بعيد عن الحق ؛ لأن قيامها غير بعيد من قدرة الله ، ولأن لا بد من دار جزاء ؛ لأن استيفاء حق المظلوم من الظالم واجب (٢) في العدل (٣) فلو لم تحصل القيامة لزم إسناد الظلم إلى الله تعالى ، وهذا من المحالات ، فلا جرم كان إنكار القيامة ضلالا بعيدا .

(١) الأعراف : ٥٦ .

(٢) في نسخة المؤلف (أوجب) .

(٣) وهذا هو الدليل العقلي الدال على ثبوت دار الآخرة ، وهي دار الجزاء ، وذلك أنهم يقولون : إنا نرى النظم بين العباد ، ويفنى الظالمون قبل أن يحصل القصاص منهم ، فلا بد أن يكون هناك دار أخرى يحصل فيها القصاص واستيفاء الحقوق ، حتى يتحقق عدل الله .

ثم قال تعالى : ﴿ الله لطيف بعباده ﴾ بر بليغ البر بهم ، متفضل عليهم بجلال النعم ورحمته عليهم في أمر دينهم ودنياهم ، وقد يوصل بره بهم إلى حيث لا يبلغه وهم أحدهم ، أو يكون من اللطف الذي هو التقريب إلى الغرض .
وإنما حسن ذكر هذا الكلام هاهنا ؛ لأنه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة ، فكان ذلك من لطف الله بعباده .

ثم ذكر أنه يرزقهم فقال : ﴿ يرزق من يشاء ﴾ نصيبا من البر ، ليس لغيره مثله ، ولذلك الغير نصيب آخر من البر ليس للأول ، على حسب الحكمة والمصلحة ، وأصل الإحسان والبر عام في حق كل العباد ، وذلك هو الإحسان بالحياة والعقل والفهم ، وإعطاء ما لا بد منه من الرزق ، ودفع أكثر الآفات والبليات عنهم ، فأما مراتب الغبطة والبهجة فمتفاوتة مختلفة .

ومعنى ﴿ من يشاء ﴾ أنه يفعل ذلك باختياره ومشيئته ، لا أن مكرها يكرهه يدل عليه ﴿ وهو القوي ﴾ الباهر القدرة ، الغالب على كل شيء ﴿ العزيز ﴾ المنيع الذي لا يغلب ولا يدافع .

واعلم أنه تعالى لما بين كونه لطيفا بعباده ، كثير الإحسان إليهم — بين أنه لا بد لهم من أن يسعوا في طلب الخيرات ، وفي الاحتراز عن القبائح ، فقال عز وجل : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة ﴾ أي : علمها ، وكذلك حرث الدنيا ، سمي ما يعمل مما يطلب به الفائدة حرثا ، على طريق المجاز تشبيها بالحرث الذي يطلب به فوائد الزرع ﴿ نزد له في حرثه ﴾ نوفقه في عمله ، ونضاعف حسناته ، ونزيده هدى ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا ﴾ أي : يعمل للدنيا ﴿ نؤته منها ﴾ أي : بعض ما يريد لا كله ﴿ وما له في الآخرة من نصيب ﴾ لإيثاره الدنيا على الآخرة ، والمعنى : من عمل للآخرة زاد الله له في جزاء عمله بأن يضاعف حسناته ، ومن عمل للدنيا أعطي شيئا منها ، لا ما يريد ويتغيه ، وهو رزقه الذي قسم له ، وفرغ

منه ، وما له من نصيب قط في الآخرة ، ولم يذكر في من عمل للآخرة أنه يؤتيه نصيبه من الدنيا وهو رزقه للاستهانة بذلك في جنب الثواب .

واعلم أنه تعالى لما بين القانون الأعظم ، والقسطاس الأقوم في أعمال الآخرة والدنيا — أردفه بالتنبيه على ما هو الأصل في باب الضلالة والشقاوة ، فقال عز وجل : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ ^(١) الشركاء : هم الذين زينوا لهم الشرك ، والعمل للدنيا ، والهمزة في ﴿ أَمْ ﴾ للتوبيخ والإنكار ، وهي المنقطعة ، وشرعهم : تزيينهم الشرك ، وإنكار البعث ، والعمل للدنيا ، إن كان الشركاء شياطينهم ، وإن كانت الأوثان فمن حيث أنها سبب ضلالهم ، فجعلت شارعة للكفر مجازا ، كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنْهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ ﴾ ^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ ﴾ أي : كلمة الوعيد بالآخرة ، وهي العدة بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة ﴿ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : لحكم بينهم ، أي : بين الكافرين والمؤمنين ، أو بين الشركاء وشركائهم ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ

(١) قال الحاكم الحسيمي في تفسيره التهذيب : .

الأحكام : يدل قوله ﴿ ترى الظالمين ﴾ الآية أن عذاب الظلمة واقع محالة ، وأن عقابهم يزول بالعتق والشفاعة ، فيبطل قول المرجية ، ويدل ﴿ روضات الجنات ﴾ أن بقاع الجنان مختلف ، ويدل قوله ﴿ يبشرون ﴾ أن البشارة تقع إلا بمجموع أمرين الإيمان والعمل الصالح ، وذلك يدل على ما نقوله في الوعيد ، ويدل قوله ﴿ أسألكم عليه أجرا ﴾ أنه مفرغ عن طلب منفعة على أداء الرسالة ، وإنما سألهم أن يودوه للذي بينهم من القرابة ، ويدل قوله ﴿ أم يقولون افتري ﴾ أن دعوة النبي لو كانت باطلة لبعثه الله تعالى وليينه ، ولما ظهر هذا الظهور ، و يقال : إن كثيرا من الأشياء لم يتبين بطلانها ، لأنه تعالى نصب الأدلة على ذلك ، وللمكلف طريق إلى إبطال أمره ، العلم بالفرق بين المعجز والشبهة على ما بين في الكتب ، ويدل قوله ﴿ هو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ على أشياء منها : الترويح في التوبة والتحذير من الإصرار ، ومنها — أنه يعفو عن المصير ، وإعطاء العفو عن التائب ، ومنها — أن التوبة من جميع الذنوب يصح فيبطل قول من يقول توبة للقاتل ، ويدل قوله ﴿ ويعفو عن السيئات ﴾ أن السيئات والتوبة فعل العبد ليصح الأمر والنهي والذم والمدح .

(٢) إبراهيم : ٣٦ .

﴿ أليم ﴾ شديد الألم ، وقرأ بعضهم (وأن) بفتح الهمزة في أن عطفاً له على ﴿ كلمة الفصل ﴾ يعني: ولولا كلمة الفصل وتقدير تعذيب الظالمين في الآخرة لقضي بينهم في الدنيا .

ثم إنه تعالى ذكر أحوال أهل العقاب ، وأحوال أهل الثواب ، أما الأول : فهو قوله تعالى : ﴿ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا ﴾ من السيئات ، أي : خائفين خوفاً أرق قلوبهم ، وهذا في الآخرة قبل دخولهم النار ﴿ وهو واقع بهم ﴾ أي : وعقاب كسبهم واصل إليهم ، لا بد لهم منه ، خافوا أم لم يخافوا .

وأما الثاني فهو قوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات ﴾ روضات : جمع روضه ، وهي البستان ، والروضة عند العرب : كل ارض ذات نبات وماء فهي جنة .

ثم قال : ﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم ﴾ يحتمل أمرين — أحدهما : أن يريد به الكرامة ، نحو ﴿ فالذين عند ربك ﴾ ^(١) والثاني : أن يريد في ضمانه .

ثم قال تعالى في تعظيم هذه الدرجة : ﴿ ذلك ﴾ أي : الثواب الذي هو روضات الجنات وما يشاؤون ﴿ هو الفضل ﴾ أي : العطاء ﴿ الكبير ﴾ ثم قال عز وجل : ﴿ ذلك ﴾ أي : الثواب المتقدم ﴿ الذي ييشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ .

واعلم أن هذه الآيات دالة على تعظيم حال الثواب من وجوه — الأول : أن الله تعالى رتب على الإيمان ، وعمل الصالحات روضات الجنات والسلطان الذي هو أعظم الموجودات وأكرمهم ، إذا رتب على أعمال شاقة جزاء — دل ذلك على أن ذلك الجزاء قد بلغ إلى حيث لا يعلم كنهه إلا الله .

الثاني : أنه تعالى قال : ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وقوله : ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾ يدخل في باب غير المتناهي ، لأنه لا درجة إلا والإنسان يريد ما هو أعلى منها .

الثالث : أنه تعالى قال : ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ والذي يحكم بكبره من لـه الكبرياء والعظمة على الإطلاق ، كان في غاية الكبر .

الرابع : أنه تعالى أعاد البشارة به على سبيل التعظيم ، فقال : ﴿ذَلِكَ الَّذِي يَبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ﴾ وذلك يدل أيضا على غاية العظمة ، نسأل الله الفوز بها بفضله ، والوصول إليها بمنه وطوله .

[دعاء نبوي عند ختم القرآن]

وروى إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد بن رسول الله رحمة الله عليه ورضوانه ، بسند متصل عن عاصم ، عن زر بن حبیش قال : قرأت القرآن من أوله إلى آخره في جامع الكوفة على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، فلما بلغت الحواميم ، قال أمير المؤمنين : قد بلغت عرائس القرآن ، فلما بلغت رأس العشرين ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ ذَلِكَ الْفَوْزِ الْكَبِيرِ﴾ بكى حتى ارتفع نحيبه ، ثم رفع يده إلى السماء ، وقال لي : يا زر أمن على دعائي ، ثم قال : (اللهم إني أسألك إنبات المختبين ، وإخلاص الموقين ، ومرافقة الأبرار ، واستحقاق حقائق الإيمان ، والغنيمة من كل بر ، والسلامة من كل إثم ، ووجوب رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار . يا زر إذا ختمت فادع بهذه الدعوات ، فإن حبيبي رسول الله ﷺ أمرني أن أدعو بهن عند ختم القرآن . اهـ

[تفسير آية المودة]

ثم اعلم أنه تعالى لما أوحى إلى محمد صلوات الله عليه وآله ، هذا الكتاب الشريف العالي ، وأودع فيه أقسام الدلائل ، وأصناف التكاليف ، ورتب على الطاعة الثواب ، وعلى المعصية العقاب — بين أني لا أطلب منكم بسبب هذا التبليغ نفعاً عاجلاً ومطلوباً حاضراً ؛ لئلا يتخيل جاهل أن مقصود محمد ﷺ من هذا التبليغ المال

والجاء ، فقال سبحانه ، وجل عن كل شأن شأنه ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ﴾ معنى قوله : ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ أي : إلا أن تودوا أهل بيتي وإنما قال : ﴿ في القربى ﴾ ولم يقل : للقربى ؛ لأنه جعلهم مكانا للمودة ، ومقرا لها كقولك : لي في بني فلان مودة ^(١) ، ولي فيهم هوى ، وحب شديد . تريد : أحبهم ، وهم مكان حي ومحله ، ففرض الله سبحانه بهذه الآية مودة أهل البيت عليهم السلام على قاصي الأمة ودانيها ، ومطيع البرية وعاصيها .

[سبب نزول الآية] [روي أن المشركين اجتمعوا في مجمع فقال بعضهم لبعض أترون محمدا يتعاطى على ما يتعاطاه أجرا ؟ فترلت .

وفي البرهان : روي عن ابن عباس ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا ﴾ ذكر أن الأنصار جمعت للنبي ﷺ نفقة ، فقالت : إن الله تبارك وتعالى قد هدانا بك ، وأنت ابن أختنا ، فاستعن بهذه النفقة على ما ينوبك ، فلم يقبلها ، فأنزل الله سبحانه في ذلك ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ﴾ اهـ ^(٢)

واعلم أنه قد كثرت الأقاويل في تأويل هذه الآية الكريمة ، واستنبطوا وجوها وجدوا عنها مندوحة ، وبه جرت العادة في كل فضيلة ذكرت لآل محمد ﷺ في القرآن ، ولست أدري ما السبب فيه ، (وأنا أذكر طرفا ^(٣) من ذلك إنشاء الله ، كل شئ في موضعه) ، وأدل على الوجه الصحيح من ذلك ، الذي عليه أئمتنا عليهم السلام ، وشيعتهم رضي الله عنهم ، وغيرهم ممن وافقهم .

(١) وفي النسخة الثانية من المصاييح (لي بيتي فلان مودة) .

(٢) ما بين قوسي الزيادة من قوله : (روي أن المشركين .. إلى هنا غير موجود في النسخة التي اعتمدها ، وموجود في النسخة الثانية من المصاييح ، وهي النسخة التي يقال : إنها نسخة المصنف رحمه الله .

(٣) ما بين القوسين هو الثابت في النسخة الثانية من المصاييح ، ولفظ النسخة الأولى : وأنا أذكر مما قالوه طرفا من كل شئ إن شاء الله في موضعه) .

فمن ذلك هاهنا في اختلافهم في الاستثناء ، فقال قوم : هو منقطع ، وقال آخرون : متصل فيكون قد سأل أجرا ، وهو مودة قرابته ، ثم اختلف هؤلاء ، فقالوا عن ابن عباس في رواية ^(١) ، ومقاتل : إنها منسوخة بقوله : ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ﴾ ^(٢) .

قال الثعلبي والواحدي : ومن قال بالنسخ فقد غلط ؛ لأنه لا يصح أن يقال : نسخ مودة النبي وكف الأذى عنه ، ولا مودة آله وقرابته ، ولا التقرب إلى الله بالطاعة ^(٣) ،

(١) هذا يدل على مدى ما بلغ ببعض هذه الأمة من حقوة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، ولقرابته عليهم السلام ، وإلا فكيف لم يذكروا عن ابن عباس إلا هذا وتركوا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه وهو : عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : لما نزلت ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ﴾ قالوا : يا رسول الله من قرابتك هؤلاء ، الذين وجبت علينا مودتهم ؟ قال : علي وفاطمة وابناهما . وهذا اللفظ رواه أحمد - أو ابنه عبد الله ، في الحديث (٢٣) من فضائل أمير المؤمنين عليه السلام من كتاب الفضائل ص ١٨٧ ط قم ، قال : وفيما كتب إلينا محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي ، يذكر أن حرب بن الحسن الطحان حدثهم ، قال : حدثنا حسين الأشقر ، عن قيس ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس .. إلى آخر ما ورد هنا .

ورواه أيضا الطبراني في ترجمة الإمام الحسن عليه السلام ، تحت الرقم ٢٦٤١ ، من كتاب المعجم الكبير ج ٣ ، ص ٣٩ ط ١ . ورواه بسنده عنه السيد المرشد بالله عليه السلام ، في عنوان : الحديث السابع في فضل أهل البيت عليهم السلام ، من ترتيب أماليه ج ١ ، ص ١٤٨ ، ورواه أيضا ابن المغازلي في الحديث ٣٥٢ ، من كتابه مناقب علي عليه السلام ص ٣٠٧ ط ٢ . (تفسير آية المودة لأحمد بن محمد شهاب الدين الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩هـ - ص ٣١ .

(٢) سبأ : ٤٧ .

(٣) اعلم أيها الطالب للرشاد بأنه قد كثرت في هذه الأيام وانتشرت عن كثير من نجوم [تعبير يطلق على الفنانين والفنانات من أهل الفن] مفسري التلفزيون ، وهم يرددون بأن المراد بمودة أهل القربى ، أي : قرابة الرجل ، وصاروا لا يذكرون غيره ، وكأنه هو التفسير الصحيح ، حتى أصبح من النادر أن يذكر غير هذا التفسير ، وهذا يدل على مدى الزيغ الذي حصل لهذه الأمة من النابتة ، الذين لا هم لهم إلا الدعوة إلى منابذة أهل البيت ، وطمس ومحو آثارهم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون . انظر المفسرين المتقدمين ، وكيف فندوا هذا الرأي ، وأبانوا بما لا مزيد عليه من أن المراد بالقربى آل محمد (انظر الكشف ، والبيضاوي ، والرازي ، والتيان) وغيرهم الكثير .

ومن ادعى النسخ توهم أن الاستثناء متصل ، وليس الأمر على ذلك^(١) ، فإن الاستثناء منقطع ، وتم الكلام عند قوله : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا ﴾ ثم قال : ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ أي : لكن أذكركم قرابتي منكم ، وكأنه في اللفظ أجر ، وليس بأجر .

قلت : والصحيح ما ذكره أئمتنا وشيعتهم عليه السلام ، من ذلك قول إمامنا المنتصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام ، فإنه قال : معنى ﴿ إلا ﴾ في قوله تعالى : ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ إنما هي بمعنى غير ، ومعناها : التفخيم لأمرهم ، والتعظيم لهم عليه السلام كما قال الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
هـن فلول من قراع الكتائب
أراد بـ (غير) المبالغة في المدح ، وإليه ذهب عمرو بن بحر الجاحظ^(٢) في كتابه (كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام) الذي صنفه للمأمون . اهـ
وروى الإمام أبو الفتح الديلمي في البرهان عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا ﴾ ذكر أن الأنصار جمعت للنبي ﷺ نفقة ، فقالت : إن الله قد

(١) وذكر الزمخشري بأنه يجوز أن يكون الاستثناء متصلا ، أي : لا أسألكم أجرا إلا هذا ، وهو أن تودوا أهلي وقرابتي ، ولم يكن هذا أجرا في الحقيقة . انظر الكشف ٢١٩/٤ .
(٢) عمرو بن بحر الجاحظ : هو عمر بن بحر بن محبوب الكنازي بالولاء ، الليثي ، أبو عثمان ، الشهير بالجاحظ ، من أئمة الأدب العربي ، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة ، من أهل البصرة ، مولدا و وفاة ، تعلم بها وبغداد ، فنه في علوم الأدب واللغة ، وأحاط بمعارف عصره ، فلم يترك موضوعا إلا وكتب فيه ، تقرب من الخلفاء والوزراء ، إلى أن ولي المتوكل العباسي ، وتنكر للمعتزلة ، فتوارى الجاحظ ، وعاد إلى البصرة ، ولازم منزله الذي أصبح مثنوى الأدب ، ومحط رحاله ، و فلعج في آخر عمره ، ومات والكتاب على صدره ، قتلته مجلدات وقعت عليه ، كتبه كثيرة شهيرة ، وموجودة بأرقى الطباعات ، ويعد في العثمانية ، ومن المتحجج على الشيعة . انظر متن الأساس بتحقيقنا ص ٨١ ، ط ١ . وقد ذكر المصنف في النسخة الثانية للمصاييح ، أنه انتهى النقل من الشافي ، للإمام المنتصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام .

هدانا بك ، وأنت ابن اختنا ، فاستعن بهذه النفقة على ما ينوبك ، فلم يقبلها ،
فأنزل الله سبحانه في ذلك ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ﴾ . اهـ
وروى في البلغة عن علي بن الحسين زين العابدين ، رواية عن أبيه ، عن أمير
المؤمنين عليه السلام جميعا ، وبه جاءت إحدى الروايتين عن ابن عباس ، وبه قال سعيد
بن جبير ، وجماعة من التابعين ، وهو أن معناه : لا أسألكم على ما تجشمت من
إظهار الدين ، وإبلاغ الوحي شيئا من حطام الدنيا ، ولا أجرا من حسنة ، ولكن
أسألكم أن تجعلوا على ذلك مودة قرابتي ، وأهل بيتي ، وكان السبب في ذلك ما
رواه آل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وغيرهم من الصحابة والتابعين أن
الأنصار جاؤا إلى رسول الله ﷺ بنفقة ، وقالوا لرسول الله : تجشمت المشاق ،
وقاسيت الشدائد ، حتى أتممت الدعوة ، وأقمت الحجة ، وفعلت كيت وكيت ،
وقد جئناك بنفقة ، ولو أذنت لخرجنا من أموالنا على قدر وسعنا وطاقتنا ، فأنزل الله
﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ﴾ أي : إلا أن تودوني في قرابتي
وأهل بيتي ، وأراد بهم أمير المؤمنين ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين ، ومن جرى
مجراهم من قرابته وأهل بيته^(١) ، تدلك على ذلك الآثار التي وردت في هذا الباب ،

(١) وقد جاء ذلك في حديث رواه ابن عباس ، قال ابن المغازلي في مناقبه ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ط دار
الأضواء سنة ١٤٠٣ هـ : أخبرنا أبو طالب محمد بن أحمد بن عثمان ، أخبرنا أبو محمد عبد العزيز بن أبي صار
إذنا ، حدثنا إبراهيم بن إسحاق بن هاشم بدمشق ، حدثنا عبيد الله بن جعفر العسكري بالرقعة ، حدثنا يحيى بن
عبد الحميد ، حدثنا حميد الأشقر [عن قيس] عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : (لما نزلت
﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ﴾ قالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم ؟ قال :
علي وفاطمة وولدهما) .

قال البهري في تحريجه : أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المناقب ٢١٨ مخطوط ، وخرجه عنه العلامة محب
الدين الطبري في ذخائر العقبى ، ٢٤ ، وأخرجه الثعلبي في الكشف والبيان ، والطبري في معجمه الكبير ١٣١
نسخة جامعة طهران ، وخرجه عنه الكنجي في كفايته ب ١١ ص ٩١ ، والطيشي في مجمع الزوائد ١٦٨/٩ ، و
١٠٣/٧ ، كلهم بالإسناد إلى الحسين بن الحسن الأشقر ، بعين السند واللفظ ، وأخرجه بعين هذا السند ابن

وهي لا تحصى كثرة ، فاستغني عن ذكرها لشهرتها ، وهو ما نقله الخاص والعام ،
 وقرن ذكرهم بذكر النبي ﷺ في الصلاة عليهم في التشهد وغيره ، اللهم صل
 على محمد وعلى آل محمد^(١) . [الأمر بالصلاة على آل النبي يدل على فضلهم]
 قال بعض أئمتنا عليهم السلام : أجمعت الأمة على قولهم : اللهم صل على محمد
 وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، وأنه
 مشروع ، ومندوب إليه ، ومن قال بالوجوب فمرتبة عليا ، وإجماعهم يجب أن
 يكون مقطوعا به ، كما هو مقرر في موضعه ، فإذا شرعت الصلاة على آل رسول
 الله صلى الله عليه وآله بإجماع الأمة^(٢) ، وامتنعت على من سواهم بلا خلاف —

كثير الدمشقي في تفسيره ١١٢/٤ من طريق ابن أبي حاتم ، وابن حجر العسقلاني في تخرج أحاديث الكشف
 من طريق الطبراني ، وابن أبي حاتم ، والحاكم في مناقب الشافعي .
 (١) قال الشافعي رضي الله عنه :

يا أهل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله
 كفاكم من عظيم الشأن أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له

(٢) هذا وقد دأبت ثابتة هذا الزمان ، من أتباع بني أمية ، ومبغضي أهل البيت على الصلاة على النبي
 ﷺ في كتبهم ، وخطبهم ، وأحاديثهم ، مجردة عن الآل ، وصار هذا دينا معروفا لديهم وعندهم ، وإن
 ذكروا بهذا أظهروا الصلاة على الآل لا حبا لهم ، ولا اعترافا بحقهم ، وإنما خوفا من اتهامهم بعدم محبة أهل
 البيت ، لأنه لن ينق سوقهم إذا أصروا على موقفهم من البغض والعداوة ، وما هذا إلا ما تظهره ألسنتهم مما
 هو مخبوء في قلوبهم ، أعادنا الله من أفعالهم ، وكفى المسلمين شرهم ، فقد جروا كل الولايات بسبب حقدهم
 الأعمى وبغضهم الظاهر الذي يودون مداراته وإخفاته . حتى أن أحدهم ألف كتابا في كيفية الصلاة على النبي
 ﷺ ، وذكر كل الأحاديث الواردة في فضل الصلاة على محمد ﷺ ، وفي كيفية الصلاة ، ثم عقد
 بابا في آخر الكتاب ، وجعله توضيحا لمن يصح إدخاله في هذه الصلاة ، ومن لا يصح ، فذكر أنه لا يصح
 إدخال أي شيء آخر غير آل محمد الذين وردت الأحاديث بإدخالهم ، وليته عمل به لحظة واحدة ، فقد أتم
 الباب ، وهو حائمة الكتاب بالصلاة على النبي وأدخل الصحابة أجمعين ، مع ذكره إنه لا يصح إدخال غير
 الآل ، فهلا عمل بما ذكر واستدل عليه ولو لمرة واحدة . نعوذ بالله من الخذلان .

قطعنا أنهم أفضل من غيرهم ؛ لأنه لا معنى للأفضل إلا من يأمرنا الله بتوقيره وتعظيمه والدعاء له ، وهذه حالهم . اهـ

فقد جعل النبي صلوات الله عليه وعلى آله وسلم أجره على ما جاء به مودة قرابته في أمر الله ، وروي عنه رواية عامة أنه قال : (لعن الله من منع أجيرا أجره) وروي أنه قال لعلي عليه السلام : (يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة ، فمن عاق أبا فعلي لعنة الله) ^(١) وقال له : (حبك إيمان وبغضك نفاق) وقال ﷺ : (أربعة أنا شفيع لهم يوم القيامة : المكرم لذريتي ، والقاضي لهم حوائجهم ، والساعي لهم في أمورهم ، والمحِب لهم بقلبه ولسانه) هذه الرواية عن الرضا علي بن موسى عليها السلام .

وروى في الكشف عن النبي ﷺ أنه قال : (من مات على حب آل محمد مات شهيدا ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفورا له ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائبا ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الإيمان ، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ، ثم منكر ونكير ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها ألا ومن مات على حب آل محمد فتح الله له في قبره بابين إلى الجنة ، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة

(١) له شاهد أورده ابن عساكر في ترجمة أمير المؤمنين في تاريخه ، عن جابر ، بلفظ (حق علي بن أبي طالب على هذه الأمة كحق الوالد على ولده) كما أورده أيضا عن أبي أيوب ، وعن أمير المؤمنين ، انظر ترجمة الإمام علي من تاريخ مدينة دمشق تحقيق محمد باقر المحمودي ٢/٢٧١ ، قال محققه : ورواه ابن المغازلي في الحديث ٧٠ من مناقبه ص ٤٧ ط ١

مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله ، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا ، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة^(١) . اهـ .

إذا عرفت هذا فاعلم أن بغضهم عليه السلام أقبح وأشنع ، كما أن حبهم أوجب وألزم ، وكفى باغضهم حزيا ونكالا وظلما ووبالا قوله ﷺ : (لا يبغضنا أهل البيت إلا أحد ثلاثة امرؤ يؤتى في دبره أو رجل لغير رشده ، أو حملت به أمه في خيضة)^(٢) .

قال إمامنا المنصور بالله رحمة الله عليه : وجد في بعض الكتب ما لفظه (ووصله — يعني القاسم بن إبراهيم عليه السلام — أهل اليمن يطلبون انتقاله ، فقال : قد كبرت ، ولكن أصدر معكم ولدي محمد بن القاسم ، فصدره معهم ، فكان فيما أوصاه : إحذر على نفسك من قبائل أذكركم لك في اليمن ، لا تحل أفئدتكم محبة أهل البيت ، ولا تخلو من بغاضتهم ، بنو الحارث بنجران ، والحدادون بصعدة ، وبنو سلمان بعيان ، وبنو معبد بنخيوان ، وبنو المكمل بثاقب ، ولعوه بضحيان ، وبنو الوليد بصنعاء ، وهيرة ببلاد همدان ، وإياك أن تركزن إلى هؤلاء أبدا ، وكذا أوصى محمد بن القاسم عليهما السلام ابن أخيه الهادي إلى الحق بذلك ، وحذره من هؤلاء القبائل المذكورين ، نجانا الله منهم ، ومن أشباههم من فسقة العرب والعجم ، بحق محمد وآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين .

(١) الكشف وفي تحريجه قال ابن حجر : رواه الثعلبي ، أخبرنا عبد الله بن محمد بن علي البلخي ، حدثنا يعقوب بن يوسف بن إسحاق ، حدثنا محمد بن أسلم ، حدثنا يعلى بن عبيد ، عن إسماعيل بن [أبي خالد عن] قيس [بن أبي حازم] عن جرير بن عبد الله البجلي بطوله ، قال ابن حجر : وآثار الوضع عليه لائحة [قلنا : ودلائل النصب في قولك واضحة] قال : ومحمد ومن فوقه أثبات ، والآفة فيه ما بين الثعلبي ومحمد . اهـ قلنا : وهو في الرازي عن الكشف ، قال الرازي : هذا الذي رواه صاحب الكشف ، وأنا أقول آل محمد (ص) الذين يؤول أمرهم إليه الخ كما سيأتي ، كما أورده أيضا الثعلبي ، والأصفهاني ، وغيرهم .

(٢) له شاهد أورده الإمام محمد بن سليمان الكوفي في مناقب أمير المؤمنين رقم ٥٨٨ عن جعفر بن محمد عن أبيه ، يرفعه إلى رسول الله ﷺ بلفظ (لا يبغض أهل بيتي من الناس إلا ثلاثة رجل وضع على فراش أبيه لغير أبيه ، ورجل جاعت به أمه وهي حائض ، ورجل منافق) أنظر مناقب أمير المؤمنين ١٠١/٢ بتحقيق المحمودي .

واعلم أن هذا توقيف ، لأن الإخبار عما في القلوب لا يكون إلا بوحى من الله سبحانه إلى نبيه محمد ﷺ ، ثم بلغ إلى القاسم بن إبراهيم عليها السلام من غير ما ذكرنا ؛ لأن الله يقول : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ (١) ولما اختلفت العامة في الآل من هم ؟ قال الرازي : وأنا أقول : آل محمد [ﷺ] هم الذين يؤول أمرهم إليه ، فكل من كان مآل أمرهم إليه أشد وأكمل كانوا هم الآل ، ولا شك أن فاطمة ، وعلي ، والحسن ، والحسين — كان التعلق بينهم وبين رسول الله ﷺ أشد التعلقات ، وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر ، فوجب أن يكونوا هم الآل وأيضا اختلف الناس في الآل فليل : هم الأقارب ، وقيل : هم أمته ، فإن حملناه على القرابة فهم الآل ، وإن حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضا آل ، فثبت أن على جميع التقديرات هم الآل ، وأما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل فمختلف فيه [ثبت على جميع التقديرات أنهم آل محمد ﷺ] (٢) وروى صاحب الكشف أنه لما نزلت هذه الآية قيل : يا رسول الله من قرابتك هؤلاء ؟ الذين وجبت علينا مودتهم ؟ فقال : (علي وفاطمة وابناهما) (٣) فثبت أن

(١) النمل : ٦٥ .

(٢) ما بين قوسي الزيادة من كلام المصنف ، وليس من كلام الرازي ، فقد تقدم في كلام الرازي هذا الكلام (٣) الكشف . قال ابن حجر في تخرجه : قال الطبراني ، وابن أبي حاتم ، والحاكم في مناقب الشافعي من رواية حسين الأشقر ، عن قيس بن الربيع ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : وحسين ضعيف ساقط [قلنا : بل هذا القول ساقط ؛ لأن حسين الأشقر من خيار محدثي الزيدية ، الموالين لآل محمد ، الموثقين من أئمة العترة] قال ابن حجر ، وقد عارضه ما هو أولى منه ففي البخاري من رواية طاووس عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية فقال سعيد بن جبير : قري آل محمد (ص) فقال ابن عباس : عجلت ، إن النبي (ص) لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة .. الخ [فانظر إلى تعليقات ابن حجر مع أن ما أورده لا يعارض الحديث كما هو واضح ، ولكن لهُوى النفوس سريرة لا تعلم] وقد تقدم تخرجه الحديث عن أحمد بن حنبل وغيره ، وسيأتي تخرجه أيضا في كلام المصنف رحمه الله .

هؤلاء الأربعة أقارب النبي ﷺ ، وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد [من] التعظيم ، وتدل على وجوه :-

الأول : قوله تعالى : ﴿إلا المودة في القربى﴾ ووجه الاستدلال به كما سبق .
 الثاني : لا شك أن النبي ﷺ كان يحب فاطمة عليها السلام ، قال عليه السلام : (فاطمة بضعة مني ، يؤذيني ما يؤذيها) ^(١) وثبت بالنقل المتواتر عن محمد ^(٢) ﷺ أنه كان يحب عليا والحسن والحسين ، وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله ؛ لقوله تعالى : ﴿واتبعوه لعلكم تفلحون﴾ ^(٣) وقوله : ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾ ^(٤)

(١) وقد رواه البخاري في باب فضائل فاطمة من كتاب بدء الخلق من كتابه الذي تسميه العامة بالصحيح ج ٥ ، ص ١٩٢ ، قال : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن ابن أبي مليكة ، عن المسور بن مخرمة ، أن رسول الله ﷺ قال : (فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبي) ورواه أيضا مسلم في باب فضائل فاطمة صلوات الله عليها في الباب ١٥ ، من كتاب الفضائل ، الجزء الرابع ، ص ١٩٠٣ ، طبعة الحديث ، قال : حدثني أبو معمر إسماعيل بن إبراهيم الهذلي ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن ابن أبي مليكة ، عن المسور بن مخرمة ، قال قال رسول الله ﷺ : (إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما أذاها) ورواه أيضا الحافظ أبو بكر ابن أبي شيبة في مناقب فاطمة عليها السلام من كتاب المناقب تحت الرقم ١٢٣١٩ ، من كتاب المصنف ١٢٦/١٢ ، طبعة الهند ، وفي المخطوطة ج ٦ ، الورق ١٨١ . قال : حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو بن دينار [عن محمد بن علي ، قال : قال رسول الله ﷺ : (إنما فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبي) . ورواه بأسانيد الحافظ الطبراني في مسند فاطمة عليها السلام تحت الرقم ١٠١ - ١١٥ ، وما بعده من المعجم الكبير ج ٢٣/٤٠١ - ٤٠٥ ، ط ١ . وكذلك رواه أيضا الحاكم ، ورواه أحمد في كتاب الفضائل ، ورواه أيضا بخلط الخليل بالنابل في مسند المسور بن مخرمة من كتاب المسند ، ورواه الترمذي ، والحافظ البيهقي بأسانيد ، والحافظ عمر بن شاهين ، وأبو نعيم في ترجمة الإمام الصادق عليه السلام ، وابن حجر في ترجمة فاطمة عليها السلام من كتاب تهذيب التهذيب ، والسيوطي في كتابه الثغور الباسمة ، ومن أراد المزيد فعليه عما أورده العلامة الأميني في كتابه الغدير ٢٠/٣ ، ٢٣١/٧ . (انظر كتاب تفسير آية المودة للخفاجي ص ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨) .

(٢) في الرازي (عن رسول الله) .

(٣) الأعراف : ١٥٨ .

(٤) النور : ٦٣ .

ولقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(١) ولقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٢).

الثالث: أن الدعاء للآل منصب عظيم، ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلوات، وهو قوله: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمد وآل محمد، وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل، وكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب، قال الشافعي:

ياراكبا قف بالمحصب من منى	واهتف بساكن خيفها والنهض
سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى	فيضا كملتطم الفرات الفاض
[قف ثم ناد بأني لمحمد	ووصيه وابنيه لست بياغض
واسألهم هل حب آل محمد	فإن جحدوا جحدت
إن كان رفضا حب آل محمد	فليشهد الثقلان أني رافضي

انتهى كلام الرازي، ومن حكى عنه من غير أهل مذهبنا، وعلى هذا المعنى إجماع أهل البيت عليهم السلام، وشيئعتهم رضي الله عنهم.

وروى الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام بإسناد رفعه إلى ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عَمَلِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ فِيمَا أَنْفَقَهُ، وَمَنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَعَنْ حُبِّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ﴾^(٣).

(١) آل عمران ٣١.

(٢) الأحزاب: ٢١.

(٣) البيتان بين قوسي الزيادة ليسا في الرازي المطبوع بدار إحياء التراث العربي، ولعل يد البعث قد مستحتهما من المطبوع، وينظر في الأصول المخطوطة.

(٤) رواه الإمام السيد أبو طالب عليه السلام مسندا في الباب الثالث ص ٧٣، ورواه أيضا مسندا الخوارزمي في الفصل الرابع من مقتل الإمام الحسين عليه السلام ٤٢/١، وفي الفصل السادس من كتابه مناقب علي عليه

وروي عن [الإمام] زيد بن علي عليهما السلام ، عن آبائه عليهما السلام ، عن علي رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : (والذي نفس محمد بيده لا تفارق روح جسد صاحبها حتى تأكل من ثمار الجنة ، أو من شجر الزقوم ، وحتى ترى ملك الموت ، وتراني ، وترى عليا ، وفاطمة ، وحسنا ، وحسينا ، فإن كان يحبنا قلت : يا ملك الموت ارفق به ، فإنه كان يحبني ويحب أهل بيتي ، وإن كان يبغضنا قلت : يا ملك الموت شدد عليه ، فإنه كان يبغضني ويبغض أهل بيتي) . اهـ

قال إمامنا الأعظم المنصور بالله القاسم بن محمد رحمة الله عليه — وقد سئل عن معنى هذه الآية — ما لفظه : صح لنا من معنى الآية في قوله تعالى : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ﴾ أن المراد بهم علي ، وفاطمة ، وذريتهما . وذلك مروى عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله .

وروى ذلك الإمام المرشد بالله عن ابن عباس مرفوعا إلى النبي ﷺ من طريقين^(١) وفي تفسير الثعلبي عن ابن عباس عن النبي ﷺ من طريق واحدة . ورواه ابن حنبل عن ابن عباس مرفوعا إلى النبي ﷺ من طريق واحدة^(٢) . ورواه الحاكم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله من تسع طرق ، وذلك في شواهد التزويل للحاكم^(٣) .

هذا وفي كتاب ابن المغازلي عن ابن عباس من طريق واحدة مرفوعا إلى النبي ﷺ كذلك .

السلام ، ورواه الطبراني في المعجم الأوسط كما في مجمع الزوائد ٣٤٦/١٠ ، ورواه الفيروز آبادي عنه ، وعن غيره في كتاب فضائل الخمسة ٧٧/٢ . (تفسير آية المودة ٨٣) .

(١) أمالي المرشد بالله ١٤٨/١ .

(٢) تقدم تخريجه . وقال الخفاجي في تفسير آية المودة ، رواه أحمد — أو ابنه عبد الله — في الحديث ٢٦٣ ، من فضائل أمير المؤمنين عليه السلام من كتاب الفضائل ص ١٨٧ . (تفسير آية المودة ص ٣١) .

(٣) ورواه أيضا ابن المغازلي في الحديث رقم ٣٥٢ ، من كتابه مناقب علي عليه السلام ص ٣٠٧ ، ط ٢ . ورواه الطبراني في ترجمة الإمام الحسن عليه السلام تحت الرقم ٢٦٤١ ، من كتاب المعجم الكبير ٣٩/٣ ، ط ١ .

وفي مجمع الزوائد عن ابن عباس من طريقين ، مرفوعا إلى النبي ﷺ كذلك .
وفي شواهد التنزيل عن أبي أمامة عن النبي ﷺ من طريق واحدة .
وفي شواهد التنزيل للحاكم عن مجاهد بلفظ (إلا أن تتبعوني وتصلوا قرابتي) .
ورواه الفقيه محي الدين في كتاب (ذخائر العقبى) عن ابن عباس مرفوعا ، من طريق واحدة .

وروى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : (جعل الله أجري عليكم المودة في أهل بيتي ، وإني سألكم عنهم غدا) وقال : أخرجه الملا في سيرته .
وروى معنى هذا صاحب الكشاف (١) .

فهذه الطريقة مرجحة على ما خالفها من التأويلات ؛ لأن الأنصار جمعوا للنبي ﷺ مالا وأتوا به ، وقالوا : استعن بهذا المال في النوائب التي ترد عليك ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ﴾ فقال قائلهم : إنما يريد أن نطيع قرابته من بعده ، ونكون لهم أتباعا ، ونحرم نفاق المنافقين منهم ، فأنزل الله قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتري على الله كذبا ﴾ (٢) الآية ، والقصة مستوفاة في غضون هذه الطرق ، ودل ذلك على أنهم فهموا ما تضمنته الأخبار من أن المراد بالآية آل النبي ﷺ ؛ لأنهم أهل اللسان العربي ، فلم يفهموا إلا خلاف ما ذكره المتأولون وأما أن الأجر على هداية النبي صلى الله عليه وآله وآله لأمته لا يصح ، فذلك إن كان لغرض دنيوي فذلك معلوم من الدين بطلانه ، وإن كان لغرض في الدين بأن يكون من أسباب الهداية للأمة كما جاء في الأخبار الصحيحة المعلومة المتواترة ، من قوله صلى الله عليه وآله : (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبدا

(١) انظر الكشاف ٤/ ٢٢٠ ، ٢٢١ . ط دار الكتاب العربي .

(٢) الشورى : ٤٢ .

كتاب الله وعترتي أهل بيتي^(١) الأخبار المتقاربة لفظاً ، المتفقة في المعنى ، فإنه لا يقدح في نبوة النبي ﷺ .

ويدل على صحة ذلك قوله تعالى : ﴿ ما سألتكم عليه من أجر فهو لكم ﴾^(٢) أي : أجرني الذي هو مودة قرابتي لكم خاصة ، لأن ثمرها لكم في الدنيا ، الهدى والسلامة من الضلال ؛ لأن الله قرنهم بكتابه ، وفي الآخرة جزيل الثواب والسلامة من العقاب ، لا تباعكم إياهم ، وتمسككم بهم وبالكتاب ، وليس لي غرض دنيوي يعود علي نفعه في الدنيا ، ولا جعلت ذلك لهم بهوى مني ، وهذا من الخطاب التكميلي ، أي : هذا الذي ذكره الله بلفظ الأجر إنما هو لكم نفعه في الدين ، والخطاب التكميلي قد ورد في كتاب الله غير هذا ، كما في قوله سبحانه : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ وقال في آية أخرى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾^(٣) إذ لولا هذه الآيتان لم يعلم أن ليلة القدر في رمضان ، فتأمل جميع ذلك موقفاً إن شاء الله تعالى .

ولو فرضنا أن لا هداية للأمة إذا تمسكوا بهم عليه السلام ، أليس يجب عليهم أن يجوههم لإيمانهم ولقرهم من رسول الله ﷺ ؟ ولا يجب إلا ما كان من الدين لا من الدنيا الراجع نفعها ، لأن محبتهم إيمان وبغضهم نفاق ، كما وردت به الأحاديث الصحيحة ، فيكون المعنى حينئذ أن يأخذوا بما هو علامة الإيمان من مودتهم ، ولا يأخذوا بما هو علامة النفاق من بغضهم ، وهذا المعنى مستقيم عند الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، والله ولي التوفيق . اهـ

[قلت] : وقد أجاب الرازي على من قال : إن طلب الأجر على تبليغ الوحي لا يجوز من وجهين — الأول : أن هذا من باب قوله : (ولا عيب فيهم) .. البيت .

(١) تقدم تخريجه ، وهو من الأحاديث المشهورة المتواترة التي لا تحتاج إلى تخريج .

(٢) سبأ : ٤٧ .

(٣) البقرة : ١٨٥ .

يعني أنا لا أطلب منكم إلا هذا ، وهذا في الحقيقة ليس أجراً^(١) ؛ لأن حصول المودة^(٢) بين المسلمين أمر واجب ، والآيات والأخبار في هذا الباب كثيرة ، وإذا كان حصول المودة بين جمهور المسلمين واجبا فحصوله في حق أشرف المرسلين وأكابرهم أولى ، فقلوه [تعالى]: ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ﴾ تقديره : والمودة في القربى ليست أجرا ، فرجع الحاصل إلى أنه لا أجر البتة .

والوجه الثاني : في الجواب أن هذا استثناء منقطع ، وتم الكلام عند قوله : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا ﴾ ثم قال : ﴿ إلا المودة في القربى ﴾ أي : لكن أذكركم قرابتي منكم ، وكأنه في اللفظ أجر ، وليس بأجر . اهـ .

قال الإمام يحيى عليه السلام في الانتصار : وجه الاستدلال بهذه الآية على فضلهم هو أن الله سبحانه لما كان من أعظم نعمه على الخلق وأجلها وأعلاها وأكملها بعثه رسول الله ﷺ لهداية الخلق ، وإرشادهم إلى السعادة الأخروية ، وإزاحتهم عن العمى ، وهدايتهم إلى طرق الهدى به ﷺ ، فما كان في مقابلة هذه النعمة يكون لا محالة جليل القدر ، عظيم المترلة ، لكونه حصل في مقابلته ، والله تعالى قد جعل في مقابلة النعمة بالرسول والجزاء على عنايته في الخلق هو المودة ، والمحبة لمن كان قريبا إليه ، وما هذا حاله فليس يخفى مزيد فضله ، وعلو حاله وأمره ، من جهة كونه واردة في معرض المدح ، والتنبيه على مزيد فضل القرابة ، وعلو قدرهم ، واهتمام — أمر الله تعالى بهم ، حتى قال فيهم ما قال . اهـ .

وروى الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام عن النبي ﷺ أنه قال : (إن الله جعل

(١) في الرازي (ليس أجرا) وفي المصاييح (ليس بأجر) . ١٦٥/٢٧ .

(٢) في الرازي (لأن حصول المودة) وفي المصاييح (لأن حصول المودة) ١٦٥/٢٧ . وزاد الرازي بعد قوله : أمر واجب (قال تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ وقال ﷺ : (المؤمنون كالبنينان يشد بعضه بعضا) . ١٦٥/٢٧ .

أجري عليكم المودة في القربى ، وأنا سائلكم غدا فمحف لكم في المسألة ، وحرم بغضنا على الأحمر والأسود ، وجعله بابا إلى عذاب الأبد ، والهلاك المخلد ، وإحباط محاسن الأعمال ، وحرمان الجزيل من النوال .

وقال عليه السلام : (لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه ، وأهلي أحب إليه من أهله ، وعترتي أحب إليه من عترته) ^(١) . اهـ

ومما ورد في علي بن أبي طالب عليه السلام عنه عليه السلام : لو أن رجلا عبد الله ألف سنة ، بعد ألف سنة ، حتى صار كالحنايا ، وصام حتى صار كالوتر بين الركن والمقام ، ثم لقي الله وفي قلبه بغض علي لكبه الله على منخريه في النار .

قال قاضي القضاة : هذا الخبر كما يدل على شرف علي عليه السلام يدل على أن الكبائر تحبط الأعمال ، وعلى أن بغض علي كبيرة .

وقال عليه السلام لعلني : (لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق) .
إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة ، من رواية المخالف والموافق ، حتى أفاد العلم القطعي .

فانظر كيف تضمنت هذه الآية ، والسنة الشريفة لهم عليه السلام منقبية راجحة بالمناقب ، ومرتبة عالية المراتب ، حيث جعل الله عز وجل حبهم الذي هو لهم نفع في الدين ، أجرا لسيد المرسلين ، أوجه على كافة الخلق أجمعين ، ومن ظلم الأجير أجرته فهو من الظالمين ، فما حال من ظلم النبي الأمين أجره ، في وداد عترته الأكرمين ، فهو من الهالكين بأيقن يقين .

وروى الإمام الحسن بن بدر الدين في شرحه لأنوار اليقين ، عن الإمام القاسم بن

(١) رواه الإمام المرشد بالله عليه السلام في أماليه ، في باب فضائل أهل البيت عليهم السلام ١/ ١٥٥ ، ورواه الطبراني في المعجم الكبير ، في ترجمة الإمام الحسن عليه السلام برقم ٢٦٤ ، ٣/ ٣٩ ، طبعة بغداد .

إبراهيم عليهما السلام جميعا ، قال : جاء رجل إلى علي بن الحسين عليهما السلام وقال : يا ابن رسول الله قول رسول الله ﷺ وقد جاءه رجل فقال : إني أحبك وأهل بيتك ، فقال ﷺ فاستعد للفقر جلبابا ما ذلك الفقر ؟ قال علي بن الحسين عليهما السلام هو الفقر إلى الله عز وجل ، فلو جعلت الدنيا بخذا فيرها لمؤمن ما فرح بها ، ولو صرفت عنه بكليتها ما حزن عليها ، وإن أولياء الله لا يسكنون إلى شئ دونه . اهـ .

وفي كتاب دعائم الإيمان للإمام محمد بن القاسم عليهما السلام قال : وقال النبي ﷺ في حديث أبي ذر ، وأنس بن مالك : (جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ فقال النبي ﷺ فما أعددت يا أعرابي ؟ فقال : ما أعددت كثيرا من صلاة ولا صيام إلا إني أحب الله ورسوله ، فقال النبي ﷺ فأنت مع من أحببت ، فقال أنس : ما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم ذلك اليوم ، إذا كان الرجل مع من أحب . وقال النبي ﷺ : (من أحب قوما فهو منهم ، ومن تشبه بقوم فهو منهم ، وكذلك من اهتدى بقوم اتبع طريقتهم ، ومن أحب قوما أحب أن يفعل بفعلهم ، وإن لم يشهدهم ، وجعل معهم . اهـ .

وأما قوله تعالى : ﴿ ومن يقترب حسنة نزد له فيها حسنا ﴾ أي : يضاعفها ، فظاهره العموم ، في أي حسنة كان ، إلا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودة في القربى دل ذلك على أن المقصود التأكيد في تلك المودة .

وعن السدي : أنها المودة في آل رسول الله ﷺ .

وزيادته فيها : مضاعفته لثوابها ، يدل على هذا قول الحسن بن علي عليهما السلام في هذه الآية : فافتراق الحسنة ، مودتنا أهل البيت ^(١) .

والاقتراف : الاكتساب ، قال الشاعر :

(١) ذكر في المصابيح النسخة ب ، والتي يقال : إنها نسخة المؤلف فقال : قال الحسن بن علي عليهما السلام في بعض خطبه ، وقد ذكر هذه الآية : وأنا من أهل الذين افترض الله مودتهم وولايتهم .. إلى قوله : واقتراف الحسنة مودتنا .. إلى آخر كلامه .

الناس في هذه الدنيا على طمع منها فمقترف مالا ومحروم^(١) ثم قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن تاب من تقريظه ﴿شَكُورٌ﴾ عظيم الشكر لمن أطاع ، وهو في صفة الله مجاز للاعتداد بالطاعة ، وتوفيقه لثوابها ؛ لأن الشكر في الأصل أن يكون في مقابلة نعمة على الشاكر ، والمراد أنه يجازي ، كما يجازي الشاكر عظيم الشكر ، فيحسن إلى المطيعين في إيصال الثواب لهم ، وفي أن يزيد عليه أنواعا كثيرة من التفضل .

ثم اعلم أن الكلام في أول هذه السورة إنما ابتدأ في تقرير أن هذا الكتاب إنما حصل بوحي الله ، وهو قوله : ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ واتصل الكلام في تقرير هذه المعنى ، وتعلق البعض البعض ، حتى وصل إلى هاهنا^(٢) ثم حكى هاهنا شبهة القوم ، وهي قولهم : إن هذا ليس وحيا من الله تعالى ، فقلل عز وجل : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ لهم على نسبة الافتراء إليه ﷻ ، ثم إلى الافتراء على الله ، الذي هو اقبح أنواع الفرية ، وأم منقطعة ، والمراد الإنكار على القائلين ، وهم كفار قريش : إنه افترى على الله كذبا بادعاء الرسالة ، وبالقرآن ، ثم أجاب عنه بأن قال : ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ وفيه قولان أحدهما : يختم على قلبك حتى تنسى القرآن ، ويقطع عنك الوحي لو افتريت على الله الكذب .

وقال جار الله : يجعلك من المختوم على قلوبهم ، حتى تفترى عليه الكذب ، فإنه لا يجتري على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم^(٣) . ومعنى هذا الكلام استبعاد الافتراء منه ، وأنه في البعد كالشرك بالله ، والدخول في جملة المختوم على قلوبهم .

(١) في نسخة (محروب) .

(٢) وفي النسخة أ (حتى حصل إلى هنا) .

(٣) الكشاف ٢٢١/٤ .

والثاني : أن المراد يربط على قلبك بالصبر على أذاهم ، فلا يشق عليك قولهم : إنك مفتر ، قاله مقاتل^(١) والزجاج .

ثم قال تعالى : ﴿ ويمح الله الباطل ويحق الحق ﴾ قال المفسرون^(٢) : (ليس معطوفاً على جزاء الشرط ، وإنما هو كلام مستأنف ، معناه : والله يمحو الباطل ، ويحق الحق أي : يثبتهُ ﴿ بكلماته ﴾ بوحيه أو قضائه ، والمراد لو كان مفترياً كما يزعمون لكشف الله افتراءه ، ومحقه بالحق .

ويجوز أن يكون عدة لرسول الله بأن الله سيمحو الباطل ، الذي هم عليه ، وهو الشرك ، وتكذيبهم لمحمد ، ويثبت الحق ، وهو الدين الذي جاء به ، بالقرآن وبقضائه الذي لا مرد له من نصره عليهم .

قالوا : وإنما سقطت الواو في الخط من (يمح) إتباعاً للمصحف ، أي : إتباعاً للفظ كما في ﴿ ويدع الإنسان بالشر ﴾^(٣) ﴿ سندع الزبانية ﴾^(٤) أي : وعادة الله أن يذهب الباطل

قال في البلغة : هؤلاء الكفار يقولون : إنك مفتر على الله كذباً ، ولو كنت فعلت فشاء الله أن يختم على قلبك لفعل ، وهو زجر للنبي ﷺ من الكذب عليه .

(١) ونسب الرازي هذا القول إلى مجاهد . انظر تفسير الرازي ١٦٧/٢٧ . وقال في الكشف : وعسن فتادة ﴿ يختم على قلبك ﴾ ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي . ٢٢٢/٤ .

(٢) منهم جار الله والرازي ، والنص موجود في تفسيرهما . انظر الكشف ٤٠٣/٣ ، ٤٠٤ . وقال السيد العلوي رحمه الله في حاشيته على الكشف : قال أبو البقاء : ﴿ يختم ﴾ جواب الشرط ، و ﴿ يمحو ﴾ مرفوع مستأنف ، وليس من الجواب ، لأنه يمحو الباطل من غير شرط ، وسقطت الواو لالتقاء الساكنين ، ومن المصحف حملاً على اللفظ ، ومما يقوي أنه مرفوع ، عطف قوله : ﴿ ويحق الحق ﴾ عليه وهو مرفوع .

(٣) الإسراء : ١١ .

(٤) العلق : ١٨ .

وقوله : ﴿وَمَحَ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ أي : لو كان محمد مفتريا بالبعث في الخلق لبعث من يكشف غش خلله ، ويبين لهم فريته ، فلما لم يبعث إلى هذه الغاية أحد علمنا أن الله تعالى لا يخلي بين عباده والباطل ، بل يبعث من يبين للناس ، كما فعل في بني إسرائيل وغيرهم . اهـ

ثم قال سبحانه : ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بمضمورات صدورك وصدورهم ، فيجري الأمر على حسب ذلك ، من ظهور الحق على يدك ، وبحق باطلهم .
واعلم أنه تعالى لما قال : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ثم برأ رسول الله مما أضافوه إليه من هذا ؛ إذ كان من المعلوم أنهم قد استحقوا هذه الفرية عقابا عظيما ، لا جرم ندهم الله تعالى إلى التوبة ، وعرفهم أنه يقبلها من كل مسيء وإن عظمت إساءته ، فقال عز وجل : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ قبلته منه : أخذته منه ، وجعلته مبتدأ قبولي ؛ لأن من للابتداء ، ومعنى قبلته : عزلته عنه ، وأبعدته عنه ؛ لأن عن للمجاوزة ومنه الآية ، كأنه لما قبلها أخذها فعزلها وأبعدها .

والتوبة : أن يرجع عن القبيح ، والإخلال بالواجب بالندم على تفريطه ، والعزم على ألا يعاود ، مع تلافي ما أمكن من حقوق العباد ، والاعتذار إلى من أساء إليه .
روي أن أعرابيا دخل المسجد وقال : اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك ، وكبر ، فلما فرغ قال له علي رضوان الله عليه : يا هذا إن سرعة الاستغفار باللسان توبة الكذابين ، وتوبتك تحتاج إلى التوبة ، فقال : يا أمير المؤمنين وما التوبة ؟ قال : اسم يقع على ستة معان ، على الماضي من الذنوب الندامة ، ولتضييع الفرائض الإعادة ، ورد المظالم ، وإذابة النفس في الطاعة ، كما ربيتها في المعصية ، وإذابة النفس مرارة الطاعة كما أدقتها حلاوة المعصية ، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته ، قاله في الكشف والمقاليد وغيرهما ^(١) .

(١) انظر الكشف ٢٢٢/٤ ، والرازي ١٦٨/٢٧ ، وقد أصلحنا اللفظ من الكشف .

ثم قال : ﴿ ويغفو عن السيئات ﴾ الكبائر بالتوبة ، والصغائر باحتساب الكبائر ﴿ ويعلم ما تفعلون ﴾ فيثيب على الحسنات ، ويعاقب على السيئات .
ثم قال تعالى : ﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ﴾ أي : يستجيب لهم ، فحذف اللام ، كما في ﴿ وإذا كالوهم ﴾ ^(١) أي : لهم ، وسواء قال : يستجيبهم ، أو يستجيب لهم ، المعنى واحد ، قال الشاعر :
وداع دعا يا من يجيب إلى النداء فلم يستجبه عند ذاك مجيب ^(٢)
والمعنى : يستجيب الله لهم ^(٣) ، فيثيبهم على طاعتهم ، ويزيدهم على الثواب تفضيلاً
أو إذا دعوه استجاب لهم دعاءهم ، وزادهم على ما طلبوا ، وقيل : الاستجابة فعلهم ^(٤) ، أي : والذين آمنوا يستجيبون الله بالطاعة كما دعاهم إليها .
وقيل : يستجيب لهم تشفعهم في إخوانهم ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ يشفعهم في إخوان إخوانهم ^(٥) . ذكره ابن الجوزي .
﴿ والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ الألم ، والمقصود التهديد ^(٦) .

(١) المطففين : ٣ .

(٢) وبعده : فقلت ادع أخرى وارفع الصوت جهرة لعل أبي المغوار منك قريب

(٣) فيكون محل ﴿ الذين آمنوا ﴾ نصب على المفعولية .

(٤) فيكون محل ﴿ الذين آمنوا ﴾ الرفع على الفاعلية . قال السيد العلوي في حاشيته على الكشف : قال أبو البقاء : على هذا ﴿ الذين ﴾ في موضع رفع ، أي : ينقادون له ، و﴿ يستجيب الذين آمنوا ﴾ على الوجه الأول عطف على يقبل التوبة ، وعلى الوجه الثاني ، هو عطف على مجموع قوله : ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ وقوله : ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ عطف على مقدر هو مسبب عن قوله : ﴿ ويستجيب الذين آمنوا ﴾ على منوال قوله : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله ﴾ والمعنى : ويستجيب الذين آمنوا الله بالطاعة ، فيستجيب لذلك دعاءهم ، ويفهم أجورهم ، ويزيدهم من فضله ، ويجوز أن يكون عطفاً على ويستجيب ، كما قال صاحب المفتاح رحمه الله في ﴿ وقالوا ﴾ إنه عطف على ﴿ آتينا ﴾ . حاشية العلوي مخطوط ص ٢٥٦ .

(٥) ما بين القوسين زيادة من النسخة ب .

(٦) قال الحاكم الحشمي في التهذيب في تفسيره هذه الآية :

الحكماء

دل قوله سبحانه ﴿ ويستجيب ﴾ على أحد التأويلين أنه تعالى يجيب دعاء عباده المؤمنين دون غيرهم لولا ذلك لما خص المؤمن ولأن إجابة الدعاء تجري مجرى الثواب ، ولذلك يقال : فلان مستجاب الدعوة فيمدح به ، هذا قول أبي علي ، وقال أبو بكر أحمد بن علي يجوز إجابة دعاء غير المؤمنين استصلاحا . ومضى قيل : فكثير من المؤمنين لا يجاب دعاؤهم ؟ قلنا : قد يتأخر لمصلحة ، وقد يكون مفسدة فلا يجاب ، وإنما يجاب بشرط المصلحة ، ولذلك يجب أن يسأل بشرط المصلحة . ومتى قيل : إذا كان مصلحة فلا بد أن يفعله فما معنى الدعاء ؟ قلنا : قد يكون فعله مصلحة عقيب الدعاء ، ولولا الدعاء لكانت مفسدة ، ويدل قوله ﴿ ولو بسط الله الرزق ﴾ الآية على قولنا في اللطف والمخلوق والاستطاعة والإرادة ، أما دلالة على اللطف فظاهر ! لأنه لم يعط لكي لا يبغيوا ، ولو بسط لبغيوا ، وإنما رزقهم قدرا مخصوصا ليكونوا أقرب إلى الاستقامة ، ولذلك عقبه بقوله ﴿ إنه خبير بصير ﴾ . ومنها أنه يفعل من ذلك ما هو أصح في التكليف ، وبه أن المنع ليس لمحو أو بخل ، لكن لما تعود إلى نفع العبيد وصلاحهم ، وأما دلالة على أن أفعال العباد حادثة من جهتهم أنه تعالى وسع وضيق لطفًا كي يكونوا أقرب إلى الطاعة ، وأبعد من المعصية ، فلو كان الجميع خلقا له تعالى لم يكن لهذا الكلام معنى ، لأنه سواء وسع أو ضيق ، إنما يؤخذ فيه ما يخلق فيه . فأما دلالة على الاستطاعة فمن وجهين : أحدهما — أن القدرة وإن كانت موجبة لوقف وجود البغي وعدمه عليها على سعة الرزق وضيقه ، فيبطل فائدة الكلام ، وثانيهما أن اللطف إنما يصح إذا قدر العبد على الفعلين ، فأما إذا لم يقدر إلا على شيء بعينه فما معنى اللطف ، وسعة الرزق وضيقه ، وأما دلالة على الإرادة فيدل أنه لم يرد البغي من المعلوم منه البغي ، إذ لو أراد ذلك كقول المجرة لما جاز أن يقول : لم أبسط الرزق لكي يفعل البغي ، وتدل على أنه يفعل البغي لأنه يجره على فعل ما يقع عنده البغي ، فلأن يجره عن فعل البغي أول . وتدل على أن بسط الرزق يكون مفسدة ، ويدل قوله ﴿ وينشر رحمته ﴾ على عموم رحمته ، وكمال قدرته ، حيث هيأ لكل أحد ما يصلحه في كل بلد ، وذلك من لطيف تدبيره ، الذي لا يقدر عليه سواه ، ويدل قوله ﴿ ومن آياته ﴾ على توحيده وصفاته ، وقد بينا ما يدل من السموات من خلقها ، ثم تزيينها ، ثم تسكينها ، ثم إمساكها ، على غير عرض ، وفي الأرض من خلقها والجبال والنبات والثمار والأنهار وغير ذلك ، ومنها — أن فعله يدل على صفاته إنما بنفسه ككونه قادرا ، أو بواسطة ككونه حيا سميعا بصيرا ، ويدل قوله ﴿ إذا يشاء ﴾ على حدوث المشيئة لدخول علامة الاستقبال فيبطل قول من قال : إنما صفة ذات ، والمشيئة ترجع إلى الجميع ، فتدل أنه المختص بالقدرة على الإعادة ، ويدل قوله ﴿ وما بث فيهما من دابة ﴾ أن في السماء دواب ، فلما أن يحمل على أصل اللغة على ما يدب ، أو على ما يعرف ، ولا ما نع منه أيضا ، ويدل قوله ﴿ ما أصابكم ﴾ أن العبد قد يصيبه بسبب ذنبه مصائب ، إلا أن أبا علي يقول : إن الأمراض في العصاة تكون عقابا ، وأما أبو هاشم فيقول : إن الأمراض وأكثر المصائب محنة ، والحدود يجوز أن يكون عقوبة ، وقد بينا الوجه فيه .

واعلم أنه تعالى لما قال : إنه يجيب دعاء المؤمنين ، ورد عليه سؤال ، وهو أن المؤمن قد يكون في شدة وبلية وفقر ؟ ثم إنه يدعو فلا يشاهد أثر الإجابة ، فكيف الحال فيما تقدم من قوله : ﴿ ويستجيب الذين آمنوا ﴾ ؟ فأجاب عنه تعالى بقوله : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ أي : لظلموا بها ، وظلم بعضهم بعضا ، قال الشاعر :

ولولا ظلمه ما زلت أبكي^(١)

أو من البغي الذي هو التكبر .

ثم قال تعالى : ﴿ ولكن يترل بقدر ما يشاء ﴾ أي : بقدر الكفاية ، أو بتقدير على ما تقتضي الحكمة ، وباطن التدبير ﴿ إنه بعباده خبير بصير ﴾ يعلم ما هو أصلح لهم ، فيقدر لهم بحسبه من الفقر والغنى وغيرهما .

ولما بين تعالى أنه لا يعطيهم ما زاد على قدر حاجتهم ؛ لأجل أنه أعلم أن تلك الزيادة تضرهم في دينهم — بين أنهم إذا احتاجوا إلى الرزق ، فإنه لا يمنعهم منه ، فقال سبحانه : ﴿ وهو الذي ينزل الغيث ﴾ وهو المطر ﴿ من بعد ما قنطوا ﴾ يريد من بعد ما يئسوا من الرحمة ، وإنزال الغيث بعد القنوط أدعى إلى الشكر ؛ لأن الفرح بحصول النعمة بعد البلية أتم ، وكان إقدام صاحبه على الشكر أكثر .

قرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم (ينزل) مشددة ، والباقون مخففة ، يقال : قنط بفتح النون وكسرها .

﴿ وينشر رحمته ﴾ أي : ييسطها ، ورحمته : بركات الغيث ، ومنافعه من الرزق والخصب .

ثم قال : ﴿ وهو الولي ﴾ الذي يتولى عباده بالإحسان ﴿ الحميد ﴾ المستوجب الحمد على ذلك ، وإن لم يحمده حامد ، أو المحمود في سمواته وأرضه .

(١) الذي يظهر أن لفظ البيت : ولولا بغيه ما زلت أبكي . حتى يتم الاستشهاد بأن البغي معناه الظلم .

ثم ذكر آية أخرى تدل على إلهيته فقال : ﴿ ومن آياته ﴾ أي : دلائل قدرته الباهرة ﴿ خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة ﴾ إن قيل : ليست الدواب إلا في الأرض ؛ لأن سكان السموات ملائكة ، وهم أولوا أجنحة مثني وثلاث ورباع ؟ فالجواب : أنه يجوز أن يريد الأرض وحدها ، وإن عاد الضمير إليها وإلى السماء ، نحو ﴿ وجعل القمر فيهن نورا ﴾ ^(١) و ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ ^(٢) ويجوز أن للملائكة مشي وديب مع الطيران ، فوصفوا بالديب ، كما توصف به الأناسي على الأرض ، وأيضا فإن الديب هو الحركة ، والملائكة لهم حركة ، أو يكون في السماء خلق يدبون لا نعلمهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وهو على جمعهم ﴾ أي : كلما بث ﴿ إذا يشاء ﴾ أي : وقت مشيئته جمعهم ، وهو يوم القيامة ﴿ قدير ﴾ لا يعجزه جل وعلا شئ من الأشياء ، والمقصود أنه تعالى خلقها متفرقة ، لا للعجز ، ولكن للمصلحة ، فلهذا قال : ﴿ وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾ يعني الجمع للحشر والمحاسبة .

ثم قال تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة ﴾ في مال أو بدن ﴿ فبما كسبت أيديكم ﴾ قرأ نافع وابن عامر (بما كسبت) بغير فاء ، وهو كذلك في مصاحف أهل المدينة والشام ، وقرأ الباقر بالفاء ، وكذلك هو في مصاحف بالعراق .

وقوله : ﴿ بما ﴾ أو ﴿ فيما كسبت ﴾ خير في القراءتين جميعا ، وما مبتدأ بمعنى الذي ، والمعنى : الذي أصابكم وقع بما كسبت أيديكم ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ من الذنوب ، ولولا عفو هلك عبده في أول خطوة ، والآية مخصوصة بالمجرمين ، فأما

(١) نوح : ١٦ .

(٢) الرحمن : ٢٢ .

من لا جرم له كالأطفال والمجانين ، فلا بد من العوض للمصلحة^(١) ، ولا يبعد أن يعاقب بعضهم ، ويعفو عن بعض .

وروي عن النبي ﷺ (ما من اختلاج عرق ، ولا خدش عود ، ولا نكبة حجر إلا بذنب ، ولما يعفوا الله [عنه] أكثر)^(٢) .

قال بعض علمائنا عليه السلام : العفو يراد به الإمهال ، ولا يؤاخذهم في الوقت ، أو يراد العفو عن الضغائر والله أعلم . اهـ

وروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية ، وقال : (من عفا الله عنه فهو أعز وأكرم من أن يعود إليه في الآخرة ، وما عاقب عليه في الدنيا فالله أكرم من أن يعيد العذاب عليه في الآخرة)^(٣) رواه الواحدي في البسيط .

وقال : إذا كان كذلك ، فهذه أرجى آية في كتاب الله تعالى ؛ لأن الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين ، صنف كفره عليهم بالمصائب في الدنيا ، وصنف عفا عنه في الدنيا ، وهو كريم لا يرجع في عفوه ، وهذا سنة الله مع المؤمنين . اهـ

(١) قال السيد العلوي في معرض رده على ابن المنير الاسكندري في تعليقه على الكشاف ، قال السيد رحمه الله : وأنا أقول : إله الخلق غفرا ، سبحانه من خلق صاحب الانتصاف عاريا عن الإنصاف ، هذا وكلامه يدل على أنه لم يشم رائحة الكلام ، ولا كان منه في العبر ولا في النفر ، ولم يخط منه بنقير ولا قطمير ، إذ لم يخالف أحد من المعتزلة في وجوب العوض للأطفال والمجانين والبهائم ، حتى قالوا : يجب على الله عوض الآلام التي تصل إليها بالركوب والذبح ، بسبب إباحته لذلك ، وقالوا بأنه يتصف للحماء من القراء ، وما على المعتزلة إذا لم يتم إلزام القاضي لهم ، ولعله لم يفهم كلام القاضي أبي بكر . حاشية العلوي خ ٢٥٧ .

(٢) الحديث بنصه في الكشاف ٤٠٥/٣ ، وما بين قوسي الزيادة منه ، وهو أيضا في النسخة ب من المصليح . قال ابن حجر في تحريجه ص ١٤٦ الملحق بالجزء الرابع من الكشاف : عبد الرزاق ، وابن أبي حاتم من طريق إسماعيل بن سليم عن الحسن ، والطبري ، والبيهقي في أواخر الشعب ، عن قتادة ، كلاهما مرسل ، ووصله عبد الرزاق من رواية الصلب بن بهران عن أبي وائل عن البراء رضي الله عنه .

(٣) في الكشاف ٤٠٥/٣ عن علي رضي الله وقد رفعه (من عفي عنه في الدنيا عفي عنه في الآخرة ، ومن عوقب في الدنيا لم تنثن عليه العقوبة في الآخرة ، وعنه رضي الله عنه (هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن) وما في الأصل مثله بنصه في الرازي ٦٠١/٩ نقلا عن الواحدي في البسيط أيضا .

ثم قال تعالى : ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ﴾ أي : بقائتين ما قضى عليكم من المصائب ، وقوله : ﴿ في الأرض ﴾ يحتمل أن يريد : ولو ذهبتم أقاصي الأرض ، أو دخلتم في أوساطها ، ويحتمل أن يريد أن من في الأرض أدخل تحت القدرة لمن كان يترل بأسه من السماء في العادة ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ﴾ متول لكم بالرحمة ﴿ ولا نصير ﴾ يدفع عنكم مصائبه وعذابه ، والمراد به من يعبد الأصنام ، بين أنه لا فائدة فيها البتة ، والنصير : هو الله تعالى فلا جرم هو الذي تحسن عبادته .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته الجوارى ﴾ جمع حارية ، وهي السفن ؛ لأنها تجري ﴿ في البحر كالأعلام ﴾ ^(١) أي : كالجبال . قالت الخنساء في أخيها :
 وإن صخرًا لتأتم الهداة به
 كأنه علم في رأسه نار
 أي : كأنه جبل في رأسه لرفعته وشهرته بالنار ، يقال : إن النبي ﷺ استشهد قصيدتها هذه ، فلما وصل الراوي إلى هذا البيت ، قال : فأتىها الله ما رضى به بتشبيها بالجبل حتى جعلت على رأسه ناراً ^(٢) .

(١) قال الحاكم الحسيمي في تفسيره (التهذيب)

الآيات

تدل الآية على كمال قدرته ، وتوحيده ، ويدل قوله { إن يشأ يسكن الريح } أنه قد يفعل بالسبب على ما يقوله أبو هاشم خلاف قول أبي علي ، لأنه باعتمادات الريح تجري السفن ، ولا يقال : إن السبب يؤذن بالحاجة لأن الحاجة للفعل لا للفاعل ، فهو كالحلل للأعراض ، ولأنه يقدر أن يفعل من غير سبب أمثال ما يفعله بسبب ، وإنما يفعل لسبب لضرب من المصلحة ، ويدل آخر الآيات على الترغيب في الآخرة والتهديد في الدنيا .
 (٢) هذا في الرازي ٦٠٢/٩ ، والخنساء : هي قماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد ، الرياحية ، السلمية ، من قيس عيلان ، من مضر ، توفيت عام ٢٤ هـ ، أشهر شاعرات العرب ، قيل : وأشعرهن على الإطلاق ، عاشت أكثر عمرها بالعصر الجاهلي ، وأدركت الإسلام ، فأسلمت ، ووفدت على رسول الله ﷺ مع قومها بني سليم ، فكان رسول الله ﷺ يستنشد بها ويعجبه شعرها ، أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها صخر ، ومعاوية ، وكان قد قتل في الجاهلية ، كان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية سنة ١٦ هـ

ثم قال : ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنَ الرِّيحَ فَيَظْلِلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ أي : سواكن لا تجري على ظهر البحر ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ الصنع ﴿لآيَاتٍ﴾ أي : عبر ومواعظ ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلاء الله ﴿شَكُورٍ﴾ على نعمائه ، وذلك هو المؤمن المخلص ؛ لأن الصبر والشكر صفتاه ، والمقصود التنبيه على أن المؤمن يجب أن لا يكون غافلا عن دلائل معرفة الله البتة ؛ لأنه لا بد إما أن يكون في البلاء ، وإما أن يكون في الآلاء ، فإن كان في البلاء كان من الصابرين ، وإن كان في الآلاء كان من الشاكرين ، وعلى هذا التقدير فإنه لا يكون البتة من الغافلين .

ثم قال سبحانه : ﴿أَوْ يُوبِقْهُمْ﴾ أي : يفرقهن ، يعني السفن ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي : بسبب ما كسبوا من الذنوب ، يقال : أوبقته ، أي : أهلكته ، ويقال للمحرم : أوبقته ذنوبه أي : أهلكته ، والمعنى أن الله تعالى إن يشأ ابتلى المسافرين في البحر بإحدى بلتين ، إما أن يسكن الريح فتركد الجوارى على متن البحر وتقف ، وإما أن يرسل الريح عاصفة فيها فتهلكهن بسبب الإغراق ، وعلى هذا التقدير ، فقوله : ﴿أَوْ يُوبِقْهُمْ﴾ معطوف على قوله : ﴿يُسْكِنُ﴾ لأن التقدير إن يشأ يسكن الرياح فيركدن ، أو يعصفها فيغرقن بعصفها .

قوله : ﴿وَيُعِفُّ عَنْ كَثِيرٍ﴾ قرئ (ويعف) بالجزم على إدخال العفو في حكم الإيلاق ، على معنى : وإن يشأ يهلك ناسا ، وينج ناسا على طريق العفو عنهم فلا يؤاخذهم بذنوبهم في الدنيا ، والرفع على الاستئناف ، أي : وهو يعفو .

فجعلت تحرضهم على الثبات حتى قتلوا جميعا ، فقالت : الحمد لله الذي قر عيني بقتلهم ، لها ديوان شعر مطبوع ، فيه ما بقي محفوظا من شعرا . انظر الأعلام ٨٦/٢ قال السيد العلوي رحمه : قول الخنساء :

أغر أبلج تأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وقبله :

وإن صخرًا مولانا وسيدنا وإن صخرًا إذا يشئو لنحار

ثم قال : وقولها : في رأسه نار .. تتميم لقولها : كأنه علم .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ فقد رفع استئنافا ، وجزم عطفها ، ونصب على تعليل محذوف ، أي : لينتقم ويعلم ، وعن الزجاج : نصب على إضمار أن .

قال في الكشاف : فيه نظر ، لما أورده سيبويه في كتابه ، قال : واعلم أن الت نصب بالواو والفاء في قوله : إن تأتي آتك ، وأعطيك . ضعيف ، وهو نحو من قوله : وألحق بالحجاز فأستريحا . اهـ

ومعنى ﴿ فِي آيَاتِنَا ﴾ أي : في إبطالها . ومعنى ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ أي : من مهرب من عقابنا ، ومعنى الآية : وليعلم الذين يجادلون ، أي : ينازعون على وجه التكذيب أن لا مخلص لهم إذا أوقفت السفن ، وإذا عصفت الرياح ، فيصير ذلك سببا لإعراقهم بأن الإله النافع الضار ليس إلا الله . (واعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد أردفها بالتنفير عن الدنيا ، وتحقيق شأها ؛ لأن الذي يمنع من قبول الدليل إنما هو الرغبة في الدنيا بسبب الرئاسة ، وطلب الجاه ، فإذا حقرت الدنيا في عين الرجل لم يلتفت إليها ، فحيثما يتفزع بذكر الدلائل ، فقال عز وجل ، ﴿ فَمَا أَوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من رزق وغنيره ﴿ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي : فانتفاعكم به في مدة الحياة الدنيا القائلة ، وسماه متاعا تشبيها على قلته وحقارته ، كمتاع الراكب الذي يتعجله لسير مع السفر ، كشرية سويق أو تمرات

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من الثواب في الآخرة ﴿ خَيْرٌ ﴾ مما عندكم ﴿ وَأَبْقَى ﴾ لأنه لا انقطاع له .

ثم بين تعالى ذلك لمن هو فقال : ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي : لا يفوضون أمورهم إلا إليه ، ولا يعتمدون إلا عليه .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ معطوف على والذين آمنوا ﴿وَكَذَلِكَ مَا بَعْدَهُ﴾^(١).

قال في التجريد: والكبائر لا يجوز تعريفها كلها، كما لا يجوز تعريف الذنوب الصغير، لأن فيه إغراء بالمعصية، ويجوز تعريف بعضها، وفي الحقيقة الكبيرة: ما كان عقاب صاحبها أكثر من ثوابه في كل وقت.

قلت: وفيه نظر^(٢)؛ لأن الطاعات مع الكبيرة لا تقبل، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٣) ولا يثبت ثواب طاعة مع كبيرة، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) قال الحاكم الحشمي في تفسيره (التهذيب):

الأحكام

يدل أول الآية أن في الذنوب صغيرا وكبيرا، وتدل على أن الثواب إنما يستحقه من اجتنب الكبائر، فيبطل قول المرجحة، ويدل ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا﴾ أن العفو في الجنايات يمدح به، والعفو على ضروب أحدها: حق له فإسقاطه إليه كالأموال وغيرها، وثانيها: استيفاؤه إلى الإمام وطلبه شرط، فعفو به أن لا يطلب كحد القذف. وثالثها: ما ليس إليه شيء من استيفاء، أو إسقاط، أو طلب فليس إليه ذلك، ويدل قوله ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى﴾ أن المشاورة في الأمور مما يمدح به، وتدل أن التمسك في الأمور بالجماعة واجب والتفرق مذموم، ويدل قوله ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أن الحرام لا يكون رزقا، ويدل قوله ﴿يَنْتَصِرُونَ﴾ على وجوب دفع المضار إذا أمكن، والأولى بالمرء أن لا يحمل الذلة مع التمكن من العزة، ويدل ﴿فَمَنْ عَفَى﴾ على حسن العفو، لأنه يتقل حقه من عوض الجناية إلى الثواب المستحق.

ومضى قيل: هل يحسن العفو على كل حال؟ قلنا: في التائب نعم، بالاتفاق، وفي المصير يحسن عند مشائخنا، لأنه إسقاط حق، وقال أبو القاسم: لا يحسن، لأنه إغراء، ولو كان حسنا لكان الله تعالى أولى به، قلنا: مع قيام الوعيد لا يكون إغراء، ويجوز الإسقاط بالعفو كتجويزه بالتوبة، ويجوز أن يعفو الله تعالى عن المصير، وإنما منعنا منه سمعا، ويدل قوله ﴿لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أنه لا يريد الظلم خلاف قول المجبرة، ويدل على وزود الوعيد في أهل القبلة، ويدل قوله ﴿لَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ على حسن الصبر والعفو، وما فيها من المشقة، ومما يستحق عليهما من الثواب، وتدل الآيات على أن فعل العبد حادث من جهتهم، لا من جهته، لأنه اختلاف ذلك إليهم، والأمر والنهي والوعد والوعيد فيه، كقوله ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا﴾ ﴿وَاسْتَجَابُوا﴾ وأقاموا — ويغفون — وينتصرون — وعفا وأصلح، ولا يجب الظالمين — وانتصروا — ويظلمون — ويغفون — وصبر — وغفر — كل ذلك يدل على قولنا في المخلوق

آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴿٣١﴾ والحبوط : هلاك الأعمال وبطلانها ، كما تقدم ذكره .

ولأن الصحيح من المذهب أن من كان خائفة معاصيه التوبة النصوح فهو من أهل الجنة ، ومن كان خائفة طاعاته الإصرار على معصية واحدة فهو من أهل النار . [وهذا هو صريح قول القاسم والمهادي وغيرهما من قدماء أئمتنا عليهم السلام وغيرهم . والله أعلم] ^(١)

واعلم أن قوله تعالى : ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾ المراد منه : أن مطالب الدنيا خسيسة منقرضة ، ونبه على حساستها بتسميتها بالمتاع ، ونبه على انقراضها بأن جعلها من الدنيا ، وأما الآخرة فإنها خير وأبقى ، وصريح العقل يقتضي ترجيح الخير الباقي على الخسيس الفاني .

ثم بين أن هذه الخيرية إنما تحصل لمن كان موصوفا بصفات : —
الصفة الأولى : أن يكون من المؤمنين ، بدليل قوله ﴿للمؤمنين آمنوا﴾ والصفة الثانية : أن يكون من المتوكلين على فضل الله بدليل قوله سبحانه ﴿وعلى رهم يتوكلون﴾ ^(٢) .

(١) النظر : فيه نظر ؛ وذلك لأن ما ذكره في التجريد مسألة ، وما ذكره المصنف هنا مسألة أخرى ، لا تعود على الأولى بشيء . وذلك لأن معنى عدم ثبوت طاعة لمرتكب الكبيرة هو معنى ما ذكره بقوله : وفي الحقيقة : الكبيرة ما كان عقاب صاحبها أكثر من ثوابه ، والذي يظهر من كلام صاحب التجريد أن معنى قوله : وفي الحقيقة : هو ما ذكره العلماء من أن مرتكب المعصية التي لم ينص عليها بكبر ولا صغر تكون كبيرة أو صغيرة ، وذلك بحسب فاعلها فإن كان له من الحسنات ما يزيل تلك المعصية كانت صغيرة في حقه ، وإن لم يكن له ما يزيل تلك المعصية تصيح كبيرة . أما كلامه حول التوبة ، فهذا مما لا نزاع فيه عند أحد .

(٢) المائدة : ٢٧ .

(٣) الحجرات : ٢ .

(٤) ما بين أقواس الزيادة موجود في النسخة ب ، وليس موجودا في النسخة أ .

والصفة الثالثة : أن يكونوا مجتنبين لكبائر الإثم والفواحش ، هذا كلام الرازي^(١) .
قال : ولعل المراد بكبائر الإثم ما يتعلق بالبدع ، واستخراج الشبهات ، والمراد بالفواحش ما يجاوز الحد في القبح كالزنى ، والشرك بالله تعالى ، وقيل : ما فيه حد فهو فاحشة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ تقدم ﴿ هُمْ ﴾ للاختصاص ، أي : هم الأخصاء بالغفران ، حال الغضب ، وإنما خص الغضب بلفظ الغفران ؛ لأن الغضب على طبع النار ، واستيلاؤه شديد ، ومقاومته صعبة ، فلهذا السبب خصه بهذا اللفظ .

الصفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ المراد منه تمام الانقياد .
قيل : نزلت في الأنصار حين دعاهم الله تعالى إلى الإيمان به وطاعته فاستجابوا ، بأن آمنوا به وأطاعوه ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أدوها قائمة كاملة الأركان .

ثم قال ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ كانوا قبل الإسلام ، ومقدم رسول الله ﷺ المدينة إذا كان بينهم أمر اجتمعوا وتشاوروا ، فأثنى الله عليهم بذلك ، والتقدير : وأمرهم ذو شورى ؛ لأن الشورى مصدر .

وعن الحسن : ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أثنى عليهم بعدم الإسراف ، وأثم ينفقون بعض الحلال الذي رزقوا ؛ لأن رزق الله لا يكون إلا حلالا ، وهو يريد الزكاة ، أو هي وغيرها

(١) وزاد الرازي [فأما من زعم أن الطاعة توجب الثواب فهو متكل على عمل نفسه ، لا على الله فلا يدخل تحت الآية] وهذا بناء على قاعدة أن الطاعات شكر لله تعالى كما هو اختيار الزيدية . وفي هذا تعريض بالمعتزلة ، فهم الذين يقولون : بأن العمل موجب للثواب لقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

(٢) كلام الرازي من قوله : واعلم أن مطالب الدنيا خسيسة .. إلى هنا . انظر تفسير الرازي ١٧٦/٢٧ .

والصفة الخامسة : ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ وتقدم ﴿هم﴾ لما مر في ﴿هم يغفرون﴾ .

قال في التجريد : قال الواحدي : البغي : الظلم و العدوان ، قال ابن الجوزي : وفي هذا البغي أقوال — أحدها : أنه بغي الكفار على المسلمين ، وقال عطاء : هم المؤمنون الذين أخرجهم الكفار من مكة ، ونفوا عليهم ، ثم مكثهم الله منهم فانتصروا . والثاني : أنه بغي المسلمين على المسلمين خاصة .

والثالث : أنه عام في جميع البغاة ، سواء كانوا مسلمين أو كافرين ، قال : وقيد اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية فذهب بعض القائلين بأنها في المشركين إلى أنها منسوخة بآية السيف ، لأنها إنما أثبت الانتصار بعد البغي ، فلما جاز لنا أن نبذأهم بالقتال دل على أنها منسوخة .

وللقائلين بأنها في المسلمين قولان : إنها منسوخة بقوله : ﴿ولمن صبر وغفر﴾ لأنها دلت على مدح المنتصر ، ثم أعلمنا أن الصبر والغفران أفضل ، فبان وجه النسخ .

والثاني : أنها محكمة ، وهو الأصح ، فإن قيل : كيف يجمع بين مدح المنتصرين ، وبين قوله : ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ فعنه أجوبة : —

أحدها : أن الانتصار أفضل حيث يكون انتصارا من الكافرين ؛ لأنه جهاد ، كما ذكر عطاء ، والعفو أفضل إذا كان الباغي مسلما .

والثاني : أن الانتصار أفضل حيث يكون جهادا ، سواء كان من مسلم أو باغ ، أو من كافر .

والثالث : أن الانتصار أفضل ، إذا كان العفو يؤدي إلى أن يذل المسلم ، ويجترأ عليه الفساق .

الرابع : أن من بغي وأصر على بغيه فالانتصار منه أفضل ، ومن تاب وندم فالعفو عنه أفضل ، وعلى هذه الوجوه تحمل الآيات . اهـ

وقال في البلغة : معناه إذا أصابه البغي والظلم من غيره لم يستسلم له بل يمنعه من ظلمه ، ولم يذل نفسه للباغي الفاسق ، وهذا في باب النهي عن المنكر ، والأمر بالمعروف ، وهو من أعظم الجهاد .

قلت : وهذا معنى ما ذكره الهادي إلى الحق عليه السلام في هذه الآية إذ يقول : ﴿والذين إذا أصابهم الظلم في دينهم لم يقرؤا به ، وانتصروا ممن بغى في دينهم ، أو في أموالهم ، أو في دمائهم ، حتى يثبتوا الحق ، ويزيلوا الباطل ، فأخبر الله أن نبيّه لم يثبت باطلا ، ولم يترك حقا .

وأما قوله : ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ فذلك فيما تجوز المكافأة به من السيئات لا في شيء من المحرمات ، وإنما ذلك في القتل ، والجراح ، والمال ، فيجوز أن يكافأ من فعل شيئا من ذلك بمثل ما فعل ، فأما فيما لا يجوز فعله مثل ظلم بريء ، أو فاحشة يأتيها فاسق دنيء إلى حرمة مسلم ، فلا يجوز للمسلم أن يأتي مثل ذلك في ماله ، ولا في حرمة ، فافهم الفرق بين هذين المعنيين ، وقف على وجه هاتين الحالتين ^(١) . اهـ

اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ أردفه بما يدل على أن الانتصار يجب أن يكون مقيدا بالمثل ، فإن النقصان حيف ، والزيادة ظلم ، والمساوي هو العدل ، وبالعدل قامت السموات والأرض ، فلهذا السبب قال : ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ .

فإن قيل : جزاء السيئة مشروع مأذون فيه ، فكيف سمي بالسيئة ؟ أجاب صاحب الكشف : كلتا الفعلتين الأولى وجزاؤها سيئة [لأنها تسوء من تنزل به] قال تعالى

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٤٩ .

﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾ يريد ما يسؤهم من المصائب والبلايا^(١).

وأجاب غيره بأنه لما جعل أحدهما في مقابلة الأخرى أطلق اسم أحدهما على الآخر على سبيل المجاز^(٢).

ثم قال تعالى : ﴿فمن عفا﴾ بما وجب له من القصاص ﴿وأصلح﴾ ما بينه وبين خصمه المسيء بالعفو ، كما قال عز وجل : ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾^(٣).

﴿فأجره على الله﴾ هذه عدة مبهمة لا يقاس أمرها في العظم ، أي : فله من جزيل الثواب ما لا يبلغه وصف واصف ..

ثم قال : ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ أي : يفيضهم أشد البغض ، وفيه إشارة إلى أن الانتصار لا يؤمن فيه الاعتداء خاصة حال الغضب ، فرمما ظلم وهو لا يشعر .
ثم ذكر المنتصر فقال : ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه﴾ أي : يفعل به ما فعل به ظالمه ﴿فأولئك﴾ المنتصرون ﴿ما عليهم من سبيل﴾ أي : من طريق للعقوبة ، ولا للذم لأنهم أتوا بما أباح لهم من الانتصار ..

(١) انظر الكشف ٢٢٩/٤ ، وما بين القوسين من الكشف ، وهو غير موجود في المصاحب . قال محي الدين الدروي في كتابه إعراب القرآن : في قوله : ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ جناس المزاجعة اللفظي ، فإن السيئة الثانية ، ليست بسيئة ، وإنما هي مجازاة عن السيئة ، سميت باسمها لقصد المزاجعة .. ثم قال : وبعضهم يعبر عنها بالمشاكلة ، وبعض المحققين لا يجعله من ذلك الباب ، بل يقول : إن غرضه تعالى أن السيئة ينبغي أن تقابل بالعفو والصفح عنها ، فإن عدل عن ذلك إلى الجزاء كان ذلك سيئة مثل تلك السيئة ، وهذا الكلام لا يخلو من نفحة صوفية روحانية (إعراب القرآن ٤٥/٩) .

(٢) قوله وأجاب غيره ، وما قبله ، ذكر مثله الرازي ، ١٧٨/٢٧ ، بلفظه ، ولم يذكر من الغير .

(٣) فصلت : ٣٤ .

ثم قال : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ يتدثروهم بالظلم ﴿ وَيَعْتُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يتكبرون فيها ويفسدون ، وقال : ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ لأن التكبر بالحق لا يكون إلا لله تعالى ، وقوله : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وعيد لهم بشديد العقاب ثم قال : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ ﴾ على الظلم والأذى ﴿ وَغَفَرَ ﴾ عفا ولم يتنصر ، وفوض أمره إلى الله ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ الصبر والغفران ﴿ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ أي : من معزوماتها ومقطوعاتها التي قطع بحسنها .

وفي البلغة : من الأمور التي أمر الله بها ، ولم ينسخها .

والمعنى من عازمات الأمور ، يجعل الأمر عازما مجازا ، والعزم في الأصل : القطع . أو من معزومات الأمور ، وعلى الوجهين المراد أن العفو من الأمور التي عزمها الصالحون على أنفسهم ، أي : ألزموها أنفسهم .

وقال مقاتل : من الأمور التي أمر الله بها ، وينبغي أن يحمل على أمر الندب .

ويحكى أن رجلا سب رجلا في مجلس الحسن ، فكان المسبوب يكظم ويعرض ، ثم قام وتلا هذه الآية ، فقال الحسن : عقلها والله وفهمها ؛ إذ ضيعها الجاهلون (١) .

وعن النبي ﷺ (ينادي مناد يوم القيامة من كان له أجر على الله فليقم ، فيقوم العافون عن الناس) .

(١) حكاية الحسن ذكرها في الكشف ٤٠٧/٣ ، والحديث كذلك في الكشف ، وفي الرازي ، ٦٠٧/٩ ، ولفظه فيهما : إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له أجر على الله أجر فليقم ، قال : فيقوم خلق فيقال لهم : ما أجركم على الله ؟ فيقولون : نحن الذين عفونا عن ظلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة بإذن الله .

قال في تخريج الكشف ص ١٤٦ ، العقيلي والطبراني في مكارم الأخلاق ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب في السابع والخمسين كلهم من طريق الفضل بن يسار ، عن غالب العطار عن الحسن ابن أنس ، رفعه قال : إذا وقف العبد للحساب ، ينادي مناد من كان أجره على الله فليدخل الجنة . الحديث .

وله طريق أخرى ، عند الثعلبي من رواية زهير بن عباد عن ابن عيينة ، عن عمرو ، عن ابن عباس ، وأخرى عن البيهقي ، من رواية الثوري ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده ، أمم منه ، قال البيهقي : المتن غريب ، والإسناد ضعيف .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن يضلل الله ﴾ أي : يحكم عليه بالضلال ويسمي به لما ضل ، أو يخذله فلا يلطف به لعلمه أنه لا يقبل ﴿ فما له من ولي من بعده ﴾ يتولى هديته من بعد خذلان الله إياه ^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿ وترى الظالمين لما رأوا العذاب ﴾ في الآخرة ﴿ ي قولون هل إلى مرد ﴾ إلى الدنيا ﴿ من سبيل ﴾ أي : من طريق لاستدراك ما فات وإصلاحه ، والمراد أنهم يطلبون الرجوع إلى الدنيا لعظم ما يشاهدون من العذاب .

ثم ذكر حالهم عند عرض النار عليهم فقال : ﴿ وتراهم يعرضون عليها ﴾ أي : النار دل عليها ذكر العذاب ، ويعرضون عليها قبل دخولهم النار ، وذلك في الموقف ، أو يعرضون عليها يعذبون بها بعد أن دخلوها ﴿ خاشعين ﴾ الخاشع : فهو المطأطئ الرأس ، المنكس إلى الأرض ، أي : ساكنين ﴿ من الذل ﴾ يعني وتراهم يعرضون على النار حال كونهم خاشعين حقيرين مهينين ، بسبب ما لحقهم من الذل ، وقد يوقف على ﴿ خاشعين ﴾ ويعلق ﴿ من الذل ﴾ بـ ﴿ ينظرون ﴾ أي : من أجل الذل .

﴿ ينظرون من طرف خفي ﴾ قال الهادي عليه السلام : هذه صفة الكافرين في يوم الدين أخبر الله بما يتزل بهم فيه من الخزي والذل ، ومعنى ﴿ ينظرون من طرف خفي ﴾ فهم ينظرون بطرف خفي ، والطرف الخفي : فهو الطرف الذليل الخاشع

(١) قال الحاكم الحشمي في تفسيره (التهذيب) :

الحكماء

يدل قوله ﴿ هل إلى مرد من سبيل ﴾ أنهم يتمنون الرجوع إلى الدنيا ، وقت معاناة العذاب ليطيعوا ، ولو كانت أفعال العباد خلق الله تعالى لما صح هذا التمني ، وكذلك لو لم يقدروا عليه ، فيبطل قول الحجة في المخلوق والاستطاعة ، ويدل قوله ﴿ ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ﴾ أن الظالم لا يخرج من النار ، وأن الرسول لا يشفع لهم ، فيبطل قول المرجية ، ولا يقال : إن المراد به الكفار ، لأنه خلاف الظاهر ، وكذلك يدل قوله وملا كان لهم من أولياء ينصرونهم ، وأن نصره أعظم من الشفاعة المؤدية إلى النجاة ، ولأن الإجابة فعلهم ، وتدل أن سبب الخلاص إنما هو في الدنيا دون الآخرة .

العيي ، وقد يستدرك ذلك في من^(١) نزل به بلاء في الدنيا ، وترى ذلك في طرفه ظاهرا لا يخفى إذا قارب من يهابه من الجبارين ، أو واجه من يخشى منه من السلاطين^(٢) . اهـ

أي : يتدنى نظرهم^(٣) من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي ، أي مسارقة ، يسارقون النظر كنظر المقود إلى السيف ، وهكذا نظر الناظر إلى المكاره ، لا يفتح أجفانه كما يفعل المحب في نظره إلى المحبوب .

وقيل : ﴿ من طرف خفي ﴾ النظر لما عليهم من الذل ، يسارقون النظر إلى النار خوفا منها ، وذلة في أنفسهم .

ولما وصف الله حال الكفار ، حكى ما يقوله المؤمنون فيهم ، فقال : ﴿ وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ قال الهادي عليه السلام : معنى ﴿ خسروا أنفسهم ﴾ فهو [من] ذهبت به نفسه في العذاب ، وحصلت بسوء فعله في العقاب ﴿ وأهليهم ﴾ [فقد] يخرج على معنيين ، إما أهله الذين كانوا يعرفهم في الدنيا ، ويألفهم فيها ، فخسرهم بمفارقتها ، إما بمصيرهم إلى عذاب أليم ، وإما بمصيرهم إلى ثواب كريم ، ففي كلا المعنيين قد خسروهم الكافر ، والمعنى الأول فقد يخرج على أن الأهل هم حوريات الجنة ، اللاتي جعلهن الله ثوابا للمؤمنين ، وخلقهن أهلا للمتقين ، فكان من عمل بغير الهدى ، وجنب عن التقوى خاسرا للأهل الذين جعلوا للمتقين ، فخسرهم الفاسقون بفعلهم ما لا تحب الحوريات لمن فعله ، ولا يناهن . اهـ

(١) في مجموع تفسير الأئمة (في من) وفي المصاييح ب (في من) وفي المصاييح أ (فيما) فأثبتنا ما في المجموع .

(٢) في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٥٠ .

(٣) وفي نسخة ب (يتدنى بصرهم) .

قال صاحب الكشاف : ﴿يوم القيامة﴾ إما أن يتعلق بـ ﴿خسروا﴾ ويكون قول المؤمنين واقعاً في الدنيا ، وإما أن يتعلق بـ ﴿قال﴾ أي : يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾ دائم لا ينقطع .
ثم قال : ﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم﴾ بدفع المكروه عنهم ﴿من دون الله﴾ الذي خلقهم ، المعنى لا ملجأ منه إلا إليه .

﴿ومن يضلل الله فما له من سبيل﴾ إلى الهداية . قد مر تفسيره .
ثم أعلم أنه تعالى لما أطنب في الوعد والوعيد ذكر بعده ما هو المقصود فقال سبحانه : ﴿استجيبوا لربكم﴾ أي : استجيبوا دعاءه إلى الإيمان ، وإلى طاعته ﴿من قبل أن يأتي يوم﴾ عظيم شأنه ، وهو يوم القيامة ﴿لا مرد له من الله﴾ أي : لا يقدر أحد على رده وقوله : ﴿من الله﴾ يجوز أن يكون صلة لقوله ﴿لا مرد له﴾ يعني لا يردده الله بعد ما حكم به ، ويجوز أن يكون صلة لقوله : ﴿يلقي﴾ أي : من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على رده .

واختلفوا في المراد بذلك اليوم ، فقيل : هو يوم ورود الموت ، وقيل : يوم القيامة ، لأنه وصف ذلك اليوم بأنه لا مرد له ، وهذا الوصف موجود في كلا اليومين ، ويحتمل أن يكون معنى قوله : ﴿لا مرد له﴾ أنه لا يقبل التسليم والتأخير ، وأن يكون معناه أنه لا مرد فيهما^(٢) إلى حال التكليف حتى يحصل فيه التلافي .

(١) الكشاف ٢٣١/٤ .

(٢) في الرازي : أو أن يكون معناه : أنه لا مرد فيه إلى حال التكليف .. الخ ١٨٣/٢٧ .

ثم قال تعالى في وصف ذلك اليوم : ﴿ ما لكم من ملجأ يومئذ ﴾ يقع به التخلص من العذاب ﴿ وما لكم من نكير ﴾ ينكر عذابكم وينصركم ^(١) ، أو إنكار ، أي : لا تقدرون أن تنكروا مما دون في صحائف أعمالكم ﴿ فإن أعرضوا ﴾ أي : هؤلاء الذين أمرهم بالاستجابة ، أي : لم يقبلوا هذا الأمر ﴿ فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾ تحفظ أعمالهم وتحصيها ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ أي : الإنذار وذلك تسلية من الله له ﷺ

ثم إنه تعالى بين السبب في إصرارهم على مذاهبهم الباطلة ، وذلك أنهم وجدوا في الدنيا سعادة وكرامة ، والفوز بمطالب الدنيا يفيد الغرور والنخوة والتكبر ، وعدم الانقياد للحق ، فقال عز وجل : ﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة ﴾ أي : غنى وصحة وأمناء ﴿ فرح بها ﴾ فرح بطر وأشر ، ناسيا للشكر معرضا عنه ، وأراد بالإنسان الجمع لا الواحد لقوله : ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ كالمرض و الفقر والخاوف ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ من المعاصي ﴿ فإن الإنسان كفور ﴾ عظيم الكفر ، المعنى : أنه يذكر البلاء وينسى النعم ، ونعم الله في الدنيا ، وإن كانت عظيمة ؛ إلا أنها بالنسبة إلى السعادات المعدة في الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر ، فلذلك سماها ذوقا ، فبين تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير التافه الذي يحصل في الدنيا ، فإنه يفرح بها ويعظم غروره بسببها ، ويقع في العجب والكبر ، ويظن أنه فاز بكل المني ، ووصل إلى أقاصي السعادات ، وهذه طريقة من يضعف اعتقاده في سعادات الآخرة ، وهذه الطريقة مخالفة لطريقة المؤمن الذي لا يعد نعم الدنيا إلا كالوصلة إلى نعم الآخرة ^(٢) .

(١) هو هنا بمعنى منكر ، وسمي المنكر بالمصدر مبالغة فيه ، وقوله : إنكار ، كأنه مصدر أنكر على غير قياس ، وقد جاء في القاموس مصدرا لنكر ، وفي التهذيب : النكير اسم الإنكار الذي معناه التغير . وقال الزجاج : معناه : أنهم لا يقدر أن ينكروا الذنوب التي يوقفون عليها . إعراب القرآن ٥٠/٩ .

(٢) قال الحاكم الجشمي في التهذيب :

ثم بين تعالى أنه متى أصابهم سيئة ، أي : شئ يسؤهم في الحال كالمرض والفقر وغيرهما ، فإنه يظهر منه الكفر ، وهو معنى قوله : ﴿ فإن الإنسان كفور ﴾ والكفور : الذي يكون مبالغاً في الكفر ، ولم يقل : فإنه كفور^(١) ؛ ليبين على أن طبيعة الإنسان تقتضي هذه الحالة إلا إذا أدبها الرجل بالآداب التي أرشد الله إليها .

ولما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة ، وإصابته بضدها أتبع ذلك بقوله : ﴿ لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء ﴾ لا ما يشاء غيره ، والمقصود منه أن لا يغتر

الأحكام : يدل قوله ﴿ فإن أعرضوا ﴾ الآية أن المعرض جان على نفسه ، وأتى من قبله لا من قبل الله ورسوله ، فيبطل قول المجرة ، ويدل قوله ﴿ ما كان لبشر ﴾ أن كلامه مع عباده لا يخلو من هذه الأوجه الثلاثة ، وتبدل على حدث كلامه ، لأنه قرن به أمانة الاستقبال ، فقال ﴿ أو يرسل رسولا فيوحى ﴾ ، وتدل أنه لا يرى في الجنة ، إذ لو رؤي وكلمهم لخرج من الوجوه الثلاثة إلى المشافهة ، ويدل قوله ﴿ وإنك لتشهدني ﴾ أن الهداية الدلالة والبيان ، وأن الرسول يهدي خلاف قول المجرة في الوجهين ؛ ويدل قوله ﴿ ألا إلى الله ﴾ على زجر ووعيد ، وحث على الطاعة ، وأن الجزاء عنده

(١) قال السيد العلوي رحمه في حاشيته على الكشف ص ٢٥٩ : قوله : ولم يقل : فإنه كفور .. قال الطيبي : فالتعريف في الإنسان الأول للعهد ، وفي الثاني للجنس ، والقرينة الدالة على العهد قوله : ﴿ عما قدمت أيديهم ﴾ ... ثم قال : والمعنيون الكفار المخاطبون ؛ لترتب قوله : ﴿ فإن أعرضوا ﴾ على قوله : ﴿ استجبوا لربكم ﴾ فهو من إقامة المظهر موضع المضمير ، للإشعار بتصميمهم على الكفران ، والإيذان بأنهم لا يرجعون عما هم فيه ، وأفرد الضمير في ﴿ فرح ﴾ وجمع ﴿ وإن تصبهم ﴾ وعمم في ﴿ إن الإنسان لكفور ﴾ لفهوم واحد على الترقى ، يعني : ليس بيدع من هذا الإنسان المعهود الإصرار ؛ لأن هذا الجنس موسوم بكفران نعم ، فدل وضع الإنسان الثاني موضع الضمير على ذم مطلق الإنسان ، لكونه دليلاً على ذم هذا المقيّد .

وأنا [أي : السيد العلوي رحمه الله] أقول فيما ذكره نظراً من وجوه : أحدها — أن المصنف نص وكذا غيره من أئمة الأدب ، على أن الاسم المعروف باللام إذا أعيد ذكره فالثاني هو الأول ، والألف واللام في الثاني للعهد إلى الأول ، ذكره المصنف في تفسير قوله تعالى : ﴿ إن مع العسر يسراً ﴾ وما ذكره الطيبي عكس هذا ، والثاني : أن قوله : فهو من إقامة المظهر مقام المضمير للإشعار بتصميمهم على الكفران ، والضمير في فهو للإنسان . الأول غير مستقيم ؛ لأن الكفران لم يذكر عقيب بل عقيب الثاني ، والثالث : أن قوله : فدل وضع الإنسان الثاني موضع الضمير الخ يدل على أن الإنسان الثاني معهود ، والظاهر أن الإنسان الثاني معهود أيضاً ، والطيبي إنما وهم من قوله المصنف : ليستحل على أن هذا الجنس موسوم ، ومراد المصنف أنه لما أتى باسم الجنس ووضع موضع الضمير ، وإن كان للعهد ، دل على ذلك ، فليتأمل جميع ذلك .

الإنسان بما يملكه من المال و الجاه ، بل إذا علم أن الكل ملك الله ، وأنه إنما حصل ذلك القدر تحت يده ؛ لأن الله أنعم عليه به ، فحينئذ يصير بذلك حاملا له على مزيد الطاعة والشكر ، وأما إذا اعتقد أن تلك النعم إنما حصلت بسبب عقله وحده واجتهاده ، بقي مغرورا بنفسه ، معرضا عن طاعة الله .

ثم ذكر أقسام تصرفه في العالم ، وأنه يختص ^(١) البعض منهم بما يشاء ، فقال سبحانه : ﴿ يهب لمن يشاء إناثا ﴾ أي : اللاتي يعددن من البلاوي ﴿ ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ المشاهير بالكمال ، كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان ، أفاد ذلك المعنى الألف واللام ^(٢) .

وفي التجريد ﴿ إناثا ﴾ أي : بنات ليس فيهن ذكر ، كما وهب للوط ﴿ ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ البنين لا بنات فيهم ، كما وهب لإبراهيم ﴿ أو يزوجهم ﴾ أي : الموهوبين ﴿ ذكرانا وإناثا ﴾ معناه : أو يجعلهم أزواجا ، أي : أصنافا ذكرانا وإناثا ، فيهبهم جميعا كما وهب لمحمد ﷺ أربعة بنين ، وهم القاسم ، وعبد الله وسمي الطيب ، والطاهر ، وإبراهيم ، وأربع بنات ، وهن : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة .

قال الزجاج : ومعنى ﴿ يزوجهم ﴾ أي : يقرنهم ، وكل شيئين يقرن أحدهما بالآخر ، فهما زوجان .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : والتزويج هاهنا هو جمع الأتوام ، قال الشاعر :

زوجت خيلكم بخيل مجاشع يوم الشريف فما استقامت

(١) في نسخة أ (وأنه يخص) .

(٢) لأن التعريف تنويه وتشهير .

وقيل : هو بيان لحالهم في التزويج ، كقوله : ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾^(١) يقال للواحد : فرد ، وإذا كان معه غيره من جنسه ، سمي كل منهما زوجا .

﴿ ويجعل من يشاء عقيما ﴾ أي : عاقرا لا يلد ولدا ، فلا يهب له ذكرا ولا أنثى ، وكل ذلك على ما تقتضيه الحكمة ، والعلم بالمصلحة^(٢) .

[وفي الكشف : فإن قلت : لم قدم الإناث أولا على الذكور مع تقدمهم عليهن ، ثم رجع فقدمهم ، ولم عرف الذكور بعدما نكر الإناث ؟ قلت : لأنه لما ذكر البلاء في آخر الآية الأولى ، وكفران الإحسان بنسيانته الرحمة السابقة عنده ، ثم عقبه بذكر ملكه ومشئته ، وذكر قسمة الأولاد ، فقدم الإناث ؛ لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء ، لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم ، والأهم واجب التقديم ، وليلي الجنس الذي كانت العرب تعدّه بلاء ذكر البلاء ، وآخر الذكور ، فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم ، وهم أحقّاء بالتقديم بتعريفهم ؛ لأن التعريف تنويه وتشهير ، كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، وعرف أن تقديمهم لم يكن لتقدمهم ، ولكن لمقتضى آخر ، فقال : ﴿ ذكرانا وإناثا ﴾ كما قال : ﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾^(٣) ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾^(٤)] اهـ

(١) القيامة : ٣٩ .

(٢) مثل يحيى وعيسى عليهما السلام .

(٣) الحجرات : ١٣ .

(٤) انظر الكشف ٢٣٢/٤ ، وما بين قوسي الزيادة غير موجود في النسخة أ ، وهو موجود في نسخة المصاييح

ب ، والتي يقال : إنها نسخة المصنف رحمه الله .

ثم ختم الآية بقوله : ﴿إنه عليم﴾ بمصالح عباده ﴿قدير﴾ على تكوين ما يصلحهم ، وقال ابن عباس : ﴿عليم﴾ بما خلق ﴿قدير﴾ على ما يشاء أن يخلقه .
واعلم أنه تعالى لما بين كمال قدرته وعلمه وحكمته ، أتبعه ببيان كيف يخص أنبياءه بوحيه [وكلامه]^(١) فقال عز وجل : ﴿وما كان لبشر﴾ أي : ما صح له ﴿أن يكلمه الله إلا وحيا﴾ قال الهادي عليه السلام : الوحي هاهنا فهو : وحي النوم ، كما أوحى إلى أم موسى عليه السلام فيما أمرها به من إرضاعه ، فإذا خافت عليه ألقته في اليم ، ومثل وحيه إلى إبراهيم في المنام أن يذبح ابنه إسماعيل صلى الله عليهما ، ومثل هذا في تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام ، وقيل : هو هاهنا إلهام في القلب .
﴿أو من وراء حجاب﴾ قال الهادي عليه السلام : يخلق صوتا يسمعه السامع ، كما كان فعله في موسى ، خلق له صوتا في الشجرة ، فسمعه موسى .

والحجاب : فمعناه أن يأتي الصوت ، ولا يرى له مصوتا ، فهذا الحجاب الذي بين المصوت وبين السامع . اهـ

وهذا مثل^(٢) ، كما يكلم الملك بعض خواصه وهو من وراء الحجاب ، والمعنى : يسمعه بأن يخلقه في بعض الأجواف من غير أن يبصر السامع من يكلمه ، لأنه تعالى غير مرئي^(٣) ، وهكذا تكليمه الملائكة ، قاله في التجريد وغيره^(٤) .

(١) ما بين القوسين من النسخة ب .

(٢) قوله : وهذا مثل . أي قوله تعالى : ﴿أو من وراء حجاب﴾

(٣) وقد استدلل بهذه الآية على عدم رؤية الله سبحانه وتعالى ، وذلك لأنه تعالى حصر وحيه في هذه الثلاثة الأقسام ، ولو صحت رؤية الله تعالى لصح من الله تعالى أن يرى حال الكلام ، فحينئذ يكون قسما رابعا زائدا على هذه الأقسام الثلاثة ، والله تعالى نفى القسم الرابع بقوله : ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله﴾ إلا على هذه الأوجه الثلاثة .

وقال الرازي في تفسيره ١٨٧/٢٧ بعد أن ذكر إجماع الأمة بأن الله يوصف بأنه متكلم . فقال : أما الفريق الأول : وهم الذين قالوا : كلام الله تعالى هو هذه الحروف والكلمات ، فهم فريقان : أحدهما — الحنابلة ، الذين قالوا بتقديم هذه الحروف ، وهؤلاء أخس من أن يذكرها في زمرة العقلاء ... ثم قال : وأما العقلاء من

قلت : والذي رواه الهادي عليه السلام عن النبي ﷺ أنه سأل جبريل الروح الأمين فقال له : كيف تأخذ الوحي من رب العالمين ؟ فقال : آخذه من إسرافيل ، قال : كيف يأخذه إسرافيل ؟ قال : يأخذه من ملك فوقه ، قال : كيف يأخذه ذلك الملك ؟ قال : يلقي في قلبه إلقاء ، ويلهمه إلهاما .

﴿ أو يرسل رسولا ﴾ معناه : الملك الذي كان يأتي إلى الأنبياء بوحي الله ، وهو جبريل صلى الله عليه . اهـ

﴿ فيوحي بإذنه ﴾ أي : بأمره ﴿ ما يشاء ﴾ قرئ (أو يرسل) [بالرفع عن نافع وابن عامر]^(١) على تقدير : [أو هو يرسل ، وقرأ الباقر بالنصب في ﴿ يرسل ﴾ على تقدير : أن ؛ لعطفه على المصدر ، وهو وحيا ﴿ إنه علي ﴾ مرتفع عن صفات

الناس فقد أطبقوا على أن هذه الحروف والأصوات كائنة بعد أن لم تكن حاصلة ، بعد أن كانت معدومة ، ثم اختلفت عباراتهم في أنها هل هي مخلوقة ، أو لا يقال ذلك ، بل يقال : إنها حادثة ، أو يعبر عنها بعبارة أخرى واختلفوا أيضا هل هي قائمة بذات الله تعالى ، أو يخلقها في جسم آخر ، فالأول هو قول الكرامية ، والثاني : قول المعتزلة .

وقال الإمام القاسم بن محمد عليه السلام في كتابه الأساس ص ١٣٥ ط ١ ، عند ذكر القرآن : وهو كلام الله تعالى اتفاقا ، أئمتنا عليهم السلام والجمهور : وهذا هو المسموع . الأشعرية : بل معنى في نفس التكلم . المطرفية : بل في نفس الملك [هو الملك الأعلى المسمى ميخائيل ، وليس بحرف ولا صوت] وهذا عبارة عنه . لنا قوله تعالى ﴿ فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ والمعنى : ليس بمسموع ، قالوا : ذلك مجاز . قلنا : خلاف الجمع عليه من أهل اللسان [العربي] ولعدم الاحتياج إلى نصب القرينة عند إطلاقه على المسموع ، ولو سلم لزم أن يجعلوا للتفسير ماله من الأحكام إذ هي عبارة عنه ، ولا قائل بذلك . العدلية [جميعا] وغيرهم : وهو محدث . الأشعرية والحشوية : بل قديم . الحشوية : وهو هذا المتلو . قلنا : يلزم الثاني مع الله سبحانه كما مر ، فإن سلم فما جعل أحد القديمين كلاما ، والآخر متكلمًا بأولى من العكس . وأيضا : هو مرتب منظم ، وما تقدم غيره دل على حدوث ما بعده ، وقد قال تعالى : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ الآية ونحوها (١) وانظر أيضا الكشف ٢٣٣/٤ .

(٢) ما بين أقواس الزيادة موجود في النسخة ب ، وغير موجود في النسخة أ .

المخلوقين ﴿حَكِيمٌ﴾ يجري أفعاله على وجه الحكمة فيكلم تارة بواسطة ، وتارة بغير واسطة ، إما إلهاما ، وإلا خطابا .

[سبب النزول]

وسبب الآية أن اليهود — لعنت — قالت له ﷺ : ألا تكلم الله ؟ وتنظر إليه ؟ كما كلمه موسى ، ونظر إليه إن كنت نبيا ؟ فلن نؤمن لك حتى تفعل ذلك ، فقال : لم ينظر موسى إلى الله تعالى ، فترلت .

ولما بين تعالى كيفية أقسام الوحي إلى الأنبياء عليهم السلام ، قال : ﴿وكذلك﴾ أي : ومثل ذلك الوحي الذي أوحينا إلى الأنبياء ﴿أوحينا إليك روحا من أمرنا﴾ أي : وحيا شبيها بالروح ؛ لأن الخلق يحيون به في دينهم كما يحيا الجسد بالروح .

وقوله : ﴿من أمرنا﴾ معناه : من شأننا ، أو من أوامرنا ونواهيها .

قال الهادي عليه السلام : معنى ﴿من أمرنا﴾ فهو من قبلنا ، وعندنا ، ومعنى ﴿روحا﴾ فهو أمر يحيا به العباد ، ومعنى حياتهم به : فهو إيمانهم به ؛ لأن من آمن فقد حيي ، ومن كفر فقد مات ، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه : ﴿أو من كان ميتا فأحييناه﴾ (١) . اهـ .

والمعنى : أوحينا إليك قرآنا ، فسماه روحا ؛ لأنه يحيي من موت الجهالة بحياة علمه ويوقض من الوسن بعجائب حكمه .

ثم قال : ﴿ما كنت تدري ما الكتاب﴾ يريد القرآن قبل الوحي ، وقوله : ﴿ولا الإيمان﴾ لا يجوز حمله على أنه ﷺ لم يكن مؤمنا بالله قبل البعثة ، ولكن أراد ما طريقه السمع كالصلاة ونحوها ، لا ما طريقه العقل من الإيمان ، فالأنبياء معصومون قبل البعثة وبعدها عن الإخلال به .

(١) الأنعام : ١٢٢ .

ثم قال : ﴿ولكن جعلناه﴾ أي : القرآن ﴿نورا هدي به من نشاء من عبادنا﴾ من نعلم أنه يقبل اللطف فيهدي .

ثم قال تعالى لمحمد ﷺ : ﴿وانك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ أي : ثابت ، وهو طريق الإسلام ، وقوله : ﴿صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ بيان للصراط الأول على وجه المدح بإضافته إلى الله ، ونبه بذلك على أن الذي تجوز عبادته هو الذي يملك السموات والأرض ، والغرض منه إبطال قول من يعبد غير الله . ثم قال : ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾ ترجع إليه يوم القيامة ، فيثيب المؤمنين ، ويهلك من عمي عن الهدى من المجرمين ، وذلك كالوعيد والزجر ، فبين أن من لا يقبل هذه التكاليف يرجع إلى الله ، أي : إلى جزائه ، حيث لا حاكم سواه ، فيجازي كلا منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

والله أعلم

سورة السجدة [فصلت]

(مكية) وهي أربع وخمسون في الكوفي ، وثلاث في الحجازي والمكي ، واثنان في البصري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ حم ﴾ قيل : اسم للسورة في موضع المبتدأ ، وما بعده إخبار عنه ، وقيل : هو تعديد للحروف ، وما بعده خبر مبتدأ محذوف ، أي : هذا ﴿ تنزيل من السرّحمان الرحيم ﴾ ^(١) إلى عبادته . وقال الزجاج : [تنزيل] رفع بالابتداء وخبره ﴿ كتاب فصلت آياته ﴾ ^(٢) .

(١) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالدة ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي ، عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿ لهم أجر غير ممنون ﴾ معناه : غير محسوب ، والممنون أيضا : المقطوع .

وقوله تعالى : ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ معناه : معاشها في هذه الأرض ما ليس في هذه ، وفي هذه ما ليس في هذه وقوله تعالى : ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ معناه : النجوم . وقوله تعالى : ﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ قال الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام : يا سماء أخرجي شمسك ، يا سماء أخرجي قمرك ، يا أرض فجري أمّارك ، وأخرجي ثمارك ، قالتا : أطعنا ، أي : كاتنا كما شاء الله

وقوله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا ﴾ معناه : شديدا ، قال الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام : إن كانت لتمر على الراعي وهو في غنمه فتحمله ، وإن كانت لتمر على العروس وهي في خدرها فتحملها . وقوله تعالى : ﴿ في أيام نحسات ﴾ معناه : مشائيم . وقوله تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ معناه : بينا لهم . وقوله تعالى : ﴿ العذاب الهون ﴾ أي : الهوان . وقوله تعالى : ﴿ فهم يوزعون ﴾ معناه : يحشرونهم بحبس أولهم على آخرهم . وقوله تعالى : ﴿ وقالوا الجلودهم لم شهدتم علينا ﴾ قال : إن معناها الفروج ، ولكن الله عز وجل كفى عنها .

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ معناه: أكثروا من اللغو والصخب حتى لا يسمعه سامع. وقوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا﴾ معناه: إبليس، وابن آدم الذي قتل أخاه. وقوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ معناه: ثبتوا على الإيمان بالله، ولم يفارقوا رسول الله ﷺ ولا أهل بيته عليهم السلام. وقوله تعالى: ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ معناه: تحركت وطالت. وقوله تعالى: ﴿من كل زوج بهيج﴾ معناه: حسن. وقوله تعالى: ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا﴾ معناه: يجرون، ويميلون، ويعدلون. وقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا بالذكر﴾ معناه: بالقرآن. وقوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ هو وعيد من الله عز وجل. وقوله تعالى: ﴿في آذانهم وقر﴾ معناه: صمم. وقوله تعالى: ﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها﴾ معناه: من أعماقها التي فيها حبيها. وقوله تعالى: ﴿ما لهم من محيص﴾ معناه: من ملجأ ومعدل. وقوله تعالى: ﴿لا يسأم الإنسان﴾ معناه: لا يمل. وقوله تعالى: ﴿فيؤس قنوط﴾ معناه: يئس ويقنط. وقوله تعالى: ﴿أعرضونا ببجانبه﴾ معناه: تباعد. وقوله تعالى: ﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم﴾ فالمرية: الشك، وقال: ﴿لقاء ربهم﴾ ثواب ربهم. وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياشي عليه السلام ما لفظه

بسم الله الرحمن الرحيم

معنى ما حكى مولانا عز وجل من قولهم: ﴿وفي آذاننا وقر﴾ أي: صمم، قال الشاعر:
وسمعت حلفتها التي خلقت
أي سمعتك غير ذي وقر
أي: غير ذي صمم، وإنما أرادوا أنهم لا يريدون أن يسمعوا كلام الله، والعرب إذا لم يريدوا أن يسمعوا كلاما قالوا: نحن صم عن هذا الكلام، وإن لم يكن بهم صمم، قال الشاعر:
أصم عن الأمر الذي لا أريده
وأسمع خلق الله حين أريد
ومعنى قوله عز وجل: ﴿أندادا﴾ أي: أمثالا وأشباهها، قال الشاعر:
أهجووه ولسنت له بند
[فشركما لخير كما الفداء]
أي: بمثل
ولو تصافت الأبطال في جدد
ما كان عمرك رهط العبد أندادي

أي : أمثالي ، ومعنى ﴿وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام﴾ الأقوات : هي المصالح التي تقيم وتنفع ، ومن ذلك سمي الطعام والشراب قوتا للعباد إذا كان قواما وثباتا لأزواجهم ، ومصلحة وحياة لأجسامهم ، قال العالم صلوات الله عليه

كفاف أمرء قبانع قوته ومن يمرض بالقوت نال العنى

أي : كفايته ، وصلاح جسمه ، وأقوات الأرض كلها مصالحها من الليل والنهار ، واخر والبرد ، والشمس والقمر ، والماء والشجر ، والجبال ، وذلك من مصالح العباد .

ومعنى ﴿سواء للسائلين﴾ أي : مثل أيام الدهر هذه سواء مستوية حذو النعل بالنعل .

ومعنى ﴿للسائلين﴾ أي : لمن سأل عن الأيام التي خلق الله الأرض فيها ، فأخبرهم أنه خلقها وقدرها في مقاييس أربعة أيام سواء بسواء ، ومعنى ﴿قالنا أتينا طائعين﴾ القول منهم هو إسماعدهن ، وقلة امتناعهن قال الشاعر :

وقالت لك العينان سمعا وطاعة

أي : سمعنا وأطعنا ، وليس لهما قول ، قال الشاعر في راحلته :

تقول إذا أدرت لها وضيجي أهذا دينه أبدا وديني

أكل الدهر حل وارخال فما يبغي علي ولا يقيني

والراحلة لا تقول ، وإنما هذا مثل مضروب ، والأمثال جائزة .

ومعنى ﴿ففضاهن سبع سموات﴾ أي : خلقهن ، قال الشاعر :

وعليهما مسرودتان فضاهما دلود أو صنع السوابغ سبع

ومعنى قوله : فضاهما ، أي : صنعهما ، والقضى على وجوه سندكرها إن شاء الله تعالى في مواضعها .

ومعنى ﴿أنذرتكم صاعقة﴾ أي : حذرتكم هلكة ، والصعق هو الموت والعشو ، قال الله عز وجل :

﴿فصعق من في السموات ومن في الأرض﴾ أي : ماتوا ، قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه :

فهم ما بين كلب هارب ذاهل العقل ومرعوب صعق

أي : مغشي عليه من الرعب .

ومعنى ﴿في أيام نحسات﴾ أي : مشؤومات ، قال الشاعر :

سواء عليه أي حين لقيته أساعة نحس تستقى أم بأسعد

﴿فهم يوزعون﴾ أي : يجمعون نفرا وجماع ، قال الشاعر :

وحللت يبتك بالجمع وبعضهم مستفرق ليحل بالأوزاع

أي : بالجماع المتفرقة . ومعنى ﴿ظننتم بربكم أرداكم﴾ أي : أهلكم ، والردى : هو الهلاك قال الشاعر

أصاب الردى من كان يهوى لك الردى وجن اللواتي قلن عزة جنت

وقال آخر :

خوف الردى والردى مخشي

﴿فما هم من المعتين﴾ أي : ما هم من المرحومين ، وقد مضى تفسير العتاب ، ومعنى ﴿وقيضنا لهم قرناء﴾ أي : خلينا بينهم وبين قرنائهم ، قال الشاعر :

وقيضنا لهم عمرا قريبا

أي : تركبنا . ومعنى ﴿والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ اللغو : هو الكلام الرديء القبيح ، الذي لا معنى له ، قال الشاعر

عن اللغى ورفث التكلم

ومعنى ﴿أسوأ الذي كانوا يعملون﴾ أي : لنجزينهم بقبايح ما كانوا يسيئون ، ومعنى ﴿من الشيطان نزع﴾ أي : وسواس ، قال الشاعر :

فمن لي بنفس لا تزال غوية ونزغة شيطان يريد ضلالها

﴿وهم لا يسأمون﴾ أي : لا يملون ، قال الشاعر :

ومن لا يزل يستحمل الناس نفسه ولا يفننها يوما من الدهر يسأم

أي : يمل ، وقال آخر :

سئمت من المطاعم كل مر من الباذنج والقطف السليق

يريد مللت ﴿وترى الأرض خاشعة﴾ أي : ليس فيها شجر يتحرك . ومعنى ﴿اهتزت وربت﴾ أي : تحركت بالنبات ، أي : زادت أشجارها ونبتت وعلت ، ومعنى ﴿وإنه في أم الكتاب عزيز﴾ أي : منيع ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ لا يبطل منه شيء من أوله ولا آخره ، وقد يكون ذلك أيضا مثلا لحراسة الله له ، والله أعلم وأحكم .

ومعنى ﴿أذنك ما منا من شهيد﴾ أي : أخبرناك ، وأقررنا لك ما منا من شهيد ، والأصل في الإيدان هو الإعلام والإخبار قال الشاعر :

أذنتنا بيبينها أسماء [رب ثاويجل منه الثواء]

يريد أعلمتنا برحيلها ، وقال آخر :

وآذنتك غبادة البين إذ رحلت سلمى وجازاتها البيض الرغائب

أي : أخبرتك سلمى ، وأعلمتك برحيلها .

القنوط : هو اليأس ، ومعنى ﴿ونأجانبه﴾ أي : بُعد وأعرض بشقه ، وفيه تقلص وتأخير ، والمعنى فيه : وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض بجانبه ونأ .

فلنو دعاء عريض ﴿أي : واسع في الآفاق ، أي : في الأقطار والجوانب من السماء والأرض ، قال الشاعر : لقد نقبت في الآفاق حتى

ووجهه أن قوله: ﴿تَنْزِيل﴾ تخصص بالصفة ، وهو قوله: ﴿من الرحمن الرحيم﴾ فجاز وقوعه مبتدأ ، ولما كان ذلك التنزيل من الرحمن الرحيم دل على كونه نعمة عظيمة من الله تعالى ؛ لأن الفعل المقرون بالصفة لا بد وأن يكون مناسبا لتلك الصفة ، فكونه تعالى رحمانا رحيمًا صفتان دالتان على كمال الرحمة ، فالتنزيل المضاف إلى هاتين الصفتين لا بد وأن يكون دالاً على أعظم وجوه النعمة والأمير في نفسه كذلك ؛ لأن الخلق في هذا العالم كالمريض والزمنى والمحتاجين ، والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج إليه المريض من الأدوية ، وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية ، فكان أعظم النعم من الله [تعالى] على أهل هذا العالم إنزال القرآن عليهم .

أي : يريد أنه سار ودار في الأقطار والبلاد وجوانبها ، ومعنى ﴿في مرية﴾ أي : شك .

وقال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب)

الأحكام

تدل الآيات على حدوث القرآن من حيث وصفه بأنه فصلت ، وبالآيات وبالقرآن بأنه عربي ، وأنه بشير ونذير ، وكل ذلك دلالة على حدوثه ، وتدل على أنه ليس في القرآن غير لغة العرب خلاف قول الحشوية ، وتدل على أن العالم باللغة محجوج به ، ولو كان للظاهر باطن يدل عليه الظاهر لم يكن كذلك ، فيبطل قول الباطنية . ويدل قوله ﴿لقوم يعلمون﴾ أن التفسير لمن عرف اللغة حائر ، ولا يحتاج إلى سماع معناه من غيره بخلاف من يقول : لا بد فيه من سماع ونحوه ، ذكره شيخنا أبو حامد رحمه الله ، وتدل على أنه يستقل بنفسه في باب الدلالة ، وتدل على وجوب التفكير فيه ، ودم المعرض عنه ، ويدل قوله ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة﴾ على شدة إعراضهم عن القرآن ، وأنه لا مَنع على ما تقولوه المجرة ، لذلك ذمهم ووبخهم ، على هذا القول ، وتدل على كون القرآن حجة ، ووجوب العلم والعمل به ، ويدل قوله ﴿إنا أنا بشر﴾ أن الرسول يجري على طريقة التواضع دائما .

(١) وقال الأخفش : ﴿تنزيل﴾ رفع بالابتداء ، و﴿كتاب﴾ خبره . وقال في الكشف : إن جعلت حم اسما للسورة كانت في موضع المبتدأ ، و﴿تنزيل﴾ خبره . وإن جعلتها تعديدا للحروف كان ﴿تنزيل﴾ خبرا لمبتدأ محذوف ، و﴿كتاب﴾ بدل من تنزيل ، أو خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدأ محذوف .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ ﴾ أي : هو أشرف كتب الله ^(١) ﴿ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ أي : ميزت وجعلت تفاصيل في معان مختلفة من أحكام ، وأمثال ، ومواعظ ، ووعد ، ووعيد ، وغير ذلك .
وقوله : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ ^(٢) نصب على المدح ، أي : أريد بهذا الكتاب المفصل قرآنا من صفته كيت وكيت ، وقيل : حال لـ ﴿ كِتَابٌ ﴾ ^(٣) .

ومعنى ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : لقوم عرب ، يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المبينة المفصلة بلسانهم العربي ، أي : تنزيل من الله لأجلهم ، أو يكون مثل ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا ﴾ ويراد : لقوم يعلمون ، فإنهم الذين ينتفعون ، فأما هؤلاء المطبوع على قلوبهم فهم لا يعلمون .

ثم أخبر سبحانه عن التنزيل ^(٤) بكونه ﴿ بَشِيرًا ﴾ بالثواب ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ من العقاب ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ عنه ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي : لا يقبلون ، فكأنهم صُمُّ وقوله تعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني إنما جعلناه عربيا لأجل أن يعلموا المراد منه ، والصفات المذكورة للقرآن توجب قوة الاهتمام بمعرفته ، وبالوقوف على معانيه ،

(١) واستفيد التعظيم والتشريف ، من تكثير كتاب .

(٢) وقد احتج القائلون بخلق القرآن بهذه الآية من وجوه : الأول — أنه وصف القرآن بكونه تنزيلا ومنزلا ، والمنزل والتنزيل مشعر بالتصيير من حال ، فوجب أن يكون مخلوقا . الثاني : أن التنزيل مصدر ، والمصدر هو المفعول المطلق باتفاق النحويين ، والثالث : المراد بالكتاب إما الكتاب ، وهو المصدر ، الذي هو المفعول المطلق ، أو المكتوب الذي هو المفعول . الرابع : أن قوله : ﴿ فَصَّلَتْ ﴾ يدل على أن متصرفا يتصرف فيه بالتفصيل والتميز ، وذلك لا يليق بالقلم . الخامس : أنه إنما سمي قرآنا لأنه قرن بعض أجزائه ببعض ، وذلك يدل على كونه مفعول فاعل ، ومجوعول جاعل . السادس : وصفه بكونه عربيا ، وإنما صحت هذه النسبة لأجل أن هذه الألفاظ إنما دخلت على هذه المعاني بحسب وضع العرب واصطلاحهم ، وما جعل يجعل جاعل ، وفعل فاعل فلا بد وأن يكون محدثا ومخلوقا . (وانظر تفسير الرازي ٩٥/٢٧) .

(٣) وقال أبو البقاء : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ حال من ﴿ آيَاتِهِ ﴾ ويجوز أن يكون حالا من ﴿ كِتَابٌ ﴾ لأنه قد وصف (٤) قال السيد العلوي : إن على ﴿ لِقَوْمٍ ﴾ بـ ﴿ تَنْزِيلٍ ﴾ تقع التفرقة بين المفعول له ، وبين متعلقة ، بقوله : ﴿ كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ وبين الصفات أيضا ، لأن بشيرا ونذيرا صفة ﴿ قُرْآنًا ﴾ وإن خلق بـ ﴿ فَصَّلَتْ ﴾ فالتفرقة بين الصفات ، وهي ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ .

وقد مر أن كونه نازلا من عند الله الرحمن الرحيم يدل على اشتماله على أفضل المنافع ، وأجل المطالب ، وكونه قرآنا عربيا يدل على أنه في غاية الكشف والبيان ، وكونه بشيرا ونذيرا يدل على أن الاحتياج إلى فهم ما فيه من أهم المهمات ، فقد حصلت هذه الموجبات الثلاثة في تأكيد الرغبة في فهم القرآن ، وفي شدة الميل إلى الإحاطة به .

واعلم أنه تعالى لما وصف القرآن بأنهم أعرضوا عنه ولا يسمعون — بين أنهم صرحوا بهذه النفرة والمباعدة ، وذكروا ثلاثة أشياء ، أحدها : ما حكى الله تعالى عنهم ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ جمع كنان ، والكنان : هو الذي يحمل فيه السهام ، وهي الغطاء ، أي : في أغطية^(١) ﴿ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ من الدين .
وثانيها : قولهم : ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ أي : صمم قال الشاعر :

وسمعت حلفتها التي حلفت بها مسن أن سمعك غير ذي وقر
وإنما أرادوا أنهم لا يريدون أن يسمعوا كلام الله تعالى ، أي : نحن في ترك القبول منك بمنزلة من لا يفقه ، ومن لا يسمع ، والعرب إذا لم يريدوا أن يسمعوا كلاما قالوا : نحن صمم عن هذا الكلام ، وإن لم يكن بهم صمم ، قال الشاعر :

أصم عن الشيء الذي لا أريده وأسمع خلق الله حين أريد
والوقر : الثقل في السمع والصمم .

وثالثها : قولهم : ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ حاجز سائر من جبل أو نحوه ، وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن تقبل الحق ، كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها وكأن بأذانهم صمما لمحجها لها ، وكأن بينهم وبين رسول الله حجبا لتباعد قلوبهم عما جاء به ، وإذا كان الأمر كذلك ، كان قولهم : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ استعارات كاملة في إفادة المعنى المراد .

(١) فالأكنة بمعنى الأغطية ، وزنا ومعنى .

واعلم أنهم لما وصفوا أنفسهم بهذه الصفات الثلاث قالوا : ﴿ فَأَعْمَلْ ﴾ على دينك ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ على ديننا ، أو فاعمل في إبطال أمرنا إنا عاملون في إبطال أمرك .
ومثل هذا في البرهان .

ولما حكى الله عنهم هذا ، أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أي : لست بمالك ، لكن صحت نبوتي بالوحي دونكم ، فوجب عليكم إتباعي ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيَّ ﴾ أي : استووا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة ، غير مائلين يمينا ولا شمالا ، مما يسول لكم الشيطان ، من شفعاء الأوثان ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ سلوه المغفرة لما فرط من الشرك ، وقوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ معطوف على ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ﴾ أي : قل : ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ﴾ . وويل للمشركين .

﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ قال في البرهان : والزكاة في هذا الموضع أن قريشا كانت تطعم الحاج وتسقيهم ، فحرموا ذلك على من آمن بمحمد ﷺ فنزلت .

وقال ابن عباس في رواية عطاء وعكرمة : لا يقولون : لا إله إلا الله .

والمعنى : لا يظهرون أنفسهم بكلمة التوحيد من الشرك .

وقال الحسن ، وقتادة : لا يقرون بوجوب الزكاة ، ولذلك كانوا كفرة ، وقال غيرهم : إنما قرن الله الذي لا يؤتي الزكاة بالكافرين بالآخرة تشديدا وتغليظا في إخراجها كما قال في الحج : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) في أحد الوجوه ، وإنما خص منع الزكاة من أوصاف المشركين ، مقرونا بالكفر بالآخرة ؛ لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله في الله فذلك أقوى دليل على ثباته ، وفيه تخويف شديد على منعها .

ثم إنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أردفه بوعد المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع ، من قولك : مننت الحبل أي قطعته ، ومنه قولهم : منهُ السَّفرُ أي : قَطَعَهُ ، وقيل : لا يَمُنُّ عليهم إذ لا يَمُنُّ إلا بالتفضل ، وأما الأجر فمستحق ، والصحيح أن الأجر تفضل من الله سبحانه ؛ لأنه شيء كثير جليل عظيم دائم في مقابلة شيء يسير منقطع فوجب شكر الله تعالى عبيلي نعمه العظام ، فهو تفضل ، وإنما استحقوه بوعده جل وعلا ، وهو لا يخلف الميعاد ، فعلى هذا المنع على ظاهره ، أي لا يَمُنُّ عليهم بما أعطاهم من الأجر .

ثم بين تعالى كمال قدرته وحكمته في خلق السموات والأرض في مدة قليلة فقال: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يعني فمن هذه صفته كيف يجوز جعل هذه الأصنام الخسيسة شركاء له في الإلهية والعبودية ؟! ومعنى الاستفهام الإنكار للكفر ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي : تجعلون له أمثالا وشركاء في الإلهية ، وقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك الذي فعل ما ذكر ﴿رب العالمين﴾ الذي من صفته وقدرته أنه خلق الأرض في يومين ، وخالقهم ومبدعهم ، فكيف أثبتتم له أندادا من الحجر والخشب^(١).

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) : الأحكام

يدل قوله ﴿إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ أنه تعالى لم يخلق فيهم الكفر ، ولا منعنا عن الإيمان ، ولولا ذلك لكانا مؤمنين وتدل على أنه تعالى إنما يعرف بأفعاله ، وأن هذه الأفعال دالة عليه ، وعلى صفاته ، إما بنفسه ككونه قادرا عالما أو بواسطة ككونه سميعا بصيرا ، وتدل على أن العبادة تستحق بهذه النعم ؛ لذلك ذم من عبد شيئا لا يقدر على شيء منها . ويدل قوله ﴿ذَلِكَ اللَّهُ﴾ أي : خالق هذه الأشياء خالق العالمين . ومتى قيل : لم أشار بقوله ﴿ذَلِكَ﴾ وهم ينكرون ؟ قلنا : كانوا يقولون بالخالق ، وقيل : ظهور هذه النعم والدلائل شاهدة على أنه المدبر ، وقيل : هو على تقدير الحجة ، تقديره : ذلك الذي خلق بمدة هو رب العالمين ، ويدل قوله ﴿وبارك فيها﴾ أن البركات في الأرض ، وهي أنواع الثمار والأشجار ، وأنواع الجواهر المودعة فيها ، وأنواع النعم مما يخصص كثرة ، ويدل أنه قدر أقوات العباد حثا على الرضا ، وتقليل الحرص ، لأن الحرص لا يزيده إلا كذا وتعبا ، وتدل أنه خلق السماء والنجوم من دخان ، فتدل على عظيم قدرته وعلمه ، وتدل أن السماء الدنيا مختصة بالنجوم دون الأفلاك ، خلاف ما يقوله المنجمون ، ويدل قوله ﴿وحفظا﴾ أنه يحفظ السماء من

ثم إنه تعالى لما أخبر عن كونه خالقاً للأرض في يومين ، أخبر أنه أتى بثلاثة أنواع من الصنع العجيب ، والفعل البديع بعد ذلك ، فالأول : قوله : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ أي : جبالا ثوابت تمنعها من الاضطراب ، [قيل : مخصوصات متصلات بجبل قاف]^(١) ، والله أعلم

وقوله : ﴿ مِنْ فَوْقِهَا ﴾ لا من تحتها كالأساطين ، لتكون المنافع في الجبال معرضة لطالبها ، ولأنه تعالى لو جعل لها رواسي من تحتها لأوهم ذلك أن تلك الأساطين هي التي أمسكت هذه الأرض الثقيلة عن النزول ، ولكنه تعالى قال : خلقت هذه الجبال الثقيلة فوق الأرض ليرى الإنسان بعينه أن الأرض والجبال أثقال على أثقال ، وكلها مفتقرة إلى بمسك وحافظ ، وما ذاك الحافظ والمدبر إلا الله سبحانه .

والثاني مما أخبر الله عنه في هذه الآية : قوله : ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ أي : كثر خيرها وأثمارها ، من ذلك أن الحبة [تنبت حبا كثيرا ، والنواة]^(٢) تنبت نخلة ، وقيل : بارك فيها بالأشجار والأثمار والحبوب والأثمار .

والنوع الثالث : قوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ أي : أقوات أهلها ، وهي أرزاقهم وما يصلحهم ، ومن ذلك سمي الطعام والشراب قوتا للعباد ؛ إذ كان قواما وثناتا لأرواحهم ، ومصلحة وحياة لأجسامهم ، وأقوات الأرض كل مصالحها ، من الليل والنهار ، والحر والبرد ، والشمس ، والقمر ، والماء ، والشجر ، والجبال ، وغير ذلك مما لا يحيط به الوصف والبيان .

الشياطين إذا أرادوا استراق السمع ، لأنه أبعد عن إلقاء الشبه ، وذلك يطل قول المحبرة ، وأنه هو الملقى للشبه ، وتدلل على أنه عند الخلق للملائكة خلق الجن ، وأن خلق الآدمي تأخر ، وتدلل أن السماء سبع ، قال الحسن : الأرضون سبع ، بين كل أرض مسيرة خمس مائة عام .

(١) ما بين القوسين ثابت في النسخة أ ، وهي ملغاة بخط أسود يتوسطها في النسخة ب . التي يقال : إنها نسخة المصنف .

(٢) ما بين القوسين ساقط من النسخة أ ، وهو ثابت في النسخة ب .

قال : وللمفسرين في هذا التقدير خمسة أقوال ، أحدها : أنه تشقيق الأثمار ، وغرس الأشجار ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه قسم أرزاق العباد والبهائم ، قاله الحسن .

والثالث : أقواتها من المطر ، قاله مجاهد .

والرابع : قدر لكل بلدة ما لم يجعله في الأخرى ، كما أن ثياب اليمن لا تصلح إلا باليمن ، والهروية بهراة ، ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة ، قاله عكرمة ، والضحاك ، والخامس : قدر البر لأهل قُطْر ، والتمر لأهل قُطْر ، والذرة لأهل قُطْر ، قاله ابن السائب .

ولما ذكر الله تعالى هذه الأنواع الثلاثة من التدبير ، قال بعده : ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ أي : في تمة أربعة أيام ﴿ سَوَاءٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ وقوله : ﴿ سَوَاءٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ متعلق بمحذوف ، كأنه قيل : هذا الحصر والبيان لمن سأل عن الأيام التي خلق الله الأرض فيها ، فأخبرهم أنه خلقها وقدرها في مقياس أربعة أيام سواء سواء ، أي : كاملة مستوية من غير زيادة ولا نقصان .

وقال الزجاج : معناه وقدر فيها أقواتها في تمة أربعة أيام لأجل السائلين ، أي : الطالبيين للأقوات المحتاجين إليها^(١) . اهـ

ولم يخلق الله [سبحانه] الأيام إلا بعد خلق السماء والأرض ، وإنما المراد في مقدار أربعة أيام ، لأن اليوم عبارة عن مسير الشمس من المشرق إلى المغرب ، وذلك لا يكون إلا بعد خلق السماء .

(١) فهو متعلق على هذا الوجه بقوله : ﴿ وقدر ﴾ . قال السيد العلوي ، وإنما قيل : لأجل الطالبيين ، لأن كلا يطلب القوت ويسأله ، ويجوز أن يكون المعنى لمن سأل في كم خلقت السموات والأرض؟ فقيل : خلقت السموات والأرض وما فيها في أربعة أيام سواء . جواباً لمن سأل ، وقال الإمام [الرازي] نحو قول القائل : سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة ، وسرت إلى الكوفة في خمسة عشر يوماً ، معناه أن المسافتين خمسة عشر ، ويقال : أعطيتك ألفاً في شهر ، وألفين في شهرين ، فيدخل الألف في الألفين ، والشهر في الشهرين .

ولما شرح الله تعالى تخليق الأرض وما فيها أتبعه بكيفية تخليق السماء فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ من قولك : استوى إلى كذا إذا توجه إليه ، وهو من الاستواء نقيض الاعوجاج .

قال الرازي : قوله عز وجل : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ يشعر بأن تخليق السماء حصل بعد تخليق الأرض ، وقوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ يشعر بأن تخليق الأرض حصل بعد تخليق السماء ، وذلك يوجب التناقض ، واختلف العلماء في هذه المسألة .

والجواب المشهور : أن يقال : إنه تعالى خلق الأرض في يومين أولاً غير مدحوة ، ثم خلق بعده السماء ، ثم بعد خلق السماء دحا الأرض ، وبهذا الطريق يزول التناقض .

قال : واعلم أن هذا الجواب مشكل عندي^(١) من وجوه ، الأول : أنه تعالى بين أنه خلق الأرض في يومين ، ثم أنه في اليوم الثالث جعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها وقدر أقواتها ، وهذه الأحوال لا يمكن إدخالها في الوجود إلا بعد أن صارت الأرض مدحوة ؛ لأن خلق الجبال فيها لا يمكن إلا من بعد أن صارت منبسطة .

وقوله : ﴿وَبَارِكْ فِيهَا﴾ يشعر بخلق الأشجار والنبات والحيوان فيها ، وذلك لا يمكن إلا بعد صيرورتها [منبسطة] . ثم إنه تعالى قال بعد ذلك : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى

(١) في المصاييح (عندي مشكل) وفي الرازي ما أثبتناه .

قال السيد العلوي رحمه الله : قوله : قد خلق الأرض أولاً غير مدحوة قيل : فيه نظر ؛ لأن الله تعالى بين أنه خلق الأرض في يومين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في يومين آخرين ، وجعل الرواسي وتقدير الأقوات لا يمكن إلا بعد دحوها ، ويمكن أن يجاب بمنع ذلك ، بأن يقال : إن الأرض لما خلقت غير مدحوة خلقت الجبال أيضاً لا على ما هي عليه من الأشكال ، فلما دحيت الأرض بعد ذلك خلقت أيضاً أشكال الجبال وهياتها حينئذ ، فيحتمل أن يقال : إن ثم في قوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ للتأخر في المرتبة ، لا في الوقت ؛ لأن خلق السماء أعظم من خلق الأرض ، فترقي في الكلام من الأعلى إلى الأدنى : حاشية العلوي ص ٢٤٦ .

السماء ﴿﴾ فهذا يقتضي أنه تعالى خلق السماء بعد [خلق] الأرض ، وبعد أن جعلها مدحوة ، وحينئذ يعود السؤال المذكور^(١) ١٩ .

قلت — وبالله التوفيق — : غاية ما يكون أنه لا تكليف علينا في معرفة ابتداء الخلق ولكنه لما حرر الإشكال من الوجوه المذكورة على التأويل المشهور حتى أورد التشكيك والاعتراض الوارد بزعمه على التأويل المذكور ، فاللوم على من جهل فحَرَفَ المعنى بجهله فيا لله من أمة ضلت عن هدايتها — أحببت إزالة هذه الشبهة بما قد علمته من طريق أئمتنا عليهم السلام في التأويل ، فنقول — والله أعلم — : إن هذا هاهنا من التقديم والتأخير ، وهو في كتاب الله كثير ، من ذلك ما ذكره الهادي إلى الحق عليه السلام في سورة النساء ، في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى ﴾^(٢) الآيات ، وكثيرا^(٣) من هذا ذكره الحسين بن القاسم عليه السلام في تفسيره ، ومن ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا ﴾^(٤) قال بعضهم : أجمع أهل اللغة والتفسير على أن هذا من التقديم والتأخير ، والتقدير : أنزل على عبده الكتاب قيما ، ولم يجعل له عوجا ، فيكون المعنى هاهنا — والله أعلم — على التقديم والتأخير (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا) ثم رجع إلى الإخبار عن كونه خالقا للأرض في يومين فقال سبحانه : ﴿ وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ [ثم

(١) تفسير الرازي : ٢٧ / ١٠٥ .

(٢) النساء : ٣ .

(٣) نصب كثيرا ، على أنه مفعول لفعل محذوف دل عليه ما بعده ، وهو ذكر .

(٤) الكهف : ١ .

قال عز وجل في خلقها : ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ ^(١) فابتداء الخلق للأرض على ما في الآي الأول كان في يومين ، ثم خلق السموات وكانت دخاناً ، ثم دحا بعد ذلك الأرض ، أي : بسطها ، وكانت ربوة مجتمعة ، وأرساها بالجبال ، وأنبت فيها النبات في يومين ، فلكل ستة أيام سواء للسائلين ، كما روي عن ابن عباس ، وهذا إن شاء الله يزول هذا الإيراد ، وينخل ما ذكر من الإشكال — والله أعلم وأحكم

وفي معنى ﴿ استوى إلى السماء ﴾ يقول الهادي إلى الحق عليه السلام : معنى قوله : ﴿ استوى إلى السماء ﴾ فهو صار حكمه إلى تدبير السماء وخلقها ، وهي إذ ذاك دخان في الهواء ، فخلق من ذلك الدخان هذه السموات العلا ، فهذا معنى استوى ، أي صار حكمه وفعله إلى خلق السماء من بعد الأربعة الأشياء الأصلية للأشياء ، وهي الهواء ، والماء ، والريح ، والنار ، ابتدع هذه الأشياء الأربعة ابتداءً ، من غير ما أصل كان موجوداً مع الواحد الرحمن ، فخلق — تبارك — هذه طبائع مختلفة متضادة غير مؤلفة ، فجعلها أصولاً لكل ما خلق وبرأ فيها . فهذا معنى قوله : ﴿ استوى ﴾ لا أنه تبارك وتعالى انتقل إليها من الأرض ، ولا كان في الأرض دون الهواء ، هو محيط بكل الأشياء ، مستغن عن الأمكنة والأشياء ، تبارك وتعالى ذو الجلال والبقاء .

[وهذا المعنى الذي به تكلمنا ذكر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، قال : (فلما أن خلق الله تعالى الماء والرياح ، أوحى الله إلى الرياح بأن تصفق وتهيج غوارب الماء وأمواجه ، فهيجت أمواجه ، وحركت ساكنه فارتعدت غواربه ، فتراكم زبده ، وعظم أمره ، ثم أوحى إلى النار فأحرقت ذلك الزبد ، فنار منه دخان فصعد الهواء ، وبقي حراقة الزبد ، فخلق الله السموات من ذلك الدخان) ^(٢) كما

(١) ما بين أقواس الزيادة غير موجود في النسخة ب ، وهو موجود في النسخة أ .

(٢) ما بين قوسي الزيادة ليس من ضمن كلام الإمام الهادي عليه السلام في المجموع ، بل الظاهر أنه من كلام المصنف رحمه الله .

قال تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ هو أراد أن تأتيا فأتيا ، وليس ثم قول ، وإنما هذا مثل يخبر سبحانه عن^(١) سرعة نفاذ أمره ومضي مشيئته [أنه]^(٢) أسرع من قول القائل : كن ، ومعنى ﴿ ائتيا ﴾ هو كونا ، ولم يكن ثم أمر منه لهما لأههما في ذلك الوقت دخان وحرارة ، وإنما هو مثلٌ مُثَلُّ بالأمر ، وإنما معنى ﴿ ائتيا ﴾ أي : أراد فجعل ، وشاء كونهُما فكانتا ، فإيجاده لهما مراده لهما ، ومراده لهما هو إيجاده إياهما ، لا تسبق إرادته وجوده ، ولا وجوده إرادته ، إذا شاء شيئا كان بلا تكلف ولا إضمار ، ولا استعانة بأعوان .

ومعنى ﴿ قَالَسَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ هذا أيضا مثله في الطاعة والاستواء ، أراد سبحانه أهما عند إرادته لإيجادهما كانتا لم يمتنع عليه من أمرهما ممتنع ، ولم يعسر عليه في خلقهما عسير ، ولم يؤوده من تدبيرهما صغير ولا كبير ، فهذا معنى ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾^(٣) اهـ

وطائعين : جمع سلامة في مذكر العقلاء ، لأنه وصفهن بصفات العقلاء من الطوع والكراهة ، والخطاب ، والجواب ، وليس المراد منه توجيه الأمر والتكليف على السموات والأرض ، بل المراد أنه أراد تكوينيهما فلم يمتنع عليه ، ووجدتا كما أرادهما ، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه أمر من الأمر المطاع ، ونظيره قول القائل : قال الجدار للوئد لم تشقني ؟ قال الوئد : أسأل من يدقني فإن الحجر الذي وارانني ما خلاني ورائي ، وانتصب ﴿ طوعا ﴾ و ﴿ كرها ﴾ على الحال ، بمعنى طائعتين أو مكرهتين ، والمراد أن هذا مثل للزوم تأثير قدرته فيهما ، وأن

(١) في المجموع (أن) بدلا عن (عن) هنا .

(٢) ما بين قوسي الزيادة غير موجود في المجموع .

(٣) بمجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٤٥ .

امتناعهما محال ، وهذا من الجاز المسمى بالتمثيل ، أو يكون تخييلاً^(١) ، ويبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلمهما ، وقال : شئتما أو كرهتما أتيتما فقلتا : أتينا على الطوع لا الإكراه ، والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات من غير تحقيق شيء من الخطاب والجواب ، بل كما قال الشاعر :

وقالت له العينان سمعا وطاعة

أي سمعتا وأطاعتا ، وليس لهما قول ، وقال آخر في راحلته :

تقول إذا أردت لها وضينا أهذا دينه أبداً وديني

والراحلة لا تقول ، وإنما هذا مثل مضروب ، والأمثال جائزة ، وقال بعض المفسرين : إن الله أحيهما ومنحهما عقليْن ، ثم خاطبهما حقيقة ، وأجابته حقيقة بقولهما : ﴿أتينا طائعين﴾ .

وعن ابن عباس : قال للسماء : أظهري شمسك وقمرك ونجومك ، وقال للأرض شققي أنهارك ، وأخرجني ثمارك طوعاً أو كرهاً ، حكاه في التجريد .

قلت : والإشكال على هذا وارد ، وهو أن يقال : المراد من قوله : ﴿أتينا طوعاً أو كرهاً﴾ الإتيان إلى الوجود والحدوث والحصول ، وعلى هذا التقدير حال توجه هذا الأمر كانت السموات والأرض معدومة ، إذ لو كانت موجودة لصار حاصل

(١) قال السيد العلوي : قوله : ويجوز أن يكون تخيلاً . يعني : إثبات المقابلة مع السماء والأرض ، يمكن أن يكون من الاستعارة التمثيلية كما سبق ؛ لأن وجه الشبه منتزع من عدة أمور ، وأن يكون من الاستعارة التخيلية ، بعد أن تكون الاستعارة في ذاتها مكنية ، كما تقول : نطق الحال ، بدل ذلك ، فجعل الحال كالإنسان الذي يتكلم ، ثم يتخيل له النطق الذي هو من لوازم المشبه به ، وينسب إليه .

وأما بيان الاستعارة التمثيلية فهو أنه لما شبه حالة السماء والأرض والمقابلة بينهما ، وبين فاطرهما في إرادة تكوينهما وإيجادهما ، بخاله المرء ذي حبروت له نفاذ في سلطانه ، وأطاعه من تحت مملكته من غير ريب ، والأوجه أن يراد بقوله : تخيلاً أنه جاء تصويراً لقدرته وعظمة سلطانه ، وأنه القصد في التركيب والخلاصة من المجموع على سبيل الكفاية الإيمانية من غير نظر إلى مفرداته كما سبق في قوله تعالى : ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾ .

هذا الأمر أن يقال : يا موجود صر موجودا ، وذلك لا يجوز ، فثبت أنها حال توجه الأمر عليها كانت معدومة ، وإذا كانت معدومة لم تكن فاهمة ولا عارفة للخطاب ، فلم يجز توجه الأمر عليها ، وأما ما روي عن ابن عباس فظاهره كأن الله تعالى أودع فيهما تلك الأشياء المذكورة ثم أمرهما بإبرازها ، وإظهارها ، فعلى هذا القول لا يكون المراد من قوله : ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ حدوثهما في ذاتيهما ، بل يصير المراد من هذا الأمر أن يظهر ما كان مودعا فيهما ، وليس كذلك — والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ ﴾ أي : أحكم خلقهن ﴿ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أي : في مدة يومين ؛ لأنه قبل الشمس المحدودة للأيام كما مر نظائره ، ومعناه أنه مضى من المدة ما لو حصل هناك فلك وشمس لكان المقدار مقدرا بيومين^(١) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ أي : ما أمر فيها ودبر من خلق الملائكة والنيرات وغير ذلك ، وأوحى فيها شأنها وما يصلحها ، وقيل : أوحى إلى أهل كل سماء ما تعبد بهم به وأمرهم .

واعلم أن إثبات الأمر فيها مشروط بحصول الأمور فيها ، وهذا يدل على أنه تعالى أسكن هذه السموات الملائكة ، وأنه تعالى أمرهم بأشياء ، ونهاهم عن أشياء ، وليس في الآية ما يدل على أنه إنما خلق الملائكة مع السموات ، أو أنه تعالى خلقهم قبل السموات ، ثم أنه تعالى أسكنهم فيها ، وأيضا ليس في الآية بيان الشرائع التي أمر الملائكة بها ، وهذه الأسرار لا تليق بعقول البشر ، بل هي أعلى من مصاعد أفهامهم وأوهامهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ﴾ أي : القربى من الأرض ﴿ بِمَصَابِيحَ ﴾ وهي الكواكب لأنها تزيناها ، وتضيء فيها ، كما تضيء المصابيح ، وخص كل واحد

(١) في حاشية النسخة أ من المصابيح ما لفظه : ﴿ قل إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ﴾ إلى قوله : ينظر في قوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ فإن ظاهر هذه الآية القدسية أنه كان خلق الأرض وحدها في ستة أيام ، وخلق السموات في يومين ، والمعروف في غير هذه الآية أن خلق السموات والأرض جميعا كان في ستة أيام ، والله أعلم ، قاله القاضي العلامة صفى الإسلام أحمد بن ناصر بن عبد الحق المخلافي

منها بضوء معين ، وسر معين ، وطبيعة معينة ، لا يعرفها إلا الله .
ثم قال : ﴿ وَحَفَظْنَا ﴾ أي : وحفظناها حفظا من المسترقة السمع ؛ لأنهم يرمون
بالشواقب

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه التفاصيل قال : ﴿ ذَلِكَ ﴾ المذكور من خلق
السموات والأرض وما يصلحهن ﴿ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾ القوي القادر على ما يشاء
﴿ الْعَلِيمِ ﴾ بتدبير الأمور ، وكل معلوم ، فالعزيز : إشارة إلى كمال القدرة ،
والعليم : إشارة إلى كمال العلم ، وما أحسن هذه الخاتمة ، لأن تلك الأعمال لا
تتمكن إلا بقدرة كاملة وعلم محيط ، والله أعلم .

ولما كان الكلام إنما ابتدأ من قوله : ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ واحتج عليه بقوله :
﴿ قُلْ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ ﴾ بالذي خلق الأرض في يومين ﴿ ثُمَّ تِلْكَ الْحِجَّةُ عَلَى أَكْمَلِ
الوجوه ، فإن بقوا مصرين على الجهل لم يبق حينئذ علاج في حقهم إلا إنزال
العذاب عليهم ، فلهذا السبب قال : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ يعني قريشا ، بعد أن تتلو
عليهم هذه الحجج الدالة على الوحدانية والقدرة على كل شيء ﴿ فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ
صَاعِقَةً ﴾ أي : عذابا شديدا الوقع كأنه صاعقة ، والصاعقة : العذاب على أي حال
كان ، وأصله الصوت مع النار ﴿ مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فحذرهم أن تصيبهم
صاعقة العذاب ، وهي قصفة رعد معها نار ، لا تقع على شيء إلا أهلكته ، وعاد :
قوم هود ، فكان عذابهم الريح الصرصر ، أي شديدة الصوت ، وثمود : قوم صالح ،
وكان عذابهم بصيحة جبريل ، ولم يرد حقيقة الصاعقة^(١) .

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) : الأحكام

يدل قوله {فإن أعرضوا} على ونحو النظر في الأدلة فلذلك ذمهم على الإعراض ، ويدل قوله {هديناهم} أن الهدى هو الدلالة والبيان ، وتدل على أن المعارف مكتسبة ، لذلك قال فاستحبوا العمى ، وتدل على أن العبد يفعل لولا ذلك لما صح أن يختار شيئا على شيء ، وتدل على أنه يقدر على التقدير لذلك صح وصفه بأنه مختار ، فعل على فعيل .

ثم قال تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ قال في التجرید : في معناه قولان ، أحدهما : أن الرسل أتوهم من كل جانب ، يدعوهم إلى الإيمان ، وأعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا إلا العتو ، ويحتمل الحقيقة ، ويحتمل أن يكون عبارة عن تكرار الدعاء ، وأصله أن من يحاول الشيء يبدو " من كل جهاته يلتمس ما يريد ، فاعله إن تعسر من جانب يسهل من الآخر ، والثاني : أنه أراد ﴿ من بين أيديهم ﴾ من تقدم من الرسل إلى آبائهم ، وإلى غيرهم ؛ لأن الرسل يصدق بعضهم بعضا ، وبقوله : ﴿ من خلفهم ﴾ الذين جاؤهم لأنهم من بعد وجودهم .

وقوله : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ تفسير للإنذار ، أي : قالت لهم : لا تعبدوا إلا الله ثم حكى الله تعالى عن أولئك الكفار أنهم ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا ﴾ أي : لو شاء ربنا إرسال الرسل ﴿ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ أي : فإذا أتم بشر ، ولستم ملائكة ، فلا تؤمن بكم ، وقوله : ﴿ أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ ليس بإقرار بالإرسال ، وإنما هو على كلام الرسل ، وفيه تهكم بالرسل ، كما قال فرعون : ﴿ إِن رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمُجْنُونٌ ﴾ .

وروي أن أبا جهل قال في ملأ من قريش : التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والسحر والكهانة يكلمه ، ثم أتانا ببيان عن أمره ، فقال : عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت الشعر والسحر والكهانة ، وعلمت من ذلك علما ، وما يخفى علي ، فأتاه فقال : يا محمد أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ لم تشتم آلهتنا ؟ وتضللنا ؟ فإن كنت تريد الرئاسة عقدنا لك اللواء ، فكنت رئيسنا ، وإن أردت الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن بأي بنات قريش شئت ، وإن كان بك المال جمعنا لك ما تستغني به ، ورسول الله ﷺ ساكت ، فلما فرغ قال : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ مثل صاعقة ﴾

(١) معنى : يظهر عليه من كل جهاته .

عاد وثمود ﴿ فَأَمْسَكَ عَتَبَةً عَلَىٰ فِيهِ ، وَنَاشَدَهُ بِالرَّحْمِ ، وَرَجَعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ، وَلَمْ يَخْرُجْ لَقْرِيشَ ، فَلَمَّا احْتَبَسَ عَنْهُمْ ، قَالُوا : لَا نَرَىٰ عَتَبَةً إِلَّا قَدْ صَبَأَ ، فَانْطَلَقُوا إِلَيْهِ ، وَقَالُوا : يَا عَتَبَةُ مَا حَبَسَكَ عَنَّا إِلَّا أَنْكَ قَدْ صَبَأْتَ ؟ فَغَضِبَ وَأَقْسَمَ لَا يَكَلِّمُ مُحَمَّدًا أَبَدًا ، ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ كَلِمَتُهُ وَأَجَابَنِي بِشَيْءٍ وَاللَّهُ مَا هُوَ شَعْرٌ ، وَلَا كَهَانَةٌ ، وَلَا سِحْرٌ ، وَلَمَّا بَلَغَ ﴿ ضَاعِقَةً عَادَ وَثَمُودَ ﴾ أَمْسَكَتْ بِفِيهِ ، وَنَاشَدَتْهُ بِالرَّحْمِ — وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ مُحَمَّدًا إِذَا قَالَ شَيْئًا لَمْ يَكْذِبْ — فَخَفَّتْ أَنْ يَنْزَلَ بِكُمْ الْعَذَابُ ^(١) .

واعلم أنه تعالى لما بين كفر قوم عاد وثمود على الإجمال بين خاضية كل واحدة من هاتين الطائفتين ، فقال عز وجل : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ تعظموا فيها على أهلها ﴿ يَغْيُرُ الْحَقَّ ﴾ بما لا يستحقون به التعظيم ، وهو القوة وعظم الأجسام كما حكى الله قولهم .

ثم بين تعالى سبب ذلك الاستكبار حيث حكى قولهم : ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ ثم أنكر سبحانه قولهم هذا ، وذكر ما يدل على أنه لا يجوز لهم أن يغتروا بشدة قوتهم فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ أي : يعلموا ﴿ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ثم قال : ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ مع علمهم أنها حق ، ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوديعه .

ولما بلغوا في الصفات المذمومة الموجبة للهلاك والإبطال الغاية القصوى — سلط الله عليهم العذاب ، فقال عز وجل : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ كأنه وصف بالمصدر

(١) الرواية وردت أيضا في الكشف ٣/٣٨٧ ، وفي الرازي ٩/٥٥٢ ، قال ابن حجر في تخريجها ص ٤٥ قال ابن إسحاق في السيرة : حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب بهذا مرسلا ، ووصله ابن أبي شيبة ، وعنه أبو يعلى ، وعبد بن حميد ، وأبو نعيم ، والبيهقي كلاهما في الدلائل ، كلهم من رواية الأجلح الكندي ، عن الزبال بن حرملة ، عن جابر مطولا .

قال في التحريد : في الصرصر أقوال ، أحدها : أنها الشديدة الهبوب ، التي تصوت لشدة هبوبها ، من صر الجُنْدُبُ^(١) إذا صَوَّت .

وثانيها : أنها الباردة من الصرّ ، وهو البرد ، وثالثها : أنها الباردة التي تحرق لشدة بردها ، كما تحرق النار عن ابن عباس . اهـ

وهو تكرير لبيان الصر ، وهو البرد الذي يصبر ويجمع ويقبض ﴿ فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾ أي : مشؤمات ، قال في الكشف : نحس نحسا : نقيض سعد سعدا ، وهو نحس [وأما نحس] فإما مخفف نحس ، أو صفة على فعل [كالضخم وشبهه] أو وصف بمصدر^(٢)

قال في التحريد : وفي أولها ثلاثة أقوال ، أحدها : غداة الأحد ، قاله السدي ، والثاني : يوم الجمعة ، قاله الربيع بن أنس .

والثالث : يوم الأربعاء ، قاله يحيى بن معاذ .

ثم قال عز وجل ﴿ لِنُذِقَهُمُ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أضاف العذاب إلى الخزي ، وهو الذل والاستكانة ، على أنه وصف للعذاب ، كأنه قال : عذاب خزي كما تقول : فعل سوء ، تريد الفعل السيئ ، والدليل عليه قوله : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى ﴾ أي : أشد إهانة وخزيا ، وهو من الإسناد المجازي ، وهو أن وصف العذاب بالخزي أبلغ من وصفهم به ، ألا ترى إلى الفرق بين قولك : هو شاعر ، وله شعر شاعر ، قاله في الكشف^(٣) .

(١) الجندب : بفتح الدال وضمها ضرب من الجراد .

(٢) انظر الكشف ١٩٣/٤ . وما بين أقواس الزيادة من الكشف .

(٣) انظر الكشف ١٩٣/٣ ، قال السيد العلوي في حاشيته على الكشف : أصله : خزي ، فأعلل إعلال قاض ، أي : عذاب ذليل ؛ لأن الخزي هو الذل والاستكانة ، والخزي في الحقيقة للمعذب ، فإسناده إلى العذاب مجاز ، والإضافة فيه من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى ﴾ ووصف العذاب بالخزي أبلغ من وصف المعذب به ، لما يلزم منه أنه بلغ خزيهم إلى أن سرى إلى ما

﴿وَهُمْ لَا يَنْصَرُونَ﴾ [يدفع العذاب عنهم .

ولما ذكر الله تعالى قصة عاد أتبعه بقصة ثمود فقال^(١): ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: دللناهم وعرفناهم طريقَي الضلال والرشد ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ أي: اختاروا الدخول في الضلالة على الرشd ، ولما وصف الله كفرهم قال: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أي: داهية العذاب ، وقارعة العذاب ، والهون: مصدر بمعنى الهوان ، وصف به مبالغة ، أو على تقدير ذي الهون ، ثم علل ذلك فقال: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: بسبب كسبهم الذنوب ، من شركهم ، وتكذيبهم صالحا ، وعقرهم الناقة .

ولما ذكر الله الوعيد أردفه بالوعد فقال سبحانه: ﴿وَلَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وهو كالتعليل لنجاحهم وأراد بهم صالحا ومن معه .

إن قيل: كيف يجوز للرسول ﷺ أن ينذر قومه مثل صاعقة عاد وثمود مع العلم بأن ذلك لا يقع في أمته ﷺ ، وقد صرح الله تعالى بذلك في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾^(٢) وجاء في الأحاديث الصحيحة (أن الله تعالى رفع عن هذه الأمة هذه الأنواع من الآفات) ؟ .

قلنا: إنهم لما عرفوا كونهم مشاركين لعاد وثمود في استحقاق مثل تلك الصاعقة جوزوا حدوث ما يكون من جنس ذلك ، وإن كان أقل درجة منهم ، وهذا القدر

يلابسهم من العذاب ، نحو شعر شاعر ، أي: بلغ الرجل في الشاعرية إلى أن شعره أيضا شعر ، قال أبو الطيب :
ولكن شعري فيك من نفسه شعر . وما أنا وحدي قلت ذا الشعر كله

(١) ما بين القوسين ليس في النسخة أ ، وهو موجود في النسخة ب .

(٢) الأنفال : ٣٣ .

يكفي في التخويف ، والله أعلم ^(١).

ولما بين تعالى كيفية عقوبة هؤلاء الكفار في الدنيا أردفه بكيفية عقوبتهم في الآخرة فيحصل منه تمام الاعتبار والزجر والتحذير ، فقال عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ ﴾ ^(٢) قرأ نافع (نحشر) بالنون (أعداء) بالنصب أضاف الحشر إلى نفسه ، والتقدير : يحشر الله عز وجل أعداء الله الكفار من الأولين والآخرين ، وحجته أنه معطوف على قوله : ﴿ وَنَحِينَا ﴾ فيحسن أن يكون على وفقه ، ويقويه قوله : ﴿ يَوْمَ نُحْشِرُ الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٣) ﴿ وَحْشَرْنَاهُمْ ﴾ ^(٤) وأما الباقيون فقرأوا على فعل ما لم يسم فاعله ؛ لأن قصة ثود قد تم ، وقوله : ﴿ يَوْمَ يُحْشَرُ ﴾ ابتداء كلام آخر ، وأيضا الحاشرون لهم هم المأمورون بقوله : ﴿ احْشَرُوا ﴾ وهم الملائكة .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن أعداء الله يحشرون إلى النار قال : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي : يستوقف السابق حتى يلحق الآخر ، وهذه عبارة عن كثرة أهل النار ، والمقصود بيان أنهم إذا اجتمعوا سئلوا عن أعمالهم ، ثم قال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (ما) في ﴿ إِذَا مَا جَاءُوهَا ﴾ زائدة

(١) وقد ذكر وجه آخر ، وهو أن هذا التهديد وقع قبل الإخبار بأن عذاب الاستئصال واقع بهم ، وكذلك نحوه من الآيات التي وردت في القرآن .

(٢) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) الأحكام

تدل الآيات على أن الجوارح تشهد وتنطق ، ولا معنى للعدول عن الظاهر مع أنه لا مانع منه ، وتدل على أن أفعال العباد حادثة من جهتهم ، ليصح الشهادة عليهم ، وتدل أن القوم كانوا جاهلين بالله وصفاته لولا ذلك لما ظنوا به هذا الظن ، فتدل على أن المعارف مكتسبة ، وتدل على أن الظن مذموم في باب التوحيد ، وأصول الدين ، ومتى قيل : أليس روى في حسن الظن بالله ؟ قلنا : ذلك يمتنع على العلم ، فإن من علمه رحيمًا كريمًا ظن لعلمه أنه يرحمه ، وقيل : أراد بالظن العلم بما يقتضي حسن الظن ، كما روي عن الحسن أن قوما ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ، وليست لهم حسنة ، يقول أحدهم : أحسن الظن بالله . كذب لو أحسن الظن به لأحسن العمل

(٣) مريم : ٨٥ .

(٤) الكهف : ٤٧ .

للتأكيد ، ومعنى التأكيد فيها : أن وقت مجيئهم إلى النار لا محالة يكون وقت الشهادة عليهم ، ومثله ﴿ أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ (١) أي : لا بد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم ، تشهد الآذان بما سمعت ، والعيون بما أبصرت ، والجلود بما لامست من الحرام ، وما أشبه ذلك ، ينطق الله هذه الأعضاء كما أنطق الشجرة لموسى عليه السلام ، وقيل : المراد بالجلود الجوارح ، وقيل : هي (٢) كناية عن الفروج .

ثم حكى الله عنهم أنهم يقولون لتلك الأعضاء حيث يقول : ﴿ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدَتْمْ عَلَيْنَا ﴾ أي : لأي سبب ﴿ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ من الحيوانات ، المعنى : أن نطقها ليس بعجيب من قدرته ﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ في الدنيا ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : إلى جزائه ، وإنما قالوا لهم : ﴿ لَمْ شَهِدَتْمْ عَلَيْنَا ﴾ لما تعاضمهم من (٣) الافتضاح على السنة جوارحهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتُرُونَ ﴾ أي : في الدنيا بالحجب عن ارتكاب الفواحش خيفة ﴿ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ لأنكم كنتم جاحدين للبعث أصلا ، وما يتفرع عليه من شهادتها وغيرها .

قال المرتضى عليه السلام : المعنى فيه ما أراد الله سبحانه من ذلك ، وما جعل فيه من الإذلال للفاسقين ، والفضيحة للمنافقين ، فكان ما أقرت به عليهم أيديهم وأرجلهم أعظم في الفضيحة عليهم ، وأشد في التيكيت لهم إذ تولى الفضيحة لهم ، والإقرار بعظائمهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم ، وما ذكر الله من جوارحهم ، هذا

(١) يونس : ٥١

(٢) في النسخة ب (وقيل : هو كناية عن الفروج) .

(٣) العبارة هنا مثلها في الكشف ، ولفظ الكشف من [شهادتها وكبر عليهم من] الافتضاح

على السنة جوارحهم . ١٩٥/٤ .

معنى [ذلك ومخرجه] ^(١) وهو بين بين . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ ﴾ أي : ولكنكم إنما استترتم لظنكم ﴿ أَنْ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وهو الخفيات من أعمالكم ، قال ابن عباس : كان الكفار يقولون : إن الله لا يعلم ما في أنفسنا ، ولكنه يعلم ما يظهر .

ثم قال تعالى : ﴿ وَذَلِكُمْ ﴾ الظن هو ﴿ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي : أهلكم ، والردى : هو الهلاك ، قال الشاعر :

أصاب الردى من كان يهوى لك وجن اللواتي قلن عزة جنت

وفي حديث ابن مسعود : (كنت مستترا بأستار الكعبة ، فجاء ثلاثة نفر ، قرشي ، وثقيان ، فتكلموا بكلام لم أسمعه فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما نقول ، فقال الآخر : أما إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإذا لم نرفع لم يسمع ، وقال الآخر : إن سمع منا شيئا سمعه كله ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ ﴾ الآية وما بعدها إلى قوله : ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ لأنفسكم في وقوعها في النار ، وهذا تنبيه على أن من حق المؤمن أن لا يذهل أن عليه من الله عينا ورقيا ، حتى يكون في خلواته [من ربه] ^(٢) أهيب ، وأحسن احتشاما منه مع الملائكة

ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنْ يَصِيرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ أي : مقر ومقام لهم ، لا ينفعهم الصبر ؛ لأنه في غير وقته بعد انقطاع التكليف ، يعني : إن أمسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه ^(٣) لم يجدوا ذلك ، وتكون النار مَثْوًى لهم ﴿ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا ﴾ بينائه للفاعل ، أي : يطلبوا أن يرضوا بهم فيرضى عنهم ، ويقبل العتبي ، وهي الرجوع

(١) انظر مجموع تفسير الأئمة ، وما بين قوسي الزيادة من المجموع ، وهو غير موجود في النسخة أ ، وموجود في النسخة ب

(٢) ما بين القوسين من النسخة ب ، وهو غير موجود في النسخة أ .

(٣) في النسخة أ (لفرح يجدونه) وما هنا هو ما في النسخة ب .

لهم إلى ما يحبون ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ اسم مفعول ، أي : لم يعطوا العتبي ، ولم يجابوا إليها ، عتب : غضب ، وأعتبه : أزال عتبه ، ويقال : أعتبني فلان ، أي : أرضاني بعد إسخاطه إياي ، واستعتبته : طلبت منه أن يعتب ، أي : يرضى ، قاله جار الله^(١) .

وقال أيضا : وقرئ (وإن يستعتبوا) يريد ببنائه للمفعول ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ اسم فاعل ، أي : إن سئلوا أن يرضوا رهم فما هم فاعلين ، أي : لا سبيل لهم إلى ذلك . ثم قال تعالى : ﴿وَقِضْنَا لَهُمْ قُرْءَاءَ﴾ أي : خلينا وتركنا ، ولم نمنع بقدرتنا ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما تقدم من أعمالهم القبيحة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما هم عازمون عليها^(٢) .

وقال الهادي عليه السلام : معنى ﴿وقيضنا لهم﴾ هو : خلينا وأمهلنا ، ولم نخل بين هؤلاء القراء وبين من اجترأ علينا ، والقراء : فهم قراء السوء من شياطين الجن والإنس ، فلما أن كان الله [تبارك و] تعالى قادرا على أن يصرف عن أعدائه

(١) لفظ الكشف ١٩٦/٤ : {وإن يستعتبوا} وإن يسألوا العتبي ، وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعا مما هم فيه : لم يعتبوا : لم يعطوا العتبي ، ولم يجابوا إليها ، نحو قوله عز وعلا : {أجرعنا أم صبرنا ما لنا من محيص} وقرئ : وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين} أي : إن سئلوا أن يرضوا رهم فما هم فاعلون ، أي : لا سبيل لهم إلى ذلك .

(٢) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) : الأحكام

يدل قوله : {فزينوا} أن القراء زينوا المعاصي لهم ، وذلك يبطل قول المجرة : إن الله هو الذي زين ، وتدل على التحذير من قراء السوء ، ويدل قوله : {تسمعوا} أن النبي ﷺ كان يحث عليهم بالقرآن ، ويتحذاهم به ، لذلك منعوا من استماعه ، وتدل على قبح مقابلة الحجة بالسفه واللهم ، صنع المجرة والمشبهة مع أهل العدل ، وتدل على أن الجن يموتون كالإنس لذلك قال : {خلت} ويدل قوله : {ذلك جزاء} أن العقاب يستحق على الأعمال ، ويدل قوله {ربنا} أن الإضلال من الإنس والجن خلاف ما تقول المجرة ، وتدل على أنه تعالى لم يخلق فيهم الكفر والضلال ؛ إذ لو كان خلق ذلك لما كان ضلالا لهم تأثير فيه ، وتدل على وجوب إتباع الدليل دون الرؤساء ، ويدل آخر الآية أن عذاب أهل النار يتفاضل على قدر الاستحقاق .

كيد هؤلاء فلم يفعل جزاء على فعلهم ، وخذلنا على كفرهم ، جاز أن يقول : ﴿ قِيضْنَا ﴾ يريد : تركنا ، وأمهلنا حتى زينوا لهم ، ومعنى التزيين : فهو التحسين لما ييسطون لهم من الأمل في الدنيا ، ويمنّوهم من المغفرة في الآخرة التي تبقى ، فهذا معنى ﴿ ما بين أيديهم .. وما خلفهم ﴾

ومعنى ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ فهو : أغوهم حتى حق عليهم ما نزل بالأمم من قبلهم على مثل فعلهم^(١) . اهـ

وقيل : معنى ﴿ وحق عليهم القول ﴾ أي : وجبت عليهم كلمة العذاب ، وهي ﴿ لأهلنا جهنم ﴾ ومعنى ﴿ في أمم ﴾ أي : في جملة أمم ﴿ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ ومنهم من يجعل (في) بمعنى مع ، قيل : دل على أن الجن يموتون كالإنس لا الملائكة ، فيمهلون إلى يوم القيامة ، وقيل : لا دلالة على ذلك ، وقيل : إن كانوا من الشياطين فهم لا يموتون ، وقولهم : ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي : قريش والأمم الخالية ﴿ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ هذا تعليل لاستحقاقهم العذاب ، قال عليه السلام : ومعنى ﴿ خاسرين ﴾ فهو : منتقصون ، وانتقصهم : فهو فوت ما ظفر به المؤمنون من الثواب الذي حرمة العاصون ، وانتقصوه بمعصيتهم ، وفاتهم بترك الطاعة لهم .

واعلم أن الكلام في أول السورة ابتدأ من قوله : ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ إلى قوله : ﴿ فاعمل إننا عاملون ﴾ فأجاب الله تعالى عن تلك الشبهة بوجوه من الأجوبة ، واتصل الكلام بعضه ببعض إلى هذا الموضع ، ثم إنه تعالى حكى عنهم شبهة أخرى فقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من قريش ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ ﴾ أي : لا تنصتوا إذا قرئ ﴿ وَالْقُوا فِيهِ ﴾ أي : عارضوه باللغو ، وهو الكلام الخالي عن الفائدة ، وكان كفار مكة يتواصون برفع الأصوات عند قراءة القرآن بالمكاء والصفير ، وبالشعر ليخلطوا على القارئ ، ويصرفوا عن استماع

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٤٦ .

القرآن ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ صوته إذا قرأ فلا يسمع ، أو فيسكت .

قال محمد بن القاسم عليهما السلام : اللغو هو الباطل والكذب ، والفضول واللعب ، قال المرتضى عليه السلام في الإيضاح : هذا ما كانت قريش وأهل الكفر يفعلونه ، إذا قرئ القرآن لغوا فيه ، أي : هرجوا ، وتحدثوا ، ولغوا من الكلام مما لا يجوز ، ولا يحل ، ليشغلوا إذن السامع وقلبه ، فلا يقع في أذنه ، ولا يقر في قلبه ما قرئ عليه من الحكمة والموعظة الحسنة ، يريدون أن لا يخلص سمع المستنصت وقلبه فيبهره ما يسمع من القرآن المجيد ، والذكر الحكيم فيدعوه ذلك إلى الإسلام ، والرجوع إلى محمد عليه السلام ، فكانت قريش ومن كان معها من أضداد الحق لما غلبتهم الخيل في القرآن ، فلا يقدر أن يقولوا : شعر ، ولا يقدر أحد منهم على أن يأتي بمثله ، فكانوا يخشون باستماع الناس له أن يسلموا ويصدقوا ، فلم تكن لهم حيلة إلا اللغو والكلام ، والمعارضة بما لا يجوز ليشغلوا به القلوب والألباب ، عن الفكر والتمييز ، فكان أمر الله الغالب لهم ، والظاهر عليهم ، ولو كره المشركون ، إلى آخر كلامه عليه السلام .

ولما ذكر الله تعالى ذلك هددهم بالعذاب الشديد ، وقال : ﴿فَلَنَذِقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي : هؤلاء اللاعنين ، أو عاما ، وفيه تهديد شديد ؛ لأن لفظ الذوق إنما يذكر في القدر القليل ، الذي يؤتى به لأجل التجربة .

ثم إنه تعالى ذكر أن ذلك الذوق عذاب شديد ، فإذا كان القليل منه عذابا شديدا ، فكيف يكون حال الكثير منه .

ثم قال عز وجل : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قيل : هو الشرك ، أي : جزاء أسوأ ما عملوه ، والمراد جزاء أعمالهم ؛ لأنها كلها أسوأ ، أي : لنجزينهم بقبائح ما كانوا يسيئون .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَغْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ﴾ عطف بيان للجزاء ، والمعنى أنه

تعالى لما قال في الآية المتقدمة : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ بين أن جزاءه الأسوأ جعل جزاء أعداء الله هو النار .

ثم قال : ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ المعنى : أن النار في نفسها دار الخلد كقوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾^(١) وتقول : لك في هذه الدار دار السرور ، [وأنت] تعني الدار نفسها ، وهذا من باب البلاغة يسمى التجريد^(٢) ، أي لهم في جملة النار دار معينة ، وهي دار العذاب المخلد لهم ﴿ جَزَاءَ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أي : بما كانوا يلغون فيها ، فذكر الجحود الذي هو سبب اللغو .

ثم أخبر تعالى عن الكفار عند وقوعهم في العقاب الشديد ، فقال سبحانه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ ﴾ وهم الشياطين ﴿ وَالْإِنْسِ ﴾ وهم الدعاة إلى الضلال .

قال الهادي عليه السلام : المعنى في ذلك : أن هذا السؤال من الكفار الضالين ، طلب إلى الله أن يريهم من أضلهم وأغواهم ، من جبابرة الآدميين ، ومغويهم من فراعنة الشياطين الموسوسين بالمعصية لهم ، المزينين لما في صدورهم ﴿ نَجْعَلُهُمَّا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾ يقولون : تحتنا في النار ، ونطوئهم ونذلهم ، كما أهلكونا ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ أي : ليكونا تحتنا في العذاب المهين ، وذلك أن جهنم ظلل من فوقها ظلل ، معنى ظلل ، أي : درجات متفاوتات ، فأشدها عذابا أسفلها ، فكل ما كان أسفل فهو أشد عذابا مما هو فوق ، فأراد أن يكون المغوون أسفل منهم في الدرجة التي هي أنكى عذابا ، وأشد نكالا وأشقى . اهـ

واعلم أنه تعالى لما أطنب في الوعيد ، أردفه بالوعد الشريف ، وهذا ترتيب لطيف ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ أي : وحده لا شريك له في الربوبية

(١) الأحزاب : ٢١ .

(٢) قال ابن جني : كأنه جرد من الدار دارا . (حاشية العلوي ٢٤٨) .

﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ ثبتوا على ذلك ، وعلى مقتضاه من الطاعة ، من عمل الواجبات ، وترك المقبحات ، و﴿ثُمَّ﴾ لبيان فضيلة الاستقامة في الرتبة وزيادتها لمشتقتها^(١) ﴿تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ عند الموت بالبشرى ، أو وقت خروجهم من قبورهم ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي : يقولون هذا القول .

قال في التجريد : وفي وقت هذا التنزيل أقوال ، أحدها : عند الموت قاله ابن عباس ، ومجاهد ، فعلى هذا في ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ قولان ، أحدهما : لا تخافوا الموت ، ولا تحزنوا على ما بعدكم من أهل وولد ، فإننا نخلفكم فيهم ، قاله مجاهد .

والثاني : لا تخافوا أمامكم ، ولا تحزنوا على ما خلفكم ، قاله عكرمة ، والسدي .

وثانيها : أنها تنزل عليهم إذا قاموا من القبور ، قاله قتادة ، فيكون معنى لا تخافوا ولا تحزنوا : أنهم يشيرونهم بزوال الخوف والحزن يوم القيامة .

الثالث : البشرى عند الموت ، وفي القبر ، وإذا قاموا من قبورهم ، قيل : والخوف يكون لتوقع أمر مستقبل ، والحزن على شيء قد وقع .

﴿وَأَبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ المعنى : أن الله كتب لكم الأمن من كل غم ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي : الملائكة يقولون : ﴿نحن أولياؤكم﴾ أي : أحبائكم ندعو لكم ، ونبارك عليكم ، ونحفظكم بأمر الله ، كما أن الشياطين قرناء

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) :

الأحكام : يدل أول الآية أن المؤمن لا بد له من الاستقامة ليصل إلى الثواب ، وأن مجرد القول لا يكفي ، وتدل على أن المؤمن مبشر بكل نعمة ، وأنه لا يخاف ولا يحزن في القيامة ، خلاف ما يقوله بعضهم ، وتدل على عظم حال الملائكة حتى كان لهم محل الشفاعة ، وتدل أنهم يحفظون أعمالنا ، ويدل قوله ﴿ومن أحسن قولاً﴾ أن الدعاء إلى الدين من أعظم الطاعات ، وتدل على وجوبه ، وتدل على أن الداعي يجب أن يكون عاملاً ، فيكون الناس إلى القبول منه أقرب ، وتدل على أن القول لا ينفع ما لم يقترب به العمل على ما نقوله ، وتدل على أن اسم الإسلام يتضمن المدح والتعظيم وتدل على أنه يجوز أن يقول : أنا مسلم من غير استثناء ، وتدل على وجوب دفع السيئة بالحسنة ، وأنه من أعظم الخصال ، فينبغي للداعي إلى الحق أن يدعو بالرفق وطريق التواضع ، ولطف القول .

العصاة وإخوانهم ، والملائكة أولياء المتقين وأحبائهم ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ نتولى بإيصال الخيرات إليكم بإذن الله ، ونبشركم بما فيه أكمل السرور .

وقيل : نحن قرنناؤكم في الدنيا ، ولا نفارقكم في الآخرة حتى ندخلكم الجنة ، قاله السدي ، وهم الحفظة من الملائكة .

ثم قال : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا ﴾ أي : الآخرة ﴿ مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ﴾ من كل محبوب ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴾ تتمنون كل ما تريدون قلتم له : كن . فيكون .

ثم قال : ﴿ نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ من رحمته نعيم أوليائه ، والنزل : رزق الضيف عند وصوله ، ونصبه على الحال ، وقال الواحدي : يجوز أن يكون جمع نازل ، والمعنى : ولكم ما تدعون من غفور رحيم نازلين .

ثم قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا ﴾ أي : لا أحد أحسن قولاً ﴿ مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ أي : إلى دينه وطاعته ، وهو رسول الله ﷺ ، دعا إلى الإسلام ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ فيما بينه وبين ربه ، وهي عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث ، التوحيد ، والعمل بالخير ، والدعاء إليه ، وما هم إلا طبقة العلماء العاملين ﴿ وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أي : جعل دين الإسلام مذهبه ، كما يقال : هذا قول أبي حنيفة ، أي : مذهبه ، لا أنه يتكلم بهذا الكلام .

واعلم أنه تعالى بعد الإطناب في الجواب عن تلك الشبهات رغب محمداً ﷺ في أن لا يترك الدعوة إلى الله سبحانه ، فابتدأ أولاً أن قال : ﴿ إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ فلهم الثواب العظيم ، ثم ترقى من تلك الدرجة إلى درجة أخرى ، وهي أن الدعوة إلى الله من أعظم الدرجات ، فصار الكلام من أول السورة إلى هذا الموضع واقعا على أحسن وجوه الترتيب ، ثم كأن سائلا سأل وقال : إن الدعوة إلى الله — وإن كانت طاعة عظيمة — إلا أن الصبر على سفاهة هؤلاء الكفار شديد ، لا طاقة لنا به ، فعند هذا ذكر الله ما يصلح لأن يكون دافعا لهذا الإشكال فقال

سبحانه : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي : ادفع السيئة بالحسنة ، أي : لا تستوي الحسنة والسيئة ، وزيدت لا تأكيدا ، ومعناه : ادفع سفاهتهم ، وجهالتهم بالطريق الذي هو أحسن الطرق ، فإنك إذا صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى ، ولم تقابل سفاهتهم بالغضب ، ولا إصرارهم بالإيذاء ، والايحاش استحيوا من تلك الأخلاق المذمومة ، وتركوا الفعال القبيحة ، وقيل : أراد أن الحسنة تتفاوت إلى حسن وأحسن ، وكذا السيئة إلى سيئ وأسوأ ، فإذا عرضت حسنتان ، فادفع بالأحسن منهما السيئة التي ترد عليك ، كأن يسيء إليك رجل إساءة ، فالحسنة أن تعفو عنه ، والتي هي أحسن أن يحسن إليه ، ومثل أن يذمك فتمدحه ، ويقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه ، فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك مثل الولي ، وهو معنى قوله : ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (١) أي : محب صاف ، أي : ينقلب العدو كالمحب في عظم المودة ، يعني إذا قابلت إساءتهم بالإحسان ، وأفعالهم القبيحة بأفعالك الحسنة تركوا أفعالهم القبيحة ، وانقلبوا من العداوة إلى المحبة ، ومن البغضة إلى المودة .

ولما أرشد الله تعالى إلى هذا الطريق النافع في الدين والدنيا عظمه ، وقال : ﴿وَمَا يُلْقَاهَا﴾ أي : الخصلة التي في مقابلة الإساءة بالإحسان ، ويلقأها بمعنى : يعطأها ، أي : وما يعطى هذه الطريقة أو الخصلة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الغيظ وكظموه ، وعلى مخالفة الهوى ، ثم عظم هذه الخليقة ، بقوله : ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي : إلا رجل وفق لحظ عظيم من الخير ، وقيل : الحظ العظيم الجنة ، قاله قتادة ، أي : ما يلقأها إلا من وجبت له الجنة .

ولما ذكر هذا الطريق الحسن الكامل في دفع الغضب والانتقام ، وفي ترك الخصومة — ذكر عقيبها طريقا آخر عظيم النفع أيضا في هذا الباب ، فقال تعالى : ﴿وَأَمَّا

يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴿٤٠﴾ قال الحسين بن القاسم عليه السلام : أي وساوس قال الشاعر :

ونزغة شيطان يريد ضلالها فمن لي بنفس لا تزال غوية

قال في التجريد : النزغ والبخس يتقاربان ، شبه بمن يبخسه ، أي : يطعنه بإصبعه ونحوها ليحثه على السير ونحوه ، والمعنى : إن صرفك الشيطان عما وصيت به ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ أي : اعتصم وامتنع بالله من شره ، وامض على شأنك ولا تطعه ، وجعل النزغ نازغا ، كما قيل : جدّ جدّه — مجازا ، أو أريد بالنزغ النازغ ، وُصِفَ الشيطان بالمصدر^(١) .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لاستعادتك ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بخلوص نيتك ، فهو يعيدك من شره^(٢) .

واعلم أنه تعالى لما بين أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى ، أردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، فقال سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ وهذا كالتنبية على حدوث هذه الأشياء ، ولما بين أن الشمس والقمر مخلوقان محدثان ، وهما دليلان على وجود الإله القادر ، قال : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ﴾ فهي لمن كان يعبدها من الجحوس وغيرهم

(١) قوله : أو أريد بالنزغ النازغ .. قال السيد العلوي رحمه الله : وعلى هذا (من) تجريدية ، جرد من الشيطان إما شيطانا آخر ، وسمي نازغا ، أو جرد منه وصفه الذي هو تسويله ، وجعل نازغا ، فهو هو أيضا ، ومن على الثاني ابتدائية ، والمعنى : وإما ينزعنك من جهة الشيطان نزغ ، فأسند الفعل إلى فعله مجازا .

(٢) قال المحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) : الأحكام

الآية تدل على أن الشيطان يوسوس ويضل ، وأن الواجب على العبد الاستعاذة بالله من شره ، وتدل على أن للشيطان فعلا ، وللعبد فعلا ، وأنه لا يستعيز بالله تعالى ، ولو كان الجميع خلقا له تعالى لما كان للكلام معنى ، وتدل الآيات على توحيد الله ، وأنه الصانع المدبر ، وأن العالم محدث ، وتدل على صحة الحجاج في الدين ، وتدل على أن الملائكة مكلفون ، وتدل على أن المؤمن يكون آمنا يوم القيامة خلاف ما يقوله بعضهم . ويدل قوله {اعملوا} على زجر عظيم .

﴿وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ القادر الحكيم ، والضمير في قوله : ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ خلقهن لليل والنهار ، والشمس والقمر ؛ لأن جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث ، يقال : الأقلام بريتها وبريتهن .

ولما قال : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ كن في معنى الآيات ، ف قيل : ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ وإنما قال تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ لأن ناسا كانوا يسجدون للشمس والقمر ، وقيل : هم الجحوس والنصارى يزعمون أن السجود لهما سجود لله ، فنهوا عن هذه الوساطة ، وأمروا أن لا يسجدوا إلا لله الذي خلق هذه الأشياء .

ثم إنه تعالى لما أمر بالسجود قال بعده ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾ ولم يمتثلوا فدعهم وشأنهم ، وقوله : ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ عبارة عن كرامتهم ، وارتفاع شأنهم عنده ، أي : فإن الله لا يعدم عابدا بالإخلاص بالأرض ، وله العباد المقربون ، وهم الملائكة الذين ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ﴾ أي : ينزهونه ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ أي : لا يملون ولا يفترون ، قال الشاعر :

ومن لا يزل يستحمل الناس نفسه وإن يعنها يوما من الدهر يسأم

أي : يمل .

واختلف في موضع السجدة ، فالأكثر أنها عند ﴿لا يسأمون﴾ ومنهم من يجعلها عند ﴿يعبدون﴾ لقربه من لفظ ﴿واسجدوا لله﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلَّا تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ الخشوع : التذلل والتقاصر فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها ، ووصفها بالخشوع خلاف وصفها بالاهتزاز والربو في قوله : ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ اهتزت : تحركت بالنبات ، وترينت بالخضرة ، والربو : هو الانتفاخ إذا خصبت وترخرفت بالنبات ، كأنها بمنزلة المختال في زيه ، وكانت قبل كالذليل اللابس الأطمار الرثة ، وقرئ (وربأت) أي : ارتفعت ؛ لأن النبات إذا قرب خروجه ارتفعت له الأرض .

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ بالخصب بعد موتها بالجذب ﴿لَمُخْجِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: القادر على إحيائهم؛ لأن بعث الأموات كإحياء الأرض بالنبات، فإن القادر على إحياء الأرض بعد موتها — لقادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها.

واعلم أنه تعالى لما بين أن الدعوة إلى دين الله أعظم المناصب، وأشرف المراتب، ثم بين أن الدعوة إلى دين الله تعالى إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد والعدل، وصحة البعث والقيامة — عاد إلى تهديد من ينازع في تلك الآيات، ويحاول إلقاء الشبهات فيها، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أي: يميلون في تأويلها من جهة الصحة بأن ينسبونها إلى السحر، والشعر، والكذب، ومنه: ألحد الحافر ولحد إذا مال عن الوسط، فحفر في شق القبر، وقال مقاتل: يميلون عن الإيمان والقرآن، وقال مجاهد: هو المكاء والصفير واللغظ عند قراءة القرآن.

وقوله: ﴿لَا يَخْشَوْنَ غَلًّا﴾ تهديد ووعيد على التحريف ثم قال: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ الْكَاثِرِ﴾ من الملحدين وغيرهم ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ من كل مخوف لإيمانه واستقامته.

قال في التجريد: وهذا عام في كل مؤمن وذو كبيرة، وقد ذكر المفسرون أنها نزلت في أبي جهل، وفي حمزة، وقيل: في أبي جهل وعمار، وقيل: في أبي جهل ورسول الله ﷺ، وهذا الاستفهام بمعنى التقرير، والغرض التنبيه على أن الملحدين في آياتنا يلحون في النار، والذين آمنوا بآياتنا يأتون آمنين يوم القيامة.

ثم قال عز وجل: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ تهديد ومبالغة في ذمهم، ووصفهم بالخذلان، أي: هم أهل لأن يؤمروا بهذا الذي يزيدهم ندما في العاقبة، ثم قال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: لا يفوته شيء من أعمالكم، وهذا أيضا تهديد ثالث.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ بدل من ﴿الذين يلحدون في آياتنا﴾ والمراد

﴿ بالذکر ﴾ القرآن ﴿ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ لأفهم لكفرهم به طعنوا فيه ، وحرفوا تأويله ، وهذا أيضا تهديد ، وفي خبر ﴿ إن ﴾ قولان ، أحدهما : أنه ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ قاله الفراء ، والثاني : أنه محذوف وتقديره : يجازون بكفرهم ^(١) .

ولما بالغ في تهديد الذين يلحدون في آيات القرآن أتبعه ببيان تعظيم القرآن ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ [منيع] محمي بحماية الله ، يستعمل (عزيز) في القوي الممتنع ، وفي القليل الوجود ، وفي المراد بوصف القرآن بالعزيز أقوال أحدها : أنه كريم على الله ، قاله الكلبي ، والثاني : أنه ممتنع وجود مثله من الناس ، والثالث : أنه ممتنع من الباطل ، قاله مقاتل ، والعزیز أيضا بمعنى : الغالب القاهر .

أما كون القرآن عزيزا بمعنى كونه غالبا ، فالأمر كذلك ؛ لأنه بقوة حجته غلب ما سواه وأما كونه عزيزا بمعنى عدم النظير ، فالأمر كذلك ؛ لأن الأولين والآخرين عجزوا عن معارضته ، وقوله : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ بيان لكونه عزيزا .

واختلف في الباطل ، فقيل : هو بمعنى البطلان ، وهو الكذب والتناقض ، ونحو ذلك من عيوب الكلام ، ثم اختلف في المراد بقوله : ﴿ من بين يديه ولا من خلفه ﴾ فقيل : هو تمثيل مراد به لا يجد الباطل إليه سبيلا من جهة من الجهات ، حتى تصل إليه ، وقيل : ﴿ من بين يديه ﴾ ليس قبله كتاب يطله ﴿ ولا من خلفه ﴾ ليس

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) : الأحكام

تدل الآيات على حدوث القرآن لقوله {تنزيل} ولقوله {جعلناه قرآنا} وكلاهما لا يليق بصفة القدم ، ويتدل قوله : {حكيم} أنه لا يفعل القبيح ، ولا يخلق الكفر والقباح ، وتدل على أن القرآن كله عربي ليس فيه غير لغة العرب خلاف ما يقوله بعضهم ، ويدل قوله : {هدي} أنه تعرف به الأحكام . وتدل أنه إنما جعل القرآن عربيا لقطع عذرهم ، إنما نحن عرب فلا نعرف لغة العجم ، فإذا كان الله تعالى قطع هذا العذر فكيف يخلق فيهم الكفر ، ويمنعهم من الإيمان ، وتدل على أن القرآن حجة ، ويدل قوله : {لفي شك} أن المعارف مكتسبة .

بعده كتاب يبطله ، وقيل : لا يأتيه الباطل من بين يديه ، أي في إخباره عما تقدم ، ولا من خلفه في إخباره عما تأخر .

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى ﴿ من بين يديه ولا من خلفه ﴾ أي : لا يبطل منه شيء من أوله ، ولا آخره ، وقد يكون ذلك مثلاً لحراسة الله له ^(١) ، والله أعلم قال في الكشف : وقد طعن فيه ، وتوَل من المبطلين ، لكن قيض الله قوما هم العلماء عارضوا المبطلين بإبطال تأويلهم ، فلم يكن طعن إلا محقوقاً ، ولا قول مبطل إلا مضمحلاً ^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ ﴾ في جميع أفعاله ، لا يجوز على تنزيله غير الحكمة ؛ لأنه منزل لمصالح العباد ﴿ حَمِيدٍ ﴾ إلى جميع خلقه ، مستوجب للحمد من عباده على نعمته ، التي القرآن من أجلها .

واعلم أنه تعالى لما هدد الملحدين في آيات الله ، ثم بين شرف آيات الله ، وعلو درجة كتاب الله ، رجع إلى أمر رسوله ، بأن يصبر على أذى قومه ، وأن لا يضيق قلبه بسبب ما حكاه عنهم في أول السورة أنهم قالوا : ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ إلى قوله : ﴿ فاعمل إننا عاملون ﴾ فقال سبحانه : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ ﴾ من كفار قومك ﴿ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أي : إلا مثل ما قال كفار الأمم المتقدمة لرسولهم من الأذى والطعن في الكتب المنزلة ، كساحر ، وكاهن ، ومجنون ويجوز أن يراد ما يقول الله لك إلا مثل ما قال للرسول من قبلك ، وهو قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ لأنبيائه ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لأعدائهم وأعدائه ، والغرض تخويف العصاة ، ويحتمل أن يكون المراد ما قال الله لك إلا مثل ما قال لسائر الرسل ، وهو

(١) انظر تفسير الحسين بن القاسم العياشي عليه السلام أوائل هذه السورة .

(٢) نقله المصنف بالمعنى ، ولفظ الكشف ٢٠٢/٤ : فإن قلت : أما طعن فيه الطاعنون ، وتأوله المبطلون ؟ قلت : بلى ، ولكن الله قد تقدم في حمايته عن تعلق الباطل به ، بأن قيض قوما عارضوهم بإبطال تأويلهم ، وإفساد أقاويلهم ، فلم يخل طعن طاعن إلا محقوقاً ، ولا قول مبطل إلا مضمحلاً .

أنه أمرَك ، وأمرَ كل الأنبياء بالصبر على سفاهة الأقوام ، فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ، ويخافه أهل معصيته .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الأجوبة على قولهم ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ إلى قوله : ﴿ فاعمل إننا عاملون ﴾ فتارة ينبه على فساد هذه الطريقة ، وتارة يذكر الوعد والوعيد لمن يؤمن بهذا القرآن ، ومن يعرض عنه ، وامتد الكلام إلى هذه المواضع على الترتيب الحسن ، والنظم الكامل — ذكر تعالى جوابا آخر عن قولهم : ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ﴾ فقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ كان قریش يقولون تعنتا : هلا نزل القرآن بلغة العجم ، كما أنزل التوراة والإنجيل وغيرهما ، فقيل : لو كان كما اقترحوا لم يتركوا الاعتراض والتعنت .

ومعنى ﴿ فصلت آياته ﴾ أي : بينت بلسان تفهمه ، وقوله : ﴿ أَعْجَمِيٍّ وَعَرَبِيٍّ ﴾ الهمزة للإنكار ، أي : أنكروا وقالوا : قرآن أعجمي ورسول عربي ! وكيف يكون القرآن أعجميا ، والذين أرسل إليهم عرب ، والأعجمي : الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه من أي جنس كان ، والعجمي : منسوب إلى أمة العجم ، وقد يكون فصيح اللسان .

قال الرازي : نقلوا في سبب نزول هذه الآية أن الكفار لأجل التعنت قالوا : هلا نزل القرآن بلغة العجم ؟ فنزلت هذه الآية ، والحق عندي أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد ، على ما حكى الله تعالى عنهم من قولهم : ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ﴾ وهذا الكلام أيضا متعلق به ، وجواب له ، والتقدير : أنا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا : كيف أرسلت بالكلام الأعجمي إلى القوم العرب ، ويصح لهم أن يقولوا : ﴿ قلوبنا في أكنة ﴾ [مما تدعونا إليه] ﴿ من هذا الكلام ﴾ وفي آذاننا وقر ﴿ منه ، لأننا لا نفهمه ، ولا نحيط بمعناه ، أما لما أنزلنا هذا الكتاب بلغة العرب وألفاظهم ، وأتم من أهل هذه اللغة

فكيف يمكنكم ادعاء أن قلوبكم في أكنة منها ، وأن في أسماعكم وقرا منها ، فظهر أننا إذا جعلنا هذه الكلام جوابا عن هذه الكلام بقيت السورة من أولها إلى آخرها على أحسن وجوه النظم ، أما على الوجه الذي يذكره الناس فهو عجيب جدا ^(١) . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ أي : القرآن لمن آمن به هدى إلى الحق ، وشفاء لما في الصدور من الشك ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ به هو ﴿ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ أي : صمم لإعراضهم عن استماعه ، أما كونه هدى ، فلأنه دليل على الخيرات ، ومرشد إلى كل السعادات ، وأما أنه شفاء ؛ فلأنه إذا اختار الاهتداء به فقد حصل الهدى ، وذلك الهدى شفاء له من مرض الكفر والجهل ، وأما من غرق في بحر الخذلان ، تائها في مفاوز الحرمان ، معرضا عن استماع القرآن ، ومشغوبا بمتابعة الشيطان كان هذا القرآن في أذنيه وقرا .

ويجوز أن يكون التقدير : هم كمن في آذانهم قر ، أي : صمم فهم لا يسمعون ، ويجوز أن يكون القرآن نفسه صمما في آذانهم ، وُصِفَ بالمصدر مبالغة بدليل ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ لأنهم ازدادوا به كفرا لتكذيبهم إياه ، وقوله : ﴿ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ مقابل للشفاء ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ مقابل للهدى .

ثم مثلهم بمن ينادى من مكان بعيد المسافة فهو لا يسمع ، فقال جل وعلا : ﴿ أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ مثلهم في عدم استماعهم إليه مثل من يصيح به من مسافة بعيدة لا يُسْمَعُ من مثلها الصوت .

قال الرازي : واعلم أن هذا متعلق بقولهم : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْنَةِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ إلى آخر الآية ، كأنه تعالى يقول : إن هذا الكلام أرسلته إليكم بلغتكم ، لا بلغة أجنبية عنكم ، فلا يمكنكم أن تقولوا : إن قلوبنا في أكنة منه بسبب جهلنا بهذه

اللغة ^(١) . اهـ

(١) انظر الرازي ١٣٣/٢٧ ، وقد أصلحنا اللفظ منه ، وما بين أقواس الزيادة منه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ هو التوراة ، هذا تسليية لمحمد ﷺ ﴿ فَأَخْتَلَفَ فِيهِ ﴾ فقال بعضهم : هو حق وآمنوا به ، وقال آخرون : هو باطل وكفروا به ، كما فعل قومك . قال الرازي : وهذا أيضا متعلق بما قبله ، كأنه قيل : إنما آتينا موسى الكتاب اختلفوا فيه ، فقبله بعضهم ، ورده آخرون ، فكَذَلِكَ آتَيْنَاكَ هَذَا الْكِتَابَ فقبله بعضهم ، وهم أصحابك ، ورده آخرون ، وهم الذين يقولون : ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ ﴾ هي العدة بالقيامة ، وأن الخصومات يفصل فيها ﴿ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي : سبق الوعد بها ، ووعد لا يخلف^(١) ﴿ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : لحكم بينهم في الدنيا ﴿ وَإِلَهُمْ ﴾ أي : المطلقون ﴿ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ﴾ يريد الكتاب ، أي : في صحته ، يجوز أن يريد القرآن ، وأن يريد البعث^(٢) ، ومعنى ﴿ مُرِيبٌ ﴾ موقع في الريبة ، أي : التهمة ، فلا ينبغي أن يعظم استيحاشك من قولهم : ﴿ قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ .

ثم قال سبحانه : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ يعني : خفف على قلبك إغراضهم فإنهم إن آمنوا فَنَفَعُ إيمانهم يعود إليهم ، وإن كفروا فَضُرُّ كفرهم يعود إليهم ، والله سبحانه يوصل إلى كل ما يليق بعمله من الجزاء ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ فيعذب المسيء بذنب غيره ، ووجه التكثير في (ظلام) كثرة العبيد ، أو لأن العذاب شديد ، فلو لا الاستحقاق لكان المعذب بمثله ظلاما^(٤) .

(١) انظر الرازي ١٣٤/٢٧ ، وقد أصلحنا اللفظ من الرازي ، واللفظ في المصاييح (فلا يمكنكم أن تقولوا : إن قلوبنا في أكنة منه بسبب جعلنا له هذه اللغة .

(٢) في النسخة ب (ووعد لا يختلف) .

(٣) في النسخة ب (وأن يراد البعث) .

(٤) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) : الأحكام

يدل قوله {من عمل صالحا} أن للمكلف فعلا ، وأنه مختار يقدر على الشر والخير ، ويدل قوله {وما ربك

ثم اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار بقوله تعالى : ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ ومعناه : أن جزاء كل أحد يصل إليه في يوم القيامة ، فكأن سائلا قال : ومتى يكون هذا اليوم ؟ فقال تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أي : القيامة إذا سأل عنها أحد رُدَّ العلم إلى الله تعالى ، ومعنى ذلك : أنه لا يعلمها أحد إلا هو ، قيل : إن اليهود قالوا للنبي ﷺ : أخبرنا عن الساعة ؟ فنزلت .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْثَامِهَا ﴾ جمع كم بكسر الكاف : أغشيات الثمرة ، التي تكون فيها ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ أي : يعلم ذلك كله ، ولا يحدث شئ من خروج ثمرة ، ولا حمل حامل ، ولا وضع واضع إلا وهو عالم به^(١) ، يعلم عدد أيام الحمل وساعاته ، وأحواله ، من الخداج والتمام ، والذكورة والأنوثة ، والحسن والقبح ، ونحو ذلك .

بظلام للعبيد { أنه لا يعذب أحدا بذنب غيره ، ولا يخلق الكفر ، ولا يمنع من الإيمان إذ لا ظلم أعظم من أن يخلق الكفر فيه ، ويمنعه من الإيمان ، ولا يعطيه قدرة للإيمان ، ثم يعذبه على ذلك أبدا ، وتدل الآية أن وقت القيامة من معلومه . ويدل قوله { وما أظن الساعة قائمة } على بطلان قول أصحاب الإلهام والمعارف ، وتدل على أن اليأس والقنوط عادة الكفار ، والجاهل بالله تعالى ، وتدل الآية على أن الواجب على العبد عند النعمة الشكر ، وإضافتها إلى الله تعالى ، وعند المحنة انتظار الفرج ، وفيه تحذير من القنوط ، وفي الخبر عن النبي ﷺ (انتظار الفرج عبادة) ويدل قوله { وما أظن } أن الجاهل في الدين لا يعذر ، وتدل على أن أحوال النعم في الدنيا والجن يعتبر به أحوال الآخرة ، فكم من ملك ذي نعم يومئذ معذب ، وكم من ممتحن وفقير يومئذ مثاب منعم .

(١) قال السيد العلوي في حاشيته على الكشف : قوله : ولا يحدث شئ من خروج ثمرة ، ولا حمل حامل .. الخ . قال : جعل ما في { وما يخرج } نافية ، ومن في { من ثمرات } بيانية ، والمبين مضمّر ، ثم أخذ القدر المشترك بين الأفعال الثلاثة ، أعنى تخرج وتحمل ، وتضع ، وجعله أصلا في الاعتبار ، وعبر عنه بيجدث شئ ، ثم عمد إلى مصادر الأفعال ، وجعلها تفصيلا لذلك الحمل ، وعطف بعضها على بعض ليستتب له الاستثناء ، بقوله : إلا يعلمه . عن المذكورات كلها ، فلا يختص بواحد ، لاستقامة المعنى . وقال أبو البقاء : ما في { وما تحمل } نافية لأنه عطف عليها { ولا تضع } ثم نقض النفي بإلا ، ولو كانت بمعنى الذي معطوفة على الساعة لم يستقيم ذلك ، وأما قوله : { وما يخرج من ثمرة } فيحوز أن تكون ما فيه بمعنى الذي ، والأقوى كونها نافية . والخداج : إلقاء الولد قبل تمام الأيام وإن كان تام الخلق .

ثم إنه تعالى لما ذكر القيامة أردفه بشئ من أحوال يوم القيامة ، وهذا الذي ذكره هنا شديد التعلق أيضا بما وقع الابتداء به في أول السورة ، ومعناه : أن محمدا ﷺ كان يدعوهم إلى التوحيد وإلى البراءة من الأصنام والأوثان ، فذكر في خاتمة هذه السورة وعيد القائلين بالشركاء والأنداد ، فقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أي : الكفار يناديهم تهكما فيقول : ﴿ أَتَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ ﴾ أعلمناك ، أي : أخبرناك وأقررنا لك ، والأصل في الإيذان هو الإعلام والإخبار ، قال الشاعر :

آذنتنا ببيئتها أسماء [رب ثاو قد مل منه الثواء]

يريد : أعلمتنا برحيلها ، وقال آخر :

وآذنتك غداة البين إذ رحلت سلمى وجاراتها البيض

أي : أخبرتك ، كذا ذكره الحسين بن القاسم عليهما السلام في تفسيره .

ومعنى قوله : ﴿ مَا مَنَا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ أي : ما منا أحد اليوم يشهد بأنهم شركاء ؛ لأننا قد أبصرنا وسمعنا ، فكلنا موحد اليوم ، أي : ما منا من أحد يشاهدهم ؛ لأنهم ضلوا عنهم ، وضلت عنهم آلتهم لا يبصرونها في ساعة التوبخ ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ ﴾ أي : يعبدون ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : في الدنيا وقيل : هو كلام الشركاء ، أي : ما منا من شهيد يشهد بما أضافوا إلينا من الشراكة ومعنى ضلاله عنهم — على هذا المعنى — : أنهم لا ينفعونهم فكأنهم ضلوا عنهم .

ثم قال : ﴿ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ معناه : أيقنوا ، إذ المحيص : المهرب ، وهذا ابتداء كلام من الله تعالى ، يقول : إن الكفار ظنوا ، أي : علموا وأيقنوا ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ عن النار والعذاب .

ولما بين الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنهم بعد أن كانوا مصرين على القول بإثبات الشركاء والأضداد لله تعالى في الدنيا ، تبرأوا من تلك الشركاء في الآخرة — بين أن الإنسان في جميع الأوقات ، متبدل الأحوال ، متغير المنهج ، فإن أحس بخير وقدرة انتفخ وتعظم ، وإن أحس ببلاء ومحنة ذبل ، كما قيل في المثل : (إن هذا

كالقراء إن رأى خيراً تدلى ، أورأى شراً تولى) فقال تعالى : ﴿لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ﴾
 أي : لا يفتقر ولا يميل ﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ أي : من طلب السعة في المال والنعمة
 ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي : ضيق العيش والفقر ﴿فَيُتَوَسَّسْ﴾ من روح الله
 ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمته ، وفي قوله : ﴿يُتَوَسَّسْ قَنُوطٌ﴾ مبالغة من وجهين ، أحدهما :
 من طريق بناء فاعول ، والثاني : من طريق التكرير ، واليأس : صفة للقلب ، والقنط:
 أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر ، وهذه صفة الكافر

ثم بين تعالى أن هذه الذي صار آيساً قانطاً لو عاودته النعمة والدولة ، وهو المراد
 من قوله تعالى : ﴿وَلَنْ أَدْفِنَهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ أي : خيراً — عافية وغنى ﴿مِنْ بَعْدِ ضِرَاءِ
 مَسْنَاهُ﴾ معناه : أقسم لأن فرجنا عنه بصحة بعد مرض ، أو سعة بعد ضيق
 ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي : هذا حق وصل إلي ؛ لأني أستوجه بما عندي من خير
 وفضل ، ولا يعلم المسكين أن أحداً لا يستحق على الله شيئاً ، وذلك لأنه إذا كان
 ذلك الشخص عارياً عن الفضائل ، فهذا الكلام ظاهر الفساد ، وإن كان موصوفاً
 بشئ من الفضائل والصفات الحميدة فهي بأسرها إنما حصلت له بفضل الله تعالى
 وإحسانه ، وإذا تفضل الله بشئ على بعض عبده امتنع أن يصير تفضله عليه بتلك
 العطية سبباً لأن يستحق على الله شيئاً آخر ، فثبت بهذا فساد قوله : إنه إنما حصلت
 هذه الخيرات بسبب استحقاقي .

أو معناه : هذا لي ، لا يزول عني ، ويبقى عليّ وعلى أولادي ، يعني : أنه يكون
 شديد الرغبة في الدنيا ، عظيم النفرة عن الآخرة ، فإذا آل الأمر إلى أحوال الدنيا
 يقول : إنْهَ لي ، وإذا آل الأمر إلى الآخرة يقول كما حكى الله عنه ﴿وَمَا أَظُنُّ
 السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي : ما أظنها تقوم ﴿وَلَنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي﴾ أي : وإن قامت
 وكانت على طريق التوهم ﴿إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى﴾ أي : الحالة الحسنَى من الكرامة
 والنعمة ، قياساً لأمر الآخرة على أمر الدنيا ، واستعظاماً لنفسه ، قيل : نزلت في
 الوليد بن المغيرة .

ولما حكى الله عنهم هذا ، قال عز وجل : ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : نخبرهم ﴿ بِمَا عَمِلُوا ﴾ من الأعمال الموجبة للعذاب ، إن الأمر على ضد ما اعتقدوه ، وعلى عكس ما تصوره ، كما قال : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجلناهم هباء منثورا ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ في مقابلة قولهم : ﴿ إن لي عنده للحسنى ﴾ عكس ماظنوه .

ولما حكى الله تعالى أقوال الذي أنعم عليه بعد وقوعه في الآفات ، حكى أفعاله أيضا فقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا أَلْمَعْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ ﴾ هذا ضرب آخر من طغيان الإنسان ، إذا أصابه الله بنعمة أبطرت ، وكأنه لم يلق بؤسا قط ، فنسي المنعم ، وأعرض عن شكره ﴿ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ نأى : بمعنى بُعد ، بهمزة قبل الألف ، وقرأ ابن عامر : (ونأ) بألف قبل الهمزة ، بوزن : شاء ، وهو مقلوب ﴿ نَأَى ﴾ (٢) .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : معناه بُعد وأعرض بجانبه ، وفيه تقلع وتأخير ، والمعنى فيه : وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض بجانبه ونأى . اهـ

وأراد ﴿ بجانبه ﴾ عطفه ، ويكون عبارة عن الانحراف تكبرا ، كثنى عطفه ، وتوَلَّى بركنه ، أي : ذهب بنفسه ، وتكرر ، وتعظم ، أو أراد ﴿ بجانبه ﴾ بُعد بنفسه ، وضَع جانبه وضَع نفسه وذاته ، كقوله : ﴿ على ما فرطت في جنب الله ﴾ (٣) كناية عن الشيء بمكانه ومجلسه ، ومنه قول الكتاب : إلى حضرة فلان ، وجانبه العزيز ، أي : نفسه .

(١) الفرقان : ٢٣ .

(٢) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهديب) : الأحكام

يدل أول الآيات على أن الله تعالى على الكفار نعمة يجب شكرها ، خلاف قول المجرة ، وتدلل على وجوب شكر النعمة ، والعمل بمقتضاها ، وتدلل على أن الإعراض والدعاء فعل العبد ، لذلك أضافه إليه ، ووجهه عليه ، ويدل قوله {سريهم} على وجوب التفكير في آيات الله ، وأنه طريق معرفته ، ومعرفة صفاته وأفعاله .

(٣) الزمر : ٥٦ .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ كالمرض والفقر ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه بالتضرع والذكر عند الشر ، وهو من صفة الأجرام ، ويستعار له الطول أيضا ، كما استعير الغلظ لشدة العذاب .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد العظيم على الشرك ، وبين أن المشركين يرجعون عن القول بالشرك في يوم القيامة ، ويظهرون من أنفسهم الذلة والخضوع بسبب استيلاء الخوف عليهم ، وبين أن الإنسان جُبِلَ على التبدل ، فإن وجد لنفسه قوة بالغ في التكبر والتعظيم ، وإن أحس بالفتور والضعف بالغ في إظهار الذلة والمسكنة ذكر عقيبه كلاما آخر يوجب على هؤلاء الكفار أن لا يبالغوا في إظهار النفرة من قبول التوحيد ، وأن لا يفرطوا في إظهار العداوة مع الرسول ﷺ فقال سبحانه : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي : أخبروني ﴿ إِنْ كَانَ ﴾ القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ بعد ذلك ، يعني : أنما أتيتم من إنكار القرآن ليس بحجة ، وإنما هو قبل النظر ، ومن حق الإنكار أن يكون بعد النظر ، وأنتم أنكرتم ولم تنظروا ، فما يؤمنكم من الخطأ في إنكار ما يجوز أنه حق ، وقد كفرتم به .

ثم قال : ﴿ مَنْ أَضَلَّ ﴾ أي : لا أضل ﴿ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أي : خصام ومعاداة وخلاف للحق ﴿ بَعِيدٍ ﴾ عن الصواب . والمعنى : أنتم كذلك ، أي : من أضل منكم ! .

ولما ذكر هذه الوجوه الكثيرة في تقرير التوحيد والنبوة ، وأجاب عن شبهات المتكبرين ، وتمويهات الضالين قال تعالى : ﴿ سَتَرِبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ ﴾ دلائل صدقه مما يسر الله لرسوله ، وللأئمة من بعده ، ودعاة دينه .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : الآفاق : الأقطار ، والجوانب من السماء والأرض ، قال الشاعر : وقد نقبت في الآفاق حتى يريد أنه سار ودار في الأقطار والبلاد وجوانبها . اهـ

وفي التجريد : الآفاق : أطراف الدنيا ، وهو ما ظهر من فشو الإسلام ، وفتوحه في المشرق والمغرب ، وعلى ملك كسرى وقيصر وتبع ، وسائر البلاد في وقت رسوله ، ومن بعده ، والإخبار بذلك من الغيوب التي جاءت كما أخبر ووصف .

ثم قال : ﴿ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [أي : في ساحة العرب وناحيتها خاصة ، كفتح مكة وسائر جزيرة العرب ، وقيل : ^(١) كونهم نطفًا ، ثم علقًا ، ثم مضغًا ، ثم عظامًا ، ثم لحما ، أحياء إلى غير ذلك ، وقيل : في أنفسهم آيات الأرض ، وفي الآفاق : آيات السماء ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ اللَّهُ الْحَقُّ ﴾ أي : يتبين لمن كان حيا منهم أن القرآن وما جاء به من شرائع الإسلام هو الحق ، وذلك من تغليب القليل الضعفاء ، وهم المسلمون على الملوك ؛ لأن فيه تصديق وعد الله بنصر رسوله ، وهو من الغيب الذي أخبر به ، فكان كما أخبر ، وهذا قول الحسن ، والسدي ، ومجاهد ، وقال قتادة : ﴿ فِي الْآفَاقِ ﴾ وقائع الله في الأمم الخالية ، يريهم منازلهم خالية هالكة ليعتبروا ﴿ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ يوم بدر ، قال ابن زيد : ﴿ فِي الْآفَاقِ ﴾ آيات السماء كالشمس والقمر والنجوم ﴿ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ ما يكون في أجسادهم من الخلق البديع ، نحو كونهم نطفًا إلى آخره ، ومن ذلك ما مدخل الطعام والشراب واحد ، ثم يخرج من مكانين ، ومن ذلك الأمراض والآفات إلى غير ذلك من الدلائل المأخوذة من كيفية تكوين الأجنة في ظلمات الأرحام ، وحدوث الأعضاء العجيبة ، والتركيبات الغريبة ، كما قال تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ يعني : يريهم من هذه الدلائل مرة بعد أخرى ، إلى أن تزول الشبهات عن قلوبهم ، ويحصل فيها الجزم والقطع بوجود الإله العالم الحكيم ، المنزه عن المثل والضد .

قال الرازي : فإن قيل : هذا الوجه ضعيف ؛ لأن قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾

(١) ما بين القوسين غير موجود هنا في النسخة أ ، وهو موجود مؤخرا بعد قوله : أحياء إلى غير ذلك ، وهو موجود في النسخة ب ، هكذا . وقد اعتمدنا النسخة ب ؛ لأنه القول الذي يناسب ما تقدم .

يقتضي أنه تعالى ما أطلعهم على تلك الآيات إلى الآن ، وسيطلعهم عليها بعد ذلك ، والآيات الموجودة في العالم الأعلى والأسفل قد كان الله أطلعهم عليها قبل ذلك ، فثبت أنه تعذر حمل هذا اللفظ على هذا الوجه ؟!

قلنا : إن القوم وأن كانوا قد رأوا هذه الأشياء ، إلا أن العجائب التي أودعها الله تعالى في هذه الأشياء مما لا نهاية لها ، فهو تعالى يطلعهم على تلك العجائب زمانا فرمانا ، ومثاله كل أحد رأى بنية الإنسان وشاهدها ، إلا أن العجائب التي أبدعها الله تعالى في تركيب هذه البدن كثيرة ، وأكثر الناس لا يعرفونها ، والذي وقف على شيء منها ، فكلما ازداد تفكرا ازداد وقوفا على تلك العجائب والغرائب ، فصح بهذا الطريق قوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ (١) . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ ﴿ بَرِّكَ ﴾ فاعل ﴿ يكف ﴾ والباء زائدة ، والمعنى : أو لم يكف ربك .

وقوله : ﴿ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ بدل من قوله : ﴿ بَرِّكَ ﴾ أو بيان له ، أي : أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد ، وقيل : التقدير أو لم يكفهم ربك ؛ لأنه على كل شيء شهيد ، أي : مُطَّلِعٌ يستوي غيبه وشهادته ، فيكفيهم دليلا على أنه حق ، وأنه من عنده ، أي : سريهم هذا الموعود لا محالة ، ولو لم يكن حقا لما قوي هذه القوة .

والمعنى : أو لم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة ، التي أوضحها الله تعالى وقررها في هذه السورة ، وفي كل سور القرآن ، الدالة على التوحيد ، والتنزيه ، والعدل ، والنبوة ، والمعاد .

وقال في البلغة : ليس في الله كفاية في معاقبة هؤلاء الكفار على كفرهم بالله ، وتكذيبهم برسولهم إذ كان عالما بكل شيء ، وشاهدا لكل ما يفعلونه . اهـ

ثم ختم السورة بقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ ﴾ أي : في شك ﴿ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ أي : لقاء جزائه لهم على أعمالهم ، وقيل : معناه أن القوم في شك عظيم ، وشبهة شديدة من البعث والقيامة .

ثم قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ أي : عالم بكل الأشياء ، يجملها وتفاصيلها ، وأعمالهم من ذلك فلا يخفى عليه خافية منها ، وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم ، ويجوز أن يراد بأنه محيط : أنه قادر على كل شيء .

والله أعلم



سورة المؤمن [غافر]

خمس وثمانون آية في الحجازي ، وقيل : ثنتان في البصري ، وأربع في الحجازي والمكي ، وست في الشامي (مكية) قال : وقد قيل : إن كل الحواميم مكية ، والله أعلم
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ حم ﴾ قد تقدم ما قاله القاسم بن إبراهيم ، والهادي عليها السلام فيها ونحوها ^(١) ، وحكى جاز الله عن الأكثر أنها اسما للسورة منها : ما هو محكي لا يتأتى

(١) تقدم في الجزء الثاني سورة الأحقاف ص ٥١١ ، وكذلك في أوائل سورة الشورى فليُنظر هناك .
وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿ ذي الطول ﴾ معناه : ذو الغنى والفضل .

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم ﴾ معناه : مقت الله إياكم في الدنيا كان أكبر من مقتكم أنفسكم إذا عايتم العذاب .

وقوله تعالى : ﴿ أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ معناه : كنا أمواتا في أصلاب آبائنا ، ثم أحييتنا ، ثم أمتنا فيها ، ثم أحييتنا في الآخرة ، ومثله ﴿ وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ أمواتا في أصلاب آبائكم ، ثم أحياكم في أرحام أمهاتكم ، وأخرجكم منها ، ثم أماتكم في الدنيا ، ثم أحياكم في الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ فاعترفنا بذنوبنا ﴾ معناه : أقرنا بها . وقوله تعالى : ﴿ يلقي الروح من أمره ﴾ معناه : الوحي .
وقوله تعالى : ﴿ لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم ﴾ فيوم التلاق : هو يوم القيامة ، حين يلتقي الخلق من الأولين والآخرين ، وقد برزوا من قبورهم ، فيقال لهم : لمن الملك ، وقد تفردتم بأرباب كثيرة ، وآلهة شتى ، فيحيون أن الملك لله الواحد القهار ، والقول فيه مضمّر ، كقوله تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا ﴾ وأضرع يقولان : ربنا تقبل منا .

وقوله تعالى : ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع ﴾ فالظالمون : الكافرون ، والحميم : القريب .

وقوله تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ قال : والرجل يكون في القوم ، فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض نظره ، فإذا رأى منهم غفلة ، لحظ إليها ، فإن خاف أن يفتنوا له غرض نظره ، فإذا رأى منهم غفلة لحظ إليها ، فإن خاف أن يفتنوا له غرض نظره ، وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود أنه نظر إلى عورتها .

وقوله تعالى : ﴿ إلا في تباب ﴾ معناه : في هلكة .

وقوله تعالى : ﴿ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان ﴾ معناه : بغير برهان ولا حجة .

وقوله تعالى : ﴿ وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ معناه : سفكة الدماء بغير حقها .

وقوله تعالى : ﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ معناه : الملائكة . وقوله تعالى : ﴿ سيدخلون جهنم داخرين ﴾ معناه : صاغرون .

وقوله تعالى : ﴿ ثم في النار يسجرون ﴾ معناه : يجرون . وقوله تعالى : ﴿ وما كنتم تمرحون ﴾ معناه : تبطرون .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياشي عليه السلام ما لفظه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

معنى قول سيدنا ﴿ وقابل التوب ﴾ أي : قابل العذر من التائبين الراجعين ، قال العالم صلوات الله عليه :

الرزق يسطه والذنوب يغفره والتوب يقبله والوعيد يوفيه

لم يقض جورا ولا ظلما ولا عبثا ولا يشاء قبيحا من معاصيه

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ذي الطول ﴾ أي : ذي الفنى والملك ، ومعنى ﴿ تغلبهم في البلاد ﴾ أي : سيرهم وإصعادهم وانحذارهم ، واكتسأهم ، فكل ذلك يزول .

ومعنى ﴿ وهمت كل أمة برسولها ﴾ أي : بحبسه أو قتله ، والهمة : هي الإرادة ، وتوق النفس إلى الشيء قال الشاعر :

إذا كنت هماما فكن ذا عزيمة ولا تك هماما قليل العزائم

ومعنى ﴿ ليدحضروا به الحق ﴾ أي : ليسقطوا به الحق ويزيلوه ، ومعنى ﴿ حقت كلمات ربك على الذين كفروا ﴾ أي : وقعت مواعيده بالعذاب عليهم ، ومعنى ﴿ وسعت كل شيء رحمة وعلما ﴾ السعة هاهنا مثل قدرة الله ، وعلمه ، ونفي العجز ، والخسر والضيق منه أي : الفقر ، ومعنى ﴿ إن الذين كفروا ينادون ﴾ أي : يدعون إلى الإيمان ﴿ فتكفرون ﴾ يريد عز وجل أن مقت الله لهم ويفضه أكثر من بغضهم لأنفسهم يوم القيامة ، لأن بغضهم لأنفسهم ذلك اليوم ندامة في قلوبهم حتى يتمنوا الموت والتلف ، وبغض الله عذاب ونكال لأجسامهم ، ومعنى قوله : ﴿ أمثنا اثنتين ﴾ أي : مرتين ، مرة في حال النطوفية ، والثانية في حال القبول .

ومعنى قوله : ﴿ وأحييتنا اثنتين ﴾ أي : مرتين ، مرة في حال الدنيا ، والثانية : في حال البعث والآخرة . ومعنى ﴿ إذا دعى الله وحده كفرتم ﴾ أي : جحدم وحدانيته ﴿ وإن يشركوا به ﴾ الكفار ﴿ تؤمنوا ﴾ أي : تصلقوا بشركهم ، ومعنى قوله : ﴿ إلا من ينيب ﴾ الإنابة : هي الرجعة ﴿ رفيع الدرجات ﴾ أي : مرتفع القدر ، وهذا مثل لعلم الله وقدرته ، ومعنى ﴿ يلقي الروح ﴾ أي : الوحي ، ومعنى ﴿ يوم التلاق ﴾ هو يوم يلتقي جميع الخلق

﴿وأنذرهم يوم الآفة﴾ أي : حذرهم يوم القيامة القريبة ، يقال : أزف الشيء إذا قرب وحان وقته ﴿إذا القلوب لدى الخناجر﴾ أي : عند أعالي الخلق ، قال الشاعر يصف كرمه ، وعقره لإبله لضيقه :

فيعرفن حولاني إذا ما رأييني فتغصص بالجرات دون الخناجر

ومعنى ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ هذا وقف ، ومعنى ﴿ما للظالمين﴾ أي : ليس لهم ﴿حميم﴾ الحميم : هو الحبيب والقريب ، قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه :

وذابلة الرماح تغل فيكم إذا صد الحميم عن الحميم

أي : أعرض الحبيب عن الحبيب ، وإنما سمي الله عز وجل الحميم حميماً ؛ لأنه يختم على صاحبه ، ويحترق لاحتراقه ، ويغتاظ لغيظه ، ويغتم لغمه ، والحمى : هو الحرارة في اللغة ، ومعنى ﴿يعلم خاتمة الأعين وما تخفي الصدور﴾ يقول عز وجل : إنه سبحانه يدرك ويعلم خاتمة لحاظ أعين الفاسقين ، ونظرهم إلى ما ينظرون ؛ لأن الفاسق ينظر إلى ما حرم الله بعينه ، ويكسر تارة فخوانه طعنا وتلهيا بالناس ، وظلماً ، وتارة يخون بعينه دينه الذي هو أمانة الله في رقبته بالنظر إلى العورات ، واللمح للمحظورات المحرمات ، والمؤمن إذا نظر اعتبر ، وإذا صمت فكر ، وإذا تكلم ذكر وأنذر من عذاب الله سبحانه .

ومعنى ﴿رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه﴾ قيل : إن هذا تقدم وتأخير ، والمعنى فيه : رجل مؤمن يكتم من آل فرعون ، ويمكن أيضاً أنه من آل فرعون ، والله أعلم وأحكم .

ومعنى ﴿يوم التنادي﴾ أي : النداء ، والنداء : هو الصياح والعريل والدعاء ، وغير ذلك من القول . ومعنى ﴿من عاصم﴾ أي : مانع . ومعنى ﴿صرحاً﴾ أي : قصراً ، ومعنى ﴿لعلي أبلغ الأسباب السموات﴾ هذا تلعب منه عند إخوانه ، وهزاً وتغرّد بذكر موسى عند إخوانه . ومعنى ﴿قصد السبيل﴾ أي : إغراض عن الدين ﴿وما كيد فرعون إلا في تباب﴾ أي : في هلاك ، قال الشاعر :

أرى طول الحياة وإن تسأني تُصَيِّرُ الأمور إلى تباب

وكل الموسعين وإن أفادوا وغيرا . وسعين إلى ذهاب

والتاباب : هو الهلاك . والسعة : هي الغنى والجدة ، ومعنى ﴿دار القرار﴾ أي : المقام ، ومعنى ﴿وأفوض أمري إلى الله﴾ أي : القى أمري ونفسي إلى الله ، وأتوكل عليه .

قوله : ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً﴾ ليس في الآخرة غدو ولا عشي ، إنما هو مقادير أيام الدنيا ، يعرضون بقدر مدخل الليل والنهار . ومعنى ﴿ما مكروا﴾ أي : ما احتالوا ، والمكر : هو الحيلة الباطنة ، والأشهاد : هم الشهود ، ومعنى ﴿إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ أي : ما هم بواصلين إليه ، وكيف يصل إلى العزة والكبرياء من هو مشرف على الموت والبلوى ، ومعنى ﴿داخرين﴾ أي : صاغرين .

ومعنى ﴿يؤفك الذين كانوا بآيات الله يمحذون﴾ أي : يصرفون ﴿ثم في النار يسجرون﴾ أي : يوقدون ويحرقون [بياض في الأصل]

فيه إعراب ، ومنها : ما يجوز فيه الأمران ، الإعراب والحكاية ، قال قاتل محمد بن طلحة^(١) السجاد ، وهو شريح بن أوفى العنسي :

وأشعث قوام بآيات قليل الأذى فيما ترى العين
شككت له بالرمح جيب فخر صريعا لليدين
على غير شئ غير أن ليس عليا ومن لا يتبع الحق
يذكرني حاميم والرمح شاجر فهلا تلا حاميم قبل
فأعرب حاميم ، ومنعها الصرف .

قال في التجريد : وفي تفسير ابن الجوزي في ﴿ حم ﴾ أربعة أقوال .
أحدها : أنه قسم أقسم الله به ، وهو من أسمائه ، وروي عن ابن عباس قيل :
وجوابه ﴿ إن الذين كفروا ينادون ﴾ .

والثاني : أنهما حرفان من أسماء الله ، ثم على هذا ثلاثة أقوال .
أحدها : أن (الر) و(حم) و(ن) حروف الرحمن ، ورواه عكرمة عن ابن عباس .
والثاني : أن الحاء مفتاح اسمه حميد ، والميم مفتاح اسمه مجيد ، قاله أبو العالية .
والثالث : أن الحاء مفتاح كل اسم ابتداءه حا ، مثل حكيم ، وحليم ، وحي .
والميم مفتاح كل اسم ابتداءه ميم ، مثل ملك ، ومتكبر ، ومجيد ، وروي عن عطاء
الخراساني . والثالث : أن معنى ﴿ حم ﴾ قضى ما هو كائن ، وروي عن ابن عباس
، كأنه أراد الإشارة إلى حُمّ بضم الحاء وتشديد الميم ، قال الزجاج : وقد قيل في
﴿ حم ﴾ : حُمّ الأمر .

ومعنى ﴿ فمرحون ﴾ أي : تلعبون وتأشرون ، ومعنى ﴿ منهم من قصصنا عليك ﴾ أي : أخبرناك ، والقصة :
هي الخبر ، ومعنى ﴿ فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ أي : علم مآكل الدنيا ، واستنباط خدمتها وحطامها ،
وزهدوا في العلم الذي يدل على الله عز وجل ، ومعنى ﴿ سنة الله التي قد خلت ﴾ أي : حكم الله وشريعته
التي قد مضت .

(١) محمد بن طلحة بن عبيد الله القرشي التيمي ، قيل : صحابي ، ولد في حياة النبي ﷺ ، قتل يوم
الجمل مع عائشة سنة ٣٦ هـ انظر الأعلام ١٧٥/٦ الإصابة ترجمة ٧٧٨٣ .

والرابع : اسما من أسماء القرآن قاله قتادة . اهـ

قلت : ^(١) وإلى هذا الأقوال ونحوها أشار القاسم عليه السلام في قوله الذي سيأتي إن شاء الله في سورة مريم ؛ لأن قوله وقول سبطه الهادي إلى الحق عليهما السلام في هذا ونحوه من الحروف إنها حروف تولى الله علمها لم يبينها لأحد من خلقه إذ ليس فيها أمر ولا نهي ، ولا فرض ، ولا أمر تعبد به عباده فيحتاجون إلى معرفته ، وسيأتي كلامهما إن شاء الله تعالى بلفظه في موضعه .

ثم قال تعالى : ﴿ تَزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ أي : القرآن ﴿ مِنْ اللَّهِ ﴾ أخبر أنه تنزيل من الله لا من غيره ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ القاهر القادر على كل شيء ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ بكل معلوم ، ومنه تنزيل الكتاب مصلحة للعباد .

واعلم أنه تعالى لما ذكر ﴿ حم تنزيل الكتاب ﴾ وجب بيان أن المنزل من هو ؟ فقال : ﴿ من الله ﴾ ثم بين الله سبحانه أنه موصوف بصفات الجلال ، وسمات العظمة ليصير ذلك حاملا على التشمير عن ساق الجد عند الاستماع ، ومزجعة عن التهاون والتواني فيه ، فبين تعالى أن المنزل هو الله العزيز العليم ، والعزيز له تفسيران ، أحدهما : الغالب ، فيكون معناه القادر الذي لا يساويه أحد في القدرة ، والثاني : الذي لا مثل له ، ولا يجوز أن يكون المراد بالعزيز هاهنا القادر ؛ لأن قوله

(١) — في النسخة ب زيادة على هذا اللفظ المثبت في أ ، والذي أشار إليه أنه في سورة مريم ، والنص في ب [قلت : وإلى هذا الأقوال ونحوها أشار القاسم عليه السلام حيث قال : إنه قد تكلم متكلمون ، وخطب خاطبون بغير معرفة ولا بصيرة نافذة ؛ تَكْمُهُمْ منهم وعمى ، فأنكرنا ذلك من فعلهم ، وكرهنا من عملهم ، فخشينا إن فسرنا أن تقع فيما كرهنا ، ونصير إلى ما أنكرنا ، فتركنا المنكر عندنا لما بان من الصواب لدينا عن غيره ، ولو أطلع عليها نبيه لأطلع عليها وصيه ، ولو أطلع عليها وصيه إذا لعرفها أهل بيته ، فلما أن لم يوجد ذلك مفسرا عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا اللغة المستدل بها علمنا أن هذا الأحرف أحرف لم يكلف الله تفسيرها إذ ترك إطلاع نبيه عليها . اهـ

لأن قوله وقول سبطه الهادي إلى الحق عليهما السلام في هذا ونحوه من الحروف : إنها حروف تولى الله علمها لم يبينها لأحد من خلقه ، إذ ليس فيها أمر ولا نهي ، ولا فرض ولا أمر تعبد به عباده فيحتاجون إلى معرفته ، وسيأتي إن شاء الله بلفظه في موضعه ، ثم قال تعالى : [الخ ما في النسخة أ .

[تعالى]: ﴿الله﴾ يدل على كونه قادرا ، فوجب حمل العزيز على المعنى الثاني ، وهو الذي لا يوجد له مثل ، وما كان كذلك وجب أن لا يكون جسما ، والذي لا يكون جسما يكون مترها عن الشهوة والنفرة ، والذي يكون كذلك يكون مترها عن الحاجة .

وأما العليم : فهو مبالغة في العلم ^(١) والمبالغة التامة إنما تتحقق عند كونه تعالى عالما بكل المعلومات ، فقلوه : ﴿من الله العزيز العليم﴾ يرجع معناه إلى أن هذا الكتاب تتريل من القادر المطلق ، الغني المطلق ، العالم المطلق ، ومن كان كذلك كان عالما بوجوه المصالح والمفاسد ، وكان عالما بكونه غنيا عن جر المصالح ودفع المفاسد ، ومن كان كذلك كان رحيمًا [جوادا] ، وكانت أفعاله حكمة وصوابا ، مترهة عن القبيح والباطل ، فكأنه سبحانه إنما ذكر عقيب قوله : ﴿تتريل﴾ هذه الأسماء الثلاثة ، لكونها دالة على أن أفعاله [سبحانه] حكمة وصواب ، ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يكون هذا التتريل حقا وصوابا ^(٢) ، والله أعلم .

ثم وصف تعالى نفسه بما يجمع الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، فقال : ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ أي : العذر ^(٣) من التائبين الراجعين ، والتوب : جمع توبة ، وهي الرجوع إلى الطاعة ، مثل تمر وثمره ، ويجوز أن يكون مصدرا من تاب يتوب توبا .

ثم قال : ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ أي : شديد عقابه لمن أصر ولم يتب ^(٤) .

(١) — هو هذا اللفظ (مبالغة في العلم) في النسخة أ ، و " ب " وهو كذلك في تفسير الرازي بهذا اللفظ ٢٦/٢٧ .

(٢) من قوله : " وأعلم أنه تعالى لما ذكر ﴿حم تتريل الكتاب﴾ إلى هنا مثله في الرازي ٢٦/٢٧ ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

(٣) فهو على هذا مصدر ، وهو قول أبي عبيدة ، وقوله : والتوب جمع توبة هو قول الأخفش ، قال المبرد : يجوز أن يكون مصدرا يقال : تاب يتوب توبا وتوبة ، مثل قال يقول قولاً وقولة ، ويجوز أن يكون جمعا لتوبة ، فيكون توبة وتوب مثل ثمرة وثمر ، إلا أن المصدر أقرب ؛ لأن على هذا التقدير يكون تأويله أنه يقبل هذا الفعل .

(٤) في هذه الآية سؤال ، وهو أن قوله : ﴿شديد العقاب﴾ يصلح أن يكون نعتا للنكرة ، ولا يصلح أن يكون نعتا للمعرفة تقول : مررت برجل شديد البطش ، ولا تقول : مررت بعبد الله شديد البطش ، ولفظ

ثم قال تعالى : ﴿ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ الطول — بفتح الطاء — :

الخلاصة اسم علم معرفة ، فكيف جاز وصفه بكونه شديد العقاب مع أنه لا يصلح إلا أن يجعل وصفا للنكرة ، قالوا : وهذا بخلاف قولنا غافر الذنب ، وقابل التوب لأن ليس المراد منهما حدوث هذين الفعلين ، وأنه يغفر الذنب ويقبل التوبة الآن أو غدا ، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه ، فكان حكمهما حكم إله الخلق ، ورب العرش أي أهما معرفتان ، وأما ﴿شديد العقاب﴾ فمشكل لأنه في تقدير شديد عقابه ، فيكون نكرة فلا يصح جعله صفة للمعرفة ، وقد أجيب عنه بوجوه :

الأول : أن هذه الصفة وإن كانت نكرة إلا أنها لما ذكرت مع سائر الصفات التي هي معارف حسن ذكرها كما في قوله : ﴿وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد﴾ والثاني : قال الزجاج : إن خفض شديد العقاب على البدل ؛ لأن جعل النكرة بدلا من المعرفة وبالعكس أمر جائز ، واعتضوا عليه بأن جعله وحده بدلا من الصفات فيه نبوة ظاهرة .

والثالث : أنه لا نزاع في أن قوله : ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ يحسن جعلهما صفة ، وإنما كان كذلك لأهمهما مفيدان معنى الدوام والاستمرار ، فكذلك قوله : ﴿شديد العقاب﴾ يفيد معنى الدوام والاستمرار ، وغير موصوف بأنه حصل بعد أن لم يكن ، فصح أن يكون صفة . وانظر الرازي ٢٧/٢٨ .

وقال الزمخشري رحمه الله في كشافه : ويجوز أن يقال : قد تعدد تنكيره وإهامه للدلالة على فرط الشدة ، وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار ، ويجوز أن يقال : هذه النكتة هي الداعية إلى اختيار البدل على الوصف إذا سلكت طريقة الإبدال . الكشف ١٥١/٤ .

قال السيد العلوي في حاشيته على الكشف : قوله : (وأما شديد العقاب فأمره مشكل) إنما أشكل لأنه من قبيل إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها ، وإضافتها لا تكون إلا لفظية لأنها عاملة أبدا بخلاف اسم الفاعل ، فإن إضافته إنما تكون لفظية إذا كان بمعنى الحال ، أو الاستقبال لأنه حينئذ عامل أبدا بخلاف اسم الفاعل فإن إضافته إنما تكون لفظية إذا كان بمعنى الحال أو الاستقبال ؛ لأنه حينئذ عامل ، وقال ابن الحاجب في الأمالي : لأن إضافته غير محضة على حال لأنه صفة مشبهة ، فلا يفرق بين ماضيه وغيره بخلاف اسم الفاعل ، وقال أيضا في هذه الصفات إشكال آخر ، وهو قوله : (ذي الطول) فإنه معرفة فلا يحسن أن يكون صفة لقوله ﴿من الله﴾ لأنك فصلت بينه وبينه بالبدل ، ولا يحسن أن يكون صفة للبدل لأنه نكرة ، وذي الطول معرفة ، فالأولى أن يقال : هو بدل ثان من البدل الأول ، فكأنه قال : من الله العزيز العليم ، من رب غافر الذنب ، من الله ذي الطول ، وقال أبو البقاء : يجوز أن يكون شديد بمعنى مشدد ، كما جاء أذنين بمعنى مؤذن ، فتكون الإضافة محضة ، وقال صاحب الفرائد : يمكن أن يقال : لما كان القائل بالنظر إلى أنه شئ له القبول ، لا بالنظر إلى أنه عامل صلح أن يكون صفة له بالإضافة إلى التوبة ، وكان معرفة — فيصلح أن يكون شديد من حيث أنه شئ له الشدة ، لا بالنظر إلى أنه عامل صفة له بالإضافة إلى العقاب ، فعلى هذا يكون شديد معرفة كما أهما معرفتان فليتأمل .

الفضل والزيادة ، قال الكلبي : ذي الفضل على عباده ، والمن عليهم ، يقال : طال علينا طولا ، أي : تفضل علينا تفضلا ، ومن كلامهم : طل علي بفضلك ، ومنه قوله : ﴿ أولوا الطول منهم ﴾^(١) وقال مجاهد : ذي السعة والغناء .

ثم وصف نفسه بالتوحيد المطلق ، وهو قوله : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ فوصف نفسه بصفات الرحمة والفضل ، وكونه واحدا ليس له شريك وشبيه ، فكان الترهيب والترهيب الكاملين يحصل بسبب هذا التوحيد .

ثم قوله عز وجل : ﴿ إليه المصير ﴾ صفة أيضا مما تقوي الرغبة في الإقرار بعبوديته ، وكان الخوف الشديد حاصلًا من عصيانه ، ولما كان القول بالحشر والقيامة حاصلًا كان الخوف أشد ، والحذر أكمل ، فلهذا السبب ذكر الله هذا الصفات .

واعلم أنه تعالى لما قرر أن القرآن كتاب أنزله ليهتدى به ، أخبر سبحانه عن مجادل في آياته ودلائله فقال : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أراد الجدال بالباطل ، وتضعيف دليل الحق ، قصدا إلى إدحاضه ، فأما الجدال لإيضاح ملتبسها ، وحل مشكلها ، ورد أهل الزيغ والبدع ، فأعظم جهاد في سبيل الله تعالى .

ثم قال سبحانه : ﴿ فَلَا يَغْرُوكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾ يعني : لا ينبغي أن تغتر بأي أمهلتهم ، وتركتهم سالمين في أبدانهم وأموالهم يتقلبون في البلاد ، أي : يتصرفون فيها بالتجارات ، وحصول الأرباح ، والسلامة في التصرفات فهي زائلة ، ومصيرهم إلى النار ، وكانت قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن بالأموال ، ويتجرون ، والمعنى : فأني وإن أمهلتهم فإني سأخذهم وأنتقم منهم ، كما فعلت بأشكالهم من الأمم الماضية .

ثم كشف عن هذا المعنى فقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ والأحزاب : هم الذين تحزبوا على الرسل ، أي : تجمعوا ، وهم عاد

(١) انظر السرهان مخطوط ص ٣٣٨ ، ومعنى هذا أن الفاعل واو جماعة الرجال ، وقد أصلحنا اللفظ من البرهان ، فإن اللفظ في المصاييح (ذهب إلى رجال) وفي البرهان (ذهب إلى الرجال) .

وثلود وفرعون وغيرهم ، ضرب هذا مثلاً لتكذيبهم وعداوتهم ، ليحذرهم من مثل سوء عاقبة أولئك ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ ذهب إلى الرجال ^(١) وفي حرف عبد الله (إلى رسولها) قاله في البرهان .

أي : عزمت كل أمة من هؤلاء الأحزاب أن يأخذوا رسولهم ؛ ليتمكنوا من الإيقاع به ليقتلوه ، أو يحبسوه ، أو يعذبوه ، يقال للأسير : أخيد ، حكاه ابن قتيبة ، والهمة : هي الإرادة ، وتوق النفس إلى الشيء ، قال الشاعر :

إذا كنت هماماً فكُنْ ذا عزيمة ولا تَكْ هماماً قليل العزائم

ثم قال : ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا ﴾ أي : يذهبوا ويبطلوا ﴿ به ﴾ ، أي : بباطلهم ﴿ الْحَقُّ فَأَخَذْتُهُمْ ﴾ أي : أرادوا أخذه فأخذتهم وأهلكتهم بالعذاب ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي : عقابي لهم ، فإنكم تمرون على بلادهم ، فتعانون أثر ذلك ، وهذا سؤال معناه التقرير والتعجب من حالهم ، فأنا أفعل بقومك ما فعلت هؤلاء إن أصرروا على الكفر والجدال في آيات الله .

ثم كشف عن هذا المعنى فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي : ومثل ما حق على الأمم المكذبة ﴿ حَقَّتْ ﴾ أي : وجبت ﴿ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من قومك ، وهم قريش : أن وقعت مواعيده بالعذاب عليهم ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أي : كما وجب إهلاك أولئك الأمم كذلك وجب إهلاك هؤلاء ؛ لأن العلة واحدة وتجمعهم — أنهم من أصحاب النار ، أي : من الذين يلزمونها بخلودهم فيها .

ويحتمل أن يكون ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ مرفوعاً بدلاً من ﴿ كلمات ربك ﴾ ومعناه : كما وجب هلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل — كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة .

(١) معناه : ذهب إلى تذكر وجمع الضمير العائد إلى أمة ، إلى معنى الأمة ، وكان معناها الرجال ؛ لأن الذين يتصدرون من كل أمة للتكذيب يكونون في الغالب هم الرجال من تلك الأمة . ودل عليه ما بعده ، وهو قوله : وفي حرف عبد الله (إلى رسولها) أي أنه عاد إلى لفظ الأمة .

ثم اعلم أنه تعالى لما بين أن الكفار يبالغون في إظهار العداوة مع المؤمنين — بين أن أشرف طبقات المخلوقين — وهم الملائكة الذين هم حملة العرش ، والشافون حول العرش — يبالغون في إظهار المحبة والنصرة للمؤمنين ، فقال : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ العرش : فهو الملئ ، وحملة الملئ : فهو قيامهم فيه بما يؤمرون به من أوامر الله عز وجل .

قال في التجريد : أما العرش فلا يكتنه كنهه ، وقد وصفه الله بالعظيم والكريم ، والجليل ، وقيل : خلق الله العرش من جوهرة خضراء ، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطائر المسرع ثمانين ألف عام ، والعرش يكسى كل يوم سبعين ألف حلة من النور لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله ، والأشياء كلها في العرش كحلقة في فلاة .

وأما حملته فقد قيل : إن حملة العرش أربعة أملاك ، فإذا كان يوم القيامة أمدوا بأربعة آخرين ، فصاروا ثمانية ، إلى غير ذلك مما قالوا في صفته وصفة حملته ، ذكر ذلك الثعلبي ، وكذا في الكشف .

قلت : وللقاسم عليه السلام فيما قالوه من صفة العرش كلام بسيط ذكر فيه بطلان ما زعموه من حقيقته ، ولم يُثبت شيئا مما رَووه في صفته ، وإنما العرش عنده ، وعند قدماء أئمتنا عليهم السلام عبارة عن عز الله تعالى وملكه ، ومعنى حمل الملائكة له : أنهم يتحملون أوامر الله سبحانه في خلقه ، بما شاء ، وكيف شاء ، من الحساب والعقاب ، وغير ذلك .

قال الهادي إلى الحق عليه السلام : العرش ، والكرسي ، والقبضة ، والبطش ، والإتيان ، والنجى ، والصراط ، والكتاب ، والميزان ، والكشف عن ساق ، واليدان ، والقبض ، والبسط ، والوجه ، والحجاب ، أمثال كلها [لا يضاف شيء منها إلى صفات البشر فمن أضاف شيئا منها إلى صفات الخلق فقد كفر] وإنما هذا الصفات من أمثال القرآن ،

وهو قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾^(١) وقد ذكر الله الأمثال في كثير من القرآن ، فنقول : إن المعنى في العرش والكرسي والوجه - سواء ليس بينهما فرق ، والمعنى فيها واحد ، وليس نقول : إن ثم عرشا مخلوقا ، ولا كرسيًا مخلوقا ، ولا وجهًا مخلوقا ، وليس شئ من هذا الثلاثة الأمثال ، العرش ، والكرسي ، والوجه يوجد أبداً بصفة من الصفات ، ولا بخيلة من الخيلات .

فإن قال قائل : ما معنى العرش الذي ذكره الله في كتابه ؟ قلنا له : اسم يدل على الله في ارتفاعه وعلوه فوق خلقه ، من أهل سماواته وأرضه ، فإن قال لنا : ما الكرسي الذي ذكره الله في كتابه ؟ قلنا له : اسم يحكي عن صفات الله في ذاته .

فإن قال : وكيف صفات الله في ذاته ؟ قلنا له : الكرسي يدل على الله ، وهو اسم من أسماء ملك الله ، وليس ثم شئ سوى الله ، ومعنى ﴿وسع كرسیه السموات والأرض﴾^(٢) : أنه هو وسع السموات والأرض بكرسيه ، ومعنى وسع السموات والأرض بكرسيه ، أي : وسع السموات والأرض بعلوه واقتهاره ، ألا تسمع إلى قوله : ﴿وَلَا يَتُودُّهُ حِفْظُهُمَا﴾^(٣) يريد سبحانه أن السموات والأرض لا يحفظانه ، يخبر أنهما لا يحفظانه ، وكيف يحفظانه عز وجل ، وهو يخبر أنه خارج منهما ، محيط بأقطارهما ، وأصل من ورائهما ووراء ورائهما إلى ما لا يصل إليه غيره عز وجل ، وقد قال النبي ﷺ لأبي ذر رحمة الله عليه : (يا أبا ذر ما السموات والأرض في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض) يقول ﷺ : ما السموات والأرض بأقطارهما في ورائهما مما هو أوسع منهما من حد أقطارهما إلى ما لا منتهى له إلا كالحلقة الملقاة في فلاة من الأرض) فأخبر ﷺ بعظمتهما

(١) العنكبوت : ٤٣ .

(٢) البقرة : ٢٥٥ .

(٣) البقرة : ٢٥٥ .

وجسمهما أنهما داخلتان في الكرسي كدخول الحلقة في الأرض ، فما لعسى موضع الحلقة من الأرض ، كأنما وراء ^(١) الحلقة من أقطار الأرض إلى تخومها وجبالها وأشجارها وما فوقها وتحتها أوسع وأعظم ، وأرحب مما حوت الحلقة منهما ، وكانت الحلقة أصغر شئ منها ، وكان القليل الحقير الصغير اليسير ما قد وسعه الله وأحاط به ، وهو يغير سبحانه بأنه هو الذي وسعهما ، وأحاط بهما ، حتى صارتا بعظمهما وكبرهما في إحاطة علمه كالحلقة الملقاة في الأرض ، ومعنى قولي : في إحاطة علمه ، أي : في إحاطته بنفسه ؛ لأنه لا علم له غيره ، فالله عز وجل قد أحاط بالسموات والأرض كإحاطة الأرض بالحلقة الملقاة في جوفها ، وهاهنا والله تاهت العقول ، وضلت الأحلام ، وانقطعت الفكر في الله عز وجل ، وفي كتاب الله تصديق هذا الحديث عن النبي ﷺ ^(٢) ، فمن قال : إن الله عرشا في السماء محيطا

(١) في المجموع (نسخة الهاشمي) كأنما وراء ، وفي المصاييح (أليس وراء) .

(٢) نقص عما في مجموع الإمام الهادي ، وقد رواه المصنف بتصريف يسير . والذي في المجموع :

بشيء من صفات الخلق فقد كفر ^(٢) وإنما هذا الصفات من أمثال القرآن ، وهو قوله : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وقد ذكر الله الأمثال في كثير من القرآن ، فنقول : إن المعنى في العرش والكرسي ، والوجه سواء ليس بينهما فرق ، والمعنى فيها واحد ، فنقول : إن معنى الوجه في الله هو الله ، ومعنى الكرسي في الله هو الله ، ومعنى العرش في الله هو الله لاشك في ذلك عندنا ولا ارتياب فيه ، ونقول إن معنى قول الله سبحانه : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ كمعنى قوله : ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾ وكمعنى قوله : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وإنما هذه الثلاثة أصناف كلها تشريف لله عز وجل ، والوجه الذي ذكره الله يستدل به على بهائه وحسن عظمته ، والكرسي يستدل به على ملكه ، ومعنى يستدل به على ملكه أنه يستدل به عليه ، لأنه الملك نفسه ، وليس شئ مما خلق يزيد في ملكه ، وكذلك الوجه يستدل به عليه نفسه ، وكذلك العرش يستدل به عليه ؛ لأنها أمثال قدمها الله تحكي من حسن الله وبهائه ، أعني حسنه في ذاته وبهائه في ذاته ، وليس ذلك الحسن والبهاء الذي هو الله عز وجل

على شيء من صفات حسن الخلق ومهائهم ، ولا نصف الله عز وجل بشيء من صفات البشر ، بل نقول : إن معنى ذلك كله إذ يعود كل صنف إلى أصل أنه هو الله عز وجل لا غيره ، وليس نقول : إن ثم عرشا مخلوقا ، ولا كرسيًا مخلوقا ، ولا وجهًا مخلوقا ، وليس شيء من هذا الثلاثة الأمثال ، العرش ، والكرسي ، والوجه يوجد أبدا بصفة من الصفات ، ولا بخلية من الخليات ، إنما المعنى في هذا كله الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له . فإن قال قائل ، أو سأل سائل : ما معنى العرش الذي ذكره الله في كتابه ؟ قلنا له : اسم يدل على الله في ارتفاعه وعلوه فوق خلقه ، من أهل سماواته وأرضه ، فإن قال لنا : ما الكرسي الذي ذكره الله في كتابه ؟ قلنا له : اسم يحكي عن صفات الله في ذاته ، فإن قال : وكيف صفات الله في ذاته ؟ قلنا له : إن الكرسي يدل على الله ، وهو اسم من أسماء ملك الله ، وليس ثم شيء سوى الله ، ومعنى ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ أنه هو وسع السموات والأرض بكرسيه ، ومعنى وسع السموات والأرض بكرسيه ، أي : وسع السموات والأرض بعلوه واقتضاره ، ألا تسمع إلى قوله : ﴿ ولا يؤده حفظهما ﴾ يريد سبحانه أن السموات والأرض لا يحفظانه ، يخبر أنهما لا يحسبانه ، وكيف يحسبانه أو يحفظانه عز وجل ، وهو يخبر أنه خارج منهما ، محيط بأقطارهما ، وأصل من ورائهما ووراء ورائهما إلى ما لا يصل إليه غيره عز وجل ، وقد قال النبي ﷺ لأبي ذر رحمة الله عليه : يا أبا ذر ما السموات والأرض في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في الأرض ، يقول ﷺ : (ما السموات والأرض بأقطارهما في ورائهما مما هو أوسع منهما من حد أقطارهما إلى ما لا ينتهي له إلا كالحلقة الملقاة في الأرض) فأخبر ﷺ بعظمهما وجسمهما أنهما داخلتان في الكرسي كدخول الحلقة في الأرض ، فما لعسى موضع الحلقة من الأرض ، كأنما وراء الحلقة من أقطار الأرض إلى تخومها وجبالها وأشجارها وما فوقها وتحتها أوسع وأعظم ، وأرحب مما حوت الحلقة منهما ، وكانت الحلقة أصغر شيء منها ، وكان القليل الحقير الصغير اليسير ما قد وسعه الله وأحاط به ، وهو خير سبحانه بأنه هو السدي وسعهما ، وأحاط بهما ، حتى صارتا بعظمهما وكبرهما في إحاطة علمه كالحلقة الملقاة في الأرض ، ومعنى قولي : في إحاطة علمه ، أي : في إحاطته في نفسه ؛ لأنه لا علم له غيره ، فالله عز وجل قد أحاط بالسموات والأرض كإحاطة الأرض بالحلقة الملقاة في جوفها ، وهاهنا والله تاهت العقول ، وضلت الأحلام ، وانقطعت الفكر في الله عز وجل ، وفي كتاب الله تصديق هذا الحديث عن النبي ﷺ قوله الله عز وجل : ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ يخبر أنه هو الذي وسع السموات والأرض ، وإنهما لم يسعاه ولم يحويه ، ولم يحسباه ، ولم يحفظاه ، بل كان عز وجل هو المحيط بهما ، والواسع لهما ، والممسك لهما ، والحافظ لهما ، وذلك قوله عز وجل : ﴿ إن الله بمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ فمن قال : إن لله عرشا في السماء محيطا به ، فقد زعم أن العرش منه أوسع ، وأعظم ، وأقوى ، وأحسم ، فزعم أن العرش هو المحيط بالأشياء ليس الله ، وأن العرش هو الواسع ليس الله ، وأن العرش هو القوي ليس الله ، ويزعم بزعمه أن الله أصغر من العرش إذا كان بزعمه في جوف العرش ، وكان العرش مشتملا عليه ، محيطا به ، قصير العرش ربه ، وزعم أن العرش هو الواسع العليم ، إذ زعم أنه أوسع من الله

العزیز الحکیم ، وأخرج الله عز وجل من قوله : ﴿الله نور السموات والأرض﴾ يريد أن بحياته حياتنا ، وبقدرته استقامتنا ، ولولا هو لزلنا وأمحتا ، وهلكنا وهلك ما عليهما لولا إحياءه لهما ، وقد قال الله عز وجل : ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾ فنقول هؤلاء الملحدون في الله سبحانه : أخبرونا عن العرش أهو الظاهر على الله ؟ أم الله الظاهر عليه ؟ فإن قالوا : إن العرش هو الظاهر على الله قلنا لهم : فقد أكذبكم الله في كتابه بقوله : ﴿هو الظاهر والباطن﴾ فأخبر عز وجل أنه هو الظاهر ، وأنتم تقولون : إن العرش هو الظاهر ، فقد كذبتكم على الله في قولكم ، وقتلتم بخلاف قوله عز وجل ، وقد ضللتهم ضلالا بعيدا بكذبكم على الله ، واقترائكم عليه ، وإن قالوا : بل الله هو الظاهر على جميع الأشياء لم يقدر أحد أن يدفع هذه الحجة عنهم ، قلنا لهم : قد قتلتم بالحق ورجعتم إلى الصدق ، فإذا كان هو الظاهر على جميع الأشياء كسان ظاهرا على كل عرش وغيره ، والله من وراء ذلك العرش محيط كما قال عز وجل : ﴿والله من وراءهم محيط﴾ فالله عز وجل من وراء كل عرش من غيره محيط ، وظاهر على كل شيء . فإن قال قائل : فإذا قتلتم : إن العرش هو الله فما معنى قوله : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ ؟ وقوله : ﴿وكان عرشه على الماء﴾ ؟ قلنا : إنما قلنا : إن العرش هو الله ؛ إذ كان العرش اسما يدل على الله ؛ لأن العرش من صفات الملك وليس هو عرش مخلوق ؛ إنما هو اسم من أسماء الملك يدل على ملك الله ، ومعنى يدل على ملك الله : أنه يدل على الله إذ هو الملك بنفسه ، فكان في المعنى عندنا سواء ، أن يقول القائل لا ملك إلا ملك الله ، أو يقول : لا عرش إلا عرش الله ، فلذلك قلنا : إن العرش متصل بالله كاتصال الكف بساعدها ؛ لأنه في غاية المعنى أن العرش عسلو الله على جميع الأشياء بنفسه ، وإنما مثل الله علوه على جميع الأشياء وإحاطته بها كعلو الملك على سريره إذا استعلى فوقه ، وليس في الشبه والصفة إلا في المثل ، والعرش الذي ذكره الله عز وجل هو مثل ضربه الله في استوائه على ملكه ، وأما تفسير هذا المثل الذي ضربه الله لعباده في العرش والكرسي أن الملك من ملوك الدنيا إذا قعد على كرسية ، وعلى سريره استعلى فوقه ، والعرش فهو السرير ، فمثل الله عرشه وكرسيه بهذا العرش ، وهذا الكرسي ، فكان كرسي الملك من ملوك الدنيا كرسيا ضعيفا صغيرا ، والذي استوى فوقه أضعف منه وأحقر منه ، وكذلك العرش فهو في الضعف والصغر كمثل الكرسي ، وسواء الكرسي والعرش كلاهما مقعد للملك يقعد عليه ، ويستوي فوقه ، وكرسي الله عز وجل فقد وسع السموات والأرض ، حتى صار من عظم سعته السماء والأرض في كرسية كالحلقة الملقاة في الأرض ، وصار الكرسي محيطا بهما كإحاطة الأرض بتلك الحلقة ، فكانت السموات والأرض لصغرهما وضيقهما في سعة الكرسي عليهما كضيق الحلقة وصغرهما في سعة الأرض عليها ، وكان الكرسي مشتملا على السموات والأرض كما اشتملت هذه الأرض على هذه الحلقة ، والواسع لهما بعظمهما كما وسعت الأرض هذه الحلقة الذي لا إله إلا هو وسع الأشياء كلها حتى أحاط بها وملأها وغمرها ، وليس ثم شيء غير الله إنما هو مثل مثله الله لعباد ليستدل به على عظمته واتساعه على جميع الأشياء ، وإحاطته بها .

به ، فقد زعم أن العرش منه أوسع ، وأعظم ، وأقوى ، وأجسم ، فزعم أن العرش

ومن الدليل على أن الله عز وجل أراد بذكر الكرسي والعرش أن يعرف عباده عظم سعته وإحاطته بالأشياء ، وقوله : ﴿والله من ورائهم محيط﴾ وكثير في كتاب الله عز وجل مما يدل على أن الله محيط بالأشياء ، وهذا الكرسي مما يدل على إحاطة الله بجميع الأشياء ، واتساعه عليها ، وتفسير العرش أيضا كتفسير الكرسي سواء سواء ، فهذا معنى قولنا : إن العرش هو الله ، وإن الوجه هو الله ، وإن الكرسي هو الله ، فإن قال قائل : أليست تقولون : هو الله ؟ قلنا له : نعم ، فإن قال : فما معنى قوله : (رب العرش العظيم) وقوله : (رب العرش الكريم) ؟ قلنا له : معنى ذلك عندنا كمعنى قوله سبحانه : ﴿رب العزة عما يصفون﴾ وهو العزيز بنفسه ، وكذلك قلنا : إن العرش هو الملك ، وهو الملك بنفسه ، ومعنى رب الملك ورب العزة ، أي مالك الملك ، ومالك العزة يريد صاحب الملك ، وصاحب العزة ، ومالك الشيء ورب الشيء سواء في المعنى ، فلذلك جعلنا العرش متصلا بالله ؛ لأنه ملك الله ، وملك الله متصل به ، ولذلك لم يكن بين العرش ، وبين الله فرق ؛ لأنه لو جاز لنا أن نفرق بين الله وبين ملكه لقلنا : إن الله خلق الملك في زمن الملك في ذاته ، وملك الله عز وجل فلا يقاس بملك العباد ؛ لأن العباد إنما صاروا ملوكا بما ملكوا ، والله فهو الملك بنفسه ، ولا يزيد شيء مما خلق في ملكه .

فإن قال قائل : فما معنى قوله : ﴿وكان عرشه على الماء﴾ ؟ قلنا : إن إحاطته بجميع الأشياء هي العرش العالي فوق جميع الأشياء ، وذلك العرش العالي فوق جميع الأشياء فالله عز وجل هو المحيط بجميع الأشياء بعرشه ، يريد أنه المحيط بجميع الأشياء بملكه ، أي : أنه علا فوق جميع الأشياء بنفسه ، ليس ثم عرش ولا ملك غيره ، فهو معنى قوله : ﴿وكان عرشه على الماء﴾ يريد أنه كان المحيط بالماء من قبل خلقه للأرض والسماء ، فذلك العرش المحيط بالماء لم يتغير عن حاله ، ولم يزل هو المحيط بالماء ، والمحيط من بعد الماء بالأرض والسماء فذلك العرش إنما هو مقام الله ، ولا يجوز لنا أن نقول : هو مجلس الله ، ولكننا نقول : هو مقام الله ، وليس كمقام الانتصاب ، إنما ذلك كمال الله بنفس قول الجليل الكامل بنفسه ، العظيم الجبار ، ذو الشرف والبهاء والثناء العظيم ، فهذا معنى قول الله عز وجل : ﴿وكان عرشه على الماء﴾ حين أنها لم تكن أرض ولا سماء سوى الماء ، ونحن نقول : إنه قد كان عرش الله ولا ماء ، ونقول : بأن عرش الله لم يزل وأن أسماء الله لم تزل ، وأن صفات الله كلها ومدائحه لم تزل ؛ لأن الله يقول في كتابه : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ ولا نقول : لم يكن مستويا على عرش ثم استوى إذن لقلنا بخلاف قوله عز وجل ، بل نقول : إن الله لم يزل ذا عرش عظيم نريد بذلك العرش العظيم الله العظيم ، وقلنا : ليس ثم عرش لله عز وجل ، وإنما ذكر العرش فعرضا به الملك ، ولم يصفه بصفة معلومة معروفة .

وأما قوله في يوم القيامة : ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾ فذلك المقام هو ذلك العرش ، وذلك العرش هو الله العلي لا شيء استعلى إنما هو العلي بنفسه . ثم والحمد لله وحده وصلاته على رسوله سيدنا محمد النبي ، وعلى آله وسلم تسليما . المجموعة الفاخرة ص ٦٦ — ٧١ . المجموع المخطوط لدينا نسخة (الهاشمي) ص ٣٢٩

هو المحيط بالأشياء ليس الله ، وأن العرش هو الواسع ليس الله ، وأن العرش هو القوي ليس الله ، ويزعم بزعمه أن الله أصغر من العرش إذا كان بزعمه في جوف العرش ، وكان العرش مشتملاً عليه ، محيطاً به ، فصير العرش ربه ، وزعم أن العرش هو الواسع العليم ، إذ زعم أنه أوسع من الله العزيز الحكيم .

إلى قوله عليه السلام : وإنما هو مثل مثله الله لعباده ليستدل به على عظمته واتساعه ، على جميع الأشياء وإحاطته بها ، ومن الدليل على أن الله سبحانه أراد بذكر العرش والكرسي أن يعرف عباده عظم سعته وإحاطته بالأشياء .

قوله سبحانه : ﴿ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ ^(٢) وكثير في كتاب الله مما يدل على أن الله محيط بالأشياء

وقال ولده المرتضى عليه السلام في الإيضاح : وسألتم عن العرش ؟ وما يقال فيه : إن ملائكة الله تطوف به في السماء ؟ فقال عليه السلام : ليس يقول بذلك إلا جاهل غير عارف بلغة ، ولا مقيم على ذلك بينة ، والعرش : وإنما هو الملك ، والله المالك لما في السموات والأرض ، ليس ثم عرش موضوع ، كما يقول الجاهل ، وإنما أراد عز وجل ملكه ، ومقدرته على جميع ما خلق وبرأ ، وقد ثبت عندكم في تفسير العرش لجدي القاسم بن إبراهيم ^(٣) ، والهادي إلى الحق كتابان فيهما تفسير ذلك ، فاستغنياً بوقوعه عندكم عن إعادته في كتابنا إليكم . اهـ .

وقوله : ﴿ يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ﴾ فائدة الإخبار بإيمانهم إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه ، كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصالح

(١) الطلاق : ١٢ .

(٢) المروج : ٢٠ .

(٣) ينظر كتاب تفسير العرش والكرسي في مجموع القاسم مخطوط ص ٤٤٠ ، ٤٦٤

، وكما عقب أعمال الخير بقوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ^(١) وإلا فلا يخفى على أحد أن حملة عرش الله ومن حوله مؤمنون ^(٢) .
وقيل : المراد أنهم يوجدونه ولا يثبتون له شريكا ، وهو تعريض بالمشركين .
ثم قال : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وقد روعي التناصب في قوله : ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ كأنه قيل : ويؤمنون ويستغفرون لمن في مثل حالهم ، وصفتهم ، وفيه تنبيه على أن الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شئ إلى النصيحة ، وأبعثه على إحماض الشفقة ، وإن تفاوتت الأجناس فإنه لا تجانس بين ملك وإنسان .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن الملائكة أنهم يستغفرون للذين آمنوا — بين كيفية ذلك الاستغفار فحكى عنهم أنهم قالوا : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ السعة هاهنا مثل لقدرة الله وعلمه ، ونفي العجز والحصر والضيق عنه ، والفقر ، وقوله : ﴿ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ تمييز ، أي : بيان لما نسبت إليه السعة ، والأصل وسع كل شئ رحمتك وعلمك ، وإنما خولف هذا مبالغة في وصفه بالرحمة والعلم ، كأن ذاته رحمة وعلم

(١) البلد : ١٧ .

(٢) فائدة في نفي ما تقوله المشبهة من أن العرش والكرسي مكانا جلوس الله عز وجل ، ونفي قول من يجوز رؤية الباري سبحانه وتعالى ، وفيه إثبات أنه سبحانه منزّه عن صفات الأجرام ، فقد قال الرازي في تفسيره : فإن قيل : فأى فائدة في قوله : ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ فإن الاشتغال بالتسبيح والتحميد لا يمكن إلا وقد سبق الإيمان بالله ؟ قلنا : الفائدة فيه ما ذكره صاحب الكشف ، وقد أحسن فيه جدا ، فقال : إن المقصود منه التنبيه على أن الله تعالى لو كان حاضرا بالعرش ، لكان حملة العرش والخافون حول العرش يشاهدونه ويعانونه ، ولما كان إيمانهم بوجود الله موجبا للمدح والثناء لأن الإقرار بوجود شئ حاضر مشاهد معين لا يوجب المدح والثناء ، ألا ترى أن الإقرار بوجود الشمس وكونها مضيئة لا يوجب المدح والثناء ، فلما ذكر الله تعالى إيمانهم بالله على سبيل المدح والتعظيم علم أنهم آمنوا به ، بدليل أنهم ما شاهدوه حاضرا جالسا هناك ، ورحم الله صاحب الكشف فلو لم يحصل في كتابه إلا هذه النكتة لكفاه) انتهى كلام الرازي ٣٢/٢٧ ، وصدق القائل ، لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه : وانظر الكشف ١٥٢/٤ .

واسعان لكل شيء^(١).

وفي البلغة : معناه وسعت رحمتك ومعلومك كل شيء ، أسند الفعل إلى الموصوف على جهة المبالغة كقولهم : طببت بذلك نفسا ، وجعلوا العلم موضع المعلوم ، كما جاء ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾^(٢) وتقديره : وسعت رحمتك وعلمك كل شيء . اهـ

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم كيفية ثنائهم على الله تعالى ، حكى عنهم كيفية دعائهم ، ولمن يدعون ، وهو أنهم قالوا : ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي : ادفع عنهم عذاب النار الشديدة ، فانظر إلى استغفار الملائكة المقربين ، الذين هم أشرف طبقات المخلوقين^(٣) ، كيف جعلوا استغفارهم مخصوصا للتائبين ، المتبعين سبيل رب العالمين ، دون من ليس كذلك لعلمهم أن الله سبحانه لا يغفر ذنبا من غير توبة .

وأما القائلون بجواز ذلك فليت شعري أعلمه القائلون ، وجهله الملائكة المقربون ، أم كانوا على إتيان أفضل الحاليين أشد منهم حرصا ، وحاشا وكلا ، بل عرفوا من أمر الله عز وجل ما جهله القائلون ، ولم يقولوا على الله سبحانه ما تمناه الجهلة الغافلون .

(١) قال الزمخشري : فإن قلت : تعالى الله عن المكان ، فكيف صح أن يقال : وسع كل شيء ؟ قلت : الرحمة والعلم هما اللذان وسعا كل شيء في المعنى ، والأصل : وسع كل شيء رحمتك وعلمك ، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم ، وأخرجنا منصوبين على التمييز للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم ، كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء . الكشف ١٥٣/٤ .

(٢) البقرة : ٢٥٥ .

(٣) احتج كثير من العلماء بهذه الآية في إثبات أن الملائكة أفضل من البشر قالوا : إن هذه الآية تدل على أن الملائكة لما فرغوا من التسبيح والتعديس لله سبحانه اشتغلوا بالاستغفار لغيرهم وهم المؤمنون ، وهذا يدل على أنهم مستغفرون عن الاستغفار لأنفسهم إذ لو كانوا محتاجين إليه لقدموا الاستغفار لأنفسهم بدليل قوله ﷺ (أبدا بنفسك) وقوله تعالى : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وكذلك حكى عن نوح عليه السلام ، فلما لم يذكر الله استغفارهم لأنفسهم علمنا أن ذلك إنما كان لأنهم غير محتاجين إلى استغفار ، وإذا ثبت هذا فقد ظهر أن الملك أفضل من البشر . وقد ذكر مثل هذا الرازي ٣٣/٢٧ .

واعلم أن الملائكة صلوات الله عليهم طلبوا بالدعاء من الله تعالى أشياء كثيرة للمؤمنين ، فالمطلوب الأول : الغفران للتائبين ، فإن قيل : لا معنى للغفران إلا إسقاط العذاب ، فلا فرق بين قوله : فاغفر لهم ، وبين قوله : ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ ؟ قلنا : دلالة لفظ المغفرة على إسقاط عذاب الجحيم دلالة خاصة ، حاصلة على سبيل الرمز والإشارة ، فلما ذكروا هذا الدعاء على سبيل الرمز ، أردفوه بذكره على سبيل التصريح ؛ لأجل التأكيد والمبالغة .

واعلم أنه لما طلبوا من الله إزالة العقاب عنهم ، أردفوه بأن طلبوا من الله إيصال الثواب إليهم ، فقالوا : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾ قيل : عدن : علم لموضع الجنة مخصوص ، أو عدن بمعنى إقامة ، فدلّت أن استغفارهم إنما هو للتائبين ، وفائدة ذلك — وقد وعدهم بالمغفرة — زيادة الكرامة والثواب ، وهو بمنزلة الشفاعة ، أو لجبر نقص الثواب ، وكذا استغفار بعض المسلمين لبعض .

واعلم أن هذا الآية قد دلت على فساد قول من يثبت الشفاعة للمذنبين ؛ لأنه تعالى ما وعد المذنبين أن يدخلهم جنات عدن قط .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ ذكر من صلح ؛ لأن الدعاء لغير الصالح لا يحسن ، ولا يجاب ، والمعنى : وأدخل معهم في الجنة هؤلاء الطوائف الثلاثة ، وهم الصالحون من الآباء والأزواج والذريات ، وذلك لأن الرجل إذا حضر معه في موضع عزه وسروره أهله وعشيرته كان ابتهاجه أكمل ، ثم

(١) وقد احتج الكعبي هذه الآية على أن الشفاعة لا تكون إلا للمؤمنين ، وأنها لا تكون للفاسقين كما تشبهت العامة والإمامية ، قال : وذلك لأن الملائكة قالوا : ﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾ قال : وليس المراد فاغفر للذين تابوا من الكفر سواء كان مصرا على الفسق أو لم يكن كذلك ، لأن من هذا حاله لا يوصف بكونه متبعا لسبيل ربه ، ولا يطلق ذلك فيه ، وأيضا إن الملائكة يقولون : ﴿ وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ﴾ وهذا لا يليق بالفاسقين ؛ لأن خصومنا لا يقطعون على أن الله تعالى وعدهم الجنة ، وإنما يجوزون ذلك ، فثبت أن شفاعة الملائكة لا تتناول إلا أهل الطاعة ، فوجب أن تكون شفاعة الأنبياء ، ومنهم نبينا محمد ﷺ كذلك ضرورة أنه لا قائل بالفرق . وانظر الرازي ٣٣/٢٧ .

قالوا: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل شيئا إلا بحكمة ومصلحة ، ومن ذلك الوفاء بوعدك ، وإنما ذكروا في دعائهم هذين الوصفين لأنه لو لم يكن عزيزا ، لكان بحيث يغلب ويمنع ، ولما صح وقوع المطلوب منه ، ولو لم يكن حكيما لما حصل هذا المطلوب على وفق المصلحة والحكمة .

ثم قالوا بعد ذلك : ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ يجوز أن يراد : وقهم عذاب السيئات ، أو جزاء السيئات ، ويراد بالسيئات الصغائر ، والكبائر مع التوبة ، ويجوز أن يراد : الطف بهم حتى لا يعملوا السيئات .

قال الرازي : فإن قيل : فعلى هذا التقدير لا فرق بين قوله : ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ وبين ما تقدم من قوله : ﴿وَقِهِمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ؟ وحينئذ يلزم التكرار الخالي عن الفائدة ؟ وأنه لا يجوز ؟ قلنا : بل التفاوت حاصل من وجهين ، الأول : أن يكون قوله : ﴿وَقِهِمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ دعاء مذكور للأصول ، وقوله : ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ دعاء مذكور للفروع ، [وهم الآباء والأزواج والذريات] ^(١) .

الثاني : في تفسير قوله : ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ يقول : إن الملائكة طلبوا إزالة عذاب النار بقولهم : ﴿وَقِهِمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وطلبوا إيصال ثواب الجنة إليهم بقولهم : ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ ثم طلبوا بعد ذلك أن يصونهم الله تعالى في الدنيا ، عن العقائد والأعمال الفاسدة ، وهو المراد بقوله : ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ .

ثم قالوا : ﴿وَمَنْ تَقِيَ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي : يوم تدخل الصالحين جنات عدن ﴿فَقَدْ رَحِمْتُهُ﴾ أنعمت عليه ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي : الفلاح والظفر بكل مطلوب ، السذي لا أعظم منه ، حيث وجدوا بأعمال منقطعة نعيما لا ينقطع ، وبأعمال حقيرة ملكا لاتصل العقول إلى كنهه جلالاته .

ثم أعلم أنه تعالى عاد إلى شرح أحوال الكافرين المجادلين في آيات الله ، وهم الذين

(١) ما بين قوسي الزيادة غير موجود في الرازي . وتم تصحيح اللفظ منه . الرازي ٤٩٣/٩ .

ذكرهم في قوله: ﴿مَا يَجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وبين أنهم في القيامة يعترفون بذنوبهم واستحقاقهم العذاب الذي نزل بهم ، ويسألون الرجوع إلى الدنيا ليتلافوا ما فرط منهم ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ﴾ يوم القيامة حين يمقتون أنفسهم ، ويندمون على الإيمان ، فيقال لهم: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾ إياكم ﴿أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ والمقت: أشد البغض ، والمعنى: لمقت الله أنفسكم على اختيارها الكفر على الإيمان أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم ، وأنتم في النار .

قال الحسين بن القاسم عليها السلام : يريد عز وجل أن مقت الله لهم وبغضه أكبر من بغضهم لأنفسهم يوم القيامة ؛ لأن بغضهم لأنفسهم ذلك اليوم ندم في قلوبهم ، حتى يتمنوا الموت والتلف ، وبغض الله : عذاب ونكال لأجسامهم : اهـ

وقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ﴾ منصوب بالمقت الأول ، والمعنى : أنه يقال لهم يوم القيامة : كان الله يمقت أنفسكم الأمانة بالسوء ، كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان ، وقيل : هو تعليل للمقت ، أي : لأنكم تدعون إلى الإيمان ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ . ثم أخبر تعالى أن الكفار إذا خوطبوا بهذا الخطاب ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَا أَتَيْنَ وَأَحْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ﴾ نصب لمصدر محذوف ، والتقدير : إمامتين اثنتين ، قال في التجريد : أراد بالإمامتين خلقهم أمواتا أولا ، وإمامتهم عند انقضاء آجالهم ، وبالحياتين خلقهم في الدنيا أحياء ، والثانية حياة البعث ، وقد فسر ذلك قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ ثم يميتكم ثم يحييكم^(١) وهذا مروي عن ابن عباس ، وقيل : الحياة الأولى في الدنيا ، والثانية في القبر ، والإمامة الأولى في الدنيا ، والثانية في القبر ، وضُغِفَ بأنه يلزم أن يكون الإحياء ثلاث مرات ، لأن الثالثة في الآخرة .

قلت : وفي تفسير هذا الآية التي اختلف فيها الناس يقول الهادي عليه السلام : معنى ذلك أن الله يخبر عن أهل النار ، وما يكون من مقتهم لأنفسهم ، ومعنى مقتهم فهو

بغضهم لأنفسهم ، وبغضهم لها في ذلك اليوم فهو لما تقدم منها من المعاصي في الدنيا حتى أهلكتهم بذلك في الآخرة ، فلما أن صاروا إلى النار أبغضوا أنفسهم ، وتمنوا أنها كانت في التراب بالية فانية ، فتناديهم ملائكة الله عند ذلك ، فأخبرهم أن مقت الله لهم في هذا الوقت أكبر من مقتهم لأنفسهم ، فردوا على ملائكة الله ما تسمع من هذا القول ، من قولهم : ﴿ رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾^(١) يقولون : جعلتنا في أصلاب آبائنا ماء مهينا أمواتا ، فهذا الموتة الأولى ، ثم أمتنا من بعد الحياة الأولى والإيجاد فصيرتنا إلى القبور ، فهذا اثنتان ، وأحييتنا الحياة الأولى في بطون أمهاتنا أجساما وأرواحا من بعد أن كنا نطفة وعلقة ومضغة أمواتا ، لا حياة فينا ، ثم أحييتنا الحياة الثانية ، وهي نُشْرِكُ لنا من القبور [بعد الفناء] وإخراجك إيانا من أجداننا بعد البلاء أجساما متجددة أحياء ، فهذا الحياتان والميتتان .

ثم أخبر سبحانه عنهم أنهم قالوا : ﴿ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ ﴾ من النار ﴿ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ يقولون : هل إلى رجعة إلى الدنيا من سبيل ، فنعمل صالحا غير الذي كنا نعمل ، إذ قد رأينا وأبصرنا ، وعانينا وشاهدنا [واعترفنا بذنوبنا ، ومعنى اعترفنا : فهو أقرنا بها وشهدنا]^(٢) على أنفسنا بما كان منها . اهـ

قال في الكشف : فإن قلت : كيف صح أن يسمى خلقهم أمواتا إماتة ؟ قلت : كما صح أن يقال : سبحان من صغر جسم البعوضة ، وكبر جسم الفيل ، ويقال للحفار : ضيق فم الركبة ، ووسع أسفلها ، وليس ثم نقل من كبر إلى صغر ، ولا من صغر إلى كبر ، ولا من ضيق إلى سعة [ولا من سعة إلى ضيق وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات] والسبب في الصحة أن الصغر والكبر جائزان معا على المصنوع الواحد [من غير ترجيح لأحدهما] وكذلك الضيق والسعة ، فإذا اختار الصانع أحد الجائزين ، وهو متمكن منهما [على السواء] فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر ،

(١) غافر : ١١ .

(٢) سقط في المصاييح ، وموجود في المجموع ص ٤٤٢ ، ٤٤٣ .

فجعل صرفه كنقله منه .

ومن جعل الإمامتين التي بعد حياة الدنيا ، والتي بعد حياة القبر لزمه إثبات ثلاث إحياءآت ، وهو خلاف ما في القرآن ^(١) . اهـ

ومعنى ﴿ من سبيل ﴾ أي : هل من طريق إلى نوع من الخروج من العذاب سريع أو بطيء ، وقيل : هو إلى خروج من ذنوبنا ، وهذا كلام من قد غلب عليه اليأس ، فقيل : لا سبيل لكم إلى ذلك ، يدل عليه بقوله : ﴿ ذَلِكُمْ بَأْتُهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخَذَهُ كَفَرْتُمْ ﴾ أي : ذلكم العذاب لازم لكم ، بسبب كفركم ﴿ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ أي تصدقوا شركهم ، أي : ذلك بسبب كفركم بتوحيد الله ، وإيمانكم بالإشراك به ﴿ فَأَلْحَكُمُ اللَّهُ ﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد ﴿ الْعَلِيِّ ﴾ المرتفع عن ظلم عباده ﴿ الْكَبِيرِ ﴾ دليل على الكبرياء والعظمة ، فلا يرد حكمه ، وأن عقاب مثله لا يكون إلا كذلك .

واعلم أنه تعالى لما ذكر ما يوجب التهديد الشديد في حق المشركين ، أردفه بما يدل على كمال قدرة الله وحكمته ، ليصير ذلك ذليلاً على أنه لا يجوز جعل هذه الأحجار المنحوتة ، والخشب المصورة شركاء لله سبحانه في العبودية ، فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على وحدانيته ، وصدق رسوله من الريح والسحاب ، والسرعد ، والبرق ، والصواعق ونحوها ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ أي : سبب الرزق ، وهو المطر ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ أي : يتعظ ﴿ إِلَّا مَنْ يَنْسِي ﴾ أي : يرجع إلى الله ، ويتوب من الشرك دون المعاند ، والمعنى : أن الوقوف على دلائل توحيد الله تعالى ، كالأمر المركوز في العقل إلا أن القول بالشرك ، والاشتغال بعبادة غير الله — يصير كالمانع من تحلي تلك الأنوار ، فإذا أعرض العبد عنها ، وأتاب إلى الله زال الغطاء والبطاء ، فظهر النور التام .

(١) انظر الكشف ٤/١٥٤ ، وما بين أقواس الزيادة منه .

ولما قرّر هذا المعنى صرّح بالمطلوب ، وهو الإعراض عن غير الله ، والإقبال بالكلية على الله تعالى فقال تعالى : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ ﴾ أي : اعبدوه ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ من الشرك ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما ذكر من صفات كبريائه وإكرامه كونه مظهرًا للآيات منزلاً للأرزاق — ذكر بعد ذلك ثلاثة أخرى من صفات الجلال والعظمة ، فقال سبحانه : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ﴾ أي : مرتفع القدر ، وهذا مثل لعلم الله وقدرته ، وعبرة عن علو شأنه وسلطانه ، ثم قال : ﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ أي : خالقه ومالكة ، فهو عبارة عن ملكه^(١) ، وقيل : المراد أنه يرفع درجات أوليائه في الجنة ، ورفع بمعنى : رافع ، وقيل : رفيع الدرجات هي مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش ، كقوله : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾^(٢) وارتفاعها دليل على عزته وملكوته ، قال ابن عباس : يريد رافع السموات ، ثم قال : ﴿ يُنْفِخُ الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ يريد الوحي الذي هو سبب الحياة ، استعار له الروح ، كما قال : ﴿ أَوْ مِنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾^(٣) ومعنى ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ أي : من أوامره ونواهيه ؛ لأن الوحي أمر بالخير ، وقال مقاتل : أي بأمره ، وهي إرادته ﴿ لِنُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ هو يوم القيامة ؛ لأن الخلائق تلتقي فيه ، قيل : يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض ، وقيل : كل عامل

(١) قال الرازي في تفسيره الكبير ٤٣/٢٧ : واحتج بعض الأغمار من المشبهة بقوله : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش ﴾ وحملوه على أن المراد بالدرجات السموات ، ويقولون : ﴿ ذو العرش ﴾ أنه موجود في العرش فوق سبع سموات ، وقد أعظموا الفرية على الله تعالى ، فإننا بينا بالدلائل القاهرة العقلية أن كونه تعالى جسماً وفي جهة محال ، وأيضاً فظاهر اللفظ لا يدل على ما قالوه ؛ لأن قوله : ﴿ ذو العرش ﴾ لا يفيد إلا إضافته إلى العرش ، ويكفي في إضافته إليه بكونه مالكا له ، ومخرجا له من العدم إلى الوجود ، فأى ضرورة تدعونا إلى الذهاب إلى القول الباطل والمذهب الفاسد ، والفائدة في تخصيص العرش بالذكر هو أنه أعظم الأشياء ، والمقصود ببيان كمال إلهيته ، ونفاذ قدرته ، فكل ما كان محل التصرف والتدبير أعظم ، كانت دلالاته على كمال القدرة أقوى .

(٢) المعارج : ٣ .

(٣) الأنعام : ١٢٢ .

يلقى عمله .

قال الهادي عليه السلام : معنى : ﴿لِيُنذِرَ﴾ أي : لِيُحَذِّرَ ما يكون من العقاب في يوم التلاق ، وهو يوم يجتمع الخلق كلهم في موضع واحد ، وهو يوم الحشر ، ويوم الميقات ، ويوم المعاد ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ أي : ظاهرون غير مستترين بدار ولا جدار ، قد برز بعضهم لبعض ، وعان بعضهم بعضا ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي من أعمالهم وأحوالهم وسرائرهم ظاهرا كان أو مستترا من أفعالهم^(١) . اهـ

وهذا لما كانوا يتوهمون في الدنيا من أن الاستتار في الدنيا يخفي أعمالهم عنه ، وإلا فهو لا تخفى عليه خافية ، فقد صاروا الآن من الانكشاف إلى ما لا يتوهمون معه ما كانوا يتوهمون في الدنيا ، فلا يستترهم حينئذ شيء من الأرض ؛ لأنها تكون قاعا صافصفا .

ثم قال سبحانه : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ اتفقوا على أن هذا يقوله الله تعالى ، واختلفوا متى يقوله ، فقيل : عند فناء الخلائق ، إذا لم يبق مجيب فيرد سبحانه على نفسه ، فيقول : ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قاله الأكثرون ، قال أهل الأصول : هذا القول ضعيف ، وبيانه من وجوه أنه تعالى بين أن هذا النداء إنما يحصل يوم التلاق ، ويوم البروز ، ويوم تجزى كل نفس بما كسبت ، والناس في ذلك الوقت أحياء ، فبطل قولهم : إنه تعالى إنما ينادى بهذا النداء حين هلك كل من في السموات والأرض .

والثاني : أن الكلام لا بد فيه من فائدة ، لأن الكلام إما يذكر حال حضور الغير ، أو حال ما لا يحضر الغير ، والأول باطل هاهنا لأن القوم قالوا : إنه تعالى إنما يذكر هذا الكلام عند فناء الكل ، والثاني أيضا باطل ؛ لأن الرجل إنما يحسن تَكَلُّمَهُ حال كونه وحده ، إما لأنه يحفظ به شيئا كالذي يكرر على الدرس ، وذلك على الله تعالى محال^(٢) ، أو لأجل أنه يعبد الله بذلك الذكر ، وذلك أيضا على الله محال ،

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٤٣ .

(٢) وزاد السرازي وجها آخر وهو : أن يحصل التكلم في الوحدة لأنه يحصل به سرور ، وهذا أيضا على الله محال (السرازي ٤٦/٢٧) .

فثبت أن قول من يقول : إن الله تعالى ذكر هذا النداء حال هلاك جميع المخلوقات باطل لا أصل له .

وقيل : إنه يقوله تعالى يوم القيامة ، والخلائق يسمعون لأنه لا فائدة في خطاب المعدم ، واختلفوا من يجيبه بقول ﴿لله الواحد القهار﴾ ف قيل : يجيب نفسه ، والخلائق سكوت ، قاله عطاء ، وقيل : بل الخلائق يجيبونه كلهم .

وقال الهادي عليه السلام : يخبر سبحانه أنه يوم قد انقطع فيه ملك كل مالك ، وأثر كل متملك إلا الله الواحد القهار ، ومعنى ﴿الواحد﴾ فهو الغالب الجبار ، الذي ليس معه في الحكم في الدين أحد يحكم ولا يأمر ، النافذ أمره ، الماضي في ذلك اليوم حكمه ، المذل فيه الملوك الجبارين ، المعز فيه لأوليائه المؤمنين . اهـ

واعلم أنه سبحانه لما شرح صفات القهر في ذلك اليوم أردفه ببيان صفات العدل والفصل في ذلك اليوم ، فقال : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر ، ومن صفات اليوم قوله تعالى : ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يجوز أن يراد تعليل نفي الظلم ، لا يظلم الله المؤمنين ، بتأخير حسابهم ؛ لأنه سريع الحساب ، ويجوز أن يراد تقريب يوم القيامة والحساب ، كقوله : ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾^(١) قاله في التجريد .

والمعنى : لما قرر أن الملك في ذلك اليوم لله وحده ، عد فوائده ذلك ، وهي أن كل نفس تجزى بما كسبت ، وأن الظلم مأمون ؛ لأن الله ليس بظلام للعبيد ، ولا يتظالمون ؛ لأن الله يقضي بينهم ، وأن الحساب لا يبطئ ؛ لأن الله لا يشغله حساب عن حساب ، فيحاسب الخلق في وقت واحد ، وروي أنه يحاسب الخلق على كثرتهم في قدر حلبة شاة ، وروي في لمحة عين .

قال القاضي : هذا الآية قوية في إبطال قول المجرة ؛ لأنه على قولهم : لا ظلم غائبا

وشاهدا إلا من الله تعالى ، ولأنه تعالى إذا خلق فيه الكفر ، ثم عذبه [عليه] فهذا [هو] عين الظلم^(١) .

ثم وصف سبحانه يوم القيامة بأنواع أخرى من الصفات الهائلة ، فقال : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ ﴾ يا محمد ﴿ يَوْمَ الْآزِفَةِ ﴾ أنذرهم بيوم الآزفة ، فيوم الآزفة مفعول به ، لا ظرف ، والآزفة : القيامة ، سميت بذلك لأزوفها ، أي : قرها ؛ لأن كل آت قريب .
ثم قال : ﴿ إِذْ الْقُلُوبُ ﴾ أي : حين القلوب ﴿ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ وهي الخلاقيم ، ترتفع القلوب عن مقارها فتلتصق بالحناجر من شدة الفزع ، فلا هي تخرج فيموتوا ، ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا^(٢) ﴿ كَاطِمِينَ ﴾ على قلوبهم ، التي ملأت حناجرهم ، لئلا تظهر ، أي : ممسكون عليها من قولهم كظم غيظه ، والكظم : الامتلاء ، كظم القربة : ملأها ، ومنه كظم الغيظ بالصبر ، فلا يظهر له أثر ، ويجوز أن يراد أن القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر ، قال الهادي عليه السلام : يقول : من شدة الهول والأمر العظيم ، الذي يعاينون قد ارتفعت قلوبهم ، حتى قاربت حناجرهم من الفزع المفزع ، والروع المفظع ، ومعنى ﴿ كَاطِمِينَ ﴾ فهم سكوت ، والكاظم فهو الساكت^(٣) ، الذي لا ينطق ، يقلب عينيه ، ويستمع لهول ما فيه قد وقع .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى ﴿ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ أي : عند أعالي الحلق ، قال الشاعر — يصف كرمه وعقره لإبله لضيفه :

فيعرفن جولاقي إذا ما رأيتني فيغظطن للجرات دوان الحناجر

(١) القاضي : هو القاضي البيضاوي ، وقد ذكر هذا عن القاضي الرازي فأنظره ٤٨/٢٧ .

(٢) في المصاييح (فلا هي تخرج فيموتون ، ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسون) والظاهر أنها فاء السببية التي إذا سبقها النفي نصب ما بعدها ، فأصلحنا اللفظ على هذا ، ومثل هذا اللفظ في الرازي ، بحذف نون الفعل ، فأنظره (٥٠/٢٧)

(٣) في المجموع (والكاظم : فهو الصامت) .

ومعنى ﴿كَاطِمِينَ﴾ أي : لازمين لأنفسهم عن الكلام في بعض المواطن ، مسكين من الغم والحزن والهم ، فإن قيل : ثم انتصب ﴿كَاطِمِينَ﴾ ؟ قال بعضهم^(١) : حال من أصحاب القلوب على المعنى ؛ لأن المراد قلوبهم لدى الحناجر حال كونهم كاطمين ، ويجوز أيضا أن يكون حالا من القلوب ، وأن القلوب كاظمة كل غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر .

ثم قال : ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ قال الهادي عليه السلام : يقول : ما لهم من ولي ولا قريب ينفعهم ، لا طفل في طفولته ، ولا أحد ممن ينتسب الظالمون إليه ، يطمعون في ذلك اليوم عنده لمنفعة ، ولا يطمع هو لهم بخلاص من النعمة^(٢) . اهـ والحميم : هو المحب الشفيق ، قال الشاعر :

وذابلة الرماح تعمل فيهم إذا صد الحميم عن الحميم
أي : أعرض الحبيب عن الحبيب ، وإنما سمي الله عز وجل الحميم حميما لأنه يحتمي على صاحبه ويحترق لا حترقه ، ويغتاظ لتغيظه ، ويغتم لغمه ، والحمما : هو الحرارة في اللغة .

ثم قال سبحانه : ﴿وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾ قال عليه السلام : يقول : ليس في ذلك اليوم للظالمين شفيع يجيب الله دعوته ، ولا يجيز في الظالمين شفاعته ، أي : يعطي أمنيته فيهم ، فيجاب ، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ﴾^(٣) . اهـ

وذكر ﴿يُطَاعُ﴾ لفائدة جليلة ، وهي المبالغة في النفي ، كأنه نفى الشيء مرتين ، نفى الشفيع ، ونفى صفته وهي الطاعة ، فلا يتوهم وجود شفيع مطاع ، كما لا يوجد لهم شفيع مطاع ، وهو كالتعليل لعدم الشفيع كأنه قيل : كيف يتأتى الشفيع

(١) البعض هنا : هو الرازي ، انظر الرازي ٥٠/٢٧ .

(٢) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٤٤ .

(٣) الأنبياء : ٢٨ . مجموع تفسير الأئمة ص ٤٤٤ .

ولا شفيع يطاع^(١).

قال الرازي في بيان نظم الآية : إنه تعالى ذكر في هذه الآية جميع الأسباب الموجبة للخوف ، فأولها : أنه سمي اليوم يوم الآزفة ، أي : يوم القرب [من عذابه لمن] ابتلى بالذنب العظيم [لأنه] إذا قرب زمان عقوبته كان في أقصى غايات الخوف ، حتى [قيل] : إن تلك الغموم والهموم أعظم في الایجاب من عين تلك العقوبة .

والثاني : قوله : ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ والمعنى : أنه بلغ ذلك الخوف إلى أن انقلع القلب من الصدر وارتفع إلى الحنجرة ، والتصق بها ، وصار مانعا من دخول النفس .

والثالث : قوله : ﴿ كَاطِمِينَ ﴾ والمعنى : أنه لا يمكنهم أن ينطقوا ، وأن يشرحوا ما عندهم من الحزن والخوف ، وذلك يوجب مزيد القلق والاضطراب .

والرابع : قوله : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يَطَاعُ ﴾ فبين تعالى أنه ليس لهم قريب ينفعهم ، ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته .

والخامس : قوله عز وجل : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ [وَمَا تَخْفَى الصُّدُورُ] ﴾ [والمعنى : أن سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديدا جدا. قال

(١) ومثل هذا في الكشف ٤/١٥٨. قال الزمخشري : فإن قلت : الغرض حاصل بذكر الشفيع ونفيه ، فما الفائدة في ذكر هذه الصفة ونفيها ؟ قلت : في ذكرها فائدة جلية ، وهي أنها ضمت إليه ؛ ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة ، لأن الصفة لا تتأتى بدون موصوفها ، فيكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف . بيانه : أنك إذا عوتبت على القعود عن الغزو فقلت : ما لي فرس أركبه ، ولا معي سلاح أحارب به ، فقد جعلت عدم الفرس والسلاح علة مانعة من الركوب والمحاربة ، كأنك تقول : كيف يتأتى معي الركوب والمحاربة ، ولا فرس لي ولا سلاح معي ، فكذلك قوله : ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يَطَاعُ ﴾ معناه : كيف يتأتى التشفيع ولا شفيع ، فكان ذكر الشفيع والاستشهاد على عدم تأتیه بعدم الشفيع وضعا لانتفاء الشفيع موضع الأمر المعروف غير المنكر الذي لا ينبغي أن يتوهم خلافه .

صاحب الكشف^(١) الخائنة : صفة للنظرة ، أو مصدر بمعنى الخيانة ، كالعافية بمعنى المعافاة ، والمراد : استراق النظر إلى مالا يحل ، كما يفعل أهل الريب^(٢) .

قال الهادي عليه السلام : معناها ما تشير به الأعين وتومئ به ، فأخبر سبحانه أنه يعلم ذلك من الأعين قبل كونه ، وقبل كونها . اهـ

والمعنى : أنه تعالى يدرك ويعلم خائنة لحاظ أعين الفاسقين ، ونظرهم إلى ما ينظرون ؛ لأن الفاسق ينظر إلى ما حرم الله بعينه ، ويكسر تارة لإخوانه طعنا وتلهيا بالناس ، وظلما ، وتارة يخون بعينه دينه ، الذي هو أمانة الله في رقبته ، بالنظر إلى العورات ، واللمح إلى المحظورات ، والمؤمن إذا نظر اعتبر ، وإذا صمت فكر ، وإذا تكلم ذكر وأنذر من عذاب الله وحذر ، لا يخون بعينه ولا بلسانه ، ولا يصرف جوارحه إلا في طاعة الله سبحانه .

ثم قال عليه السلام : معنى قوله : ﴿ وَمَا تَخْفِي الصُّدُورُ ﴾ فهو غيب الصدور من خفي أمرها ، ودقيق ضميرها ، مما لم يظهر في شيء من الجوارح عنها ، بما لا يرضى ، فيحاسب عليه^(٣) . اهـ

قال الرازي : والحاصل أن الأفعال قسمان ، أفعال الجوارح ، وأفعال القلوب ، أما أفعال الجوارح فأخفاها خائنة الأعين ، والله أعلم بها ، فكيف الحال في سائر الأعمال ، وأما أفعال القلوب فهي معلومة لله تعالى ، لقوله : ﴿ وَمَا تَخْفِي الصُّدُورُ ﴾ فدل هذا على كونه عالما بجميع أفعالهم .

والسادس^(٤) : قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ أي : يحكم بالعدل ، وهذا أيضا

(١) الكشف ١٥٩/٤ .

(٢) انظر تفسير الرازي ٥٢/٢٧ ، وقد أصلحنا اللفظ منه ، وكذلك ما بين الأقواس ، فليعلم . وقد اقتصر المؤلف رحمه الله على بعض الأوجه التي ذكرها الرازي ، ثم ذكر بقيتها بعد ذلك كما ستطلع عليه . وكانت الأعداد مؤنثة في المصاييح ، وفي الرازي مذكرة ، لقوله : الأسباب ، والسبب مذكر فأصلحنا اللفظ من الرازي .

(٣) المجموع ص ٤٤٤ .

(٤) من هنا عود للنقل عن الرازي في الأسباب الموجبة للخوف ، وقد سبق خمسة أسباب ، وهذا هو السادس

يوجب عظيم الخوف ؛ لأن الحاكم إذا كان عالماً بجميع الأحوال ، وثبت منه أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل ، كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى .

السابع : أن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعاة هذه الأصنام ، وقد بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة فقال : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أي : يعبدون ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ [من الأصنام] ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ [أي : يحكمون بشيء ، وهذا تحكمهم بهم ؛ لأنها حماد ، لا توصف بنفي القضاء ، ولا بإثباته] ^(١) .

والثامن : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ بما يقولون ﴿ الْبَصِيرُ ﴾ بما يعملون ، فيعاقبهم عليه ، وفيه تعريض بالأوثان ؛ لأنها لا تسمع ولا تبصر ، فهذه الأحوال الثمانية إذا اجتمعت في حق المذنب الذي عظم ذنبه ، كان بالغاً في التخويف إلى الحد الذي لا تعقل الزيادة عليه ^(٢) .

ثم إنه تعالى لما بالغ في تخويف الكفار بعذاب الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا ، فقال عز وجل : ﴿ أَوْ لَمْ يَسِيرُوا ﴾ يعني قريشاً ﴿ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ﴾ ^(٣) نظر

(١) ما بين الأقواس غير موجود في الرازي ، وهو من كلام المصنف رحمه الله لا من كلام الرازي .

(٢) السبب الثامن نقله المصنف عن الرازي بالمعنى ، وليس باللفظ .

(٣) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) : [هاهنا نقص من أول السورة إلى هنا فليبحث عنه] ...

حجة ظاهرة ، قيل : الآيات والسلطان شيء واحد ، وذكرها تأكيداً ، واختلاف المعنى ، فكأنه ذكر الحجة ، وذكر أنه ما يتسلط عليهم ، وقيل : الآيات حجج التوحيد والعدل والسلطان ، المعجزات التي بها ظهرت نبوته ، وقهر فرعون وقومه ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَابٌ ﴾ كاذب فيما يدعي ويدعو إليه ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ قيل : بالمعجزات الدالة على نبوته ، وقيل : بالدين الحق ﴿ قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ قيل : أمر فرعون بقتل الأبناء مرتين ، مرة قبل بعثة موسى خوفاً على ملكه حين أنذر به ، ومرة بعد البعثة لئلا يتقوى بهم ، ولتفرقوا عنه ، وقيل : عقوبة لهم ، قال قتادة : كان فرعون أمسك عن قتل الولدان ، فلما بعث موسى أعاد القتل عليهم ، وأما استحياء النساء قيل : للمهنة ، وقيل : قتلوا الأبناء واستحيوا النساء ليصدهم بذلك عن إتباعه ومطاهرته ، ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ ﴾ أي : مكرهم وتدبيرهم في استبقاء ملكه ، وانقطاع القوم وتوهمين أمره ﴿ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ قيل : في هلاك ، وقيل : في ذهاب عن الصواب .

اعتبار وتفكر ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من عاد وثمود وغيرهم ، حيث أهلكوا بسبب كفرهم ، وتكذيبهم رسلهم ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ الحصون والقصور والعمد ، وما يوصف بالشدة من الآثار ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أي : أهلكهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ معجلا ، حتى إن هؤلاء الحاضرين من الكفار يشاهدون تلك الآثار فحذرهم الله تعالى من مثل ذلك بهذا القول ، وبين بقوله : ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [أنه لما نزل العذاب بهم عند أخذه تعالى لم يجدوا من] ^(١) يقيهم العذاب ، أي : يدفعه عنهم .

ثم قال : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي : ذلك الهلاك بسبب

ولما أحس فرعون بزوال ملكه على يده هم بقتله ، فقال لملائته ﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه﴾ الذي يزعم أنه أرسله لينصرته عليّ ، ويمنعه مني ، وهذا إن قاله اعتقادا فهو جهل عظيم ، حيث لم يعلم أنه تعالى قادر على ما يشاء ، وإن قاله عنادا حفظا على مملكته ، فهو شديد الجراءة على ربه ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ يعني يغير دينكم الذي أنتم عليه من عبادة فرعون والأصنام ، إلى عبادة الله ، وظهور الفساد قيل : أراد يظهر دينه ، ويعمل بعبادة الله عن قتادة ، وقيل : يظهر الحرب بين الفريقين ، فيحارب موسى عن آمن ، فتحرب البلاد ، وتضطرب العباد ، وقيل : أراد بالأرض أرض مصر عن أبي مسلم ، وقيل : أراد جنس الأرض فلما بلغ موسى ذلك ﴿قال إني عدت﴾ أي : اعتصمت ﴿بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ لأن الإيمان بيوم الحساب يمنع عن فعل القبيح ، والمتكبر : الذي ينكر البعث لا يبالى ما يفعل .

الأحكام

تدل الآيات على زجر عظيم ، ووجوب التفكير في الأمم الماضية ، وكيف أخذوا لما كفروا ، وفيه تسلية النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تكذيبهم إياه ، ووعيد لقومه . وتدل على أن رؤساء الباطل مجوّهون ، فلا ينبغي للعاقل أن يستقل بالتقليد ، ويجب أن ينظر ليعلم الحق فيتبعه . وتدل على وجوب الاستعاذة بالله عند المهمات .

ويدل قوله : ﴿ذروني﴾ أنه كان في قومه من ينهأه من قتله خوفا على فرعون أن يهلك على يد موسى عن أبي علي وتدل استعاذة موسى أن التكبر فعل العبد ليس بخلق الله ؛ إذ لو كان خلقا لكان يجب أن يستعبد منه .

(١) ما بين القوسين من الرازي حيث أن اللفظ قريب من الموجود ، ولما لم نجد ما هو المبين ذكرنا ذلك من الرازي ، وجعلناه بين قوسي الزيادة . وانظر الرازي ٥٣/٢٧ .

كفرهم برسلمهم التي أتتهم بالمعجزات الواضحة ، الدالة على صدقهم ﴿ فَكْفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ ﴾ لا يعجزه شيء ﴿ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ للعصاة ، فليحذر من مثل عاقبتهم ، فإن عقابه على حسب قوته ، وختم الكلام ﴿ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ مبالغة في التحذير والتخويف ، والله أعلم .

ثم أعلم [أنه تعالى] لما سلى رسوله ﷺ بذكر الكفار ، الذين كذبوا الأنبياء قبله ، وبمشاهدة آثارهم ، سلاه أيضا بذكر قصة موسى عليه السلام ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ هي المعجزات المصدقة كالعصا واليد وغيرهما ﴿ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي : حجة ظاهرة ، وهي الآيات ، عطفه تأكيدا ، ويجوز أن يريد بالآيات ما عدا العصا واليد البيضاء ، والسلطان المبين : إحداهما على ما سيأتي إن شاء الله تعالى ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ وزير فرعون ﴿ وَقَارُونَ ﴾ ابن عم موسى ﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ حين جاءهم موسى عليه السلام بتلك المعجزات الباهرة ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ ﴾ أي : النبوة ﴿ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ يعني الذكور من أولادهم ، وهذا غير القتل المتقدم ، الذي أمرت به الكهنة خيفة المولود الذي يهلك مملكته ﴿ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ أي : استبقوا بناتهم حياة للخدمة والنكاح ، كان فرعون قد كف عن قتل الولدان ، فلما ظهر موسى أعاده عليهم ليصدهم بذلك عن إتياعه ، وليربهم أن موسى ليس بالمولود الذي كانوا يتوقعونه ، وأنه بعد متوقع ، فذلك كيده الذي أضله الله ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أي : في ضياع لم ينفعهم قتل الولدان ، ونفذ قضاء الله بإظهار ما خافوه ، فما أغنى عنهم هذا القتل الثاني الذي أعاده غيظا وحنقا وظنا منه أن ذلك يصدهم عن مظاهرة موسى ، وما علم أن كيده ضائع في الكرتين جميعا .

ثم حكى الله تعالى من قبائح أولئك الكفار مع موسى عليه السلام فقال : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ كان إذا هم بقتله كفوه ، وقالوا : ليس بالذي نخافه ، وهو أقل من ذلك ، وما هو إلا بعض السحرة فلا يقاومه إلا مثله ، وإن قتلته قال الناس : عجزت

عن معارضته بالحجة ، والظاهر أن فرعون قد استيقن أنه نبي ، لكن كان خبياً ، وكان سفاكا للدماء في أهون شيء ، لكن خاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك .

وأما قوله : ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ أي : يستعين به علياً ، وإنما ذكره على سبيل الاستهزاء ، يعني : إن أقتله فليقل لربه حتى يخلصه مني ، وفيه شهادة صدق أنه ملئ خوفاً منه ، ومن دعوته ، وكان قوله : ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾ تمويهاً عليهم ، وإيهاماً أنهم الذين يكفونه ، وما هو إلا لفرع منه .

وأما قوله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ وكانوا يعبدون الأصنام .

قال في التحريد : يريد عبادتهم فرعون ، وعبادتهم الأصنام ، وكانوا يعبدونهما بدليل ﴿ وَيَذْرُوكِ آلِهَتَكَ ﴾ ^(١) .

﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ أي : أرض مصر ، والمقصود منه بيان السبب الموجب لقتله ، وهو أن وجوده يوجب إما فساد الدين ، أو فساد الدنيا بما يظهر بسببه من الفتن والحروب ، الذي يذهب معها الأمن ، وتعطب المزارع والمكاسب والمعاش ، ويهلك الناس قتلاً ، ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم ، لا جرم بدأ فرعون بذكر الدين ، فقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا ، فقال : ﴿ وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن فرعون هذا الكلام حكى بعده ما ذكره موسى عليه السلام ، فحكى عنه سبحانه أنه قال : ﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ لقومه بني إسرائيل ليقتدوا به في الاستعانة : ﴿ إِنِّي عُذْتُ ﴾ أي : اعتصمت ﴿ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ عم فرعون وغيره من كل ظالم .

واعلم أن هذا الكلمات التي ذكرها موسى عليه السلام اشتملت على فوائد الأولى : أن لفظة ﴿ إِنِّي ﴾ تدل على التأكيد ، فهذا يدل على أن الطريق المؤكد المعتر في

(١) وانظر الكشف ١٦١/٤ .

دفع الشرور والآفات عن النفس — الاعتماد على الله ، والتوكل على عصمة الله تعالى .

الفائدة الثانية : أنه قال : ﴿إني عذت بري وربكم﴾ وكما أن عند القراءة يقول المسلم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شيطان الجن ، فكذلك توجه الآفات من شياطين الإنس ، إذا قال المسلم : أعوذ بالله ، فالله يصونه من كل الآفات والمخافات .

الفائدة الثالثة : قوله : ﴿بري﴾ والمعنى : كأن العبد يقول : إن الله سبحانه هو السدي رباني ، وإلى درجات الخير رقائي ، وأعطاني نعماً لا حد لها ولا حصر لها ، فلما كان المربي ليس إلا الله — وجب أن لا يرجع العاقل في دفع كل الآفات إلا إلى حفظ الله تعالى

الفائدة الرابعة : أن قوله : ﴿وربكم﴾ فيه بعث لقوم موسى عليه السلام على أن يقتلوا به في الاستعانة بالله عز وجل (١) .

ثم اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام أنه ما زاد في دفع مكر آل فرعون وشره على الاستعانة بالله ، بين أنه تعالى قبض إنساناً أجنبياً عن موسى عليه السلام حتى ذب عنه على أحسن الوجوه ، وبالع في تسكين تلك الفتنة ، واجتهد في إزالة ذلك الشر ، فقال تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ﴾ اسمه سمعان ، أو حبيب ، وقيل : حزقيل ، أو خربيل ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ (٢) كان قبطياً ابن عم لفرعون آمن بموسى

(١) هذه الفوائد مذكورة بلفظها في الرازي ، وزيادة فوائد لم ترد هنا . انظر الرازي ٥٥/٢٧ ، ٥٦ .

(٢) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) :

القراءة

قرأ عاصم قراءة العامة (بالتناد) بالتخفيف من النداء ، من قوله ﴿يوم ينادي المنادي﴾ وينادي بعضهم بعضاً . وقرأ الحسن كذلك ، إلا أنه أثبت الياء على الأصل .

وقرأ ابن عباس والضحاك بتشديد الدال ، وهو تفاعل من نَدَّ البعير إذا شرد ، يقال : ندَّ البعير يند ، والمعنى : يسوم الفرار والحرب ، وذلك إذا عاينوا العذاب هربوا في الأرض وندوا كما تند الإبل إذا شردت على أربابها ،

قال الضحاك : وذلك إذا سمعوا زفير النار ندوا هربا فلا يأتون قطرا من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفا فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه ، وذلك نحو قوله : ﴿ إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ وقوله : ﴿ والملك على أرجائها ﴾ .

اللغة : الإسراف : مجاوزة الحد في العصيان . والظهور : الغلبة ، ومنه ﴿ فأصبحوا على عدوهم ظاهرين ﴾ . والبأس : الشدة ، ومنه البؤس ، شدة الفقر ، ورحل بؤس شديد ، وعذاب بؤس ، وبؤس يبؤس بأسا إذا اشتد ، وبأس يبأس فهو بئس ، إذا افتقر .

والدأب : العادة ، دأب يدأب دأبا ، فهو دائب في عمله إذا استمر فيه .

والتادي : التداعي ، ونادى بعضهم بعضا .

الإعصايب : اليوم : نصب على الظرف ، وظاهرين نصب على الحال ، وقيل : تم الكلام عند قوله : ﴿ لكم الملك اليوم ﴾ ثم ابتدأ ﴿ ظاهرين ﴾ .

المعنى : ثم بين تعالى مقام مؤمن آل فرعون ، واعظا لقومه فقال سبحانه : ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾ قيل : استشار فرعون في قتله ، فأشاروا بقتله ، فقام هو وأشار بالكف عنه ، وخوفهم قتله ، وقيل : كان يكتم إيمانه فلما جد الأمر لم يملك نفسه ، فقام بالأمر المعروف ، واختلفوا في نسبه فقيل : كان من قوم فرعون قبطيا عن الحسن ، وقيل : ابن عم فرعون عن السدي ومقاتل ، وقيل : كان آمن بموسى وكتم إيمانه خوفا من فرعون ، وهو الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ، وقيل : كان إسرائيليا ، وتقديره : وقال رجل مؤمن يكتم آل فرعون إيمانه ، قال أبو مسلم : هذا خطأ ، لا يقال كتمت حديثي من فلان ، وإنما يقال : كتمت فلانا ، ولا يقال : من آل فرعون من كان على دينه ، لأن حقيقته أن يقع على ذي القرابة — كقوله : ﴿ آل لوطا ﴾ — والأصحاب المحاربين الموافقين في الدين ، كقولهم : آل فرعون . ثم يحتاج هذا التأويل إلى تقديم وتأخير .

واختلفوا في اسمه فأكثر أهل العلم على أنه حرييل عن ابن عباس وغيره ، وقيل : حريال عن وهب ، وقيل : حيسول عن ابن إسحاق ، وقيل : حبيب ، والأول أصح ﴿ أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ﴾ أي : لأجل أنه يقول في ذلك ، وتوحيد الله تقتلونه ، وهذا استفهام ، والمراد الإنكار ، معنى من قال : هذا لا يستحق القتل ، لاسيما وقد جاءكم بالبينات من ربكم أي بالدلالة والمعجزات الدالة على صدقه فلا تقتلوه ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه لا يضركم ذلك ﴿ وإن يك صادقا ﴾ فيما يوعدكم به ﴿ يصيبكم بعض الذي يعدكم ﴾ من العذاب ، قيل : ذكر البعض وأراد الكل على طريق المظاهرات في الحجاج ، قال الشاعر :

قد يدرك الثأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

فذكر البعض وأراد الكل ، وقيل : يصيبكم بعض الذي يعدكم لأنه يكفي ذلك لكم ، وقيل : بعضه في الدنيا ، وقيل : كان يتوعدهم أمورا مختلفة لكونهم على أصناف من المعاصي ، وقيل : ذكر البعض لأنه اللفظ كلام

يتكلم به في مجالس الملوك ﴿إن الله لا يهدي﴾ قيل : إلى الجنة ، وقيل : إلى خير ، واختلفوا قيل : هو من كلام المؤمن ، وقيل : بل من كلامه تعالى بعد تمام كلام المؤمن ، عن أبي علي .
﴿من هو مسرف﴾ قيل : مجاوز للحد في العصيان ، وقيل : مشرك ، وقيل : قتال عن السدي ، كذاب على الله تعالى .

﴿يا قوم لك الملك اليوم ظاهرين﴾ غالبين على بني إسرائيل في الأرض ، قيل : أرض مصر ﴿فمن ينصرنا من بأس الله﴾ من عذابه ﴿إن جاءنا﴾ قيل : راعى حرمتهم ، وحفظ الأدب ، فقال : ﴿لكم الملك﴾ ثم قال في العذاب : ﴿إن جاءنا﴾ أضاف الملك إليهم ، والعذاب إلى نفسه ، وهذا من الطف الكلام ؛ فقال فرعون في جوابه : ﴿ما أريكم إلا ما أرى﴾ أي : ما أريكم من النصيحة إلا ما أرى ذلك بنفسي ، وقيل : ما أعلمكم إلا ما أعلم عن الضحاك ، كقوله : ﴿بما أراك الله﴾ وقيل : ما أريكم من قبل موسى الصواب ، أي : الثواب الذي أريكم في قتله ، فيه الخلاص عن موسى ﴿وما أهديك﴾ أدلكم ﴿إلا سبيل الرشاد﴾ فأفهم أنه يدهم على طريق خير .

﴿وقال الذي آمن﴾ قيل : هو مؤمن آل فرعون ، لأنه نسق الكلام عن أكثر المفسرين ، وهو الصنخ ، وقيل : بل هو موسى لأن الأول كان يكتف إيمانه عن أبي علي ، وليس بالظاهر ؛ لأنه يجوز أن يذكر على وجه النصيحة ، كقوله : ﴿أتقتلون رجلا﴾ ويجوز أنه أظهر الإيمان بعد ما كان يكتفه ﴿إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب﴾ قيل : لما رأى إصرار فرعون وقوه حذرهم أن يتزل بهم ما يتزل بالأمم ، والأحزاب : الجماعات ، وأراد الأمم التي أهلكوا ، وقيل : حذرهم عذاب الآخرة . واليوم يطلق على البلاء . والخنة ، كأنه قيل : يوم إهلاكهم ﴿مثل﴾ دار ﴿قوم نوح وعاد وثمود﴾ قيل : مثل عادتهم ، وقيل : مثل عادة الله فيهم ﴿والذين من بعدهم﴾ ممن أهلكوا بالعذاب ﴿وما الله يريد ظلما للعباد﴾ قيل : معناه لو قتلتموه ظلمتموه ، والله لا يريد الظلم ، بل يريد العدل والنصفة ، وقيل : لا يريد أن يظلمهم ، وإنما أهلكوا بذنوبهم .
﴿ويسا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد﴾ يعني : التنادي ، وهو أن ينادي بعضهم بعضا ، وقيل : يوم ينادي بعض الظالمين بعضا بالويل والثبور ، فيقول : يا ويلنا ، ونحوه ، وقيل : يوم ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار ﴿أن قد وجدنا﴾ الآية ، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة ﴿أن أفيضوا علينا من الماء﴾ عن الحسن ، وقاتدة ، وابن زيد ، وقيل : يوم ندعو كل أناس بإمامهم ، وقيل : ينادي الملائكة بعقاب العصاة أن خذوهم ، وهو يتولون مدبرين ، وقيل : ينادي المؤمن ﴿هاؤم اقرأوا كتابي﴾ وقيل : ينادى باللعنة على الظالمين ، وقيل : ينادون إلى المحشر ، أي : يدعون عن أبي مسلم ، وقيل : ينادى عليهم بالشقاوة ، وقيل : الجميع مناد ﴿يوم تولون مدبرين﴾ أي : ينصرفون غير معجزين ، عن مجاهد ﴿مالك من الله من عاصم﴾ حافظ يحفظ من عذاب الله ﴿ومن يضل الله فما له من هاد﴾ قيل : من يهلك فلا هادي له إلى طريق نجاته

سرا ، وقال الحسن : كان مؤمنا قبل مجيء موسى ، وكذلك امرأة فرعون ، قال مقاتل : كتم إيمانه من فرعون مائة سنة ، وقال قوم كان إسرائيليا ، والتقدير : يكتم إيمانه من آل فرعون ، وهو الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ^(١) .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : في هذا تعلق وتأخير ، والمعنى فيه : رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون ، ويمكن أن يكون من آل فرعون .

﴿ أَتَقُولُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ أي : لأن يقول هذا القول ، أي : لأجل أن يقول : ربي الله ، وهو ربكم لا ربه وحده ، والاستفهام على سبيل الإنكار ، وذلك لأنه ما زاد على أن قال : ربي الله ، ثم قال : ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي : المعجزات ، الدالة على صدقه ، وأراد بذلك الاستدراج لهم إلى الاعتراف ، وأن ذلك لا يوجب القتل البتة .

ثم ذكر ذلك المؤمن حجة ثانية مذكورة على طريقة التقسيم فقال : ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ﴾ أي : لا يعود ضرر كذبه إلا عليه ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ ﴾ من العقاب ، إنما قال : ﴿ بَعْضُ ﴾ — وهو نبي صادق لا بد أن يصح كلما يعدهم به — لأنه احتاج إلى ملاصقتهم ^(٢) بهضم موسى بعض حقه في ظاهر الكلام ، أو لئلا يتوهم من جهته المناصحة في القول ، فيكون أقرب إلى التسليم ، ومن هذا قوله : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ بل يخذله ، ويهلكه ، ولم يستقم له أمر ، ولو كان مسرفا كذابا لما هداه الله للنبوة ، وقواه بالمعجزات ، والمسرف : المكثّر من المعصية .

الأحكام : تدل الآيات على جواز كتمان الإيمان عند الخوف ، وتدل على جواز الإظهار مع الخوف على النفس إذا كان فيه إعزاز الدين ، وتدل على أن القتل يعظم بدرجة المقتول ، وتدل على وجوب النصيحة بطريقة الاستظهار ، وتدل على أنه لا يريد الظلم ، وإذا لم يرد ولم يخلقه فيبطل قول المجرة في المخلوق .

- (١) وقد ضعف هذا القول بأنه يقال : كتمته كذا ، فهو متعد بغير حرف الجر ، ولا يقال : كتمت من فلان كذا .
- (٢) يقال : ألصقه على كذا ، أي : أداره على الشيء الذي يريده ، ويقال : ألصته على الشيء ألصه ، مثل راودته عليه ، وداورته ، والإلاصة مثل العلاصة إدارتك الإنسان على الشيء تطلبه منه . انظر لسان العرب ٤١١/٣ .

وقال الماوردي في معنى ﴿بعض الذي يعدكم﴾ قولان . أحدهما : أنه وعدهم النجاة إن آمنوا ، والهلاك إن كفروا ، فدخل ذكر البعض ؛ لأنهم على أحد الحالين . والثاني : أنه وعدهم على كفرهم الهلاك في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، فصار هلاكهم في الدنيا بعض الوعد .

وقال أبو عبيدة ^(١) : بعض هنا بمعنى كل ، كما جاء أكثر بمعنى كل ، وقُلَّ بمعنى النفي وحاصل الكلام أن المقصود من ذلك التقسيم بيان أنه لا حاجة إلى قتله بل يكفيكم أن تعرضوا عنه ، وأن تمنعوه عن إظهار دينه .

ثم اعلم أن مؤمن آل فرعون لما أقام أنواع الدلائل على أنه لا يجوز الإقدام على قتل موسى — خوَّفَهُمْ في ذلك بعذاب الله فقال : ﴿يَأْقُومُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ﴾ أي : عالين ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر ، قاهرين لبني إسرائيل ، فلا تفسدوا أمركم بالتعرض لعذاب الله ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا﴾ أي : يمنعنا ﴿مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾ وعذابه ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ فإنه لا قبل لكم به ، وقال : ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا﴾ و ﴿جَاءَنَا﴾ ليريهم أنه منهم في المذهب ، وليعلموا أن الذي ينصحهم هو مشارك لهم فيه .

ولما قال ذلك المؤمن هذا الكلام ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ﴾ أي : ما أشير عليكم برأي ﴿إِلَّا مَا أَرَى﴾ أي : إلا بما أرى من قتله ، أي : لا أستصوب إلا قتله ، وما جئتم به غير صواب ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي : طريق الصلاح ، وقد كذب ، فإنه ما يرى قتله خوفا من معاجلة العذاب ، ولكن كان يتجلد لهم .

واعلم أنه تعالى حكى عن هذا المؤمن أنواعا من الكلام ذكرها لفرعون ، فالأول : ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَأْقُومُ إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَخْرَابِ﴾ مثل أيام الذين تحزبوا ، أي : تجمعوا على رسلهم ، لكنه استغنى بالواحد عن الجمع ؛ لأنه لما فسره بقوله

(١) قال أبو عبيدة : ورود لفظ البعض بمعنى الكل حائز ، واحتج بقول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضبها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

والجمهور على أن هذا القول خطأ ، قالوا : وأراد لبيد ببعض النفوس نفسه . والله أعلم

: ﴿مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ علم أن كل حزب كان له يوم دمار ممن هو على صفتهم ، والمعنى : مثل جزاء دأهم ، والدأب : العادة ، ودأب هؤلاء دأبهم في كفرهم وتكذيبهم وسائر معاصيهم ، وكون ذلك دأبا دائما ، والحاصل : أنه خوفهم بهلاك معجل ، ثم خوفهم أيضا بهلاك الآخرة .

والنوع الثاني من كلمات ذلك المؤمن ، قوله تعالى : ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ يعني أن هلاكهم كان عدلا من الله بسبب أعمالهم ، ونفي إرادة الظلم أبلغ من نفي الظلم قال في التجريد : يحتمل لا يريد أن يظلمهم ، ويحتمل أن يريد لا يظلم بعضهم بعضا ، والأولى جملة عليهما معا^(١) .

النوع الثالث من كلمات ذلك المؤمن ، وتخويفه لهم عذاب الآخرة ، قوله : ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ أي : عذاب يوم التناد ، وإذا كان كذلك كان انتصاب يوم انتصاب المفعول به ، لا انتصاب الظرف ؛ لأن إعرابه إعراب المضاف المحذوف ، وقيل : على الظرفية ، وفي تسمية ذلك اليوم بهذا الاسم وجوه ، قيل : لأنه يكثر النداء ، ينادى بالسعادة والشقاوة ، وينادى فيدعى كل أناس بإمامهم^(٢) .

وفي تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى ﴿التناد﴾ هو النداء ، والنداء : هو الصياح والعيول ، والدعاء وغير ذلك من القول . اهـ
وفي البرهان : عن الضحاك بن مزاحم ، قال : تنزل الملائكة من السموات فتحيط

(١) وتدل هذه الآية على أنه تعالى لا يريد ظلم أحد من العباد ، فلو خلق الكفر فيهم — كما يقول بعض الجهلة بالله سبحانه وتعالى — ثم عذبهم على ذلك الكفر لكان ظلما ، وإذا ثبت أنه لا يريد الظلم البتة ثبت أنه غير خالق لأفعال العباد ، لأنه لو خلقها لأرادها .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنْسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ وقيل : إن أهل النار ينادون أهل الجنة ، وأهل الجنة ينادون أهل النار ، وقيل : إنه ينادي بعض الظالمين بعضا بالويل والثبور ، وقيل : ينادون إلى المحشر ، وقيل : ينادي المؤمن ﴿هاؤم اقرأوا كتابيه﴾ والكافر ﴿يا ليتني لم أوت كتابيه﴾ ، وقيل : ينادي باللعنة على الظالمين .

بأقطار الأرض ، ويجاء بجهنم ، فإذا رأوها هالتهم ، فندوا في الأرض كما تند الإبل ، فلا يتوجهون قطرا من أقطار الأرض إلا رأوا الملائكة ، فيرجعون من حيث جاؤا ، فذلك قوله : ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا ﴾ الآية ، وذلك قوله : ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾ إلى قوله : ﴿ وجئ يومئذ بجهنم ﴾ وذلك قوله : ﴿ يوم تشقق السماء بالغمام ﴾ .

وقرئ شاذا بتشديد الدال ، من نَدَّ إذا هرب على وجهه ، ويدل عليها قوله : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ مَذْبِرِينَ ﴾ قال الضحاك : إذا سمعوا زفير جهنم هربوا ، وقال غيره : يؤمرهم إلى النار فيفرون منها .

ثم أكد التهديد فقال : ﴿ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي : من مجير ومانع من عذابه ، ثم نبه على قوة ضلالتهم ، وشدة جهالتهم فقال : ﴿ وَمَنْ يَضِلْ اللَّهُ ﴾ يضلّه فيحكم عليه بالضلال والخذلان ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ قادر على هدايته ؛ لأنه لا يقبل الهدى . واعلم أن مؤمن آل فرعون لما قال : ﴿ وَمَنْ يَضِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ذكر لهذا مثالا فقال : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ (١)

(١) قال الخوازمي في تفسيره (التهذيب) :

القراءة — قرأ ابن عامر ، وأبو عمرو ، وقتيبة عن الكسائي (قلب) منونا (متكبر) صفة القلب ، قلب بغير تنوين على الإضافة ، أضاف القلب إلى المتكبر ، ويؤيد هذه الأقوال ما روي عن ابن مسعود (على قلب كل متكبر جبار) .

السلفة : السرف : مجاوزة الحد ، وهو ضد القصد ، والسرف : الجهل ، والسرف الانجفال ، يقال : أسرف فهر مسرف . والارتباب : الشك ، وأصله الريب . والمقت : اشد البغض .

الإعراب : ﴿ مقتا ﴾ نصب على التمييز .

المعنى : ثم زاد في الوعظ فقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ ﴾ يعني يوسف بن يعقوب ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : من قبل موسى ، وقيل : من قبل المؤمنين ، وقيل : يجوز أن يكون فيهم من عُمر حتى لقي موسى ، وكان لقي يوسف ، وقيل : أتى آباءكم .

وقيل : كان فرعون موسى هو فرعون يوسف ، عُمر إلى زمن موسى عن وهب ، وقيل : هو غيره ، عن أكثر أهل العلم ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالحجج والمعجزات ، قيل : شق القميص ، ورؤيا الملك والقميص ، وصلاح بَصَر

أي : جاء آباؤهم ، ورضوا بفعلهم ، أو شأهؤهم فيه ، وهو يوسف بن يعقوب أقام فيهم اثنتي عشرة سنة ^(١) ، وقيل : إن فرعون موسى ، هو فرعون يوسف ، عُمر إلى زمانه أربعمائة سنة ، وقيل : هو فرعون آخر ، وملوك مصر يقال لهم : الفراعنة ، والمقصود من الكل واحد ، وهو أن يوسف جاء قومه بالبينات ، أي : المعجزات ، وقوله : ﴿ من قبل ﴾ أي : من قبل موسى ، والمعنى : أن يوسف عليه السلام جاء قومه بالمعجزات الباهرة ، فأصروا على الشك والشبهة ، ولم ينتفعوا بتلك الدلائل .

ثم ذكر أنهم بقوا في نبوته شاكين ولم ينتفعوا بتلك البينات ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ ﴾ أي : مات وقبض ﴿ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ حكما من عند أنفسكم بغير

يعقوب ، وإخباره أهل السجن بما فعل بهما ، وبما يحمل إليهم ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ أي : بما دعاكم إليه من الدين ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ إلى دينه بل يهمل الله الخلق عن الدعاء ، وقيل : كانوا لا يقرون به ، فلما ملك قالوا : كان يوسف رسولا ومات ، والله لا يبعث بعده رسولا آخر ، وقيل : قالوا تخلصنا منه ولا يأتينا بعده رسول ﴿ كَذَلِكَ ﴾ الكاف للسبية ، فتقتضي أمرا تقدم من فعله حتى يشبه الآخر به ، فقيل في ذلك : أنهم لما كذبوا الرسل خذلهم الله فضلوا ، وتنادوا في الارتياب ، كما نقول : هكذا يكون خذلان الله للكافرين حتى يزدادوا ضلالا إلى ضلالهم عن أبي مسلم ، وإنما يفعل ذلك لأن في معلومه أنه ليس لهم لطف ، ولو كان لفعل بهم ، فقيل : كذلك يعاقب كل كافر ، ويضله عن طريق الجنة عن أبي علي ، وقد تقدم ذكر العقاب في قوله : ﴿ يوم الأحزاب ﴾ و ﴿ يوم التناد ﴾

وفي قوله : ﴿ يَهْزِلُ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ قيل كافر ، أصله مجاوزة الحد في العصيان ﴿ مُرْتَابٌ ﴾ يشك في دينه ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي : يخاصمون في حججه ﴿ بَغْيٌ سُلْطَانٌ أَتَاهُمْ ﴾ أي : بغير حجة أتتهم في ذلك من الله ﴿ كِبَرٌ مَقْتًا ﴾ أي : ذلك الجدال كبير : عظيم ﴿ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعني أنه يبغض تعالى ذلك الفعل بغضا شديدا ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ ﴾ عن عبادة الله ﴿ حَبَّارٍ ﴾ قيل : قتال ، وقيل : المتحجر الذي يأنف من قبول الحق والخضوع لله تعالى .

الأحكام : تدل الآيات على قبح الجدال بالباطل ، وحسنه في الدين ، وتدل على أنه تعالى يبغض الجدال بالباطل ، فينبطل قول المخيرة : إنه يحبه ويريده ، وتدل على أنه تعالى جعل في قلب الكافر سمة وعلامة ، ولا يقال : إنه يمنع من الإيمان لأنه معجزة الخير (إنه لا يؤمن) ولأنه قادر على الإيمان ، ولأنه جعل الطبع عقوبة على الكفر دل أنه غير الكفر .

(١) في الرازي ٢٧/٦٢ : ثيفا وعشرين سنة ، وفي الكشاف ٤/٦٦٦ : عشرين سنة .

دليل وتقدمة ، عزم على تكذيب الرسل ، بناء على حكمكم الباطل الذي أسستموه ، وليس قولهم هذا تصديقا ليوسف ، كيف وقد شكوا فيه وكفروا ، وإنما هو كفر برسالة من يأتي من بعده مع الكفر به .

ثم قال : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ السَّلَّةُ ﴾ أي : مثل هذا الخذلان يخذل الله ﴿ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ ﴾ في المعاصي ﴿ مُرْتَابٌ ﴾ شاك في دينه .

وهذا الآية أيضا مما تبطل قول المجبرة ؛ لأنه تعالى بين كفرهم ، ثم بين أنما أضلهم ، أي : سبهم بالضلال ، وحكم عليهم به ، لكونهم مسرفين مرتابين ، فثبت أن العبد ما لم يضل عن الدين ، فإنه تعالى لا يضلّه ، كما زعمت المجبرة .

ثم أخبر سبحانه ما لأجله بقوا في ذلك الشك والإسراف فقال : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ ﴾ أي : يخاضمون ﴿ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي : معجزات أنبيائه ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ أي : بغير دليل يتيح لهم الجدل ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي : عظم ذلك الجدل ، أو الإسراف مقتا ، وفي ﴿ كَبُرَ ﴾ ونحوه مبالغة ، كما في ساء وبئس ، والمقت : أشد البغض كما تقدم ، وفيه معنى التعجب والاستعظام لجداهم ، وذمه تعالى بأنهم يجادلون بغير سلطان دلالة على أن الجدل بالحجة حسن وحق . وفيه إبطال التقليد^(١) .

ثم أخبر تعالى أن هذا المقت كما حصل عند الله ، فكذلك قد حصل عند المؤمنين . ثم قال سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : مثل ذلك الطبع والخذلان ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ ﴾ أي : يخذل ويختتم ﴿ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ أي : ظالم يفعل ما يريد من الظلم ، ولا ينظر في عاقبته ، وقرأ ابن عامر ، وأبو عمرو ، وقتيبة عن الكسائي ﴿ قَلْبٍ ﴾ فنونا ﴿ مُتَكَبِّرٍ ﴾ صفة للقلب ، والباقون : بغير تنوين ، على إضافة القلب إلى المتكبر ، أما الذين قرأوا بالتنوين ، فقالوا : إن الكبير قد أضيف إلى القلب في قوله : ﴿ إِنْ فِي

(١) قال القاضي : مقت الله إياهم يدل على أن فعلهم ليس بخلق الله ؛ لأن كونه فاعلا للفعل ومقتا له محال .

صدورهم إلا كبر ﴿١﴾ وقال تعالى : ﴿فإنه آثم قلبه﴾ وأيضا يمكن أن يكون ذلك على حذف المضاف ، أي : على ذي قلب متكرر ، قالوا : ومن أضاف فلا بد له من تقدير حذف ، والتقدير : يطيع الله على كل قلب كل متكرر .

واعلم أنه تعالى لما وصف فرعون بكونه متكبرا جبارا ، أخبر سبحانه أنه بلغ في التيه والحماقة إلى أن قصد الصعود إلى السموات ، فقال عز وجل : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾^(١) أي : قصرا مرتفعا ظاهرا للناظرين وإن بعد ، من صرح بالشيء إذا

(١) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) :

القراءة

قرأ حفص عن عاصم (فاطلع) بفتح العين على جواب (لعلي) وهو قراءة حميد الأعرج ، وأنشد الفراء لبعض العرب :

عل صروف الدهر أو دولاها يزلسن اللمة من لاقها

فتستريح النفس من زفراقها

بنصب الخاء على جواب التمني . وقرأ الباقر بالرفع عطفا على قوله : ﴿أبلغ﴾ .

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي (وصد) بضم الصاد على أن فرعون صرف بغير صرفه نفسه أو غيره . الباقر (صد) بفتح الصاد على أنه منع الناس عن الإيمان .

فأما (يدخلون) بضم الياء وفتح الخاء ، وفتح الياء ، وضم الخاء ، قرأتان ، وقد تقدم ذكرهما .

اللفظة : الصرح : البناء الظاهر الذي لا يخفى على عين الناظر وإن بعد ، وهو من التصريح بالأمر ، وهو ظاهر بأتم إظهار ، والسبب : كلما تتوصل به إلى الشيء الذي يبعد عنك ، وجمعه أسباب ، يقال للطريق سبب ، والحبل سبب ، والفرق بين السبب والعلة أن السبب يوجب الذوات ، كالضرب يوجب الألم ، والكون يوجب التأليف .

والعلة توجب الصفات كالحركة توجب كونه متحركا ، وغير ذلك مما قيل فيه .

والإطلاع : هو الظهور على الشيء برؤيته من إشراف إلى انحدار ، وقيل : الإطلاع والبلوغ بمعنى ، ومنه الطليعة . وصد : أعرض ، وصد غيره : صرفه واقع وغير واقع ، يقال : صده يصده صدا ، وأصدده يصده اصدادا من النظائر .

والتباب : الهلاك بالانقطاع ، ومنه : تباهم ، وقوله : ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ أي : خسر ، من النظائر بانقطاع الرجاء ، وأصله من الانقطاع ، يقال : تب الحاكم الحكم أي : قطعه ، وطلقها بته ، أي : قاطعة ، وبت الحبل أنقطع .

أظهره ، والصرح : البناء الظاهر العظيم ، الذي لا يخفى من البعد ﴿لَعَلِّي أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ﴾ أي : الطرق ﴿أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ أي : طرقها ، وكلما أوصل إلى غيره ، فهو سبب وطريق إليه ، كالرشا إلى البئر ، أهم الأسباب أولا ، ثم أوضحها تفخيما ،

المعنى : ثم بين تعالى ما موه به فرعون عند الانقطاع عن الحجة ، فقال سبحانه : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْهَمَانُ﴾ قيل : هو وزيره ، وصاحب أمره ، ﴿ابْنِي لِي صِرْحًا﴾ قيل : قصرًا عاليًا ، وأمره بالصرح لا يخلو من وجهين ، أحدهما ، يكون تمويهًا على العوام ، وليس أنه يتمكن من صعود السموات فيه إلى إله موسى ، وثانيهما : أن يكون من جهله اعتقد أنه يقدر على بلوغ السماء ، وفيه على كل حال أنواع من الجهل . منها : أن أحدا من البشر لا يقدر على بلوغ السماء ، ويصعد ، والثاني : توهمه أن الإله يكون في السماء . والثالث : إيهامه العوام أنه كان يحوه ، وإلا فلا يخفى عليه حاله . قال الحسن : إنما قال ذلك تمويهًا وكذبًا ، وهو يعلم أنه له إله ﴿لَعَلِّي أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ قيل : منازل السموات عن ابن عباس ، وقيل : طرقها عن السدي ، وقيل : أبوابها عن قتادة ﴿فَأَطْلَعَ إِلَى إِلَه مُوسَى﴾ أي : أنظر إليه فأراه ، وقيل : لأصعد إليه ، والإطلاع الصعود عن أبي علي ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ يعني أظن موسى يكذب فيما يقوله أن له إلهًا غيري أرسله إلينا ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي : هكذا ﴿زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءِ عَمَلِهِ﴾ قيل : زين له نفسه سوء عمله ، فأراه حسنا ، وقيل : زينه قومه وأشباعه ؛ لأنهم يصورون للخلق الباطل بصورة الحق ، وقيل : شياطين الإنس والجن ، ولا يقال : الله زينسه له ؛ لأنه لو زين له لما ذمه عليه ﴿وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي : منع عن طريق الحق ، ومنع هو غيره على معنى القراءتين ، ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ أي : مكره وحيله وتدابيره ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي : في خسران عن ابن عباس ومجاهد وقاتدة ، وقيل : في ضلال ، وقيل : في هلاك ، يعني : وباله عاد إليه .

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ يعني مؤمن آل فرعون عن الحسن وجماعة ، وقيل : هو موسى عن أبي علي ﴿يَأْقُومُ أَتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ طريق الحق ، وقيل : طريق الثواب ﴿يَأْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أي : يتمتع به كل أحد مدة ثم ينقطع ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ قيل : استقرت الجنة بأهلها ، والنار بأهلها عن قتادة ، والقرار المحل الذي يستقر فيه الإنسان .

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُحْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي : من عمل معصية فإنه لا يعاقب إلا بمقدار ما يستحق عليها ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَثْنَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بزيادة فعل ، إذ لو كان بقدره لكان بحاسبه .

الأحكام : يدل أمره بالصرح أنه ظن أن إله موسى حسن في مكان ، وذلك كفر مضموم إلى كفره ، ويدل قوله ﴿أَهْدِكُمْ﴾ أن الهدى ليس هو نفس الإيمان ، وإنما هو الدلالة والبيان ، وتدل على أن علماء المسلمين هداة إلى الحق كمؤمن آل فرعون ، وتدل الآية أن كل أحد يجازى بما يستحق بعمله ، وتدل على أن فعل العبد حادث من جهته ، وتدل أن الدنيا دار زوال ، والآخرة دار قرار ، فينبغي للعاقل أن يختار ما يبقى على ما يفنى .

لبلوغ ما أمل ، كما هو حكم الإيهام والتفسير ﴿ فَأُطْلِعَ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لَأُظَنُّهُ كَاذِبًا ﴾ في دعواه إلهًا غيري ، فأما أنه في السماء فلم يقله موسى فيكذبه فيه ، وإنما ادعى فرعون أنه لو كان لموسى إله ، لكان في السماء ، ولكان جسمًا ، وليس مثل هذا بمستنكر من فرعون ، فإنه رام الصعود إلى السماء ببناء بناه^(١) .

(١) ينبغي للإنسان أن يقف عند هذه الآيات ، ليتبين أن قول من قال : إن الله في السماء ، فهو متابع لفرعون ، ومن لم يقل بذلك كان على دين موسى عليه السلام ، فإن موسى لم يزد على أن قال ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ وقال : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما ﴾ فظهر أن تعريف ذات الله بكونه في السماء دين فرعون ، وتعريفه بالخلق والوجود دين موسى عليه السلام ، فمن قال بالأول كان على دين فرعون ، ومن قال بالثاني كان على دين موسى ، أفلا يكفي هؤلاء الجهال الذين يقولون بأن الله في السماء في كمال الخزي والضلال أن جعلوا قول فرعون اللعين حجة لهم على صحة دينهم ، ومن اعتذر بأن فرعون لم يعرف ذلك إلا من جهة موسى فقد أساء الفرية ، بل لعل فرعون كان على دين المشبهة فكان يعتقد أن الإله لو كان موجودا لكان حاصلا في السماء ، فهو إنما ذكر هذا الاعتقاد من قبل نفسه لا لأجل أنه قد سمعه من موسى عليه السلام . ومثل هذا الكلام ذكر الرازي في تفسيره ٦٤/٢٧ فلينظر فقد أتى بشبه المشبهة وفندها بما يثلج الصدر ، ولم يدع لصاحب شبهة حجة ، ومن جملة كلامه ردا على من قال : بأن الفطرة تحكم بأنه في السماء ، وأن فطرة فرعون شهدت بأن الإله لو كان موجودا لكان في السماء ، قال : نحن لا ننكر أن فطرة أكثر الناس تخيل إليهم صحة ذلك لاسيما من بلغ في الحماقة إلى درجة فرعون فتبت أن هذا الكلام الذي تقول المشبهة ساقط أعاذنا الله من القول بمثله .

قال الرازي في التفسير الكبير ٦٤/٢٧ في تفسير هذه الآية : احتج الجمع الكثير من المشبهة بهذه الآية في إثبات أن الله في السموات ، وقرروا ذلك من وجوه : الأول — أن فرعون كان من المنكرين لوجود الله ، وكلما يذكره في صفات الله تعالى ، فذلك إنما يذكر لأجل أنه سمع أن موسى يصف الله بذلك ، فهو أيضا يذكره كما سمعه ، فلولا أنه سمع موسى يصف الله بأنه موجود في السماء وإلا لما طلبه في السماء .

الوجه الثاني أنه قال : ﴿ وإني لأظنه كاذبا ﴾ ولم يبين أنه كاذب في ماذا والمذكور السابق متعين لصرف الكلام إليه فكان التقدير فأطلع إلى الإله الذي يزعم موسى أنه موجود في السماء ، ثم قال : ﴿ وإني لأظنه كاذبا ﴾ أي : وإني لأظن موسى كاذبا في ادعائه أن الإله موجود في السماء .

الوجه الثالث : العلم بأنه لو وجد إله لكان موجودا في السماء علم بدیهي متقرر في كل العقول ، ولذلك فإن الصبيان إذا تضرعوا إلى الله رفعوا وجوههم وأيديهم إلى السماء ، وأن فرعون مع نهاية كفره لما طلب الإله فقد طلبه في السماء ، وهذا يدل على أن العلم بأن الإله موجود في السماء علم متقرر في عقل الصديق والزنديق ، والملحد والموحد ، والعالم والجاهل ، فهذه جملة استدلالات المشبهة بهذه الآية .

والجواب : أن هؤلاء الجهال يكفهم في كمال الخزي والضلال أن جعلوا قول فرعون اللعين حجة لهم على صحة دينهم ، وأما موسى عليه السلام فإنه لم يزد في تعريف إله العالم على ذكر صفة الخلق ، فقال في سورة طه ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ وقال في سورة الشعراء ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين رب المشرق والمغرب وما بينهما ﴾ فظهر أن تعريف ذات الله بكونه في السماء دين فرعون ، وتعريفه بالخالقية والموجدية دين موسى عليه السلام ، فمن قال بالأول كان على دين فرعون ، ومن قال بالثاني كان على دين موسى .

ثم نقول : لا نسلم أن كل ما يقوله فرعون في صفات الله تعالى فذلك قد سمعه من موسى عليه السلام بل لعله كان على دين المشبهة ، فكان يعتقد أن الإله لو كان موجودا لكان حاصلا في السماء ، فهو إنما ذكر هذا الاعتقاد من قبل نفسه ، لا لأجل أنه قد سمعه من موسى عليه السلام .

وأما قوله : ﴿ وإن لأظنه كاذبا ﴾ فنقول : لعله لما سمع موسى عليه السلام قال : ﴿ رب السموات والأرض ﴾ ظن أنه عني به أنه رب السموات ، كما يقال للواحد منا : إنه رب الدار بمعنى كونه ساكنا فيها ، فلما غلب على ظنه ذلك حكى عنه ، وهذا ليس بمستبعد ، فإن فرعون كان بلغ في الجهل والحماقة إلى حيث لا يبعد نسبة هذا الخيال إليه ، فإن استبعد الخصم نسبة هذا الخيال إليه كان ذلك لا تقايمهم ؛ لأنهم لما كانوا على دين فرعون وجب عليهم تعظيمه ، وأما قولهم : إن فطرة فرعون شهدت بأن الإله لو كان موجودا لكان في السماء ! قلنا : نحن لا ننكر أن فطرة أكثر الناس تخيل إليهم صحة ذلك لا سيما من بلغ في الحماقة إلى درجة فرعون ، فثبت أن هذا الكلام ساقط .

المسألة الثانية : اختلف الناس هل قصد بناء الصرح ليصعد منه إلى السماء أم لا ؟ أما الظاهريون من المفسرين فقد قطعوا بذلك ، وذكروا حكاية طويلة في كيفية بناء ذلك الصرح ، والذي عندي أنه بعيد ، والدليل عليه أن يقال : فرعون لا يخلو إما أن يقال : إنه كان من المجانين ، أو كان من العقلاء ؟ فإن قلنا : إنه كان المجانين لم يجز من الله تعالى إرسال الرسول إليه لأن العقل شرط في التكليف ، ولم يجز من الله أن يذكر حكاية كلام مجنون في القرآن ، وأما إن قلنا : إنه كان العقلاء فنقول : إن كل عاقل يعلم ببديهية عقله أنه يتعذر في قدرة البشر وضع بناء يكون أرفع من الجبل العالي ، ويعلم أيضا ببديهية عقله أنه لا يتفاوت البصر إلى السماء بين أن ينظر إليه من أسفل الجبال ، وبين أن ينظر إليه من أعلى الجبال ، وإذا كان هذان العلمان بدیهیین امتنع أن يقصد العاقل وضع بناء يصعد منه إلى السماء ، وإذا كان فساد هذا معلوما بالضرورة امتنع إسناده إلى فرعون .

والذي عندي في تفسير هذه الآية أن فرعون كان من الدربة ، وغرضه من ذكر هذا الكلام إيراد شبهة في نفي الصانع ، وتقريره : أنه قال : إنا لا نرى شيئا نحكم عليه بأنه إله العالم ، فلم يجز إثبات هذا الإله ، أما أنا لا نراه فلأنه لو كان موجودا لكان في السماء ، ونحن لا سبيل لنا إلى صعود السموات ، فكيف يمكننا أن نراه ، ثم إنّه لأجل المبالغة في بيانه أنه لا يمكنه صعود السموات ، قال : ﴿ يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب ﴾ والمقصود أنه لما عرف كل أحد أن هذا الطريق ممتنع كان الوصول إلى معرفة وجود الله بطريق الحس ممتنعا ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فإن استطعت أن تتبغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيتهم بآية ﴾

واعلم أنه تعالى لما حكى عن فرعون هذا القصة قال بعدها : ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي : ومثل ذلك التزيين والصد ﴿ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ أي : قبيح عمله ﴿ وَصَدُّ عَنْ السَّبِيلِ ﴾ أي : منع غيره عن طريق الحق ، ونفر وامتنع .
ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ ﴾ في إبطال أمر موسى ﴿ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ هلاك وخسران ، قال الشاعر :

أرى طول الحياة وإن تأتى تصيره الأمور إلى تباب
وكل الموسعين وإن أفادوا وغير الموسعين إلى ذهاب

والتباب : هو الهلاك ، والسعة : هي الجدة .

ثم عاد إلى حديث المؤمن فقال سبحانه : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ الرشاد : خلاف الغي ، ومعناه : الهدى ، أي : طريق الصلاح والصواب .
ثم أخذ يذم الدنيا فقال : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ أي : انتفاع يسير ، سريع الانقطاع ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ أي : المقام ، اعلم أن هذا بقية كلام الذي آمن من آل فرعون ، فقد كان يدعوهم إلى الإيمان بموسى ، والتمسك بطريقته ، واعلم أنه نادى قومه ثلاث مرات ، في المرة الأولى دعاهم إلى قبول ذلك الدين على سبيل الإجمال ، وفي المرتين الباقيتين على سبيل التفصيل .

أما الإجمال فهو قوله : ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ وليس المراد بقوله : ﴿ اتَّبِعُونِي ﴾ طريقة التقليد ؛ لأنه قال بعده : ﴿ أَهْدِكُمْ ﴾ والهدى هو الدلالة ، ومن بين الدلالة للغير يوصف بأنه هداه ، وسبيل الرشاد : هو سبيل الثواب والخير ،

وليس المراد أن محمداً ﷺ طلب نفقا في الأرض ، أو وضع سلما إلى السماء ، بل المعنى أنه لما عرف أن هذا المعنى ممتنع ، فقد عرف أنه لا سبيل له إلى تحصيل ذلك المقصود ، فكذا هنا غرض فرعون من قوله : ﴿ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا ﴾ يعني : أن الإطلاع على إله موسى لما كان لا سبيل إليه إلا بهذا الطريق وكان هذا الطريق ممتنعا ، فحينئذ يظهر منه أنه لا سبيل إلى معرفة الإله الذي يشبه موسى ، فنقول هذا ما حصلته في هذا الباب . الرازي ٢٧/٦٤ ، ٦٥ .

وما يؤدي إليه ؛ لأن الرشاد نقيض الغي ، وفيه تصريح بأن ما عليه فرعون وقومه هو "سبيل الغي" .

وأما التفصيل : فهو أنه بين حقارة الدنيا ، وكمال حال الآخرة ، وحاصل الكلام أن الآخرة باقية دائمة ، والدنيا منقرضة منقضية ، والدائم خير من المنقضي . وقال بعض العارفين : (لو كانت الدنيا ذهبا فانيا ، والآخرة حزفا باقيا لكانت الآخرة خير من الدنيا ، فكيف والدنيا حزف فان ، والآخرة ذهب باق) .

واعلم أن الآخرة كما أن النعيم فيها دائم ، فكذلك العذاب فيها دائم ، فكان الترغيب في النعيم الدائم ، والترهيب من العذاب من أقوى وجوه الترغيب والترهيب ^(١) .

ثم بيّن كيف تحصل المجازاة في الآخرة ، فقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَثْنَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ شرط في قبول العمل ﴿ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي : رزقا واسعا لا يحسب لكثرتة ، ووقع هذا في مقابلة ﴿ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ أي : جزاء السيئة لها حساب وتقدير لئلا يزيد على المستحق ، بخلاف هذا ، فإن الزائد على المستحق فضل ولا حد له .

قال في التجريد : "يحتمل أن يريد رزقا كثيرا لا يحصره حساب ، وأن يريد أن الله تعالى يتفضل بأن يجازي بالحسنة عشرا ، فواحد واجب محسوب ، وتسعة تفضل ليست بحساب"

ثم استأنف ذلك المؤمن ، ونادى في المرة الثالثة فقال : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ ﴾ أي : إلى ما ثمرته النجاة ، وهو التوحيد ﴿ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴾ أي : ما ثمرته النار ، وهو الشرك ^(٢) .

(١) في المصاييح (بأن ما عليه فرعون وقومه هو على سبيل الغي) بزيادة على ، ومثل هذا اللفظ في الرازي بدون على ، ولا معنى لزيادة على هنا ، فحذفناها .

(٢) من قوله: (اعلم أن هذا من بقية كلام الذي آمن ..) إلى هنا مثله في الرازي بلفظه انظر تفسير الرازي ٦٨/٢٧ .

(٣) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهديب) :

القراءة: قرأ أبو جعفر ، ونافع ، وحزمة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، ويعقوب (أدخلوا) بقطع الألف وكسر الخاء من الإدخال ، أي : يقال للملائكة : أدخلوهم النار . الباقون : بضم الألف والحاء عند الابتداء ، وعند الوصل بوصل الألف من الدخول ، أي : يقال لهم : أدخلوا .

اللغة: لا حرم : قيل معناه ؛ حق ووجب ، ولا رد لكلامهم ، وقيل : حرم كسب ، يقال : حرم وأحرم واحترم إذا كسب الذنب ، ومنه قوله ﴿ علي إجماعي ﴾ ويقال : حرم ولا حرم بمنزلة قولك : لا بد ، ولا محالة ، وأصل الجرم القطع ، وهذا زمن الجرام ، أي : جرام النخل ، وفوض أمره إليه : أي : رده ، ومنه شركة المفاوضة ، كأنه فوض كل واحد منهم التصرف إلى صاحبه على العموم ، ويقال : حاق به الأمر يحق إذا لزمه ووجب عليه ، وقال الأزهري : الحيق في اللغة ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله .

الإعواب: نصبت حرم لأنك نفيت ، والفاء في قوله : ﴿ فوقاه الله ﴾ جواب الشرط ، أي : لما قام بالحق وقاه الله من مكروهم . ﴿ النار ﴾ رفع لأنه بدل من سوء .

المعنى: ثم زاد في توبيخهم وعظهم فقال سبحانه حاكيا عن المؤمن : ﴿ وَيَقُولُ مَا لِيَ أُدْعَوْكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴾ أي : أدعوكم إلى الإيمان الذي هو سبب النجاة ، وتدعونني إلى الكفر الذي هو سبب النار واستحقاقها ، ثم فسره فقال : ﴿ تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ يعني لا أعلم الله شريكا ، لأن الدليل دل على أنه لا شريك له ، وأنتم تدعونني إليه ﴿ وَأَنَا أُدْعَوُكُمْ إِلَى الْغَزِيرِ الْغَفَّارِ ﴾ أي : عبادة الله ، ومعرفة توحيد ، وهو العزيز أي : القادر على ما يشاء ، الغفار لذنوب عباده ، وإنما ذكر هاتين الصفتين وعدا ووعدا ، أي : إن أنتم غفر لكم ، وإن كفرتم أخذكم .

﴿ لَأَحْرِمَ ﴾ قيل : معناه حقا مقطوعا من الجرم وهو القطع ، وقيل : هو رد لكلامهم ، كأنه قيل : لا محالة أن لهم النار ، وقيل : لا ثبات لما تدعون ﴿ أَتَمَّا تَدْعُونِي إِلَيْهِ ﴾ إلى عبادته وهو الأصنام ﴿ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ فتقديره : ليست له إجابة دعوة في الدنيا ولا في الآخرة عن السدي ، وقيل : ليس له دعوة يستفح بها ، وقيل : ليس له دعوة مستجابة ، عن قتادة ، وقيل : ليس له دعوة في الدنيا لعبادته ، لأن الأصنام لا تدعو إلى عبادتها ، ولا في الآخرة لأنها تتبرأ من عبادتها ، وقيل : معناه لا تدعى لكشف بلية ، ولا جلب منفعة ، لأنها لا تنفع ولا تضر ، ومن دعاه فقد دعاه فقد أخطأ .

قيل : لا دعوة له في الدنيا من حيث الحجة ، ولا في الآخرة من حيث الفوز ، وقيل : ليس له منفعة في الدنيا يدعى لأجلها ، ولا شفاعة في الآخرة ، وقيل : ليس له دعوة الإلهية ، وقيل : لا تقدم دعوته فلا تجب عبادته ، بل هو شيء يطرح ﴿ وَأَنْ مَرَدَّنَا ﴾ مصيرنا ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى حكمه ﴿ وَأَنْ الْمُسْرِفِينَ ﴾ قيل : بقتل النفس بغير حقها عن مجاهد ، وقيل : بالشرك عن ابن عباس ، وقتادة ، وقيل : المسرف : الجبار المتكبر عن عكرمة ﴿ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أي : الدائمون فيها ، الملازمون لها معبدون .

ثم عاد إلى الوعظ فقال : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ أي ستذكرون أيها الكفار هذه العظات ، وما قدمت من النصيح يوم القيامة ، يوم لا ينفع الذكر ، وقيل : إذا أناكم عذاب الله بالفرق ، وقيل : عند الترع تذكرون

ولما ذكر هذا المؤمن أنه يدعوهم إلى النجاة ، وهم يدعونهم إلى النار فسر ذلك فقال : ﴿ تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ أراد بنفي العلم نفي المعلوم ، تقديره : أشرك به ما ليس بآله ، فكأنه معدوم ، فكيف يصح الإشراك بالمعدوم

، وقيل : إذا لم تقبلوا نصحي فستذكرونه ، على وجه التحسر والتندم ، ﴿ وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ قيل : هو كلام موسى ، وقيل : كلام مؤمن آل فرعون ، وهو الصحيح ، ومعناه : أكل أمري إلى الله ، وأعتمد على لطفه ورحمته ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ أي : عالم بخالهم ، يجازي كل أحد بما يستحقه ، فهو على هذا وعيد ، وقيل : يعلم أي محق فيما أدعي ، فهو على هذا استفهام ، على أن ما يقوله حق ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا ﴾ أي : منعه الله عن سوء ما دبوا في طلبه ، وحفظه منهم ، وقيل : هو ما يقتله عن الحسن ، والضمير في قوله : ﴿ فَوَقَاهُ ﴾ قيل : يعود على موسى عن أبي علي ، وقيل : على مؤمن آل فرعون عن أكثر المفسرين ، وقيل : نجا هو مع موسى ، وكان قبطيا عن قتادة ، ولم ينج من قوم فرعون غيره ، وقيل : هو ما يأخذه وصلبه فهرب إلى جبل ، فبعث فرعون رجلين في طلبه ، فوجده قائما يصلي ، وحوله الوحوش صفوف فخافا ورجعا هارين ، وقيل : مكربهم ما تقدم ذكره عن قوم فرعون ، وهو قوله : ﴿ اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ ﴾ قيل : حاق نزل ووقع ، وقيل : وجب . آله : أتباعه ، وقيل : من كان على دينه عن الحسن ، وذكر آله ولم يذكره ، لأنهم أهلكوا بسببه ، فكيف به ﴿ سَوْءَ الْعَذَابِ ﴾ في الدنيا العرق ، وفي الآخرة النار ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ وقيل : تعرض عليهم منازلهم من النار صباحا ومساء ، ويقال لهم : هذه منازلكم تويخا ، فيتحسرون ، ويقال : عرض النار كناية عن العذاب ، أي : يعذبون صباحا ومساء إلى يوم القيامة ، ثم يدخلون نار جهنم ، وهذا هو الوجه ، وقيل : قوله : ﴿ غَدُوا وَعَشِيًّا ﴾ عبارة عن اللوام وهو الوجه ، وقيل : يجوز أن يخصوا بالعذاب في هذين الوقتين ، وقيل : لما هلكوا جعلت أرواحهم في جوف طير سود ، تعرض على النار غدوا وعشيا ، عن السدي ، وهذا لا يصح ؛ لأن الروح جماد لا يعذب ، وإنما العذاب المكلف هو الشخص فلا بد أن يعيد الله حياتهم ، ثم يعذبون . ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ﴾ أي : يقال : أدخلوا ﴿ آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ قيل : كانوا ستمائة ألف عن مقاتل ﴿ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ عذاب جهنم .

الأحكام : تدل الآيات على أن التوحيد والإيمان سبب النجاة ، والكفر سبب الهلاك ، وتدل على أن الواجب على الناصح إذا خولف أن يفوض أمره إلى الله ، وتدل أن القوم هموا بذلك الناصح ، وأن الله وقاه شرهم ، وتدل على عذاب القبر عن محمد بن كعب ، وعكرمة ، وتدل أن عذاب الدنيا أخف من عذاب الآخرة .

(١) ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ واسع المغفرة لأوليائه ، القاهر المنتقم من أعدائه .
 ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ لا جرم : بمعنى حقا .
 بَسَطَ فِي (المقاليد) (والكشفاف) سياقه (في أن تجعل ﴿لا﴾ ردا لما دعاه إليه قومه^(٢)
 و ﴿جرم﴾ فعل بمعنى حق ، و ﴿أن﴾ وما في حيزها فاعله^(٣) ، أي : حق ووجب
 بطلان دعوته ، أو بمعنى كسب من قوله تعالى : ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن
 صدوكم﴾^(٤) الآية أي : كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته^(٥) على معنى : أنه
 ما حصل من ذلك إلا [ظهور] بطلان دعوته .

(١) قال السيد العلوي رحمه الله : قوله : "والمراد بنفي العلم بنفي المعلوم" أي : هو من باب نفي الشيء لنفي
 لازمه على سبيل الكناية ، وعن بعضهم : نفي العلم عن الخاص بناء على الدليل الواضح الشامل للكل يكون
 نفيا للعلم عن الكل .

(٢) قال السيد العلوي رحمه الله : قوله "أن تجعل لا ردا لما دعاه إليه قومه" قال الزجاج في سورة هود : قال
 المفسرون المعنى حقا إنهم في الآخرة هم الأخسرون ، وزعم سيبويه أن جرم بمعنى حق ، قال :
 ولقد طعنت أبا عينة طعنة جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا

أي حقت فزارة بالفضب ، ومعنى لا : نفي لما ظنوا ، أي : لا ينفعهم ، كأن المعنى : ﴿لا﴾ ينفعهم ذلك
 ﴿جرم﴾ في الآخرة هم الأخسرون ، أي كسب ذلك بالفعل لهم الخسران ، وعن بعضهم لا ههنا كلاً في لا
 أقسم ، في أنه رد لكلام سابق

(٣) قال السيد العلوي رحمه الله : قوله "وأن مع ما في حيزه فاعله، أي حق ووجب بطلان دعوته" المعنى أن ما بمعنى
 الذي ، أي ما في إنما ، والتقدير : حق وثبت أن الذي تدعونني إليه ليس له دعوة ، ولما كان أن مع ما بعده في تأويل
 مصدر خبر أن ، ولم يكن لخبر أن هنا مصدر قدر ما هو في معناه ، فإن معنى قولك : ليس له دعوة قريب من معنى
 بطل دعوته ، ولما كان معناه قريباً من ذلك رجع تلخيص المعنى إلى حق ووجب بطلان دعوته .

(٤) المائدة : ٢ .

(٥) قال السيد العلوي رحمه الله : قوله : "أي : كسب ذلك الدعاء" يعني يكون فاعل جرم ضمير يرجع إلى
 الدعاء الذي دل عليه قوله : ﴿تدعونني إليه﴾ ويكون قوله : ﴿أنما تدعونني إليه﴾ إلى آخره مفعولاً لجرم على
 الوجه المذكور .

ويجوز أن يكون لا جرم نظير لا بد^(١) ، فعل من الجرم ، وهو القطع ، كما أن بُدَا فعل من التبديد وهو التفريق ، فكما أن معنى لا بد لك أن تفعل كذا ، بمعنى لا بد لك من فعله ، فكذلك ﴿ لا جرم أن لهم النار ﴾^(٢) أي : لا قطع لذلك ، بمعنى : أنهم أبدا يستحقون النار لا انقطاع في استحقاقهم النار ، ولا قطع لبطلان دعوة الأصنام ، أي : لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك ، فينقلب حقا^(٣) .

﴿ ليس له دعوة ﴾ إلى نفسه قط ، ومن حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته ، ثم يدعو العباد إليها إظهارا لدعوة ربه^(٤) . وما تدعون إليه ، أي : إلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك ، ولا يدعي الربوبية ، ولو كان حيوانا ناطقا لضج من دعائكم ، أو معناه : ليس له استجابة دعوة لأحد ﴿ في الدنيا ولا في الآخرة ﴾ في الدنيا لأنه حماد ، وفي الآخرة إذا أنشأه الله حيوانا تبرأ من الدعاء إليه ومن عبده ، وقيل : ليس له استجابة دعوة تنفع في الدنيا ولا في الآخرة ، وقيل : ليس له شفاعة ، أي : لا يدعو إلى الله .

ثم قال : ﴿ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾ أي : مرجعنا إلى جزائه في الآخرة ، فبين أن هذه الأصنام لا فائدة فيها البتة ، ومع ذلك فإن مردنا إلى الله العالم بكل المعلومات ، القادر على كل شيء ، الذي لا يبدل القول لديه ، وما هو بظلام للعبيد ، فأَيُّ عاقل

(١) قال السيد العلوي رحمه الله : قوله " ويجوز أن يكون لا جرم " عطف من حيث المعنى على قوله ، أن تجعل لا ردا لما ادعاه عليه قومه ، وجرم فعل ، وعلى هذا الوجه تكون جرم اسم لا ، وقد بني معها على الفتح ، وهما في محل الرفع

(٢) وقال السيد أيضا : وقوله " فكذلك لا جرم " لما بين المصنف معنى لا جرم على الوجه الأخير أشار إلى أنه كذلك في موضع آخر ، وهو قوله تعالى : ﴿ لا جرم أن لهم النار ﴾ ثم قال : ولا قطع لبطلان دعوة الأصنام — لتفسير قوله : ﴿ لا جرم أن ما تدعونني إليه ﴾ .

(٣) الكشف ١٦٩/٤

(٤) قال السيد العلوي رحمه الله : قوله : " ثم يدعو العباد إليها " يعني دل التشكير في دعوة ، وهي نكرة في سياق السنفي على نفي الدعوة عن الأصنام ، وذلك أن من حق المعبود بالحق أن يدعو عباده المكرمين إلى طاعته ، ثم أولئك العباد يدعون غيرهم إلى عبادته ، إظهارا لدعوة ربه ، وليس كذلك الأصنام .

يُجَوِّزُ لَهُ عَقْلَهُ أَنْ يَشْتَغَلَ بِعِبَادَةِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ الْبَاطِلَةِ ، وَإِنْ يُعْرِضَ عَنْ عِبَادَةِ الْإِلَهِ ،
الَّذِي لَا بَدَ وَأَنْ يَكُونَ مُرَدَّهُ إِلَيْهِ ﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ يعني بالمُسْرِفِينَ
المُشْرِكِينَ^(١) ، أَوِ السَّفَاكِينَ لِلدَّمَاءِ بِغَيْرِ حِلِّهَا ، أَوِ الَّذِينَ غَلَبَ شَرُّهُمْ خَيْرَهُمْ .

ولما بلغ مؤمن آل فرعون في هذه البيانات الغاية — ختم كلامه بخاتمة لطيفة ، فقال
﴿ فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ من النصيحة إذا عاينت العذاب ، ثم قال : ﴿ وَأُفَوِّضُ
أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي : أُلْقِي أَمْرِي وَنَفْسِي إِلَى اللَّهِ ، أي : أَسْنِدُهُ إِلَيْهِ ، وَأَتَوَكَّلُ فِي
جَمِيعِ الْأَحْوَالِ عَلَيْهِ ، وَهَذَا كَلَامٌ مِنْ هُدًى بِأَمْرِ يَخَافُهُ ، فَكَأَنَّهُمْ خَوْفُهُ بِالْقَتْلِ ، وَهُوَ
أَيْضًا خَوْفُهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ ثم عول في دفع تخويفهم
وكيدهم ومكرهم على فضل الله ، فقال : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ وهو إِنَّمَا تَعَلَّمَ
هَذَا الطَّرِيقَةَ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَإِنْ فَرَعُونَ لَمَّا خَوْفُهُ بِالْقَتْلِ رَجَعَ مُوسَى فِي دَفْعِ
ذَلِكَ الشَّرِّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى حَيْثُ قَالَ : ﴿ إِنِّي عِذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ
بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾^(٢) ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴾ أي : خَبِيرٌ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ
الْجَزَاءِ ، فَيَجَازِي كَلَّا بِفَعْلِهِ ، قَالَ ذَلِكَ لَمَّا تَوَعَّدُوهُ . قِيلَ : وَهَاهُنَا آخِرُ كَلَامِ مُؤْمِنِ
آلِ فَرَعُونَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكَّرُوا ﴾ وَالْمَكْرُ : هُوَ الْحِيلَةُ الْبَاطِلَةُ ، وَالْمَعْنَى :
شَدَائِدُ مَكْرِهِمْ ، وَمَا هُمَا بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ ، وَقِيلَ : نَجَا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
وَقَالَ مُقَاتِلٌ : لَمَّا ذَكَرَ هَذَا الْكَلِمَاتِ قَصَدُوا قَتْلَهُ ، فَهَرَبَ مِنْهُمْ إِلَى الْجَبَلِ فَطَلَّبُوهُ ،
فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكَّرُوا ﴾ أَنَّهُمْ قَصَدُوا
إِدْخَالَهِ فِي الْكُفْرِ وَصَرْفِهِ عَنِ الْإِسْلَامِ ، فَوَقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ ، إِلَّا أَنْ الْأَوَّلَ أَوَّلَى ؛
لَأَنَّ قَوْلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فَرَعُونَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ لَا يَلِيقُ إِلَّا بِالْوَجْهِ الْأَوَّلِ ،
وَمَعْنَى ﴿ حَاقَ ﴾ أي : أَحَاطَ بِهِمْ ﴿ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ يعني : أَشَدُّهُ وَأَفْظَعُهُ ، قِيلَ :

(١) هَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ . وَقَوْلُهُ : أَوِ السَّفَاكِينَ . هُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ .

(٢) غَافِرٌ : ٢٧ .

هو الغرق ، والظاهر أنه النار ، لقوله : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي : يحرقون بها ، عَرَضَ الأسارى على السيف إذا قتلوا به ، والنار : بدل من سوء العذاب ، كأن قائلًا قال : ما سوء العذاب ؟ فقيل : ﴿ النار يعرضون عليها ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف ، أو مبتدأ خبره ﴿ يعرضون عليها ﴾ وفي هذا الوجه تعظيم النار ﴿ غُدُّوا ﴾ أول النهار ﴿ وَعَشِيًّا ﴾ آخر النهار ، والله أعلم بحالهم في ما بين ذلك ، أو هو عبارة عن دوام عذابهم ، وفيه دليل على عذاب القبر .

وفي التجريد : روى الواحدى وغيره عن ابن مسعود أنه قال : "أرواح آل فرعون في أجواف طير سود يعرضون على النار كل يوم مرتين ، يقال : هذه داركم" .
وقال عطاء وقتادة والسدي ، والكلبي : "تعرض أيضا روح كل كافر على النار غدوا وعشيا ما دامت الدنيا" .

وعن النبي ﷺ (أن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن النار ، يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة) رواه البخاري ومسلم . اهـ

قلت : ويشهد بصحة هذا الحديث كثير من كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام ، من ذلك قوله عليه السلام في كتابه إلى محمد بن أبي بكر رحمه الله ، وأهل مصر كما رواه

(١) قال السيد العلوي رحمه الله : قوله : "وفي هذا الوجه تعظيم للنار" قال صاحب التقریب : من حيث الاستئناف ، وأنا أقول لا شك أن هذا إشارة إلى الأقرب ، وهو ثالث الوجوه ، والظاهر أنه لا استئناف فيه ، بل الاستئناف في الثاني ، وأنا أظن أن التعظيم استفيد من تعريف المبتدأ مع تقديمه ، والإخبار عنه بالفعل المصاحب ، لدلالة ذلك على استمرار العرض ودوامه ، مع تقوي الحكم ، كما في قولهم : الخطيب يشرّب ويطرب ، وأيضا فرما علم من النظم أن مقتضى المقام يقتضى أن يقال : وحق بآل فرعون سوء العذاب ، يعرضون على النار ، ويكون يعرضون حالا ، فلما عدل عن هذا إلى قوله : ﴿ النار يعرضون عليها ﴾ كان ذلك عدولا عما يدل على التجدد إلى ما يدل على الثبات ، ولهذا كانت القراءة بالنصب عاضدة لهذا الوجه ؛ لأن يدخلون حال ، وكذا يعرضون ، وأيضا فعلى قراءة النصب هذا الكلام منقطع عما قبله ، كما في هذا الوجه بخلافه فيما قبله .

عنه العلامة ابن أبي الحديد ، ورواه أيضا في كتابه (كتاب الاعتبار وسلوة العارفين) الإمام الموفق بالله أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل الشجري الجرجاني عليه السلام حيث قال فيه ما لفظه : "وليس أحد من الناس يفارق روحه جسده حتى يعلم أيّ المزلتين يصير ، إلى الجنة أم إلى النار ، أعدو الله سبحانه أو ولي له ، فإن كان وليا لله سبحانه فتحت له أبواب الجنة ، فنظر إلى ما أعد الله له فيها ، فاشتغل بها" وكل ذلك يكون عند الموت .

وفي رواية ابن أبي الحديد عنه عليه السلام : "وإن كان عدو الله فتحت له أبواب النار ، وسهل له طريقها ، ونظر إلى ما أعد الله لأهلها ، واستقبل كل مكروه ، وفارق كل سرور ، قال تعالى : ﴿ خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾" (١) . اهـ

[كلام الأئمة عليهم السلام في الأرواح وبقائها بعد فناء الأجسام]

وقد تقدم من رواية زيد بن علي عن آبائه عن علي عليه السلام مرفوعا إلى النبي ﷺ نحو هذا ، وقد تضمن هذا المعنى كثير من كلام أئمتنا عليهم السلام .
ومن ذلك قول القاسم بن إبراهيم عليهما السلام حيث قال : "وسألت عن الأرواح بعد مفارقتها الأبدان ، أحية أم ميتة ؟ فقال عليه السلام : أرواح المؤمنين إذا فارقت أبدانها في نعيم وكرامة ، وأرواح الظالمين إذا فارقت أبدانها في خزي وندامة ، حتى ترد الأرواح إلى أبدانها في يوم البعث والقيامة ، فإذا جاء ذلك فهو التخليد والدوام ، الذي ليس له فناء ولا زوال ، ولا له عن أهله مراح ولا انتقال" .

وقال سبطه الهادي إلى الحق عليه السلام : "وسألت كيف يميت الله البدن ، ولا يميت الروح ؟ قال عليه السلام : فإن ذلك بحكمة الله وفضله ، وما أراد من الزيادة في كرامة المؤمنين ، وأراد من الزيادة في عذاب الفاسقين ، فجعل الأرواح حية باقية إلى يوم الدين ، لتكون روح المؤمن بعد فناء بدنه في البشارات والسرور والنعيم والحبور ، بما

يسمع من تبشير الملائكة له بالرضاء والرضوان ، من الواحد ذي الجلال والسلطان ، وبما أعد له من الخير العظيم ، والثواب الجسيم ، كل ذلك يتناهى إليه علمه ، ويصل به من ربه فهمه ، فيكون ذلك زيادة في ثوابه ، ومبتدأ ما يريد الله من إكرامه ، حتى يكون يوم القيامة المذكور ، ثم ينفخ في الصور النفخة الأولى فيقع بهذا الروح من الموت ما يقع بغيره في ذلك اليوم ، فيموت ويفنى كما فني البدن أولاً ، وكذلك تدبير الله وفعله في إبقاء روح الكافر بعد هلاك بدنه ، لما في بقاء روحه عليه من الحسرة والبلاء ، بما يعاين ويوقن ، ويبلغه من إخبار الملائكة وذكرها بما أعد الله له من الجحيم ، والأغلال والسعير ، وشرب الحميم ، وما إليه يصير غداً من العذاب الأليم ، فروحه في خزي وبلاء ، وحسرات تدوم ولا تفنى ، وحلول العويل به والشقاء ، فيكون ذلك زيادة في بلائه وعذابه ، ومقدمة لما أراد الله من إجزائه ، حتى ينفخ في الصور ، فيحق بهذا الروح ما حق بغيره من الموت ، ويواقعه ما واقع جسمه من الفوت ، ثم ينفخ النفخة الثانية ، من بعد موت كل شيء ، وهلاك كل حي ، ما خلا الواحد الأحد الفرد الصمد [الميت] الذي لا يموت ، المحيي الذي لا يخشى من شيء فوتاً ، ولو كانت الأرواح تموت مع موت الأبدان لكان في ذلك فرج وراحة للكفار وغفلة وفرحة للأشرار ، ولكان ذلك غما وكتابة على المؤمنين ، ونقصاناً وتضععاً لسرور الصالحين ، فافهم ثاقب حكمة الله وتقديره ، وصنعه في ذلك وتدبيره ، وما جعل في تأخير موت الأرواح من الكرامة للمؤمنين ، والمهوان على الفاسقين ، فإنك إن فكرت بخالص لبك ، واستعملت ما جعل من مركب فكرك ، صحت لك آثار الحكمة [في ذلك] وبان لك أن الأمر من الله سبحانه كذلك^(١). اهـ

وللمرتضى عليه السلام في هذا المعنى كلام حسن سيأتي إن شاء الله في آخر سورة الأنفال

(١) انظر مجموع الإمام الهادي ، المجموعة الفاخرة ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

ثم قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي: هذا في الدنيا، فإذا قامت الساعة قيل لخزنة النار: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ وهاهنا آخر الكلام في قصة مؤمن آل فرعون

واعلم أن الكلام في تلك القصة لما انجر إلى شرح أحوال النار لا جرم ذكر الله عقيبتها قصة المناظرات التي تجري بين الرؤساء والأتباع [من أهل النار] فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَسْتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ أي: واذكر يا محمد لقومك ﴿إِذْ يَتَحَاجُّونَ﴾ أي: يحتاج بعضهم بعضا فيختصمون، ثم شرح خصومتهم حيث قال تعالى: ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: الرؤساء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: تابعين لكم في الدنيا فما تأمرونا ﴿فَهَلْ أَلْتُمْتُمُ مَغْنُونَ﴾ أي: دافعون ﴿عَنَّا نَصِيًّا مِنَ النَّارِ﴾ أي: بعضا من عذاها ﴿قَالَ﴾ الرؤساء ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾^(١) وقرئ (كُلًّا) بدلا من

(١) قال المحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب): القراءة — قرأ أبو جعفر وابن كثير وابن عامر ويعقوب ﴿تَنْفَعُ﴾ بالتاء لتأنيث المعذرة، وقرأ الباقر بالباء، كأنه أراد الاعتذار. قراءة العامة ﴿إِنَّا كُلٌّ﴾ بالضم رفع كل لأنه خبر إن، وقرأ ابن السميع: كلا بالفتح جعلها تأكيداً.

اللفظة: التبع: يصلح أن يكون مصدراً، يقال: تبع تبعاً، ويجوز أن يكون جمعا، واحده تابع، نحو خادم وخدم، وقيل: هو واحد وجمعه أتباع. والجزنة: جمع جازن، نحو ظالم وظلمة، والأشهاد: جمع، واحده: شهيد، كسويد وأسود، وقيل: جمع شاهد، كصاحب وأصحاب، وهو الذي يشهد بالحق لأهله، وعلى المبطل بطلانه.

المعنى: ثم بين تعالى ما يجري بين أهل النار فقال سبحانه ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ أي: يتخاصمون ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ يعني الرؤساء والمتبوعين الذين تكبروا، وأنفوا عن قبول الحق ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: تابعين لكم في الدنيا، مطيعين فيما تأمرونا به ﴿فَهَلْ أَلْتُمْتُمُ مَغْنُونَ﴾ أي: تكفون عنا، من الغناء الذي هو الكفاية، ﴿نَصِيًّا﴾ أي: قدرا من العذاب، وإنما قالوا على وجه السباحة والاستراحة، وإلا فهم يعلمون أنه لا يكون. وقيل: قالوه حسرة وغما وتهجينا لرؤسائهم، فأجابوهم ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي: نحن وأنتم فيها سواء، فلو أمكننا أن نكفيكم لكفينا أنفسنا، فلا منجى لأحد ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ فأنزل بكل أحد ما يستحقه، وهو العدل فيما يقضي، فإذا سمعوا ذلك أقبلوا على الخزنة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ خُزْنَةُ جَهَنَّمَ﴾ وهم الملائكة ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: كونوا شفعاء لنا عند الله ﴿يَخْفِضُ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ وقد علموا أنه لا يكون، وإنما

اسم إن^(١) أي كلا منا ومنكم في النار .

واعلم أن أولئك الأتباع يعلمون أن أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف ، وإنما مقصودهم من هذا الكلام المبالغة في تخجيل أولئك الرؤساء ، وإيلاء قلوبهم ؛

قالوا تحسرا من شدة العذاب ، فتحبيهم الحزنة ، وقيل : لا يحييهم ، إلا بعد ألف سنة ، ثم يقولون ﴿ أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ﴾ بالحجج على التوحيد ، والعدل ، ومكنتم من قبولها فلم تقبلوا ، وهذا استفهام والمراد به التقرير ﴿ قالوا فادعوا ﴾ قيل : يقولون : الشفاعة فيكم غير مقبولة فادعوا أنتم فادعوا ودعواؤكم واحد في أنه يخاب ، وقيل : قالوها استخفافا بهم ، وقيل : معناه فادعوا بالويل والثبور ، فالدعاء فيكم غير مجاب ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ أي : هلاك لأنه يزيدهم بأسا وقنوطا ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴾ قيل : ننصرهم بوجوه النصر ، فمنها النصر بالحجة ، ومنها النصر بالغلبة في الحروب ، ومنها النصر بالألطف ، والتأييد ، وتقوية الغلبة ، ومنها النصر بالإهلاك للعدو ، وتعذيبهم ، ومنها النصر بإلقاء الرعب في قلوب الأعداء ، كما قال ﴿ نصرت بالرعب ﴾ قيل : أراد بالرسول جميع الأنبياء ، لأنه وإن قتل بعضهم فكلهم منصورون ، بوجوه من النصر ، وقيل : أراد محمدا ، وقيل : أراد أنه يفلح ، فخصهم في الدنيا والآخرة عن أبي العالية ﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ قيل : الملائكة والنبيون والمؤمنون عن قتادة ، أي : يشهدون على الخلق ، واليوم يوم القيامة ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ قيل : معاذيرهم لأنها جميعها ليس بعذر ، وهو قولهم : أمرنا به وكنا تبعاً ، وقيل : لأنهم يعتذرون بالباطل ، كقولهم ﴿ ربنا ما كنا مشركين ﴾ يعني عند أنفسنا ﴿ ولهم اللعنة ﴾ أي : البعد من رحمة الله ، ومعناه : عليهم ، فأقام اللام مقام عليهم ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ شر منقلب وهو الجحيم ، واللام للاستحقاق . ومتى قيل : فما الجامع بين هذه الآية وبين قوله ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ ؟ قلنا : قوله ﴿ لا تنفعهم معذرتهم ﴾ يدل على أنهم يعتذرون ، فيحتمل أنه أراد لنو اعتذروا لما تفعلهم ، وقيل : يستروحون إلى تلك فيدعون كما يدعون بالويل والثبور ، وقيل : تمّ مقامات يعتذرون في بعض ، ويؤذن لهم في ذلك في بعض .

الأحكام : تدل الآيات على تخاصم أهل النار ، وعلى اعترافهم بذنوبهم ، وبجىء الرسل ، وإزاحة العلل ، ولو كان خلق فيهم الكفر ، ومنعهم من الإيمان لم يكن لذلك الكلام معنى ، وتدل على أنه ينصر رسله فيبطل قول الخسرة : إنه ينصر الكفار ، وتدل أن في الآخرة شهداء ، وفائدته علم الجميع ، بأنه أوصل إلى كل أحد ما يستحقه ، وفي الخبر عنه لطف لنا ، وتدل على أن الظالم من أهل النار ، وتدل على أنه لا تقبل المعاذير ، لأنها ليست بدار تكليف ، وتدل على أن الظلم فعل العبد .

(١) الرفع على أن كل مبتدأ وصح الابتداء به لما فيه من معنى العموم ، ويجوز أن يكون خبر إن على تقدير إنا مجتمعون في النار . وأما نصبه على البدلية ، فالظاهر أن نصبه على التأكيد ، كما ذكره الزمخشري ، والحاكم الجشمي ،

لأنهم هم الذين سعوا في إيقاع هؤلاء الأتباع في أنواع الضلالات ، فعند هذا يقول الرؤساء : ﴿إنا كل فيها﴾ أي : إنا كلنا واقعون في هذا العذاب ، فلو قدرت على إزالة العقاب عنك لرفعته عن نفسي ، ثم يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أي : قضى بينهم وفصل بأن أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فعند هذا يحصل اليأس للأتباع من المتبوعين ، فيرجعون إلى خزنة جهنم ، ويقولون ما حكى الله عنهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ أي : الكفار والضعفاء ﴿لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ اذْعُوا رَبِّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ أي : مقدار يوم ﴿مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا﴾ جوابا عليهم ﴿أَوْ لَمْ تَكُنْ﴾ أي : تكن ﴿تَأْتِيَكُمْ رَسُولُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي : المعجزات الشاهدة على صدقهم ، أرادوا إلزامهم الحجة وتوبيخهم ﴿قَالُوا بَلَى﴾ قد جاءتنا ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أنتم ، فإننا لا نجتري على ذلك ، وقد ضيعتم وقت الدعاء والإجابة أيام التكليف ، وليس قولهم ﴿فادعوا﴾ للرجاء ، ولكن للخيبة ، فإن الملك المقرب إذا لم يُسمعْ ، فكيف الكافر ، فلذلك قال : ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي : ضياع وعدم جدوى ، فلا يجاب ، يجوز أن يكون من كلام الله ، أو من كلام الخزنة .

واعلم أنه لما ذكر وقاية الله موسى عليه السلام وذلك المؤمن من مكر فرعون — بين سبحانه أنه ينصر رسله والذين آمنوا معه فقال عز وجل : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي : في الدنيا والآخرة .

قال الرازي في كيفية نظم الآية : والأقرب عندي أن الكلام في أول السورة إنما وقع من قوله ﴿وما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾ وامتد الكلام في الرد على أولئك المجادلين ، وعلى أن المحقين أبدا كانوا مشغولين بدفع كيد المبطلين ، وكل ذلك إنما ذكره الله تعالى تسلية للرسول ﷺ ، وتصبرا له على تحمل أذى قومه .

ولما بلغ الكلام في تقرير المطلوب إلى الغاية القصوى ، وعد تعالى رسوله بأنه ينصره على أعدائه [في الحياة الدنيا وفي الآخرة] فقال : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾

و[اعلم أن] في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ فائدة^(١) معتبرة ، وهي أن السلطان العظيم إذا خص بعض خواصه بالإكرام العظيم ، والتشريف الكامل عند حضور أهل الجمع العظيم من أهل المشرق والمغرب كان ذلك ألد وأهج ، فقوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ إلى ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ المقصود منه هذه الفائدة . اهـ

يعني أنه يغلبهم في الدارين جميعا بالحجة والظفر على مخالفيهم ، وإن غلبوا في الدنيا نادرا امتحانا ، فالعاقبة لهم ، ويتيح الله من يقتص من أعدائهم ولو بعد حين .
والأشهاد : الحفظة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وآله .
في التحرير : المراد أن الله يجعلهم الغالبين بالحجة في الدارين جميعا ، وأما الظفر على مخالفيهم فهو كائن في الآخرة لا محالة ، وأما في الدنيا فقد يكون وقد لا يكون .
وقال الواحدي وغيره : وهم أيضا منصورون بالقهر في الدنيا على من ناواهم فتارة يكون بإعلاء أمرهم ، كما أعطى داود وسليمان ومحمد صلوات الله عليهم وعلى آل محمد ، وتارة بأن ينتقم الله لهم من أعدائهم ، كما فعل بقوم نوح ، وقوم هود ، وفرعون وجنوده ، في حياة الرسل ، وتارة تكون بعد وفاة الرسل ، بأن يسلط الله على أعدائهم كتسليط بخت نصر على قتلة يحيى بن زكريا ، حتى قُتل على دمه سبعين ألفا ، فهم لا محالة منصورون في الدنيا بأحد هاتين الوجه .

والأشهاد : جمع شاهد من الحفظة وغيرهم كما مر .
ثم قال تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ كقولهم : ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾^(٢) ثم قال : ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي : البعد من رحمة الله . ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي : سوء دار الآخرة وهو عذابها .

واعلم أن المقصود أيضا من هذا شرح تعظيم أهل الثواب ، وذلك لأنه تعالى بين أنه

(١) في الرازي (دقيقة معتبرة) وما بين أقواس الزيادة منه ٧٦/٢٧ .

(٢) الأحزاب : ٦٧ .

ينصرهم في يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، فحالمهم في علو الدرجة في ذلك اليوم ما ذكرنا .

وأما حال أعدائهم فهو أنه حصلت لهم أمور ثلاثة .

أحدها : أنه لا ينفعهم شئ من المعاذير البتة .

وثانيها : أن لهم اللعنة ، وهذا يفيد الحصر ، يعني اللعنة مقصورة عليهم ، وهي الإهانة والإذلال .

وثالثها : سوء الدار ، وهو العقاب الشديد ، في [هذا اليوم] إذا كان الأعداء واقفين في هذه [المراتب الثلاثة من] الوحشة والبلية .

ثم إنه تعالى يخص الأنبياء والأولياء بأنواع التشريفات الفائقة في الجمع الأعظم ، فها هنا يظهر أن سرور المؤمنين كم يكون ! وأن غموم الكافرين إلى أين تبلغ !

فإن قيل : قوله : ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾ يدل على أنهم يذكرون الأعذار ، إلا أن تلك الأعذار لا تنفعهم ، فكيف يكون الجمع بين هذا ، وبين قوله : ﴿ولا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾^(١) ؟ قلنا : قوله : ﴿لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾ لا يدل على أنهم ذكروا الأعذار ، بل ليس فيه إلا أنه ليس عندهم عذر مقبول نافع ، وهذا القدر لا يدل على أنهم ذكروه أم لا ، وأيضا فيقال : يوم القيامة يوم طويل فيعتذرون في وقت ، ولا يعتذرون في وقت آخر .

ولما بين الله أنه ينصر الأنبياء والمؤمنين في الدنيا والآخرة ، ذكر نوعا من أنواع تلك النصرة في الدنيا فقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ هو جميع ما آتاه الله في باب الدين من المعجزات والتوراة والشرائع^(٢) .

(١) المرسلات : ٣٦ .

(٢) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) : القراءة — قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ﴿تستذكرون﴾ بالتاء على الخطاب ، الباقرن بالياء . وقرأ أبو جعفر ، وابن كثير ، ويعقوب ، وعاصم في

بعض الروايات عنه ﴿سيدخلون﴾ بضم الياء ، وفتح الحاء ، على ما لم يسم فاعله ، من الإدخال ، وقرأ الباقر بفتح الياء وضم الحاء من الدخول ، أضاف الدخول إليهم .

اللغة

الداخر : الصاغر الذليل ، دخر الرجل ، وهو داخر إذا ذل ، وأدخره غيره أذله .

الإعراب

داخرين : نصب على الحال .

التزويل

قيل : نزل قوله ﴿الذين يجادلون﴾ في اليهود ، و كانوا يجادلون في القرآن حسدا عن ابن عباس ، وقيل : كانوا يقولون : صاحبنا المسيح ، يعني الدجال يخرج في آخر الزمان ، فيبلغ سلطانه البر والبحر ، ويرد الملك إلينا ، وتسير معه الأنهار ، فأنزل الله فيهم هذه الآية .

المعنى

لما تقدم نصرة الرسل بين تفصيل ذلك ، فقال سبحانه ﴿ولقد آتينا موسى الهدى﴾ يعني : الحجج والبينات ﴿وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ أي : التوراة ﴿هدى﴾ أي : دلالة ، يعرفون بها معالم دينهم ﴿وذكرى﴾ مواظ وقيل : تذكروهم شرائع دينهم ﴿لأولي الألباب﴾ قيل : لمن يستعمل عقله ، ويتفكر ، وقيل : للعلماء ، وقيل : للعقلاء المكلفين ، ثم عاد الخطاب إلى النبي ﷺ فقال ﴿فاصبر﴾ يا محمد فإننا ننصرك ، كما نصرنا موسى ، وإن آذاك قومك ، وقيل : الخطاب للمؤمن ، كأنه قيل : اصبر أيها السامع ، وقيل : انه خطاب لموسى ، على نبيق الكلام ﴿إن وعد الله حق﴾ أي : وعده لأوليائه بالنصر في الدنيا ، والجنة في الآخرة ، وقيل : وعده بإهلاك أعدائه وإظهار دينه ﴿واستغفر لذنبك﴾ قيل : صغيرة تقدمت منك ، ولعظيم نعمه على الأنبياء كلفوا التوبة من الصغائر ، وتجب كلما ذكرها وإلا كان مصرا عن أبي علي ، وقيل : ذنبه أنه حدث نفسه أن الظفر كان يفوته ، وقيل : استعجل النصر قبل وقته ﴿وسبح بحمد ربك﴾ أي : نزهه بإضافة النعم إليه ، وحسن الثناء عليه ، ونفي التشبيه عنه ، وتزيهه عن الأفعال القبيحة ، وقيل : نزه صفاته عن صفات المحدثين ، وأفعاله عن صفات الظالمين ، وقيل : صل بحمد ربك ﴿بالعشي والإبكار﴾ من زوال الشمس إلى الليل ، ومن طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، وقيل : هي كناية عن صلاة الخمس ، وقيل : بل هو كناية عن النوم ، وقيل : خص هذين الوقتين لأن العبد أقرب إلى أن يتفرغ للعبادة ، وقيل : أراد صلاة الغداة والعصر ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله﴾ قيل : جادلوا في إنكار البعث ، وقيل : في نبوته ، وقيل : في التوحيد ، وقيل : هم اليهود ، وقيل : المشركون ﴿بغير سلطان﴾ حجة ، ﴿أناهم﴾ من جهة الله ﴿إن في صدورهم﴾ أي : ما في قلوبهم ، فكفى بالصدر عن القلب لأنه موضعه ، كما يقال : صدر الموضع الشريف ﴿إلا كبر﴾ أي : يتكبرون عن قبول الحق ، واتباع الرسل حسدا وبغيا ﴿ما هم ببالغيه﴾ قيل : في صدورهم عظمة ما هم ببالغيها لأنهم يصيرون إلى الذل والهوان ، عن مجاهد ، وقيل : في قلوبهم كبر

ثم قال: ﴿وَأَوْزَنَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بعده ﴿الْكِتَابَ﴾ وهي التوراة ، أي : تركنا لهم من بعد موسى ﴿هَذِي وَذِكْرَى﴾ أي : إرشادا وتذكرة ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي : العقول ، وهم المؤمنون العاملون بما فيه ، يجوز أن يكون المراد منه أنه تعالى لما أنزل

لخسبك على النبوة ، التي أكرمك الله بها ﴿ما هم بباليغيه﴾ لأنه تعالى يرفع به من يشاء ، وقيل : يريدون لك أمرا كبيرا من سوء ، ولا يبلغونه لدفاع الله عنك . وقيل : آمالا كانوا يتمنونها نحو هجوم عساكر تغلب على الإسلام ، وما هم بباليغيه لأنه تعالى تكفل بنصره ﴿فاستعذ بالله﴾ أي : اعتصم به ليكفيك شرهم ﴿انه هو السميع البصير﴾ لأقوال هؤلاء الذين جادلوا بالباطل ، العليم بضمايرهم ﴿خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ يعني خلق السموات والأرض أعجب وأعظم من البعث ، فإذا قدر على خلقهما وتسكينهما ، وتعاقب الليل والنهار فيهما ، وتسيير النجوم ، ونحوهما — فهو يقدر على إعادتهم ، وقيل : أراد كيف تنكرون البعث مع إقراركم أنه خلق السموات والأرض ، وهو أكبر وأعجب ﴿ولكن أكثر الناس يعلمون﴾ يعني الكفار ، وقيل : أكثر من خلق الدجال ، ولكن اليهود الذين يجادلون في أمره لا يعلمون . ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ أي : لا يستوي من أهمل نفسه فهو كالأعمى لا يبصر شيئا ، ومن يتفكر فيعرف الحق ، وكذلك لا يستوي ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء﴾ بعمل المعاصي ﴿قليلًا ما يتذكرون﴾ أي : قل تفكرهم في العواقب ﴿إن الساعة﴾ أي القيامة ﴿لآتية لا ريب فيها﴾ أي : لا شك في مجيئها ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ أي : لا يصدقون بها ﴿وقال ربكم ادعوني استجب لكم﴾ يعني : انصرفوا عن الأوثان التي لا تسمع ولا تنفع ، ولا تحجب لكم ، يعني : اعبدوني وحدي . وقيل : المراد به الذكر والدعاء ، والأول أحسن ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾ قيل : توحيدي وطاعتي ، وقيل : من دعائي عن السدي ، والأول قول أكثر المفسرين ﴿سيدخلون جهنم داخرين﴾ صاغرين أذلاء .

الأحكام

يسدل قوله ﴿الذين يجادلون﴾ على قبح الجدل بالباطل ، وأما الجدل بالحق لنصرة الدين فمحمود ، ويدل قوله ﴿خلق السموات﴾ على صحة الحجاج في الدين ، وتدل على أن المعارف مكتسبة لذلك قال ﴿ولكن أكثر الناس يعلمون﴾ وتدل على وجوب الدعاء ، والانقطاع إليه لذلك قال ﴿ادعوني﴾ وتدل على أنه يضمن الإجابة ، ومتى قيل : نحن نرى كثيرا من الأدعية لا تستجاب ؟ قلنا : إنما يستحقه لعبده المؤمن ، لأنه يجري مجرى الثواب ، ويتقدم ويتأخر بحسب المصلحة ، ولا بد في الدعاء أن يكون مشروطا بالصلاح ، ومتى قيل : إذا كان الصلاح في فعله ، لا بد أن يفعله ، فما معنى الدعاء ؟ قلنا : ربما يكون الصلاح في فعله ، إذا تقدم الدعاء ، ولولا الدعاء لما كان صلاحا ، ومتى قيل : لم وجب الدعاء حتى ذم على تركه ؟ قلنا : لأن فيه من الإخلاص والانقطاع إليه والإعتراف بأن النعم منه ، وأن الجاحد بذلك لا يرجع إليه . ومتى قلنا : إن المراد بالدعاء العبادة ، فلا كلام والإخلاص هو قول أكثر المفسرين .

التوراة على موسى بقي ذلك العلم فيهم ، وتوارثوه خلفا عن سلف ، ويجوز أن يكون المراد منه سائر الكتب التي أنزلها الله عليهم ، وهي كتب أنبياء بني إسرائيل ، [التوراة] والزبور والإنجيل ، والفرق بين الهدى والذكرى أن الهدى ما يكون دليلا على الشيء ، وليس من شرطه أن يذكر شيئا آخر كان معلوما ثم صار منسيا ، وأما الذكرى فهو الذي يكون كذلك ، فكتب أنبياء الله مشتملة على هذين القسمين ، بعضها دلائل في أنفسها ، وبعضها مذكرات لما ورد في الكتب الإلهية المتقدمة .

ولما بين أن الله تعالى ينصر رسله وينصر المؤمنين في الدنيا والآخرة خاطب بعد ذلك محمدا ﷺ فقال : ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ يا محمد على تكذيبك ، كما صبر موسى ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي : وعده بنصر رسله ، والمعنى فإن الله ناصرك ، والعاقبة لك ، كما كانت لموسى على فرعون ، وأبقى آثار هداة في بني إسرائيل ، ووعدوه قوله : ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ ثم أمره بأن يُقبل على طاعة الله ، فإن من كان لله كان الله له .

واعلم أن مجامع الطاعات محصورة في قسمين : التوبة عما لا ينبغي ، والاشتغال بما ينبغي ، أما التوبة عما لا ينبغي فهو قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ يريد الفرطات ، والطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام يتمسكون به ، ونحن نحمله على الهفوة والتأويل منهم ، أن لا يؤاخذوا به ، وقيل ^(١) : التوبة عن ترك الأولى والأفضل ، وأما الاشتغال بما ينبغي ، فهو قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي : داوم على عبادة ربك والثناء عليه ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ أي : افعل ذلك في وقتي العشي والإبكار ، يريد صلاتي العصر والفجر ، وقيل : الصلوات الخمس عن ابن عباس ، والتسبيح عبارة عن تزيه الله عما لا يليق به ، وبالجملة فالمراد منه الأمر بالمواظبة على ذكر الله ، وأن لا يفتر اللسان عنه ، وأن لا يغفل القلب عنه ، حتى يصير الإنسان بهذا السبب داخلا في زمرة الملائكة ، قال سبحانه في وصفهم : ﴿ يَسْبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا

(١) صاحب القيل : هو الفخر الرازي ٧٨/٢٧

يفترون ﴿^(١) والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ هم قريش يخاصمون في إبطال المعجزات ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي : بغير دليل ﴿أَتَاهُمْ﴾ يصحح دعواهم ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ أي : ما فيها إلا تكبر ، وهو إرادة الرئاسة ، ولا يكون فوقهم أحد ، ولذلك عادوك .

قال الرازي : اعلم أنا بينا أن الكلام في أول هذه السورة إنما ابتدئ ردا على الذين يجادلون في آيات الله ، واتصل البعض ببعض ، وامتد على الترتيب الذي لخصناه ، والنسق الذي كشفنا عنه إلى هذا الموضع .

ثم إنه تعالى نبه في هذا الآيات على الداعية التي تحمل أولئك الكفار على تلك المجادلة ، فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ إنما يحملهم على هذا العمل الباطل كِبَرٌ في صدورهم ، فذلك الكبر هو الذي يحملهم على هذا الجدل الباطل ، وذلك الكبر هو أنهم لو سلموا نبوتك لزمهم أن يكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك ؛ لأن النبوة تحتها كل ملك ورئاسة ، وفي صدورهم كبر لا يرضون أن يكونوا في خدمتك ، فهذا هو الذي يحملهم على هذه المجادلات الباطلة ، والمخاصمات الفاسدة^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿مَا هُمْ بِبَالِغِهِ﴾ أي : بواصلين إلى موجهه من الرئاسة ودفع الآيات . قال في البرهان : ﴿إِلَّا كِبَرٌ﴾ يعني تكبروا أن يؤمنوا بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله ﴿مَا هُمْ بِبَالِغِهِ﴾ أي : ببالغي ذلك الكبر ، أي : بنائلي ما أرادوا [ولا يصلون إليه ، بل لا بد وأن يصيروا تحت أمرك ونهيك]^(٣) .

ثم قال تعالى : ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي : اعتصم به ، والتجئ إليه من كيدهم وحسدهم

(١) الأنبياء : ٢٠ .

(٢) تفسير الرازي ٧٨، ٧٩/٢٧ .

(٣) انظر البرهان مخطوط ص ٣٣٨ ، وما بين أقواس الزيادة ليس في البرهان ، وموجود في المصاييح .

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم وقولك ﴿الْبَصِيرُ﴾ بعملك وعملهم ، فهو ناصرك وعاصمك ، ثم ذكر ما يستدل به على البعث فقال : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مع عظمها وكبر أجزائها ، ووقوفها بغير عمد ، وجريان الأفلاك بالكواكب من غير سبب إلى غير ذلك من العجائب والغرائب ﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ أي : أعظم من إعادة الناس ، وإنما استدل عليهم بذلك ؛ لأن مجادلتهم مشتملة على إنكار البعث ، وهو أصل المجادلة ، فحججوا بهذا ؛ لأنهم مقرون بخلق السموات والأرض ، وأنها خلق عظيم ، وخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل ، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان المهين أقدر ، فلا يعجزه البعث ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لعدم تأملهم ، وغلبة الغفلة عليهم كالأعمى .

ثم لما بين الله تعالى أن الجدال المَقْرُون بالكبر والحسد والجهل كيف يكون ، وأن الجدال المقرون بالحجة والبرهان كيف يكون — نبه تعالى على الفرق بين البابين بذكر المثال ، فضرب الأعمى والبصير مثلين للناس ، للعالم والجاهل ، فقال تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ وضرب هذا مثلاً للمحسن والمسيء ؛ لأن المسيء كالأعمى ، والمحسن كالبصير ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ أراد ولا يستوي المؤمنون والمسيئون ، فاكتفى بعطف ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ ودخلت لا على المسيء ، رائدة ، كما تدخل في المعطوف على المنفي في نحو : ما جاء زيد ولا عمرو ، والمعنى : لا يساويهم المسيء في عمله ، كما لا يستوي الأعمى والبصير ؛ لأن المسيء كالأعمى ، والمحسن كالبصير ، فالمراد من الأول التفاوت بين العالم المستدل ، والجاهل المقلد ، والمراد بالثاني التفاوت بين الآتي بالأعمال الصالحة ، وبين الآتي بالأعمال الفاسدة .

ثم قال : ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ما : زائدة ، أي : يتذكرون تذكرًا قليلاً ، أي : يستفكرون ، أو أراد بالقلة العدم ، أو أراد أنهم وإن كانوا يعلمون أن العلم خير من الجهل ، والعمل الصالح خير من العمل الفاسد ؛ إلا أنه قليلاً ما يتذكرون في النوع

المعين من الاعتقاد أنه علم أو جهل ، وفي النوع المعين من العمل أنه عمل صالح أو فاسد ، فإن الحسد يعمي قلوبهم ، فيعتقدون في الجهل والتقليد أنه محض المعرفة ، وفي الحسد والحقد والكبر أنه محض الطاعة ، فهذا هو المراد من قوله : ﴿ قليلا ما يتذكرون ﴾ .

ولما قرر الدلائل الدالة على إمكان وجود القيامة أردفه بأن أخبر عن وقوعها ، ودخولها في الوجود فقال تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي : لا ينبغي أن يكون فيها ريب ، أي : لا يشك في مجيئها ، لوضوح أدلة إتيانها ؛ لأنه لا بد من جزاء العباد ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : لا يصدقون بها .

ثم أعلم أنه تعالى لما بين أن القول بالقيامة حق وصدق ، وكان من المعلوم بالضرورة أن الإنسان لا ينتفع في يوم القيامة إلا بطاعة الله تعالى ، والتضرع إلى الله — لا جرم كان الاشتغال بالطاعة من أهم المهمات ، ولما كان أشرف أنواع الطاعات الدعاء والتضرع — لا جرم أمر الله تعالى به فقال : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أي : اعبدوني أثبتكم بدليل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أي : أذلاء صاغرين ، وفي الحديث (إذا شغل عبدي طاعتي عن الدعاء أعطيته أفضل ما أعطي السائلين) ^(١) ويجوز أن يراد بالدعاء والاستجابة (سلوني أعطكم) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ أي : عن دعائي وسؤالي ، وعنه عَلَيْهِ السَّلَام في تفسيرها : (إذا قال العبد يا رب قال تعالى : لبيك عبدي لا تدعوني بشيء إلا أجبتك على إحدى ثلاث ، إما أن أعجل لك ما سألتني ، وإما أن أدخر لك في الآخرة ما هو

(١) الحديث ذكره أيضا الزمخشري في الكشاف ، قال ابن حجر في تخرجه : قال : عبد الرزاق عن سفيان ، عن منصور ، عن مالك بن الحارث ، قال : يقول الله : إذا اشتغل عبدي بشأنه عن مسألتي أعطيته أفضل مما أعطي السائلين) وهذا مرسل ، وفي الترمذي عن أبي سعيد (من شغله قراءة القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين) وفي الرازي : (من شغله ذكرني عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين) ٨١/٢٧ . وفي الرازي : (من شغله ذكرني عن مسألتي) الخ .

أفضل ، وإما أن أدفع عنك من البلاء مثل ذلك^(١) ومعنى ﴿عن عبادي﴾ أي : عن طاعتي ، أو يريد عن دعائي ؛ لأن الدعاء باب من العبادة ، قال ابن عباس : أفضل العبادة الدعاء^(٢).

فإن قيل : كيف قال : ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ وقد يدعى كثيرا فلا يستجيب ؟ أجاب بعض العلماء^(٣) بأن قال : الدعاء إنما يصح على شرط ، ومن دعا كذلك استجيب له لا محالة ، وذلك الشرط هو أن يكون المطلوب بالدعاء مصلحة وحكمة . اهـ
واعلم أن كل من دعا إلى الله وفي قلبه ذرة من الاعتماد على ماله وجاهه وأقاربه وأصدقائه ، وجده واجتهاده ، فهو في الحقيقة ما دعا الله إلا باللسان ، فأما القلب فإنه يعول في تحصيل ذلك المطلوب على غير الله تعالى ، فهذا الإنسان ما دعا ربه ، أما إذا دعا في وقت لا يبقى في القلب التفات إلى غير الله فالظاهر أنه تحصل الاستجابة .

إذا عرفت هذا ففيه إشارة كاملة ، وهي أن انقطاع القلب الكلية عما سوى الله تعالى لا يحصل إلا عند القرب من الموت ، فإن الإنسان قاطع في ذلك الوقت بأنه لا ينفعه شيء سوى فضل الله ، فمتى حصل الانقطاع إلى الله ، واليأس عما سواه وجب أن يكون الدعاء في ذلك الوقت مقبولا عند الله ، فترجو من فضل الله وإحسانه أن يوفقنا للدعاء المقرون بالإخلاص ، والتضرع في كل الأوقات .

قلت : وللمرتضى عليه السلام في مثل هذا جواب شاف سيأتي إن شاء الله في سورة البقرة ، في قوله تعالى : ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا

(١) الحديث ذكر مطلع في موسوعة أطراف الحديث النبوي ٣٦٢/١ ، وعزاه إلى فتح الباري ٢٢٥/١١ ، و الترغيب والترهيب ٤٨/٢ ، ومجمع الزوائد ١٥٩/١٠ ، وكتر العمال رقم ٣١٣٢ ، وهو في مجمع الزوائد بلفظ قريب مختصر ، وأورد أوله في كتر العمال ، وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في الدعاء ، عن عائشة ، وكذلك أوله في الترغيب والترهيب ٤٨١/٢ ، وللحديث ألفاظ أخر متقاربة .

(٢) قال الزمخشري : وروى النعمان بن بشير عن رسول الله ﷺ : (الدعاء هو العبادة) .

(٣) — هو الكعي ، ذكره الرازي في تفسيره ٨١/٢٧ .

دعاني ﴿^(١) الآية .

واعلم أنه لما أمر بالدعاء ، وكان لابد من حصول المعرفة قبل الاشتغال بالدعاء أخبر سبحانه بالدلائل النيرة على وجوده ومعرفته وقدرته وحكمته ، فقال الله : ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ من حركات النهار المتعبة ، وتصرفاته لتستريحوا ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ هذا مجاز ؛ لأن الإبصار حقيقة لأهل النهار^(٢).

(١) البقرة : ١٨٦ ، وينظر كلام الإمام المرتضى في سورة البقرة .

(٢) وفائدته المبالغة في الإبصار الحاصل من النهار ، وذلك مستفاد من الإسناد المجازي ، لأن الملابس إذا وصف بصفة الملابس ، كان ذلك إيذاناً بكمال ذلك الوصف في الأصل ، وأنه سرى منه إليه لكثرة صدوره منه ، فإذا قيل : نهاره صائم بدل هو في النهار صائم — أفاد أنه بلغ فيه إلى زمان الليل قال الحاكم الجشومي في تفسيره (التهذيب) :

القراءة

قراءة العامة : (صوركم) ، بضم الصاد جمع صورة ، و(تبارك) تفاعل من البركة ، وهو الزيادة ، ومعناه : الحياة والبقاء

المعنى :

لما تقدم الدعاء إلى عبادته وتوحيده عقبه بذكر أدلة التوحيد ، فقال سبحانه ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ يعني أراد بخلق الليل أن يكون محلاً لسكونكم فتسكن فيه كل الحيوانات ، ويستريحون من الكد والتعب ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي : خلق النهار مضيئاً ، تبصرون فيه مصالح دنياكم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ بهذه النعم عليكم من غير استحقاق ، ولا تقدم طلب ، ومع هذا فإن أكثر الناس لا يشكرون جهلهم بالنعم والمنعم ﴿ذَلِكَ﴾ يعني من أنعم عليكم بهذه النعم ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي : لا يستحق العبادة غيره ﴿فَأَنى تَوَفَّكُونَ﴾ قيل : كيف تصرفون عن هذه الأدلة مع وضوحها ، وقيل : كيف تصرفون عن عبادته مع هذه النعم التي أنعم عليكم بها ﴿كَذَلِكَ يُؤفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْجِدُونَ﴾ قيل : كما صرف هؤلاء عن الحق ، كذلك صرف من تقدم من الكفار ، صرفهم أكابرههم ورؤساؤهم ، وقيل : كما صرف هؤلاء بشبه ، كذلك صرف من قبلهم بترهات ، كشبه النصارى واليهود ، وقيل : كما صرف هؤلاء عن طريق الحق ، كذلك يصرفون عن الثواب وطريق الجنة جزاء على إفكهم ، وقيل : يؤفك : يهلك ، أي : كذلك يهلك من كان قبلهم ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْجِدُونَ﴾ يتكبرون . ثم زاد في الأدلة فقال سبحانه ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي : مستقراً تستقرون عليه ، فخلق فيه السكون ، ولولا ذلك لهرى ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ بناها كالسقف للأرض ﴿وَصُورَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ لأن صورة الإنسان أحسن

واعلم أنه تعالى لما ذكر في الليل والنهار من المصالح والحكم البالغة قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي : له عليهم فضل لا يوازيه فضل لسعته ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أكثرهم ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ لكن تكرير لفظ الناس تخصيص لهم بكفر النعمة .

ولما أخبر الله تعالى بتلك الدلائل المذكورة على معرفة الإله القادر الرحيم الحكيم قال سبحانه : ﴿ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي : ذلكم التمييز بالأفعال الخاصة به التي لا يشاركه فيها أحد هو الله ربكم ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآئِنَّا تُؤَفَّكُونَ ﴾ أي : فكيف ومن أي جهة تصرفون وتعبدون عن عبادة الله إلى عبادة الأوثان ؟ وهو الجامع لهذه الأوصاف ، ومعناه : الاستبعاد لذلك .

ثم قال : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : مثل ذلك الإفك والصرف ﴿ يُؤَفَّكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي : يصرفون .

ولما أخبر الله تعالى عن دلائل الليل والنهار ، أتبعه بدلائل الآفاق من الأرض والسماء ، فقال سبحانه : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أي : موضع قرار لكم ،

الصور ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ فجعل كل طيب لذيق رزقا للناس ، وما ينفر عنها طباعهم رزقا للحيوانات ، كالورق والحشيش ، ونحوه ﴿ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي : خالق هذه الأشياء هو خالقكم ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ ﴾ أي : جل بأنه الثابت الدائم ، لم يزل ولا يزال ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هو الحي ﴿ إِنَّمَا تَدَّحُّ بِهِ لِأَنَّهُ الْحَيُّ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالْ مِنْ غَيْرِ حَيَاةٍ ، وَلَا فَاعِلٍ ، وَلَا مَا يَتَعَدَّى بِهِ ، وَلَا بَنِيَّةٍ ﴾ لا إله إلا هو فادعوه ﴿ أَي : اعبدوه ﴾ مخلصين له الدين ﴿ أَي : تخلصون له العبادة ﴾ الحمد لله ﴿ أَي : احمده على هذه النعم ، قال الفراء : هو خير ، وفيه إضمار ، كأنه قيل : ادعوه واحمدوه ، وقولوا ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ وعن مجاهد عن ابن عباس ﴿ من قال : لا إله إلا الله فليقل على أثره : الحمد لله رب العالمين فذلك قوله ﴾ فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴿ 》 .

الأحكام : تدل الآيات على أنه الخالق لهذه الأشياء ، و يقدر عليها غيره ، وتدل أنه خلقها لمنافع العباد بها دينا ودنيا ، أما منافع الدنيا فظاهرة ، وأما منافع الدين فمفق تفكروا فيها علموا أن لها صانعا يستحق العبادة ، فيدعوهم ذلك إلى عبادته وشكر نعمته ، ويدل قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أنه منعم على الكفار بخلاف قول أهل الجبر .

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ أي : سقفا وقبة ؛ لأن السماء في منظر العين كقبة مضروبة على الأرض ، وأبنية العرب : مضاربهم لقباهم ، والقبة : بيت من آدم ، وهذه دلالة أخرى على تميزه بما يخصه ، وهو جعلهما كذلك .

ثم ذكر تعالى دلائل الأنفس وهي قوله : ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ قيل : لم يخلق حيوانا أحسن صورة من الإنسان ، وقيل : أحسن صوركم حيث جعل ابن آدم قائما معتدلا يأكل بيده ، ويتناول بيده ، وغيره منكوس ويأكل بفيه كالبهائم عن ابن عباس .

ثم قال : ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يريد : الثمار الطيبة من مستلذات الرزق ، وللبهائم الحشائش والأتبان :

ولما ذكر الله تعالى هذا الدلائل الخمسة ، اثنين من دلائل الآفاق ، وثلاثة من دلائل الأنفس — قال : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ لا رب لكم سواه ، أي : ذلكم المختص بهذا الأفعال ﴿فَتَبَارَكَ السُّمُّ﴾ أي : تعالى وتعظم عن أن يكون له شريك ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي : مالكم فكيف يكون له شريك ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ الذي لا يموت ، ولما نبه على هاتين الصفتين من صفات الجلال نبه على الصفة الثالثة ، وهي الوحداية بقوله : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ .

ولما وصفه بهذا الصفات أمر العباد بشيئين أحدهما : بالدعاء ، والثاني : بالإخلاص فيه ، فقال : ﴿فَادْعُوهُ﴾ أي : فاعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي : الطاعة من الشرك والرياء ، قائلين : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال الفراء : تقديره : (وقولوا : الحمد لله رب العالمين) قال ابن عباس : (من قال : لا إله إلا الله ، فليقل على إثرها : الحمد لله رب العالمين)^(١) لأنه عطفه على الأمر ، وهو ﴿فَادْعُوهُ﴾ و(الحمد لله)

(١) أخرجه الطبري ، والحاكم أيضا ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، وابن مردويه من رواية الأعمش ، عن مجاهد عنه . الكشف ٤/١٧٦ .

على هذا النعم المتقدمة ، وهي نعمة الدين والدنيا ، أما نعمة الدنيا فما أشار إليه من الخلق وتحسينه ، والرزق من الطيبات ، وأما نعمة الدين فقوله : ﴿ فادعوه مخلصين له الدين ﴾ والله أعلم .

ولما بين صفات الجلال والعظمة قال : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : تعبدون من دون الله من الأوثان ﴿ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي ﴾ أي : حين جاءني الدلائل على قبح عبادتها ، كقوله : ﴿ اتَّعَبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي ﴾ مؤكدة لأدلة العقل ، وإلا فكانت كافية ، ولأن تناصر الأدلة من العقل والسمع أقوى في إبطال مذهبهم ، فأورد على المشركين ألين قول ليصرفهم عن عبادة الأوثان ، وبين أن وجه النهي في ذلك ما جاءه من البينات ^(٢) .

قال السيد العلوي رحمه الله : قوله : (من قال لا إله إلا الله فليقل على إثرها الحمد لله) وذلك أن قوله : ﴿ فادعوه مخلصين له الدين ﴾ أمر بالإخلاص ، ثم عقبه بالتحميد مرتبا على التهليل ، أراد إذا تكلمت بكلمة التوحيد فاعمل مخلصا ، لأنه من مقتضاه ، ثم احمد الله على التوفيق ، كما قال : قل الله ثم استقم . (١) الصفات : ٩٥ .

(٢) قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) :

القراءة — قراءة العامة ﴿ السلاسل ﴾ بالرفع عطفا على الأغلال . و ﴿ يسحبون ﴾ بضم الياء يعني أهل النار يسحبون ، وعين ابن عباس (السلاسل) بفتح اللام ، يسحبون بفتح الياء ، يعني هم يسحبون السلاسل ، فيكون أشد عليهم .

الأشد : حال استكمال القوة ، وهو جمع شدة ، يقال : شدة ، وأشد كنعمة وأنعم . والعلة : القطعة من الدم ، والأجل : الوقت ، والأغلال : جمع غل ، وهو طوق يدخل في العنق للإذلال والتعذيب . والسلاسل : جمع سلسلة ، وهو حلق منتظمة في جهة الطول مستمرة ، والسحب : الجر ، سحب سحباً ، والسجر : إلقاء الحطب في معظم النار .

القول : قيل : نزل قوله ﴿ قل إني نهيئت ﴾ في مشركي مكة ، لما دعوه إلى موافقتهم ، فأما قوله ﴿ إن الذين يجادلون بالباطل ﴾ عن ابن سيرين وجماعة ، ومجادلتهم بالباطل قولهم : إله الذي خلق الكفر في الكفار ، وخلق فيهم القدرة الموجبة ، وأراد منهم الكفر ، ولم يرد منهم الإيمان ، ولا خلقه ولا قدره عليهم ، فمع هذا كيف يؤمن كذب الرسل ، لأنهم دعوا إلى الإيمان وأنوا بخلاف ما هم عليه .

ولما بين أنه هُي عن عبادة غير الله ، بين أنه أمر بعبادة الله ، فقال : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ ﴾ أي : أخلص عبادتي ﴿ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ومن دلائل الأنفس قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ أي : أصلكم آدم ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ أي المني ﴿ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ﴾ أي : الدم يعود من النطفة ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ من بطون أمهاتكم ، أي :

المصني : ثم هُي عن عبادة غيره ، فقال سبحانه ﴿ قُلْ يَا مُحَمَّدُ ﴾ إني هُيت ﴿ أي : هُاني الله ، وإنما جاء بلفظ المجهول تفخيما ﴾ أن أعبد الذين تدعون من دون الله ﴿ أي : تدعونه لها ، وتعبّدونه ، وهي الأوثان ﴾ لما جاءني البينات من ربي ﴿ يعني أعطاني الجمع ﴾ وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴿ قيل : انقاد له ، وقيل : اخلص العبادة له ، وقيل : أسلم أمور كلهما إليه ، ثم دعا إلى ذكر الأدلة المتضمنة للنعم فقال سبحانه ﴾ هو الذي خلقكم من تراب ﴿ يعني آدم ، وهو أبو الجميع خلقه من تراب ، فأحال التراب لحما ، ودما وعظما وعصبا ، فصور منه شخصا سويا ﴾ ثم من نطفة ﴿ أي : خلق أولاده من نطفة ، وهو ماء الرجل والمرأة ﴾ ثم من علقه ﴿ تقتصر النطفة قطعة دم ﴾ ثم يخرجكم طفلا ﴿ أي : أطفالا ، والطفل : يراد به الواحد والجمع ، قال الله تعالى ﴾ أو الطفل الذين لم يظهروا ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ أي : حال القوة والكمال ﴾ ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ﴿ أي : يموت قبل بلوغ الأشد ، وقيل : قبل بلوغ الشيخوخة ﴾ ولتبلغوا أجلا مسمى ﴿ أي : يقيه ليبلغ وقتا محدودا لا يجاوزه ، وقيل : الأجل المسمى : هو ما سمي له من الوقت فيموت عنده ، وقيل : هو القرن الذين تقوم عليهم القيامة ، والأجل : القيامة ، عن الحسن ﴾ ولعلكم تعقلون ﴿ قيل : لتعقلوا ذلك ، وقيل : لتعلموا الآيات ، فتدلوا بها على توحيده ﴾ هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا ﴿ أي : خلق وقدر ﴾ فإنما يقول ﴿ له كن فيكون ﴾ قيل : يوجد من غير امتناع وتعذر ، والقول مثل ، وقيل : يحدث هذا القول علامة للملائكة أنه يفصل أمرا .

﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله ﴾ أي : ينازعون في حججه بالباطل ، قيل : الآيات والتوحيد والعدل ، وقيل : المعجزات الدالة على نبوته ﴿ أن يصرفون ﴾ أي : كيف ينصرفون عنها مع وضوحها ﴿ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ﴾ عاقبة أمرهم ، ووبال فعلهم ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون ﴾ أي : يحرون ﴿ في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ أي : توقد عليهم النار ، وقيل : يصيرون وقود النار عن مجاهد ، وقيل : يطرحون في النار كما يطرح الخطب على النار عن أبي علي .

الأحكام : تدل الآيات على وجوب إتباع الدلائل ، وتدل على قبح الجدال بالباطل ، ويدل قوله ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أنه أراد من الجميع أن يعلموه خلاف قول المجرة . ويدل قوله ﴿ أن يصرفون ﴾ أنه تعالى لم يصرفهم ، لأنه أخرج الكلام مخرج التعجب ، ولو كان هو صرفهم لما صح ذلك ، ولكان هذا التصجب مع خلقه الكفر فيهم ، وصرفهم عن الإيمان — أعجب ، ويدل قوله ﴿ إذ الأغلال ﴾ أن ما يعبدون من دون الله لا ينفعهم ، ولا يدفع عنهم ضرا ، وتدل على أن الجدال والتكذيب فعلهم ، فيصح قولنا في المخلوق .

يخرج كل واحد فاكتمى بذكر الجنس ، وقوله : ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ متعلق بمحذوف ، أي يقيقكم لتبلغوا أشدكم ، وهو أربعون سنة ﴿ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ أي : ثم يقيقكم إلى أن تبلغوا حد الشيخوخة ، ثم قال : ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ الشيخوخة ، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطا ، ثم قال : ﴿وَلَتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ قبله محذوف ، أي يفعل ذلك لتبلغوا أجلا مسمى ، أي معلوما ، أو سماه للملائكته وهو وقت الموت ، ثم قال : ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي : لكي تعقلوا ما في هذه الأحوال العجيبة من أنواع العبر والمصالح ، وأقسام الدلائل على قدرته من الخلق العجيب ، والتدرج البديع .

ثم اعلم أنه تعالى لما ذكر انتقال الأجسام من كونه ترابا ، إلى كونه نطفة ، ثم إلى كونه علقة ، ثم إلى كونه طفلا ، ثم إلى بلوغ الأشد ، ثم إلى الشيخوخة ، واستدل بهذا التغيرات على وجود الإله القادر ، قال بعده : ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي : هو المختص بالقدرة على الإحياء والإماتة ، والمعنى : كما أن الانتقال من صفة إلى صفة أخرى في الصفات التي تقدم ذكرها يدل على الإله القادر ، فكذلك الانتقال من الحياة إلى الموت ، وبالعكس يدل على الإله القادر .

ومعنى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا﴾ أي : أراد تكوينه ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ إنه لا يتعب في ذلك التصرف ، ولا يحتاج إلى آلة وأداة ، فعبير عن نفاذ قدرته في الكائنات والمحدثات من غير معارض ولا مدافع — بما إذا قال : ﴿كن فيكون﴾ ولا قول ثم ، وإنما هو مجاز وتمثيل ، بمعنى : أنه لا يمتنع أمر يريد حدوثه ، وهذا قول الشيخين .

وقول أبي الهذيل والأصم : هو حقيقة يفعله علامة للملائكة أنه قد أحدث أمرا ، وهذا القول فاسد ؛ لأنه إما أن يقول له : كن قبل حدوثه ، أو حال حدوثه ، فإن كان الأول كان ذلك خطايا مع المعلوم وهو عبث ، وإن كان الثاني فهو حال حدوثه ، فقد وجد بالقدرة والإرادة ، فأى تأثير لقوله : ﴿كن فيكون﴾ فيه ،

فوجب حمله على المجاز والتمثيل

ثم اعلم أنه تعالى عاد إلى ذم الذين يجادلون في آيات الله فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ الهمزة للتعجب من جدالهم بالباطل ﴿أَلَيْ يُصْرَفُونَ﴾ عما فيها من الحق الظاهر ، أي : كيف يصرفون ، ومعناه : استبعاد انصرافهم عن الاعتراف بأن القرآن من عند الله .

ثم بين أنهم [هم] ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ أي : القرآن ، و ﴿الَّذِينَ﴾ بيان للمجادلين ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ من الشرائع والكتب ، وذلك أن الأنبياء يصدق بعضهم بعضا ، وكتبه كذلك ، فمن كفر ببعضها فقد كفر بجميعها ، وقال : ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ من التوحيد ؛ لأن الرسل كلهم جاءوا بتوحيد الله . وقوله : ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم .

ثم إنه تعالى وصف كيفية عقابهم فقال : ﴿إِذَا الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ الغل : طوق في عنق المغلول به ، و ﴿إِذَا﴾ لما مضى ، عزابه عن المستقبل على عادة الله في إخباره ، كأنه قد مضى لتيقن وقوعه " ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ في أعناقهم ﴿يُسْحَبُونَ﴾ بها ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ وهو الماء المتناهي في الحرارة ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي : يوقدون ويحرقون ، من سجر التنور إذا ملأه بالوقود ، ومعناه : أنهم في النار وهي محيطة بهم ، وهم مسحورون بالنار مملؤة بها أجوافهم .

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ على وجه التوبيخ ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ أي : تعبدون من الأوثان ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ليشفعوا لكم على زعمكم ، فيقولون كما أخبر تعالى عنهم : ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي : غابوا عن عيوننا فلا نراهم [ولا ننتفع بهم] ولعل الغيبة عند التوبيخ ، وإلا فهم مقرونون بهم لقوله : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

(١) هذا هو خلاصة ما ذكره الزمخشري في كشفه ، قال : فإن قلت : وهل قوله : ﴿فسوف يعلمون﴾ إذا الأغلال في أعناقهم ؟ إلا مثل قولك : سوف أصوم أس ؟ قلت : المعنى على إذا ، إلا أن الأمور المستقبلية لما كانت في أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعا بها — عبر عنها بلفظ ما كان ووجد ، والمعنى على الاستقبال .

حصب جهنم ﴿١١﴾ أو أن حضورهم كغيبتهم لعدم نفعهم ، ثم قالوا : ﴿ بَلْ لَمْ تَكُنْ تَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ فيه قولان ، أحدهما : أن يريدوا تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئا ، وما كنا نغيب عبادتهم شيئا ، كما تقول : حسبت أن فلانا شيئا ، فإذا هو ليس بشيء ، إذا خبرته ، والثاني : أنهم أنكروا الإشراف بالله ، كقوله : ﴿ وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿١٢﴾ .

(١) الأنبياء : ٩٨ .

(٢) الأنعام : ٢٣ .

قال الحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) :

اللغة — الفرح والمرح والبطر والأشر نظائر ، والمرح : شدة الفرح ، وفرس مروح ، أي : نشيط ، وكذلك مراح ، وفرس مروح : يمرح من رآها عجبا .

المعنى : ثم بين تعالى ما يوبخ به أهل النار ، فقال سبحانه ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ أي : هؤلاء الكفار إذا دخلوا النار ﴿ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ يعني : الأصنام التي عبدوها ، وهذا سؤال توبيخ ، يعني : كنتم تزعمون أنها تنفع وتضر ، فأين هي اليوم ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنْهَا ﴾ أي : ضاعوا وهلكوا فلا نراهم ، ولا نقدر عليهم ﴿ بَلْ لَمْ تَكُنْ تَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ قيل : معناه لم تكن ندعو شيئا ينفع ويضر ويسمع ويصير ، وقيل : لم تكن ندعو شيئا يستحق العبادة ، أو ينتفع بعبادته عن أبي علي ، وقيل : لم ندع شيئا ينفعنا ، وهذا كما يقال لشيء لا يسمع : ليس هذا بشيء ، عن أبي مسلم لأن كل ما لا يغني شيئا ، يقال : ليس بشيء ، فأما من يقول : أنهم أنكروا وحملوا فليس بشيء ، لأن قوتهم : ﴿ ضَلُّوا عَنْهَا ﴾ اعتراف بعبادتهم ، ولأن الآخرة دار إلقاء ، ولا يمكن كون من الكذب ، وقيل : معناه ضاعت عبادتنا لها ، فلم تكن نصنع شيئا إن عبدنا ، فقال كما يقول المتحسر : ما فعلت شيئا ﴿ كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ قيل : يضلهم عن طريق الجنة والثواب ، كما يضلهم عما عبدوه ، ويذموا بها عن أبي علي ، وقيل : يهلككم ويعذبهم عن أبي مسلم ، وقيل : كذلك يضلهم عما اتخذوه إلهًا بصرفهم عن الطمع في نيل نفع من جهته ، وقيل : كذلك يضل الله أعمالهم بإبطالها عن الحسن ﴿ ذَلِكَ ﴾ يعني العذاب الذي أصابكم إنما هو ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَقْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أي : بفرحهم بالباطل ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَقْرَحُونَ ﴾ أي : تطرون وتقبحون ، وقيل : ذلك بفرحهم بالأوثان ، وفرحهم بتكذيب رسول الله ﷺ ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ وهي سبعة أبواب ، فهم مقسمون على منازلهم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي : مقام من تكبر عن قبول الحق في النار ، وقيل : المثوى المنزل ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ يا محمد على تبليغ الرسالة ، وإن نالك منهم الأذى ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ بالنصر لأنبيائه ، والانتقام من أعدائه ﴿ حَقٌّ ﴾ أي : صدق لا خلف فيه ﴿ فَإِنَّمَا تَرينكَ بَعْضَ الَّذِي

ثم قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ أي : مثل ضلال آهنتهم عنهم يضلهم عن آهنتهم ، حتى لو طلبوها وطلبتهم لم يتصادفوا ، ثم قال : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الإضلال ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ وهو الشرك ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أي : بسبب ما كنتم عليه من المرح ، وهو البطر والأشر ﴿ اذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ السبعة المقسومة لكم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ مقدرين الخلود ﴿ فَبِمَا مَتَوْنِ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ عن الحق مقامهم في الجحيم ، والمراد منه ما قاله في الآية المتقدمة في صفة هؤلاء المجادلين ﴿ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ والله أعلم .

ثم اعلم أنه تعالى لما تكلم من أول السورة إلى هذا الموضع في تزييف طريقة المجادلين في آيات الله ، أمر رسوله ﷺ بالصبر فقال سبحانه : ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ يا محمد على أذى قومك ، وعلى دعائهم ﴿ إِنْ وَغَدَ اللَّهُ حَقٌّ ﴾ بنصرك ﴿ إِنْآ لَنُنَصِّرَ رَسُلَنَا ﴾ . ﴿ فَإِنَّمَا تُرِيدُكَ بَعْضُ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ ما زائدة لتأكيد معنى الشرط ، ولذلك لحقت النون بالفعل ، ألا تراك لا تقول : إِنْ تَكْرِمْنِي أَكْرَمَكَ ، ولكن إما تَكْرِمْنِي أَكْرَمَكَ . ونون

نَعِدُهُمْ ﴿ من العذاب في حياتك ، وإنما قال : ﴿ بَعْضُ ﴾ لأن المعجل في الدنيا بعض ما يستحقه الكفار ، لأن المستحق لا يتناهى ﴿ أَوْ تُوفِّيكَ ﴾ قبل أن يحل بهم ذلك ﴿ فَإِنَّمَا يَرْجِعُونَ ﴾ فنجازيهم ، ثم زاد في تسليته ، فقال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رَسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ أخبارهم ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصِصْ عَلَيْكَ ﴾ ما جرى عليهم من أمهم مثل ما يجري عليك فصبروا حتى جاء وعد الله ، ولم يقدرُوا بأنفسهم على إتيان آية ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ ﴾ معجزة وحجة لا يقدر عليها إلا بإذن الله ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ قيل : لا يقدرُونَ على استعجال العذاب ، ولكن الله تعالى يقدر عليها ، و ﴿ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ قيل : الساعة ، وقيل : عذابه في الدنيا والآخرة ﴿ قُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : حكم لكل أحد بما يستحقه ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْبَاطِلُونَ ﴾ أي : ظهر خسارتهم بحرمان الثواب ، ونزول العقاب .

الأحكام : يدل قوله ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ ﴾ أن الضلال بمعنى الهلاك ، لأن في الآخرة لا يكون ضلالاً عن الدين . وتدل أن ذلك جزاء على أعمالهم ، وتدل على أن المرح مذموم ، وهو الفرح بالباطل بطراً ، ويدل قوله ﴿ قُضِيَ بِالْحَقِّ ﴾ أن أمور الآخرة تجري على العدل ، فتقدر تقدير الاستحقاق ، وتدل على قبح التكبر . وتدل على أن في الرسل من لم يبلغنا خبره ، وتدل على أن المرح فعلهم ، فيبطل قول الخيرة في المخلوق .

التأكيد لتأكيد معنى الشرط^(١)، وجزاء الشرط محذوف تقديره ﴿فإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ من العذاب ، وهو القتل والأسر يوم بدر فذاك يشفيك ، أو فأنت تراه ﴿أَوْ تَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَالِإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة ، فننتقم منهم أشد الانتقام^(٢).

ثم قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ كثيرا ﴿مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ قصته لما فيها من العبر ، والتأسي . والقصة : هي الخبر ، أي : أخبرناك ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ حديثه ، قيل : بعث الله ثمانية آلاف نبي ، أربعة آلاف من بني إسرائيل ، وأربعة آلاف من سائر الناس ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وذلك أن كفار قريش تعنتوا عليه بطلب آيات غير ما أتى بها عناداً منهم ، والمعنى : أنه قال لمحمد : أنت كالرسل قبلك ، وقد ذكرنا حال بعضهم لك ، ولم نذكر حال الباقين ، وليس فيهم أحد أعطاه الله تعالى آيات ومعجزات إلا وقد جادله قومه فيها ، وكذبوه فيها ، وجرى عليهم من أمهم ما يقارب ما يجري عليك ، فصبروا وكانوا أبداً يقترحون على الأنبياء إظهار المعجزات الزائدة على قدر الحاجة ، على سبيل العناد والتعنت ، فكذلك الحال في اقتراح قومك عليك المعجزات الزائدة .

ثم قال تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يوم القيامة ، وهو وعيد لهم على التعنت عقيب اقتراح الآيات ﴿فَقُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ وهو عقابهم ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ الذين كذبوا بالآيات وطلبوا غيرها مكابرة .

(١) ﴿فإما نرينك﴾ أصله : فإن نرك ، وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ولذلك ألحقت النون بالفعل ، والمصحح للحاق النون المؤكدة دخول ما المؤكدة للشرط ، ولولا ما لم يجز دخولها . وانظر الكشف ١٧٩/٤

(٢) ﴿فَالِإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة ، فننتقم منهم أشد الانتقام ، هذا جواب للشرط الثاني ، وهو ﴿أَوْ تَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ ولا يستقيم أن يكون جواباً للشرطين معاً لفساد المعنى ، ولكن جواب الشرط الأول محذوف تقديره : فذلك هو المطلوب ، وقوله ﴿فَالِإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ جواب للشرط الثاني ، ومثله قوله تعالى : ﴿فإما نذهبن بك فإننا منهم منتقمون ، أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون﴾ . وانظر الكشف ١٨٠/٤ .

واعلم أنه تعالى لما أطنب في تقرير الوعيد عاد إلى ذكر ما يدل على وجود الإله الحكيم ، وإلى ذكر ما يصلح أن يُعدَّ إنعاماً على العباد ، فقال سبحانه : ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ﴾ هي هنا الإبل خاصة ، وإن كانت تطلق على الأزواج الثمانية ، وقيل : هي مرادة هنا أيضاً ﴿لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من الوبر والمسنى ، والدَّرَّ والنَّسْل ﴿وَلَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ وهو السفر إلى البلاد البعيدة ، كقوله : ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾^(١) وأدخل اللام في ﴿لَتَرْكَبُوا﴾ و﴿لَتَبْلُغُوا﴾ ولم يقل : ولتأكلوا ؛ لأن في الركوب والغزو ، وفي بلوغ الحاجة والهجرة لإقامة دين ، أو طلب علم^(٢) أغراضاً دينية ، يتعلق بها إرادة الحكيم دون الأكل وإصابة المنافع فمن جنس المباحات ، فلا جرم ما أدخل عليها حرف التعليل ، نظيره قوله تعالى : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ فأدخل حرف التعليل على الركوب ، ولم يدخله على الزينة^(٣) .

(١) النحل : ٧ .

(٢) لفظ المصاييح (لأن في الركوب والغزو ، وفي بلوغ الحاجة والهجرة لإقامة دين أو طلب علم وهذه أغراض دينية) . ولا حاجة إلى قوله : وهذه ، ويجب نصب أغراضاً لأنه اسم إن مؤخر .

(٣) قال المحاكم الجشمي في تفسيره (التهذيب) :

السلعة — الأنعام : البقر والإبل والغنم ، سميت بذلك لنعم مشيتها ، والبأس : العذاب ، والسنة : الطريقة . والخسران : ذهاب رأس المال .

الإعراب : في نصب سنة ثلاثة أوجه : قيل — برفع الحافضة ، أي : كسنة الله ، وقيل : على المصدر ، تقول العرب : سن يسن سناً وسنة ، وقيل : الإغراء ، أي : احذروا سنة الله ، كقوله ﴿ناقة الله وسقياها﴾ . ثم عاد إلى ذكر الأدلة ، وعد النعم فقال سبحانه ﴿اللَّهُ الَّذِي تَحَقُّ لَهُ الْعِبَادَةُ﴾ الذي جعل لكم الأنعام ﴿خَلَقَهَا لِمَنَافِعِكُمْ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني : بعضها للركوب والأكل ، كالإبل والبقر ، وبعضها للأكل كالأغنام ، وقيل : الأنعام : الإبل وحدها ، وقيل : الأصناف الثمانية ، وهو الوجه ﴿ولكم فيها منافع﴾ في أصوافها وأوبارها ، وأشعارها وألبانها ﴿ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم﴾ أي : في الأسفار يحمل عليها الأثقال وتركب ، وتبلغ المقاصد ، وقيل : تبلغون ما تحتاجون إليه من الأمور التي فيها قربة الله تعالى ، لأن ما كان معصية يكرهها ولا يريد ، وما كان مباحاً يريد ولا يكره ، وما كان طاعة يريد . عن أبي علي ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ يعني على الأنعام في البر وعلى الفلك في البحر ﴿ويريكم آياته

ثم قال : ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ قرئها بالفلك وهي السفن ؛ لأنها أقوى ما يحمل في البر ، ولهذا تسمى الإبل سفائن البر ، وإنما لم يقل : وفي الفلك كما قال

فأي آيات الله تنكرون ﴿ لأن جميعها دالة على توحيده وعدله ، ثم وعظهم بذكر الأمم الماضية تسلياً له ووعيداً لهم ، ودعاء إلى الإيمان ، فقال سبحانه ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم ﴿ عدداً وأشد قوة في أنفسهم وأعوانهم ﴿ وآثارا في الأرض ﴿ بارتفاع للأبنية ، واتخاذ المنازل والقصور واستخراج الكنوز ، فينظروا إلى آثارهم ، ويعتبروا بذلك ، لأنهم تعاملوا وتركوا جميع ذلك ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴿ أي : لم ينفعهم كسبهم لذلك ، وقيل : هو بمعنى الاستفهام ، يعني : أي شيء أغنى عنهم ، كذلك هؤلاء ما يؤمنهم أن ينالهم مثل ما نال أولئك ، وقيل : أراد بالكسب المكسوب من الأموال والحشم .

ثم بين تعالى أنه كان أزاح علتهم ، وأنهم أتوا في تلك من جهتهم ، فقال تعالى ﴿ فلما جاءهم ﴾ يعني الأمم ﴿ برسلمهم بالبينات ﴾ بالحجج ﴿ فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ قيل : قالوا : نحن أعلم منهم لا نبعث ولا نعذب عن الحسن وبجاهد ، يعني : كان عندهم أنه علم ، وهو جهل . وقيل : رضوا بالشرك الذي كانوا عليه عن الضحاك ، أي : اعجبوا به ، وظنوا أنه علم ، وهو جهل ، وكفر ، وقيل : اعجبوا بما عندهم ، والفرح شدة الإعجاب ، وقيل : فرحوا بما عندهم من المال والجاه ، والرياسة ، ويطروا ، وقيل : فرحوا بالرسول عندهم من العلم بنجاتهم ، وهلاك أعدائهم ، والأول الوجه ، خرج مخرج الجزاء ، كأنه قيل : لما جاءهم الرسول لم يقبلوا وفرحوا ، ولذلك عطف عليه ﴿ وحق بهم ﴾ أي : حل ونزل ، وقيل : وجب ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ من العذاب ﴿ فلما رأوا بأسنا ﴾ عذابنا ﴿ قالوا آمنا ﴾ أي : ذلوا وخضعوا ، وتركوا التبر ، وآمنوا بالله ﴿ وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ من الأصنام ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ أي : لم ينفعهم بعد رؤية العذاب لأنه يكون ملجأ إليه ﴿ سنة الله ﴾ أي : هذه طريقة الله ﴿ التي قد خلت في عباده ﴾ يقول في عذاب الكفار ، وقيل : في قبول التوبة أنه لا يقبلها إلا من المختار دون الملجأ الذي قد عاين العذاب ، وقيل : في إمهال الكفار مدة ثم أخذهم بغتة ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾ أي : خسروا بفوت الجنة ودخول النار .

الأحكام : يدل أول الآيات على توحيده ، لأن هذه الأشياء لا يقدر عليها غيره تعالى ، وتدل أنه خلقها لمنافع العباد ، وتدل أنه يفعل الفعل لغرض وحكمة خلاف ما يقوله بعض الجبرة ، وتدل على أن إنكار الآيات فعلهم ، لذلك توعدهم عليها ، وتدل على أن إيمان الملجأ لا يقبل ، ومتى قيل : لم سمي إيماناً ؟ فجوأبنا معناه صورة للإيمان ، وإن لم يستحق عليها ثواباً ، ولأن التوبة تجب أن يكون لوجوبها لا لرؤية العذاب ، ولأن توبة الملجأ لو قبلت لما دخل الكافر النار .

: ﴿قَلْنَا اَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾^(١) لأن كلمة الاستعلاء ، والشيء الذي يوضع في الفلك كما يصح أن يقال : وضع فيه ، صح أن يقال : وضع عليه ، ولما صح الوجهان كانت لفظة على أولى حتى تتم المزاجية في قوله : ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ .

ولما ذكر تعالى هذا الدلائل الكثيرة قال : ﴿وَيُزَيِّكُمُ آيَاتِهِ﴾ البواهر ﴿فَإِي آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ ولا موجب لإنكارها ولا لواحدة منها .

قال الرازي : واعلم أنه تعالى راعى ترتيباً لطيفاً في آخر هذه السورة ، وذلك أنه ذكر فصلاً في دلائل الإلهية ، وكمال القدرة والرحمة والحكمة ، ثم أردفه بفصل في التهديد والوعيد ، وهذا الفصل الذي وقع عليه ختم هذا السورة هو الفصل المشتمل على الوعيد فقال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يريد قريشاً ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود ﴿كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ﴾ عدداً ﴿وَأَشَدُّ قُوَّةً﴾ في أجسامهم ﴿وَأَنَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ هي قصورهم وحصونهم ، وقيل : مشيهم في الأرض بأرجلهم ، يعني : أنهم لو ساروا في أطراف الأرض ، لعرفوا أن طائفة المتمردين المتكبرين ما كانت عاقبتهم إلا البوار والهلاك مع أنهم كانوا أكثر عدداً وعُدداً ومالا وجاهاً من هؤلاء المتأخرين^(٢) .

وقوله : ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ ما : نافية ، أو استفهامية أي : أي شيء أغنى^(٣) ﴿فَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ والثانية : موصولة أو مصدرية^(٤) .

ثم أخبر تعالى عن هؤلاء الكفار فقال : ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي : فحين بلغتهم نذرهم بالمعجزات المصدقة ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ

(١) هود : ٤٠ .

(٢) نقله من الرازي بتصريف ، انظر تفسير الرازي ٩٠/٢٧ ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

(٣) ومحلها النصب مفعولاً لأغنى مقدماً عليه .

(٤) ومحلها الرفع على الفاعلية ، أي ما أغنى عنهم كسبهم ، أو مكسورهم .

يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١﴾ أي : علم الدنيا ، واستيطاب مآكلها الدنية وحطامها ، وزهدوا في العلم الذي يدل على الله عز وجل ، وقيل : العلم الوارد على طريق التهكم في قوله : ﴿ بَلْ إِدَارِكْ عِلْمَهُمْ ﴾ ^(١) وذلك أنهم كانوا يفرحون بذلك ، ويدفعون به البيّنات وعلم الأنبياء ، كما قال : ﴿ كُلْ حَزْبٌ مِمَّا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ ^(٢) أي : بما عندهم من العلم الفاسد .

وقال الهادي عليه السلام : (إن الله سبحانه أخبر نبيه بخبر هؤلاء الذين جاءهم رسلهم بالبيّنات ، فكذبوا بها ، وفرحوا بما عندهم من العلم ، والعلم الذي فرحوا به فهو ما كان عندهم من أخبار من كان قبلهم ممن عصى الله من آبائهم ممن تحل بهم نقمه ، وإخزاء الله لأعدائه ، فقالوا لرسولهم : قد جاء غيركم آباءنا بمثل ما قد جئتم به ، فلم يترل بهم إذ عصوهم ما تعدّوننا أنتم أنه يترل بنا إذا عصيناكم ، وفرحوا بما عندهم من علم سلامة من سلم من آبائهم ، ومن علم من وقع به العذاب من أوائلهم ، وفرحوا بسلامة السالمين فطمعوا بمثلها ، ولم يخافوا ما نزل بالمعذنين ، فيستوقعوا أكبر منها ، حتى حاق بهم ما كانوا به يستهزئون من هذا الوعيد ، الذي وعد رهم من العذاب ، إذ لم يزلوا به مكذّبين مستهزئين حتى حاق بهم ، ومعنى ﴿ حاق بهم ﴾ فهو وقع ونزل وأحاط وأحرق بهم جزاء استهزائهم . اهـ

ثم قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا ﴾ أي : فحين رأوا شدة العذاب ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدَعُوا كُفْرَنَا بِمَا كُنَّا بِهِ ﴾ من الأوثان ﴿ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا ﴾ أي : عذابنا ؛ لأنها حالة إجماع ، والوقت الذي لا ينفع الإتيان بالإيمان فيه هو الوقت الذي يعاين فيه نزول ملائكة الرحمة والعذاب ؛ لأن في ذلك الوقت يصير المرء ملجأ إلى الإيمان ، فذلك الإيمان لا ينفع ؛ لأنه إنما ينفع مع القدرة على خلافه حتى يكون المرء مختاراً ، أما إذا عاينوا علامات الآخرة فلا .

(١) النمل : ٦٦ .

(٢) المؤمنون : ٥٣ . الروم : ٣٢ .

ثم قال تعالى : ﴿سَنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ﴾ أي : حكمة الله وشريعته التي قد مضت
﴿فِي عِبَادِهِ﴾ أي : سن الله ذلك سنة في المشركين ، معناه أن عادته التي قد مضت
في عباده المشركين هي نصرة الرسل عليهم ، وإنزال العذاب بهم ، أو معناه : أن
عدم قبول الإيمان حال اليأس سنة الله مطردة مع كل الأمم .
ثم قال تعالى : ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ وخسر هنالك ، أي : في ذلك الوقت ،
وقت رؤية العذاب الكافرون ، وهنالك : مكان مستعار للزمان ، والله أعلم

سورة الزمر

خمس وسبعون آية في الكوفي ، وأيتان في البصري والحجازي ، وثلاث في الشامي (مكية ، إلا قوله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ أي : القرآن ، و ﴿ تَتْرِيل ﴾ : مبتدأ ، و ﴿ مِنْ اللَّهِ ﴾ خبره ، وقال في البرهان : ﴿ تَتْرِيل ﴾ رفع بإضمار هذا ، مثل ﴿ سورة أنزلناها ﴾ أي : هذا سورة ، ولو نصب لكان مثل ﴿ كتاب الله عليكم ﴾ أي : الزموا كتاب الله ، قال بعضهم : الوجه الأول أولى لوجوه ، الأول : أن الإضمار خلاف الأصل ، فلا يصار إليه إلا لضرورة ، ولا ضرورة هنا . الثاني : أنا إذا قلنا : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ﴾ جملة تامة من المبتدأ والخبر ، أفاد فائدة شريفة ، وهي أن تترييل الكتاب يكون من الله ، لا من غيره ، وهذا الحصر معنى معتبر ، أما إذا أضمرنا المبتدأ لم تحصل هذا الفائدة (١) .

(١) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿ يكور الليل على النهار ﴾ معناه : يدخله .

وقوله تعالى : ﴿ خلقنا من بعد خلق ﴾ معناه : نقطة ، ثم علقه ، ثم مضغة ، ثم لحم .
وقوله تعالى : ﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ معناه : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة .
وقوله تعالى : ﴿ إذا خوله نعمة منه ﴾ معناه : أعطاه ، وقوله تعالى : ﴿ وجعل الله أندادا ﴾ معناه : أشباه وأمثال .
وقوله تعالى : ﴿ آمن هو فانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ ففانت ، معناه : مطيع ، والفانت : القائم أيضا ، وآناء الليل : ساعاته ، واحدها أن ، ويحذر الآخرة : معناه عذاب الآخرة .

وقوله تعالى: ﴿فَسَلَكَ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ معناه: مياه واحدها ينبوع ﴿ثُمَّ يَهِيْجُ﴾ معناه: فيصير يابسا ، والخطام: الرفات . وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾ معناه: يشبه بعضه بعضا ، ويصدق بعضه بعضا ، و﴿مُتَانِي﴾ أي: قد ثنى فيه الأنبياء والأخبار .

وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ فالرجل الشكس: العسر السيئ الخلق ، والسلم: الصحيح . وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آباءه أفضل الصلاة والسلام: فالذي جاء بالصدق: هو رسول الله ﷺ ، والذي صدق به: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه .

وقوله تعالى: ﴿إِشْمَازَتْ﴾ معناه: نفرت . وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ معناه: أحاط بهم . وقوله تعالى: ﴿فِي حَنْبِ اللَّهِ﴾ قال الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آباءه أفضل الصلاة والسلام: يوم القيامة ، وحنب الله: علي بن أبي طالب ، وموالاة أهل بيته عليهم السلام ، وقال: في أمر الله . وقوله تعالى: ﴿بِمَفَازِهِمْ﴾ معناه: منجأهم .

وقوله تعالى: ﴿مَقَالِيدَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ معناه: المفاتيح، واحدها مقليد ، ويقال لها: الأقاليد-واحدها إقليد . وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ﴾ معناه: مفتيات بقدرته . وقوله تعالى: ﴿فَصَعَقَ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ معناه: مات . وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ معناه: جماعات في تفرقة ، بعضهم على إثر بعض . وقوله تعالى: ﴿حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ معناه: يحيطون بجوانبه .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العماني عليه السلام ما لفظه: بسم الله الرحمن الرحيم

الخالص: هو الصافي الذي لا يشوبه غبار ولا كدر ، ومعنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ هذه في ضمير واختصار ، والمعنى فيه: الذين اتخذوا من دونه آلهة قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ فاختصر وأضمر ، والزلفى: هي القرية ، ومعنى قوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ هذا رد على المشركين في قولهم: إن الملائكة بنات الله - تعالى عن قولهم - يقول عز وجل: لو كان يريد ذلك على ما زعمتم لاصطفى واختار أرفع الأشياء قدرا ، وأجلها عندكم خطرا ، فأما البنات فهن عي وعورات ، والله يتعالى عن ذلك ، وملائكته المطهرون

ومعنى ﴿يَكْسِرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾ التكوير: هو الإسقاط . ومعنى قوله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أي: ثمانية أصناف ، والزوج: هو الصنف ، ومعنى قوله: ﴿فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ أولهن: ظلمة البطن ، والثانية: ظلمة الرحم ، والثالثة: ظلمة المشيمة ، وهي غشاوة تكون على الولد وتحتمل وجهها آخر ، وهو أنه خلق العباد خلقا بعد خلق في ظلمات ثلاث ، أولهن: ظلمة الصلب ، والثانية: ظلمة البطن ، والثالثة: ظلمة القبر ؛ لأن الله عز وجل خلقهم في بطون أمهاتهم ، بعد أن خلقهم في أصلاب آبائهم ، ثم يخلقهم في القبور يوم بعثهم ، ومعنى ﴿فَأَن يَصْرِفُونَ﴾ أي: فكيف تُصْرِفُونَ عن الحق وتُغْرِضُونَ ، ولا تُشْكِرُونَ ، والوزر: هو الحمل

والذَّنْبُ ، ومعنى ﴿ منيأ إليه ﴾ أي : راجعا إليه ، تابا في وقت الضرورة ، ﴿ ثم إذا حولناه نعمة ﴾ منه مُلْكُهُ ، وإعطاؤه نِعَمَهُ ، والْحَوْلُ في اللغة الممالك ، ومعنى ﴿ قل تمتع بكفرك ﴾ هذا تهدد ووعد ، والعرب تقول : لا تبقي إلا ما غلبك ، ولا تبقي فينا غاية ، واجتهد في عداوتنا ، لا يريدون عداوته بذلك ، ولا يريدون شره ، ولا يرضون ضره لهم .

ومعنى ﴿ آمن هو قانت آناء الليل ﴾ يريد : هذا الكافر الذي ذكرناه وحولناه من نعمتنا ما حولناه ﴿ أو من هو قانت آناء الليل ﴾ ولكنه اختصر بالكلام ، وأم عند العرب تقوم مقام أو ، وفي ذلك يقول الإمام المرتضى لدين الله صلوات الله عليه :

حسبت أني مظهر تذليلي أم خلعتني أخضع للستطول
القتل في الله كصافي العسل عندي وأحلى من رحيق

يريد : حسبت أني أنذل ، أو حسبتي أخضع ، فقامت أم مقام أو .

ومعنى ﴿ قانت آناء الليل ﴾ أي : داع إلى الله في أوقات الليل واحدها إناء من الليل ، قال الله عز وجل : ﴿ غير ناظرين إناه ﴾ أي : غير منتظرين وقته ، ومعنى ﴿ أولوا الأبواب ﴾ ذؤوا العقول ، واللب : هو العقل ، ومعنى ﴿ ذلك يخوف الله به عباده ﴾ أي : يحذر عباده العذاب ، ليعلموا إن كانوا يعقلون أن الصادق لا يخوف إلا بحق ، ولا يحذر إلا بصدق ، ومعنى قوله : ﴿ لهم غرف ﴾ أي : دور عالية فوق السقوف ، والواحد منها غرفة ، وبلغه أهل اليمن خلوات وخلوة ، قال الشاعر :

ما المال إلا القفل والمفتاح وغرفة تصففها السرياح

ومعنى ﴿ لا يخلف الله الميعاد ﴾ الإخلاف : هو الكذب ، وأخير أنه عز وجل لا يكذب وعده ، ومعنى قوله : ﴿ فسلكه ﴾ أي : أدخله ينابيع في الأرض أي عيونا في الأرض ، ومعنى ﴿ ثم يهيج ﴾ يعني : ييس الزرع ، قال الكميث بن زيد رحمة الله عليه :

وإن هاج نبت العلم في الناس لم تنزل لهم روضه خضراء منه ومذنب

والهياج فقد يكون على وجه آخر ﴿ ثم يجعله حطاما ﴾ كسرا متحطما ، قال الشاعر :

وحطمي لمال على أثر المال

ومعنى ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾ يريد : فمن وسع الله صدره ﴿ فهو على نور من ربه ﴾ أي : على حق ، والألف من قوله : ﴿ أفمن ﴾ ليس لها معنى والله أعلم ، وأحسب أنها صلة ، لأنها ليست بألف تفهيم ، وإنما هذا خبر لا يحتاج إلى الألف ، إلا سبيل ما ذكرنا .

ومعنى ﴿ فويل للقساسة قلوبهم ﴾ القسوة : هي اليبس والغلظ ؛ لأن قلوبهم لا تخشع ، ولا ترحم ضعيفا ، ولا تفعل خيرا .

ومعنى ﴿مثنى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾ أي : تقبض وتحرك ، وتعلوها القفة من خوف ما سمعوا من الوعيد ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ أي : تنبسط إلى ذكر الله ورحمته ، وتطمئن إلى ما وعد من مغفرته .

ومعنى ﴿يتقي بوجهه﴾ أي : تلقى بوجهه . ومعنى ﴿ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون﴾ أي : متباغضون متعادون في عيدهم ، قالت الخنساء :

أَمَّنْ يَعُودُ بِجِلْمِهِ عِنْدَ التَّنَازُعِ وَالتَّشَاكُسِ

﴿ورجلا سلما لرجل﴾ أي : سالما من الشركة مملوكا لرجل واحد ، وهذا مثل ضربه الله ، أي : يعبد أربابا إن أكرم أحدهم أهان ضده ، وإن أرضى أحدهم أسخط عدوه ، فهو في حيرة من أمره ، ولبسة في شأنه ، ومثل من يعبد ربا واحدا كمثله من يخدم سيذا واحدا ، فهو سالم من تضاد الأرباب ، متخلص من الاسخاط والإغضاب ، ومعنى ﴿تختصمون﴾ أي : أنت يا محمد وأعدائك محاصمون عند الله ، فويل من خاصمه النبي ﷺ ، لقد دحضت وعظمت عند الله مصيئته ، فنعوذ بالله من ذلك ، ونتبرأ إليه من أن نكون كذلك . ومعنى ﴿ليكفر الله عنهم﴾ أي : ليغطي عنهم ذنوبهم ، ويستتر قبائحهم ، والتكفير هو السير والتغطية في اللغة ، قال الشاعر :

في ليلة كفر النجوم غمامها

أي : ستر غمامها النجوم وغطاها ﴿قل حسبي الله﴾ أي : كفايتي الله عن كل معبود ومخلوق ، والعرب تقول : حسبك يا هذا لا ترد شيئا ، أي : معك الكفاية ، ولا تطلب أكثر مما معك ، قال الشاعر :

فأحسبه مالا رغبيا ولم أكن ظنينا بما تحوي يداي من الوفر

أي : أعطيته من المال ما يحسبه ويكفيه ، وقال آخر :

ويكفي وليد الحلي إن كان جائعا ويحسبه إن كان ليس بجائع

أي : يعطيه الكفاية ، ومعنى ﴿على مكانتكم﴾ أي : على موضعكم ومكانكم من الكفر ، ومعنى ﴿إن عامل فسوف تعلمون﴾ هذا تهدد ووعيد لهم ، والعرب تقول : مكانك لا ترح ، على سبيل الوعيد ، قال الشاعر :

إن كنت حرا فاستقم لا ترح حتى ترى كيف اضطرام القرح

ومعنى ﴿عذاب يخزيه﴾ أي : يفضحه ويقيمه ، قال الشاعر :

في عيشة لم تحز من غذاها

أي : لم تقض من غذاها . ومعنى ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ يحفظ ما يضمرون من أمورهم ، وإنما عليك الإنذار والإعذار إليهم ، ومعنى ﴿الله يتوفى الأنفس﴾ أي : يأخذها وافية في الأرواح عند موتها ، وعند منامها ، ومعنى ﴿إلى أجل مسمى﴾ أي : وقت معلوم مفهوم ، ومعنى ﴿من دون الله شفعاء﴾ أي : أربابا يتقربون بها إليه ، ويرجون شفاعتها عنده ولديه ، فرد الله عليهم ، فقال لنبيه ﷺ ﴿قل أو لو كانوا لا

يملكون شيئا ولا يعقلون ﴿١﴾ ولا ينطقون ﴿٢﴾ قل لله الشفاعة جميعا ﴿٣﴾ أي : إلى الله السؤال والطلبه كلها لا إلى غيره ، فقامت اللام مقام إلى فافهم ذلك .

ومعنى ﴿٤﴾ اشأزت قلوبهم ﴿٥﴾ أي : انحرفت عن توحيد الله وأعرضت ، قال الشاعر :

إذا عض الثفاف بما اشأزت وولته عشورته ريونا

أي : انقلبت وانحرفت ولم تلن ، وقست . ومعنى ﴿٦﴾ إذا هم يستبشرون ﴿٧﴾ أي : يسرون ويفرحون بالشرك ويشرون .

ومعنى ﴿٨﴾ لا فتدوا به من سوء العذاب ﴿٩﴾ الفدية : هي العوض من الشيء بمثلثة الثمن في البيع ، قال العالم صلوات الله عليه يرثي أخاه عليهما السلام :

يا شخص من لو كان الأرض فديته ما ضاق مني به ذرع ولا خلق
بيننا أرجحك تأميلا وأشفق أن يغير منك حيين واضح يق
أصبحت يحثي عليك التراب في حدث حتى عليك لما يحثي به طبق

ومعنى ﴿١٠﴾ وبدا لهم من الله ﴿١١﴾ أي : ظهر لهم من أمر الله ﴿١٢﴾ ما لم يكونوا يحتسبون ﴿١٣﴾ ولا يدرون ﴿١٤﴾ قال إنما أوتيته على علم ﴿١٥﴾ أي : أعطيت النعمة بعلم من الله أني مستحق لذلك ، فقامت على مقام الباء الزائدة ، فرد الله عز وجل عليه في قوله ، فقال : ﴿١٦﴾ بل هي فتنة ﴿١٧﴾ أي : اختبار منا لك بالنعمة ، أتشكرنا عليها ، فتستحق ثوابنا ، أم تكفر فتستحق عقابنا ، ومعنى قوله : ﴿١٨﴾ ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴿١٩﴾ أي : يعطيه قدر حياته من القوت ، ولا ينسبط له كما ينسبط لغيره ، والبسط هو التكنيز والنشر ، ومعنى قوله : ﴿٢٠﴾ لا تقنطوا من رحمة الله ﴿٢١﴾ أي : لا تيأسوا من مغفرة الله ﴿٢٢﴾ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم ﴿٢٣﴾ يعني القرآن ، هو أحسن ما أنزل الله من الكتب ﴿٢٤﴾ أن تقول نفس يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴿٢٥﴾ يريد : لئلا تقول نفس يا حسرتي ، أي : تقول : يا حزنه ، ويا قطيعته ، والحسرة : هي الانقطاع والانحسار ، والعرب تقول : انحسر البعير إذا انقطع سيره وأعيا ولغب ، قال الشاعر :

إذا قيل هذا الحق لا ميل دونه فأنضأؤهم في الحق حسرى ولغب

﴿٢٦﴾ على ما فرطت ﴿٢٧﴾ التفريط : هو التواني ، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام :

وإذا اتخذت يدا فلست مفرطا فيما فعلت به ولا بمقصرا

﴿٢٨﴾ في جنب الله ﴿٢٩﴾ أي : في دين الله وطاعته . ومعنى ﴿٣٠﴾ لمن الساخرين ﴿٣١﴾ أي : من المستهزئين المتلعبين .

ومعنى ﴿٣٢﴾ منوى للمتكبرين ﴿٣٣﴾ أي : مقام للحائرين الصليبين المحتالين التياهين ، المتعظمين ﴿٣٤﴾ وينجي الله الذين اتقوا بمفازهم ﴿٣٥﴾ أي : يبعدهم من العذاب ، والعرب تسمى البلد البعيدة مفازة ، قال الشاعر :

وكائن تخطت ناقتي من مفازة إلى دار مي سهلها وحزوها

ومعنى قوله : ﴿٣٦﴾ له مقاليد السموات والأرض ﴿٣٧﴾ أي : مفاتيح قال الشاعر :

فتنازعوا حتى إذا اجتمعوا ألقوا إليه مقاليد الأمر

الثالث : أنا إذا أضمرنا المبتدأ صار التقدير : هذا تزيل الكتاب ، وحينئذ يلزمنا مجاز آخر ؛ لأن (هذا) إشارة إلى السورة ، والسورة ليست نفس التزيل ، بل السورة مترلة ، فحينئذ نحتاج إلى أن نقول : المراد من المصدر المفعول ، وهو مجاز تحملناه لا لضرورة (١) .

وقوله : ﴿الْغَرِيزِ﴾ القادر على كل شيء ، ومن ذلك تزيل الكتاب ﴿الْحَكِيمِ﴾ المصيب وجه الحكمة في أفعاله التي منها تزيل الكتاب لمصالح العباد .
وأما قوله : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ﴾ فقد ذكر أن الباء في ﴿بِالْحَقِّ﴾ تحتل السببيه ، أي : أنزلناه بسبب إظهار الحق ، وتحتل غير السببيه ، أي : أنزلناه إنزالا ملتبسا بالحق والصدق والصواب ، يعني : أن كل ما أودعنا فيه من إثبات

﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ أي : وما وقروه حق توقيره ، ولا عظموه حق تعظيمه ، والقدر : هي العظمة والفخر في اللغة ، قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه :

وإن كان في آياتك الشم أسوة لثلك يابن الطاهرين ذوي القدر

﴿فصعق من في السموات ومن في الأرض﴾ أي : مات من في السموات والأرض .

وأما قوله ﴿إلا من شاء الله﴾ فهذا تب القدرة على من يشاء لا غير ذلك ﴿ثم نفع فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ وقد روي أن النفتين جميعا في يوم واحد ، وهو يوم القيامة ، وفيه تقوم الساعة ، والله أعلم وأحكم .

﴿وأشرق الأرض بنور ربها﴾ أي : أضاءت للمؤمنين بنور من الله يحدثه من غير شمس ولا قمر ، والله أعلم . وقيل : ربها وحكمته . [أي بنور ربها وحكمته] .

﴿ووضع الكتاب﴾ أي : الحساب ، ومعنى قوله : ﴿إلى جهنم زمرا﴾ أي : جماع ، كل جماعة وحدهم ، الزمرة : هي الجماع .

﴿وأورثنا الأرض﴾ أي : ملكنا الأرض بعد ذهاب أهلها ﴿يتبأ من الجنة حيث يشاء﴾ أي : يحل منها حيث يريد ويهوى ، قال الشاعر : (بوائه بيدي لحدا) أي : أحلته وأسكنته ، ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش﴾ أي : محيطين من حول موضع الحساب ، وهو الملك ، قال الهادي إلى الحق رضي الله عنه :

تحف به خيل يمانية طا على الهول أقدام ليوث طوالب

تحف به ، أي : تحيط به .

(١) ومثل هذا بلفظه في تفسير الرازي . (٢٣٧/٢٦ ، ٢٣٨) .

التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، وأنواع التكاليف فهو حق وصدق يجب العمل به ، والمصير إليه .

أو أنزلناه مع الحق ، بناء على دليل حق ، دل على أن هذا الكتاب نازل من عند الله ، وذلك الدليل هو أن فصحاء العرب عجزوا عن معارضته ، ولو لم يكن معجزا لما عجزوا عن معارضته .

ثم قال : ﴿ فَاعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ أي : الطاعة من الشرك والرياء ، أي : وحده ولا تعبد معه غيره ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ من الشرك ، والمراد أنه الذي أوجب أن تخلص له الطاعة من كل شائبة ، وما سواه ليس بدين الله الذي أمر به ، وقيل : المعنى لا يستحق الدين الخالص إلا الله .

واعلم أنه تعالى لما بين رأس العبادات ورئيسها الإخلاص في التوحيد — أردفه بزم طريقة المشركين فقال عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ جمع ولي ، وهو الذي يتولى وليه بالنفع والنصرة ، والمعبود يتولى بالعبادة ، وأراد هنا معبودين ، وهم الملائكة ، وعيسى ، والأصنام .

قال في التجريد : يحتمل أن يريد بـ ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا ﴾ المشركين العابدين ، ويحتمل أن يريد المعبودين ، أي : والذين اتخذوهم أولياء ، فإن أريد الأول كان الخير ﴿ إِنْ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ (١) أو ما أضمر من القول قبل قوله : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ ﴾ أي : قالوا : مانعدهم ، وإن أريد الثاني كان الخير ﴿ إِنْ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ ومعنى الحكم : أنه يدخل الكافرين العابدين النار ، ويدخل المعبودين الجنة إن كانوا هم الملائكة ، والمسيح وعزير ، وإن كانت الأصنام فقد جاء أيضا أنه يدخلها جهنم ، تكون وقودا على عابديها ، واختلافهم هو أن المعبودين موحدون ، والعبادين مشركون ، وقيل : الضمير يعود إلى المسلمين ، الذين كانوا يخالفون المشركين ، ويوحدون الله تعالى ،

(١) فإذا كان الخير ﴿ إِنْ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ كان موضع ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ ﴾ نصبا على الحال ، أي : قائلين ذلك ، ويجوز أن يكون بدلا من الصلة ، فلا محل له من الإعراب ، كما أن المبدل منه كذلك .

وكانوا إذا قالوا للمشركين : من خلقكم ؟ ومن خلق السموات والأرض ؟ قالوا : الله ، فإذا قالوا لهم : فما لكم تعبدون الأصنام والملائكة ؟ قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ أي : قري ، أي : درجة رفيعة بشفاعتهم ، و ﴿ زُلْفَى ﴾ واقع موقع المصدر المؤكد^(١) ﴿ لِيُقَرِّبُونَا ﴾ كأنه قال : ليقرّبونا تقريبا . اهـ

واعلم أن الله تعالى لما حكى مذهبهم أجاب عنه من وجوه ، الأول : أنه اقتصر في الجواب على مجرد التهديد فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَخْصِمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي : بين العبد والمعبودين ﴿ فِيسِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ لأن المعبودين موحدون ، وهم مشركون ، والعبد يرجو شفاععة عيسى والملائكة ، وهم يلعنوهم .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ والمراد بمنع الهداية منع اللطف ؛ لأن اللطف^(٢) والتوفيق ، وتنوير القلوب مشروط بقبول الهدى ، وإنما جعلهم الله كذابين لقولهم في معبودهم : إنهم يقربوهم إلى الله بالشفاعة إليه تعالى ، وقول بعضهم في الملائكة : إنهم بنات الله .

قال الرازي : ويحتمل أن يكون المراد كفران النعمة ، والسبب فيه أن العبادة نهاية التعظيم [ونهاية التعظيم]^(٣) لاتليق إلا بمن يصدر عنه غاية الإنعام ، وذلك الإنعام إنما هو من الله سبحانه^(٤) ، وهذه الأوثان لمدخل لها في هذا الإنعام ، فالاشتغال بعبادة هذه الأوثان يوجب كفر نعمة المنعم الحق .

ثم قال تعالى : ﴿ لَسَوْأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى ﴾ أي : اختار ﴿ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي : لو أراد ذلك لامتنع لأنه محال ، ولم يزد على ما فعل ، من اصطفاء من

(١) وفي نسخة أ : مرقع المصدر ، مؤكد ﴿ لِيُقَرِّبُونَا ﴾ .

(٢) اللفظ في النسخة أ ، ب : (لأن اللطف والتوفيق) وفي نسخة : لأن اللطف لهم والتوفيق .

(٣) ما بين القوسين ساقط من النسخة أ ، وثابت في النسخة ب ، وفي تفسير الرازي ٢٦/٢٤٢ .

(٤) عبارة الرازي : (وذلك المنعم هو الله سبحانه) .

يشاء من خلقه وهم الملائكة، لكنكم جهلتم فحسبتم اصطفاؤه لهم اتخاذه لهم أولادا ، ثم تماديتم في السفه فجعلتموهم بنات .

ثم نزه تعالى ذاته فقال : ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي : تزيها له عما افترتيم من الولد ﴿هُوَ السَّلَةُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فلو كانت له صاحبة لم يكن واحدا ؛ لأنها تكون من جنسه ، فإذا لم يكن له صاحبة أي زوجة لم يتأت له ولد ، و ﴿القهار﴾ الغلاب ، وهو تزيه عن الأولياء ، فهو غلاب لآلهم وغيرها ، والمراد من هذا الكلام إقامة الدلائل القاهرة على كونه متراها عن الولد .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : يقول عز وجل : لو كان يريد ذلك على ما زعمتم ، إذا لأصطفى واختار أرفع الأشياء قدرا ، وأجلها عندكم خطرا ، فأما البنات فهن عي وعورات ، والله يتعالى عن ذلك ، والملائكة المطهرون (١) .

ثم دلنا بخلق على كمال قدرته ، وعلى أنه واحد لا شريك له ، فقال تعالى : ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي : الغرض الصحيح ، وهو منافع عباده في الدنيا والدين ، لتكون مطارح أنظار وعبر ، ثم قال : ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ التكوير : اللف ، كور العمامة على رأسه : لفها ، ولما كان كل واحد منهما يُغَيَّبُ الآخر إذا طرأ عليه ، شبه في تغييبه إياه بشئ ظاهر لُفَّ عليه ما غيبه عن الأبصار (٢) .

ثم قال : ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي : صرّفهما لمنافع العباد كتسخير العقلاء ، فهما يجريان على نظام مستقيم ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معلوم ، قيل : وهو آخر الشهر في القمر ، وآخر السنة في الشمس ، قيل : سمي معلوما لله وخده ،

(١) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياشي عليهما السلام أوائل هذه السورة .

(٢) ذكر المصنف هنا فقال : شبه في تغييبه إياه .. الخ . قال السيد العلوي : هو استعارة ، وإنما قلت : استعارة ؛ لأن المستعار له غير مذكور ، والمصنف سماه تشبيها باعتبار أصله ؛ لأن الاستعارة فرع التشبيه .

والأصح أن المراد بالأجل المسمى هو يوم القيامة ، فلا يزالان يجريان إلى هذا اليوم ، فإذا كان يوم القيامة ذهاباً ، وعنده تطوى السماء كطي السجل للكتاب .

ولما ذكر الله تعالى [هذه] (١) الأنواع الثلاثة من الدلائل قال : ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ العزيز القادر على عقاب المصيرين ، الغفار للتائبين ، والمعنى : أن خلق هذه الأجرام العظيمة ، وإن دل على كونه عزيزاً ، أي كامل القدرة إلا أنه غفار عظيم الرحمة ، والفضل والإحسان ، فإنه لما كان الإنخبار عن كونه عظيم القدرة يوجب الخوف والرهبه ، فكونه غفاراً كثير الرحمة يوجب الرجاء والرغبة .

ثم إنه تعالى أتبع هذا الدلائل بدلائل أخر ، فبدأ بذكر الإنسان فقال عز وجل : ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ قال الهادي عليه السلام : النفس الواحدة : آدم صلى الله عليه وآله عليه ﴿ثُمَّ جَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فهو خلقه من آدم حواء ، وقد قيل : إن حواء خلقت من بعض آدم ، وقد يكون خلقه لها قبل نفثه فيه الروح إذ صورته من طين . اهـ

يعني : خلقت من طينة آدم قبل أن ينفخ فيه الروح ، وقيل : خلق حواء من ضلع آدم ، فيقال : لم عطفه بشم المفيدة للتراخي ؟ وخلق حواء متقدم على خلق أولاد آدم بالتناسل بينهما ؟ وجوابه : أنهما آيتان كاملتان ، خلق هذا الخلق وتفريعهم من نفس واحدة ، وهي آدم ، وخلق حواء ، إلا أن أحدهما جعلها الله سبحانه عادة مستمرة ، والأخرى لم يجر بها العادة ، لم تخلق أنثى من ضلع رجل غير حواء ، فكانت أدخل في الاستغراب ، فعطفها بشم للدلالة على زيادة مزيئها عليه نحو ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (٢) لا لتراخيها في الوجود ، وقيل : التراخي يرجع إلى لفظ ﴿واحدة﴾ أي : خلقكم من نفس توحدت ، ثم شفعها الله بزواج . [وقيل : أخرج ذرية آدم عليه السلام من ظهره كالذر ، ثم خلق حواء بعد ذلك] (٣) .

(١) ما بين القوسين غير موجود في النسخة ب .

(٢) طه : ٨٢ .

(٣) ما بين القوسين ساقط من النسخة أ ، وثابت في النسخة ب .

ولما ذكر الاستدلال بخلقه الإنسان على وجود الصانع قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ وصفها بالتزول من السماء ؛ لأنه قسمها فيها ، وقضى فيها ، وقضايها توصف بالتزول من السماء ، وقيل : لأن الأنعام لاتعيش إلا بالنبات ، وهو لايقوم إلا بالماء ، وقد أنزل الماء ، فكأنه أنزلها ، وقيل : خلقها في الجنة ، ثم أنزلها . ومعنى قوله : ﴿ أَزْوَاجٍ ﴾ أي : ذكر وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز . والزوج : اسم لكل واحد معه مثله ، فكل واحد منهما يسمى زوجا ، وهما زوجان ، فإذا انفرد فهو فرد ووتر ، قال تعالى : ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ (١) .

واعلم أنه تعالى ذكر تخليق الناس من شخص واحد ، وهو آدم عليه السلام ، ثم أردفه بتخليق الأنعام ، وإنما خصها بالذكر ؛ لأنها أشرف الحيوانات بعد الإنسان ، ثم ذكر عقيب ذكرها حالة مشتركة بين الإنسان وبين الأنعام ، وهي كونها مخلوقة في بطون أمهاتهم ، إلا أنه تعالى جعل المخاطب بذلك الخطاب هو الإنسان ، فقال سبحانه : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أي : حيوانا من بعد عظام مكسوة لحما ، من بعد عظام عارية ، من بعد مُصْغٍ ، أي : لحم ، من بعد عَلَقٍ ، أي : دم ، من نطف ، أي : مني ، وهذا أبلغ في الإقتدار ؛ لأنه خلق مرارا ، ولأن في التدرج بطلان العلل الموجبة والطبع .

وقوله : ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ هي البطن ، والرحم ، والمشيمة ، وهي غشاوة تكون على الولد ، وقيل : صلب الرجل ، والبطن ، والرحم ، وقيل : الثالثة ظلمة القبر ؛ لأن الله خلقهم في بطون أمهاتهم بعد أن خلقهم في أصلاب آبائهم ، ثم يخلقهم في القبور ، ثم يعثهم .

واعلم أنه تعالى لما شرح هذا الدلائل ، ووصفها قال : ﴿ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي : ذلك الشيء الذي عرفتم عجائب أفعاله هو الله ربكم .

قال الرازي : وهذه الآية دالة على كونه تعالى مترها عن الأجزاء والأعضاء ، وعلى كونه مترها عن الجسمية والمكانية ، وذلك لأنه تعالى عندما أراد أن يعرف عباده ذاته المخصوصة ، لم يذكر إلا كونه مخصوصا بهذه الأشياء ، ولو كان جسما مركبا من الأعضاء لكان تعريفه بتلك الأجزاء والأعضاء تعريفا للشئ بأجزاء حقيقته ، وأما تعريفه بآثاره وأفعاله ، فذلك تعريف له بأمور خارجة عن ذاته (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ . وهذا يفيد الحصر (٢) ، أي : له الملك لا غيره ، ولما ثبت أن لا ملك إلا له وجب القول بأنه ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وحده لا شريك له ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ أي : فكيف يُعَدَّلُ بكم عن عبادته إلى عبادة غيره ، أو فكيف تُصْرَفُونَ عن الحق ، وتُعرضُونَ ولا تشكرون .

ثم قال : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ﴾ أي : عن إيمانكم ، وأنتم محتاجون إليه لانتماعكم بالإيمان ، ثم قال : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ رحمة لهم ؛ لأنه يوقعهم في الهلاك (٣) .

(١) انظر الرازي ٢٦/٢٤٥ ، وزاد الرازي : والتعريف الأول أكمل من الثاني ، ولو كان ذلك القسم إنما حسن لأن القسم الأول محال ممتنع الوجود ، وذلك يدل على كونه سبحانه وتعالى متعاليا عن الجسمية والأعضاء ، والأجزاء . اهـ وأنا أقول لهؤلاء الذين ما كفاهم في التحسيم إلا أن يجعلوا لله ندا ، ووجهها ، بل تطاولوا إلى أبعد من ذلك ، وزووا أحاديث في صحاحهم ، بينها وبين الصحة مراحل ومفاوز ، أقول لهم : ألا تتفكرون في هذه الآيات وترعون عن هذه الترهات التي يحجها كل ذوق سليم .

(٢) الحصر مستفاد من تقدم الخبر .

(٣) احتج الجبائي بهذه الآية من وجهين : الأول — أن المجرة يقولون : إن الله تعالى خلق كفر العباد ، وإنه من جهة ما خلقه حق وصواب ، قال : ولو كان الأمر كذلك لكان قد رضي الكفر من الوجه الذي خلقه . وذلك ضد الآية .

الثاني : لو كان الكفر بقضاء الله تعالى لوجب علينا أن نرضى به ؛ لأن الرضاء بقضاء الله تعالى واجب ، وحيث أجمعت الأمة على أن الرضاء بالكفر كفر ، ثبت أن ليس بقضاء الله ، وليس أيضا برضاء الله تعالى .

[قال في البرهان : فإن قال قائل : كيف قال : ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ وقد كفروا ؟ قلت : لأنه لا يرضى أن يكفروا ، فمعنى الكفر أن يكفروا ليس معناه الكفر بعينه] (١) اهـ .

ولما بين أنه لا يرضى الكفر ، بين أنه يرضى الشكر ، فقال : ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي : يرضى الشكر ؛ لأنه سبب فوزكم ، قال الرازي : والشكر حالة مركبة من قول واعتقاد وعمل (٢) .

ثم قال : ﴿وَلَا تَوِزُّ وَاِزْرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ أي : لا تحمل نفس وازرة - أي : حاملة - ثقل نفس أخرى ، والوزر : الحمل الثقيل ، والمعنى : أن كل نفس حاملة وزرا ، فإنها لا تحمل إلا وزر نفسها يوم القيامة ؛ لأن الله لا يعاقب أحدا بذنب غيره ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي : إلى جزاء ربكم مصيركم في الآخرة .

قال الرازي : واعلم أنا ذكرنا كثيرا أن أهم المطالب للإنسان أن يعرف خالقه بقدر الإمكان ، وأن يعرف ما ينفعه ويضره في هذا الحياة الدنيوية ، وأن يعرف أحواله بعد الموت ، ففي هذه الآية ذكر الدلائل الكثيرة من العالم الأعلى ، والعالم الأسفل على أكمال قدرة الصانع وعلمه وحكمته ، ثم أتبعه بأن أمره بالشكر ، ونهاه عن الكفر ، ثم بين أحوال ما بعد الموت (٣) بقوله : ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ .

ثم قال : ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي : يخبركم بأعمالكم ظاهرها وباطنها ، وهذا تهديد للعاصي ، وبشارة للمطيع ، ثم قال : ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي : محضمراتها فلا يغيب عنه شيء من أعمالكم ، وهذا أيضا وعيد ، وهو كالعلة لما سبق

(١) وزاد في البرهان (ومثله مما بينه لك : لست أحب الإساءة ، وإن لا أحب أن تسيئ) وما بين قوسي الزيادة موجود في النسخة أ ، وقد ألغاه المصنف في النسخة ب ، وهي النسخة التي يقال : إنها نسخته .

(٢) تفسير الرازي ٢٦/٢٤٧ .

(٣) ولفظ الرازي (ثم بين أحواله بعد الموت) ٢٦/٢٤٧ ، ٢٤٨ .

يعني : أنه إنما يمكنه أن يخرجكم عن أعمالكم ؛ لأنه عالم بجميع المعلومات ، فيعلم ما في قلوبكم من الدواعي والصوارف .

ثم اعلم أن الله تعالى لما بين بطلان القول بالشرك ، وبين أن الله هو الذي يجب أن يعبد ، أخبر أن طريقة هؤلاء الذين يعبدون الأصنام متناقضة ، وذلك أنهم إذا مسهم نوع من أنواع الضر لم يرجعوا في طلب دفعه إلا إلى الله تعالى ، وإذا زال ذلك الضر عنهم رجعوا إلى عبادة الأصنام ، فقال عز وجل : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ ﴾ قال عطاء : يريد عتبة بن ربيعة (١) وقال مقاتل : يريد أبا حذيفة بن المغيرة (٢) و﴿ ضُرٌّ ﴾ : بلاء ، وشدة ، وفقر ، ومرض ﴿ دَعَا رَبَّهُ ﴾ يكشف ضره ﴿ مُنِيئًا إِلَيْهِ ﴾ أي : في صورة المنيب ، وهو التائب ، أي : راجعا إليه تائبًا في وقت الضرورة ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ ﴾ أي : ملكه وأعطاه تفضلا لا مجازاة ولا لعوض ، والخَوَّلُ — في اللغة — : المالك ﴿ نِعْمَةً مِنْهُ ﴾ بكشف ضره وإجابة دعائه ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : نسي ضره الذي كان دعا لكشفه ، وقيل : نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ، ومعنى قوله : ﴿ نَسِيَ ﴾ أي : ترك دعاءه ، كأنه لم يفزع إلى ربه ، ولو أراد به النسيان الحقيقي لما ذمه ، ويحتمل أن يكون المراد أنه نسي أن لافزع ، ولا إله سواه ، فعاد إلى اتخاذ الشركاء .

ثم قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أُنْدَادًا ﴾ أي : أمثالا في الإلهية ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أي : عن دينه ، واللام للتعليل ؛ لأن الضلال سبب اتخاذ الأنداد .

ولما ذكر الله تعالى عنهم هذا الفعل المتناقض هددهم فقال : ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ وهو من باب الخذلان والتخلية ، كأنه قيل : إذا أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان فمن حَقَّك ألا تؤمر إلا بعكسه ، مبالغة في خذلانه وتخليته ،

(١) عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، من كفار قريش ، ساد بغير مال ، وأدرك الإسلام فطنى ، وقاتل رسول الله ﷺ يوم بدر فقتله أمير المؤمنين علي عليه السلام .

(٢) حذيفة بن المغيرة ...

إذ لا مبالغة في خذلانه أشد من أن يبعث على ضد ما أمر به ، أي : قل لمن يفعل هذا : ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ﴾ وهو تهديد ووعيد ، والعرب تقول : لا تبق إلا ما غلبك ، ولا تبق فينا غاية ، واجتهد في عداوتنا ، يريدون عداوته بذلك ، ولا يريدون شره ، ولا يرضون ضره لهم .

ولما شرح الله تعالى صفات المشركين الضالين في تمسكهم بغير الله — أردفه بشرح أحوال المحقين ، الذين لارجوع لهم إلا إلى الله ، ولا اعتماد لهم إلا على الله فقال : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آنَاءُ اللَّيْلِ ﴾ وهي ساعاته ، واحداها : إني ، وقوله : ﴿ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ إشارة إلى أصناف الأعمال ، والقانت : هو القائم بما يجب عليه من الطاعة ، ومنه قوله ﷺ : (أفضل الصلاة طول القنوت فيها) (١) ومنه : قنوت الوتر ؛ لأنه دعاء المصلي قائما ، وفي الكلام حذف ، أي : أمَّن هو قانت كغيره حذف لدلالة جُري [ذكر] الكافر قبله ، والتقدير : أهذا الكافر الذي ذكرناه وخولناه ، أو من هو قانت آناء الليل ، ولكنه اختصر الكلام .

قال في التجريد : قرئ بتخفيف ﴿ أمَّن ﴾ على ألها همزة الإستفهام ، دخلت على من ، بمعنى الذي ، وقال الفراء : هي همزة النداء ، دخلت على من ، كأنه قيل : يا من هو قانت ، نحو قولك فلان لا يصوم ، يا من هو صائم أبشر بخير ، وقرئ بالتشديد على ألها أم دخلت على من ، وتقدير المخفضة على غير قول الفراء : أمَّن هو قانت آناء الليل كمن ليس بقانت ، أو : [بل أ] من هو قانت كمن جعل لله أندادا ليضل عن سبيله ، وتقدير المثقلة : أهذا الذي ذكرنا خير أم من هو قانت (٢) .

(١) الحديث في الكشف ٣/ ٣٤٠ ، قال ابن حجر في تخرجه : مسلم من طريق أبي الزبير ، عن جابر ، ورواه الطحاوي من هذا الوجه بلفظ (طول القيام) وكذا هو في حديث عبد الله بن جعفر ، بلفظ (سئل أي : الصلاة أفضل ؟ قال : طويلة القيام) .

(٢) ومحل من على قول غير من قال : بأن همزة النداء — محلها الرفع على الابتداء ، والخبر محذوف . وقوله : وتقدير المثقلة .. الخ يعني أن همزة فيه هي المعادلة ، وأم فيه متصلة . وزيادة القوسين ليدل على أن الأولى متصلة ، والثانية منقطعة كما ذكره السيد العلوي في حاشيته .

نزلت في علي عليه السلام ، وقيل : في غيره ، والمراد منه كل من كان موصوفا بهذا الصفة ، فليست الآية مقصورة على سببها .

ثم قال في مقام الخوف ﴿يَعْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ أي : عذابها ، وقال في مقام الرجاء : ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أي : نعمته في الدارين ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي : بينهما بون ، وأراد بالذين يعلمون العاملين من علماء الديانة ، كأن من لا يعمل غير عالم ، فهم عند الله جهلة ، وفيه ازدراء عظيم ، أو أراد التشبيه ، أي : كما لا يستوي العالمون والجاهلون ، كذلك لا يستوي القانتون والعاصون (١) .

ثم قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي : ذووا العقول النافعة ، يعني هذا التفاوت العظيم الحاصل بين العلماء والجهال لا يعرفه أيضا إلا أولوا الأبواب .
قال الرازي : ثم اعلم أنه تعالى لما بين نفي المساواة بين من يعلم ومن لا يعلم أتبعه بأن أمر رسوله ﷺ بأن يخاطب المؤمنين بأنواع من الكلام ، الأول : قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أي : احذروا عقابه ، والمراد أنه تعالى أمر المؤمنين بأن يضموا إلى الإيمان التقوى ، وهذا من أدل الدلائل على أن الإيمان لا يبقى مع المعصية ، قال القاضي : أمرهم بالتقوى لكيلا يحبطوا إيمانهم ؛ لأن عند الإتياء من الكبائر يسلم لهم الثواب ، وبالإقدام عليها يحبط (٢) .

(١) قال السيد العلوي : قوله : (وأراد بالذين يعلمون العاملين) فيكون الذين يعلمون وصفا للمظهر موضع الضمير للإشعار بالغلبة ، ويفهم منه أن غير العاملين جاهلون ، وإليه أشار بقوله : (فهم عند الله جهلة) حيث جعل القانتين هم العلماء ، كأنه قيل : أمن هو غير قانت ، وهل يستويان ، أي بينهما بون بعيد ، فالجملية الثانية بيان للفرق ، ولهذا قال : وفيه ازدراء عظيم .. ويجوز أن يراد على سبيل التشبيه ، فهو عطف على قوله : وأراد بالذين يعلمون العاملين ، أي : دل على الخدوف جري ذكر الكافر قبله ، وجرى قوله ﴿هل يستوي الذين يعلمون﴾ بعده ، وأراد بالذين يعلمون العاملين ، لأنه كالتقرير لقوله : ﴿أمن هو قانت آناء الليل﴾ لأن العالم الحقيقي هو العامل ، ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه فيكون القانت غير العالم .
(٢) تفسير الرازي ٢٦/٢٥٢ .

واعلم أنه تعالى لما أمر المؤمنين بالإتقاء بين لهم ما في هذا الإتقاء من الفائدة فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ بأعمالهم ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ عظيمة ، يحتمل أن يكون في هذه صلة ﴿أحسنوا﴾ أي : للذين عملوا الحسنة في الدنيا حسنة في الآخرة ، وهي الجنة ، ويحتمل أن يكون ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ ظرفا لحسنة ، أي : لهم حسنة حاصلة في هذه الدنيا ، وهي الصحة والعافية ، والثناء الحسن ونحو ذلك ، والتذكير في قوله: ﴿حَسَنَةٌ﴾ للتعظيم ، يعني حسنة لا يصل العقل إلى كنهه كمالها .

ثم قال تعالى : ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فمن تعذر عليه الإحسان في مكانه انتقل إلى آخر يتمكن فيه من الإحسان ، فلا عذر للمفرطين فيه ، وعليهم الإقتداء بالأنبياء والصالحين في المهاجرة ليزدادوا طاعة وإحسانا ، والمقصود منه الترغيب في الهجرة ، وفي الصبر على مفارقة الوطن ، ونظيره قوله تعالى : ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ (١) وقيل : المراد أرض الجنة (٢) ، وصفها بالسعة ترغيبا فيها ، والأول هو الأصح ؛ لأن قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُوقِى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا يليق إلا بالأول ، والمراد الصابرون على دينهم ، أو على مفارقة أوطانهم في الله ، وغير ذلك من المشاق في الدين ، واختلف في قوله تعالى : ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قيل : لا يحاسبون عليه ، وقيل : لا يحاسبون على سيئاتهم ، وقيل : بغير مكيال ولا ميزان ، وهو عبارة عن الكثرة . وعن ابن عباس : لا يهتدي إليه حساب الحساب لكثرتة .

(١) النساء : ٩٧ .

(٢) في حاشية في النسخة ب : أرض الحبشة ، وفي الرازي ، أرض الجنة ، وفي النسختين أ ، وب . قال الرازي : والقول الثاني : قال أبو مسلم : لا يمتنع أن يكون المراد من الأرض أرض الجنة ، وذلك لأنه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى وهي خشية الله ، ثم بين أن من اتقى فله في الآخرة الحسنة ، وهي الخلود في الجنة ، ثم بين أن أرض الله أي : جنته واسعة ، لقوله تعالى : ﴿نَتَّبِعُكَ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ والقول الأول عندي أولى . لأن قوله : ﴿إِنَّمَا يُوقِى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا يليق بالأول . الرازي ٢٥٣/٢٦ .

وما أحسن قول المرتضى عليه السلام في ذلك حيث قال في جواب من سأله : أراد عز وجل بـ ﴿أجرهم﴾ عطاءهم الذي أعدّه للصابرين ، من الثواب والنعيم والكرامة . ثم ذكر تبارك وتعالى أنه يعطيهم ذلك بغير حساب ، والعرب تقول لما كان كثيرا غزيرا : هذا بلا حساب ؛ لأن ما كان نذرا يسمى بحساب ، إذ هو يوقف عليه لقلته ، فأخبر سبحانه أنه يعطيهم أجرهم ، وأجرهم : فهو ما جعل لهم من عطائه كثيرا غير قليل ولا منقطع ، فيلحق بحساب ، ويعرف له غاية ، فذكر عز وجل أنه كثير دائم ، غير منقطع ولا فان ، في جميع ما رزقهم وأعطاهم ، وقتلهم : مَنْ ﴿الصابرون﴾ ؟ فهم الذين صبروا أنفسهم ومنعوها من اتباع أهوائهم ، والإرتكاب للذاتهم ، الذين صبروا على الطاعة ، وتمسكوا بحبله ، وصبروا على ما نزل بهم من الحزن في أمره ، وجاهدوا أعداءه ، ونالهم في ذلك المكروه ، وبذلوا فيه مهجهم ، وسخطوا فيه بأنفسهم ، فكانوا كما قال عز وجل : ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ (١) والصابرون : فهم ما ذكر الله سبحانه في كتابه إذ يقول : ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾ فأوجب عليهم الخسران بما اجتلبوه من فعائهم ، وخسروه بتقصيرهم ، ثم استثنى عز وجل أهل طاعته فقال : ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق﴾ فذكر عز وجل تواصلهم بالحق ، وتمسكهم به ، ثم قال : ﴿وتواصوا بالصبر﴾ على ما ينزل بهم من الحزن والأذى في الحق ، فهؤلاء الذين صبروا في أمر الله ، وامتنحوا في طاعته فهم الصابرون على كل ما يقرهم إلى الله ، وإن اشتد ذلك عليهم ، وهم التاركون لكل ما لا يرضي الله وإن تسهل وتحسن ذلك في أعينهم . اهـ

الثاني من البيانات التي أمر الله رسوله أن يذكرها : قوله تعالى ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك والرياء ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾ أي : وأمرت

بذلك لأجل أن أكون ﴿أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي : مقدمهم وسابقتهم في الدنيا والآخرة ، أو تجعل اللام زائدة ، كقوله : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١) وأول من أسلم معناه : أول من أسلم في زماني ، وفي قومي ؛ لأنه ﷺ أول من خالف دين آبائه ، ولا شبهة في أن المراد أول من يتمسك بالعبادات التي أرسلت بها ، أي : لست من الجبارين الذين يأمرؤن الناس بأشياء ، وهم لا يفعلونها ، بل كل ما أمرتكم به فأنا أول الناس شروعا فيه ، وإقداما عليه ، فقوله : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ في شرائع الله لا يمكن أن يكون إلا رسول الله ﷺ ؛ لأن أول من يعرف تلك الشرائع والتكاليف هو الرسول المبلغ .

ولما أخبر الله تعالى أنه أمره بالإخلاص بالقلب وبالأعمال المخصوصة ، أخبر سبحانه أن ذلك الأمر للوجوب فقال : ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بترك الإخلاص ، ومخالفة دليل العقل والوحي ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أمر بذلك حين دعوه إلى دين آبائه ، قال مقاتل : قال له قومه : ما حملك على مفارقة دين آبائك ؟ فترلت . قال الرازي : وفيه فوائد ، الأولى : أن الله تعالى أمر محمدا ﷺ أن يجري هذا الكلام على نفسه ، والمقصود منه المبالغة في زجر الغير عن المعاصي ؛ لأنه مع جلالة قدره ، وشرف نبوته إذا وجب أن يكون خائفا حذرا من المعاصي فغيره بذلك أولى . ثم قال : الفائدة الثالثة (٢) : دلت [هذه الآية] على أن ظاهر الأمر للوجوب ، وذلك لأنه قال في أول الآية ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ ثم قال بعده ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فيكون معنى هذا العصيان ترك الأمر الذي تقدم ذكره ، وذلك يقتضي أن يكون تارك الأمر عاصيا ، والعاصي يترتب عليه الخوف من العقاب ، ولا معنى للوجوب إلا ذلك .

(١) يونس : ٧٢ . النمل : ٩١ .

(٢) في النسخة ب ، هي الفائدة الثالثة ، وفي النسخة أ ، هي الثانية ، وهي في الرازي الفائدة الثالثة ، وقد ترك المصنف الفائدة الثانية ؛ لأنها غير موافقة لقواعد أهل العدل والتوحيد .

النوع الثالث من الأشياء التي أمر الله رسوله أن يذكرها قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾ من الشوائب ، وقوله : ﴿ فاعبدوا ما شئتم من دونه ﴾ تأكيد لما تقدمه ، وفيه زيادة تهذيب بقوله : ﴿ فاعبدوا ما شئتم ﴾ وأمر مبالغة في الخذلان والتخلية ، وشدة غضب وبأس كما مر في ﴿ تمتع بكفرك ﴾ (١) .

فإن قيل : ما معنى التكرير في قوله : ﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ﴾ وقوله : ﴿ قل الله أعبد مخلصا له ديني ﴾ ؟ أجاب الرازي : أن هذا ليس بتكرير (٢) ؛ لأن الأول للإخبار بأنه مأمور من جهة الله بالإتيان بالعبادة ، والثاني : بأنه أمر بأن لا يعبد غير الله ، وذلك لأن قوله : ﴿ أمرت أن أعبد الله ﴾ لا يفيد الحصر ، وقوله : ﴿ الله أعبد ﴾ يفيد الحصر ، بمعنى الله أعبد ، ولا أعبد أحدا سواه ، والدليل عليه أنه لما قال : ﴿ قل الله أعبد ﴾ قال بعده : ﴿ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ ولا شبهة في أن قوله : ﴿ فاعبدوا ما شئتم ﴾ ليس أمرا ، بل المراد منه الزجر ، كأنه يقول : لما بلغ البيان في وجوب رعاية التوحيد إلى الغاية القصوى ، فبعد ذلك أنتم أعرف بأنفسكم ، ثم بين تعالى كمال الزجر بقوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي : الكاملين في الخسران ، الجامعين لوجوهه (٣) ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بوقوعها في

(١) الزمر : ٣٩ .

(٢) قال السيد العلوي : قوله : (ليس بتكرير) وتلخيص الجواب أن الأول إخبار عن كونه مأمورا بإيجاد الإخلاص ، والثاني : إخبار عن امتثاله الأمر وإيجاده المأمور به ، ولذلك قدم المفعول على الفعل كأنهم قالوا : أعبد ما نعيد ، ليفيد ما يفيد ، كما حكى عنهم في سورة الكافرون من قولهم : يا محمد هلم فاتبع ديننا ، وتتبع دينك ، فأجاب هنا بما أجاب به هناك ، فقال هنا : ﴿ قل الله أعبد مخلصا ... فاعبدوا ما شئتم ﴾ وقال هناك : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ والقصر هنا من القصر الإفرادي .

(٣) قوله : (الكاملين) هذا استفادة من تعريف الجنس ، نحو ﴿ ذلك الكتاب ﴾ وحاتم الجواد ، وقوله (الجامعين لوجوهه) بيان له ، قالوا في قولهم : هو الرجل ، أي : الكامل في الرجولية ، الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال ، وذلك لأن اسم الجنس إنما يطلق على فرد من أفرادها إذا اجتمع فيه الخصال المعتبرة في ذلك الجنس ، فكأنه ذلك الجنس كله ، وقوله : هم الذين خسروا . إشارة إلى ما يدل عليه التركيب من معنى الاختصاص في إعادة الذين خسروا بعد ذكر الخاسرين مبالغة أخرى . وانظر حاشية العلوي مخطوط ٢٢٣ .

النار ﴿و﴾ خسروا ﴿أَهْلِيهِمْ﴾ أيضا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لأهم إن كانوا في النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا في الجنة فقد فارقوهم فرقة لا اجتماع بعدها ، وقيل : الذين كانوا لهم في الجنة لو دخلوها .

قال المرتضى عليه السلام : معناه خسروا أنفسهم ، بتفريطهم فيما ينجيهم ، وتركهم النظر لأنفسهم فيما يحييها ، ومن عذاب ربها ينجيها ، حتى خسروا أنفسهم ، وصاروا إلى جهنم ، وبئس المصير ، ومعنى ﴿وأهلهم﴾ هو ما جعل الله لهم على الطاعة من الحوريات ، والخلد والنعيم الذي جعله لجميع المخلوقين ثوابا على طاعتهم ، فلما أن عصوا الله عز وجل ، وآثروا دنياهم ، واختاروا حلاوة فسقهم ، خسروا أنفسهم وأهلهم .

ثم قال سبحانه : ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ تأكيداً في الخسران ، وتقريعا على التقصير ؛ لأنه خسران لا يجتبر ، إذ كل خسران في الدنيا يستلحق ويدرك ويستعاض ، إلا من خسر بتقصير نفسه فأوردها جهنم ، وترك ما أعد الله عز وجل على طاعته ، بما ذكر سبحانه للمطيعين ، من الجنان والرضاء والرضوان ، والخور الحسان ، وذلك الفوز العظيم ، والمحل الكريم ، ولمثل ذلك فليعمل العاملون ، وله فليقصد الطالبون .

قال عليه السلام : قلت : ما من مؤمن ولا كافر إلا وله منزلة في الجنة . قال عليه السلام : أما الكافر فلا شيء له ولا كرامة ، ولا مرتبة عند الله سبحانه ولا سلامة . والله سبحانه وإنما خلق الخلق جميعا ليعبدوه فقال جل ذكره : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فجعل الجنة للمطيعين ، والعقاب للعاصين ، ولو قبلوا ما تُعْبَدُوا به كما قبله المؤمنون لكانوا من المثابين ، وعند الله عز وجل من المكرمين ، بل غلبت عليهم شقوقهم ، وتركوا أفضل المنازل لشرارتهم ، ورداءة أفهامهم ، وإنما هلكوا بنفوسهم ، ولم تأتهم الهلكة من رهم بل أعذر إليهم وأنذر ، وأوضح وبين ، وكلف

فسهل ، وبذل المغفرة وأمهل ، ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة وإن الله لسميع عليم ﴾ (١) . اهـ

ومعنى ﴿ المبين ﴾ أي : الظاهر البين الذي لا خسران إلا ما هو دونه ، وقد دلت هذا الألفاظ على غاية المبالغة من وجوه :

الأول : أنه تعالى لما وصفهم بالخسران أولا ، ثم أعاده ثانيا بقوله : ﴿ ألا ذلك هو الخسران ﴾ كان التكرير لأجل التأكيد .

الثاني : أنه تعالى لما وصفهم ذكر في أول هذا الكلمة حرف ألا ، وهو للتنبيه ، وذكر التنبيه في هذا الموضع يدل على التعظيم ، كأنه قيل : بلغ من العظمة إلى حيث لا تصل عقولكم إليها فتنبهوا لها .

الثالث : أن كلمة هو في قوله : ﴿ هو الخسران ﴾ تفيد الحصر ، كأنه قيل : كل خسران فإنه في مقابلته يصير لا خسران .

الرابع : وصفه بكونه مبينا يدل على التهويل .

ولما شرح الله خسرافهم هذا ، ووصفه بغاية الفظاعة من أحوال حرمانهم عن الربح — أخبر سبحانه أنهم لم يقتصروا على الحرمان والخسران ، بل ضموا إليه استحقاق

العذاب العظيم ، والعقاب الشديد الأليم فقال عز وجل : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ ﴾ جمع ظلة ، وهي ما أظلك من فوق ﴿ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ أي : أطباق من

النار هي ظلل ، لا أسفل منها (٢) تلهب عليهم ، كقوله : ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ (٣) والمراد إحاطة النار بهم من جميع الجوانب ، ونظيره

في الأحوال النفسانية إحاطة نار الجهل والحرص وسائر الأخلاق الذميمة بالإنسان .

فإن قيل : الظلة ما على الإنسان فكيف سمي ما تحته بالظلة ؟

(١) الأنفال : ٤٢ .

(٢) وفي ب (لا سفلى منها) .

(٣) العنكبوت : ٥٥ .

أجاب الرازي عنه من وجهين ، الأول : أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر ، [كقوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾] .

الثاني : أن الذي تحته يكون ظلة لإنسان آخر تحته ، لأن النار دركات كما أن الجنة درجات .

الثالث : أن الظلة التحتانية إذا كانت مشابهة للظلة الفوقانية في الحرارة والإحراق والإيذاء أطلق اسم أحدهما على الأخرى [(١) لأجل المماثلة والمشابهة .

ثم قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ العذاب الذي تقدم ذكره ﴿ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ أي : يحذر عباده العذاب ليحذروا ما يوقعهم فيه ، وليعلموا إن كانوا يعقلون أن الصادق لا يُخَوِّفُ إلا بحق ، ولا يحذر إلا بصدق ، فقوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ مبتدأ ، وقوله : ﴿ الذي يخوف الله به ﴾ خبر .

ثم قال تعالى : ﴿ يا عباد فاتقون ﴾ أي : احذروا مقارنة أسباب غضبي . واعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد عبدة الأوثان والأصنام وعد من اجتنب عبادتها ، واحترز عن الشرك؛ ليكون الوعد مقرونا بالوعيد فيحصل كمال الترغيب والترهيب ، فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾ الطاغوت : فعُوت من الطغيان ، كالمملوك ، قدمت لامة على عينه ، والأصل طغيوت ، قدمت اللام التي هي الياء على الغين ، فصار طيغوت ، ثم قلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها فصار طاغوت ، أي : الشياطين والأصنام ، كأن عين الشياطين طغيان ، فسموا بذلك مبالغة (٢) ، وقوله : ﴿ أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾ بدل اشتمال من الطاغوت ، أي : أن يطيعوها ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ رجعوا إليه .

(١) — ما بين القوسين محذوف في النسخة أ ، وهو موجود في النسخة ب ، وفي الرازي ٢٦/٢٥٧ .

(٢) والمبالغة : حصلت من التسمية بالمصدر ، كأن عين ذلك الشيء الطغيان ، وثانيها : أن البناء بناء المبالغة ، فإن الرحمت : الرحمة الواسعة ، والمملوك : الملك المبسوط . وزاد الرازي وحها ثالثا ، فقال : وثالثها : ما ذكرنا من تقديم اللام على العين ، ومثل هذا إنما يصار إليه عند المبالغة .

ثم وعد هؤلاء بأشياء فقال: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ أي: بشارتهم بالثواب على السنة الرسل في الدنيا، ومن الملائكة عند الموت والحشر، قال الرازي: تحصل هذه البشارة عند القرب من الموت، وعند الوضع في القبر، وعند الخروج من القبر، وعند الوقوف في مواقف القيامة، وعندما يصير فريق في الجنة، وفريق في السعير، وعندما يدخل المؤمنون الجنة، ففي كل موقف من هذا المواقف تحصل البشارة، بنوع من الخير والروح والراحة والريحان، فتقع هذا البشارة بزوال المكروهات، وحصول المرادات^(١).

واعلم أنه تعالى لما قال: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ أردفه بما يجري مجرى التفسير والشرح له فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِيَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ أي: الذين اجتنبوا وأنبأوا، والقول عام في كل ما يقال من الطاغوت والمذاهب، أو هو القرآن^(٢) ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ كالقصاص والعفو والإنتصار والإغضاء، والإخفاء في الصدقة والإبداء، أو يأخذون بالمحكم ويتركون المتشابه، أو بالناسخ ويتركون المنسوخ.

وعن ابن عباس: هو الرجل يجلس إلى القوم فيسمع حديثهم، وفيه محاسن ومساو، فيحدث بأحسن ما سمع، ويكف عما سواه.

واعلم أنه تعالى حكم على الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه بأن قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا النَّالِبَابِ﴾ أي: العقول الوافرة، أراد الحراس على اختيار الأفضل على الفاضل، كالواجب على المندوب، والمندوب على المباح.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ هي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾^(٣) الآية، أصل الكلام: أمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه، وهمزة الإستفهام للإنكار،

(١) الرازي ٢٦/٢٥٩، وفيه تصرف يسير.

(٢) وفي النسخة ب (وقيل: هو القرآن).

(٣) الأعراف: ١٨. هود: ١١٩. السجدة: ١٣. ص: ٨٥.

وَمَنْ شَرِطِيَّةً ، والفاء عاطفة على محذوف دل عليه الخطاب تقديره : أأنت مالك أمرهم ، فمن حق عليه العذاب فأنت تخلّصه ؟ ودل على هذا قوله : ﴿ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ أي : تخرجه منها يا محمد ، والإستفهام الثاني هو الأول كرر لتأكيد الإنكار ، ووضع ﴿ في النار ﴾ موضع الضمير ، نزل استحقاقهم العذاب بتصميمهم على الكفر ، وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار ، ونزل دعاء رسول الله ﷺ ، وكدحه في إيمانهم منزلة إنقاذهم من النار بعد أن قد صاروا فيها في الآخرة ، ولا يقدر على ذلك إلا الله تعالى .

والثاني من الأشياء التي وعد الله هؤلاء الذين اجتنبوا وأتابوا قوله تعالى : ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ ﴾ علالي في الجنة ﴿ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ ﴾ أعلا منها ، بعضها فوق بعض ، والغرفة : أعلا منازل الدار ﴿ مَبْنِيَّةٌ ﴾ كبناء المنازل التي على الأرض . لما ذكر أن الخاسرين لهم من فوقهم ظلل من النار ، ومن تحتهم ظلل ، قابل بذلك ما للمتقين فذكر أن لهم غرفا هم فيها ، ولهم فوقها غرف أعلى منها إذا شأوا كانوا فيها . ثم قال : ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ من غير تفاوت بين العلو والسفل ، لا كأهوار الدنيا ، فإنها لا تجري إلا تحت السفلى .

ثم ختم الكلام وقال : ﴿ وَغَدَّ اللَّهُ ﴾ أي : وعدهم الله ذلك وعدا ، وهو مصدر تأكيد لقوله : ﴿ لهم غرف ﴾ لأنه في معنى وعدهم الله ذلك . ثم قال : ﴿ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ الإخلاف : هو الكذب ، فأخبر أنه عز وجل لا يكذب وعده .

ثم اعلم أنه تعالى لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة فيها ، وصف الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها فقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ الهمزة لتقرير ما رأى ، يعني : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أيها الإنسان ﴿ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ هو المطر ، وفيه دليل على أن ماء الأهوار من ماء المطر ، وقيل :

كل ما في الأرض فهو من السماء ، يترل منها إلى صخرة بيت المقدس ، ثم يقسمه الله عز وجل في الأرض والله أعلم .

﴿ فَسَلَكُهُ ﴾ أي : أدخله وأجراه ﴿ يَنْبِيعَ ﴾ عيوننا ومجاري ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ كالعروق في الأجساد ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ من خضرة وحمرة ، وصفرة وبياض ، وأصنافه من بر وشعير وسمسم وغير ذلك ﴿ ثُمَّ يَهِيْجُ ﴾ أي : يتم جفافه ، يعني يبس الزرع فيثور عن منابته ، قال الكميث بن زيد :

وإن هاج نبت العلم في الناس لم تزل لهم روضة خضراء منه ومذنب

والهياج فقد يكون على وجوه آخر ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ ينقلب إلى الصفرة إذا هاج ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ خُطَافًا ﴾ فتاتا أسود لشدة يباسه وتحطمه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ الإيجاد والتنويع والتدريج ﴿ لَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أي : تذكرنا وتنبهنا ودليلا على أن هذا فعل صانع حكيم ، قادر عليم عن تدبير ، لاعن إهمال ، ويجوز أن يكون مثالا للدنيا وسرعة زوالها ، كقوله : ﴿ إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعني : أن من شاهد هذه الأحوال في النبات ، علم أن أحوال الحيوان والإنسان كذلك ، وإن طال عمره فلا بد من الإنتهاء إلى أن يصير مصفر اللون منحطم الأعضاء والأجزاء ، ثم تكون عاقبته الموت ، فإذا كانت مشاهدة هذا الأحوال في النبات تذكره حصول مثال هذا الأحوال في نفسه وفي حياته ، فحينئذ تعظم نفرتة في الدنيا وطيباتها ، والحاصل أنه تعالى في الآيات المتقدمة ، ذكر ما يقوي الرغبة في الآخرة ، وذكر في هذا الآية ما يقوي النفرة عن الدنيا ، فشرح صفات القيامة يقوي الرغبة في طاعة الله ، وشرح صفات الدنيا يقوي النفرة عن الدنيا .

واعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير البيانات الدالة على وجوب الإقبال على طاعته ، ووجوب الإعراض عن الدنيا - بين بعد ذلك أن الإنتفاع بهذا البيانات لا يكمل إلا إذا شرح الصدر ونور القلب ، فقال سبحانه : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ ﴾ أي :

فَسَّحَهُ بِالْأَلْطَافِ لِمَنْ عَلِمَ قَبُولَهُ ﴿لِلْإِسْلَامِ﴾ فَرَّغَ فِيهِ وَقَبْلَهُ ، والمعنى : فمن وسع الله صدره .

﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي : على حق . ونور الله : توفيقه ولطفه ، واليقين الحاصل للمكلف ، وقيل : نور الله القرآن ، أي : أضمن شرح الله صدره كمن لا لطف له ، فهو حرج الصدر ، قاسي القلب .

وعن ابن مسعود : (تلى رسول الله ﷺ هذا الآية فقالوا : يا رسول الله ما هذا الشرح ؟ قال : نور يقذفه الله في القلب فينفسخ القلب ، قيل : فما علامة ذلك ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزوله) (١) .

والشرح يكون بما يجدد الله في القلب من الألفاظ وقوة الأدلة ؛ لأن الله الذي نصبها ، وتصفية الخاطر ، وحل الشبه . وقسوة القلب : صلابته باعتقاد الجهالات ، وكتقليد الآباء ، ونجب الدنيا من المال والجاه ، واتباع الهوى ، وبترك التفكير في الآخرة . فقلوه : ﴿أضمن شرح الله صدره﴾ جوابه محذوف تقديره : أضمن شرح الله صدره فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتد ، وإنما ترك هذا لأن الكلام المذكور دليل عليه ، وهو قوله تعالى : ﴿قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ .

قال الهادي عليه السلام : القاسية : هي الممتنعة من قبول حق الله تعالى ، الكارهة لما أنزل الله ، ومعنى ﴿من ذكر الله﴾ فهو عن ذكر الله ، غير أن من قامت مقام عن لأنهما من حروف الصفات ، وحروف الصفات يخلف بعضها بعضا ، ويقوم بعضها مقام بعض ، وفي ذلك ما يقول عز وجل : ﴿وَأَصْلِبْكُمْ فِي جَذُوعِ النَّخْلِ﴾ (٢)

(١) قال ابن حجر في تخرجه على الكشاف : الثعلبي والحاكم والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود ، وفيه أبو فروة الرهاوي ، فيه كلام ، ورواه الترمذي الحكيم في النوادر ، في الأصل السادس والثمانين ، وفي إسناده إبراهيم بن [فرغ في الأصل] وهو ضعيف ، قلنا : الحديث لا يخالف كتاب الله تعالى ، وإن لم يوافق هذه القواعد المبتدعة .

(٢) طه : ٧١ .

وإنما أراد على جذوع النخل ؛ لأن الصلب لا يكون في الشئ ، وإنما يكون عليه ، قال الشاعر :

شربن بماء البحر ثم ترفعت لىدى لجج خضر لمن نثيج
فقال : لىدى ، وإنما أراد على . اهـ

قال الفراء والزجاج : من بمعنى عن ، كما تقول : أتخمت من طعام أكلته ، وعن طعام أكلته ، وقال غيرهما : معنى القساوة من ذكر الله أنه كلما تلي ازداد المكذبون المصممون قساوة ، فقست قلوبهم من أحل ذكر الله ، وبسببه ؛ [أي : إذا ذكر الله وآياته ازدادت قلوبهم نفرة وقساوة] (١) لأنهم جعلوه كذبا ، فأقسى قلوبهم ، والقساوة : هي اليبس والغلظ ؛ لأن قلوبهم لا تخشع ولا ترحم ضعيفا ، ولا تفعل خيرا ، قال مقاتل : نزلت : ﴿ أفمن شرح الله صدره ﴾ الآية في النبي ﷺ ، وفي أبي جهل لعنه الله ، وقال عطاء : نزلت في علي وحمزة ، وفي أبي لهب وولده . ثم قال سبحانه : ﴿ أولئك في ضلال مبين ﴾ أي : في ذهاب عن الحق ﴿ مبين ﴾ أي : بين .

ولما بين الله تعالى ذلك أردفه بما يدل على أن القرآن سبب لحصول النور والشفاء والهداية وكمال الدرجة ، فقال : ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ يريد : القرآن نزله مفرقا ، وقوله : ﴿ كتابا ﴾ بدل من (أحسن) ﴿ متشابها ﴾ يشبه بعضه بعضا في باب الحكمة ، وجزالة ألفاظه ، وصحة معانيه ، والبناء على الحق ، ومنفعة الخلق ، وفي الفصاحة والإعجاز ، فوصف القرآن كله بالتشابه ، والمراد به ما ذكر ، والله أعلم . وقيل : يصدق بعضه بعضا ، فهو غير مختلف لا ينقض بعضه بعضا . ثم وصفه فقال : ﴿ مثاني ﴾ جمع مثني ، أي : مردد ومكرر قصصه ، وأحكامه ، ووعدته ، ووعيدته ، وفائدته الرسوخ في النفوس لأنها أنقر شئ عن الوعد .

(١) ما بين القوسين ساقط من النسخة أ ، وثابت في النسخة ب .

ثم قال في صفته: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ﴾ أي: تقبّض تقبّضا شديدا من تخويفه ﴿جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ معناه: حين يسمعون تلاوته تقشعر جلودهم وتقبّض ، وتحرك ، وتعلوها القفة من خوف ما سمعوا من الوعيد .

يجوز أن يكون تمثيلا لإفراط خوفهم ، وأن يكون حقيقة ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ﴾ يذهب تقبضها واقشعرارها ﴿وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وإنما عداه بالي لأنه ضمنه معنى تسكن وتطمئن عند نزول آية الرحمة ، وأن يذكروا الله ورحمته ، ووجوده وما وعد من مغفرته ، ويزول ما بها من القشعريرة ، روي عن النبي ﷺ: (إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحات ذنوبه كما تحات عن الشجرة اليابسة ورقها) (١) .

واعلم أنه تعالى لما وصف القرآن بهذا الصفات قال ﴿ذَلِكَ﴾ أي الكتاب ﴿هُدًى لِلَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ من المتقين القابِلين للطف والهدى ، حتى يكونوا بتلك الصفة المتقدمة ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ﴾ أي: يخذله لعلمه أنه لا يقبل اللطف ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يؤثر فيه ؛ لأن لطف الله إذا لم يؤثر فيه ، فمن يقدر بعد ذلك على هدايته .

ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يقي نفسه بوجهه ، الذي هو أعز أعضائه ، ويقيه في الدنيا سائر أعضائه وقاية ، يقال: إن الكافر ينطلق به الحزنة إلى النار ، ويداه مغلولتان إلى عنقه فيقذف به في النار فلا يتقيها وشدة العذاب إلا بوجهه .

وفي الكلام حذف ، تقديره: أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن هو آمن يدخل الجنة

قل: نزلت في أبي جهل .

(١) الحديث ذكره في موسوعة أطراف الحديث النبوي ، ٢٥٦/١ ، وعزاه إلى الترغيب والترهيب ٢٦٤/٤ ومجمع الزوائد ٣١٠/١ ، والبلغوي ٧٣/٦ ، وكتر العمال برقم ٥٨٧٩ ، وتاريخ بغداد ٥٤/٤ ، وإتحاف السادة المتقين ٢٠٤/٦ .

وما أحسن قول الهادي إلى الحق عليه السلام في معنى هذا الآية حيث يقول : معنى ﴿أحسن الحديث﴾ فهو أحكمه ، والحديث : فهو الخبر من توراة أو إنجيل [أو زبور ، أو فرقان] أو قرآن ، وأخبر أنه أحكم الكتب وأقومها ، وأفضلها لديه وعنده ، وهو كتاب محمد ﷺ ، ومعنى قوله : ﴿متشابهها﴾ فهو : متشابه التثريل ، محكم التأويل ﴿مثنائي﴾ فهو : مكرر الإعذار والإنذار ، والنهي والأمر ، لإثبات الحجة ، وتمام النعمة ، ﴿تقشعر منه﴾ يريد : تقف منه — هيبة ووجلا وإجلالا ، وتصديقا ، وتعزيرا عظيما — جلود الذين آمنوا ، واتقوا ربهم ، وخشعوا وعبيده ، وطلبوا وعده ﴿ثم تلين﴾ من بعد الفزع والهيبة ، ومعنى ﴿تلين﴾ فهو تطمئن قلوبهم وتخفض ثقة بوعد الله .

ثم أخبر سبحانه بما يؤتى من كان كذلك من الهدى جزاء على ما اختار من التقوى فقال : ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء﴾ ومعنى قوله : ﴿ومن يضل الله﴾ فهو : من يخذل الله فما له من مرشد ، ولا هاد مسدد .
﴿أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة﴾ يقول : من عمل في الدنيا عملا يستوجب به العذاب يوم القيامة ، ويصلى بوجهه له ، ثم أضمر هاهنا شيئا ، وهو فهو من الهالكين ، أو فهو من الخاسرين ، أو مثل ذلك .

ومعنى ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ فهو قول الملائكة خزنة جهنم وغيرها ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا ، وتحددون البعث ، ولا توقنون بالحساب والعقاب ؛ الآن فذوقوا سوء العذاب (١) . اهـ

ولما بين الله تعالى كيفية عذابهم في الآخرة ، بين أيضا كيفية وقوعهم في العذاب في الدنيا فقال : ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قريش ﴿فَأَنَّا لَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي : من الجهة التي لم يخطر لهم ببال أنه يأتيهم منها ، يفاجئون من

مأمنهم ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ﴾ أي : الضر والذل والصغار ، كالخسف والمسح والقتل والجلاء الذي أصابهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ .

ثم قال : ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ لأن كل بلاء دون النار عافية ، ثم قال : ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أنه أكبر جهلهم ، لأنهم لا يعلمون ، أو لأن علمهم كلاً علم ، لعدم انتفاعهم به ، والمقصود من كل ذلك التخويف والترهيب .

ولما ذكر الله تعالى هذا بين سبحانه أنه بلغت هذا البيانات إلى حد الكمال والتمام ، فقال : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ أي : مثلنا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي : من كل صفة غريبة عجيبة ، كأنها مثل في غرابتها وحسنها ، وقيل : من كل شبه يشبه حالهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي : لإرادتنا أن يتفكروا في أمثاله ، فيدعوهم ذلك إلى الانتفاع به ، والفوز بسببه .

واعلم أن هذا الآية ونحوها قد أبطلت مذهب الجبرية وهدمت أصول الأشعرية ، وذلك أنها دلت على أن أفعال الله تعالى وأحكامه معللة ، ودلت الآية أيضاً على أنه تعالى يريد الإيمان والمعرفة من الكل ؛ لأن قوله : ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ مشعر بالتعليل ، وقوله في آخر الآية : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ مشعر أيضاً بالتعليل ، ومشعر بأن المقصود من ضرب هذا الأمثال إرادة حصول التذكر والعلم .

ولما كانت هذا البيانات النافعة ، والبيانات الباهرة موجودة في القرآن ، لاجرم وصف القرآن بالمدح والثناء ، فقال تعالى : ﴿قُرْآنًا غَرِيْبًا﴾ حال مؤكدة ، قال الزجاج : ﴿غريباً﴾ منصوب على الحال ، والمعنى : ضربنا للناس في هذا القرآن في حال غريبته وبيانه ، أو أمدح قرآناً غريباً (١) .

(١) قال السيد العلوي رحمه الله : قال الزجاج : ﴿غريباً﴾ منصوب على الحال ، أي ضربنا للناس في هذا القرآن في حال غريبته وبيانه ، وذكر قرآناً توكيداً ، كما تقول : جاعني زيد رجلاً صالحاً ، فتذكر رجلاً توكيداً ، وقال صاحب الفرائد : يمكن أن يقال : ﴿قرآناً﴾ حال و ﴿غريباً﴾ صفة ؛ لأن القرآن مؤكد به .

ومعنى ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي : مستقيما برياً من التناقض والاختلاف وسائر العيوب ، والعوج بكسر العين في المعاني كالعوج في الأعيان ، وقيل : المراد بالعوج : الشك واللبس ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما بالغ في شرح وعيد الكفار أردفه بذكر مثل يدل على فساد مذاهبيهم ، وقبيح طرائقهم ، فقال : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا﴾ بدل من (مثلاً) ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي : متباغضون متعادون في عبدتهم ، قالت الخنساء :
أَمَّنْ يَعُودُ بِحُلُمِهِ عِنْدَ التَّنَازُعِ وَالتَّشَاكُسِ

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي : سالماً من الشركة مملوكاً لرجل واحد ، وقرئ (سالماً) في السبع ، وهي قراءة أبي عمرو ، وابن كثير ، أي : خالصاً من الشركة ، وهذا مثل ضربه الله لمن يعبد أرباباً إن أكرم أحدهم أهان ضده ، وإن أرضى أحدهم أسخط عدوه، فهو في حيرة من أمره ، ولبسة في شأنه ، ومثل من يعبد رباً واحداً ، كمثل من يخدم سيلاً واحداً ، فهو سالم من تضاد الأرباب ، متخلص من الإسقاط والإغصاب . قال الهادي عليه السلام : هذا مثل ضربه الله تبارك وتعالى للذين يعبدون مع الله غيره ، ويشركون في أنفسهم من لم يخلقهم ، فمنهم من كان يزعم أنه يتقرب بذلك إلى الله ، ومنهم من كان يفعله جهلاً لله ، فغضب الله هذا المثل لهم ، يعلمهم فيه أن من أخلص العبادة لله ، ولم يجعل في نفسه شريكاً لله ، خلاف من يجعل مع الله في نفسه شريكاً ، وأن المخلص لله المفرد لعبادته ، الذي لم يجعل له في نفسه شريكاً يعبد معه أفضل وأعظم ممن جعل نفسه لاثنين . .

ثم قال : قوله : مصدر . فيمكن أن يقع حالا ، أي : مقرواً عربياً ، وقال أبو البقاء : ﴿قرآناً﴾ هو حال من القرآن موطنه ، والحال في المعنى قوله : ﴿عربياً﴾ وقيل : ينتصب بـ ﴿يتذكرون﴾ :

ثم أخبر سبحانه أن مملوكا لرجل سلما له أفضل عنده من شرك في مملوك بين اثنين، فهذا ما أراد الله سبحانه بهذا المثل ، تبارك وتعالى (١) . اهـ

وهذا مثل (٢) في غاية الحسن في تقبيح الشرك ، وتحسين التوحيد .

ثم قال تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ أي : هل يستوي حالهما ، قال في البرهان : ولم يقل مثلين ؛ لأنهما جميعا ضربا مثلا واحدا ، فجرى المثل فيها بالتوحيد ، ومثله ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية ﴾ (٣) ولم يقل : آيتين (٤) لأن شأنهما واحدة ، ولو قيل : مثلين ، وآيتين جاز ؛ لأنهما اثنان في اللفظ . اهـ

والمعنى : مثل لقومك يا محمد مثلا ، وقل لهم : ما تقولون في رجل مملوك ، اشترك فيه شركاء متشاكسون ، أي : مختلفون متنازعون ، كل يدعي أنه عبده ، يتجاذبونه في مهن شتى ، ويتواكلون في رزقه ، فهو متحير في أمره ، قد شعبت الهموم قلبه ، لا يدري أيهم يُرضي ، ولا أيهم يعتمد ، وفي آخر قد سلم للمالك واحد ، فهو مؤد خدمته ، معتمد عليه ، فَهَمُّهُ واحد ، وقلبه مجتمع ، أي هذين أحسن ؟ والمراد : تمثيل من ثبت آلهة شتى ، وما يلزمه على قياس مذهبه من نحو ما أشار إليه المثل ، وحال من لم يثبت إلا إلها واحدا ، فهو قائم بأمره ، عالم بما أرضاه وأسخطه ، متفضل عليه عاجلا ، مؤمل للثواب آجلا .

ثم قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الذي لا شريك له ، فيجب أن يختص بالحمد على أنه لم يأمرهم بعبادة غيره ، فيصير حالهم كحال العبد المشترك ، والأولى أن معناه : الحمد لله على فلاح الخصم ، وظهور الحجة ، أي : على أن بين ذلك وأوضحه ، بضرب

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٤٠ ، ٤٤١ ، وبقية العبارة : (أراد بذلك أن يبينهم على أفراد العبادة له ، وترك ما يعبدون من دونه ، ومعه) .

(٢) وفي النسخة ب (وهذا مثال في غاية الحسن) .

(٣) المؤمنون : ٥٠ .

(٤) في أ (اثنين) وفي ب (آيتين) ، وفي البرهان : (آيتين) وانظر البرهان مخطوط ٣٣٧ .

المثل وغيره ؛ لأنه لما بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد ، وثبت أنه لا إله إلا الواحد الأحد الحق — ثبت أن الحمد له لا لغيره .

ثم قال بعده : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن الحمد لله لا لغيره ، وأن المستحق للعبادة هو الله لا غيره ، وقيل : المراد أنه لما سبقت هذه الدلائل الظاهرة ، والبيانات الباهرة ، قال : الحمد لله على حصول هذه البيانات ، وظهور هذه البينات ، وإن كان أكثر الخلق لم يعرفوها ، ولم يقفوا عليها .

ولما تم الله تعالى هذا البيانات قال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ كانوا يتربصون برسول الله ﷺ موته ، فأخبر الله تعالى أن الموت يعمهم ، فلا معنى للتربص ، وشماتة الباقي بالفاني ﴿ تُمْسِكُمْ بِإِصْبَعِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي : ثم إنكم وإياهم ، فغلب المخاطب على الغائب ﴿ تَخْتَصِمُونَ ﴾ تختج أنت عليهم بأنك قد بلغت فكذبوا ، ويحتجون بما ليس بحجة ، فيقول الأتباع : أطينا ساداتنا ، ويقول السادات : أغوتنا الشياطين وآباؤنا ، وقد حمل على اختصاص الجميع ، وأن الكفار يتخاصمون ، ويخاصم المؤمنون الكافرين ، يكتوهم بالحجج ، قيل : وأهل القبلة يكون بينهم الخصام ، والوجه هو الأول . ذكر معنى هذا في التجريد وغيره .

والأولى أن المراد أن هؤلاء الأقوام وإن لم يلتفتوا إلى هذا الدلائل القاهرة ، بسبب استيلاء الحرص والحسد عليهم في الدنيا ، فلا تبال يا محمد بهذا ، فإنك ستموت وهم أيضا يموتون ، ثم نحشرهم يوم القيامة ، وتختصمون عند الله ، والعاقل الحق يحكم بينكم ، فيوصل إلى كل أحد ما هو حقه ، وحينئذ يتميز الحق من المبطل ، والصدِّيق من الزنديق ، فهذا هو المقصود من الآية ، والله أعلم .

ثم بين تعالى نوعا آخر من قبائح أفعالهم فقال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي : لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾ بإضافة الولد والشركاء إليه ﴿ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴾ هو ما جاء به محمد ﷺ ، ومعنى ﴿ إِذْ جَاءَهُ ﴾ يريد حين جاءه فاجأه

بالتكذيب حين سمع به من غير نظر ، ولا تفكر في صحته ، فكذبوه بعد قيام الدلائل القاطعة ، على كونه صادقا في ادعاء النبوة .

ثم أردفـه بالوعيد فقال : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أي : مقام هؤلاء ، والمثوى : موضع الثواء ، وهو الإقامة ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ هو رسول الله ﷺ (١) ، وهو القرآن جاء بالحق ، وأمر به ، كقوله : ﴿ آمَنَ الرُّسُولُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ جاء جمعا للتعظيم ، وقيل : المراد هو ومن تبعه ، وقيل : الذي جاء بالصدق وصدق به : جميع الأنبياء عليهم السلام ، فإنهم جاؤا بالصدق ، وصدقوا به ، أي : آمنوا بما جاؤا به ، يدل عليه الإخبار عنهم بالجمع في ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ ، وقيل : هما لاثنين غيرين (٣) ثم اختلف في ذلك .

والصحيح ما ذكره الحاكم في كتاب تنبيه الغافلين في فضائل الطالبين : أنها نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام ؛ لما روي عن النبي صلى الله عليه وآله : الصديقون ثلاثة : حبيب النجار مؤمن آل ياسين ، وحزقيل مؤمن آل فرعون ، وعلي بن أبي طالب مؤمن آل محمد .

وعن معاذة العدوية : سمعت عليا عليه السلام على منبر البصرة يقول : (أنا الصديق الأكبر ، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر ، وأسلمت قبل أن يسلم) (٤) .

(١) في شواهد التنزيل ، بسنده عن مجاهد : الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ ، والذي صدق به علي بن أبي طالب ، أخرجه من عدة طرق عنه ، وعن ابن عباس وأبي الطفيل . (شواهد التنزيل ١٢٢/٢) .

(٢) البقرة : ٢٨٥ .

(٣) أي : لاثنين مختلفين ، وعمر عنهما بالجمع ، كما هو مذهب البعض بأن أقل الجمع اثنان .

(٤) حديث معاذة العدوية أخرجه ابن عساكر في تاريخه ، وهو رقم ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، عن معاذة العدوية ، من عدة طرق . انظر ترجمة أمير المؤمنين من تاريخ ابن عساكر ، بتحقيق محمد باقر المحمودي ٦١/١ ، ٦٣ . قال السيد المحمودي في تحريجه :

وروي عن علي عليه السلام (أنا عبد الله وأخو رسول الله ، وأنا الصديق الأكبر ، لا يقولها بعدي إلا كاذب مفتر ، وقد صليت قبل الناس سبع سنين) (١). اهـ
واعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكاذبين ، والمكذبين للصادقين ، ذكر بعده وعد الصادقين للصادقين ؛ ليكون الوعد مقرونا بالوعيد ، ثم إنه تعالى أثبت للذي جاء بالصدق وصدق به أحكاما كثيرة .

الأول : أنه تعالى وصف المصدقين بكونهم متقين .

الحديث مع كونه مخالفا لشبهة آل أبي سفيان ، ومباينا لما اعتقدوه ، وكانوا يجتنبون الحديث مع كونه مخالفا لشبهة آل أبي سفيان ، ومباينا لما اعتقدوه ، وكانوا يجتنبون عن رواية أمثاله ، حرفا وطمعا ، وحكما وحسدا ، ومنع ذلك قد أجرى الله أقلام جماعة ، من أجل المتقدمين بروايته ، وإيداعهم إياه في أسفارهم ، فإليك بعض ما عثرنا عليه مما رواه أكابر القوم .. ثم خرج وعزاه إلى البلاذري في الحديث ١٤٦ ، من ترجمة أمير المؤمنين من أنساب الأشراف ، وابن قتيبة ، في عنوان (إسلام أبي بكر) من كتاب المعارف ، ص ١٦٩ ، والحديث * مما ورد في شأن علي عليه السلام في ختام ترجمته من سبط النجوم ٤٧٦/٢ ، وهو في شرح الخطبة القاصعة ١٨٣ من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/٢٥٧ ، طبعة قديمة (مصر) وعزاه إلى الأسكافي في رده على عثمانية الجاحظ ، والدولابي في الكنى والأسماء ٨١/٢ طبعة الهند ، والعقيلي في ضعفاته الورقة ٨١ ، وابن عدي في كتابه الكامل ٢/ الورقة ٤ ، وأحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل في كتاب الأحاد والمثاني ، الورقة ١٦ . اهـ باختصار ما قاله محمد باقر المحمودي .

(١) إلى هنا انتهى النقل من كتاب الحاكم ، والحاكم : الحاكم : هو الحاكم الجشمي الحسن بن سعيد بن كرامة ، وكتابه تنبيه الغافلين في فضائل الطالبيين ، بين فيه الآيات الواردة في أهل البيت عليهم السلام ، وهو الآن رهن التحقيق بإشراف السيد العلامة محمد حسين الجلالي حفظه الله .
وهذا الحديث أخرجه محمد بن سليمان الكوفي في مناقب أمير المؤمنين برقم ١٧٢ ، عن عباد الأسدي ، عن علي ٢٦٠/١ ، قال المحمودي في تحريجه : رواه أبو بكر بن أبي شيبة في الحديث ٢١ من فضائل علي عليه السلام من كتاب الفضائل تحت الرقم ١٢١٣٣ من كتاب المصنف ١٢/٦٥ ، طبعة الهند ، ورواه محققه في تعليقه عن الحاكم في المستدرک ٣/ ١١٢ ، ثم قال : وأخرجه ابن ماجه في سننه ١٢/١ ، والهندي في كتر العمال ١٥/ ١٠٧ عن ابن أبي شيبة ، ورواه النسائي بسند آخر في الحديث ٦٧٦ في كتاب خصائص علي ، والحديث له شواهد كثيرة .

والثاني : قوله تعالى : ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ واعلم أن قوله : ﴿عند ربهم﴾ لا يفيد العندية ، بمعنى الجهة والمكان ، بل المعنى قرب الميزة ، والإخلاص والشأن ، كما في قوله : ﴿عند مليك مقتدر﴾ (١).

والثالث : قوله تعالى : ﴿لِيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ معناه : ليغطي عنهم ذنوبهم ، ويستتر قبائحهم ، والتكفير هو الستر والتغطية في اللغة ، قال الشاعر :
في ليلة كفر النجوم غمامها

أي : ستر غمامها النجوم وغطاها ، وقوله : ﴿أسوأ الذي عملوا﴾ يريد أقبحه ، أي : في أنفسهم لاستعظامهم للمعصية ، وإلا فهو الصغائر ؛ لأنها أسوأ أعمالهم ؛ لأنهم كانوا مطيعين متقين ، فيكفرها بالآلام والمصائب في الدنيا ، ذكر هذا في البلغة .

وفي التجريد : ﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا﴾ يريد بالتوبة ، وإنما ذكر الأسوأ دون السيئ ؛ لأنه إذا كفر الأسوأ ، فبالأولى ما هو أقل سوءا ، وأما ذكر الأحسن في قوله عز وجل : ﴿وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيحتمل أن يراد بالأحسن ما كان له صفة زائدة على حسنه ، وهو الواجب والمندوب دون المباح فإنه حسن ، وليس بأحسن ، وقيل : المراد بأحسن ، أي : الحسن الذي يعملونه عند الله الأحسن ؛ لحسن إخلاصهم فيه .

الرابع : أنه جرت العادة بأن المبطلين يخوفون المحقين بالتخويفات الكثيرة ، فحسم الله مادة هذا الشبهة بقوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ أي : محمد ﷺ ، أدخلت الهمزة على كلمة النفي ، فأفيد إثبات الكفاية وتقريرها في النفوس .

ثم قال : ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي : أوثاقهم ، قالت قریش له ﷺ : إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا ، أو تصيبك بسوء لعيبك إياها ، فترلت . وفي هذا تمكيم هم ؛ لأنهم خوفوه بما لا يقدر على نفع ولا ضرر ، يعني لما ثبت أن الله كاف عبده

كان التخويف بغير الله عيباً وباطلاً ، ويجوز أن يريد بالعبد : العبيد ، أي : الأنبياء على الإطلاق ؛ لأنه كافيههم في الشدائد ، ولذلك قرئ (عبادنا) أي : أليس الله بكاف أنبياءه ، فكذلك شر من قصدك .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ ﴾ أي : يخذله ، لعدم قبوله اللطف ، إشارة إلى قريش ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أي : فما له من مرشد ، ولا هاد مسدد ، يقدر على هدايته ، أو من يحكم عليه^(١) ويسميه بالضلال لما ضلَّ ، أو من يضلّه في الآخرة عن طريق الجنة فلا هادي له ، والمعنى : أن تخويفهم بالأصنام ضلالة ليس بعدها شيء .

ثم قال : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ ﴾ أي : يحكم بهداه ، أو يسميه به إذ قبل هداه فاهتدى ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴾ يقدر على إضلاله .

ثم قال : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ﴾ غالب منيع ﴿ ذِي انْتِقَامٍ ﴾ من أعدائه ، وفيه تهديد ، ووعيد لقريش ، ووعد للمؤمنين بالنصرة عليهم [ولو كان الله جل وعلا هو الخالق للضلال والكفر فيهم كما زعمت المجرة لكان الانتقام والتهديد قبيحين عند كل عاقل . ثم اعلم أنهم مع عبادتهم غير الله يقرون أن الله تعالى هو الخالق الرازق المنتقم ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ يعني : قريشا ، أي : وأقسم لئن سألتهم يا محمد ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ لأنهم يقرون بذلك ، ولا يعملون بمقتضاه ، فلزمتهم الحجة^(٢) .

واعلم أنه تعالى لما أطنب في وعيد المشركين ، وفي وعيد الموحدين عاد إلى إقامة الدليل على تزيف طريقة عبدة الأصنام ، وبني هذا التزييف على أصلين ، الأول : أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم ، وهو المراد من قوله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ واعلم أن من الناس من قال : العلم بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم علم متفق عليه بين جمهور الخلاق ، ولا

(١) هو وجه ثان ، ومعنى آخر لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ ﴾ والأول : هو قوله : يخذله .

(٢) ما بين قوسي الزيادة غير موجود في النسخة ب ، وهو ثابت في النسخة أ .

مرء بينهم فيه ، وكأن فطرة العلم شاهدة بصحة هذا العلم ، فإن من تأمل في عجائب أحوال السموات والأرضين ، وفي عجائب أحوال النبات والحيوان ، وخاصة في عجائب بدن الإنسان ، وما فيه من أنواع الحكم الغريبة ، والمصالح العجيبة علم أنه لابد من الإعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم .

والأصل الثاني : أن هذه الأصنام لاقدرة لها على الخير والشر ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾ أي : أحبروني ﴿ مَا تَدْعُونَ ﴾ أي : ما تعبدون ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ من مرض أو فقر أو غيرهما ﴿ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ ﴾ من صحة وغناء وغيرهما ﴿ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ عني حتى لا تصيبي ، فَرَضَ المسألة في نفسه (١) ؛ لأنهم خوفوه ضررها ، وثبت أن هذا الأصنام لاقدرة لها على الخير والشر ؛ وإذا كان الأمر كذلك كان عبادة الله كافية ، وكان الإعتماد عليها كافيا ، وهو المراد من قوله سبحانه : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ كافيا لمعرفة أوثانكم ﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ومعناه : كفايتي الله عن كل معبود ومخلوق ، والعرب تقول : حسبك يا هذا لا تزد (٢) شيئا ، أي : معك الكفاية فلا تطلب أكثر مما معك ، قال الشاعر :

وأحسبته مالا رغبيا ولم أكن ضنيناً بما تحوي يدي من الوفر
أي : أعطيته من المال يحسبه ويكفيه ، وفيه فهم بهم ؛ لأنها غير مخوفة لعجزها وحقارتها ؛ لأنها جماد ، وزادها تضعيفا وتعجيزا بتأنيثها ؛ لأن الأنوثة من باب اللين والرخاوة ، كما أن التذكير من باب الشدة والصلابة (٣) .

(١) أي : أنه قال : أرادي ، ولم يقل : أرادكم ، أو أرادنا ؛ لأن هذا الكلام جاء بعد تقرير أن خالق العالم الله ، وأجاب بأن التقرير لم يكن بالأمر نفسه ؛ لأنهم خوفوه معرفة الأوثان .

(٢) وفي النسخة أ : حسبك يا هذا أن لا ترد شيئا .

(٣) وفي النسخة ب : وكان التذكير من باب الشدة والصلابة .

ولما أورد الله عليهم هذا الحجة التي لا دافع لها قال بعده على وجه التهديد : ﴿ قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ ﴾ أي : على موضعكم ومكانكم من الكفر ، وحالتكم التي أنتم عليها من العداوة ، التي تمكنت منها ، والمكانة بمعنى المكان ، فاستعير عن العين للمعنى (١) ، كما يستعار (هنا) و(حيث) للزمان ، وهما للمكان ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ أي : على مكاني في مجاهدتكم ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وعيد لهم بأنه غالب ومنصور عليهم في الدنيا والآخرة ، فالمقصود منه التخويف والتهديد ، والعرب تقول : مكانك لا تبرح على سبيل الوعيد ، قال الشاعر :

إن كنت حرا فاستقم لا تبرح حتى ترى كيف اصطدام القرح

معنى ﴿ مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُغْزِيهِ ﴾ أي : يذله وهو يوم بدر ، وقيل : العذاب عند الموت ﴿ وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ ﴾ أي : يثبت عليه في الآخرة ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي : دائم ، وهو عذاب النار .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ القرآن ﴿ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ﴾ ومعنى ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ أي : لأجلهم وحاجتهم ليسيروا وينذروا ، فتقوى دواعيهم إلى الطاعة لا الحاجة لي فأني غني .

واعلم أن النبي ﷺ كان يعظم عليه إصرارهم على الكفر كما قال : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم ﴾ (٢) وقال : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ (٣) فلما أظن الله تعالى في هذا الآيات في إفساد مذاهب المشركين ، تارة بالدلائل والبيانات ، وتارة بضرب الأمثال ، وتارة بذكر الوعد والوعيد ، أردفه بكلام يزيل ذلك الحزن العظيم عن قلب الرسول ﷺ فقال : إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ هَذَا الْكِتَابَ الْكَامِلَ الشَّرِيفَ ؛ لنفع الناس واهتدائهم به ، وجعلنا إنزاله

(١) قال السيد العلوي : قوله : فاستعيرت عن العين . أي : نقلت عنها ، ضُمن استعير معنى فعل ، فعدي تعديته .

(٢) الكهف : ٦ .

(٣) فاطر : ٨ .

مقرونا بالحق ، وهو المعجز ، الذي يدل على أنه من عند الله ﴿ فَمَنْ اهْتَدَى ﴾ فنفعه يعود إليه ﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ﴾ أي : فما يضر إلا نفسه ﴿ وَمَا أَتَى عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي : ما وكلت بإجبارهم على الإيمان ؛ لأن التكليف مبني على الاختيار دون الإجبار ، أو ما أنت عليهم بوكيل ، أي : تحفظ ما يضمرون من أمورهم ، وإنما عليك الإنذار والإعذار إليهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ أي يقبضها وقت أجلها ﴿ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ أي : يتوفى التي لم يحضر أجلها ، تشبيها للنائمين بالموتى ، لعدم تصرفهم وتمييزهم (١) ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى ﴾ وهي النائمة ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو الوقت الذي ضربه لموتها .

ثم قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي : التوفى للأنفس ميتة ونائمة ، والإمساك والإرسال إلى أجل ﴿ لَّآيَاتٍ ﴾ دلائل على قدرة الله وعلمه ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في ذلك ويعتبرون . قال في التحرير : أراد بالأنفس الجمل التي تكون حية ، وتوفىها : إمامتها ، وهي أن تسلب ما هي حية به ، حساسة دراجة ، فإذا زالت حياتها فكأنها قد سلبت الأنفس ، قال : وهذا قولنا — إن النفس ليست بجسم ، ومن قال : إن النفس والروح جسم فالتوفى والقبض لهما على جهة الحقيقة على ظاهرهما .

قال بعض علمائنا عليه السلام : إلا أنه لا بد من تذيير مضاف ، أي : عند موت أجسادها ؛ لأن الموت والنوم لا يعلق بالأنفس المنفصلة عن الأجساد ، وإنما الجملة هي التي تموت ، وهي التي تنام . اهـ

[الفرق بين النفس والروح]

ثم قال فيه : ومنهم من جعل النفس تطلق على شيئين ، وهما مما يصح انفصاله بالحقيقة ، أحدهما : مابه يقع العقل والتمييز ، والثاني : ما يعم هذا ، والمسمى

(١) قال السيد العلوي : إن قيل : يلزم على هذا استعمال اللفظ الواحد في معناه الحقيقي والمجازي ؟ قلنا : إنما يلزم لو لم يضم يتوفى قبل قوله : ﴿ التي لم تمت في منامها ﴾ لكنه مضمّر كما ذكره .

بالروح ، فقوله : ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ أراد الأرواح عند موت أجسادها ، قال : وقال قوم وروي عن ابن عباس : أن في ابن آدم نفسا وروحا ، بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس : التي بها العقل والتمييز ، والروح التي بها النفس والتحرك ، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ، ولم يقبض روحه ، ثم يردها إلى الجسد عند الإنتباه .

والحاصل من هذا ثلاثة أقوال ، الأول : أن النفس والروح هما شيان ، وهما مما يصح انفصاله بالحقيقة ، وثانيها : أنهما شيء واحد ، وهما مما يصح انفصاله عن الجسد أيضا ، وثالثها : أن الروح هو الحياة ، وهي عرض لا يصح انفصاله بالحقيقة ، وإنما يعدم لورود ضد عليه عند من يجعل الموت معنى . وقيل : الروح غير الحياة ؛ لأن الحياة عرض ، والروح جسم ، ولكنه من لوازمها ، قالوا : الروح من الريح ، وهو النفس الذي يردده الحي ، وهو جسم ، وهذا ذكره ابن متويه والحاكم . اهـ كلام التجريد .

قلت : وأحسن من هذا ما حكاه السيد حميدان عليه السلام عن أئمة العترة عليهم السلام أن العقل والنفس من جملة الأعراض التي خلقها الله سبحانه ، وجعل محلها القلب ، وأن مثل حلول العقل فيه كمثّل حلول البصر في العين ، ولذلك قال الله سبحانه : ﴿فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ ^(١) وقال : ﴿فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ ^(٢) ومثّل حلول النفس فيه كمثّل حرارة النار في النار ، ولذلك قيل : إنها تقوى بالوسواس كما تقوى النار بالخطب ، ووجه الحكمة في خلق العقل هو كونه نعمة من أتم النعم ، ووجه الحكمة في خلق النفس هو ما

(١) الحج : ٤٦ .

(٢) الحج : ٤٦ .

فطُرت عليه من محبة صلاح ما لا بد منه من أمور الدنيا ، ووجه الحكمة في مقارنة النفس للعقل هو ما أراد الله سبحانه من الإختبار والإمتحان (١) . اهـ

وأما الأنفس المرادة في الآية فهي الأرواح التي ركبها الله سبحانه في الأجسام .

قال الهادي إلى الحق عليه السلام : هذا إخبار من الله سبحانه لقدرته على قبض أرواح العالمين في كلتا الحالتين ، حالة الموت ، وحالة المنام ، فأخبر سبحانه أنه يتوفى نفس الميت عند انقضاء أجله ، وفناء عمره ، ويتوفى نفس النائم عند نومه ، ومعنى توفيه لنفس النائم : فهو بما ركب سبحانه وجعل وقدر من خروج نفس الإنسان عند نومه ، حتى يبقى بدنه ميتا لأرواح فيه ، فأخبر عز وجل أن الروحين خارجان في هذين الوقتين ، وأنه يحبس روح البدن الذي قضى عليه الموت عن الرجوع إلى بدنه ، ويرسل روح النائم الذي لم يقبض عليه الموت ، فترجع إلى أجل مسمى ، كما قال جل وعلا : ﴿ ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴾ يقول : إلى وقت معلوم ، كما كان للآخر ، فإذا جاء الوقت لم يرجع الروح بعد خروجه من البدن .

ثم أخبر سبحانه فقال : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ يقول : في ذلك عبر للمتفكرين ، ودلائل على الله للمستبصرين ، وأيُّ دلالة أو آية أدل على الله سبحانه من روحين يخرجان من بدنين ، فيمسك أحدهما فيذهب روحه عن بدنه ، ويصير إلى موته ، ويرجع الروح الآخر إلى مكانه ، إلى يوم مفهوم ، وقدر عند الله معلوم (٢) . اهـ

واعلم أن الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالا فقالوا : نحن لانعبد هذا الأصنام لاعتقاد أنها آلهة تنفع وتضر ، وإنما نعبد لأجل أنها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقربين ، فنحن نعبدها لأجل أن يصيروا أولئك شفعاء لهم عند الله ، فأجاب الله عنه بأن قال : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ﴾ أم : هي أم المنقطعة ، بمعنى بل وهمة

(١) مجموع السيد حميدان (مخطوط) .

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٤١ ، وبقية العبارة : وهذا مالا يجهل دلالة من فعل الله إلا أعمى جائر عن الله ، أو مشرك جاحد لآيات الله .

الإنكار ، أي : بل أأخذ قريش من دون الله شفعاء ، أي : يشفعون من غير أن يأذن الله لهم بالشفاعة ، حين قالوا : ﴿ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (١) .

قال في التجريد : والأولى أن يراد أم اتخذوا آلهة من دون الله ، أي : غير الله وهم شفعاء الأصنام .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا ﴾ أي : قل يا محمد : أيشفعون ولو كانوا ﴿ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ﴾ من الشفاعة ، ولا يقدرُونَ ؛ لأهم حماد ﴿ وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ والمعنى : أيشفعون وهذا صفتهم ، فقال لنبيه ﷺ ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ أي : إلى الله السؤال والطلبية كلها لا إلى غيره ، فلا يملك أحد الشفاعة إلا بتخليكه .

قال الرازي : وتقرير الجواب أن هؤلاء الكفار إما أن يطمعوا بتلك الشفاعة من هذه الأصنام ، أو من أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لها ، والأول باطل ، لأن هذه الأصنام جمادات فلا تملك شيئاً (٢) ، ولا تعقل شيئاً ، فكيف يُعَقَّل صدورُ الشفاعة عنها ، والثاني باطل ؛ لأن يوم القيامة لا يملك أحد شيئاً ، ولا يقدر أحد على الشفاعة إلا بإذن الله ، فيكون الشفيع في الحقيقة هو الله ، الذي يأذن في تلك الشفاعة ، فكان الإشتغال بعبادته أولى من الإشتغال بعبادة غيره ، وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ ثم بين أنه لا ملك لأحد غير الله بقوله سبحانه : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . اهـ

والشفاعة من جملة الملك ، فلا أحدا يشفع إلا بإذنه ومن ارتضى ، وهو تقرير لكونه ما لكهما ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة ، فله ملك الدنيا والآخرة .

ثم حكى سبحانه نوعاً آخر من الأعمال القبيحة للمشركين فقال : ﴿ وَإِذَا دُكِرَ لِلَّهِ وَحْدَهُ ﴾ دون آلهتهم ﴿ اسْتَمَارَّتْ ﴾ أي : نفرت وانقبضت ﴿ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ .

(١) يونس : ١٨ .

(٢) عبارة الرازي : لأن هذه الجمادات وهي الأصنام . الرازي ٢٦/٢٨٥ .

[قال في التجريد] (١): وفي المراد بذكر الله وجهان ، أحدهما : أن يراد إذا وحده الله ونفيت آلهتهم ، وذلك بنحو لا إله إلا الله ، وثانيهما : إذا أفرد الله بالذكر وإن لم يُنف آلهتهم ولا تُثبت (٢) .

وفي معنى الإشتزاز قولان ، أحدهما : أنه التقبض ، والثاني : أنه النفور .
ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا دُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعني آلهتهم ذكر الله معها أو لم يُذكر ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أي : يسرون ويفرحون بالشرك ، ويستبشرون .
قال جار الله : الإشتزاز والإستبشار متقابلان ، فالإشتزاز : أن يمتلئ القلب غيضا وغما ، حتى يظهر الانقباض في أدم الوجه ، والإستبشار : أن يمتلئ القلب سرورا حتى تنبسط له بشرة الوجه ويتهلل (٣) .

وهذا كالجمع بين القولين الأولين ، وليس به ؛ لأن الظاهر أن التقبض في القلوب .
ولما حكى الله عنهم هذا الأمر العجيب الذي تشهد فطرة العقل بفساده ، أردفه بأمرين .

أحدهما : أنه ذكر الدعاء العظيم ، فوصفه أولا بالقدره التامة ، وهو قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : مبتدعهما ، ثم بالعلم الكامل (٤) ، وهو قوله : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ قيل : لما اشتد عليه ﷺ الأمر من مقاساة قومه ، قيل له : ادع الله بأسمائه العظمى ، التي منها عالم الغيب والشهادة : ما علموه وشاهدوه .

(١) ما بين القوسين غير موجود في النسخة ب .

(٢) والعبارة في النسخة ب (إذا أفرد الله وإن لم يُنف آلهتهم ولا يُثبت)

(٣) ذكر المصنف عبارة الزمخشري بالمعنى ، وعبارة الكشف : ولقد تقابل الاستبشار والاشتزاز ، إذ كل واحد منهما غاية في بابه ، لأن الاستبشار : أن يمتلئ قلبه سرورا ، حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل ، والاشتزاز : أن يمتلئ غما وغيظا حتى يظهر الانقباض في أدم وجهه . (الكشاف ٤/١٣٢) .

(٤) هو القسم الثاني الذي ذكر أنه أردفه بأمرين ، الأول : أنه ذكر الدعاء العظيم ، والثاني : العلم الكامل .

ولما ذكر الله هذا الدعاء قال : ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الحق والباطل ، أي : أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم ، لا حيلة لغيرك فيهم ، وفيه وصف لهم بشدة الكفر ، وإعذار وتسلية له ﷺ ، ووعيد لهم . واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل ذكر في وعيدهم أشياء أولها قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الأموال والممالك ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أنفسهم ، أي : لاستخلصوا بها ﴿مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾ أي : شدته ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وهذا وعيد لهم ، ولكل ظالم ، والفدية : هي العوض من الشيء ، بمثالة الثمن في البيع ، قال القاسم بن ابراهيم عليه السلام يرثي أخاه :

يا شخص من لو تكون الأرض فديته ما ضاق مني به ذرع ولا خلق
بيننا أرحيك تأملا وأشفق أن يغبر منك جبين واضح يقق
أصبحت نخشى عليك التراب في حدث حتى عليك لما يخشى به طبق

والثاني قوله : ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَخْتَسِبُونَ﴾ هذا وعيد عظيم ، أي ظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يكن في حسابهم ، ولا حدثوا به أنفسهم ، وقيل : عملوا أعمالا حسبوها حسنات فإذا هي سيئات ، والمراد أنها ظهرت لهم أنواع من العقاب لم تكن في حسابهم ، وكما أنه ﷺ قال في صفة الثواب في الجنة : (فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) فكذا في العقاب حصل مثله .

وثالثها : قوله تعالى : ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي : سيئات أعمالهم التي كسبوها ، وروي أن محمد بن المنكدر جزع عند الموت ، وقال : أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب ، ثم قال : ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي : نزل وأحاط بهم من كل الجوانب

جزاء ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي : هزؤهم بالإسلام وأهله ، فنبه تعالى بهذا الوجوه على عظيم عقابهم (١) .

ثم حكى تعالى طريقة أخرى ، فبين قبح طريقة الإنسان فيما هو عليه عند الشدة والرخاء بلفظة وجيزة فصيحة ، فقال سبحانه : ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا﴾ لكشفه قيل : يراد به الكافر ، وهو أبو حذيفة بن المغيرة ، قاله مقاتل ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَتْهُ نِعْمَةٌ مِّنَّا﴾ أي : صحة وغنى ، والتحويل : الإيعطاء لغير جزاء يرجى ، ولا تقدم صنيع ، فهو مختص بالفضل ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ أي : هذا العطاء ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ أي : مني أني سأعطاه ، لما في من فضل واستحقاق ، أو على علم من الله بي ، وباستحقاقي ، أو على علم مني بوجوه الكسب ، كما قال قارون : ﴿على علم عندي﴾ (٢) فرد الله عز وجل عليه إنكارا لقوله ، فقال سبحانه : ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كأنه قال : ما حولناك لما تقول ، بل هي فتنة ، أي : ابتلاء لك واختبار ، أتشكر عليها فستحق ثوابنا ، أم تكفر فستحق عقابنا ، وذكر الضمير في ﴿أُوتِيتُهُ﴾ حملا على المعنى ، كأنه قال : رزقا ، وأنه في قوله : ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ حملا على اللفظ .

ثم قال تعالى : ﴿قَدْ قَالُوا﴾ أي : الكلمة ، أو الجملة من القول ، وهي ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ وقوله : ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهم قارون ، وقومه ، حيث قال — وقومه راضون — : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ فكأنهم قالوها ، ويجوز أن يكون في الأمم الماضية آخرون ، قالوا مثلهم .

ثم قال تعالى : ﴿فَمَا أَغْنَىٰ﴾ أي : مانع ، ولا دفع عذاب الله ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ عنهم من متاع الدنيا ، من الأموال التي جمعوها ، وقيل : أراد ما يعملون

(١) وفي النسخة ب : على عظم عقابهم .

(٢) القصص : ٧٨ .

من الكفر وعبادة الأصنام ، بل قال تعالى : ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أي : جزاء ما كسبوا من أنواع الكفر والمعاصي .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ ﴾ الحاضرين الذين يقولون : إنما أوتينا هذه الخيرات على علم ، يعني مشركي مكة ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أي : مثل ما أصاب أولئك ، وهو قتل صناديدهم يوم بدر ، وحبس الرزق عنهم ، أي : المطر ، قحطوا سبع سنين .

ثم قال : ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي : سابقين الله ، ولا بفائتين عليه ، ثم وعظهم فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ ﴾ يريد : يوسعه ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : يضيق على من يشاء على مقتضى الحكمة ، وليس ذلك لأجل الطبائع والأنجُم ، قال الشاعر :

فلا السعد يقضي به المشتري ولا النحس يقضي علينا زحل
ولكنه حكم رب السماء وقاضي القضاء تعالى وجل
وليس البسط يدل على كرامة المبسوط لهم ، ولا التضيق على هوانهم ، والمعنى : ألم تعلموا أنه لا قابض ولا باسط إلا الله ؛ لأنهم مُطِرُوا بعد القحط سبع سنين ، أي : فلم تشركون بي ؟ .

ثم أخبر سبحانه فقال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ البسط والقبض ﴿ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : دلائل على وحدانيته ، وقدرته .

ولما أطنب تعالى في الوعيد والترهيب أردفه بشرح عظيم رحمته وفضله وإحسانه على عبده ، وقبول توبته فقال سبحانه : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ ﴾ أي : أبلغهم هذا اللفظ محكما يا عبادي ﴿ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي : جنوا عليها بالإسراف ، أي : الزيادة في المعاصي والغلو فيها ﴿ لَّا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ لا تيأسوا من نعمته عليكم بالمغفرة إذا تبتم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ بشرط التوبة ؛ لأنها مشروطة

في غير موضع من القرآن ، وهو في حكم كلام واحد ، فلا بد من الشرط في جميعه ، وإلا تناقض وهو محال .

[سبب النزول]

قال في التجريد : قيل نزلت في ناس من المشركين ، كانوا قَتَلُوا فَأَكْثَرُوا ، وزنوا فَأَكْثَرُوا ، ثم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : إنما تدعوننا إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لِمَا عملنا توبة ؟ فترلت ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

وقيل : إن أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان ، وقتل النفس — لا يغفر له ، فكيف فهاجر ونسلم وقد فعلنا ذلك ؟ فترلت ، وهذا مروى عن ابن عباس أيضا .

وقيل : نزلت في عياش بن ربيعة ، والوليد بن الوليد ونفر معهما ، كانوا قد أسلموا ثم عذبوا فافتنوا ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : لا يقبل الله من هؤلاء صرفا ولا عدلا ، قوم تركوا دينهم لعذاب عُدُّبُوا به ، فترلت ، فكتبها عمر إلى عياش والوليد وأولئك نفر فأسلموا ، وهاجروا ، قاله ابن عمر .

وعن ثوبان عن النبي ﷺ أنه قال : ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية ﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ (١) .

قال المرتضى عليه السلام : فبين الله تعالى أن التوبة مقبولة من جميع عباده ؛ لأن الآية منتظمة (٢) لجميع خلقه ، والمتعبدين من بريته ، ومثل ذلك في القرآن كثير موجود من بسط التوبة ، والحض منه تعالى لهم على الرجعة . اهـ

ثم قال : ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ أي : العظيم الغفران ﴿الرَّحِيمُ﴾ الواسع المغفرة لمن تاب بدليل قوله : ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي : توبوا وارجعوا إليه ، ففيه دلالة على

(١) الحديث في الكشف ٣/٣٥٢ ، قال ابن حجر في تخرجه : الطبري ، و الطبراني في الأوسط ، والبيهقي في الشعب في السابع والأربعين من حديث ثوبان .. الخ .

(٢) في النسخة ب (لأن الآية متضمنة لجميع خلقه .

اشترط التوبة [وقد بين الله حكمه فيهم في كتابه بقوله تعالى : ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ (١) فلم يوجب لهم المغفرة إلا شريطة التوبة .
ثم قال جل ذكره تأكيداً للبيان في وعيد أهل الصلاة من الذنب والآثام ، والمعتدين لحدود الله : ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً﴾ (٢) فأخبر أن من حكمته أن لا يعفو إلا من بعد توبة .

ثم قال سبحانه مؤكداً ومحذراً وزاجراً ومنبهاً وواعظاً ، ومخوفاً ، وراحماً ، وناظراً : ﴿وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك اعتدنا لهم عذاباً﴾ (٣) الآية فأخبر تعالى أنه لا يقبل التوبة عند الموت من الكافرين ، ولا من الفاسقين من أهل الصلاة ، فأزاح الشك في أمرهم ، أنه لا يجوز أن يغفر لهم بعد الذنب بلا توبة تكون منهم ؛ لأنه لو كان ذلك مما يجوز في وصفه وحكمه لقبل منهم التوبة عند الموت ، التي يقبولها يكون الغفران ، فلما ردها عند المعاناة ، ولم يقبلها ، قطع الغفران عند عباده الفهمين عنه ، وحذرهم بعقابه تحذيره أن لا يؤخروا التوبة إلى وقت لا ينفعهم قبولها فيه ، كما لا ينفع غيرهم من الكافرين ، ولولا ما أوجبه إعلامه مع قطع عذرهم ، والرحمة لهم ما قرنه برد توبة الكافر ، وإنما أراد بذلك تعالى إزاحة الشك عنهم ؛ لأنه لو جاز الشك في ذلك ، وقد قرنه برد توبة الكافر لجاز الشك في وعيد الكافرين ، وإن كان لم يقبل توبتهم عند الموت .

(١) آل عمران : ١٣٥ .

(٢) النساء : ١٧ .

(٣) النساء : ١٨ .

ثم أكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ من يعمل سوءا يجز به ﴾ (١) وأكد للقاتل الخلد في النار ، ثم أكد ذلك وبينه بقوله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ إلى قوله : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا ﴾ (٢) فأخبر أنه لا يغفر للكافرين ولا لغيرهم من الزناة والقاتلين إلا بالتوبة والعمل الصالح ، فإذا كان لا يجوز ذلك في حكمه ، فأن لهم الغفران في القيامة ! تعالى الله عما يدعيه أهل النقص والجهل والعمى من إخلاف وعيده علوا .
ثم أكد ذلك بسنة نبيه ﷺ فقال عليه السلام : (إن التوبة مبسوطة دون أن يتغرغر المرء بنفسه ودون المعاينة) .

ثم قال سبحانه ﴿ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ أي : أخلصوا له العبادة ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ﴾ أي : عذاب المعاصي ، التي أمرتم بالتوبة عنها (٣) ، وقيل : عذاب الاستئصال ، وقيل : وقت الترع ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ بدفعه عنكم .
قال جار الله : وإنما ذكر الإنابة على أثر المغفرة لئلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة ، وللدلالة على أنها شرط فيها لازم ، لا تحصل بدونه (٤) .

قلت : ولا يلتفت إلى تشكيك الرازي في هذا القاعدة ، وطول احتجاجه بالشبه الفاسدة ؛ لأن الله سبحانه إذا أجمل الكلام في موضع ، وبينه في موضع آخر ، كقوله تعالى : ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ (٥) فإنه يجب أن يرد المحمل إلى المفسر ، وإلا تناقض وهو محال ، وإنما يجوز تأويل كلام الله بما لا يؤدي إلى [وقوع] (٦) التناقض والركاكة فيه ، ألا تسمع إلى قول الله عز وجل : ﴿ والذين

(١) النساء : ١٢٣ .

(٢) الفرقان : ٦٨ — ٧٠ .

(٣) في النسخة ب (التي أمرتم بالتوبة منها) .

(٤) الكشاف ١٣٦/٤ .

(٥) طه : ٨٢ .

(٦) ما بين القوسين من النسخة ب .

عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴿١﴾
فَاعْلَمْ سُبْحَانَهُ أَنْ الذُّنُوبَ وَإِنْ جَلَّتْ وَعَظُمَتْ ، فَإِنْ عَفَوْهُ وَكَرَّمَهُ أَعْظَمَ وَأَجَلَ ،
ولكن من حفظ الشريطة ، وهي التوبة والإنابة ، وما وراء ذلك طمَّع فارغ ،
وأشعية باردة ، لا يلتفت إليها حازم .

ولما أخبر الله بالمغفرة ، وأمر عباده بالإنابة — أمرهم بمتابعة الأحسن فقال تعالى :
﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي : الفرائض قاله زيد بن علي عليه السلام .
وفي تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام : يعني القرآن أحسن ما أنزل الله من الكتب . اهـ
وأراد المحكم دون المتشابه ، والناسخ دون المنسوخ ، وقيل : اختاروا الأفضل على
المفضول ، كالعفو عن القصاص ، وإخفاء الصدقة على إبدائها ، والواجب على
المندوب ، والمندوب على المباح ، وقيل : أراد جميع الطاعات فإنها أحسن من
المعاصي ، كقوله تعالى : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ (٢) وقوله : ﴿وَهُوَ
أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (٣) .

ثم قال تعالى : ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ [أي] (٤) : من قبل الموت ، أي :
تموتون ﴿بِفِتَّةٍ﴾ مفاجأة على غفلة ، فتقعون في العذاب ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾
والمراد منه التهديد والتخويف ، والمعنى : أنه يفاجئكم العذاب ، وأنتم غافلون عنه .
واعلم أنه تعالى لما خوفهم بالعذاب بين تعالى أنه بتقدير نزول العذاب عليهم ماذا
يقولون ، فحكى عنهم ثلاثة أنواع [من الكلمات] (٥) فالأول قوله تعالى : ﴿أَنْ تَقُولَ

(١) الأعراف : ١٥٣ .

(٢) الفرقان : ٢٤ .

(٣) الروم : ٢٧ .

(٤) ما بين القوسين من النسخة ب .

(٥) ما بين القوسين ساقط في النسخة ب ، وثابت في النسخة أ .

نَفْسٌ ﴿١﴾ هي نفس الكافر ، أو أراد تكثير الأنفس (١) ، أي : كراهة أن تقول نفس ، وقيل : تقديره بادروا أن تقول نفس ، أو احذروا أن تقول نفس ﴿يَا حَسْرَتًا﴾ هو نداء على الحسرة ، أي : احضري . قال الحسين بن القاسم عليه السلام : يريد لئلا تقول نفس : يا حسرتا ، أي : تقول : يا حزناه ويا قطيعتاه ، والحسرة : هي الإنقطاع والإخسار ، والعرب تقول : انحسر البعير إذا انقطع سيره وأعيا ولغب قال الشاعر :

إذا قيل هذا الحق لا ميل دونه فأنضأؤهم في الحق حسرى ولغب
﴿عَلَى مَا قَرُطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ والتفريط هو التواني قال أمير المؤمنين عليه السلام
وإذا اتخذت يدا فلست مفرطا فيما فعلت به ولا بمقصر
ومعنى ﴿في جنب الله﴾ أي : في جهة الله ، والمراد الجهة التي أمر الله أن تؤتى ، وهي الطاعة ، يقال : أنا في جنب فلان ، وجانب فلان ، وفلان لين الجنب والجانب ، وفراط في جنبه وفي جانبه ، أي : في حقه ، فقوله : ﴿في جنب الله﴾ أي : في دين الله وحقه وطاعته ، وهذا من باب الكناية ؛ لأن ما أثبت في جانب الرجل فقد أثبت في مكانه (٢) ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أي : من المستهزئين المتلعبين ، لم

(١) السلف في أ : أو أراد الكثير من الأنفس . قال السيد العلوي رحمه الله : في تنكير نفس وجوها : أحدها — أن يكون التنكير للإفراد نوعا ، وثانيها : أن يكون له شخصا ، وثالثها : أن يكون للتكثير ، كما في قول الأعشى :

ورب بقيع لو هفت بجوه أثنائي كرم ينفض الرأس مغضبا

وقبله :

دعا قومه حولي فجاءوا لنصره وناديت قوما بالمسناة غيبا

المسناة : العرم ، والبقيع : موضع فيه إرم السحر من ضروب شتى ، ومنه بقيع الغرقد مقبرة المدينة ، والغرقد شجر كأنه لما تقاعد قومه عن نصرته وغابوا عنها قال ذلك . ومعنى (أثنائي كرم) أي : كرام كثير لنصري ، وعلم ذلك من المقام ؛ لأنه مقام المدح بكثرة ناصريه ، ومعنى (ينفض الرأس) يحركه غضبا ، ورب في هذا الموضع للتكثير .

(٢) قال السيد العلوي : وهذا على الطريق البرهاني ، كما أن زياد الأعجم جعل السماحة والمرؤة والندى ، المعرفة بتعريف الجنس في مكان ابن الحشر ، أي : في قبة مضروبة عليه ، في قوله :

يكفه تفريطه في طاعة الله حتى سخر من أهلها ، والمعنى أنه فرط في الطاعة حال السخرية ، فتحسر على ذلك ، و ﴿إِنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة .
النوع الثاني من الكلمات التي حكاها الله عنهم قوله تعالى : ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ الدافعين العذاب عن أنفسهم ، بتقوى الله ، يقوله هذا الكافر يوم القيامة تحسرا وتعللا بما لا يجدي ، وليس يدل على صحة أن الله تعالى لم يهده ؛ لأنه سبحانه قد هداه ، وإلى طريق الحق والرشد دعاه ، ولكنه لم يتبع هداه ، ونظيره ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ (١) وإنما قلنا ذلك ؛ لأن الهداية من الله لا بد منها ، بمعنى الدلالة والبيان للهدى ، والتحذير من المهالك والردى ، وقد فعل ذلك لكل أحد جل وعلا ، وفي معنى هذا الآية رد صريح على المجبرة حيث قالوا : إن الله لم يهد العصاة ، وإنه لو هداهم لآمنوا فأخبر الله في هذا الآية أنه قد هداهم لئلا يقولوا ذلك ، فلم يقبلوا هداه ، وناداهم فلم يسمعوا نداءه ، وإنما فعلوا الكفر بسوء اختيارهم ، واتباع شهواتهم .

واعلم أن الهدى كما قال المرتضى عليه السلام : هديان من الله ، فالأول : هو ما دل عليه عز وجل وهدى إليه من الشريعة ، التي بعث بها محمدا خاتم النبيين ﷺ فهداهم سبحانه إلى سبب لم يكونوا يعرفونه (٢) إلا بالله عز وجل ، مع ماركب فيهم من عقولهم ، وجعل فيهم من تمييزهم ، وجعل لهم به السبيل إلى ما به تعبدهم .
والهدى الثاني : فهو هدى توفيق وتسديد ، وذلك قوله سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ (٣) فقال : الذين اهتدوا واقتدوا بما أمروا به ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾

إن المرؤة والسماحة والسندی فی قبة ضربت علی ابن الحشر

فأفاد اختصاصها به بأبلغ وجه ، يعني إذا رمتها لم تجد شيئا منها خارجا عن مكانه ، أي : عنه .

(١) إبراهيم : ٢١ .

(٢) واللفظ في النسخة أ : لم يكونوا يعرفونه إلا بالله .

(٣) محمد : ١٧ .

يقول: استحقوا التوفيق والتسديد والعون والتأييد . فالهدى الأول من الله تبارك وتعالى ابتداء ، وإقامة حجة على الخلق ونعما ، والهدى الثاني مكافأة على فعلهم لما كان من مسارعتهم في طاعة ربهم . اهـ

والنوع الثالث : قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ﴾ أي : رجعة إلى الدنيا ﴿ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ثم رد الله تعالى قوله : لو أن الله هداي ، بقوله : ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَ ثَلَاثُ آيَاتِي ﴾ أي : بلى قد هديت وجاءتك مني دلائل الهدى ﴿ فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ ﴾ عن الإيمان بها ﴿ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ وإنما أخره هنا لئلا يفرق بين القرائن الثلاث ، وهي أقوال النفس ، فحكاها ، حتى إذا تمت أجاب عما يقتضي الجواب ، وحاصل الكلام أن هذا المقصّر أتى بثلاثة أشياء ، أولها : التحسر على التفريط ، وثانيها : التعلل بفقد الهداية ، وثالثها : تمني الرجعة ، ثم أجاب الله عن كلامه بأن قال : التعلل بفقد الهداية باطل ؛ لأن الهداية كانت حاضرة ، والأعذار زائلة .

[دلالة الآية على هدم مذاهب المجبرة]

واعلم أن هذا الآيات دلت على صحة القول بالعدل ، وأبطلت قواعد المجبرة من وجوه الأول : أنه لا يقال : فلان أسرف على نفسه — على وجه الذم — إلا بما يكون من قبلة ، وذلك يدل على أن أفعال العباد تحصل من قبلهم لا من قبل الله ، تعالى عما يقولون .

وثانيها : أن طلب الغفران والرجاء في ذلك ، أو اليأس لا يحسن إلا إذا كان الفعل فعل العبد .

وثالثها : إضافة الإنابة والإسلام إليه من قبل أن يأتيه العذاب ، وذلك لا يكون إلا مع تمكنه من أن يختارهما قبل نزول العذاب ، ومذهبهم أن الكافر لم يتمكن قط من ذلك .

ورابعها : قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ (١) وذلك لا يتم إلا ممن هو مختار للإتباع .

وخامسها : ذمه لهم على أنهم لا يشعرون بما يوجب العذاب ، وذلك لا يصح إلا مع التمكن من المعرفة .

وسادسها : قولهم ﴿ يا حسرتا ﴾ ولا يتحسر المرء على أمر سبق منه إلا وكان يصح منه أن لا يفعله .

وسابعها : قوله ﴿ على ما فرطت ﴾ ومن لا يقدر على الإيمان — كما تقوله هذا الفرقة ، ولا يكون الإيمان من فعله — لا يكون مفرطاً .

وثامنها : ذمه لهم بأنهم من الساخرين ، وذلك لا يتم إلا والسخرية فعلهم ، وكان يصح منهم أن لا يفعلوه (٢) .

وتاسعها : قولهم ﴿ لو أن الله هداني ﴾ أي : مكنتي ﴿ لكنت من المتقين ﴾ وعلى قولهم إذا لم يقدر على التقوى فكيف يصح ذلك منه ! .

وعاشرها : قولهم ﴿ لو أن لي كرة فأكون من المحسنين ﴾ وعلى قولهم : لو رده الله [أبدا] كرة بعد كرة ، وليس فيه إلا قدرة الكفر لم يصح أن يكون محسناً .

والحادي عشر : قوله تعالى موبخاً لهم ﴿ بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها ﴾ [واستكبرت وكنت من الكافرين] ﴿ فبين تعالى وأخبر أن الحجة عليهم لله ؛ لا أن الحجة لهم على الله تعالى ، ولو أن الأمر (٣) كما قالوا لكان لهم أن يقولوا : قد جاءتنا الآيات ، ولكنك خلقت فينا التكذيب بها ، ولم نقدر على التصديق بها .

والثاني عشر : أنه تعالى وصفهم بالتكذيب ، والإستكبار ، والكفر على جهة الذم ، ولو لم تكن هذا الأشياء أفعالا لهم لما صح هذا الذم .

(١) الزمر : ٥٥ .

(٢) اللفظ في الرازي ، وفي النسخة ب : أن لا يفعلوه . وفي النسخة ب : أن لا يفعلوها .

(٣) في الرازي : الأمر ، وفي المصاييح النسخة أ : المراد .

قلت : ذكر هذه الوجوه المأخوذة من هذه الآيات المحكمات الرازي ، ولم يذكر لأصحابه جوابا عنها (١) سوى المعارضة بالآيات المتشابهة ، حيث قال ما هذا لفظه : هذا الوجوه معارضة بأن القرآن مملوء من أن الله هو الذي يضل ويمنع ، ويصد ، ومنه اللين والقسوة والإستدراج (٢) . اهـ كلامه — فاعتمد على هذا ونحوه من المتشابه ، وقد أثيرك الله عز وجل بصفة من اتبع المتشابه ، حيث يقول : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ (٣) ومعنى ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ أي : ميل عن الحق [وأهله] (٤) ، ويريد بالفتنة : المجادلة للحق وأهله ، فدم الله تعالى من اتبع المتشابه واعتمد عليه ، ولم يرده إلى المحكم من كتابه .

ثم أخبر تعالى عن نوع آخر من أنواع الوعيد فقال : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ بإضافة الولد والشريك ، وأفعال عباده إليه ، وقولهم : ﴿ لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَعْبَدْنَاهُمْ ﴾ (٥) وقولهم : ﴿ وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا ﴾ (٦) وقد روي عن الحسن أن هذا الآية نزلت في الجبرة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ﴾ ورواية الحسن عن النبي ﷺ أنه قال : (ما بال أقوام يصلون ، ويقرأون القرآن ، يزعمون أن الله كتب الذنوب على العباد ، وهم كذبة على الله ، والله مسود وجوههم) .

(١) من قوله : قلت . إلى هنا من النسخة ب . ولفظ النسخة أ : ولم يذكر الرازي لهذا الوجوه المأخوذة من هذا الآيات المحكمة جوابا .

(٢) تفسير الرازي ٨/٢٧ .

(٣) آل عمران : ٧ .

(٤) ما بين القوسين ثابت في أ ، وساقط بل محذوف في النسخة ب .

(٥) الزخرف : ٢٠ .

(٦) الأعراف : ٢٨ .

واعلم أن سياق الآية من أولها نزلت فيهم ؛ لأنهم ينفون هداية الله عن العصاة ، ثم بين تعالى مصيرهم بقوله : ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَمُوتٌ﴾ أي : مقام ومستقر ﴿لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان ، أي : يقال ذلك توبيخا .
ومن الناس من قال : إن هذا الوعيد مختص باليهود والنصارى ، ومنهم من قال : إنه مختص بمشركي العرب .

قلت : والحق ما ذكره القاضي عبد الجبار (١) : أنه يجب حمل الآية على الكل من المشبهة والمجبرة ، وكذلك كل من وصف الله بما لا يليق به نفيا وإثباتا ، فأضاف إليه ما يجب تربيته عنه ، أو نزهه عما يجب أن يضاف إليه ، فالكل منهم داخلون تحت هذا الآية ، لأنهم كلهم كذبوا على الله ، فتخصيص الآية بالمجبرة أو المشبهة ، أو اليهود ، أو النصارى لا يجوز .

ولما ذكر الله تعالى هذا الوعيد أردفه بالوعد فقال : ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِثْقَاتِهِمْ﴾ وقرئ (بمفازاتهم) أي : ببعدهم من العذاب ، وقيل : بفضائلهم ، وقيل : بأعمالهم ، وقيل : بفوزهم من النار ، أي : بنجاتهم من النار وفوزهم بالجنة ، يقال : فاز بكذا إذا أفلح وظفر بمراده ، وتفسير المفازة قوله : ﴿لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا

(١) القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار [٣٢٥ - ٤١٥هـ] أحد أعلام الفكر الإسلامي ، عالم معتزلي ، فقيه ، مفسر ، متكلم ، مصنف في شتى الفنون ، مولده في ضواحي همدان بإقليم خراسان ، ورحل في طلب العلم إلى أقطار عديدة ، وعمر طويلا ، واتصل بالصاحب بن عباد ، وولي قضاء الري ، وقزوين وغيرها ، وأضحى قاضي القضاة ، وإمام المعتزلة في عصره ، وهو شيخ الإمامين الأخوين المؤيد بالله ، وأبي طالب ، وبابع الإمام المؤيد بالله ، وأخباره كثيرة ، ومؤلفاته كذلك ، ووفاته في ذي القعدة ، بمدينة الري — وهي من ضواحي طهران حاليا — ودفن بها بداره ، ومن مؤلفاته : الأمالي في الحديث ، تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد ، تحريه القرآن عن المطاعن ، المغني في أبواب التوحيد والعدل عشرين مجلدا طبع منه بمصر ثلاثة عشر مجلدا بإشراف الدكتور طه حسن ، متشابه القرآن ، المجموع من المحيط بالتكليف ط بمصر ، وعشرات غيرها . (انظر عنه أعلام المؤلفين الزيدية وفهرست مؤلفاتهم) .

هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٠٣﴾ أي : ينحنيهم بنفي السوء والحزن عنهم ، أو بسبب منجاتهم ، وهو العمل الصالح ، ولهذا فسرت المفازة بالأعمال الحسنة .

واعلم أن الله تبارك وتعالى لما أطال الكلام في شرح الوعد والوعيد عاد إلى دلائل الإلهية والتوحيد فقال سبحانه : ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي : هو المختص بإيجاد هذا بعد العدم .

قال الهادي عليه السلام : معنى ذلك : أن الله تبارك وتعالى خالق كل شيء من فعله لا من أفعال غيره ، فأفعاله بائنة من أفعال خلقه ، وأفعال خلقه بائنة من فعله ، وأفعال الله في خلقه ثابتة متلاحقة ، يلحق آخرها أولها ، ويثبت أولها آخرها ، وأفعال الخلق فغير متلاحقة ، بل هي أعراض متباينة متفاوتة ، ولا يلحق آخرها أولها ، ولا يدخل في ثان منها إلا بعد انفصال الأول ، فهذا الفرق بين أفعال الله وأفعال خلقه ، والله كما قال سبحانه : ﴿خالق كل شيء﴾ موجود متلاحق برئ من خلق ما لا يتلاحق ، فما كان متلاحقا فهو فعل الله ، والله خلقه ، وما كان غير متلاحق لا يلحق أوله آخره فذلك فعل غيره لأفعله ، تبارك وتعالى عن فعل أفعال المخلوقين ، وكيف يلحق أفعالهم أو يفعلها ، وفيها الغشم والظلم والجور ، والله برئ عن فعل ذلك ، متقدس عن أن يكون كذلك ، فلو جاز أن يكون خالق ما يفعلون كان فاعلا لكل ظلم فعلوه ، أو جور أحدثوه ، أو عظمة جاؤا بها ، ولكان هو الفاعل له دونهم إذ كان الموجد له لا هم فافهم ذلك .

ومعنى ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مخلوقاته وغيرها ﴿وَكَيلٌ﴾ أي : مطلع فلا يخفى عليه شيء من أفعال العباد ، وما يستحقون من الجزاء عليها ، والوكيل : هو المحاسب الرقيب الحفيظ لأفعال من هو عليه وكيل . (١) اهـ

(١) قال الكعي : إن الله تعالى مدح نفسه بقوله : ﴿الله خالق كل شيء﴾ وليس من المدح أن يخلق الكفر والقسبات فلا يصح أن يحتج المخالف به ، وأيضا فلم يكن في صدر هذا الأمة خلاف في أعمال العباد بل كان الخلاف بينهم وبين المحوس والزنادقة في خلق الأمراض والسباع والهوام ، فأراد الله أن يبين أنها جمع من خلقه ،

ثم قال تعالى : ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ المقاليد : المفاتيح ، ولا واحد لها من لفظها ، وقيل : واحدها إقليد ، ومقليد ، وأقاليد ، أي : هو مالك أمر السموات والأرض وحافظها ، وذكر المقاليد من باب الكناية ؛ لأن حافظ الخزائن ومدير أمرها هو مالك مقاليدها ، ومنه قولهم : فلان ألقيت إليه مقاليد الملك ، قال الشاعر :

فتنازعوا حتى إذا اجتمعوا ألقوا إليه مقاليد الأمر
وقيل : سأل عثمان النبي ﷺ عن المقاليد فقال : ما سألتني عنها أحد قبلك ،
تفسيرها : (لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله وبحمده ، وأستغفر الله ، ولا
حول ولا قوة إلا بالله ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، بيده الخير ، يحيي
ويميت ، وهو على كل شيء قدير) (١) والمعنى أن هذه الكلمات مفاتيح خير
السموات والأرض ، من تكلم بها أصابه كل خير .

وأيضاً لفظه ﴿كل﴾ لا توجب العموم لقوله تعالى : ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ ﴿تدمر كل شيء﴾ وأيضاً
لـو كانت أعمال العباد من خلق الله لما أضافها إليهم بقوله : ﴿كفارا حسدا من عند أنفسهم﴾ ولما صح
قوله : ﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله﴾ ولما صح قوله : ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما
بينهما باطلا﴾ فهذا جملة ما ذكره الكعبي في تفسيره .

وقال الجبائي : ﴿الله خالق كل شيء﴾ سوى أفعال خلقه التي صح فيها الأمر والنهي ، واستحقوا بها الثواب
والعقاب ، ولو كانت أفعالهم خلقاً لله تعالى ما جاز ذلك فيه كما لا يجوز مثله في ألوانهم وصورهم .
وقال أبو مسلم : الخلق : هو التقدير لا الإيجاد ، فإذا أخبر الله عن عباده أنهم يفعلون الفعل الفلاني فقد قدر
ذلك الفعل ، فيصح أن يقال : إنه تعالى خلقه وإن لم يكن موجداً له . (تفسير الرازي ١١/٢٧) .

(١) الحديث في الكشف ٤/١٤٠ ، ١٤١ ، قال ابن حجر : أبو يعلى ، وابن أبي حاتم ، والعقيلي ، والبيهقي
في الأسماء ، والطبراني في الدعاء ، كلهم من رواية أغلب بني تميم ، حدثنا محمد أبو الهذيل ، عن عبد الرحيم ،
وعبد الرحمن بن عدي ، عن عبد الله بن عمر به ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات ، من هذا الوجه ، وله
وجه آخر عند ابن مردويه ، من طريق كلب بن وائل عن عمر ، ورواه ابن مردويه ، عن الطبراني بإسناد آخر
إلى ابن عباس ، وفيه سلام بن وهب الجندي عن أبيه ، ولا أعرفهما .

ثم قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ وكلماته وتوحيده وتمجيده ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ قال الرازي : أورد صاحب الكشف سؤالاً وهو أنه بم اتصل قوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ؟ وأجاب عنه بأنه اتصل بقوله : ﴿ وينجي الله الذين اتقوا ﴾ أي : ينجي الله المتقين بمفازهم ، والذين كفروا هم الخاسرون ، واعترض بينهما أنه خالق الأشياء كلها ، وأن له مقاليد السموات والأرض : (١)

قال : وهذا عندي ضعيف من وجهين الأول : أن وقوع الفاصل الكبير بين المعطوف والمعطوف عليه بعيد ، والثاني : أن قوله : ﴿ وينجي الله الذين اتقوا ﴾ جملة فعلية ، وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ جملة اسمية ، وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية لا يجوز ، بل الأقرب عندي أن يقال : إنه لما وصف الله تعالى نفسه بصفات الإلهية والجلالة ، وهو كونه خالقاً للأشياء كلها ، وكونه مالكا لمقاليد السموات والأرض بأسرها ، قال بعده : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بهذا الآيات الظاهرة الباهرة ﴿ هم الخاسرون ﴾ (٢).

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا مُحَمَّد ﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ والإستفهام للإنكار عليهم وغيرهم ، وقوله : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ ﴾ منصوب بـ ﴿ أعبد ﴾

(١) انتهى كلام الزمخشري عند قوله : أنه خالق الأشياء كلها ، وقوله : وأن له مقاليد السموات والأرض من كلام الرازي ، وليس من كلام الزمخشري ، وزاد الزمخشري : وهو مهيمن عليها فلا يخفى عليه شيء من أعمال المكلفين فيها ، وما يستحقون عليها من الجزاء . وقد جعل متصلاً بما يليه ، على أن كل شيء في السموات والأرض فالله خالقه ، وفتاح بابه ، والذين كفروا ووجدوا أن يكون الأمر كذلك أولئك هم الخاسرون . انظر الكشف ١٤٠/٤ . وقوله قال وما بعده كلام الرازي . وقد صحح اللفظ من الكشف ، والرازي .

(٢) قال السيد العلوي رحمه الله : قوله : اتصل بقوله : ﴿ وينجي الله الذين اتقوا ﴾ أي : قوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ متصل بقوله : ﴿ وينجي الله الذين اتقوا ﴾ على سبيل التقابل للتضاد بين مفردات الجملتين من حيث المعنى ، قال القاضي : وغير النظم بالإشعار بأن العمدة في فلاح المؤمنين هو فضل الله ، وفي هلاك الكافرين أن خسروا أنفسهم ، والتصريح بالوعد ، والتعريض بالوعيد قضية الكرم .

﴿تأمروني﴾ اعتراض (١)، معناه أغير الله أعبد بأمركم ، وذلك حين قال له المشركون : استلم بعض آلهتنا ، أي : قَبْلُ ونؤمن بإهلك ، وفي الضياء (استلم) أي : لَمَسَهُ ، إما بالقبلة ، أو باليد ، وإنما وصفهم بالجهل ؛ لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقاً للأشياء ، وبكونه مالكا لمقاليده السموات والأرض ، وظاهر كون هذه الأصنام جمادات لا تضر ولا تنفع ، ومن أعرض عن عبادة الإله الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة ، واشتغل بعبادة هذا الأجسام الخسيسة — فقد بلغ في الجهل مبلغا لا مزيد عليه ، فلهذا السبب قال : ﴿أيها الجاهلون﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الأنبياء ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ ليحبطن عملك : أي : يبطل ، واللام الأولى موطئة للقسم المحذوف ، والثانية لام الجواب ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقال : ﴿لئن أشركت والموحى إليهم جماعة ؛ لأن المعنى أوحى إليك وإلى الذين من قبلك مثله ، وهذا على سبيل الفرض ، وإلا فهو ممتنع للعصمة ، والمحالات يصح فرضها لأغراض ، فكيف غيرها .

وقال في التجريد : في الكلام حذف ، أي : أوحى إليك لئن أشركت ، وأوحى إلى الذين من قبلك لئن أشركوا ليحبطن عملهم ، وفائدة هذا تعظيم الشرك ، كقوله : ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم﴾ (٢) .

(١) قال السيد العلوي : وحاصل الوجهين : أن غير الله منصوب بأعبد ، ويحجزه ظاهر تأمروني لما يستدعي من تقدير أن ، فيلزم المحذور السابق ، فجعل ﴿تأمروني﴾ إما اعتراضا لئلا يقدر أن ، أو جعله بمعنى يقولون لي : أعبد ، لينتصب بأعبد ، لأن القول لا يستدعي أن ، كما يستدعي الأمر ... ثم قال : وقال أبو البقاء : ويجوز أن يكون منصوبا بتأمروني ، وأعبد بدلا منه ، والتقدير ، قل أفتأمروني بعبادة غير الله ، وهو من بدل الاشتمال ، ومن باب : أمرتك الخير رواه صاحب الكشف ، عن أبي علي ، وقال : هو الصواب ، وقيل : إن غير ، منصوب بفعل محذوف ، أي : أفتأمرؤني غير الله ، وفسره ما بعده .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ومعناه : أن الشرك الحاصل منه بتقدير حصوله منه يكون تأثيره في جلب غضب الله أقوى وأعظم ، كما أن طاعة الأنبياء والرسل أفضل من طاعات غيرهم ، فكذلك القبائح التي تصدر عنهم ، فإنها بتقدير الصدور تكون أقبح لقوله تعالى : ﴿ إِذَا لَأَذْنُكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ (١) . ثم ذكر تعالى ماهو المقصود فقال : ﴿ بَلِّغْ لِلَّهِ فَاعْبُدْ ﴾ وهو رد لما أمروه به ، أي : لا تعبد ما أمروك بعبادته ، بل إن كنت عاقلا ، فلا تعبد إلا الله ، وذلك لأن قوله : ﴿ بَلِّغْ لِلَّهِ فَاعْبُدْ ﴾ يفيد الحصر .

ثم قال : ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ لله على ما هداك ، وعلى أن جعلك سيد ولد آدم . واعلم أنه تعالى لما حكى عن المشركين أنهم أمروا رسول الله ﷺ بعبادة الأصنام ، ثم أنه تعالى أقام الدلائل على فساد قولهم ، وأمر الرسول بأن يعبد الله ولا يعبد شيئا سواه — بين أنهم لو عرفوا الله حق معرفته لما جعلوا هذا الأشياء الخسيسة مشاركة له في العبودية ، فقال : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي : ما عظموه حق تعظيمه ، وأصله : ما عرفوه حق معرفته ، وقدروه في أنفسهم حق تقديره ، ثم استعير للعظيم : لأن من عرف العظيم عظمه .

ثم نبههم على عظمته على طريق التخييل فقال : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فرفع القبضة باليوم ، ولو نصب لجاز ، قاله في البرهان (٢) .

وأراد بالأرض : الأرضون ، أي : هن على عظمتهن لا تبلغهن إلا قبضة واحدة من قبضاته ، وهذا تصوير لعظمته ، كأنه يقبضها قبضة واحدة .

ثم قال : ﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ قال في التجريد : يريد تمثيل قدرة الله بشئ يتقدر في الذهن لا في الوجود ، وهو من أن تكون الأرضون السبع في وسط إحدى يديه ، والسموات السبع مطويات ملفوفة في يده الأخرى ، وهذا التمثيل

(١) الإسراء : ٧٥ .

(٢) البرهان مخطوط ص ٣٣٨ .

دون عظمة قدرة الله تعالى ، والتمثيل والاستعارة من أفصح كلام العرب ، والقرآن نزل على لغتهم .

قال ابن عباس : هذا الآية في الكفار ، فأما من آمن بأنه على كل شيء قدير ، فقد قدر الله حق قدره . وقال ابن عباس : الأرض والسموات كلها في يمينه .

وقال سعيد بن جبير : السموات قبضة والأرض قبضة ، وهذا تخيل وتمثيل يراد به المبالغة في المثل ، فلا فرق بين أن تكون قبضة واحدة ، أو قبضتان ، والله أعلم .

وقد جاء في الحديث الصحيح ما يوافق الآية من ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال : (يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض) (١) وأخرجنا من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ (يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده السمنى ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون) (٢) وهذا مثل الآية على التمثيل والتخييل ، وقد فسرت الآية بغير هذا فقليل : قبضته : ملكه بلا مدافع ولا منازع ، وبيمينه : بقدرته وقوته ، ونحوه ﴿ ما ملكت أيما نكم ﴾ (٣) أي : قدرتك ، ومعنى ذلك أنه قادر على أن يطوي السموات كما يطوى الثوب ونحوه ، والقبضة — بفتح القاف — مصدر للمرة من القبض ، وبالضم المقدار المقبوض بالكف ، وقد يراد بمفتوح القاف أيضا — الإسم وهو الشيء المقبوض ، وإذا أريد المصدر فمعناه :

(١) هو في موسوعة أطراف الحديث النبوي ٣٢/١١ ، وعزاه إلى أحمد ٣٧٤/٢ ، والبغوي ٨٤/٦ ، ومشكاة المصابيح رقم ٥٥٢٢ ، وفتح القدير ٣٦٧/١٣ ، وزاد المسير ١٩٦/٧ ، وتفسير الطبري ١٩/٢٤ ، والقرطبي ١/١٤١ ، ٢٧٨/١٥ ، وبلغز (وطوي السموات) عزاه إلى البخاري ١٥٨/٦ ، ١٣٥/٨ ، ٢٤٢/٩ ، ١٥٠ ، ومسلم في صفات المنافقين ٢٣ — وابن ماجه ١٩٢ ، وفتح القدير ٥٥١/٨ ، وله مصادر أخر .
(٢) عزاه في موسوعة أطراف الحديث النبوي ٣٤٩/١١ إلى مسلم صفات المنافقين ٢٤ ، وأبو داود رقم ٤٧٣٢ ، وإتحافات ٣١٧ ، وزاد المسير ١٩٦/٧ ، والبغوي ٨٤/٦ ، وغيرها .
(٣) النساء : ٣ .

ذوات قبضته ، أي : أنهن مع عظمهن لا يلبغن إلا قبضة واحدة من قبضاته ، وعلى الضم لا يحتاج إلى تقدير مضاف . اهـ

ومعنى ﴿مطويات﴾ هو من الطي الذي هو ضد النشر ، قال في الكشف : والغرض من هذا الكلام — إذا أخذته كما هو بجملته وجموعه — تصوير عظمته ، والتوقيف على كنهه جلالة لاغير من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة ، أو جهة مجاز ، وكذلك حكم ما يروى أن جبريل عليه السلام جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا أبا القاسم إن الله سبحانه وتعالى يمسك السموات يوم القيامة على أصبع ، والأرضين على أصبع [والجبال على أصبع] والشجر على أصبع [والثرى على أصبع] وسائر الخلق على أصبع ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ تعجبا مما قال ، ثم قرأ تصديقا لذلك ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ الآية وإنما ضحك أفصح العرب صلى الله عليه وآله وتعجب ؛ لأنه لم يفهم منه إلا ما فهم علماء البيان من غير تصور إمساك ولا أصبع ، ولا هز ، ولا شيء من ذلك (١) .

واعلم أنه تعالى لما بين عظمة الله من الوجه الذي تقدم قال ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تزيها له ﴿وَتَعَالَى﴾ ارتفع شأنه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به من الأوثان ، يعني أن هذا القادر القاهر العظيم ، الذي حارت العقول والألباب في وصف معرفته ، تزه وتقدس أن يجعل الأصنام شركاء له في العبودية .

واعلم أنه تعالى لما قرر عظمته بما سبق ذكره أردفه بذكر طريق آخر يدل أيضا على كمال عظمته ، وذلك بشرح مقدمات يوم القيامة ؛ لأن نفخ الصور يكون قبل

(١) انظر الكشف ٣/٣٥٥ ، وقد أضفنا ما بين أقواس الزيادة من الكشف ، وليست في أصل المصاحف ، وهذا الحديث المضحك ، جعل الله ست أصابع ، والعجيب أنه حديث متفق عليه من حديث ابن مسعود ، كما جاء في تخريج الكشف ، ص ١٤٤ ، وقد نبه أنه وقع عنده أن جبريل ، وهو تصحيف ، والذي في الصحيح جاء خبر من اليهود ، وفي رواية أن يهوديا ، وفي رواية أن رجلا من أهل الكتاب ، وهو كما ترى كيف يوردون مثل هذا الحديث الذي لا يتقبله عن جبريل ، ولا عن رسول الله عقل ، فضلا عن اليهود .

ذلك اليوم فقال : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ أي : في صور الأحياء ، وقيل : قرن ينفخ فيه اسرافيل يوم القيامة ﴿ فَصَعِقَ ﴾ أي : مات ﴿ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ وقيل : بل غشي عليهم ، ثم يموتون بعد الصعقة بغيرها ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ من الملائكة فلا يموتون حتى يميتهم الله بعد ذلك ، قيل : هم جبريل وعزرائيل ملك الموت ، وقيل : الحور العين ، وخزنة النار ، وحملة العرش ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى ﴾ نفخة البعث ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ يعني الخلائق ﴿ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب ، وقيل : ينظرون ما فعل بهم ، وقد روي أن النفختين جميعا في يوم واحد ، وهو يوم القيامة ، وفيه تقوم الساعة ، والله أعلم .

وقال الحسن : روي عن النبي صلى الله عليه وآله أن بينهما أربعون) ولا أدري أربعون يوما أو سنة ، أو أربعون الف سنة .

ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والجمود في مكان لأجل استيلاء الحيرة والدهشة عليهم .

ولما بين الله حال هاتين النفختين ذكر سبحانه من أهوال ذلك اليوم أشياء ، أولها : قوله : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ بما يقيمه فيها من الحق والعدل (١) والحساب ،

(١) قال السيد العلوي رحمه الله : أراد أنه لا يجوز حمل النور هنا على حقيقته ، لتعذره ، وقد ورد في التزويل بمعنى هذه الأشياء على المجاز ، وهذا من ذلك ، فعلى هذا قوله : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ مستعار لقولنا : وتزينت أرض القيامة بما يقام فيها من الحق والعدل ، ويسيطر فيها من القسط ، ويدل على أنه مستعار إضافة النور إلى الرب ؛ لأن الله هو الحق والعدل ، فناسب أن يراد بالنور الحقيقة والعدالة ، فالحق والعدل صفة الله ، وما أضيف إليه المراد به المصدر ، لا الوصف ليتغايرا ، شبه إقامة الحق والعدل في أرض القيامة ، وتزيينها بإشراق النورين وجه الأرض ، وإظهار ما فيها ، ثم حذف المشبه ، وأقيم المشبه به مقامه ، وجعلت القرينة الإضافتين ، وفي الممثل به ثلاثة أشياء وجود النورين وإشراقهما الأرض وإبانة الأشياء بنورها ، وفي المشبه تحقق وجود الحق والعدل ، وبسطهما في أرض القيامة وإقامتهما بحسب اقتضاء صالح الأعمال ، وسببها لا على أن كل واحد من هذه الأشياء مشبه ومشبه به ، بل جعل الوجه منتزعا من المجموع ، إما على سبيل التوهم ، لتكون الاستعارة تمثيلية ، أو على التحقيق ، فتكون عقلية .

ومن عادتهم تسمية العدل نورا ، والظلم ظلاما ، وقيل : إن الله يخلق نورا يلبسه وجه الأرض يوم القيامة من غير شمس ولا قمر .

وثانيها : قوله : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ أي : الحساب ، وقيل : اللام للجنس ، أي : صحائف الأعمال ، وقيل : اللوح المحفوظ ، وثالثها : قوله : ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ في الشهداء وجهان ، أحدهما : هم الذين يشهدون على الناس بأعمالهم ، قاله الجمهور ، ثم فيهم أربعة أقوال ، أحدها : أنهم الأنبياء والمرسلون ، والثاني : أنهم أمة محمد يشهدون للرسول بتبليغ الرسالة ، وتكذيب الأمم ، روي عن ابن عباس ، والثالث : أنهم الحفظة ، قاله عطاء ، والرابع : أنهم النبيئون والملائكة والجوارح ، قاله ابن زيد .

الثاني من الوجهين : أن الشهداء هم الذين قتلوا في سبيل الله ، قاله قتادة . ولما بين الله تعالى أنه يحصل في محفل القيامة جميع ما يحتاج إليه في ذكر الحكومات — بين الله تعالى أنه يحصل إلى كل أحد حقه ، وعبر عن هذا المعنى بأربع عبارات أولها : قوله : ﴿ وَقَضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾ بالعدل ، وثانيها : قوله : ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أي : لا ينقصون شيئا من أعمالهم ، وثالثها : قوله : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ جِزَاءَ ﴾ مَا عَمِلَتْ من خير وشر ، ورابعها : قوله : ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ ﴾ من عبادته ﴿ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ فيجازيهم بحسب الاستحقاق ، ولا يحتاج إلى كتاب ولا شاهد ، يعني أنه تعالى لو كان غير عالم بكيفيات أحوالهم ، فلعله لا يقضي بالحق لأجل عدم العلم ، أما إذا كان عالما بمقادير أفعالهم ، وكيفياتها امتنع دخول الخطأ في ذلك الحكم ، فثبت أنه تعالى عبر عن هذا المقصود بهذا العبارات المختلفة ، والمقصود المبالغة في تقرير أن كل مكلف فإنه يصل إلى حقه .

واعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل القيامة على سبيل الإجمال ، وقال : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ﴾ بين بعده كيفية أحوال أهل العقاب ، ثم كيفية أحوال أهل الثواب ، وختم السورة فقال عز وجل في شرح أحوال أهل العقاب : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ ﴾

جَهَنَّمَ ﴿١﴾ أي : طردوا بعنف كما يفعل بالأسارى إلى الحبس ، وقوله : ﴿ زُمَرًا ﴾ أي : جماعات متفرقة ، بعضها إثر بعض ، والزمر : هي الجماعة قال الشاعر :

إن تسألوا عني فإن اسمي عمر أرمي إذا حشش حافات الزمر

أي : الجماعة ، فبين الله تعالى أنهم يساقون إلى جهنم ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ السبعة ﴿ وَقَالَ لَهُمْ ﴾ توبيخا ﴿ خَزَنَتُهَا ﴾ الموكلون بتعذيب أهلها : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ ﴾ أي : من جنسكم ، وناطقون بلسانكم ؛ لأنه ألزم للحجة ﴿ يَقُولُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتُ رَبِّكُمْ ﴾ أي : كتبه ﴿ وَيُنذِرُوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أي : وقتكم ، يريد وقت دخولهم النار ، واستعارة اليوم في أوقات الشدة مستفيض ، فعند هذا ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أي : بلى أتونا وتلوا علينا ﴿ وَلَكِنَّ حَقَّتْ ﴾ أي : وجبت ﴿ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ﴾ وهي وعيده للعصاة بأليم العقاب .

وقوله : ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ معناه : علينا ، لسوء أعمالنا ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ هذه حكاية ما يجاب عليهم ، يعني أن الملائكة إذا سمعوا منهم هذا الكلام قالوا لهم : ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ معنى ﴿ بئس ﴾ : الذم ، أي : فبئس مقام المتكبرين جهنم .

واعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل العقاب شرح أحوال أهل الثواب فقال : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ أي : جماعات وطبقات مختلفات ، الشهداء ، والزهاد ، والعلماء ، والقراء ، وغيرهم .

فإن قيل : كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعا بلفظ السَّوْق ؟ قيل له : هما مختلفان فسوق أهل النار طردهم إليها بالعنف ، وسوق أهل الجنة سوق مراكبهم ؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين ، تعظيما لهم ، وإسراعا بهم إلى دار الرضوان ، كما يفعل بمن يكرم من الوافدين من أهل الشرف على الملوك .

ثم قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ التملية ، وإنما حذف الواو في ﴿ فتحت ﴾ مع أهل النار ، وأثبتت مع أهل الجنة ؛ لأن الجزء محذوف في قصة أهل

الجنة ، تقديره : كان ماكان من الفرح والإستبشار والتنعيم ، فلو لم تأت الواو لتوهم أن ﴿فتحت﴾ جواب إذا ، وتقديره بعد ﴿خالدين﴾ وقيل : ﴿وقالوا الحمد لله﴾ دل بحذفه على أنه شئ لا يحيط به الوصف ، تقديره كان ماكان مما وقفوا فيه من النعيم ، ولذا أدخلت الواو ، فتعذر أن يكون جوابا .

وقال ابن الجوزي : في ذلك أقوال ، أحدها : أن الواو زائدة ، وهو قول الفراء وغيره ، والثاني : أنها واو الحال ، والمعنى : جاؤها وقد فتحت أبوابها قبل مجيئهم ، وفي وجه تفتيحها قبل مجيئهم وجوه ، أحدها : الدلالة على الإكرام ؛ لأن الوقوف على باب مغلق فيه نوع هوان ، الثاني : أن الكريم يفتح أبوابه التي يعطي منها ، ويغلق أبواب سخطه وانتقامه إلى وقت (١) الحاجة إلى ذلك ، والثالث : أن في تفتيح أبواب الجنة قبل وصولهم تعجيلا للمسرة ، وفي تفتيح أبواب النار عند إرادة دخولهم لا قبل ذلك زيادة في عذاب أهل النار ، لقوة حرها ، وعظيم لفحها ، كما يكون في التنور المختوم إذا فتح .

القول الثالث : إنها واو الثمانية ، قال في التحريد : أراد بالثمانية أبواب الجنة ؛ لأن عادة العرب أن يذكروا العدد إلى سبعة بغير واو ، ثم يدخلون الواو في الثمانية ، ومنه قوله تعالى : ﴿سبع ليال وثمانية أيام حسوما﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿وثامنهم كلبهم﴾ (٣) إلى غير ذلك .

ثم أخبر تعالى أن خزنة الجنة يذكرون لأهل الثواب أمورا ثلاثة ، أولها : قوله : ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا يدل على أنهم يشيرونهم بالسلامة من كل الآفات ، وثانيها : قوله : ﴿طِبْتُمْ﴾ أي : طهرتم من دنس المعاصي ، وقيل : إذا صاروا إلى باب الجنة وجدوا عندها شجرة ينبع من أصلها عينان ، فيشربون من إحدهما فلا

(١) في النسخة ب : إلى حين الحاجة إلى ذلك .

(٢) الحاقة : ٧ .

(٣) الكهف : ٢٢ .

يبقى في بطونهم أذى ولا قذى إلا خرج ، ويغتسلون من الأخرى فلا تغير جلودهم ولا تشعث أشعارهم ، فهو معنى ﴿ طبت ﴾ روي عن علي وابن عباس .

وقيل : كنتم طيبين في الدنيا ، قاله الزجاج ، وثالثها : قولهم : ﴿ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ الخلود هو البقاء الذي لا انقطاع له ، والفاء في قوله : ﴿ فَادْخُلُوهَا ﴾ تدل على كون ذلك الدخول معللاً بالطيب والطهارة (١) ، وهذا يدل على أن أحدا لا يدخلها إلا إذا كان طاهرا عن كل المعاصي .

ثم أخبر تعالى أن الملائكة إذا خاطبوا المتقين بهذا الكلمات قال المتقون عند ذلك كما حكى الله عنهم ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ وهو إكرام المتقين بالثواب . قال الهادي عليه السلام : هذا إخبار من الله سبحانه [عن قول المؤمنين] في يوم الدين ، وعند مصيرهم إلى كرامة رب العالمين ، فأخبر أنهم يقولون عند ذلك : ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ يقول : الذي أنجز لنا ما وعدنا من ثوابه ، وأكمل لنا ما وعدنا من كرامته ﴿ وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ ﴾ يريد أرض الآخرة ، وأرض الجنة . اهـ

وهو عبارة عن مقرهم في الجنة ، أي : ملكنا كما يملك الوارث يتصرف كيف يشاء . وفي تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام : ﴿ وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ ﴾ أي : ملكنا الأرض وتركنا فيها ، وأحللنا بعد ذهاب من مضى من أهلها ﴿ تَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ أي : نتخذ من الجنة مباءة ، أي : مسكنا ، نحل منها حيث نريد ونهوى ، المراد أن لكل منهم أرضا واسعة يتبوأ منها حيث يشاء ، لا أن بعضهم يتبوأ مكان بعض .

وفي صحيح الترمذي عن النبي ﷺ (إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسريره مسير ألف سنة).

(١) وذلك لأنه رتب الأمر بالدخول بالفاء على ﴿ طبت ﴾ .

[ولما بين الله تعالى صفة أهل الجنة قال] (١) : ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [ومعناه : المدح] قال الهادي عليه السلام : يقول — الجنة أفضل جزاء العاملين في الدنيا للطاعة لرب العالمين .

ثم قال تعالى : ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ﴾ أي : محققين (٢) ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي : من جوانبه .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : معناه محيطين من حول موضع الحساب وهو الملك ، قال الهادي عليه السلام :

تحف بهم خيل ثمانية لها على الهول إقدام ليوث طوالب
أي : تحيط بهم . اهـ

قال الهادي عليه السلام : معنى ﴿حافين من حول العرش﴾ فهم محققون بكل أهل المحشر في ذلك اليوم ، والعرش : فهو الملك ، وحفوفهم بالملك فهو قيامهم فيه وبه في ذلك اليوم (٣) .

قلت : ومثل هذا ذكره المرتضى في الإيضاح ، وقد مر في أول سورة المؤمن .
ثم قال تعالى : ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يقولون : سبحان الله ، والحمد لله متلذذين لا مكلفين .

ثم قال : ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي : حكم بين الخلق ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي لا ظلم فيه ، والحق الذي لا جور فيه بأن أدخل بعض النار ، وبعض الجنة (٤) ، وذلك لا يكون إلا

(١) ما بين القوسين ثابت في النسخة ب ، وساقط من أ .

(٢) قال مكّي : هو نصب على الحال ، لأن ﴿ترى﴾ من رؤية العين . وواحده : حاف ، وقال الفراء : لا واحد له .

(٣) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٢٢ .

(٤) في النسخة ب : بأن أدخل بعض النار ، وبعض الجنة .

حقاً ، أو يعطى كل من الملائكة بقدر عمله ، فهم وإن كانوا معصومين فهم على مراتب مختلفة ، ودرجات متفاوتة .

﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ على قضائه بيننا بالحق ، وإنزال كل منزله ، قيل : القائل المقضي بينهم ، وقيل : هذا قول أهل الجنة شكراً لله .

وقال الهادي عليه السلام : القائل ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ فهم الملائكة المسبحون المؤمنون الناجون المخلصون بالكرامة الثابون . اهـ



سورة (ص)

ثمان وثمانون آية في الكوفي ، وست في الحجازي والشامي والمكي ، وخمس في البصري (مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : ﴿ص﴾ أكثر القراءة على الوقف ^(١) على ﴿ص﴾ وقال في البرهان : حزمها الفراء ، والأعمش بخفض الدال ، بلا نون ؛ لاجتماع الساكنين ، و﴿يس﴾ و﴿ن﴾ ^(٢) . وقد مر بعض ما قيل في فواتح السور من قول أئمتنا عليهم السلام وغيرهم ^(٣) .

(١) وذلك لأن الأسماء العارية عن العوامل تذكر موقوفة الأواخر ، والسكون في الوقف مغتفر . ح ع .

(٢) البرهان مخطوط ص ٣٣٣ .

(٣) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي ما لفظه :

أخبرنا أبو جعفر ، قال : حدثنا علي بن أحمد ، قال : حدثنا عطاء بن السائب ، عن أبي خالد ، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿ص﴾ والقرآن ذي الذكر ﴿معناه : ذو الشرف . وقوله تعالى : ﴿ولات حين مناص﴾ معناه : ليس يجين نزو ولا فرار . وقوله تعالى : ﴿فليترقوا في الأسباب﴾ معناه : في الفضل ، ويقال : ارتقى فلان في الأسباب إذا كان فاضلا . وقوله تعالى : ﴿وأصحاب الأيكة﴾ وهي الغيضة الملتف شجرها . وقوله تعالى : ﴿ما لها من فواق﴾ يقال : ما لها من مرة ، هي كلمح البصر ، أو هي أقرب ، والفواق في الناقة : ما بين الحلبتين . وقوله تعالى : ﴿عجل لنا قطننا قبل يوم الحساب﴾ معناه : نصيبنا من الآخرة ، قبل يوم الحساب ، والقط : الكتاب ، والجمع : القطوط .

وقوله تعالى : ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾ فذو الأيد : ذو القدرة ، والأواب : التواب . وقوله تعالى : ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ معناه : الفهم والعلم بالقضاء ، وقال : الشهود والإيمان . وقوله تعالى : ﴿ولا تشطط﴾ معناه : لا تسرف . وقوله تعالى : ﴿وعزني في الخطاب﴾ معناه : غلبني . وقوله تعالى : ﴿وإن كثيرا من الخطاء﴾ معناه : من الشركاء . وقوله تعالى : ﴿وظن داود﴾ معناه : أيقن . وقوله تعالى : ﴿وإن له عندنا لزلفى﴾ معناه : قرى ومترلة ، واحدها : زلفة ﴿وحسن مآب﴾ معناه : حسن مرجع .

وقوله تعالى : ﴿إِذْ عَرَضَ لَهُ بِالْعِشِيِّ الصَّافِئَاتُ الْجِيَادُ﴾ والصفائف من الخيل : التي تجمع بين يديها ، وبين طرف سنبك إحدى رجلها ، والسنبك : مقدم الحافر . وقوله تعالى : ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَ الْخَيْرِ﴾ فالخير : الخيل .

وقوله تعالى : ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ معناه : غابت بالحجاب ، يعني الشمس .

وقوله تعالى : ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَداً﴾ معناه : شيطان .

وقوله تعالى : ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ﴾ معناه : ما زال يضرب أسواق الخيل وأعناقها .

وقوله تعالى : ﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ﴾ معناه : لا يكون له .

وقوله تعالى : ﴿رِخَاءَ حَيْثُ أَصَابَ﴾ فالرخاء : الرخوة اللينة ، وأصاب : أراد ، وهي بلغة هجر ، وقال :

طوع حيث أراد . وقوله تعالى : ﴿وَأَخْرَيْنَ مَقْرَنَيْنِ فِي الْأَصْفَادِ﴾ معناه : في الأغلال ، واحدها : صفة .

وقوله تعالى : ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَعْطْ﴾

وقوله تعالى : ﴿أَيُّ مَسْنِي الشَّيْطَانِ يَنْصَبُ﴾ معناه : يبلاء وشر في جسدي ﴿وعذاب﴾ في بدني .

وقوله تعالى : ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ معناه : اضرب بها ، وقال : إنه ضرب بيده اليمنى فخرجت عين ، وضرب

برجله اليسرى فخرجت عين أخرى ، فافتسل من واحدة ، وشرب من أخرى ، فذلك قوله تعالى : ﴿مَقْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾

وقوله تعالى : ﴿وَاخْذُ بِيَدِكَ ضَفْعًا﴾ معناه : أثل ، وقال : جماعة من شجر ، وقال : حزمة من رطبة .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ أَوَابٌ﴾ بمعنى : تواب .

وقوله تعالى : ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ فالأيدي : القوة في العمل ، والأبصار : العقول .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ﴾ معناه : مالم هم إلا هم الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿مَنْ شَكَلَهُ أَزْوَاجٌ﴾ معناه : ضربه ، والأزواج : عذاب من الزمهرير ، وقال : ألوان من العذاب .

وقوله تعالى : ﴿أَتْرَابٌ﴾ معناه : أسنان وأمثال . وقوله تعالى : ﴿لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ معناه : لا سعة لهم .

وقوله تعالى : ﴿اتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًا﴾ معناه : من السخرة ، ومن كسر جعله من الهزؤ .

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياشي عليه السلام ما لفظه : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ص﴾ من الأقسام المضمرة ﴿والقرآن﴾ .

معنى قوله : ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ العزة : هي التعزز والتكبر ، والمشاقة لله والمباينة ﴿ولات حين مناص﴾

وليس حين مهرب ، ولا حيلة ، ولا ملجأ ، قال الشاعر :

تذكرت ليلي حين لات تذكرني وقد بنت منها والمناص بعيد

وقال آخر :

طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أن ليس حين بقاء

أي : ليس وقت الصلح ، والمناص : هو الاحتيايل والمهرب ، قال الهادي إلى الحق عليه السلام :

ساشجي ظالميك بحد رحمي ولا يحدون عمرك من مناص

ومعنى قوله : ﴿إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي : عجب ، قال الإمام المرتضى لدين الله : وهذا اعجب العجب العجيب .

أي : العجب ﴿ وانطلق الملائكة منهم ﴾ أي : سار اجمع منهم ، وقالوا : امشوا إلى آفتكم ، واصبروا على التقدم والتأخير والقراءة على التثريب ، ومعنى قوله ﴿ على آفتكم ﴾ أي : إلى فقامت على مقام إلى ، ويمكن أيضا أن يكون المعنى : اصبروا على آفتكم ولا تتركوها ، وكل ذلك جائز إن شاء الله .

ومعنى قوله : ﴿ في الملة الآخرة ﴾ أي : في مذهب المشركين وملتهم ﴿ إن هذا إلا اختلاق ﴾ يقولون : إن توحيد الله اختراع واختلاق من محمد ، وإن الله لا يرضى بترع الأرباب .

ومعنى قوله : ﴿ فليترقوا في الأسباب ﴾ أي : يطلعوا إلى السماء في الحبال على وجه التقريع لهم ، ونكرهم على الله إنزال الوحي إلى محمد صلوات الله عليه من دونهم ﴿ حند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ أي : حشد وجمع هنالك ﴿ مهزوم ﴾ أي : مطرود ﴿ من الأحزاب ﴾ أي : من الجموع ، و(ما) هي صلة للكلام ليس ذا معنى ، وهي كلمة تصل بها العرب كلامها ، قال الشاعر :

أبلغ سلامة أن الصبر مغلوب وأنما حبها شوق وتعذيب

والمعنى : أبلغ سلامة أن الصبر مغلوب ، وأن حبها شوق وتعذيب ، ولكنه وصل كلامه بما ، وزين شعره بما ، وما زينة وحلية للكلام ، فاعلم ذلك إن شاء الله ، والأحزاب : جموع المشركين الذين تحزبوا واجتمعوا في عداوة الله ورسوله ، قال الشاعر :

نعود بدinar ولا نشترى الفنا إذا أحزبتنا عن عدانا النذائر

أي : جمعنا النذر و﴿ أصحاب الأيكة ﴾ روي أن الأيكة صنم ، وهو شجرة ، ويمكن أن تكون ليكة هي القرية ، والله أعلم روي ذلك عن الإمام أبي عبد الله صلوات الله عليه ، ومعنى قوله : ﴿ فحق عقاب ﴾ أي : وقع عذابي وعقوبي على أعداء الله ، ومعنى قوله : ﴿ ما لها من فواق ﴾ أي : من إفاقة ، ولا راحة . ومعنى ﴿ عجل لنا قطنا ﴾ أي : حسابنا وكتابنا الذي فيه العطاء لنا ، والقط هو كتاب العطاء ، وهو الصكوك ، وجماعه [أي: جمعه] القطوط والصكوك ، قال الشاعر :

ولا الملك السعمان يوم لقيته فأعطاني القط الرغيب بل بخل

أي : كتب العطايا .

ومعنى قوله : ﴿ داود ذا الأيدي إنه أواب ﴾ أي : الأيادي والنعم والفضائل ، قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه يذم بعض الفاسقين :

ولم يك ذا شكر لأيد تقدمت إليته وأمرين ما له خطر

﴿ إنه أواب ﴾ أي : راجع إلى الحق ﴿ إنا سخرنا الجبال معه فتسبحن ﴾ أي : سهلنا ﴿ والطير محشورة ﴾ أي : مجموعة ، والحشر : هو الجمع ، ومعنى ﴿ أواب ﴾ أي : راجع إليه ، والإياب : هو الرجوع ، قال الشاعر :

أرى كل ركب آيين ولا أرى أحسا الجود عمارا ترجى تأيه

أي : راجعين ، وقال آخر :

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الصوت لا يؤوب

أي : لا يرجع ﴿وشددنا ملكه﴾ أي : قربنا سلطانه وعزّه .

و﴿الحكمة﴾ : هي العلم ، و﴿فصل الخطاب﴾ : هو قطع الحكم ، وإنفاذ الخصومة ، وفصلها ﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾ أي : أخبار الخصم ، والخصم : هم الخصوم المتخاصمون ، والمتخاصمون : هم المتخاصون إلى داود المتناظرون ﴿إذ تسوروا المحراب﴾ أي : طلعوا الجدار ليتحاجوا وينظروا إلى داود ، ومعنى قوهم : خصمان بقى بعضنا على بعض ﴿هذا مجاز وتعريض لداود﴾ ولا تستطع ﴿أي : لا تخر ، واعدل﴾ واهدنا إلى سواء الصراط ﴿أي : وسط الطريق﴾ إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ﴿النعاج : مثل وتعريض ، وإنما أرادوا النساء اللواتي كن لداود عليه السلام فيما ذكر .

ومعنى ﴿ولي نعجة واحدة﴾ أي : مرة [أمرأة] واحدة ، ولكنهم عرصوا له تعريضا في امرأة أوريا حين عشقها صلوات الله عليه ﴿فقال أكفنيها﴾ أي : ولني كفايتها وطلقها لي ، إن كنت قد قضيت منها وطرا لشدة ما كان بينهم من التواصل والتقرب إلى الله بقضاء حاجة المؤمن ، ولم يكن في ذلك عيب ولا مأنم ، ولو كان سيدنا داود في معرله أوريا لما عاتبه الله عز وجل في ذلك ، ولكن الحاكم على الناس المالك لهم لا ينبغي له أن يسألهم لأنه إذا سألهم لم يمتنعوا عليه إعظاما له وهيبه لسلطانه ، وليس العوام كذلك ؛ لأن العوام لا يعطون ما يطلبون إلا بطيئة من نفس المعطي لما يسألون ، والسلطان يهاب ولا يرد ، ولعل ذلك يضربهم ويشق عليهم ، ويتعبهم ، فلم يرض الله لنبيه وحبيبه ووليه أن يطلب منهم ، وهو قاهر لهم لما في ذلك من المفرة لهم ، فقطن صلى الله عليه [وهذا] تعريض من الملائكة . وتاب ، ورجع إلى الله وأتاب .

ومعنى قوله : ﴿وعزي في الخطاب﴾ أي : عز علي سؤاله ، وعظم عندي خطابه ومقاله ، والخطاء : هم الإخوان المتخالطون ، ومعنى قوله : ﴿وقليل ما هم﴾ أي : قليل هم ، و(ما) هاهنا صلة للكلام فاعلم ذلك ﴿فظن داود أنما فتاه﴾ أي : أنا امتحناه واختبرناه بما ركبنا فيه من الهوى وجعلناه ﴿فاستغفر ربه وخر راكعا﴾ أي : سقط على وجهه ساجدا ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ أي : حسن مرجع وانقلاب من التعميم الكريم ، والثواب .

ومعنى قوله : ﴿خليفة في الأرض﴾ أي : خلقا وعوضا من أسلافه الطاهرين الماضين الأولين من الرسل الخالين . ومعنى قوله : ﴿ليدبروا آياته﴾ أي : ليتدبروا فقام التشديد مقام التاء ، مثل قوله : ﴿يا أيها المدثر﴾ وإنما هو المدثر ، ومثل قوله : ﴿يا أيها المزمل﴾ والمعنى فيه : يا أيها المتزمل ، فحذف التاء أبدل مكانها تشديدا ، وهو جائز ، ومعنى قوله : ﴿نعم العبد﴾ نعم كلمة مدح ، قال الشاعر : ونعم أخي الصعلوك أمس تركته بزيه يسموا باليدين ويمدح ، قال آخر :

ونعم الفتى إن كان توبة فاجرا ونعم الفتى إن كان ليس بفاجر

قال في التجريد : وأما النظم ففيه وجهان ، أحدهما : أن يكون قد ذكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدي ، والتنبيه على الإعجاز ، ثم أتبعه القسم محذوف الجواب ^(١) ؛ لدلالة التحدي عليه ، كأنه قال : ﴿ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ﴾ إنه لكلام معجز .

والثاني : أن يكون ﴿ ص ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، على أنها اسم للسورة ، كأنه قال : هذه ﴿ ص ﴾ يعني السورة التي أعجزت ﴿ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ﴾ إنها كذلك ، كما تقول : هذا حاتم والله ، تريد هذا المشهور ، ومعنى ﴿ ذِي الذِّكْرِ ﴾ أي : ذي الشرف والشهرة ، والتذكير والموعظة ، أو ذكر ما يحتاج إليه في الدين من الشرائع ، وغيرها من أقاصيص الأنبياء ، والوعد والوعيد .

ثم قال : ﴿ بَلِّ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ ﴾ عن الانقياد والإذعان للحق ، والاعتراف به ، والعزة : هي التعزز ، والتكبر ، والمشاقة لله ، والمباينة لرسوله ، وهو معنى قوله : ﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ أي : عداوة لله ولرسوله .

ولما وصفهم بالعزة والشقاق خوَّفَهُمْ ، ثم توعدهم بمن أهلك قبلهم فقال : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أي : كثير من الأمم أهلكنا قبلهم بسبب ما كانوا عليه من العزة والشقاق .

ومعنى قوله : ﴿ فَنادَوْا ﴾ أي : دعوا بالاستغاثة ، وقيل : بالتوبة حين لا تقبل ، وعن قتادة : نادوا على غير حين النداء ، ثم قال : ﴿ وَلَآتٍ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أي : وليس الحين حين منجاة وفوت لمشارفة الهلاك ، قال الشاعر :

تذكرت ليلى حين لات تذكر وقد بنت منها والمناص بعيد
والمناص : هو الاحتيال والمهرب ، ولات : هي لا المشبهة بليس زیدت عليها تاء

(١) والفرق بين الحذف والإضمار أن المحذوف هو المتروك أصلاً بحيث لا يبقى له تأثير ، والمضمر بخلافه .

التأنيث للتأكيد ، كما زيدت على رب ، وثم ، وتغير لذلك حكمها حيث لم تدخل إلا على الأحيان ، ولم يبرز إلا أحد مقتضياتها ، إما الاسم وإما الخبر ، وامتنع بروزهما [جميعاً] وهذا مذهب الخليل وسيبويه ، وعند الأخفش : أنها لا النافية للجنس ، زيدت عليها التاء ، وخصت بنفي الأحيان ، قاله في الكشف^(١) .

و ﴿ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ منصوب بها ، كأنك قلت : ولا حين مناص لهم ، ويرتفع بالابتداء ، أي : ولا حين مناص كائن لهم ، والمناص : المنحى والقوت ، يقال : ناصه ينوصه إذا فاته ، واستنصص : طلب المناص .

واعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار كونهم في عزة وشقاق أردفه بشرح كلماتهم الفاسدة ، فقال : ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ يريد : عجب أهل مكة ، ولا تَعَجَّبَ منه ؛ لأن الرسل من جنس المرسل إليهم أولى من أن يكونوا ملائكة ؛ لأن الإنسان مع جنسه أنس ، وأفهم للغة .

ثم قال سبحانه : ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ ولم يقل : وقالوا^(٢) ؛ إظهاراً للغضب عليهم ، ودلالة على أن هذا القول لا يحسر عليه إلا المتوغلون في الكفر ، والغرض التنبيه ، على كمال جهالتهم ، وذلك لأنه جاءهم رجل يدعوهم إلى التوحيد ، وتعظيم الملائكة ، والترغيب في الآخرة ، والتنفير عن الدنيا ، ثم إن هذا

(١) انظر الكشف ٧١/٤ ، وما بين أقواس الزيادة منه .

هي لا المشبهة بليس ، وكما تدخل على حين ، تدخل على أوان ، وهنا ، وقال الفراء : تدخل على الآفات كلها ، وأنشد : (ولات ساعة مندم) والتاء في لات للتأنيث كما في ربت وثلث ، إما لتأنيث الكلمة ، وهي لا أو لمبالغة النفي ، كما في علامة ، فإذا وليها حين فنصبه أكثر من رفعه ، ويكون اسمها محذوفاً ، وحين خيرها وأما قوله : و ﴿ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ منصوب بها .. الخ فهو هنا على ما قاله الأخفش بأنها لا النافية للجنس ، وقال في الكشف : وعنه أن ما ينتصب بعده بفعل مضمر ، أي : ولا أرى حين مناص ، وهذا على أحد قولي الأخفش بأن لات غير عاملة وكذلك قوله بعده : ويرتفع بالابتداء ، فهو هنا مبتدأ محذوف الخبر ، وتقديره ، ولا حين مناص كائن لهم .

(٢) أي : أن إقامة المظهر مقام المضمّر لهذه الفائدة .

الرجل من أقاربهم [بعد] ^(١) ، يعرفون أنه كان بعيدا عن الكذب والتهمة ، وكل ذلك مما يوجب الاعتراف بتصديقه ، فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته ، ومن الانقياد لتكاليفه ، وعجبوا أن يختص هو من بينهم برسالة الله ، وأن يتميز عنهم بهذه الخاصية الشريفة ، وبالجملة فما كان لهذا التعجب سبب إلا الحسد .

قال في التحريد : اجتمع من صناديد قريش خمسة وعشرون ، ومشوا إلى أبي طالب ، فاستحضر رسول الله ﷺ ، وقال : يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك فلا تمل كل الميل ، قال : ما يسألوني ؟ قالوا : ارفضنا وارفض [ذكر] آلهتنا ، وندعك وإلهك ، فقال ﷺ : رأيتم إن أعطيتكم ما سألتهم ، أمعطي أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ؟ قالوا : نعم ، فقال : قولوا : لا إله إلا الله ، فقاموا وقالوا : ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ بليغ في العجب ، ومعنى ﴿ جعل ﴾ : صير . اهـ

وروي أن عمر لما أسلم فرح بإسلامه المسلمون ، واغتم المشركون ، فاجتمع صناديدهم خمسة وعشرون إلى أبي طالب ^(٢) فقالوا : أنت شيخنا ، قد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء — يعنون الذين دخلوا في الإسلام — وجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك ، أرادوا محمدا ﷺ ، فاستحضره كما مر آنفا . إلى آخره .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَنْطَلِقُ الْمَلَأُ مِنْهُمْ ﴾ أي : أشراف قريش ، انطلقوا عن مجلس أبي طالب بعد ما بكتهم رسول الله ﷺ قائلا بعضهم لبعض ﴿ أَنْ اْمْشُوا ﴾ أي : سيروا ﴿ وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ أي : على عبادتها ، والتمسك

(١) ما بين القوسين غير ثابت في النسخة ب ، واللفظ أيضا مثله في الرازي ، وليس فيه لفظ (بعد) ١٧٧/٢٦

(٢) قال بن حجر : ذكره الثعلبي بغير سند ، وروى الترمذي والنسائي وابن حبان ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبو يعلى ، والطبري ، وابن أبي حاتم ، وغيرهم من طريق يحيى بن عمار ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : مرض أبو طالب فجاءته قريش ، وجاء النبي ﷺ .. الحديث نحوه ، وليس فيه أوله . الكشف ٤/ ٧٢، ٧٣

بها ، فلا حيلة لكم في دفع أمر محمد ، ويمكن أن يكون المعنى : أن امشوا إلى آهتكم واصبروا على التقديم والتأخير ، والقراءة على التثنية .

قال في الكشف : ﴿ أن ﴾ بمعنى : أي ؛ لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لابد لهم من أن يتكلموا ، ويتفاوضوا فيما جرى لهم [في المجلس المتقدم] فكان انطلاقهم مضمنا معنى القول ^(١) .

وعن ابن مسعود : (وانطلق الملأ منهم يمشون) ^(٢) .

والمعنى : أنه قال بعضهم لبعض : امشوا واصبروا ، فلا حيلة لكم في دفع أمر محمد ﴿ إن هذا ﴾ الأمر ﴿ لشيء يراد ﴾ أي : أمر محمد لشيء يريد الله ، ويحكم بإمضائه ، وما أراده فلا مرد له ، وما ينفع فيه إلا الصبر ، أو : أن هذا من نوائب الدهر يراد بنا ، فلا انفكاك لنا منه ، أو : أن دينكم لشيء يراد ، أي : يطلب ليؤخذ منكم .

ثم قالوا : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا ﴾ أي : التوحيد ﴿ فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ ملة عيسى عليه السلام لأنها آخر الملل ؛ لأن النصارى يدعونها وهم ملته ، أو في ملة قريش التي أدركنا عليها آبائنا ، والمعنى : لم نسمع من أهل الكتاب ولا الكهان أن يحدث في الملة الآخرة توحيد الله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي : ما هذا التوحيد الذي جاء به محمد ﴿ إِلَّا

(١) قال السيد العلوي في حاشيته : قوله : (لأن المنطلقين عن مجلس التقاول) يعني : الوجه أن تجعل أن مفسرة ؛ لأن ﴿ وانطلق الملأ منهم ﴾ متضمن لمعنى القول ، على العادة المعهودة ، وإنما قلنا : على العادة المعهودة ، ليعلم أن ليس بفعل في معنى القول ، كما في النداء ونحوه ، ولكنه لما لم ينفك منه من حيث العادة نزل منزلة ما هو في معناه ، ولا يجوز تقدير القول بعده ؛ لأن أن المفسرة لا تأتي بعد صريح القول مظهرا كان أو مضمرا . (أي : أن أن المفسرة لا تأتي إلا بعد ما فيه معنى القول دون حروفه) .

وما بين القوسين ساقط من النسخة أ ، وثابت في النسخة ب ، وفي الكشف ٧٣/٤ .

(٢) هذه قراءة عن ابن مسعود هنا ، وفي الكشف ٧٣/٤ ، وذكر في البرهان أيضا : أنه قراءة لابن مسعود ، وفي الرازي جعله قولاً ونسبه إلى ابن عباس ١٧٨/٢٦ .

اختلاق ﴿ افتعال ، وكذب اختلقه محمد ، وأن الله لا يرضى بترع الأرباب ﴾ ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ أي : القرآن ﴿ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم ، والاستفهام للإثكار .

ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من وجوه ، الأول : قوله ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ﴾ أي : من القرآن ، أخبر تعالى بأنهم شاكون في صحة القرآن في نفوسهم وإن أظهروا القطع بأنه مختلق مكذوب ﴿ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ فإذا ذاقوه زال عنهم الشك والحسد ، أي : لا يصدقون به إلا أن يمسه عذابي مضطرين إلى تصديقه ، وهذا وعيد لهم .

الوجه الثاني : قوله تعالى ﴿ أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ أي : نعم ربك ، نبوة وغيرها حتى يخصوا بها من شأوا ، ويصرفوها عن شأوا ، ومعنى ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ فهو القاهر لعباده ﴿ الْوَهَّابِ ﴾ الكثير المواهب ، المصيب مواقعها على مقتضى الحكمة والعدل .

الوجه الثالث : قوله تعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ حتى يتكلموا في الأمور الربانية ، والتدابير الإلهية التي اختص بها رب العزة .

ثم هكهم بهم فقال : إن كانوا كذلك ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ أي : فليصعدوا في المعارج ، والأسباب : الطرق الموصلة إلى العرش حتى يستووا عليه ، ويدبروا أمر العالم ، ويتزلوا الوحي على من يشأوا .

ثم قال تعالى ﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ (ما) زائدة ، فيها معنى الاستعظام للجند على سبيل الاستهزاء بهم ، حيث وضعوا أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم ، وهو دعواهم الشرف واستحقاق النبوة دون أنبيائهم ، وما : كلمة تصل بها العرب كلامها ، قال الشاعر :

أبلغ سلامة أن الصبر مغلوب وأما حبها شوق وتعذيب

أي : وأن حبها شوق ، والمعنى : ما هم إلا جند من الكفار المتحزبين عليه ﷺ ، و﴿مهزوم﴾ معناه : مكسور عن قريب ، فلا تبال يا محمد بما يقولون . ومعنى ﴿هنالك﴾ أي : في ذلك الموضع الذي كانوا يذكرون هذه الكلمات الطاغية في نبوة محمد ﷺ ، قال قتادة وغيره : أخبر الله نبيه وهو بمكة أنه ينهزم جند المشركين ، ف جاء تأويلها يوم بدر .

ولما تم الجواب عن شبهة أولئك الكفار أخبر تعالى أن أقوام سائر الأنبياء هكذا كانوا ، ثم بالآخرة نزل ذلك العقاب عليهم ، فذكر تعالى ستة أصناف منهم ، فقال سبحانه : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي : قبل قريش ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ ولما كذبوا نوحا أهلكهم الله تعالى بالغرق بالطوفان ، ثم قال : ﴿وَعَادَ﴾ قوم هود ، لما كذبوا أهلكهم الله بالريح ، وهذا تسلية له ﷺ بنصرة الرسل على من كذبهم ، ووعظ لقريش بما جرى على المكذبين قبلهم .

ثم قال : ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ أراد الملك والعز القوي ، يقولون : ملك ثابت الأطناب ، وثابت الأوتاد ، وصف له بثبات العز والملك ، وأصله من ثبات البيت المطنب بأوتاده ، وقيل : كان يشبه المعذب بين أربع سوار ، كل طرف من أطرافه مضروب فيه وتد من حديد ، ويتركه كذلك حتى يموت ، والمعنى : لما كذب موسى أهلكه الله مع قومه بالغرق .

ثم قال تعالى : ﴿وَتَمُودُ﴾ قوم صالح ، كذبوه فأهلكوا بالصيحة ، ثم قال : ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ كذبوه فأهلكوا بالخسف .

ثم قال سبحانه : ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ قوم شعيب ، وكانوا أصحاب شجر ملتف ، أرسل إليهم وإلى مدين ، وهو أخو مدين ، كذبوه أيضا فأهلكوا بعذاب يوم الظلة ، وروي أن ليفة صنم ، وهو شجر ، ويمكن أن يكون ليفة هي القرية ، والله أعلم وروي ذلك عن الإمام أبي عبد الله صلوات الله عليه .

ثم قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ أي : الأقوياء من المتحزبين ، لا قريش ، وقيل : الأحزاب المجتمعون على تكذيب رسلهم ، والمعنى : أن هؤلاء الذين ذكرناهم من الأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم فأهلكناهم ، فكذلك أفعل بقومك ، وقصد بقوله : ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ الإعلام بأنهم الأحزاب في قوله : ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ أي : هم الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم ، وهم الذين وجد منهم التكذيب .

ثم قال تعالى : ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ﴾ لأن من كذب واحدا منهم فقد كذب الجميع ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي : فوجب بذلك عقابي لهم حق عقابهم ، والمقصود منه زجر السامعين .

ثم أخبر تعالى أن هؤلاء الكذابين وإن تأخر هلاكهم فكأنه واقع ، فقال : ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ لا تنى ، يريد أهل مكة ، ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب لاستحضارهم بالذكر ، ثم إنه تعالى وصف هذه الصيحة فقال : ﴿لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ أي : ما لها من إفاقة ولا راحة ، أو من توقف قدر الفواق ، وهو : ما بين حلبي الحالب المتصلتين ، ويحتمل أن يكون المراد عذابا يفاجنهم ويحيئهم دفعة واحدة ، كما يقال : صاح الزمان بهم ، إذا هلكوا ، قال :

صاح الزمان بآل برمك صيحة خروا لشدها على الأذقان

قال في التحرير : قال ابن الجوزي : في الصيحة الواحدة قولان ، أحدهما : أنها النفخة في الصور الأولى ، قاله مقاتل ، والثاني : أنها النفخة الثانية ، قاله ابن السائب ﴿ما لها من فواق﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم الفاء ، وقرأ الباقر بفتحها ، وهل بينهما فرق ؟ قيل : لا ، ثم اختلفوا ما معناها ؟ .

فقال الفراء وابن قتيبة ، والزجاج : المعنى : مالها من راحة ولا إفاقة ، وقال ابن قتيبة : الفُواق والفُواق واحد ، وهو أن تخلب الناقة وتترك ساعة حتى يترل شيء من اللبن ، ثم تخلب ، فما بين الحلبتين فواق ، فاستعير لوقت المكث .

وفي الصحاح : الناقة تخلب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتدر ، ثم تخلب ، فما بين الحلبتين فواق .

وقال الزجاج : الفواق ما بين حلبتي الناقة ، وهو مشتق من الرجوع ؛ لأنه يعود اللبن إلى الضرع ما بين الحلبتين ، يقال : أفاق من مرضه ، أي : رجع إلى الصحة .

وقال قوم بينهما فرق فمن فتح أراد مالها من راحة ، ومن ضم أراد فواق الناقة .

قال أبو عبيدة : وللمفسرين في معنى الكلام أربعة أقوال ، أحدها : مالها من رجعة ثم فيه قولان ، أحدهما : مالها من تردد ، قاله ابن عباس ، والمعنى أن تلك الصيحة لا تكرر

والثاني : مالها من رجوع إلى الدنيا ، قاله الحسن وقتادة ، أي : لا يعودون بعدها إلى الدنيا .

والثاني : ما لهم منها إفاقة ، بل هلكهم قاله ابن زيد ، والثالث : مالها من فتور ، قاله ابن جرير ، والرابع : مالها من راحة .

قال الرازي : واعلم أن القوم إنما تعجبوا لشبهات ثلاث ، أولها : ما يتعلق بالإلهيات ، وهو قوله : ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ والثانية : تتعلق بالنبؤات ، وهو قوله : ﴿ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ والثالثة : تتعلق بالمعاد ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ وذلك لأن القوم كانوا في نهاية الإنكار للقول بالحشر والنشر ، فكانوا يستدلون بفساد القول بالحشر والنشر على فساد نبوته ﷺ .

والقط : الصحيفة^(١) ، يقال لصحيفة الجائزة : قط ؛ لأنها قطعة من القرطاس ،
والقط : القسط من الشيء ؛ لأنه قطعة منه ، والمراد هنا نصيبا من العذاب ، كقوله :
﴿ يستعجلونك بالعذاب ﴾ .

وفي تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام وهو الذي في البرهان أيضا : إنما قالوا
﴿ عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ أي : يوم القيامة ، حين نزل قوله : ﴿ فأما من
أوتي كتابه يمينه ﴾^(٢) فاستهزأوا فقالوا : عجل لنا هذا الكتاب ، أي : حسابنا ،
والقط : كتاب العطاء ، وهو الصك ، وجماعته : القطوط ، قال الشاعر :

ولا الملك النعمان يوم لقيته
بغيطة يعطي القطوط ويأفق

أي : كتب العطايا .

واعلم أن الكفار لما بالغوا في السفاهة على رسول الله ﷺ حيث قالوا : إنه
ساحر كذاب ، وقالوا على سبيل الاستهزاء : ﴿ عجل لنا قطنا ﴾ أمره الله بالصبر
على سفاهتهم فقال : ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ من التكذيب والاستهزاء ﴿ وَاذْكُرْ
عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴾ أي : عظم معصية الله في أعينهم بذكر قصته ، وما وقع له على زلته
مع نبوته ، وعظم منزلته وكرامته .

قال في التجريد : معناه اصبر على ما يقولون ، ولا تزل فيما كلفت ، واذكر أخاك
داود كيف زل زلة يسيرة فلقي من توبيخ الله ما نقص عليك ، أو اقتد بصبره على
عبادة الله . اهـ

ويحتمل أن معناه : اصبر على ما يقولون ، واذكر عبدنا داود غير مقتصر على داود
فقط ، بل ذكر عقيب قصة داود قصص سائر الأنبياء عليهم السلام ، فكأنه تعالى قال :

(١) القط : القطعة من الشيء ؛ لأنه قطع منه ، من قطه إذا قطعه ، ويقال لصحيفة الجائزة قط .

(٢) الحاقة : ١٩ ، الانشقاق : ٧ ،

اصبر على ما يقولون ، واعتبر بحال سائر الأنبياء ، لتعلم أن كل واحد منهم كان مشغولا بهم خاص ، وحزن خاص ، فتعلم حينئذ أن الدنيا لا تنفك عن الهموم والأحزان ، فإن استحقاق الدرجات عند الله لا تحصل إلا بتحمل المشاق والمتاعب في الدنيا ، فذكر الله سبحانه بعد ذلك حال تسعة من الأنبياء ، فذكر حال ثلاثة منهم على التفصيل ، وحال ستة على الإجمال .

فالقصة الأولى قصة داود عليه السلام

فوصفه سبحانه أولا بالصفات التي توجب سعادة الآخرة والدنيا ، وهي عشر .
الأولى : قوله تعالى لمحمد ﷺ على جلالة قدره بأن يقتدي في الصبر على طاعة الله بـداود ، وذلك تشريف عظيم وإكرام لداود ، حيث أمر أفضل الخلق محمدا ﷺ بأن يقتدي به ، ثم قال في حقه : ﴿ عبدنا داود ﴾ فوصفه بكونه عبدا له ، وعبر عن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم ، وذلك غاية التشريف .

ثم قال تعالى : ﴿ ذا الأيد ﴾ أي : ذا القوة ، أي : القوة في الدين ، يقال : رجل أيد ، وذو أيد ، إذا كان قويا ، كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وهو أشد الصوم ، ويقوم نصف الليل مع مشقة أعباء النبوة ، فالأيد المذكور هاهنا ، كالقوة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ فكتبنا له في الألواح ﴾ ^(٢) إلى قوله : ﴿ فخذها بقوة ﴾ أي : باجتهاد في أداء الأمانة ، وتشدد في القيام بالدعوة ، وترك الإظهار للوهن والضعف ، فالأيد والقوة سواء .

ثم قال تعالى : ﴿ إله أواب ﴾ أي : داود ، وكان رجاعا في أموره كلها إلى طاعتي ، والأواب : فعال من آب إذا رجع ، وفعال : بناء للمبالغة ، كما يقال : قتال وضراب .

(١) مريم : ١٢ .

(٢) الأعراف : ١٤٥ .

وفي تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام : ﴿ ذَا الْأَيْدِ ﴾ أي : ذا الأيادي والنعم والفضائل . قال الهادي عليه السلام يذم بعض الفاسقين :

ولم يك ذا شكر لأيد تقدمت إليه وأمر بين ما له خطر

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ﴾ كانت تجاوبه بالتسبيح ﴿ بِالْعَشِيِّ ﴾ آخر النهار ﴿ وَالْأَشْرَاقِ ﴾ وقت شروق الشمس ، أي : يصفو شعاعها لا بمجرد شروقها ، أي : طلوعها .

ثم قال : ﴿ وَالطَّيْرَ ﴾ أي : وسخرنا له الطير ﴿ مَحْشُورَةً ﴾ أي : مجموعة ﴿ كُلُّ لَهُ أَوَابٌ ﴾ أي : كل من الجبال والطير ﴿ لَهُ ﴾ أي : لأجل تسبيح داود ﴿ أَوَابٌ ﴾ أي : مسبح مرجع ، وضع ﴿ أَوَابٌ ﴾ موضع مسبح ؛ لأنها كانت ترجع التسبيح ، والمرجع راجع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع ، وقيل : الضمير في ﴿ لَهُ ﴾ لله ، أي : كل من داود والطير والجبال لله أواب ، أي : مسبح مرجع للتسبيح .

ابن عباس : كان إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح ، واجتمعت إليه الطير فسبحت ، فذلك حشرها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ قويناه ، قيل : كان يبيت حول محرابه أربعون ألف مستلثم لابسين لامة الحرب يحرسونه ، وقيل : شد الله ملكه بهيمة ألقاها له في قلوب الناس عن ابن عباس .

ثم قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ أي : العلم ، وقيل : الزبور وعلم الشرائع ، وقال ابن عباس : النبوة والمعرفة بكل ما حكم ، وقال مقاتل : العلم والفهم ، وقيل : كل كلام وافق الحق فهو حكمة .

ولما بين الله تعالى كمال حال داود عليه السلام بقوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ أردفه ببيان كمال حاله في النطق واللفظ والعبارة فقال : ﴿ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ ﴾ .

قال الرازي : لأن فصل الخطاب عبارة عن كونه قادرا على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ، ويحضر في الحال بحيث لا يختلط شيء بشيء ، وبحيث يفصل كل مقام عن كل^(١) مقام ، وهذا معنى عام . اهـ كلامه .

وقيل : هو قطع الحكم وإنفاذ الخصومة وفصلها ، وقيل : التمييز بين الشئيين .
وفي التحريد : هو الخطاب البين الذي يتبينه من يخاطب به ، ولا يلتبس عليه ،
ومنه كلامه في القضايا والحكومات ، وتدبير الملك والمشورات .
وعن علي عليه السلام هو قوله : البينة على المدعي ، واليمين على المدعى عليه ، وبه
قال شريح وقتادة وغيرهم .

قال الرازي : اعلم أنه تعالى لما مدحه وأثنى عليه من الوجوه العشرة — أردفه بذكر قصة ليبين بها أن الأحوال الواقعة في هذه القصة لا يناقض شيء منها كونه عليه السلام مستحقا للثناء والمدح والتعظيم فقال تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾ ظاهره الاستفهام ، ومعناه الدلالة على أنه من الأنبياء العجبية ، والتنبيه على جلالة القصة المستفهم عنها ليكون داعيا إلى الإصغاء لها ، والاعتبار بها^(٢) .

ومعنى ﴿ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾ أي : الخصماء^(٣) ، وهو يقع على الواحد والجمع ، كالضيف ؛ لأنه في أصله مصدر ، وإنما ثناه في قوله : ﴿ خصمان ﴾ لأنه أراد فريقيين

(١) انظر الرازي ١٨٨/٢٦ ، وما أقواس الزيادة ثابت في المصاييح ، وغير ثابت في الرازي .

(٢) نقل المصنف لكلام الرازي هنا مع تصرف يسير . انظر تفسير الرازي ١٨٩/٢٦ .

(٣) في المصاييح : (أي : الخصمان) وقد أصلحناه من الكشف ، لئتم قوله : وإنما ثناه في قوله ؛ لأنه جواب عن سؤال ، كأنه قيل : هذا جمع ، وقوله : ﴿ خصمان ﴾ تشبيه فكيف استقام ذلك قال في الكشف : الخصم الخصماء ، وهو يقع على الواحد والجمع ؛ كالضيف ، قال الله تعالى : ﴿ حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ لأنه مصدر في أصله ، تقول : خصمه خصما ، كما تقول : ضافه ضيفا .

قال السيد العلوي رحمه الله : قال الزجاج : الخصم — مصدر تقول : خصمته أخصمه خصما ، وما كان من المصادر وقد وصفت به الأسماء فتذكيره وتأنينه وتوحيده جائز .

قال في التجريد : فإن قلت : كيف يصح هذا وقد قال ﴿إِنْ هَذَا أَحْيَى﴾ ففسره بواحد ، وجاء في الرواية أنه بُعِثَ إليه ملكان ؟ قلت : لا يمتنع التحاكم بين ملكين وكان يصحبهما آخرون .

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى ﴿نَبَأَ الْخَصْمِ﴾ أي : خبر الخصم ، والخصم : هم الخصوم المتخاصمون ، والمتخاصمون : هم المتحاجون إلى داود المتناظرون . اهـ .

ومعنى قوله : ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ أي : طلّعوا الجدار ، وإذ بمعنى حين ، تقديره : وهل أتاكَ نبأ الخصم حين تسوروا ، والمحراب : هو مصلى داود ، أي : صعدوا على سوره ، أي : حائطه ونزلوا عليه عليه السلام .

ثم قال سبحانه : ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ﴾ إذ بدل من الأولى ، وإنما قال تعالى : ﴿فَفَزَعَ مِنْهُمْ﴾ لأنهم جاؤه من فوق المحراب ، وفي يوم الاحتجاب ، والحرس حوله لا يتركون من يدخل إليه في وقت عبادته ، وكان ذلك يومها ، وروي أن الله بعث إليه ملكين في صورة إنسانين ، فأرادا الدخول فمنعهما الحرس فتسورا عليه المحراب ، فلم يشعر إلا وهما بين يديه ففزع ، ثم ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ﴾ أي : نحن خصيمان ﴿بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ أي : اعتدى وظلم وخرج عن الحد ، يقال : بغى الجرح ؛ إذا أفرط وجعه ، ويقال : بغت المرأة ؛ إذا زنت ؛ لأن الزنى كبيرة منكبة ، وهذا مجاز وتعريض لداود عليه السلام ، ثم قالوا : ﴿فَاخْكُمِ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي : بالحكم الحق ، وهو الذي حكم الله به ﴿وَلَا تَشْطِطْ﴾ أي : لا تجرّ وتبعد عن الحق ، ثم قالوا : ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي : وسط الطريق ، ضربه مثلاً لعين الحق ، يعني أنه يجب أن يكون سعيك في إيجاد هذا الحق ، وفي الاحتراز عن هذا الباطل ، أن تردنا من طريق الباطل إلى الطريق الحق ، وهذا مبالغة تامة في تقرير المطلوب .

واعلم أنه لما أخبر عن وقوع الخصومة على سبيل الإجمال أردفه ببيان سبب تلك الخصومة على سبيل التفصيل فقال : ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ أي : امرأة^(١) قال في الكشف : ﴿أخي﴾ بدل من هذا ، أو خبر ﴿إن﴾ والمراد أخوة الدين ، أو أخوة الصداقة والألفة ، أو أخوة الشركة والخلطة ، لقوله تعالى : وإن كثيرا من الخلطاء^(٢) ﴿أوكل واحدة من هذه الأخوات توجب الامتناع من الظلم والاعتداء﴾^(٣)

ثم قال تعالى : ﴿وَلِيَّ نَعْجَةٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي : امرأة واحدة ، والنعجة أنثى الضأن ، وأنثى بقر الوحش ، والعرب جرت عادتهم بجعل النعجة والظبية كناية عن المرأة ، كما يكتفى عما يسمح ذكره ، سترنا هنا على داود وحفظا لحرمة ، ولأن التمثيل — دون التصريح — أبلغ في التوبيخ ، وأعظم أثرا في القلب .

ثم قال سبحانه حاكيا : ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ يقال : عزّه يعزّه ، يريد : جاءني بخطاب وحجاج لم أقدر أن أردّه ، والخطاب : المخاطبة والجدال .

وفي تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى ﴿أكفّلنيها﴾ أي : ولني كفالتها ، وكان المسلمون في ذلك الزمان إذا أعجب أحدهم بزوجة صاحبه قال : أكفّلنيها وطلقها لي إن كنت قضيت منها وطرا ؛ لشدة ما كان بينهم من التواصل ، والتقرب إلى الله بقضاء حاجة المؤمن ، ولم يكن في ذلك عيب ولا مأثم ، ولو كان داود عليه السلام في منزلة أوريا لما عاتبه الله عز وجل في ذلك ، ولكن الحاكم على الناس المالك لأموارهم لا ينبغي له أن يسألهم ؛ لأنه إذا سألهم لم يمتنعوا عليه إعظاما وهيبة لسلطانه ، وليس العوام كذلك ؛ لأن العوام لا يعطون ما يعطون^(٤) إلا بطيبة نفس

(١) النعجة : هي الأنثى من بقر الوحش ، وبها تشبه المرأة . وقد جعل المصنف النعجة هنا كناية عن المرأة ، كما سيأتي له وهو قوله : والعرب جرت عادتهم بجعل النعجة والظبية كناية عن المرأة .

(٢) ص : ٢٤ .

(٣) في الكشف : وكل واحدة من هذه الأخوات تدلي بحق مانع من الاعتداء والظلم ٨٣/٤ .

(٤) في الأصل للمصاييح (ما يطلبون) وفي تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام ما يعطون .

المعطي لما يسألون ، والسلطان يُهابُ ولا يُردُّ ، ولعلَّ ذلك يضرُّهم ويشقُّ عليهم ويتعبهم ، فلم يرض الله لنبيِّه وحيِّيه ووليِّه أن يطلب منهم ، وهو قاهر لهم لما في ذلك من المضرة لهم . اهـ

ومثل هذا ذكر الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام .

قيل : وكانت عادتهم في هذا المعنى مألوفة معهودة .

وروي الرازي أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بهذا المعنى ، والله أعلم .

[قصة داود عليه السلام مع أوريا كما رواها الإمام الهادي عليه السلام]

وفي هذه الآية يقول الهادي إلى الحق عليه السلام ^(١) : هذا خبر من الله سبحانه عما كان نبيه داود صلى الله عليه على أمنيته التي كان تمنى من نكاح امرأة أوريا ، وذلك أنه لما أن تبع الطير أشرف به الطير على رأس جدار ، فأشرف داود ينظر أين توجه الطير فوقعت عينه على امرأة أوريا وهي حاسر ، فرأى من جمالها ما رغبه فيها فقال : لوددت أن هذه في نسائي ، ولم يكن منه غير هذا التمني ، وكل ما يروى عليه صلى الله عليه من سوى ذلك فهو باطل كذب ، فلما [أن تمناها] ^(٢) نبهه الله وعاتبه في السر ، وقد أعطاه أكثر من حاجته ، فبعث إليه ملكين ، فتمثلا في صورة آدميين ، فتسورا عليه المحراب وهو يصلي ، فدخلوا عليه ففزع منهما ، وظن أنها داهية قد دهمته ، وعدو قد هجم عليه في محرابه ، وفي وقت خلوته ، فقالا له : ﴿ لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ﴾ معنى ﴿ لا تشطط ﴾ يقول : لا تمل حكماً مع أحدنا فتشطط على الآخر [ومعنى ﴿ تشطط ﴾ فهو تشدد على أحدنا في غير حق] ، و ﴿ سواء الصراط ﴾ فهو : معتدله ومستقيمه ووسطه وقيمه ، والصراط فهو : طريق الحق

(١) واللفظ في النسخة ب : وأما الهادي عليه السلام فقال : هذا خبر :

(٢) في أصل المصاييح (فلما تمنى) وما بين القوسين هو ما في المجموع ، واللفظ في النسخة ب (فلما أن تمنى) .

هاهنا وواضح ، وكان لداود صلى الله عليه تسع وتسعون منكحا من الحرائر والإماء ، وكان لأوريا هذه المرأة وحدها ، فمثلا أنفسهما بداود وبأوريا ، فقال أحدهما ﴿ إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها ﴾ ومعنى ﴿ أكفلنيها ﴾ فهو : ابتغيها وزدنيها إلى نعاجي ﴿ وعزني في الخطاب ﴾ يقول : شطني في المطلب ، وألح في تمنيتها وطلبها ، وذلك أنها لم تكن تسقط من نفس داود من يوم رآها ، يتذكرها ويتمناها ، فقال داود صلى الله عليه : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نِعْمَتِكَ إِلَيَّ نِعَاجِهِ وَإِنْ كَثِيرًا مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ فلما قال هذا لهما تعييا من بين عينيه ، فإذا به لا يبصرهما ولا يراهما ، فعلم عند ذلك الأمر كيف هو ، وأنها ملكان ، وأن الله بعثهما إليه لينبهاه من غفلته ، ويقطعا عنه بذلك ما في قلبه من كثرة تذكره امرأة صاحبه ، فأيقن الله عليه أنها فتنة من الله ، والفتنة هاهنا : فهي المحنة .

ومعنى ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَانَهُ ﴾ فهو : أيقن بذلك أنه من الله ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ من ذلك التمني ، والذكر لهذه المرأة ، فلم يذكرها بعد ذلك اليوم حتى زوجه الله إياها ، حين أراد تبارك وتعالى من بعد أن اختار لأوريا الشهادة ، فاستشهد وصارت بعد ذلك إليه ، وزوج الله داود امرأة أوريا ، وبلغه أمله ، وأعطاه في ذلك أمنيته ، فجاءه ذلك وليس في قلبه لها ذكر ، ولا إرادة ولا تمنى ، ولم يكن لداود صلى الله عليه في أوريا ، ولا في قتله شيء مما يقول المبطلون من تقديمه أول الحرب ، ولا ما يذكرون من طلبه وتحيله في تلفه بوجه من الوجوه ، ولا معنى من المعاني ، كذب العادلون بالله ، وضل القائلون بالباطل في رسول الله صلى الله عليه ^(١) . اهـ

وروي أنه بقي ساجداً أربعين يوماً وليلة لا يرفع رأسه إلا للصلاة المكتوبة ، وما لا بد منه ، ولا يرقأ دمه حتى نبت العشب من دمه ، ولم يأكل ولم يشرب ، وأكلت الأرض من جبينه ، ونقش خطيئته في كفه لئلا ينساها قاله في التجريد .

وما في قوله : ﴿ وقليل ما هم ﴾ زائدة للإهام ، وفيه تعجب من قتلهم ^(١)

قال في البرهان : ﴿ وظن داود ﴾ علم ، وكل ظن أدخلته على خبر ، فجائز أن تجعله علماً ؛ لأنه علم غير العيان ^(٢) . اهـ

أي : علم وأيقن بذلك أنه من الله ، استعار الظن للعلم لما كان يدانيه .

ومعنا ﴿ ففتناه ﴾ هو : أنا امتحنناه واختبرناه بما ركبنا فيه من الهوى ، وجعلناه فيه ، أو فتناه بتخاصم الخصمين .

ومعنى ﴿ فاستغفر ربه ﴾ سأله المغفرة ﴿ وخر راکعاً ﴾ أي : سقط ساجداً اعترافاً بالذنب ، عبر بالراكع عن الساجد ^(٣) لأنه ينحني ويخضع كالساجد ، وبه استشهد أبو حنيفة وأصحابه في أن الركوع في سجود التلاوة يقوم مقام السجود ، ولا حجة لهم لجواز أن يكون قد استغفر لذنبه وأحرم بركعتي الاستغفار ، فيكون المعنى : وخر للسجود مصلياً ؛ لأن الركوع يجعل عبارة عن الصلاة .

(١) — وذلك لأنه بالغ في قتلهم من ثلاثة أوجه ، أحدها : لفظ قليل ، والثاني : التكرار فيه فإنه لتعظيم التقليل ، والثالث : زيادة ما الإهامية ، والشئ إذا بولغ فيه كان مظنة لأن يتعجب منه . ح ع .
(٢) البرهان خ : ٣٣٤ .

(٣) — قوله : عبر بالراكع عن الساجد . أي : كنى عن الساجد بالراكع ؛ لما بين الركوع والسجود من الانحناء للخضوع ، ولما بينهما من المناسبة استشهد أبو حنيفة في سجدة التلاوة على أن الركوع يقوم مقام السجود ، قال صاحب التقريب : وفيه نظر لأنه بعد تعبيره به عن الساجد لا يبقى الاستشهاد ، ولعله استشهد بإطلاق الآية . وفيما قاله نظر ؛ لأنه لا إطلاق ؛ لأن الركوع مقيد بالخروج الذي هو السقوط ، فلا يحمل على مجرد الركوع .

قال في التجريد : وقد اختلف العلماء هل هذا الموضع من مواضع السجود ، فقال الشافعي : ليس بموضع سجود ، وقال أبو حنيفة : هو موضع سجود ، والركوع في سجود التلاوة يقوم مقام السجود ، فجعل الركوع لظاهره في الآية .

ومعنى ﴿ أَنَاب ﴾ رجع إليه وتاب ﴿ فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ يجوز أن يكون مفعول غفرنا وأشير به إلى الذنب ، ويجوز أن يكون ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ﴾ محذوف المفعول ، وقوله ﴿ ذَلِكَ ﴾ ابتداء كلام ، أي : ذلك خبره ، أو خبره ذلك .

[قصة داود عليه السلام عند من لا يتره الأنبياء عليهم السلام من المعاصي]

وأما ما يرويه القصاص في قصة داود عليه السلام أنه بعث أوريا ، وقدمه على التابوت ، وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع أو يستشهد ، فقدمه ففتح الله على يديه وسلم ، فردّه أخرى وثالثة حتى قتل ، فأتى خبره لمقتله فلم يحزن كما كان يحزن على سائر الشهداء ، وتزوج امرأته — فباطل قطعاً .

والدليل على بطلانه ما رواه سعيد بن المسيب ، والحارث الأعور أن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : من حدثكم بحديث داود على ما رواه القصاص جلدته مائة وستين ، وهو حد الفرية على الأنبياء^(١) .

ومما يدل أيضا على فساد ما حكوه ونسبوه إلى نبي الله في امرأة أوريا ، وتحيله في قتله وجوه الأول : أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس ، وأشدّهم فجورا لاستنكف منها ، والرجل الحشوي الخبيث ، الذي يقرر تلك القصة ، لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه ، وربما لعن من نسب إليه ، وإذا كان الأمر كذلك كيف يليق بالعاقل نسبة النبي المعصوم إليه ! .

(١) وذكره أيضا الرازي في تفسيره ١٩٢/٢٦ .

الثاني : أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين : السعي في قتل رجل مسلم بغير حق ، وإلى الطمع في زوجته ، أما الأول فأمر منكر ، قال صلوات الله عليه وآله وسلم : (من سعى في دم مسلم ولو بشرط كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله) .

وأما الثاني فمتكر عظيم قال ﷺ : (المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه) وإن أوريا لم يسلم من داود لا في نفسه ولا في منكوحه .

الثالث : أن الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات المذكورة ، ووصفه أيضا بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة ، وكل هذه الصفات تنافي كونه عليه السلام موصوفا بهذا الفعل المنكر ، والعمل القبيح ، ذكر هذه الوجوه بعض المحققين ، قال : ولا بأس بإعادة هذه الصفات للمبالغة في البيان فنقول :

أما الصفة الأولى فهي أنه تعالى أمر محمدا ﷺ بأن يقتدي بدادود عليه السلام في المصابرة على المكاره ، ولو قلنا : إن داود لم يصبر على مخالفة النفس ، بل سعى في إراقته دم مسلم لغرض شهوته ، فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمدا أفضل الرسل بأن يقتدي بدادود في الصبر على طاعة الله .

وأما الصفة الثانية وهو أنه وصفه بكونه عبدا له ، وقد بينا أن المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملا في موقف العبودية ، تاما في القيام بأداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات . ولو قلنا : إن داود اشتغل بتلك الأعمال الباطلة فحينئذ ما كان داود كاملا في عبوديته لله تعالى ، بل كان كاملا في طاعة الهوى والشهوة وأما الصفة الثالثة فهو قوله : ﴿ ذا الأيد ﴾ أي : ذا القوة ، ولا شك أن المراد منه القوة في الدين ؛ لأن القوة في غير الدين كانت موجودة في ملوك الكفار ، ولا معنى للقوة في الدين إلا القوة الكاملة على أداء الواجبات ، والاحتجاب عن المحظورات ، فأى قوة لمن لا يملك نفسه عن القتل ، والرغبة في زوجة المسلم .

الصفة الرابعة : كونه أوابا ، كثير الرجوع إلى الله تعالى ، وكيف يليق هذا بمن يكون قلبه مشغوبا بالقتل والفجور .

الصفة الخامسة : قوله : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه ﴾ أفترى أنه سخرت له الجبال ليتخذها وسيلة إلى القتل والفجور ؟ .

والصفة السادسة : قوله ﴿ والطير محشورة ﴾ وقيل : إنه كان محرما عليه صيد شيء من الطير ، وكيف يعقل أن يكون الطير آمنا منه ، ولا ينجو منه الرجل المسلم على روحه ومنكوحه .

الصفة السابعة : قوله ﴿ وشددنا ملكه ﴾ ومحال أن يكون المراد أنه تعالى شد ملكه بأسباب الدنيا ، بل المراد أنه شد ملكه بما يقوي الدين ، ويكمل أسباب سعادة الآخرة ، والمراد منه تشديد ملكه في الدين والدنيا ، ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور فكيف يليق به ذلك ؟ .

الصفة الثامنة : قوله تعالى : ﴿ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ والحكمة : اسم جامع لكل ما ينبغي علما وعملا ، وكيف يجوز أن يقول الله تعالى : ﴿ آتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ مع إصراره على ما يستتلف عنه أخبث الشطار^(١) عن مزاحمة أخلص أصحابه في الروح والمنكوح . فهذه الصفات المذكورة قبل شرح تلك القصة [دالة على براءة ساحته عن تلك الأكاذيب]^(٢)

[وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة] فهي عشر أولها : قوله تعالى : ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ .. تركنا عدد ما ذكره من الصفات الأخرى لطولها^(٣)

(١) اللفظ في الرازي : على ما يستتلف عنه الخبيث الشيطان .

(٢) ما بين قوسي الزيادة موجود في النسخة ب ، وفي الرازي ١٨٩/٢٦ ، ١٩٠ . وكذلك ما بعده بين أقواس الزيادة .

(٣) قوله بعض المحققين . المراد به الرازي ، وقد ذكر المبحث في تفسيره ١٨٩/٢٦ — ١٩٢ ، وقد أصلحنا اللفظ منه .

وانظر بقية كلامه في تزيه نبي الله داود ، والعجب من هؤلاء المفسرين والمحدثين من الحشوية وبعض أهل الحديث الذين هم كالبيغات يرددون ما ورد في الكتب المحرفة ، وينسبونه إلى رسل الله المزهين عن كل شين ، وليت شعري لو استخدموا تزويهم وتحلالتهم في تزيه بعض الصحابة الطغاة أمثال معاوية ، وعمرو بن العاص ، وسمره بن جندب ، والمغيرة بن شعبة في تزيه الأنبياء لكان أولى بهم وأجدر ، ولكنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . حتى تجرأ بعضهم وروي للخلفاء الذين على شاكلة معاوية (أن) الخليفة لا يجري عليه القلم ، ولا يكتب عليه معصية) وقد روي هذا الحديث لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فبالغ في نفيه كما ذكره الرازي في تفسيره .

وما تركه المصنف فنحن نثبت هنا من تفسير الرازي .

قال : وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهي عشرة ، الأول : قوله ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ وذكر هذا الكلام إنما يناسب لو دلت القصة المتقدمة على قوته في طاعة الله ، أما لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه في القتل والفجور لم يكن قوله : ﴿ وإن له عندنا لزلفى ﴾ لاتقوله .

الثاني : قوله تعالى : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ وهذا يدل على كذب تلك القصة من وجوه ، أحدها : أن الملك الكبير إذا حكى عن بعض عبيده أنه قصد دماء الناس وأمواهم وأزواجهم فبعد فراغه من شرح القصة على مأل من الناس يفتح منه أن يقول عقيبه : أيها العبد إني فوضت إليك خلافتي ونيايتي ، وذلك لأن ذكر تلك القبائح والأفعال المنكرة يناسب الزجر والحجر ، فأما جعله نائباً وخليفة لنفسه فذلك البتة مما لا يليق .

وثانيها : أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم عقيب الوصف يدل على كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف ، فلما حكى الله تعالى عنه تلك الواقعة القبيحة ثم قال بعده : ﴿ إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ أشعر بهذا بأن الموجب لتفويض هذه الخلافة هو إتيانه بتلك الأفعال المنكرة ، ومعلوم أن هذا فاسد ، أما لو ذكر تلك القصة على وجوه تدل على براءة ساحته عن المعاصي والذنوب ، وعلى شدة مصابرتة على طاعة الله تعالى فحينئذ يناسب أن يذكر عقيبه ﴿ إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ فثبت أن هذا الذي نختاره أولى .

والثالث : وهو أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود عليه السلام وتعظيمه ، وموخرها أيضاً دالة على ذلك ، فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعائب لجرى مجرى أن يقال : فلان عظيم الدرجة عالي المرتبة في طاعة الله ، يقتل ويؤذي ويسرق ، وقد جعله الله خليفة في أرضه ، ووصوب أحكامه ، وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل ، فكذا هنا ، ومن المعلوم أن ذكر العشق والسعي في القتل من أعظم أبواب العيوب .

والرابع : وهو أن القائلين بهذا القول ذكروا في هذه الرواية أن داود عليه السلام نعى أن يحصل له في الدين كما حصل للأنبياء المتقدمين من المنازل العالية ، مثل ما حصل للخليل من الإلقاء في النار ، وحصل للذبيح من الذبح ، وحصل ليعقوب من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب ، فأوحى الله إليه أنهم إنما وجدوا تلك الدرجات لأنهم لما ابتلوا صبروا فعند ذلك سأل داود عليه السلام الابتلاء ، فأوحى الله إليه أنك ستبلى في يوم كذا فبالغ في الاحتراز ، ثم وقعت الواقعة ، فنقول : أول حكايتهم يدل على أن الله تعالى يبتليه بالبلاء الذي يزيد في منقبته ،

ثم قال : فإن قال قائل : إن كثيرا من أكابر المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة فكيف الحال فيها ؟

ويكمل مراتب إخلاصه ، فالسعي في قتل النفس بغير الحق والإفراط في العشق كيف يليق بهذه الحالة ، ويثبت أن الحكاية التي ذكروها يناقض أولها آخرها .

الخامس : أن داود عليه السلام قال : ﴿ وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا ﴾ استثنى الذين آمنوا من البغي ، فلو قلنا : إنه كان موصوفاً بالبغي لزم أن يقال : إنه حكم بعدم الإيمان على نفسه ، وذلك باطل .

السادس : حضرت في بعض المجالس ، وحضر فيه بعض أكابر الملوك ، وكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد ، والقصة الخبيثة لسبب اقتضى ذلك ، فقلت له : لاشك أن داود عليه السلام كان من أكابر

الأنبياء والرسل ، ولقد قال الله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظيم لم يجز لنا أن نبالغ في الطعن فيه ، وأيضا فيتقدير أنه ما كان نبيا فلا شك أنه كان مسلما ، ولقد قال

عليه السلام : (لا تذكروا موتاكم إلا بخير) ثم على تقدير أنا لا نلتفت إلى شيء من هذه الدلائل إلا أنا نقول : إن من المعلوم بالضرورة أن بتقدير أن تكون القصة التي ذكرتموها حقيقة صحيحة فإن روايتها وذكرها لا

يوجب شيئا من الثواب ؛ لأن إشاعة الفاحشة إن لم توجب العقاب فلا أقل من أن لا توجب الثواب ، وأما بتقدير أن تكون هذه القصة باطلة فاسدة ، فإن ذاكها يستحق أعظم العقاب ، والواقعة التي هذا شأنها

وصفتها فإن صريح العقل يوجب السكوت عنها ، فثبت أن الحق ما ذهبا إليه ، وأن شرح تلك القصة محرم محظور ، فلما سمع ذلك الملك هذا الكلام سكت ولم يذكر شيئا .

السابع : أن ذكر هذه القصة وذكر قصة يوسف عليه السلام يقتضي إشاعة الفاحشة فوجب أن يكون محرما لقوله تعالى ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ﴾ .

الثامن : لو سعى داود في قتل ذلك الرجل لدخل تحت قوله (من سعى في دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله) وأيضا لو فعل ذلك لكان ظلما فكان يدخل تحت قوله : ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ .

التاسع : عن سعيد بن جبير [وهو الحديث المروي عن علي بن أبي طالب — السابق]

العاشر : روي أن بعضهم ذكر هذه القصة على ما في كتاب الله تعالى فقال : لا ينبغي أن يزداد عليها ، وإن كانت الواقعة على ما ذكرت ، ثم إنه تعالى لم يذكرها [ألا] لأجل أن يستتر تلك الواقعة على داود عليه السلام ، فلا يجوز

للعاقل أن يسعى في هتك ذلك السر بعد ألف سنة أو أقل أو أكثر ، فقال عمر [هكذا في الأصل] سمعني هذا الكلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ، فثبت بهذه الوجوه التي ذكرناها أن القصة التي ذكروها فاسدة باطلة .

والجواب الحقيقي أنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة ، وبين خبر واحد من أخبار الآحاد كان الرجوع إلى الدلائل القاطعة أولى ^(١) ... وأيضاً كل المفسرين لم يتفقوا على هذا القول ، بل الأكثرون المحقون والمحققون منهم يردونه ويحكمون عليه بالكذب والفساد ، وإذا تعارضت أقوال المفسرين والمحدثين فيه تساقطت ، وبقي الرجوع فيه إلى الدلائل التي ذكرناها .

ثم قال : أما الاحتمال الثاني وهو أن تحمل هذه القصة على وجه يوجب حصول الصغيرة ، ولا يوجب حصول الكبيرة ، فنقول : في كيفية هذه القصة على هذا التقدير وجوه ، الأول : أن هذه المرأة خطبها أورياً فأجابوه ، ثم خطبها داود فأثره أهلها ، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن ، مع كثرة نسائه .

ثم حكى الوجه الثاني ، وهو كقول الهادي عليه السلام الذي مر ذكره .

ثم حكى الثالث ، وهو الذي مر ذكره عن الحسين بن القاسم عليه السلام .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا ﴾ أي : في ضماننا أو في دارنا ﴿ لَزُلْفَى ﴾ أي : درجة رفيعة وقربة ، ثم قال : ﴿ وَحُسْن مَّآبٍ ﴾ أي : حسن مرجع في الآخرة وانقلاب من النعيم الكريم والثواب .

واعلم أنه تعالى لما تمم الكلام في شرح تلك القصة أردفها ببيان أن الله تعالى فوض إلى داود خلافة الأرض فقال سبحانه : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول المشهور في تلك القصة ؛ لأن من البعيد جداً أن

(١) وزاد الرازي مكان الفراغ الذي تركناه في الأصل قوله : وأيضاً فالأصل براءة الذمة ، وأيضاً فلما تعارض دليل التحريم والتحليل كان التحريم أولى ، وأيضاً : طريقة الاحتياط توجب ترجيح قولنا ، وأيضاً فنحن نعلم بالضرورة أن بتقدير هذه الواقعة لا يقول الله لنا يوم القيامة لِمَ كُنْ تَسْعُوا في تشهير الواقعة ؟ وأما بتقدير كونها باطلة فإن علينا في ذكرها اعظم العقاب ، وأيضاً فقد قال عليه السلام : (إذا علمت مثل هذه الشمس فاشهد) وههنا لم يحصل العلم ولا الظن في صحة هذه الحكاية ، بل الدلائل القاهرة التي ذكرناها قائمة فوجب أن لا تجوز الشهادة بها ، وأيضاً كل المفسرين .. الخ . الرازي ١٩٢/٢٦ .

يوصف الرجل بكونه ساعيا في سفك دماء المسلمين ، راغبا في انتزاع أزواجهم منهم ، ثم يذكر عقبيه أن الله تعالى فوض أمر خلافة الأرض إليه .

ثم في معنى كونه خليفة قولان ، قال الحسين بن القاسم عليه السلام : معناه أنه جعله خلفا وعوضا من أسلافه الطاهرين ، الماضين الأولين من الرسل الخالين .

وقيل : معناه استخلفناك على الملك وملكناك فيها ، خليفة من الله تدبر أمر عباده ، وهو مجاز وتمثيل بمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض ويملكه عليها .

ثم قال تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ أي : بالعدل ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى ﴾ هوى نفسك في قضائك وغيره ، مما تصرف فيه من أسباب الدين والدنيا ﴿ فَيُضِلَّكَ ﴾ الهوى ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : عن طريقه ؛ لأن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله ؛ لأن الهوى يدعو إلى الاستغراق في اللذات ، والاهتمام في الشهوات ، وذلك يمنع من الاشتغال بالطاعات التي هي الباقيات الصالحات ؛ لأهما حالتان متضادتان ، فبقدر ما يزداد أحدهما ينتقص الآخر ، وسبيل الله دلائل العقل والشرع .

وهذا يدل على أن على المدعي للخلافة المتسمي بها أن يلتزم هذين الأمرين ، الحكم بين الناس بالحق ، ومخالفة هوى النفس .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ أي : بسبب نسيانهم له ، أي : تركوا العمل له واطرحوه ، وقيل : التقدير : لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا ، أي : تركوا من القضاء بالحق ومخالفة هوى النفس .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الخلاق ﴿ بَاطِلًا ﴾ أي : خلقا باطلا لا لغرض وحكمة ، أي : ما خلقناهما وما بينهما للبعث واللعب ، بل لمنافع العباد كما ترى ، وليعتبر فيها ذو النظر بما يرى من العبر ^(١).

قال في التجريد : والمراد عدم الجزاء ، والثواب ، والعقاب ؛ إذ لو لم يكن جزاء لكان خلق المكلفين والحيوانات باطلا ؛ لأنها لم تصل إليها أعواضها ، ولا جزاؤها في الدنيا فيجب السبعث ، وخلق الجحاد لا يحسن إلا لنفع الحيوان ، والمراد أن إنكارهم البعث مؤد إلى أن خلقها باطل وعبث .

ثم قال : ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : خلقهما باطلا ﴿ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : مظنونهم ، جعلوا كأنهم يظنون ذلك لتكذيبهم بالبعث الذي خلق له العالم ، فكأن خلقها هذا عبث وباطل .

ثم قال : ﴿ قَوْلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ أي : هلاك لهم فيها .

ولما بين الله تعالى على سبيل الإجمال أن إنكار الحشر والنشر يوجب الشك في حكمة الله تعالى بين ذلك على سبيل التفصيل فقال سبحانه : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ فهذا مقرر لذلك ، وأم في ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ و ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ ﴾ بمعنى بل وهمزة الاستفهام ^(٢) وهو للإنكار ، أي : لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد ، واتقى وفجر ، ومن سوى بينهما كان سفيها ، ولم يكن حكيما تعالى الله عن ذلك .

(١) ذكر الرازي في تفسيره ٢٦ / ٢٠١ فقال : احتج الجبائي بهذه الآية على أنه تعالى لا يجوز أن يكون خلقا لأعمال العباد ، قال : لأنها مشتملة على الكفر والفسق ، وكلها أباطيل ، فلما بين تعالى أنه ﴿ ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ﴾ دل هذا على أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ وعند المجبرة أنه خلق الكافر لأجل أن يكفر ، والكفر باطل وقد خلق الباطل ، ثم أكد تعالى ذلك بأن قال : ﴿ ذلك ظن الذين كفروا ﴾ أي : كل من قال بهذا القول فهو كافر ، فهذا تصريح بأن مذهب المجبرة عين الكفر .

(٢) هي أم المنقطعة ، التي بمعنى بل وهمزة .

وقال مقاتل : قال كفار قريش للمؤمنين : إنا نعطي في الآخرة مثل ما تعطون فترلت ثم قال سبحانه : ﴿ كِتَابٌ ﴾ أي : هذا كتاب ، يريد القرآن ﴿ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ كثير المنافع في أمور الدين ﴿ لِيَتَدَبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ أي : أنزلناه ليتدبروا آياته ، أي : ليتفكروا فيها ، والتدبر : النظر في أدبار الشيء وما يتعقبه ، فإذا تدبروها علموا صحتها ، وتصديق الرسول ، ثم قال : ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أي : ليتعظ بما فيه أولوا العقول .

قال الرازي : في تقرير نظم هذه الآيات : فنقول لسائل أن يسأل فيقول : إن الله تعالى حكى في أول السورة عن المستهزئين من الكفار أنهم بالغوا في إنكار البعث والقيامة ، وقالوا : ﴿ رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قَطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ ولما حكى الله تعالى عنهم ذلك لم يذكر الجواب ، بل قال : ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ﴾ ومعلوم أنه لا تعلق لذكر داود بمسألة أن القول بالقيامة حق ، ثم إنه تعالى أطنب في شرح قصة داود ، ثم أتبعه بقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ ومعلوم أنه لا تعلق لمسألة إثبات حكمة الله بقصة داود ، ثم لما ذكر إثبات حكمة الله تعالى ، وفرَّغ عليه إثبات أن القول بالحشر والنشر حق ، ذكر بعده أن القرآن كتاب شريف فاضل كثير النفع والخير ، ولا تعلق لهذا الفصل بالكلمات المتقدمة ، وإذا كان كذلك كانت هذه الفصول فصولا متباعدة لا تعلق للبعض منها ببعض ، فكيف يليق بهذا الموضع وصف القرآن بكونه كتابا شريفا فاضلا ؟ هذا تمام السؤال .

قال : والجواب — أن نقول : إن العقلاء قالوا : من ابتلي بخصم جاهل مُصِرٍّ متعصب ، ورآه قد خاض في ذلك التعصب والإصرار وجب عليه أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة ؛ لأنه كلما كان خوضه في تقريره أكثر كانت نفرتة عن القبول أشد ، فالطريق حينئذ أن يقطع الكلام في تلك المسألة ، وان يخوض في كلام آخر أجنبي عن المسألة الأولى بالكلية ، ويطنب في ذلك الكلام الأجنبي بحيث ينسي ذلك

المتعصب تلك المسألة الأولى ، فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبي ونسي المسألة الأولى ، فحينئذ يدرج في أثناء الكلام في هذا الفصل الأجنبي مقدمة مناسبة لذلك المطلوب ، فإن ذلك المتعصب يُسَلِّمُ هذه المقدمة ، فإذا سلمها فحينئذ يُتَمَسَّكُ بها في إثبات المطلوب الأول ، وحينئذ يصير ذلك الخصم المصر المتعصب منقطعا مفجما^(١)

[وهو وعيد من الله ، وتسليية له صلى الله عليه وآله ، وقد قيل : معنى ﴿ فاصفح عنهم ﴾ أي : اعرض عن دعوتهم إلى الإيمان ﴿ وقل سلام ﴾ أي : تسلم منكم ومتاركة ، أي : ودعهم وقل سلام ، فإنهم لا يرتجى منهم الإيمان^(٢) .

إذا عرفت هذا فنقول : إن الكفار بلغوا في إنكار الحشر والقيامة إلى حيث قالوا على سبيل الاستهزاء : ﴿ ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ فقال تعالى : يا محمد اقطع الكلام معهم في هذه المسألة ، واشرع في كلام آخر أجنبي بالكلية عن هذه المسألة ، وهو قصة داود عليه السلام ، فإن من المعلوم أنه لا تعلق لهذه القصة بمسألة الحشر والنشر [ثم إنه تعالى أطنب في شرح تلك القصة] ثم قال في آخر القصة : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ﴾ وكل من سمع هذا ، قال : نَعَمْ ما فعل ؛ حيث^(٣) أمره بالحكم بالحق ، ثم كانه تعالى قال : وأنا لا آمرك بالحق فقط ، بل أنا مع أي رب العالمين لا أفعل إلا الحق ، ولا أقضي بالباطل ، فهاهنا الخصم يقول : نَعَمْ ما فعل ، حيث لم يقض إلا بالحق ، فعند هذا يقال : لما سلمت أن حكم الله يجب أن يكون بالحق لا بالباطل لزمك أن تسلم صحة القول بالحشر والنشر ؛ لأنه لو لم يحصل ذلك لزم أن يكون الكافر راجحا على المسلم في

(١) إلى هنا انتهى كلام الرازي ، وقد أصلحنا اللفظ منه . (تفسير الرازي ٢٦/٢٠٢ .

(٢) ما بين القوسين غير موجود في النسخة ب ، وهو موجود في النسخة أ ، وهو أيضا غير موجود في الرازي وقوله بعده : إذا عرفت هذا ... هو من كلام الرازي الذي نقله المصنف عنه . الرازي ٢٦/٢٠٢ .

(٣) هذا لفظ الرازي ، ولفظ المصاييح : (نَعَمْ ما فعل غير أمره بالحكم بالحق) . الرازي ٢٦/٢٠٢ . وكذلك ما بين أقواس الزيادة من الرازي . ولفظ المصاييح أيضا (قال : وأنا لا آمرك إلا بالحق فقط) وما ذكرناه ما في الرازي .

إيصال الخيرات إليه ، وذلك ضد الحكمة ، وعين الباطل ، فبهذا الطريق اللطيف أورد الله الإلزام القاطع على منكري الحشر والنشر إيرادا لا يمكنهم الخلاص منه ، فصار ذلك الخصم الذي بلغ في إنكار المعاد إلى حد الاستهزاء مفحما ملزما بهذا الطريق .

ولما ذكر الله تعالى هذه الطريقة [الدقيقة] في الإلزام في القرآن لا جرم وصف القرآن بالكمال والفضل ، فقال : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ فإن من لم يتدبر ولم يتأمل ، ولم يساعده التوفيق الإلهي لم يقف على هذه الأسرار العجيبة المذكورة في هذا القرآن العظيم ، حيث يراه في ظاهر الحال مقرونا بسوء الترتيب ، وهو في الحقيقة مشتمل على أكمل جهات الترتيب . اهـ كلام الرازي ^(١) .

وهو حق في طريق النظم إذ هو مسلك حسن في تقرير نظم هذه الآيات ونحوها والله أعلم .

[القصة الثانية : قصة النبي سليمان عليه السلام]

ثم ذكر تعالى القصة الثانية فقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لِذَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ ﴾ أي : سليمان ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي : رجاع إليه بالتوبة ، أو مسبحا مؤديا للتسبيح مرجعا له ، قوله : ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ هذه الكلمة للتعليل ، فهذا يدل على أنه إنما كان نعم العبد ؛ لأنه كان أوابا ، فيلزم أن من كان كثير الرجوع إلى الله تعالى في أكثر الأوقات ، وفي أكبر المهمات كان موصوفا بأنه نعم ، وهذا هو الحق الذي لا شبهة فيه ؛ لأن كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته ، والخير لأجل العمل به ، ورأس المعارف ورئيسها معرفة الله تعالى ، ورأس الطاعات ورئيسها الاعتراف بأنه لا يتم شئ من الخيرات إلا بإعانة الله تعالى ، ومن كان كذلك كان كثير الرجوع إلى الله ، فكان

(١) — تفسير الرازي ٢٦/٢٠٢، ٢٠٣. وما بين أقواس الزيادة من الرازي .

أوابا فثبت أن كل من كان أوابا وجب أن يكون نعم العبد ، لأن نعم كلمة مدح ، قال الشاعر :

ونعم أخو الصعلوك أمس تركته بتربته يسمو باليدين ويرمح
وقال الآخر :

ونعم الفتى إن كان توبة فاجرا ونعم الفتى إن كان ليس بفاجر
ثم قال : ﴿ إِذْ غَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْغِيَادُ ﴾ (١) العشي : هو آخر النهار من بعد الزوال ، والصفافنات : الخيل ، والصفافن : الذي يقوم على ثلاث ، ويقوم الرابعة على طرف الحافر ، من يد أو رجل ، قال الشاعر :

(١) قال الإمام الحسين بن القاسم العياني في تفسيره لهذه الآية وما بعدها :
ومعنى ﴿ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْغِيَادُ ﴾ أي : عرض له ، وبين يديه ﴿ بالعشي ﴾ أي : في آخر النهار ، و ﴿ الصَّافِنَاتُ ﴾ هن الخيل الصفافن ، وقيل : إن الصفافن هو الذي يرفع إحدى رجله ، ويتكى على طرف حافره ، ويعتمد على ثلاث قوائم ، قال الشاعر :

غلق الصفون فما يزال كأنه مما يقوم على الثلاث كسيرا
أي : مكسورا ، وقال آخر :

تركت الخيل عاكفة عليه مقلدة أعنتها صفونا
أي : قياما ، وقال آخر :

على العين مسرجا و صفودا ومعرت و صافنا في الخلال
أي : واقفا ، وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام :

إذا رأيت الصفافن تصهل قد ثار في أفواههن القسطل

أنا علي لست عنها أذهل

﴿ فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي ﴾ أي : حببت هوى الخيل ، فسمى الخيل خيرا لخيرها ، قال الشاعر :

والخيل خير وخير الخير في فرس يأتي بما يكسب العلياء والنفلا

وأصدق من قول الشاعر قول سيدنا خاتم النبيين صلوات الله عليه ، وعلى أهل بيته الطاهرين : (الخيل معقود بنواصيها الخير) وقوله : ﴿ أحببت حب الخير ﴾ جاز في اللغة ، والقائل يقول : إني لأهوى الهوى ، أي : أحبه ، قال الشاعر :

عَلِقَ الصَّفَوْنَ فيما يزال كأنه مما يقوم على الثلاث كسير
أي : مكسور ، قيل : وهذا من صفة الخيل العراب ، وقيل : الصافنة القائمة سواء
كانت على ثلاث أو أربع ، وهو قول الفراء وابن قتيبة ، قال ابن قتيبة : الصافن في
كلام العرب : القائم من الخيل وغيرها ، قال الشاعر :

أحببت حب الغانيات فزادني كلفا وحب محبه الخلائ

ومعنى قوله : ﴿ عن ذكر ربي ﴾ أي : حتى شغلتني عن ذكر ربي ، ولأن هذا من الاختصار كما قد ذكرنا فيما
مضى من الإضمار ، ومعنى قوله : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ أي : حتى توارت الشمس ، فأضمر ذكر الشمس
وأخفاه ، واختصر الكلام وأخره ، ومعنى قوله : ﴿ ردوها علي ﴾ يعني الخيل ﴿ فطفق مسحاً بالسوق
والأعناق ﴾ أي : فعلق وجعل يضرب أعناقها وسوقها بالسيف ويقتلها عقوبة لنفسه بذهاب أطيب لذته ،
وأحسن زي مملكته زهداً منه صلى الله عليه في حطام الدنيا ولذاها الفانية وزينتها وشهواتها ، إذ شغلته عن
التسبيح الذي هو خير منها ، وأحصل يوم القيامة ، عن الشغل بها ، وقال آخرون : إنه لم يقتلها ، وإنما سمها
بالنار ، ليذكر شغلها والقول الأول أعجب إلينا ؛ لأن قتله لها لم يكن عبثاً ولا مثلاً ، وإنما كان هرباً إلى الله ،
وعدلاً ألا ترى أن الخيل لا بد من موتها ، فجعل ذلك عليه السلام ليتخلص منها ، ولا يشتغل عن ذكر الله بها ،
وهذا قول السلف صلوات الله عليهم ، وقولنا : إذ هم هدايتنا إلى الله وقودتنا ، وأثمتنا ، ومعلمونا ، وسادتنا .
﴿ ولقد فتنا سليمان ﴾ أي : امتحنناه ﴿ وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ أي : على ملكه جسماً ، وقيل : إنه لم
يسنه زوجته عن خطيئة من الخطايا تصاغرهما ، وكانت غير كبيرة استقلها ، فعتب الله عليه تسهيله في الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر ، فألقي على ملكه جسداً ، وأن الله نزع ملكه عنه نزاعاً ، قالت العوام : إن
الخطيئة التي لم ينه عنها قتل زوجته جرادة من الجراد قتلها لغير ما حاجة كانت لها إلى قتلها ، والله أعلم .
وزعمت العوام بجهلها أن الله ألقى شيطاناً على ملكه فتمثل في صورة سليمان وحليته ، ودخل إلى نساء
سليمان على صفته وصورته ، وجامعهن وهن حيض فأنكرن فعله ، وهذا من ركافة العوام ، وقلة ورعهم ،
وافسترائهم للكذب وجهلهم ، ولكننا نقول : إن الله لا يلقي الشيطان على ملك نبيه ، ولا يقرهم ، وأن الله
سيحانه لم يقدرهم على تصوير أنفسهم ، وأنه لم يجعل فيهم لذة الجماع كما جعلها في غيرهم ، ونقول : إن
الله صادق في قوله ، وإنه ألقى جسداً على ملك رسوله ، وأذنه بذهاب ملكه وسلطانه ، وبغير ذلك مما مصالح
نساته ، وإن الله قدره ، وإليه أفضل مما كان فيه من السلطان ، ولم يحرمه ما هو أهله من اللطف والإحسان ،
وإن الجسد الذي ألقى على ملكه جسم من الأحسام ، فيه مصلحة وحكمة لذي الجلال والإكرام ، وإن الله لم
يعرفنا معرفة هذا الجسد فيما كلفنا ، ولم يخبرنا عن صفته فيما أخبرنا .

تركت الخيل عاكفة عليه مقلدة أعنتها صفونا
 أي : قياما ، وأحسن من قول الشاعر قول أمير المؤمنين علي عليه السلام :
 إذا رأيت الصافنات تصهل قد ثار في أفواههن القسطل
 أنا عليّ لست عنها أذهل

ومنه قوله عليه السلام : (من أحب أن يقوم له الناس صفونا فليتبوأ مقعده من النار)
 أي : يمدون له القيام كما يفعل ملوك العجم .

وروي أن سليمان عليه السلام غزا أهل دمشق ونصيبين ، فأصاب ألف فرس ، وقيل :
 ورثها من أبيه ، فقعده على كرسيه بعد صلاة الظهر واستعرضها فلم تزل تعرض
 عليه حتى غابت الشمس وغفل عن العصر ، فهابوه فلم يعلموه ، فاغتم لما فاته
 فعقرها تقربا ، ولا يمتنع أن يكون ذلك قرية في شريعته ، وبقي مائة فما بقي من
 العرب الجياد فمن نسلها ، وقيل : لما عقرها أبدله الله خيرا منها ، وهو الريح تجري
 بأمره .

قال محمد بن القاسم عليه السلام : لأن قتله لها لم يكن منه عبثا ولا مثلا ، وإنما كان
 هربا إلى الله وعدلا ، فأراد أن يؤدب نفسه ، ويعاقبها بإتلاف ما أعجبها وشغلها
 عما هو أعظم نفعا لها من تلك الخيل ؛ ليعلم الناس أنه فضل تسبيح الله وذكره ،
 وآثر طاعته وأمره على ما يؤثرون من محبوب دنياهم ، وأن ذلك لا يساوي أكبر
 كسبه ، وأكبر ما يعظمون من عظمته شيئا من ذكر ربهم ، وطاعة مولاهم ، وأراد
 تأديب نفسه إذا غفل ساعة واحدة بالخيل عن ذكر ربه ^(١) . اهـ

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : وهذا قول السلف صلوات الله عليهم .
 وقال آخرون : إنه لم يقتلها ، وإنما سمها بالنار ليذكر شغله بها . اهـ

(١) مجموع تفسير الأئمة ، ملحق تنمة ما فسره الإمام محمد بن القاسم ص ٦٤٤ .

وفي قوله تعالى : ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ﴾ وجهان ، أحدهما : أن التقدير : نعم العبد وكان من أفعاله أنه فعل كذا ، الثاني : أنه ابتداء كلام ، والتقدير : واذكر يا محمد إذ عرض عليه كذا وكذا .

وقوله ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ ضمن أحببت معنى أنبت ، فلذلك عداه بعن^(١) ، والخير : المال الكثير ، لقوله : ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ والمال الكثير : الخيل التي شغلته ، أو سمي الخيل خيرا لتعلق الخير بها ، قال الشاعر :

الخيل والخيرات في قرن

وأصدق من قول الشاعر قول سيدنا خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين : (الخيل معقود بنواصيها الخير)^(٢)

﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ قالوا : يعني الشمس استترت بما يحجبها عن الأبصار ، مجاز في غروبها ، من توارى الملك بحجابه .

ولما شغله استعراض الخيل عن صلاته أو ورده اغتم لذلك غما شديدا فقال : ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ وفي ضمير الهاء قولان : أحدهما — وعليه الأكثر — : أنه للخيل ، أمر بردها وعقرها ، وهو قوله : ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ السوق : جمع ساق ، أي : يمسح السيف بسوقها وأعناقها ، أو يمسح سوقها وأعناقها بالسيف ،

(١) قال السيد العلوي رحمه الله : معنى (أنبت) : جعلته نابيا ، وقال الزجاج : معنى ﴿أحببت حب الخير﴾ بمعنى آثرت ، وأن عن بمعنى على ، وجعلوا أحببت بمعنى استحببت ، وقد جاء بمعنى الإيثار في قوله تعالى : ﴿يَسْتَحْيُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أي : يؤثرونها عليها ، الإيثار من لوازم الأحباب ، فيجوز أن يضمن الإحباب معناه ، ويعدى تعديته ، ولكن عن بمعنى على فيه بعد ، وقال أبو البقاء : حب الخير : هو مفعول أحببت ؛ لأنه مصدر أحببت الإحباب ، ويجوز أن يكون مصدرا محذوف الزيادة ، وقال أصحاب الفرائد : أحببت حب الخير حبا ، أي : إحبابا ، ثم أضيف إلى المفعول .

(٢) — الحديث في الكشاف ٣/ ٣٨٨ قال في تخريجه ص ٤٢ / متفق عليه من حديث ابن عمر ، وتمة الحديث (إلى يوم القيامة) .

يعني يقطعها ، تقول : مسح علاوته إذا ضرب عنقه ، وهذا قول السدي ومقاتل ، والفراء ، والزجاج وغيرهم .

وقال مجاهد : مسحها بيده حباً لها ، واختاره ابن جرير .

القول الثاني : ضمير الهاء للشمس ، سأل الله تعالى أن يردها عليه فردها حتى صلى العصر ، ذكر هذا في التجريد ، والأول هو الوجه ، ولا بعد في أن يكون ذلك شريعةً لسليمان عليه السلام ، كالهدايا إلى مكة .

[الوجه الصحيح في قصة نبي الله داود عليه السلام واستعراض الخيل]

قلت : وقد أحسن الرازي في توجيه معنى هذه الآية في قصة سليمان عليه السلام حيث قال في [تفسير] قوله تعالى : ﴿إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي﴾ ووجهه ، الأول : أن يضمن أحببت معنى فعل متعد بعن ، كأنه قيل : أنبت حب الخير عن ذكر ربي والثاني : أن أحببت بمعنى ألزمت [والمعنى : أني ألزمت] حب الخيل عن ذكر ربي ، أي : عن كتاب ربي ، وهو التوراة ، لأن ارتباط الخيل كما أنه في القرآن ممدوح ، فكذلك في التوراة ممدوح .

والثالث : أن الإنسان قد يحب شيئاً ، لكنه يجب أن لا يحبه ، كالمريض الذي يشتهي ما يريد في مرضه ، والأب الذي يحب ولده الرديء ، وأما من أحب شيئاً وأحب أن يحبه كان ذلك غاية المحبة ، فقوله : ﴿أحببت حب الخير﴾ يعني أحببت حب الخيل ، ثم قال : ﴿عن ذكر ربي﴾ يعني : أن هذه المحبة الشديدة إنما [حصلت] عن ذكر الله وأمره ، لا عن الشهوة والهوى ، وهذا الوجه أظهر الوجوه .

ثم قال تعالى : ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ أقول : الضمير في قوله : ﴿حتى توارت﴾ وفي قوله : ﴿ردوها﴾ يحتمل أن يكون كل واحد منهما عائداً إلى الشمس ، لأنه جرى ذكر ماله تعلق بها وهو العشي ، ويحتمل أن يكون كل واحد منهما عائداً إلى الصافنات [ويحتمل أن يكون الأول متعلقاً بالشمس والثاني

بالصافنات] ويحتمل أن يكون بالعكس من ذلك ، فهذه احتمالات أربعة لا مزيد عليها ، فالأول : [أن يعود الضميران معا إلى الصافنات ، كأنه قال : حتى توارت الصافنات بالحجاب ، ردوا الصافنات علي .

والاحتمال الثاني] : أن يكون الضميران معا عائدين إلى الشمس ، كأنه قيل : حتى توارت الشمس بالحجاب ردوا الشمس .

روي أنه عليه السلام لما اشتغل بالخیل فاتته صلاة العصر فسأل الله أن يرد الشمس فقله : ﴿ردوها علي﴾ إشارة إلى طلب رد الشمس ، وهذا الاحتمال عندي بعيد والذي يدل عليه وجوه الأول : أن الصافنات مذكورة بصريحها ، والشمس غير مذكورة ، وعود الضمير إلى المذكور أولى من عوده إلى المقدر ، الثاني : أنه قال : ﴿إني أحبيت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب﴾ وظاهر هذا اللفظ يدل على أن سليمان عليه السلام كان يقول : ﴿إني أحبيت حب الخير عن ذكر ربي﴾ وكان يعيد هذه الكلمة إلى أن توارت بالحجاب ، فلو قلنا : [المراد] حتى توارت الصافنات بالحجاب كان معناه : أنه حين وقع بصره عليها حال جريها ، كان يقول هذه الكلمة إلى أن غابت عن عينه ، وذلك مناسب ، ولو قلنا : المراد حتى توارت الشمس بالحجاب ، كان معناه : أنه كان يعيد تلك الكلمة من وقت العصر إلى وقت المغرب ، وهذا في غاية البعد .

الثالث : أنا لو حكمنا بعود الضمير في قوله : ﴿حتى توارت﴾ إلى الشمس وحملنا اللفظ على أنه ترك صلاة العصر كان هذا منافيا لقوله : ﴿أحبيت حب الخير عن ذكر ربي﴾ فإن تلك المحبة لو كانت عن ذكر الله لما نسي الصلاة ، ولما ترك ذكر الله .

الرابع : أن بتقدير أنه عليه السلام بقي مشغلا بتلك الخيل حتى غربت الشمس وفاتت صلاة العصر ؟ فكان ذلك ذنبا عظيما ، وجرما قويا ، فاللائق بهذه الحالة التضرع والبكاء ، والمبالغة في إظهار التوبة ، فأما أن يقول على سبيل التهوير والعظمة لإله العالم ورب العالمين : ﴿ردوها علي﴾ بمثل هذه الكلمة العارية عن كل جهات

الأدب عقيب ذلك الجرم العظيم [فهذا] لا يصدر عن أبعد الناس عن الخير ، فكيف يجوز إسناده إلى الرسول المطهر المكرم .

الخامس : أن القادر على تحريك الأفلاك والكواكب هو الله تعالى ، فكان يجب أن يقول : ردها علي ؛ لا أن يقول : ﴿ ردها ﴾ وإن قالوا : إنما ذكر صيغة الجمع للتنبيه على تعظيم المخاطب ، فنقول : قوله ﴿ ردها ﴾ لفظ مشعر بأعظم أنواع الإهانة ، فكيف يليق بهذا اللفظ رعاية التعظيم .

السادس : أن الشمس لو رجعت بعد الغروب لصار ذلك مشاهدا لكل أهل الدنيا ، ولو كان الأمر كذلك لتوفرت الدواعي على نقله وإظهاره ، وحيث لم ينقل أحد ذلك علمنا فسادَه .

السابع : أنه تعالى قال : ﴿ إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ﴾ ثم قال : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ وعود الضمير إلى أقرب المذكورين أولى من عوده إلى أبعدهما ، وأقرب المذكورين هو الصافنات الجياد ، وأما العشي فأبعدهما ، فكان عود ذلك الضمير إلى الصافنات أولى ، فثبت بما ذكرنا أن حمل قوله : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ على توارى الشمس ، وأن حمل قوله : ﴿ ردها علي ﴾ على أن المراد منه طلب أن يرد الله الشمس بعد غروبها كلام في غاية البعد عن اللفظ .

ثم قال تعالى : ﴿ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ أي : فجعل سليمان مسح سوقها وأعناقها ، قال الأكثرون : معناه أنه مسح السيف بسوقها وأعناقها ، أي : قطعها ، قالوا : إنه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر بسبب اشتغاله بالنظر إلى تلك الخيل استردها وعقر سوقها وأعناقها تقرباً إلى الله تعالى .

وعندي أيضاً أن هذا بعيد ، ويدل عليه وجوه ، الأول : أنه لو كان معنى مسح السوق والأعناق : قطعها — لكان معنى قوله : ﴿ وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم ﴾

(١) قطعها ، وهذا مما لا يقول به عاقل ، بل لو قيل : مسح رأسه بالسيف فرمما فهم منه ضرب العنق ، أما إذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم البتة من المسح العقر والذبح الثاني : أن القائلين بهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعا من الأفعال المذمومة ، فأولها ترك الصلاة ، وثانيها : أنه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا إلى حيث نسى الصلاة ، وقال ﷺ : (حب الدنيا رأس كل خطيئة) .

وثالثها : أن بعد الإتيان بهذا الذنب العظيم لم يشغل بالتوبة والإنابة البتة .
ورابعها : أنه خاطب رب العالمين بقوله : ﴿ردوها علي﴾ وهذه كلمة لا يذكرها الرجل الحصيف إلا مع الخادم الخسيس .

وخامسها : أنه أتبع هذه المعاصي بعقر الخيل في سوقها وأعناقها ، وروي عن النبي ﷺ (أنه نهي عن ذبح الحيوان إلا لما أكله) فهذه أنواع من الكبائر نسبوها إلى سليمان عليه السلام ، مع أن لفظ القرآن لم يدل على شيء منها .

وسادسها : أن هذه القصص إنما ذكرها الله تعالى عقيب قوله : ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب﴾ وأن الكفار لما بلغوا في السفاهة إلى هذا الحد قال الله تعالى محمد ﷺ : اصبر يا محمد على سفاهتهم ﴿واذكر عبدنا داود﴾ ، وذكر قصة داود ، ثم ذكر عقيبها قصة سليمان ، فكان التقدير أنه تعالى قال لمحمد صلوات الله عليه وآله وسلم : اصبر يا محمد على ما يقولون واذكر عبدنا سليمان ، وهذا الكلام إنما يكون لائقا لو قلنا : إن سليمان عليه السلام أتى في هذه القصة بالأعمال الفاضلة ، والأخلاق الحميدة ، وصبر على طاعة الله ، وأعرض عن الشهوات واللذات ، فأما لو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام في هذا الموضع أنه أقدم على الكبائر العظيمة ، والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر هذه القصة لائقا بهذا الموضع ، فثبت أن كتاب الله ينادي على هذه الأقوال الفاسدة بالرد والإبطال ، بل

التفسير المطابق الحق لألفاظ القرآن أن نقول : إن رباط الخيل كان مندوبا إليه في دينهم ، كما أنه كذلك في دين محمد ﷺ ، ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل ، وأمر بإجرائها ، وذكر أني لا أحبها لأجل الدنيا وحب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه ، وهو المراد بقوله : ﴿ عن ذكر ربي ﴾ .

ثم إنه عليه السلام أمر بإعدادها وتسييرها ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ أي : غابت عن بصره ، ثم أمر الراضين بأن يردوا ذلك الخيل إليه فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها ، والغرض من ذلك المسح أمور

الأول : تشريفا لها ، وإبانة لعزها ، لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو .

والثاني : أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والمملكة بلغ إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه .

والثالث : أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها ، فكان يمتحنها ، ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض ، فهذا التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقا مطابقا موافقا ، ولا يلزمنا فيه شيء من تلك المنكرات والمخذورات .

وأقول : أنا شديد العجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة ، مع أن العقل والنقل يردّها ، وليس لهم في إثباتها شبهة ، فضلا عن حجة .

فإن قيل : فالجمهور فسروا الآية بذلك الوجه ؟ فما قولك فيه ؟ فنقول : لنا هاهنا مقامان [المقام الأول : أن ندعى أن لفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي يذكرونها ، وقد ظهر والحمد لله أن الأمر كما ذكرنا ظهورا لا يرتاب العاقل فيه والمقام الثاني : أن يقال : هب أن لفظ الآية لا يدل عليه إلا أنه كلام ذكره الناس فما قولك فيه ؟ وجوابنا : أن الدلائل الكثيرة قامت على عصمة الأنبياء عليهم السلام

[وتأول كلام الله عز وجل على أحسن الوجوه] ^(١) ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات ، ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية ^(٢) .

انتهى ما أردنا نقله من تفسير الرازي لما فيه من تقرير الحجة ^(٣) في تنزيه الأنبياء صلوات الله عليهم .

ثم أخبر تعالى بشرح واقعة ثانية من وقائع سليمان عليه السلام فقال : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أي : ابتليناه وامتحناه بسلب ملكه ، وقيل : بغير ذلك ، قيل : فتن بعد ما ملك عشرين سنة ، وملك بعد الفتنة عشرين سنة ، ومعنى قوله : ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ أي : [على] ^(٤) سرير ملكه ، الذي كان يقعد عليه ، قيل : إن الجسد الذي ألقى على ملكه جسم من الأجسام ، فيه مصلحة وحكمة لذي الجلال والإكرام ، وأن الله لم يعرفنا معرفة هذا الجسد فيما كلفنا ، ولم يخبرنا عن صفته فيما أخبرنا ، هذا تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام .

وقيل : جسد لا روح فيه ، وهو شق الإنسان ^(٥) .

قال في التجريد : والجسد صخر الجني ، ولم يكن سُخَّرَ لسليمان ، وكان شيطانا ماردا عظيما ، لا يقوى عليه جميع الشياطين ، وكان سليمان لا يدخل الكنيف بخاتمه

(١) ما بين قوسي الزيادة ساقط من تفسير الرازي ، وهو ثابت في المصاييح .

(٢) وزاد الرازي بعد هذا (فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالي بهم ، ولا يلتفت إلى أقوالهم) والله أعلم (٢٦) / ٢٠٤ — ٢٠٧) وقد أصلحنا اللفظ من الرازي فليتأمل .

(٣) وفي النسخة ب : لما فيه من تقرير حجة العقل والسمع في تنزيه الأنبياء صلوات الله عليهم ، وتأويل كلام الله عز وجل على أحسن الوجوه ، ومثل هذا ذهب الطوسي في تفسيره لهذه الآية . اهـ
قلنا : وقد روى الطوسي في التبيان ٥٦١/٨ ، قال : وقال ابن عباس : جعل يمسح الخيل وعراقيبها حبا لها ، وقال أبو مسلم محمد بن بحر : غسل أعرافها وعراقيبها إكراما لها ، قال : لأن المسح يعبر به عن الغسل ، من قولهم : تمسحت للصلاة .

(٤) ما بين القوسين غير موجود في النسخة ب .

(٥) ولفظ النسخة ب : وفي تفسير العامة : جسد لا روح فيه ، وهو شق الإنسان .

وكان ملكه في خاتمه ، فلما أراد دخول الكنيف وضع خاتمه عند أم ولد له تسمى أمينة ، فجاء صخر في صورة سليمان فأخذ الخاتم منها ، وهي تظن أنه سليمان ، وقعد على سرير سليمان ، فهو الجسد الملقى على كرسيه .

[قصة النبي سليمان عليه السلام برواية الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام]

قلت : [وهذا ضعيف ولا دليل عليه] ^(١) وأحسن ما روي في قصة سليمان عليه السلام ، وأصح وأقرب إلى الحق وأوضح — ما رواه الهادي إلى الحق عليه السلام في تفسيره لهذه الآية حيث يقول : معنى ﴿فتنا سليمان﴾ يقول : امتحنا ، وإنما كان ذلك من أجل ما سألت مليكة سبأ من طلبها حين طلبت منه قربانا تقربه على ما كانت تفعل وتعرف من قديم فعلها ، فسألته صلى الله عليه أن يأذن لها في بقرة تقرها ، فلم يجبه ، ثم سأله شاة فكره ذلك عليها ، ثم سأله طائرا ، فأعلمها أن ذلك لا يحل لها ، فوقع في صدرها جرادة فقالت : فهذه الجرادة ائذن لي فيها ، فتوهم وظن أنها مما لا إثم عليها فيه ، إذ كانت مما لا يقع عليها ذكاة ، فسكت عنها ولم يمنعها عن ذلك فقطعت رأس الجرادة ، وأضمرت أنه قربان ، فلما خرج صلى الله عليه على جانب البحر نزع خاتمه من يده ، وكان لا يتطهر حتى يترع الخاتم من يده — وهذا الواجب على كل متطهر إذا أراد أن يتطهر من جنابة أو غيرها لصلاته أن يترع خاتمه ، أو يديره في إصبعه حتى يصل الماء إلى الشعر ، الذي يكون تحته ، وينقي من الدرن ما حوله — فلما نزع الخاتم من يده ، ومضى لظهوره خرج حوت من البحر فابتلع الخاتم ، وذهب في البحر ، فلما فرغ سليمان من ظهوره نظر إلى الموضع الذي وضع فيه خاتمه فلم يقدر عليه ، فعلم أن ذلك بسبب قد أحدثه ، وأن الله سبحانه أراد بذلك فتنته ، فدعا الريح فلم تجبه ، ثم دعا الطير فلم تجبه ، ثم دعا الجن فلم تجبه ؛ لَمَّا ذهب الخاتم ، وإنما كان سببا من الله قد جعله فيه ، وبه كان يطاع ، فعلم

(١) ما بين القوسين ثابت في ب ، وساقط من أ .

سليمان أن العقوبة قد وقعت به ، وثب العفريت الملعون على سريره عند ذلك وهو ملكه ، فكان يتكلم على شبه كلام سليمان عليه السلام ، وهو من وراء حجاب لا يظهر ولا يُرى له شخص ، ودعا فلم يجبه إلا الإنس ، ومضى سليمان باكيا نادما على ما فعله ، وجعل يتبع الصيادين على سواحل البحر ، يخدمهم ويعينهم وهم لا يعرفونه ، ولا يعلمون أنه سليمان ، فأقام على ذلك وقتا اختلف فيه الرواة فقال بعضهم : أربعين يوما ، وقال آخرون : بل مكث خمسين يوما ، وقال قوم : سبعين يوما ، وهو أكثر ما قيل فيه ، فجعل يتبعهم ويعمل معهم ، ويعطونه في كل يوم حوتين ، فيبيع أحدهما فيشتري به خبزا ، ويشوي الآخر فيأكله ، فلما علم الله منه التوبة والرجوع ، والإنابة والخضوع — أراد أن يرد عليه نعمته فانصرف ذلك اليوم ومعه الحوتان اللذان عمل بهما في يومه ذلك ، فشق بطن أحدهما على ما كان يفعل ، فإذا الخاتم قد خرج من بطن الحوت ، فعرفه عند ذلك ، فأخذه وشكر الله وحمده على ما أولاه ، ثم دعا الريح فأجابته ، وكان قد أبعَدَ عن بلده فأمر الريح فاحتملته من ساعته إلى موضعه ، وهرب اللعين العفريت لما رآه .

وقال بعض الرواة إنه قد كان حبسه ، ورد الله على نبيئه ملكه ، ورجع إلى ما كان الله قد أعطاه ، فدعا الطير والجن والريح فأجابته ، ودامت نعمته ، قال عليه السلام : فإن قال قائل : فالجسد الذي ألقي على كرسیه هل كان جسما يظهر ويرى ؟ قيل له : لا إنما كان يظهر إليهم منه ما يسمعون من كلامه ، وكان مستترا عنهم ، فكانوا يظنون أنه سليمان ، وأنما احتجب عنهم لسبب أمر الله به ، أو فعل فعله من نفسه ، ولو ظهر لهم لبان أمره عندهم ، ولكن تمكن منهم بالتمويه عليهم ، والمكر بهم ، ومعاذ الله أن يكون من نال من الحُرْمِ منالا ، أو بلغ شيئا من ذلك ، أو فعله غير الذي شرحنا من كلامه^(١) . اهـ

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٠١ ، في أجابته على أسئلة أبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل

وأما قوله : ﴿ ثُمَّ أَنَابَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ فاعلم أن الذين حملوا الكلام على صدور الزلزلة منه تمسكوا بهذه الآية ، وأنه لولا تقدم الذنب لما طلب المغفرة ، ويمكن أن يجاب عنه بأن الإنسان لا ينفك البتة من ترك الأفضل والأولى ، وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة ؛ لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولأنهم أبدا في مقام هضم النفس ، وإظهار الذلة والخضوع ، كما قال ﷺ : (والله إني لأستغفر الله في اليوم واللييلة سبعين مرة) فلا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى — والله أعلم — .

ثم أخبر سبحانه ما أتى نبيه سليمان صلى الله عليه من عظيم ملكه الذي لا ينبغي لأحد أن يملكه بعده فقال : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ ولم يرد الحسد لغيره ، لكن كان في بيت الملك فطلب ملكا خارقا للعادة بالغأ حد الإعجاز ، يدل على نبوته فيصدق وقيل : كان ملكا عظيما فخاف أن لا يحافظ عليه غيره فيه على حدود الله تعالى ، وقدم الاستغفار على الاستيهاب جريا على عادة الصالحين في تقديم أمر الدين على الدنيا .

ثم قال : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ أي : الكثير المواهب ، دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا ؛ لأن سليمان طلب المغفرة أولا ، ثم بعده طلب المملكة أيضا ، وأيضا الآية تدل على أن طلب المغفرة من الله سبب لانفتاح أبواب الخيرات في الدنيا ؛ لأن سليمان طلب المغفرة أولا ، ثم توسل به إلى طلب المملكة ، ونوح عليه السلام هكذا فعل أيضا ؛ لأنه تعالى يحكي عنه أنه قال : ﴿ وَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ

وبنين ﴿١﴾ وقال محمد ﷺ : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك ﴾ ﴿٢﴾ .

ثم ذكر سبحانه أنه آتاه الرياح غدوها شهر ورواحها شهر ، وذكر ما آتاه من صفد الجن واستعمالهم فيما أحب من الأعمال لفضل قوتهم ، ولما لهم من لطيف الاحتيال ، فذكر في ذلك سبحانه ما ذكر من القصص والأخبار حين يقول : ﴿ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً ﴾ ﴿٣﴾ لينة طيبة لا تزعزع ، وقيل : مطيعة لا

(١) نوح : ١٠ - ١٢ .

(٢) طه : ١٣٢ .

(٣) قال الإمام الحسين بن القاسم العياشي في بقية تفسيره لهذه السورة :

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ أي : حيث قصد وتوجه ، وقيل : ﴿ رخاء ﴾ ريح طيبة ، غير عاصفة ، ومعنى قوله : ﴿ والشياطين كل بناء وغواص ﴾ الغواص : هو الذي يغوص في البحر ، قال :

أو درة أخرج الغواص صافية قد كان جاورها في اليم نعبوب

﴿ وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ أي : في الأغلال ، قال الشاعر :

هلا عطف على ابن أمك معبد والعامري يقوده بصفاد

وقال آخر :

وزيد الخيل قد شدت يداه إليه فما يرى غير الصفاد

﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ أي : أعطى وتفضل ، أو أمسك في الجنس من شئت بغير حساب منا لك على ما تفعل من حكمك .

ومعنى ما ذكره الله من قصة أيوب صلى الله عليه حين يقول : ﴿ مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾ أي : بتعب وغم ، وروي أن الشيطان خاطبه ، ووشى إليه بزوجه أنها أهانت ضيفه ، حتى حلف ليضرها ، ثم نظر وتبين فندم ، وحزن على خطيئته وعجلته ، حتى طرحه الغم والحزن ، ومرض وسقم وامتنح ، ثم دعا ربه عز وجل فرحم دعاءه ، وأجاب ندائه ، وقال له : ﴿ اركض برحلك ﴾ يفحص الأرض برحله فخرج عليه ماء بارد ، فاغتسل به ، وشرب منه ، وذهب عنه المرض ، والوصب ، وزال عنه بحمد الله الغم والنصب ، ووهب له أهله ، وزاده مثلهم معهم رحمة من سيدنا ، وإحسانا ، وتذكرا لأولي الألباب ، وبيانا لهم ، قال عز وجل : ﴿ فخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنت ﴾ والضعف : هو جماعة القضبان المجتمعة المشتبكة من العيدان ،

فضرب زوجته بتلك القضبان مجموعة لير قسمه ولا يثنت ولا يأثم في مجنه ، ومعنى قوله : ﴿أولي الأيدي والأبصار﴾ الأيدي : هن الأيدي والفضائل ، والأبصار : هي البصائر واليقين والمعرفة ، والمعرفة والعلم والدين . ﴿إنا أخلصناهم﴾ أي : طهرناهم وصفيناهم ﴿بخالصة ذكرى الدار﴾ أي : بالموعظة الخالصة ، وذكر دار الآخرة ، وما فيها من النعيم والعذاب الأليم ، فلما ذكرناهم بذلك اعتبروا ، وأخلصوا من الذنب وطهروا ، فهذا أحسن ما أرى ، والله أعلم وأحكم .

﴿هذا ذكر﴾ أي : مدح لهم وشرف وقدر ، ويحتمل وجها آخر ﴿هذا ذكر﴾ أي : هذا تذكير منا لكم بما قصصنا من الأخبار عليكم ، ومعنى قوله : ﴿ما له من نفاق﴾ أي : من فراغ ولا زوال ، ومعنى قوله : ﴿وبئس المهاد﴾ أي : بئس الفراش والمهاد : هو التمهيد ، وهو التوطئة للفراش والتمديد . قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه : (ولم أبت في مرقد محمد) .

ومعنى قوله : ﴿حميم وغساق﴾ الغساق : هو الحر الشديد ، وقال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه : طعمهم الزقوم فيها وشربهم حميم وغساق لا يسوغ من الحر

﴿وآخر من شكله أزواج﴾ أي : وعذاب آخر من شكل الحميم الغساق ، أي : من جنسه في شدة الحر والعذاب . ومعنى قوله : ﴿أزواج﴾ أي : أصناف من الهوان ، وأنواع وألوان ﴿هذا فوج مقتحم﴾ أي : جماعة داخلة معكم في النار ﴿لا مرحبا بهم﴾ أي : لا سعة لهم ولا خير ، والعرب تقول لمن يعادياها إذا رأوه مقبلا : لا مرحبا به ، ومعنى قوله : ﴿ضعفا في النار﴾ الضعف : هو الزيادة ، ومعنى قولهم : ﴿اتخذناهم سخرى﴾ أي : هزأ ﴿قل هو نبي عظيم﴾ أي : خير عظيم ، يعني القرآن ، ومعنى قوله : ﴿بالملا الأعلى﴾ أي : الخلق الأعلى ، يعني الملائكة صلوات الله عليهم أجمعين .

ومعنى قوله : ﴿إذ يختصمون﴾ أي : يتناحون ، ومعنى قوله : ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ أي : من أمري ، لمثل قوله : ﴿وادخلي نحتي﴾ لما كان الروح والجنة له ملكا مملوكا ، ومعنى قوله : ﴿لما خلقت بيدي﴾ أي : بقوتي ، قال الشاعر :

تحملت من أسماء ما ليس لي به ولا للجبال الراسيات يدان

لأن الجبال ليس لها أيدي ، ومعنى ﴿العالين﴾ أي : المرتفعين عن صفة المخلوقين ، هذا توقيف للعين عن تكبره عن الدين ، وكفره برب العالمين ﴿فإنك رحيم﴾ أي : مرحوم مبعذ مذموم لعين ، واللعنة : السخط والإبعاد بالطرد ، قال الشاعر :

ذعرت به القطا ونفقت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

أي : الطريد ، ومعنى قوله : ﴿فإنك من المنظرين﴾ أي : من الجن الذين أنظرناهم إلى يوم الصيحة ، وهلاك الخلق أجمعين .

معنى قوله : ﴿المخلصين﴾ أي : الذين أخلصهم رب العالمين ، وطهرهم عن نجاسة الفاسقين ﴿لأملأن جهنم منكم﴾ أي : من أصحابك وأشياعك ، ومعنى قوله : ﴿ومن تبعك منهم أجمعين﴾ أي : ممن تبع فعلك

تَمْتَنَعُ ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي : قصد وتوجه ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ أي : وسخرنا الشياطين ،
أي : الجن ﴿كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ﴾ بدل من الشياطين ^(١) ، كانوا يبتنون له ما يشاء من
الأبنية ، ويغوصون في البحر فيستخرجون اللؤلؤ ، وهو أول من استخرج الدر ،
والغواص : هو الذي يغوص [في] البحر ، قال الشاعر :

أو ذرة أخرج الغواص صافية قد كان جاورها في اليم يعبوب
ثم قال : ﴿وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ ومعناه : أنه كان يقرن مردة الشياطين
بعضهم إلى بعض للتأديب ، والأصفاد : القيود ، واحدها صفة ، والأصفاد :
الأغلال ، قال الشاعر :

هلا عطف على ابن عمك معبد والعامري يقوده بصفاد

وقال آخر :

وزيد الخليل قد شدت يداه إليه فما يرى غير الصفاد
وفي التحرير : الصفد : القيد ، وسمي به العطاء ؛ لأنه ارتباط للمنعم عليه ، وفرقوا
بين الفعلين ، فقالوا : صفده : قيده ، وأصفده : أعطاه .

وكفر ابله وعصاه كعصيتك ، وتكرر وتجر مثل تكررك ، ومعنى قوله : ﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾ أي :
من أجرة ، ولا عطاء قال الشاعر : (قياما لديه يعملون بلا أجر ولا عطا) .

﴿وما أنا من المتكلفين﴾ يعني الذين يتكلفون الكذب واختراعه ، ويعملون به ويقولون : ﴿ولتعلمن نبأه بعد
حين﴾ أي : خبره بعد زمان ، قال الشاعر :

ألا من لقلب يعرف الناس ما به ولا يسترجي منه السلو لحين

أي : الزمان

(١) فالشياطين : عطف على الريح ، و ﴿كل بناء وغواص﴾ بدل من الشياطين ، ﴿وآخرين﴾ عطف على
كل ، داخل في حكم البدل ، وهو بدل الكل من الكل ، وينبغي أن تكون الألف واللام للعهد إلى الشياطين
المسخرين ، حتى يصح كونه بدل الكل ؛ لأن مطلق الشياطين وجنسهم غير منحصر في المذكورين . (حاشية
العلوي ص ٢١٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا ﴾ في المشار إليه قولان ، أحدهما : أنه جميع ما أعطي من الملك والمال ، ثم قال : ﴿ فَاْمُنْ ﴾ من المنة ، وهي العطاء ، أي : أعط من شئت ﴿ أَوْ أَمْسِكْ ﴾ امنع من شئت ، والمن : الإحسان إلى من لا يطلب ثوابه .

والثاني : أنه إشارة إلى الشياطين المسخرين ، قال محمد بن القاسم عليها السلام هذا في أسرى الجن المصفدين الذين ذكر الله أنهم في الأسار مقرنين ، فأخبر تبارك وتعالى بأنه قد ملكه إياهم ، فإن شاء منَّ عليهم وخلاهم ، وإن شاء أمسكهم بغير حساب من الله يخافه فيهم . اهـ

والمعنى : فامنن على من شئت منهم بإطلاقه ، أو أمسك من شئت منهم في القيود وفي قوله : ﴿ بَغِيرِ حِسَابٍ ﴾ قولان ، أحدهما : أنه لا حساب عليه من الله تعالى ، ولا إثم في المن والإمساك على حسب القولين ، قال الحسن : لا تبعة عليك في العطية ، إن أعطى أجر وإن لم يُعْطَ لم يكن عليه وزر ، خصه الله بذلك .

والثاني : أن ﴿ بَغِيرِ حِسَابٍ ﴾ راجع إلى ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا ﴾ كأنه قال : هذا عطاؤنا بغير حساب فامنن أو أمسك ، وله معنيان ، أحدهما : الكثرة ، والثاني : أنه لا ينقص من أجره شيء بسبب هذا العطاء .

ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به على سليمان في الدنيا أردفه بإنعامه عليه في الآخرة ، فقال : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى ﴾ قد مر تفسيره آنفاً ^(١) ﴿ وَحُسْنِ مَّآبٍ ﴾ مرجع ، وهو الجنة

القصة الثالثة قصة النبي أيوب عليه السلام

ثم أخبر تعالى بشرح قصة أيوب عليه السلام وهي القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة فقال سبحانه : ﴿ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى ﴾ أي : حين نادى ﴿ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ .

(١) وذلك ما تقدم في أوائل قصة داود عليه السلام ، وقد مر أن معنى زلفى : درجة رغبة وقربة .

واعلم أن داود وسليمان كانا ممن أفاض الله عليه ^(١) أصناف الآلاء والنعماء ، وأيوب كان ممن خصه الله تعالى بأنواع البلاء ، والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار ، كأن الله تعالى قال : يا محمد اصبر على سفاهة قومك ، فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالا وجاها من داود وسليمان ، وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب ، فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد ، وأن العاقل لا بد له من الصبر على المكروه .

قال في الكشف : ﴿أيوب﴾ عطف بيان ، و﴿إذ﴾ بدل اشتغال منه ﴿أن﴾ مسني ﴿بأن﴾ مسني حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه ، ولو لم يحك لقال : بأنه مسه لأنه غائب ^(٢) .

وقرئ (نصب) بضم النون وسكون الصاد ، ويفتحها والمعنى واحد وهو التعب والمشقة ، وقال أبو عبيدة : النصب بضم النون : الضر ، ويفتحها — الإعياء ، وأراد بالعذاب : المرض والألم الذي أصابه بسبب وسوسة الشيطان إليه ، وقيل : الضر في البدن ، والعذاب في ذهاب الأهل والمال ، وإنما نسب مرضه إلى الشيطان ؛ لأن الله فعله به بسبب طاعته للشيطان فيما وسوس إليه .

وذكر في سبب بلائه أن رجلا استغاثه على ظالم فلم يغثه .

وقيل : كانت مواشيه ترعى في ناحية ملك كافر ، فداهنه ولم يغزه ، وقيل : أعجب بكثرة ماله ، كذا في التجريد .

قلت : ولعل هذا لا يصح في نبي الله ، ولا يجوز أن ينسب إلى أحد من رسل الله صلوات الله عليهم ، والصحيح ما نقله أئمتنا عليهم السلام في ذلك .

(١) في النسخة أ : (كانا ممن أفاض الله عليهما) . وما أثبتناه هو ما في النسخة ب . وهو الأولى للفظ (من) .

(٢) الكشف ٩٧/٤ .

[خطيئة نبي الله داود عليه السلام عند أهل البيت عليهم السلام]

من ذلك قول^(١) الحسين بن القاسم عليهما السلام : روي أن الشيطان خاطبه ، ووشى إليه بزوجه أنها أهانت ضيفه ، حتى حلف ليضربنها ، ثم نظر وتبين فندم ، وحزن على خطيئته وعجلته ، حتى طرحه الغم والحزن ، ومرض وسقم وامتنح .

ثم دعا ربه عز وجل فرحم دعاءه ، وأجاب نداءه فقال له : ﴿ اَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُقْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ فاغتسل وشرب منه ، وذهب منه المرض والوصب ، وزال عنه بحمد الله الغم والنصب^(٢) . اهـ .

ومن ذلك ما رواه الإمام الناصر لدين الله أحمد بن يحيى الهادي إلى الحق عليه السلام : أن السبب في ذلك : هو أن بعض المساكين وفد عند أهل أيوب ذات ليلة ، وكان أيوب غائبا فأمسى بغير عشاء ، فأصبح المسكين عازما ، فلقية أيوب ، فأخبره أنه بات طاويا ، فحلف أيوب عليه السلام ليضربن امرأته بسبب تركها المسكين بغير عشاء ، وتدبر في نفسه أنه لم يكن لها جرم ولا ذنب ؛ لأنها لم تعلم بالمسكين ، فبقي محتارا في يمينه حتى اعتل علة شديدة طويلة بسبب ذلك ، وأنزل الله براءة يمينه بعد ذلك . اهـ .

ومن ذلك في معنى هذه الآية وسببها تفسيراً وتأكيذا لما مضى يقول الهادي إلى الحق عليه السلام : معنى ﴿ مسني الشيطان ﴾ فهو ما كان من كلامه ووسوسته ، وذلك أن أيوب صلى الله عليه كان قد جعل ضيافته أضيافه إلى امرأته ، فأتاه إبليس اللعين فقال : يا أيوب إن امرأتك قد فضحتك اليوم في أضيافك فأتاها فقال : ما حملك على أن تفضحيني في أضيافي ، أقسم لأضربنك مائة ضربة بالعصا ، فلما هم بالذي أقسم به من ضربها أتاه اللعين إبليس فقال : يا أيوب سبحان الله أيحل لك أن تضرب امرأة ضعيفة لم تجرم جرما ، ولم تأت قبيحا ؟ ولم تفعل أمرا يستحق منك

(١) في النسخة ب : (قال الحسين بن القاسم عليهما السلام ..)

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياشي عليهما السلام أوائل هذه السورة .

ضرباً ، وليس لها قوة على ضربة واحدة ، ولا تهلكها ، وتأثم بربك في أمرها ، فلما تركها وكف عنها أتاه من موضع آخر فقال : يا أيوب سبحان الله كيف يحل لك أن تقعد وقد حلفت لتضربنها ، ولا ترجع عن يمينك ، ولا تأثم بالله ربك ؟ فلما رجع إليها ليضربها أتاه بالوسوسة على مثل الذي أتاه أولاً ، فلم يزل يفعل ذلك حتى دخله الغم ، وعظم عليه الأمر ، فانقلب على ظهره ، وجعل يفكر وينظر ، وخالطه من الوسوسة ما غلبه على أمره ، فلم يزل كذلك حتى تَقَرَّحَ ظهره ، ولزمه الأمرُ العظيم ، وشدَّ به الأمر ، وتماادت به العلة ، وذهبت ماشيته ، وافترق ماله ، ومات أولاده ، ومرضت المرأة من الغم والحزن ، فلما رأى ذلك من كان معه في المنزل أخرجوه صلى الله عليه إلى ناحية منه على خط الطريق ، وليس يقدر أن يرفع يداً ولا رجلاً ، واشتد به البلاء ، وهو مع ذلك صابر محتسب ، فلما كان يوم^(١) من الأيام مضى به نفر ، فلما رأوه ونظروا إلى ما هو فيه من عظيم البلاء ، وشدة التئ ، قالوا : والله لو كان هذا ولياً لله لأجابه ولكشف ضره ، ولما أصابه شيء من هذا ، فلما سمع ذلك من قولهم ، نادى ربه ﴿أني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾ فجاز أن يقول : مسني الشيطان لما أن كان ذلك من وسوسته وكيدِه وسببه ، فاستجاب الله له ، فقال : ﴿اركض برحلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ ولم يقدر أن يرفع يداً ولا رجلاً ، فضرب بعقبه فانبعثت عليه عين فقارت وارتفعت حتى كانت أكبر من جلسته ، فجعلت تنسكب عليه ، وهو يغتسل بمائها ، وهي تطلع عنه كل ميت ، وتنقي عنه كل ما كان من الأقدار ، وتميط عنه الأذى ، وجعل يشرب منها ويخرج ما في جوفه ، حتى نقي بدنه ، ورجع إلى أفضل ما كان عليه أولاً ، ورد الله عليه أهله وماله ، وأمره أن يأخذ ضغثاً فيضرب به المرأة كفارة اليمين التي حلف ، فقال

(١) في النسخة : أ ، والنسخة ب : (فلما كان يوماً من الأيام) والصواب : يوم ؛ لأنه لا يصح أن يكون أيوب اسم كان . وكان هنا تامة ، ويوم فاعل .

بعض الرواة : إنه أخذ من هذا الذي يكون فيه التمر ، فجمع منه مائة غصن فضرها به ضربة ، وقال بعضهم : ضرها ضربتين ، واختلف في ذلك ، غير أن الصحيح من ذلك أنه جمع ضغنا فضرها به .

فإن قال قائل : كيف كان إتيان إبليس إلى أيوب صلى الله عليه ؟ قيل له : لم يره عيانا ، وإنما سمع كلامه ، ولم يدرك شخصه ، وقد قال بعض الجهلة : إنه تصور له في صورة غير صورته ، وليس ذلك كما قالوا ، وكيف يقدر مخلوق أن يغير خلقته ، ويحول نفسه صورا مختلفة ، وليس يقدر على ذلك إلا الله رب العالمين ، الذي خلق الصور والأجسام ، ونقلها من حال إلى حال فسيحان الله رب العزة عما يصفون ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . اهـ

وقوله : ﴿ اركض برجلك ﴾ حكاية ما أجيب به ، أي : قيل له : اضرب برجلك الأرض ، فضر برجلك فنبعت عين ، وهذا ببلد الشام ، فقيل : ﴿ هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ أي : هذا ماء بارد تغتسل به ، وتشرب منه فيراً باطنك وظاهره .

أما قوله تعالى : ﴿ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ ﴾ فقد قيل فيه عين أهله ، وقيل : مثلهم ، والأول أولى ؛ لأنه هو الظاهر فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة ، ثم اختلفوا فقال بعضهم : معناه : أزلنا عنهم السقم فعادوا أصحاء .

وقال بعضهم : بل حضروا بعد أن غابوا عنه ، واجتمعوا بعد أن تفرقوا .

وقال بعضهم : بل تمكن منهم وتمكنوا منه ، فيما يتصل بالعشرة وبالخدمة .

وقال الحسن : المراد بهبة الأهل أنه تعالى أحياهم بعد أن هلكوا ، أي : أحيينا

أولاده ؛ لأنه بُلي بالمرض في بدنه وذهاب ماله ، وكان له سبعة بنين ، وسبع بنات .

ثم قال : ﴿ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ أي : نوافل ، وهو بنو البنين ، يريد تعالى : أنه متعه بصحته

وبماله ، وقواه حتى كثر نسله ، وصار أهله ضعف ما كان ، أو أضعاف ذلك .

ثم قال سبحانه : ﴿ وَرَحْمَةً مِنَّا ﴾ أي : إنما فعلنا كل هذه الأفعال على سبيل الفضل والرحمة لا على سبيل اللزوم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَذِكْرَى لَأَوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾ الألباب : العقول ، أي : تذكرة وموعظة لهم ليرغبهم في الصبر ، وفي عاقبة الصابرين ، إذا سمعوا بصبر أيوب وعاقبته ، والمقصود التنبيه على ما وقع ابتداء الكلام به ، وهو قوله تعالى لمحمد ﷺ :

﴿ اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ﴾ .

ثم قال سبحانه : ﴿ وَخُذْ يَدِكَ ضِعْفًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ ﴾ قال الحسين بن القاسم عليه السلام : الضغث : هو جماعة القصبان المجتمعة المشتبكة من العيدان فضرب زوجته بتلك القصبان مجموعة لير قسمه ، ولا يحنث في يمينه . اهـ

وقيل : الضغث : هو الحزمة الصغيرة من حشيش أو نحوه .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ وشكواه إلى الله لا تسمى جزعا ، وكذا إلى الطبيب لا يخرجها عن حد الصبر ؛ لأن صبر الناس على البلاء لا يخلو من تمحي العافية ، وقيل : إنما طلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة ، فيقولون : لو كان نبيا لما أصابه ما أصاب ؛ وليقوى على الطاعة فقد بلغ من أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان .

ثم قال تعالى : ﴿ نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي : رجّاع إلى الله تعالى تَوَّاب ، وهذا يدل على أن تشریف ﴿ نعم العبد ﴾ إنما حصل لكونه أَوَّابا .

ولما كان المقصود من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام هو التأسي بفعلهم ، والإقتداء بهم في صبرهم في الله عز وجل — ذكر تعالى بعد هؤلاء قصة إبراهيم عليه السلام وصبره ، وسائر الأنبياء عليهم السلام كذلك ، فقال سبحانه : ﴿ وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ وهو ابن إسحاق بن إبراهيم ، قرأ ابن كثير : (عبدنا) على الواحد ، وهو قراءة ابن عباس ، وقرأ الباقر : (عبادنا) قالوا : لأن غير إبراهيم من

الأنبياء قد أجري عليه هذا الوصف ، فجاء في عيسى : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾ ^(١) وفي أيوب ﴿ نعم العبد ﴾ وفي نوح ﴿ إنه كان عبدا شكورا ﴾ ^(٢) فمن قرأ : (عبدنا) جعل إبراهيم وحده عطف بيان له ، ثم عطف ذريته على عبدنا ، وهو إسحاق ويعقوب ، ومن قرأ (عبادنا) جعل إبراهيم وإسحاق ويعقوب عطف بيان لعبادنا ، والمعنى في الآية كأنه تعالى قال : فاصبر على ما يقولون ﴿ واذكر عبدنا داود ﴾ إلى أن قال : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم ﴾ أي : واذكر يا محمد صبر إبراهيم حين ألقى في النار ، وصبر ولده للذبح ، وصبر يعقوب حين فقد ولده ، وذهب بصره .

ثم قال تعالى : ﴿ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ أي : البصائر ، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ولا يفكرون أفكار ذوي الديانات لا يقدرّون على أعمال جوارحهم ، ومسؤولي العقول لا استبصار لهم ، والمراد بالأيدي : أعمال الآخرة ، ولما كانت الأعمال تباشر بالأيدي غلبت ، فقليل في كل عمل : هذا ما عملت أيديهم ، وإن كان لا يباشر بالأيدي ، والمعنى : الذين انتفعوا بالأيدي والأبصار فيما يقرهم من الله ، ويباعدهم من غضبه ، وكأن غيرهم ممن لم يعمل كعملهم لا أيدي لهم ولا أبصار .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ ﴾ أي : جعلناهم لنا خالصين ، وقوله : ﴿ بِخَالَصَةٍ ﴾ أي : بخصلة خالصة لا شوب فيها ، ثم فسرّها بأنها ﴿ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ أي : تذكرهم الدار الآخرة دائماً لا ينسوها ، أو تذكرهم لغيرهم إياها ، وترغيبهم فيها ، ومعنى الباء في ﴿ بخالصة ﴾ تحتل السببية ، أي : أخلصناهم بسبب هذه الخصلة ، ويحتمل أن يريد : أخلصناهم بتوفيقهم لها ، واللفظ بهم في اختيارها فلا تكون للسببية ^(٣) .

(١) الزخرف : ٥٩ .

(٢) الإسراء : ٣ .

(٣) قال السيد العلوي في حاشيته على الكشف : وقال الزجاج ، وأبو البقاء : يجوز أن يكون ذكرى الدار بدل من خالصة ، وإضافة خالصة إلى ﴿ ذكرى الدار ﴾ على قراءة نافع للبيان ، كخاتم فضة ، ذكره أبو

وقرأ نافع بإضافة خالصة إلى ﴿ذكرى﴾ والمعنى : أخلصناهم بإخلاصهم ذكرى الدار بالخوف منها ، وقال ابن زيد : أخلصناهم بأفضل ما في الجنة . قاله في التجريد وقال الهادي إلى الحق عليه السلام : معنى ﴿واذكر عبادنا﴾ هو اذكر فعلهم وصبرهم فينا ولنا ، فاقتد به ، ومعنى ﴿أولي﴾ فهو أهل ، و﴿الأيدي﴾ فهي الحسنات المقدمات التي أسدوها إلى أنفسهم بطاعة ربهم ، والعمل بمروءة خالقهم ، فكانت أفعالهم الحسنة من طاعة الله والإخلاص له أياد قدموها لأنفسهم إلى الله عز وجل ، وعلى ذلك يخرج معنى قوله تعالى : ﴿بل يدها مبسوطتان﴾ ^(١) يريد : أفعاله الحسنة ، وأياديه — إلى خلقه — الجميلة ^(٢) ، ومعنى ﴿الأبصار﴾ فهو الاستبصار في أمر الله والمعرفة والعلم به ، وعلى ذلك يخرج معنى قوله عز وجل في نفسه ﴿سميعا بصيرا﴾ يريد عليما خبيرا ﴿إنا أخلصناهم﴾ يريد : أنا اختصصناهم بخاصة ، وجعلناها لهم وفيهم ، ومعنى ﴿ذكرى الدار﴾ فهو : بقاء ذكرهم في دار الدنيا بما ذكرهم به في كتابه ، بقاء ذكرهم باق في ذريتهم وغير ذريتهم إلى يوم القيامة ،

البقاء ، أو الخالصة مصدر بمعنى الإخلاص ، مضاف إلى المفعول ، أي : بإخلاصهم ذكرى الدار ، وقيل : بمعنى الخلوص ، فالإضافة إلى الفاعل ، أي : بأن خلصت لهم ذكرى الدار ، وعن بعضهم : خالصة . اسم فاعل تقديره : بخالص ذكرى الدار ، أي : خالص أن يشاب بغيره ، وقرئ بتووين خالصة فيجوز أن يكون ذكرى في موضع نصب مفعول خالصة ، أو على إضمار أعني ، وأن يكون في موضع رفع فاعل على خالصة ، أو على تقدير : هي ذكرى .. ثم قال : قال أبو البقاء إضافة الذكرى إلى الدار إضافة في المعنى إلى الظرف ، أي : ذكرهم في الدار الدنيا ، وهو إما مفعول به على السعة ، نحو : يا سارق الليلة ، أو على حذف حرف الجر نحو : ذهب الشام ، وقال الجوهري : الذكر والذكرى : تقيض النسيان ، وذكرته بقلبي ولساني ، والذكر : الصيت والثناء ، وقول المصنف ومعنى ﴿ذكرى الدار﴾ ذكرهم الآخرة دائما منبئ على أن الذكرى تقيض النسيان ... وقوله : أو تذكرهم .. على أنها من الذكر اللساني .. ثم قال : قوله : ويعضد الأول ، وهو أن الباء للسببية ، والمعنى : بسبب هذه الخصلة ، وبأنهم من أهلها ؛ لأن الظاهر من إضافتها إليهم هو أنها فعلهم ، وهو من إضافة المصدر إلى الفاعل .

(١) المائدة : ٦٤ .

(٢) صفة لأيديه .

وذلك سؤال إبراهيم صلى الله عليه وآله لربه حين قال : ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ ^(١) يريد اجعل لي ذكرا بخير في الآخرين ، يقول : من بعدي من أهل هذه الدار إلى يوم الدين ، فأجابه الله ، وأخبر بما جعل له من الذكر الباقي في هذه الدار .

ثم أخبر أنهم عنده في دار الآخرة الباقية أعظم منهم ذكرا في الدار الفانية فقال : ﴿ وَإِلَهُمْ عِنْدَنَا ﴾ يريد : في آخرتنا ودار ثوابنا ﴿ لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ ^(٢) . اهـ

ثم قال : ﴿ وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ ﴾ هو ابن إبراهيم ﴿ وَالْيَسَعَ ﴾ هو نبي ، كأن حرف التعريف دخل على يسع ﴿ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ أي : ذا الحظ من الله ، قيل : كان له ضعف عمل الأنبياء ، قيل : هو إلياس ، وقيل : زكرياء ، وقيل : يوشع بن نون .

ثم قال : ﴿ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ فهؤلاء الأنبياء تحملوا الشدائد في دين الله ، وهاهنا آخر الكلام في قصص الأنبياء عليهم السلام في هذه السورة .

ثم قال تعالى : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ أي : هذا شرف ، وذكر جميل لهؤلاء الأنبياء يُذَكَّرُونَ به أبدا قال الهادي عليه السلام : يقول : اذكرهم بأنهم ممن جعلنا لهم الذكر في دار الدنيا ، وفي الآخرة مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ألا ترى كيف قال : ﴿ هذا ذكر ﴾ يقول : ذكرنا لهم في هذه السورة ذكر باق لهم ، كما سأل إبراهيم ربه إلى يوم الدين ^(٣) . اهـ

وقيل ^(٤) : المعنى أن هذا نوع من الذكر الذي هو القرآن ، فيه أخبار الأنبياء ، ونذكر عقيقه نوعا آخر من الذكر والقرآن ، وهو ذكر الجنة وأهلها ، كما يقول مَنْ صَنَّفَ : هذا باب ، ونشرع في باب آخر ، ونحو ذلك .

(١) الشعراء : ٨٤ .

(٢) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٣٨ .

(٣) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ .

(٤) في النسخة ب (قال بعضهم : المعنى ..) .

وعن ابن عباس : هذا ذكر من مضى من الأنبياء ، أي : خبرهم وقصتهم ؛ لأنه تعالى إنما شرع في ذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام لأجل أن يُصبرَ محمداً ﷺ على تحمل سفاهة قومه ، فلما تم هذا الطريق وأراد أن يذكر عقيبه طريقاً آخر يوجب الصبر على سفاهة الجاهل لا جرم قال : ﴿ هذا ذكر ﴾ .

ثم شرع في تقرير الباب الثاني فقال : ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ والدليل عليه أنه لما تم ذكر أهل الجنة ، وأراد أن يردفه بذكر أهل النار قال : ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب ﴾ ومعنى قوله تعالى : ﴿ لحسن مآب ﴾ أي : لحسن مرجع ، ثم فسره بقوله : ﴿ جَنَّاتٍ عَذْنٍ ﴾ وهو بدل من قوله : ﴿ لحسن مآب ﴾ قيل : عدن بمعنى إقامة ، وقيل : جنات عدن علم^(١) لجنات مخصوصة بحسن زائد ، من عدن بالمكان أقام فيه .

ثم قال : ﴿ مُفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ اعلم أنه تعالى وصف من أحوال أهل الجنة في هذه الآية أشياء الأول : أحوال مساكنهم ، فقوله : ﴿ جنات ﴾ تدل على أمرين ، أحدهما : كونها جنات وبساتين ، والثاني : كونها دائمة آمنة من الانقضاء ، وفي قوله : ﴿ مفتحة لهم الأبواب ﴾ وجوه ، الأول : أن يكون المعنى أن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا صاحب الجنة فتحوا له أبوابها ، وحيوه بالسلام ، فيدخل كذلك مخفوفاً بالملائكة ، على أعز حال وأجمل هيئة ، قال تعالى : ﴿ حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طيبتم فادخلوها خالدين ﴾^(٢) .

والثاني : قال ابن جرير : فائدة ذكر تفتيح الأبواب ، أنه أراد أنها تفتح بغير أيدي سكاتها ، ولكن بالأمر .

وعن الحسن : هي أبواب تكلم فتمثل ، انفتحي انغلقي ، ثم قال : ﴿ مُتَكِينٍ ﴾

(١) يعني : أن (عدن) علم ، ولهذا احتيج إلى وصفه بالجملة في قوله تعالى : ﴿ جنات عدن التي وعد الرحمن عباده ﴾ فلم تكن معرفة لما احتيج إلى ذلك ، وانتصاهما على أنها عطف بيان لحسن مآب . ومفتحة : حال .

(٢) الزمر : ٧٣ .

فِيهَا ﴿ عَلَى الْفَرْشِ الَّتِي بَطَانَتُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ، وَظَهَائِرُهَا مِنْ سَنْدَسٍ ، وَقَوْلٌ : ﴿ مَتَكِّئِينَ فِيهَا ﴾ . حَالٌ قَدِمَتْ عَلَى الْعَامِلِ فِيهَا ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا ﴾ . وَالْمَعْنَى : يَدْعُونَ فِي الْجَنَاتِ مَتَكِّئِينَ فِيهَا ﴿ بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ وَهِيَ مَا يَتَلَذَّذُ بِهِ مِنَ الثَّمَارِ ﴿ وَشُرَابٍ ﴾ عَظِيمٍ لَا يُوصَفُ ^(١) ، وَالسَّبَبُ فِي ذِكْرِ هَذَا الْمَعْنَى أَنَّ دِيَارَ الْعَرَبِ حَارَةٌ قَلِيلَةُ الْفَوَاكِهِ وَالْأَشْرِبَةِ ، فَرَغِبَهُمُ اللَّهُ فِيهِ .

وَلَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَمْرِ الْمَسْكَنِ ، وَأَمْرِ الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ ، ذَكَرَ عَقِيْبَهُ أَمْرَ الْمُنْكُوحِ ، فَقَالَ : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ . هُنَّ حُورٌ قَصْرُنَ أَبْصَارِهِنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ ، لَا يَمُدُّنَ طَرْفًا إِلَى غَيْرِهِمْ ، مَقْصُورَاتُ الْقَلْبِ عَلَى مَحَبَّتِهِمْ ، وَمَعْنَى ﴿ أَتْرَابٍ ﴾ أَيُ : لَدَاتٍ بَعْضُهُنَّ فِي سَنِّ بَعْضٍ ؛ لِأَنَّ الْحُبَّةَ بَيْنَ الْأَقْرَانِ أَثْبَتٌ ، وَفَائِدَةُ الْوَصْفِ بِذَلِكَ أَنَّهُ أَكْمَلُ فِي الْإِنْسَانِ وَالْحُبَّةُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مَعَ مَنْ يَسَاوِيهِ فِي السَّنِّ إِنْسَانٌ ، كَمَا أَنَّ كَوْنَهُ مَعَ مَنْ يَجَانِسُهُ وَيَمِثِّلُهُ إِنْسَانٌ ، وَقِيلَ : سَمِينٌ أَتْرَابًا لِأَنَّ التَّرَابَ مَسْهَنٌ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، أَيُ : تَرَابِ اللَّعْبِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْجَوَارِي أَتْرَابٌ ، وَيَحْتَمِلُ كَوْنَهُنَّ أَتْرَابًا لِلْأَزْوَاجِ ، قَالَ الْقِفَالُ : وَالسَّبَبُ فِي اعْتِبَارِ هَذِهِ الصِّفَةِ — أَنَّهُنَّ لَمَّا تَشَابَهْنَ فِي الصِّفَةِ وَالسَّنِّ وَالْحَلِيَّةِ ، كَانَ الْمِيلُ إِلَيْهِنَّ عَلَى السُّوِيَّةِ ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي عَدَمَ الْغِيْرَةِ

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ الْمُتَّقِينَ بِالثَّوَابِ الْمَوْصُوفِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ لَيَوْمٍ الْحِسَابِ ﴾ أَيُ : لِأَجْلِ يَوْمٍ تَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمَلَتْ ، وَهَذِهِ حِكَايَةٌ مَا يَقَالُ لَهُمْ .

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ عَنْ دَوَامِ هَذَا الثَّوَابِ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا ﴾ الَّذِي أَعَدَدْنَاهُ لَكُمْ ﴿ مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ بَلْ دَائِمٌ ، مَا أَكُلَ فِي الْجَنَّةِ مِنْ ثَمَرٍ خَلَفَ مَكَانَهُ مِثْلُهُ ، وَمَا أَكَلَ مِنْ حَيَوَانٍ عَادَ مَكَانَهُ حَيَا .

وَلَمَّا أَتَمَّ ذِكْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَأَرَادَ تَعْقِيْبَهُ بِذِكْرِ أَهْلِ النَّارِ لِيَكُونَ الْوَعِيدُ مَذْكُورًا عَقِيْبَ

(١) التَّعْظِيمُ مُسْتَفَادٌ مِنَ التَّكْمِيرِ .

الوعد ، والترهيب عقيب الترغيب ، قال : ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَأْبٍ ﴾ أي : هذا كما ذكر^(١) ﴿ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَأْبٍ ﴾ وهذا في مقابلة قوله : ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَأْبٍ ﴾ .

قال المرتضى عليه السلام : والمأب فهو : المأوى والمرجع الذي يقدمون عليه في آخرتهم ، ويصيرون إليه عند حشرهم ، والعرب تقول : أبنا موضع كذا وكذا ، أرادوا نزلنا فيه ورحناه ، وفي ذلك ما يقول الشاعر :

تَأْوِي أَهْلَكَ يَا رِكَابَ سَوَالِمَا وَيَهْنِكَ الْإِيَابَ

يريد بقوله : تأوي أي : صليهم وروحي إليهم ، ثم قال : يهنك الإياب ، أي : يهنك الوصول بالسلامة ، فأراد بقوله : يهنك أي : تستريح وتسلمي ، فلما أن كان إياب هؤلاء الطاغين إلى الآخرة جهنم ، وما أعد الله فيها من العقاب والحميم الذي يتجرعون ، والغساق والعذاب الأليم ، والهوان الشديد — كان مأبهم شر مأب . اهـ

ثم فسره بقوله : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يدخلون بينها ، ونارها من فوقهم وتحتهم كالشاة المصلية ﴿ فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ يقول : بئس القرار ، وبئس المهد والمضجع والمسكن ، والمهاد في الأصل : الفراش الوطئ الذي يمهّد للنائم ، شبه الله ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفرشه النائم ، ومعنى ﴿ بئس ﴾ الذم .

ثم قال عز وجل : ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ فيه وجهان ، الأول : أنه على التقديم والتأخير ، والتقدير : هذا حميم وغساق فليذوقوه^(٢) . الثاني : أن يكون

(١) يعني : أن ﴿ هذا ﴾ مبتدأ ، خبره محذوف ، وتقديره : هذا كما ذكر . ويجوز أن يكون التقدير : الأمر هذا ، فيكون ﴿ هذا ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره : الأمر .

(٢) يحتمل أن يكون ﴿ هذا ﴾ مبتدأ ، و ﴿ حميم وغساق ﴾ بدلا من هذا ، و ﴿ فليذوقوه ﴾ خبر ، قال مكِّي : قيل : ﴿ فليذوقوه ﴾ خبر هذا ، ودخلت الفاء للتنبيه الذي في هذا . ويحتمل أن يكون ﴿ هذا ﴾ مبتدأ و ﴿ حميم وغساق ﴾ خبر ، قال السيد العلوي : وقال صاحب الكشف : جوز أبو علي أن يكون ﴿ هذا ﴾

التقدير جهنم يصلونها فبئس المهاد ﴿هذا فليذوقوه﴾ ثم يتدئ فيقول ﴿حميم وغساق﴾ أي : منه حميم وغساق ، والحميم : الماء الحار يفور غليانا ، وأما الغساق : فقرئ مشدد السين ومخففها ، ومعناها واحد ، وفيه أقوال ، أحدها : أنه ما يغسق ، أي : يسيل من صديد أهل النار ، يقال : غسقت العين إذا سال دمعها ، قاله قتادة وغيره .

والثاني : أنه الزمهرير يحرق ببرده ، كما أن الحميم يحرق بحره ، قاله مجاهد .
والثالث : أنه واد في جهنم تسيل إليه حمة كل ذي حمة من حية أو عقرب أو غيرها ، فتستنقع فيؤتى بالجهنمي فيغمس فيه غمسة فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام ، ويَجْرُ لحمه كما يجر الرجل ثوبه ، قاله كعب .
والرابع : أنه ما يسيل من دموعهم ، قاله السدي .

وعن الحسن : أنه عذاب لا يعلمه إلا الله .
﴿وآخر من شكله﴾ قرئ (وأخر) على الجمع ، أي : ومذوقات آخر من مثل هذا في الشدة والفضاعة ﴿أزواج﴾ أي : أجناس مختلفة من الهوان أنواع وألوان .
وقرئ (وأخر) على الأفراد ، أي : وعذاب آخر ، أو مذوق آخر ، ثم فسر بأزواج الذي هو جمع ؛ لأن عذابا ومذوقا في تأويل الجمع ، كما قررنا ^(١) وأزواج صفة لآخر

مبتدأ ، والخبر ﴿حميم وغساق﴾ صفة لحميم ، وليس بنوع آخر ، فيكون قوله : ﴿فليذوقوه﴾ عنده اعتراض ، كما تقول : زيد فافهم رجل صالح ، وقال أبو علي : هو مثل قوله الشاعر :
وقائلة خولان فانكح فتاقم

حملة سيبويه على أن خولان جملة ، فكأنه قال : هولاء خولان ، فالعنى على هذا : أنه وأشير إلى الذي توعدوا به من قبل وعرفوه حتى معرفته فليذوقوه . اهـ .
وأما على الوجه الثاني : فيحتمل أنه منصوب بفعل مضمر على شريطة التفسير .

(١) قال السيد العلوي رحمه الله [وهذا على قراءة الجمع] : قال مكّي : و﴿من شكله﴾ صفة لآخر ، وأزواج الخبر ، والماء في شكله يعود على المعنى ، أي : وأواخر من شكل ما ذكرنا ، وقيل : يعود على الحميم

واعلم أنه لما وصف مسكن الطاغين ومأكلهم حكى أحوالهم مع الذين كانوا أحبابا لهم في الدنيا ، فقال تعالى : ﴿ هَذَا فَوْجٌ ﴾ أي : جماعة ﴿ مُقْتَحِمٌ ﴾ أي : داخل ﴿ مَعَكُمْ ﴾ النار في صحبتكم ، والاقترحام : ركوب الشدة ، والدخول فيها ، والقُحمة : الشدة ، أي : جمعٌ كثيف قد اقتحم معكم النار ، كما كانوا اقتحموا معكم في الجهل والضلال .

قال الكلبي : يضربون بالمقامع حتى يشبوا في النار خوفا من تلك المقامع ، فذلك سبب اقتحامهم .

وقال الواحدي : المقتحم الداخل في الشيء رميا بنفسه فيه .

وقوله : ﴿ هذا فوج ﴾ حكاية كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم .

وقيل : هو حكاية قول الطاغين بعضهم مع بعض ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ هو دعاء من الرؤساء على أتباعهم ، تقول لمن تدعوه : مرحبا ، أي : أتيت رحبا من البلاد لا ضيقا ، ثم تدخل عليه لا في دعاء السوء ﴿ قَالُوا لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ يقول الرؤساء للأتباع ، وقوله : ﴿ بِهِمْ ﴾ بيان للمدعو عليهم ﴿ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ أي : داخلوها كما دخلناها ومقاسون حرها ، والمعنى : صالون فيها كما تصلى الشاة في النار ، وهو تعليل لاستيحايم الدعاء عليهم ، فأجابه الأتباع بأن : ﴿ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَوْهُ لَنَا ﴾ أي : قدمتم العذاب لنا بإغوائكم لنا ، والمقدم عمل السوء من الأتباع ، لكن لما كان الرؤساء هم السبب فيه بالإغواء ، وكان العذاب جزاء العمل قيل : ﴿ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَوْهُ ﴾ يريدون أن الدعاء الذي دعوتكم به علينا أيها الرؤساء

ويجوز أن يكون الخير محذوفا ، أي : ولهم آخر ، و﴿ من شكله ﴾ و﴿ أزواج ﴾ صفتان ، ومن قرأ بالتوحيد رفعه بالابتداء أيضا ، و﴿ أزواج ﴾ ابتداء ثان ، و﴿ من شكله ﴾ خبر الأزواج ، والجملة خبر آخر ، ويجوز أن يكون معطوفا على حميم ، و﴿ من شكله ﴾ نعت له ، و﴿ أزواج ﴾ يرتفع بالجار والجرور ، ولا يحسن أن ﴿ أزواج ﴾ خبرا عن ﴿ آخر ﴾ لأن الجمع لا يكون خبرا عن الواحد .

أنتم أحق به ، وعللوا ذلك بقولهم : ﴿ أَنْتُمْ قَدِمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أي : العذاب أو صليهم ، وقيل : الضمير كناية عن الطغيان الذي دل عليه قوله : ﴿ وَإِنْ لِلطَّاغِينَ لَشَرٌّ مَأْبٍ ﴾ ^(١) .

وقوله : ﴿ فَبَشِّرْ الْقَرَارُ ﴾ أي : بئس المستقر والمسكن جهنم .

ثم قالت الأتباع ، أو جميع أهل النار ما حكى الله عنهم : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا الْعَذَابِ ، أَي : سببه ﴾ ﴿ فَرِذَّةٌ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ أي : مضاعفا ، وهو أن يزيد على عذاب مثله ، فيصير ضعفين .

وهاهنا آخر شرح أحوال الكفار مع الذين كانوا أحببا لهم في الدنيا .

فأما شرح أحوالهم مع الذين كانوا أعداء لهم في الدنيا فهو قوله : ﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا ﴾ أي : قال الطاغون : ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا ﴾ في النار ، [أي : قال الطاغون : ما لنا لا نرى] ^(٢) المؤمنين الذين كانوا عندنا من الأشرار ، وقيل : القائل صناديد قريش ، كأبي جهل ، يعنون عمارا ، وصهيبا ، وبلاالا ، ونحوهم من فقراء المسلمين ، الذين لا يؤبه لهم ، أو ليسوا ذوي أنساب .

ومعنى : ﴿ كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴾ أي : من الأردال الذين لا خير فيهم ؛ ولأنهم كانوا على خلاف دينهم ، فكانوا عندهم أشرارا .

ثم قالوا : ﴿ أَأَتَّخِذُكُمُ سُخْرِيًّا ﴾ أي : هزؤا ، قرئ بهمزة وصل على أنه خبر صفة لرجال ، قال أبو عبيد : وبالوصل يقرأ ؛ لأن الاستفهام متقدم في قوله : ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا ﴾ ولأن المشركين لا يشكون في اتخاذ المؤمنين سخريا ؛ لأنه تعالى قد أخبر بذلك في قوله : ﴿ فَاتَّخِذْهُمْ سُخْرِيًّا ﴾ فكيف يحسن أن يستفهموا عن شيء

(١) ص : ٥٥ .

(٢) ما بين القوسين ساقط في أ ، وثابت في ب .

علموه؟! أجاب الفراء عنه بأن قال : هذا من الاستفهام الذي معناه التعجب والتوبيخ ، ومثل هذا الاستفهام جائز على الشيء المعلوم . اهـ

ويقرأ بهمزة قطع على أنه إنكار على أنفسهم وتوبيخ لها في الاستسخرار منهم ، أي: كنا نسخر بهم في الدنيا ، أم مفقودون هم ؟ ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴾ أي : مالت عنهم أبصارنا في الآخرة فلم ترهم في النار ، وهم في النار ، وهذا أيضا على طريق الإنكار والتوبيخ لأنفسهم ؛ لأنهم قد علموا في الآخرة أن أولئك المؤمنين في الجنة ، فعلى قراءة وصل الهمزة وحمل ﴿ اتَّخَذْنَاهُمْ ﴾ على الخبر ، يكون ﴿ أَمْ زَاغَتْ ﴾ وحده توبيخا وإنكارا ، وعلى قراءة قطعها هما استفهامان بمعنى الإنكار والتوبيخ لأنفسهم ، ويحتمل أن المراد ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴾ في الدنيا فكنا نصرفها عنهم استحقارا لهم ، والله أعلم

قال الحسن : كل ذلك فعلوا ، اتخذوهم سخرى ، وزاغت عنهم أبصارهم استحقارا لهم . [والله أعلم . قال الحسن : كل ذلك فعلوا ، اتخذوهم سخرى ، وزاغت عنهم أبصارهم استحقارا لهم] ^(١)

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذه المناظرات قال : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ الذي حكينا عنهم ﴿ لَحَقُّ ﴾ لا بد أن يتكلموا به ، ثم بين ما هو فقال : ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ شبه تقاؤهم ، وما يجري بينهم من السؤال والجواب بما يجري بين المتخاصمين ؛ لأن قول الرؤساء : ﴿ لا مرحبا بهم ﴾ وقول الأتباع : ﴿ بل أنتم لا مرحبا بكم ﴾ من باب التخاصم .

ثم اعلم أنه تعالى لما حكى في أول السورة أن محمدا لما دعا الناس إلى أن الإله واحد ، وإلى أن رسول الله حق من عند الله ، وإلى أن القول بالقيامة حق ، فأولئك الكفار أظهروا السفاهة ، وقالوا : إنه ساحر كذاب ^(٢) ، واستهزؤا بقوله .

(١) ما بين أقواس الزيادة ساقط من النسخة أ ، وثابت في النسخة ب .

(٢) في النسخة ب : وقالوا : إنه شاعر كذاب .

ثم إنه تعالى ذكر قصص الأنبياء لوجهين ، الأول : ليصير ذلك حاملا لمحمد ﷺ على التأسي بالأنبياء عليهم السلام في الصبر على سفاهة القوم .

والثاني : ليصير ذلك رادعا للكفار عن الإصرار عن الكفر والسفاهة ، وداعيا لهم إلى قبول الإيمان .

ولما تم الله تعالى ذلك الطريق أردفه بطريق آخر ، وهو شرح نعم أهل الثواب ، وشرح عقاب أهل العقاب ، فلما تم الله هذه البيانات عاد إلى تقرير المطالب المذكورة في أول السورة ، وهي تقرير التوحيد والنبوة والبعث ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لمشركي مكة ﴿ إِلَٰهًا أَنَا مُنذِرٌ ﴾ أي : ما أنا إلا منذر لكم من عذاب الله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أي : أقول لكم : إن دين الحق هو توحيد الله ، وأن تعتقدوا أن لا إله إلا الله ﴿ الْوَاحِدُ ﴾ بلا ند ولا شريك ﴿ الْفَهَّارُ ﴾ لكل شئ ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي : وأقول لكم : إن الملك له في العالم ، وهو ﴿ الْغَزِيضُ ﴾ الذي لا يغالب إذا عاقب العصاة ، وهو مع ذلك ﴿ الْفَقَّارُ ﴾ لذنوب من التجأ إليه وأتاب .

واعلم أنه تعالى لما بين ذلك قال : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ هُوَ نَبَأٌ ﴾ أي : خير عظيم ﴿ عَظِيمٌ ﴾ أي : هذا الذي أنبأتكم به من كوني رسولا منذرا ، وأن الله لا شريك له نبأ عظيم ، وقيل : النبأ العظيم هو القرآن عن ابن عباس ، وقيل : البعث عن الحسن .

ثم قال : ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ ولا يعرض عنه إلا شديد الغفلة .

واعلم أن قوله : ﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ ترغيب في النظر والاستدلال ، ومنع عن التقليد ؛ لأن هذه المطالب مطالب شريفة عالية ، فإن بتقدير أن يكون الإنسان فيها على الحق ، فاز بأعظم أنواع السعادة ، فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ، ومطالب هائلة مهيبة ، وصریح العقل يوجب على الإنسان أن يأتي فيها بالاحتياط التام ، وأن لا يكتفي بالمساهلة والمساهة .

ثم احتج لصحة نبوته وخبره بقوله: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ أي : مكان السماء الدنيا ، وهم آدم والملائكة ، وإبليس أهل هذه القصة المستقبلية ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي : حين يتقاولون .

ولما أمر الله محمد ﷺ أن يذكر هذا الكلام على سبيل الرمز، أمره أن يقول : ﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي : أبين صحة الإنذار بالمعجزات ، يريد : أنما أخبرت به عن تقاولهم أمر ما كان لي به علم ، لأني ليس ممن يقرأ الكتب ، ويخالط العلماء ، وإنما علمته بالوحي ، أوحى الله إلي هذه القصة لأندرکم بها ، ولتصير هذه القصة حاملا لكم على الإخلاص في الطاعة ، والاحتراز عن الجهل والتقليد ، فكذلك ما أنذرتكم به .

قال في التحرير : وقاؤهم الله تعالى بواسطة ملكه ، والمراد بالاختصاص هو قول الله تعالى لهم على لسان ملك : ﴿إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ وقول الملائكة : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ ^(١) وقوله : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ بدل من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ وسماه اختصاصا مجازا وتوسعا ، وإن لم يكن فيه حقيقة المخاصمة ، وهي المنازعة ، وإنما كان من الملائكة سؤال استرشاد ^(٢) ، وقوله : ﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ اعتراض توسط بين الجملتين المتصلتين ، وهما ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ و﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ وهذا قول الأكثرين .

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) قيل : يلزم منه أن يكون الإسناد في ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ حقيقة ومجازا ، وهو ضعيف كما علم ، والأول أن لا يجعل ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ بدلا من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ بل يكون منصوبا بإضمار اذكر ، وتفسير المخاصمة بغير المقابلة المذكورة .

وأنا أقول : إذا حمل الاختصاص على التقاول بين الملائكة ، وهم المرادون بالمأ الأعلى ، فإسناد التقاول إليهم حقيقة ، وإن كان بعضهم يقول عن نفسه ، والآخر عن الله ، وإنما يكون الإسناد مجازا لو أسند التقاول إلى الله والملائكة معا ، وكانت مقابلة الله بواسطة ، وليس كذلك . (أفاده السيد العلوي رحمه الله) ص ٢١٧ .

وقال قوم الملائكة الأعلى : الملائكة ، واختصامهم في الكفارات والدرجات ، فأما الكفارات : فإسباغ الوضوء في السبرات ، ونقل الأقدام إلى الجماعات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، وأما الدرجات فإفشاء السلام ، وإطعام الطعام ، والصلاة بالليل والناس نيام ، جاء هذا في الحديث عن النبي ﷺ والمراد أنهم اختصموا ، أي : تناظروا ، أي هذه أفضل . اهـ

قلت : ويؤيد الأول قول الهادي عليه السلام — وما أحسن ما قال — حيث يقول : معنى ﴿ قل هو نبأ ﴾ يعني : أنما نبأهم من هذه الأخبار ، ومن أخبار الملائكة عليه السلام ﴿ نبأ عظيم ﴾ يقول : علم غيب عظيم ﴿ أنتم عنه معرضون ﴾ يقول : أنتم عن تفهمه غافلون ، والملائكة الأعلى : فهم الملائكة ، ومعنى ﴿ يختصمون ﴾ فهو يتحاورون ويحيسون ويجابون ، وذلك حين قال الله لهم : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ يريد عز وجل آدم ، فقالوا : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ فقال سبحانه : ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ ^(١) يقول : إني أعلم من بركته وبركة ما يخرج منه من المطيعين مالا تعرفونهم ، ولا تفهمونهم ، منهم من لولا هو ما خلقته ^(٢) ولا خلقت الدنيا محمد صلى الله عليه وآله ، السراج المنير ، البشير النذير ، ألا ترى كيف قال : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ومعناه : فهو قعوا من أجل ما أظهرت فيه من عظيم صنعي ساجدين ، فلما أن كان السجود من سبب آدم جاز أن يقول : ﴿ قعوا له ﴾ وإن كان الوقوع والسجود لله من دونه ، ولكن هذا على مجاز الكلام ، كما قال : ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ﴾ والقرية لا

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) الضمير في (خلقته) يعود إلى أبينا آدم عليه السلام ، أو إلى الخليفة المذكور في الآية المتقدمة ، أو إلى ﴿ بشرا ﴾ في الآية الآتية . وقوله : (محمد) بدل من (من) .

تسأل وإنما يسأل أهلها ، فلما أن كانت القرية من سبب أهلها قال : ﴿ واسأل القرية ﴾ ^(١) . اهـ

ومعنى ﴿ فإذا سويته ﴾ أي : أتممت خلقه وعدلته ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ نفخ الروح عبارة عن الإحياء ، ومعنى ﴿ من روحي ﴾ أي : من أمري ، كمثل قوله : ﴿ وادخلي جنتي ﴾ ^(٢) لما كان الروح والجنة له ملكا مملوكا ، ومعنى ﴿ فقعوا ﴾ أي : خروا له ﴿ ساجدين ﴾ ﴿ فسجد الملائكة ﴾ أي : فلما سواه ونفخ فيه من روحه سجد الملائكة ﴿ كلهم ﴾ أفاد الإحاطة ﴿ أجمعون ﴾ أفاد الاجتماع ، وأفاد الجمع بينهما أنهم سجدوا له عن آخرهم ، وفي وقت واحد ﴿ إلبا إبليس استكبر ﴾ هو من الجن ، لكن لما أمر بالسجود معهم غلبوا عليه في ﴿ فسجد الملائكة ﴾ ثم استثنى منهم استثناء متصلا ﴿ وكان من الكافرين ﴾ أريد

(١) يوسف : ٨٢ .

(٢) الفجر : ٣٠ .

(٣) قال السيد العلوي رحمه الله : قال صاحب الفرائد : يشكل ما ذكر بقوله تعالى حكاية عن إبليس ﴿ لأغوينهم أجمعين ﴾ وعن عبد القاهر : أنه قال : إن زعم من زعم أن أجمعين للاجتماع خطأ ؛ لأنه يقال : ناظرت علماء الشرق أجمعين ، ولم تكن المناظرة بالاجتماع في وقت واحد . ويمكن أن يقال : إذا كان أجمعون بدول الكل أفاد التأكيد المجرد ، وهو أن لا يخرج أحد من الفعل ، فيفيد الاجتماع في الفعل في الفعل ، ولا يفيد الاجتماع في وقت واحد ، وإذا كان مع الكل ، فالكل للإحاطة ، وأجمعون للاجتماع في وقت واحد ، وبيانه : أن اللام في الملائكة للاستغراق ، دخلت على صيغة الجمع فيفيد الشمول ، ثم أكد بقوله : ﴿ كلهم ﴾ لدفع توهم غير الشمول والإحاطة ، وأردف ﴿ أجمعون ﴾ ولا بد له من فائدة زائدة ، وليست إلا ما ذكر لفقد غيره ، أو نقول : إن (أجمعون) يفيد الاجتماع في وقت واحد حيث يمكن ، ما لم تدل قرينة على خلافه .

قال السيد العلوي : روى الزجاج عن المبرد أن (كان) لقروها على معنى الماضي ، عبارة عن كل فعل ماض ، ثم قال الزجاج : كان هو على باب سائر الأفعال إلا فيه إخبارا عن الحال فيما مضى ، إذا قلت : كان زيد عالما فقد أنبأت أن حاله فيما مضى من الدهر هذا ، وإذا قلت يكون عالما فقد أنبأت أن حاله سيقع فيما يستقبل هذا ، فهما عبارتان عن الأفعال والأحوال .

وجود كفره ذلك الوقت لا قبله ، لكن (كان) مطلق^(١) في جنس الأوقات الماضية صالح لأيها شئت ، أو في الماضية لكن في علم الله تعالى .

واعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر ، وذلك لأن إبليس إنما وقع فيما وقع بسبب الحسد والكبر ، والكفار إنما نازعوا محمدا ﷺ بسبب الحسد والكبر ، فأنه سبحانه ذكر هذه القصة هاهنا ليصير سماعها زاجرا لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين .

والحاصل أنه تعالى رغب المكلفين في النظر والاستدلال ، ومنعهم عن الإصرار والتقليد ، وذكر أمورا ، أولها : أنه نبي عظيم ، فيجب الاحتياط فيه .

والثاني : أن قصة سؤال الملائكة عن الحكمة في تخليق آدم هو المعرفة والطاعة ، لا الجهل والتكبر .

الثالث : أن إبليس إنما خصم آدم عليه السلام لأجل الحسد والكبر فيجب على العاقل أن يحترز عنها ، فهذا هو وجه النظم في هذه الآيات والله أعلم .

فإن قيل : هل أمر الجن بالسجود مع الملائكة ؟ أم خص إبليس من دونهم ؟

قلت : قال بعض ائمتنا عليهم السلام : إنه خص بالأمر من دونهم لما كان حاضرا للأمر بالسجود .

وقال المرتضى عليه السلام : إنما أمر الله سبحانه الملائكة والجن جميعا بالسجود فذكر عز وجل الأفضل ، وقدمه وهم الملائكة ، فاجتزى بذكرهم بالسجود عن ذكر غيرهم ، وذلك فموجود في اللغة ، يقول القائل للجماعة إذا كانت مجتمعة ، وكان فيها رئيس قد كاتبه وداعاه فامتنع عليه قال : عصوا وأدبروا ، وإنما حكم عليهم به ، وكان هو المكاتب والمراسل ، فحكم بفعله عليهم ، وإن كانوا لم يذكروا ولم

(١) أي : لكن لفظ (كان) مطلق في جنس الأوقات ، فكان : اسم لكن ، وقوله : مطلق . خيرها مرفوع .

يكتسبوا ، ومن ذلك قول الله عز وجل : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ ^(١) وقد كانت معصيته ومعصية حواء واحدة ، لأن الله سبحانه يقول في كتابه : ﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فدلّاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما ﴾ ثم قال : ﴿ ألم أهلكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ ^(٢) ثم قال : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ فصار المذكور بالمعصية آخر آدم ، وهما أولاً مشتركان في المعصية ، فذكر الله سبحانه معصية آدم وأغفل حواء .

وقال سبحانه : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ ^(٣) أفقول : إن الله لم يتب على حواء ؛ إذ لم يذكرها بالتوبة ؟ فإن قلنا : إنها لم تتب كنا في ذلك من الآثمين ، فاستغنى الله سبحانه بذكر آدم وتوبته عن ذكرها وتوبتها ؛ إذ كانت طريقتهما طريقته ، وتوبتها كتوبته ، وهذا أيضا موجود في اللغة ، يقال : أطاعت العرب كلها إلا فلانا الديلمي ، فلم يكن قوله : إلا فلانا الديلمي يوجب أنه عربي ، ولكنه يوجب أن يكون من المأمورين بالطاعة ، فلم يوجب هذا الاستثناء له عربية ، ولكنه يوجب أنه كان من المأمورين ، فكذلك قول الله سبحانه : ﴿ فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ﴾ يوجب أن في المأمورين بالسجود خلقا مع الملائكة سواهم ، فلذلك استثناه عز وجل ، وذكره أنه من الجن ، وقوله : ﴿ كان من الجن ﴾ يوجب أن الجن كانوا مأمورين كما يوجب قولي : أطاعت العرب كلها إلا فلانا الديلمي لأنه قد كان هو ومن كان معه في من أمر ، فاجتزيت بقولي : العرب ، عن ذكر العجم ؛ إذ جمعهم كلهم الإسلام ، كما أن الملائكة والجن جمعهم كلهم المعرفة بالله سبحانه والإقرار به ، وكيف يقدر أحد من الآدميين أن ينسبه إلى الملائكة المقربين ، والله ينسبه إلى الجن ، فلا يشك في هذا إلا عمي القلب بعيد الذهن . اهـ

(١) طه : ١٢١ .

(٢) الأعراف : ٢٢ .

(٣) البقرة : ٣٧ .

ثم قال الله تعالى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ﴾ أي : بقوتي ، قال الشاعر :

تحملت من أسماء ما ليس لي به ولا للجبال الراسيات يدان

أي : قوة ؛ لأن الجبال ليس لها أيد ، وقد سبق أن أكثر الأعمال تباشر باليدين فغلب العمل بهما وإن بوشر بغيرهما ، حتى قيل في عمل القلب ، ومن لا يد له : هذا ما عملت يداك .

وقال في التجريد : المراد التمثيل بحال من يفعل شيئاً بيده من غير واسطة ، فكأنه أراد لما خلقت بغير واسطة .

﴿ أَسْتَكَبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ يعني : استكبرت الآن أم كنت أبداً من المستكبرين العالين ، من علا وفاق ، أي : المرتفعين عن صفة المخلوقين ، هذا توقيف للعَيْنِ على تكبره وكفره برب العالمين ، وإنكاراً عليه وتوبيخاً^(١) ، وقيل : يريد أتركت ذلك لدعوى أنك كبير ولست بكبير ، أم أنت عال وفائق فأجاب بالثاني ، وهو أنه خيرٌ حيث ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ فأجاب بأنه من العالين ، وقوله : ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ يجري مجرى البيان ، وهذا على سبيل الأولى^(٢) ، أي : لو كان من نار مثلي لم أسجد له كيف لمن هو دوني من طين ، وأعتقد أن للنار فضلاً على الطين ؛ لأنها تغلبه وتأكله ؛ ولأن النار تنسى ، وقد أخطأ من وجهين ، أحدهما : في دعواه أن النار خير من الطين ، بل الطين خير من النار ؛ لأنه ينبت

(١) قال السيد العلوي رحمه الله : إنه ورد على سبيل المجازة ، وإرخاء العنان مع الخصم ، أي : هب أنه كان مخلوقاً من تراب ، فهلا نظرت إلى أمري فسجدت ، ولم تنظر إلى تلك العلة ، فلم تمتنع .

(٢) قوله : على سبيل الأولى . هذا إشارة إلى قوله : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ في قوله : فأجاب بأنه من العالين ، حيث قال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ يعني هذا المذكور أولى من الجواب المطابق ، وهو قوله : من العالين ، لأنه جواب مع العلة ، ولهذا قال : لو كان مخلوقاً من نار لما سجدت له ؛ لأنه مخلوق مثلي ، فكيف أسجد لمن هو دوني ، ولو أجاب على مقتضى الظاهر ، قال : أنا من العالين ، لم يفد هذه الفائدة . (حاشية العلوي خ ٢١٨) .

الثمار الحسنة ، والأشجار الطيبة ، ويحفظ ما أودع فيه بخلاف النار ، والثاني : أنه ليس له أن يخالف أمر الله وإن كان أفضل ، أو أصله ، فإن الملائكة أفضل من آدم ، وقد سجدوا له لأمر الله تعالى .

﴿ قَالِ فَأَخْرِجْ مِنْهَا ﴾ أي : من الجنة ، وقيل : من السموات ، وقيل : من الخلقة التي افتخرت بها ، فاسودَّ بعد ما كان أبيض ، وقُبِحَ بعد ما كان حسنا ، وأظلم بعد ما كان نورانياً^(١) ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي : مطرود من رحمة الله ، والمعنى : مرجوم مُبْعَدٌ مذموم ؛ لأن من طُرِدَ رُمِيَ بالحجارة^(٢) ، أو مرجوم بالنجوم ، وقيل : مرجوم بالذم واللعن ثم قال : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ اللعنة : هي السخط والإبعاد ، قال الشاعر :

ذعرت به القطا وبقيت عنه

مقام الذئب كالرجل اللعين

أي : الطريد .

ومعنى ﴿ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ أي : الجزاء والحساب ، وهو يوم البعث .

فإن قيل : كلمة (إلى) لانتفاء الغاية ، فقوله : ﴿ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ يقتضي انقطاع تلك اللعنة عند مجيء يوم الدين ؟ وفي الجواب احتمالان ، أحدهما وهو الذي في الكشف : أن يراد أن عليه اللعنة وحدها إلى يوم الدين ، فإن كان يوم الدين اقترن باللعنة أنواع من العذاب الشديد تصير اللعنة مع حضورها منسية^(٣) ، والثاني : أن يراد بيوم الدين الأبد الدائم ، نحو ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾^(٤)

(١) قيل : هذا يدل على أنه لم يكن كافرا قبل ذلك ، وأنه صار كافرا بعد استكباره .

(٢) قوله : لأن من طرد رمي بالحجارة . متعلق بقوله : معناه المطرود من رحمة الله ، فكأنه قال : عني بالرجيم المطرود ؛ لأن من طرد . فيكون كناية ، وقوله : أو مرجوم بالنجوم . عطف عليه ، وعلى هذا يكون تصريحاً .

(٣) يريد : أن له اللعنة في الدنيا ، وهي الطرد والتبعيد ، فقط ، فإذا كان يوم القيامة انقطع انفراد اللعنة ، وصارت مقيدة بالعذاب ، أو كأن اللعنة بالنسبة إلى العذاب إذ ذاك كلا شيء ، أي غير معتد بها ، كما اعتد بها في الدنيا ، فكأنها انقطعت .

واعلم أن إبليس لما صار ملعونا ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي : أمهلني من الموت .

قال الإمام القاسم بن علي العياشي عليه السلام : إنما طلب النظرة من العذاب ؛ لأن الجن خلق معمرين لا يموتون إلا دفعة قرب يوم القيامة .

ومثله قول القاسم بن إبراهيم والهادي عليهما السلام .

ثم ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ أي : من الجن الذين أنظرناهم إلى يوم الصيحة وهلاك الخلق أجمعين ، ثم قال تعالى : ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وهو عند النفخة الأولى التي يموت عندها الخلائق .

وصحت الإضافة في ﴿يوم الوقت﴾ لأنه عام إلى خاص ؛ لأن الوقت بعض اليوم وجزء من أجزائه ، ولأن الوقت أعم من اليوم لصحته على الليل ، ونظيره خاتم فضة أو فضة خاتم .

ومعنى وصفه بالمعلومية أنه معلوم عند الله تعالى وحده لا يعلمه غيره ، أو أراد أنه معلوم لا يتقدم ولا يتأخر .

ثم ﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ أقسم بعزة الله وهي سلطانه ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني بني آدم ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ الذين أخلصهم لدينه رب العالمين ، وطهرهم بتوفيقه من نجاسة الفاسقين ؛ لأنه لا سلطان له عليهم .

واعلم أن هذه الآية تدل على أن إبليس لا يغوي عباد الله المخلصين ، قال تعالى في قصة يوسف : ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾ ^(٢) ويحصل من مجموع هاتين الآيتين أن

والوجه الثاني الذي ذكره المصنف هو الوجه .

(١) هود : ١٠٧ / ١٠٨ .

(٢) يوسف : ٢٤ .

إبليس ما أغوى يوسف ، وذلك يدل على كذب الحشوية فيما ينسبون إلى يوسف من القبائح .

واعلم أن إبليس لما ذكر هذا الكلام ﴿ قَالَ ﴾ الله ﴿ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴾ قرأ عاصم وحمزة (فالحق) بالرفع (والحق) بالنصب ، والباقون بالنصب فيهما ، أما الرفع فتقديره : الحق قسمي ، وأما النصب فعلى القسم ، أي : بالحق كقولك : الله لأفعلن .

وأما قوله : ﴿ والحق أقول ﴾ انتصب ﴿ والحق ﴾ بقوله : ﴿ أقول ﴾ .

وفي التجريد : قوله : ﴿ فالحق ﴾ [بالنصب] مقسم به وجوابه ﴿ لأملأن ﴾ فحذف حرف القسم ، وعدي [إليه] ^(١) فعل القسم كالله في قوله :

إن عليك الله أن تبايعا تؤخذ كرها وتحيء طائعا

أقسم الله بالحق ، وقوله : ﴿ والحق أقول ﴾ اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه ، ومعناه : ولا أقول إلا الحق ، والمراد بالحق الذي أقسم به إما اسمه تعالى في قوله : ﴿ أن الله هو الحق المبين ﴾ ^(٢) أو الحق الذي هو نقيض الباطل ، عظمه الله بإقسامه به وقد قرئ بنصبهما ورفعهما وجرهما ، ورفع الأول ونصب الثاني ، وبكسر الأول ونصب الثاني ، وبنصب الأول ورفع الثاني .

فنصب الأول على أنه مقسم به فحذف حرف القسم ، وعدي إليه فعل القسم . وجره على بقاء عمل حرف القسم بعد حذفه .

ورفعه على أنه مبتدأ خبره مخذوف ، أي : فالحق قسمي .

ونصب الثاني على أنه مفعول ﴿ أقول ﴾ قدم ، ورفع على أنه مبتدأ خبره أقول ،

(١) — ما بين أقواس زيادة ساقط من أ ، وهو ثابت في النسخة ب .

(٢) النور : ٢٥ . والآية في سورة النور ، بأن المفتوحة .

أي : أقوله ، وجره على حكاية الجر في ﴿ فالحق ﴾ المقسم به ، أو قسم ثان ، كما تقول : والله والله أقول ذلك لأقومن ، و ﴿ أقول ﴾ اعتراض .

وقال الفراء : النصب في الأول على أنه مصدر مؤكد ، كقولك : حقا لا تينك ، ووجود اللام وطرحها سواء .

وقال مكّي : انتصب الأول على الإغراء ، أي : اتبعوا الحق ، والزموا الحق .
وأما الحق الثاني فيجوز إذا نصب أن يكون بأقول كما تقدم ، وأن يكون توكيدا للأول حيث ينصبان معا . اهـ

ومعنى ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ ﴾ أي : من جنسك ، وهم الشياطين ﴿ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ أي : من ذرية آدم ، وقوله : ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ تأكيد للضمير في ﴿ مِنْكَ ﴾ و ﴿ تَبِعَكَ ﴾ و ﴿ مِنْهُمْ ﴾ ومعناه : لأملأ جهم من المتبعين والتابعين ، لا أترك منهم أحداً ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي : القرآن ، أو الوحي ، أو الإسلام ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ ولا عطاء ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ المدعين ، حتى أدعي ما ليس لي من النبوة ، وأقول : إن القرآن من نفسي ، أو لم أتكلف ذلك بنفسي ، وإنما كلفني الله به حيث أمرني .

قال بعض المحققين^(١) : واعلم أن الله تعالى ختم هذه السورة بهذه الخاتمة الشريفة ، وذلك لأنه تعالى ذكر طرقا كثيرة دالة على وجوب الاحتياط في طلب الدين ، ثم قال عند الختم ، هذا الذي أدعو الناس إليه يجب أن ينظر في حال الداعي ، وفي حال الدعوة ؛ ليظهر أنه حق أو باطل ، أما الداعي وهو أنا ، فأنا لا أسألكم على هذه الدعوة أجرا ولا مالا ، ومن الظاهر أن الكذاب لا ينقطع طمعه عن طلب المال البتة ، وكان من الظاهر أنه ﷺ كان بعيدا عن الدنيا علم الرغبة فيها ، وأما كيفية

(١) في نسخة : (قال الرازي) .

الدعوة فقال : ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ والمفسرون ذكروا فيه وجوها ، والذي يغلب على ظني ^(١) أن المراد أن هذا الدين الذي أدعوكم إليه ليس ديناً يحتاج في معرفة صحته إلى التكاليف الكثيرة ، بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته ، فإني أدعوكم إلى الإقرار بوجود الله أولاً ، ثم أدعوكم [ثانياً] إلى تزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق به [يقوي ذلك] قوله : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ^(٢) وأمثاله .

ثم أدعوكم ثالثاً ^(٣) إلى الإقرار بكونه موصوفاً بكمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة ثم أدعوكم رابعاً إلى الإقرار بكونه مترها عن الشركاء والأضداد .

ثم أدعوكم خامساً إلى الامتناع من عبادة هذه الأوثان التي هي جمادات خسيسة لا منفعة في عبادتها ولا مضرة في الإعراض عنها .

ثم أدعوكم سادساً إلى تعظيم الأرواح الطاهرة المقدسة وهم الملائكة والأنبياء .

ثم أدعوكم سابعاً إلى الإقرار بالبعث والقيامة ﴿ ليحزي الذين أسأوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ ^(٤) .

ثم أدعوكم ثامناً : إلى الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة .

فهذه الأصول [الثمانية] هي الأصول القوية المعتمدة في دين محمد ﷺ ، وبدائه العقول ، وأوائل الأفكار شاهدة بصحة هذه الأصول [الثمانية] ، فثبت أني لست من المتكلفين في الشريعة التي أدعو الخلق إليها ، بل كل عقل سليم ، وطبع مستقيم فإنه يشهد بصحتها وجلالتها ، وبعدها عن الباطل والفساد ، وهو المراد من قوله : ﴿ إنَّ

(١) في الرازي (والذي يغلب على الظن) .

(٢) الشورى : ١١ .

(٣) في المصايح . ثم أدعوكم ثانياً . وفي الرازي ما أثبتناه . وما بين أقواس الزيادة من الرازي . وقد أصلحنا اللفظ منه ٢٣٦/٢٦ .

(٤) النجم : ٣١ .

هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ ﴿١﴾ أَي : ما القرآن إلا موعظة وتنبيه ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ أَي : الثقلين .
ولما بين هذه المقدمات قال تعالى : ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ﴾ أَي : ولتعلمن صحة خبر
القرآن وإنه الحق ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أَي : عند الموت ، أو يوم القيامة .
وقال الحسين بن القاسم عليه السلام : معنى ﴿بعد حين﴾ بعد زمان ، قال الشاعر :
ألا من لقلب يعرف الناس ما به ولا يرتجى منه السلو حين
وفي البرهان ﴿بعد حين﴾ بعد الموت ، وقبله لما ظهر الأمر علموه ، والمعنى :
أنكم إن أصررتم على الجهل والتقليد وأبستم قبول هذه البيانات التي ذكرناها
فستعلمون بعد حين أنكم كنتم مصيبين في هذا الإعراض ، أو مخطئين ، وذكر مثل
هذه الكلمة بعد تلك البيانات المتقدمة مما لا مزيد عليه في التخويف والترهيب —

والله أعلم

في النسخة أ :

تم الكتاب بحمد الله العزيز الوهاب ، الذي إليه المرجع والمآب ، وقت الظهر في
اليوم الخامس والعشرين أو السادس والعشرين من شهر ربيع الأول ، من سنة خمس
وسبعين وألف سنة ، وراقمه يطلب ممن اطلع عليه ، أو قرأ فيه أن يمدد بما أقدر عليه
من الدعاء ، وأجره على الله سبحانه ، كتب الفقير إلى الله الغني به عمن سواه أحمد
بن محمد بن علي بن محمد الشرفي القاسمي نسبا ، والزبيدي مذهبا ، والعدلي اعتقادا ،
رزقه الله بفضله ورحمته ومنه وعفوه رضاه ، إنه جواد كريم ، رؤوف ، رحيم ،
غني ، حكيم ، عليم ، حلیم ، والحمد لله رب العالمين .

وصلی الله على سيدنا محمد وعلى آله الأكرمين وسلم .

إلى هنا انتهى الجزء الثالث ، ويبدأ الجزء الرابع من سورة الصافات

الفهرس

سورة الجاثية	٥
بيان حال المؤمن يوم القيامة	٢٨
سورة الدخان	٣٥
كيفية نزول القرآن وترتيبه	٣٦
سورة الزخرف	٧٣
نزول عيسى عليه السلام وصلاته بعد الإمام المهدي عليه السلام	١٣١
سورة الشورى	١٤٥
دعاء نبوي عند ختم القرآن	١٦٧
تفسير آية المودة	١٦٧
الأمر بالصلاة على آل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدل على فضلهم	١٧٢
سورة السجدة	٢١٣
سورة المؤمن (غافر)	٢٦١
معنى العرش والكرسي عند أئمة أهل البيت عليهم السلام	٢٧٠
بيان جهالة من يقول : إن الله في السماء	٣٠٦
كلام الأئمة عليهم السلام في الأرواح بعد فناء الأجسام	٣١٦
سورة الزمر	٣٤٥
الفرق بين النفس والروح	٣٨٥
سورة ص	٤١٧
قصة نبي الله داود عليه السلام مع أوريا كما ذكرها الإمام الهادي (ع)	٤٣٥
قصة نبي الله داود عليه السلام عند المخالفين	٤٣٨
قصة نبي الله سليمان عليه السلام	٤٤٨
الوجه الصحيح في قصة نبي الله داود عليه السلام واستعراضه الخيل	٤٥٣
قصة نبي الله سليمان عليه السلام كما ذكرها الإمام الهادي (ع)	٤٥٩
قصة نبي الله داود عليه السلام عند أهل البيت عليهم السلام	٤٦٧

